

ذكر "ملك الملك الصالح

إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن [عماد الدين] (٢)

زنكى بى آق سنقر

ولما توفى نور الدين — رحمه الله — اتفق الأمراء على ملك (٣) ولده الملك الصالح إسماعيل — وهو صغير السن ولم يبلغ الحلم — فأخرجوه بعد وفاة أبيه مجزوز الذوائب (٤) مشقوق الجيب حاسرا (٥) حافيا، ودوي يبدى الحزن والعويل، فأجلسوه فى الإيوان الشمالى من الدست (٦)، والتخت (٧) الباقى من عهد تاج الدولة تُتَش السلاجوقى [بالقلمة التى بدمشق] (٨)

ووقف الناس يبكون ويتلهفون، فلما كُفّن نور الدين — رحمه الله — ودُفِن قوضوا الجزع وكفكفوا الدمع، وأحضروا المصحف (٩)، وحضر القاضى كمال الدين بن الشهر زورى، والأمير شمس الدين محمد بن المقدم، والطواشى

(١) يتقابل النص هنا مع نسخة من فى منتصف (ص ١٥٧) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن من .

(٣) من : "تملك" .

(٤) الأصل : "الذوائب" والتصحيح عن (من)، والعماد الأصفهاني — وهو الأصل المنقول

عنه — انظر : (الروضتين، ج ١، ص ٢٣٠) .

(٥) مكان هذا اللفظ فى من : "مكشوف الرأس" .

(٦) الدست معرب دشت الفارسية ومعناها الصحراء، واللفظ معان كثيرة أخرى منها : صدر

البيت، وهو المقصود هنا فى المتن، وللاسلام بالمعنى الأخرى انظر : (الشهاب الخفاجى : شفاء الغليل

فيا فى كلام العرب من الدخيل، ص ٩٧ — ٩٨) و (Dozy : Supp. Dict. Arab.)

(٧) التخت هو سرير الملك أو العرش .

(٨) من (٥٧ ب) : "الأصحاب"، وعند العماد : "الربعة" .

جمال الدين ریحان — وهو من ^(١) أكبر الخدم — ، والعدل شهاب الدين أبو صالح ابن العجمي أمين ^(٢) الأعمال ، والشيخ إسماعيل خازن بيت المال ، وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة وأنهم لا يختلفون ، وأن تقدمه العسكر للأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك [بن] ^(٣) المقدم ، وإليه المرجع في الأمور كلها .

وحلفوا للملك الصالح [إسماعيل] ^(٣) ، واستحلفوا له الناس ، وكاتبوا ولائاً لأطراف بالحلف له ^(٤) ، وإقامة الخطبة باسمه ، واستتبّت الأمور واستقرت له القواعد .

ثم تقدموا بإنشاء كتاب ^(٥) إلى الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله — في التعزية بنور الدين ، وكان المنشئ له عماد الدين الكاتب ، والترجمة بخط الملك الصالح ما صورته : ” إسماعيل بن محمود “ ، وأوله :

” أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر ، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل ، ندب ^(٦) الشام بل الإسلام حافظ ثغوره ، وملاحظ أموره ، [١٦٨] وعدم الجهاد مقتنى فضيلته ، ومؤدى فريضته ، ومحى سنته ، وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريته ، على أنه يعز أن يرى الزمان نظيره ، وما ها هنا ما يشغل السر ، ويقسم الفكر ، إلا أمر الفرنج — خذلهم الله — ، وما كان

(١) النص عند العماد — وهو الأصل المنقول عنه — : ” وهو أكبر الخدم “ ؛ (الروضتين ج ١ ، ص ٢٣٠) .

(٢) س ” أمير “ ، وما هنا يتفق ونص العماد .

٣ ما بين الحاصرتين عن ص .

(٤) س : ” للإيمان “ .

(٥) عم صلاح الدين بخبر موت نور الدين قبل أن يصله هذا الخطاب من ابنه ، فأرسل في الحال خطاباً بإنشاء القاضي الفاضل يسأل عن صحة الخبر ، وبصدر تعليماته إذا كان صحيحاً ، انظر نص هذا الخطاب في (الروضتين ج ١ ، ص ٢٣٠) .

(٦) س : ” بدن “ وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ج ١ ، ص ٢٣٠) .

اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلا لمثل هذا الحادث الجلل^(١) والصرف الكارث المذهل ، فقد ادخره لكفايات النوائب ، وأعدّه لحسم أدواء المعضلات اللواذب ، وأمله ليومه ولغده^(٢) ، ورجاه لنفسه ولولده^(٣) ، ومكّنه قوة لعضده ، فما فقد — رحمه الله — إلا صورة : والأصل^(٤) باق ، والله تعالى حافظ لبيته^(٥) وإق ، وهل غيره — دام مموه — من مؤازر ؟ وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر ؟ وقد عرفناه المقترح ليروض برأيه من الأمر ما جمع ، والأهم شغل الكفار عن هذه الديار ، بما كان عازما عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البدار ، ويجرى على العادة الحسنی في إحياء ذكر الوالد هناك ، بتجديد ذكرنا ، راضيا في اغتنام ثنائنا وشكرنا^(٥) .

وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري قد أشار على الأمير شمس الدين بن المقدم — "وهو القيم"^(٦) بتربية الصالح وأتابكته — ، وعلى جماعة الأمراء بالانقياد إلى صلاح الدين والرجوع إلى ما يشير به ، وقال لهم :

"قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر ، وهو من أصحاب نور الدين ونوابه ، والمصلحة أن يُشاور في الذي نفعله ، ولا نخرجه من بيننا ، فيخرج عن طاعتنا [ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لانفراده بملك ديار مصر]^(٧) فلم يوافق هذا القول أغراضهم . وخافوا أن صلاح الدين يدخل البلاد ويخرجهم .

(١) س : "الجلل" ، والأصل : "الحادث" ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٠) .

(٢) الأصل : "وغده" و "ولده" ، والتصحيح عن العماد .

(٣) نص العماد : "والمعنى" .

(٤) الأصل : "لبيته" و "لنفسه" وما هنا عن العماد (الروضتين ج ١ ، ص ٢٣٠) .

(٥) بعد هذا اللفظ في س : "في إحياء ذكرنا" .

(٦) هذان اللفظان ساقطان من س .

(٧) ما بين الحادرتين زيادة عن س (ص ١٥٨) ويتفق مع نص ابن الأثير ، وهو المرجع الذي ينقل عنه المؤلف هنا .

ذكر جواب الرسالة

الواردة إلى صلاح الدين من الملك الصالح

ولما وردت الرسالة المتضمنة التعزية إلى صلاح الدين جاس [لعزاء نور الدين ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث] ^(١) أمر فأقيمت الخطبة بالديار المصرية للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، وضربت السكة باسمه ، وورد منه كتاب إلى الملك الصالح بالمثل الفاضل أوله :

[١٦٩] ” لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ^(٢) “

وفي آخره :

” فصل : أصدر هذه المكاتبة يوم الجمعة رابع ذى القعدة ، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم ، وصرح فيه بذكره في الموقف العظيم ، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم ، وأشبه يوم الخادم أمسه في الخدمة ، ووفى ما لزمه من حقوق النعمة ، وجمع كلمة الإسلام عالماً بأن الجماعة رحمة .

والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه ، ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه ، ويجعل الإسلام واقية باقية عليه ، ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشيدده ، ومضاعفة ملكه ومزيده ، وييسر مثال ^(٣) كل أمل صالح وتقريب بعيد ، إن شاء الله تعالى “ .

(١) في الأصل : ” جلس لعزائه وأمر فأقيمت ... إلخ “ وما هنا صيغة من .

(٢) أورد صاحب (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١) سطوراً أخرى من هذه الرسالة رأيت من المفيد إثباتها هنا ، وهي : ” وأما العذر - خذله الله - فوراؤه من الخادم من يطلبه طلب ليل لئلا يراه ، وصبر لقراره ، إلى أن يزججه من مجائمه ، ويستوقفه عن مواقف مغائمه ، وذلك من أقل فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه ، أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذى القعدة ... إلخ “ .

(٣) من : ” رينشر مثال “ ، والأصل : ” مال “ ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ١ ،

ذكر استيلاء

سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي على البلاد الجزيرية^(١)

كما ذكرنا أن نور الدين - رحمه الله - قبل وفاته كان قد أرسل إلى الموصل والبلاد الشرقية والجزرية وغيرها يستدعي العساكر لأجل الغزاة ، وأن مراده كان قصد الديار المصرية ، وأن الأقدار عاقته عن بلوغ غرضه ، فسار سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي في عساكر الموصل قاصدا خدمة عمه نور الدين ، وعلى مقدمته سعد الدين كُشْتِكِين ، وهو الذي كان نور الدين جعله نائبا بقلعة الموصل مع سيف الدين - كما تقدم ذكره - ، فلما كانوا ببعض الطريق وصلتهم الأخبار بوفاة نور الدين - رحمه الله - فهرب سعد الدين لأنه كان في المقدمة ، وأخذ سيف الدين كلما له من بَرَك^(٢) وغيره ، وعاد إلى نصيبين فملكها ، وأرسل الشحن إلى الحابور فملكه وأقطعها ، ثم سار إلى حرَّان فحصرها عدة أيام ، وبها مملوك لنور الدين يقال له قايمز الحرَّاني ، فامتنع بها ، [وأطال الامتناع]^(٣) ، ثم أطاع [بعد ذلك]^(٣) على أن تكون حرَّان له ، ونزل إلى خدمة سيف الدين فقبض عليه ، وأخذ حرَّان منه .

ثم سار إلى الرها فحصرها وملكها ، وكان بها خادم خصي [أسود]^(٣) لنور الدين ، فسلمها^(٤) ، وأخذ عوضا عنها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر ،

(١) س : "على الجزيرة" .

(٢) البرك المتاع الخاص من ثياب وقاش . أنظر : (Dozy : Supp. Dict. Arab)

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (١٥٩) ويتفق مع نص (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٣) وهو الأصل الذي ينقل عنه المؤلف هنا .

(٤) الأصل : "قتلها" ، والتصحيح عن ابن الأثير .

فأعطيتها ، ثم أخذت منه ، ثم بعث [سيف الدين]^(١) إلى الرقة من تسلمها ، وكذلك سرّوج ، [١٧٠] وكذلك جميع البلاد الجزيرية ، سوى قلعة جعبر ، لأنها كانت منيعة ، وسوى رأس العين ، لأنها كانت لقطب الدين صاحب ماردين — وهو ابن خال سيف الدين — ، فلم يتعرض لها .

وكان بحلب الأمير شمس الدين علي بن الداية — وهو^(٢) من أكبر الأمراء النورية — في عساكر حلب ، فلم يقدر على العبور إلى سيف الدين ليمنعه من أخذ البلاد لفالج كان به ، فأرسل إلى دمشق يطلب الملك الصالح ليكون بحلب ، فامتنع شمس الدين بن المقدم وجماعة الأمراء من إرساله ، خوفاً أن يغلبهم عليه شمس الدين بن الداية ، فإنه كان أكبر الأمراء النورية ، وكان هو وأخوته بحلب ، وأمرها إليهم ، وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده ، وإنما قصد [ابن الداية]^(١) من عجز الملك الصالح إلى حلب ليمنع به البلاد الجزيرية من ابن عمه سيف الدين بن قطب الدين مودود .

ولما ملك سيف الدين البلاد الجزيرية قال له نحر الدين عبد المسيح — وكان قد وصل إليه من سنيواس بعد موت نور الدين ، وهو الذي أقر له الملك بعد أبيه قطب الدين كما تقدم ذكره ، فظن أن سيف الدين يرعى له ذلك ، فلم يجن ثمرة ما غرس ، وكان عنده كبعض الأمراء — ، فقال له :

”الرأى أن تعبر إلى الشام فليس به مانع“ .

فقال له محمود — المعروف بزلقندار —^(٣)

”قد ملكت أكثر ما كان لأبيك ، والمصلحة أن تعود“ .

فرجع إلى قوله وعاد إلى الموصل .

(١) ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير .

(٢) نص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٥٣) : ”وهو أكبر“ .

(٣) ص (٥٩ ب) : ”بركفندار“ . وهكذا رسم الاسم في الأصل المنقول عنه وهو (ابن الأثير)

ولما بلغ الملك الناصر صلاح الدين ما فعل سيف الدين كتب إلى القاضي
كمال الدين بن الشهرزوري والأمرء يقول :

”لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامى ، أو يثق إليه مثل ثقته بى ،
لسلم إليه مصر التى ^(١) هى أعظم ممالكه وولاياته ^(٢) ، ولو لم يعجل عليه الموت
لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرة ، وأراكم قد تفردتم بمولاي
وابن مولاي دونى ، وسوف أصل إلى خدمته ، وأجازى [إنعام والده بخدمة
يظهر أثرها ، وأقابل] ^(٣) كلا منكم على سوء صديقه فى ترك الذب عن بلاده“.

ذكر منازلة الفرنج بانياس وعودهم عنها

[١٧١] ولما علم الفرنج وفاة نور الدين — رحمه الله — اجتمعوا وساروا
إلى قلعة بانياس وحصروها ، فجمع الأمير شمس الدين بن المقدم العساكر عنده
بدمشق ، وخرج منها وراسلهم ولاطفهم ، ثم أغلظ لهم فى القول ، وقال :
”إن أتم صالحنونا ، وعدتم عن بانياس ، فنحن على ما كنا عليه ، وإن أبيتم
ذلك ، أرسلنا إلى سيف الدين صاحب الموصل ، وصلاح الدين صاحب مصر ،
ونستنجدهم ، ونطلب بلادكم من جهاتها كلها ، فلا تقومون لنا ، وأتم تعلمون
أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين ، والآن فقد زال ذلك
الخوف ، وإذا طالبناه إلى بلادكم لا يمتنع“ .

فعلموا صدقهم ، وصالحوهم على شئ من المال أخذه ، وأسرى أطلقوا لهم
كانوا عند المسلمين ، وتقررت الهدنة بينهم .

(١) س : ”الذى“ .

(٢) س : ”أعظم مملكته“ .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات عن النص فى (الرضتين ، ج ١ ، ص ٢٣١) .

ذكر إنكار

صلاح الدين على الأمراء بدمشق وهديتهم للفرنج^(١)

ولما سمع صلاح الدين - رحمه الله - أمر الهدنة أنكرها واستعظمها ، فكتب إلى الأمراء بدمشق يقبّح عليهم ما فعلوه ، ويبذل من نفسه قصد بلاد الفرنج ومقارعتهم ، وإزعاجهم عن قصد شيء من بلاد الملك الصالح . وكان مراده أن يصير له طريق إلى بلاد الشام ، ليتملك البلاد ، والأمراء [الشاميون] ^(٢) إنما صالحوا الفرنج خوفا منه ومن سيف الدين غازي صاحب الموصل .

ذكر وصول

سعد الدين كُشْتِكِين ، واستبداده بتدبير الملك الصالح

كنا ذكرنا هرب الأمير سعد الدين كُشْتِكِين الخادم النائب بقلعة الموصل لما بلغته وفاة نور الدين ، فوصل إلى حلب ، واجتمع بالأمير شمس الدين [على] بن الداية وإخوته ، واستقر بينهم أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح إلى حلب ، فسار إليها ، فأخرج إليه شمس الدين بن المقدم عسكرا فنهبوه^(٣) ، فعاد منهزما إلى حلب ، فأخلف عليه شمس الدين بن الداية [عوض] ما أخذ منه ، ثم جهّزه وسيره [بعسكرا]^(٤) إلى دمشق [ومعه كتب إلى الأمراء]^(٥) ، فدخلها واجتمع [بالأمراء و]^(٥) بخدمة الملك الصالح .

(١) هذا العنوان غير موجود في س ، وإنما مكانه : "قال صاحب الكتاب".

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٣) .

(٣) س (١٦٠) : "قته" والأصل "لنبه" وما هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٥٦) .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادات عن س .

وذكر عماد الدين الكاتب أن مفارقة سعد الدين لسيف الدين كانت برضى سيف الدين ، وأنه استأذنه في الوصول إلى الشام ، فأذن له فيه ، ولم يكن إذ ذاك علم سيف الدين بوفاة عمه ، وإنما علم سيف الدين مرضه وكتبه ، [١٧٢] فلما فارق سعد الدين سيف الدين ، وسار مرحلتين ، بلغته وفاة عمه نور الدين ، فاعتمد السير مجدا ، ونجا بماله ، وندم سيف الدين على الرضا برحيله وسفره ، وفرح بوفاة عمه نور الدين ، وأظهر الفسق ، وأمر بإعادة المكوس ، وتظاهر بالمنكرات^(١) .

ذكر مسير الملك الصالح إلى حلب^(٢)

ولما^(٣) أشار سعد الدين على الأمراء بوصول الملك الصالح إلى حلب أجابوه إلى ذلك ، وكان شمس الدين بن الداية — كما ذكرنا — بحلب ، وله شيزر إقطاعا من نور الدين ، وعنده أخوه سابق الدين عثمان ، وإقطاعه تل باشر وقاعة جعبر ، وبدر الدين حسن ، وإقطاعه عين تاب وعزاز وغيرها ، وهؤلاء [أولاد الداية]^(٤) كانوا أكبر أمراء نور الدين ، وكان أخوهم مجد الدين أبو بكر ضيع نور الدين ، ورعى معه ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام ، وكان محكما في أيامه ، وتوفي أيام نور الدين — كما ذكرنا — .

وكان هؤلاء — لقربهم من نور الدين وعلو منزلتهم على غيرهم — لا يشكون أنهم هم الذين يقومون بتربية الملك الصالح ، ويكون أمره إليهم ، فكاتب

(١) س : " بالشرب والمنكرات " .

(٢) كذا في الأصل ، وقد أضيف إلى العنوان في س عنوان آخر هو : " والقبض على أولاد الداية " ، وسيرد هذا العنوان هنا منفصلا بعد قليل .

(٣) س : " ولما اجتمع سعد الدين بالأمراء الذين بدمشق أشار عليهم بمسير الملك الصالح إلى حلب — إلخ " .

(٤) ما بين الحاصرتين زبادات عن س .

شمس الدين جماعة الأمراء [بدمشق] ^(١) ، بأن يصل الملك الصالح إلى حلب ،
فامتنعوا أولاً ، ثم وصل سعد الدين إلى دمشق — كما ذكرنا — ، وأنفذ ^(٢)
شمس الدين أخاه سابق الدين عثمان في المعنى ، واتفق الحال على توجيه الملك
الصالح إلى حلب ، فسار إليها ، ومعه سعد الدين ، والعدل شهاب الدين
أبو صالح بن المعجمي ، وإسماعيل الخازن .

ذكر القبض على أولاد الداية

ولما وصلوا إلى حلب قبض على الأمير شمس الدين وأخوته واعتقلوهم ،
وثار أبو الفضل بن الخشاب — مقدم الشيعة ^(٣) [بحلب] — ^(٤) ، فقبضوا عليه
وضربوا عنقه ، واستبد سعد الدين بالأمور ، وقام باتباعه الملك الصالح ، وأقام
الأمير شمس الدين محمد بن المقدم بدمشق ، وإليه تقدمت العساكر بها ، وجمال الدين
ريحان بالقلعة ، والشَّحَن ^(٥) من قبله ، ومدير الدولة القاضي كمال الدين
ابن الشهرزوري .

وكان مسير الملك الصالح من دمشق [إلى حلب] ^(٦) لسبع بقين من
ذى الحجة [١٧٣] من هذه السنة — أعني سنة تسع وستين وخمسمائة — .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٢) في الأصل : ” رقل “ ، وفي س : ” قد “ وما هنا قراءة ترجيحية .

(٣) الأصل : ” مقدم الأحداث “ ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٣) .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (٦٠ ب) .

(٥) الأصل : ” والسجن “ وفي س : ” والسجن “ بدون ققط — والتصحيح عن نص المواد

بالروضتين .

ولما بلغ الملك الناصر صلاح الدين مسير الملك الصالح إلى حاب ، واستبداد سعد الدين بتدبير أموره ، وقبضه على أولاد الداية ، عظم ذلك عليه وأنكره ، وجعله من أكبر الجحجج على قصد الشام ، وأظهر أنه يريد بذلك تربية الملك الصالح والقيام بأموره ، فكان ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وراسل سعد الدين سيف الدين وصالحه على ما أخذه من البلاد الجزيرية ، فحينئذ استشر شمس الدين بن المقدم ومن معه من الأمراء ، وكتبوا الملك الناصر صلاح الدين واستدعوه ليملكوه البلاد .

ذكر منازلة الفرنج للاسكندرية وعودهم عنها

وفي يوم الأحد لأربع بقين من ذى الحجة سنة تسع وستين ونعمسمائة وصل أسطول^(١) الفرنج بصقلية ، وذلك قبل الظهر من يوم الأحد المذكور ، ولم يزل متواصلا متكاملا إلى وقت العصر ، وذكر^(٢) أن السبب في إرسال هذا الأسطول

(١) أسطول — وقد يرسم في المراجع العربية : اصطول أو صطول ، واجمع أساطيل ؛ كلمة يونانية الأصل ” σ τ ο λ ο s ” وتطلق في اللغة العربية على السفن الحربية مجتمعة أو على السفينة الواحدة ، ويقال للجندى الذى يعمل فى الأسطول : ” أسطولى ” ، أنظر : (KINDERMANN : Schiff ; im Arabischen, p. 1) و (Dozy : Supp. Dict. Arab.) و (ابن خلدون : المقدمة : ص ١٣٨) و (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٤ ، ص ٨٢) و (الخفاجى : شفاء الغليل ، ص ٣٨ و ١١٩) و (الشيال : معجم السفن العربية) .

(٢) مقابل هذا فى س جملة مضطربة ونصها : ” وذكر فى إرسال هذا الأسطول من صقلية ما نذكرنا . . الخ ” .

من صقلية ما كنا ذكرنا من مكاتبة المصريين لصاحب صقلية^(١) وغيرهم من الفرنج ليقتصدوا الديار المصرية ، فسير صاحب صقلية هذا الأسطول ، ولم يعلم أن صلاح الدين قبض على الذين كاتبوه ، ولما وصل هذا الأسطول وكان وصوله بغتة فحى^(٢) أهل الثغر البرعائهم ، ثم أشير عليهم أن يقربوا من السور ففعلوا ، فامكن الأسطول النزول ، فاستزلوا خيابهم من الطرايد^(٣) وراجلهم

(١) هذه الحملة ذيل لتوأمة التي اشترك فيها المصريون والفرنج لإعادة الدولة الفاطمية وكان من رؤوس المتآمرين فيها عمارة البني ، أنظر (الجزء الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٤٣ — ٢٥٩) . وكان صاحب صقلية في هذه السنة هو وليام الثاني (William II) ابن وليام الأول بن روبر الأول (Roger I) وهذا الأخير هو مؤسس مملكة النورماندين في صقلية سنة ١١٠٣ م ، والكتب العربية تسمى هذا الحاكم : "غليالم بن غليالم بن رجار مملك صقلية" ، ولم يكن غليالم هذا قد دلم بفشل المؤامرة والقبض على المتآمرين ، فأرسل حملته هذه التي منيت بالفشل . وللاطلاع بأخبار هذه الحملة وتفصيلاتها أنظر : (LANE-POOLE : *Saladin*, p. 127) و (Camb. Med. Hist. vol. V, pp. 184-207) و (المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٥ — ٥٧) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٨٧) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٥ — ١٥٦) و (RUNCIMAN : *History of the Crusades*, vol. I, p. 403) و (الشيال : الاسكندرية ، طبوغرافية المدنية وتطورها ، ص ٢٢١) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥) .

(٢) الأصل : "حى" والياء صحيح عن نص العماد في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤) .

(٣) الطريدة — ويقال الطراد أو الطرادة ، أو التطريدة — والجمع : طرايد وطرائد ، قال (ابن عماتى : قوانين الدواوين ، طبعة الدكتور عطية ، ص ٣٣٩ ،) عند التعريف بها : "هي سفينة برسم حمل الخيل ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا" ، والنص في المتن هنا يؤكد هذا المعنى بل ويثبت أن الجولة العادية للطريدة من الخيل تتفق وما ذكره ابن عماتى ، وقال (صاحب تاج العروس) "الطراد — ككأن — سفينة صغيرة سريعة السيرة والجرى ، والعامة تقول تطريدة" ، وقال (Dozy : *Suppl. Diet. Arab.*) هي نوع من المراكب الحربية أكثر شبيها بالبرميل الهائل من السفينة ، وكانت تستعمل في حمل الخيول والفرسان ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا ؛ وفي تاريخنا هذا — مفرج الكروب — في حوادث سنة ٦٦٠ هـ ما يثبت أن الطريدة كانت تستعمل أحيانا لركوب الناس ، فقد ذكر أن بيبرس أرسل في تلك السنة سفارة إلى ملك التتار بركة خان عن طريق البحر المتوسط والإمبراطورية البيزنطية "وركبهم في الطرايد ، وأعطاهم زوادة شهور كثيرة" ، وقد استعمل الأوربيون في العصور الوسطى هذا النوع من السفن ، واشتقوا اسمه عن العربية نسوه في الأسبانية "Tarida" وفي الإيطالية "Tartana" وفي الفرنسية "Tartane" وفي الإنجليزية "Tartan" . أنظر أيضا (KINDERMANN : *op. cit.* pp. 56-59) ؛ ومخطوطتنا (معجم السفن العربية) .

من المراكب « وكانت خيلهم ألفا وخمسمائة رأس ، وكانت عدتهم ثلاثين ألف مقاتل ، ما بين فارس وراجل ، وكان عدد الطرايد ستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وكان معهم مائتا شيني^(١) في كل شيني مائة ونحسون راجلا ، وكان عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن وكان عدة المراكب [الجمالة]^(٢) برسم حمل الأزواد والرجال أربعين مركبا ،

(١) الشيني أو الشاني أو الشينة أو الشونة — والجمع شواني — السفينة الحربية الكبيرة ، وهي أهم القطع الكبيرة التي كان يتكون منها الأسطول في الدول الإسلامية ، وقال (الزبيدي : تاج العروس) إنها من أصل مصري ، وذكر (ابن عسك : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠) إن الشيني كانت تسير « بمائة وأربعين مجدافا ، وفيها المناقلة والجداقون » ويبدو أن هذا النوع من السفن كانت تتمام فيه الأبراج والقلاع للدفاع عنه كما كانت ترمى منه النار والنفط على العدو . يبدو هذا واضحا في وصف الشاعر ابن حمديس الصقلي للشواني ، قال يمدح أبا يحيى الحسن بن علي بن يحيى :

أنشأت شواني طابرة ، ربيت على ماء مدنا
بروج قتال تحسبها — في شم شواقتها — قنا
ترى بروج إن ظهرت لمدور مخوفة بطنا
وبنفط أبيض تحسبه ماء ، ربه تذكى الكنا
ضمن التوفيق لها ظفرا من ذاك عداذك ما ضمنا

وبالإضافة إلى المراجع المذكورة في التحشية على لفظ « أسطول » و « طريدة » أنظر أيضا : (البناتوني : رحلة الأندلس ، ص ١٤١) و (المقريزي ، اتعاظ الخلفاء ، طبعة الشبال ، ص ١٠٢ هامش ١) . ولاحظ أن المتن هنا يحدد حولة الشيني في العادة بمائة ونحسين جنديا .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن س و (الروضتين) ، والجمالة — والجمع جمالات — هي كما عرفها (ابن عسك : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩ — ٣٤٠) و (Dozy : Supp. Dict. Arab.) نوع من السفن المخصصة لنقل مؤونة الجيش وأزواده والصناع والخدم الملحقين بالجيش والأسطول (Vaisseau de Transport) ، وفي (صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٢٢٠ — ٢٢١) ما يدل على أن « الجمالة » كانت تستعمل في حمل الخيل كذلك ، قال : « وفي سنة ثمان وعشرين وثمانمائة (١٤٢٥ م) عمر السلطان في مصر أربع جمالات كبار برسم شيل الخيول والأبقال ، وتسع الناس الكثيرة ... الخ » وجاء في (خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٣٩ — ١٤٠) : « ثم إن العمارة تكملت ، وهي خمس قراقرير وتسعة عشر غرابا ، وست جمالات برسم الخيول ... الخ » .

وفيهما من الرجال المتفرقة وغلمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته^(١) ما يتم خمسين ألف راجل .

ولما تكامل الفرنج نازلين على البر مما يلي البحر والمنارة^(٢) حملوا على المسلمين حملة أوصاتهم إلى السور^(٣) وفقد من أهل [١٧٤] الإسكندرية في وقت الحملة ما يناهز سبعمائة نفس^(٤) ، وجذفت^(٥) مراكب الفرنج داخلة إلى الميناء وكان به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة ، فسبقهم المسلمون إليها فحسبوا وغرقوها ، وغلبوهم على أخذها ، وأحرقوا ما أحرق^(٦) منها ، واتصل القتال إلى المساء^(٧) ، وضرب الفرنج خيامهم بالبر وعدتها ثلاثمائة خيمة ، ولما أصبحوا زاحفوا وضائقوا وحاصروا ، ونصبوا ست^(٨) دبابات بكباشها^(٩) ، وثلاثة بجانيق كبار المقادير تضرب بحجارة سود استصحبوها من صقلية ، وتعجب المسلمون من شدة أثرها وعظم حجرها ، وأما الدبابات فأنها تشبه الأبراج في جفاء^(١٠) أخشابها وارتفاعها واتساعها وكثرة المقاتلة فيها ، وزحفوا [بها]^(١١) إلى أن قاربوا السور ولجوا في القتال عامة النهار .

(١) في الأصل : ” ودبابته ” وما هنا عن س (٦١ ب) وهو أصح ، ولشرح اللفظ أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب : ص ١٨٠ — ١٨١ .

(٢) للإمام بأخبار المنارة والسور في العصر الإسلامي أنظر : (الشيال : الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها) .

(٣) س : ” رجل ” ، وفي (الروضتين) و (السلوك) : ” سبعة أنفس ” .

(٤) س : ” وأحدث ” . (٥) س : ” ما أحرقوا ” .

(٦) س : ” المينا ” والمثنى هو الصحيح .

(٧) س و (الروضتين) : ” ثلاث دبابات ” .

(٨) الكبش — ويجمع على أكبش وكبوش وكباش — آلة متصلة بالدبابة لها رأس ضخم وقرنان يدفعها الجنود نحو الأسوار لتحطيمها .

(٩) في الأصل : ” حقا ” وما هنا عن س و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٥) .

(١٠) ما بين الحاصرتين من س .

وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله — نازلا بعسكره على فاقوس ، فلما وصل^(١) إليه الخبر يوم الثلاثاء ثالث نزول العدو على جناح طائر ، استنفض^(٢) العسكر إلى الثغرين^(٣) : الاسكندرية ودمياط ، احترازا عليهما واحتياطا ، واستمر القتال ، وقدمت الدبابات ، وضربت المنجنيقات ، وزاحمت السور إلى أن صارت منه بمقدار أماج [البحر ، وأهاج الدور]^(٤) وصبر أهل البلدة ، ولم يكن عندهم من العسكر إلا قليل .

ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم ، وتواصلت الأمداد إليهم .

وفي اليوم الثالث^(٥) فتح المسلمون باب البلد ، وخرجوا على غفلة ، وركب من كان هناك من الأمراء ، وخرجوا من الأبواب وكثر الصياح من كل جانب ، وتكاثروا على الفرنج ، فأحرقوا الدبابات المنصوبة ، وصدقوا عنها القتال ، وأنزل الله سبحانه نصره على المسلمين ، واتصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء — وهو رابع يوم نزولهم — وقد فشل الفرنج وفتر قتالهم^(٦) ، واحتترقت آلات قتالهم ، واستمر القتل فيهم ، ودخل المسلمون إلى البلد لقضاء فريضة الصلاة ، وهم على نية المباكرة ، والعدو على نية الحرب ، ثم كبسوهم المسلمون بغتة عند قرب اختلاط الظلام ، فهاجروهم [١٧٥] في خيائهم ، فتسلموها بما فيها وقتلوا من الرجالة ما لا يحصى .

(١) س : « فوصل » .

(٢) س : « فاستنصر » .

(٣) س : « الثغرين » .

(٤) ما بين الحامرتين زيادة عن (الروضتين ، ١ ، ص ٢٣٥) وهي زيادة ضرورية لفهم النص .

(٥) س « وفي اليوم الرابع من نزولهم فتح باب البلد ، وخرجوا على غفلة من الفرنج » .

(٦) س « وبقيين هناك قبالم » وهذا مسخ المعنى يدل على أن كاتب نسخة س كان مجرد ناسخ ، وأنه كان ينسخ دون فهم في معظم الأحيان .

ولم يسلم من الخيالة إلا من نزع عنه لباسه ورمى نفسه في البحر ، وأخذ الباقيون أخذًا باليد ، واقتحم المسلمون البحر على بعض المراكب نخسفوها وأغرقوها ، وولت بقية المراكب هاربة ، وصار العدو — لعنه الله — بين قتيل وأسير وغريق ، واختفى ثلاثمائة فارس في رأس جبل^(١) ، وأخذت خيولهم ، ثم قتلوا وأسروا وأخذ المسلمون من الآلات والمتاع والأسلحة ما لا يملك مثله ، وأقلع الأسطول عن الثغريوم الخميس مستهل المحرم سنة سبعين وخمسمائة .

ذكر خروج الكنز^(٢) بالصعيد ومقتله^(٣)

هذا الكنز هو رجل من مقدمي المصريين ، كان قد انتزع إلى أسوان وأقام بها ، فلم يزل يدبر أمره ، ويجمع السودان عليه ، وأوهمهم أنه يملك البلاد ،

(١) في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٥) : « نزل » .

(٢) كنز الدولة هذا هو نفس كنز الدولة حاكم أسوان المذكور سابقا (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٢٩ ، هامش ١) والذي أرسل إلى صلاح الدين بن بركة بنورة الجنود السودانيين الفاطميين الفارين من الشمال بالصعيد ، مما دفع صلاح الدين إلى إرسال جيوشه لإخضاع هؤلاء النافرين وفتح بلاد النوبة وشمال السودان ، والكنوز أصلا بطن من القبيلة العربية « ربيعة » ، استقروا حول أسوان وفي بلاد النوبة ، ثم اختلطوا مع النوبيين وتزوجوا منهم ، و « كنز الدولة » لقب منحه لأول مرة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله لحاكم النوبة في عهده أبو المكارم هبة الله بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي عندما ظفر بالتأثير أبي ركة الفار إلى بلاده وأرسله إلى الحاكم ، وكان آخر من لقب منهم بهذا اللقب كنز الدولة هذا المعاصر لصلاح الدين ، قال (المقرئزي : البيان والإعراب ، ص ٥٠) : « ولم تزل الإمارة معهم ، وكلهم يعرفون بكنز الدولة ، حتى كان آخرهم كنز الدولة ، قتله الملك العادل أبو بكر بن أيوب في سبع صفر سنة ٥٧٠ عندما خالف على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وجمع لحربه ، وقتل أخا أبي الهيجا السمين ، ودعا للأمرداد بن العاضد ، وكان قتله على مدينة طود بعد حروب شديدة » ، وبنو كنز ، أو الكنوز ، هم سلالة هؤلاء العرب بعد اختلاطهم مع النوبيين ، وكانت لهم السيطرة التامة على الصعيد الأعلى في العصر المملوكي ، ولا زالت قبيلة الكنوز تعيش حتى اليوم في المنطقة الواقعة بين أسوان وكروسكو » أنظر أيضا : (المقرئزي : أتماظ الحنفا ، مخطوطة سراي ، ص ٦٠ ب)

و (TRIMINGHAM : Islam in the Sudan, P. 68) و (CASANOVA : Les Derniers Fatimides)

(٣) هذا العنوان غير موجود في س

ويعيد الدولة المصرية كما كانت ، فاجتمع إليه ممن يرى رأى الاممائية ويهون^(١) عود الأمر الى أهل القصر خلق عظيم وجمع كثير من السودان ، ولما كثر جمعه^(٢) قصد قوص وأعمالها ، بغرد إليه السلطان الملك الناصر — رحمه الله — جمعا كثيرا من العسكر ، وقدم عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب ، فسار بهم الملك العادل حتى أتى القوم ، وكان الكثر قد فتك بأخ لحسام الدين أبي الهيجاء السمين وبمن^(٣) هناك من المنقطعين ، ولما قصده الملك العادل بمن معه من العسكر تداركوا بطود ، وبها أصحاب الكثر ، فاجتمعت عليهم ، فنازلوها ثم ملكوها ، وأبادوا أهلها بالسيف ، ثم صافقوا^(٤) الكثر ومن معه ، فكسر وقتل وأبىد أصحابه قتلا وأسرا ، وانطفت جمره المصريين ولم تقم لهم بعدها قائمة^(٥) .

ذكر مسير

الملك الناصر صلاح الدين إلى الشام وتملك دمشق

قد ذكرنا إنكار السلطان الملك الناصر — رحمه الله — ما اعتمده الجلاء مع الملك الصالح من القبض على الأمير شمس الدين علي بن الداية وأخوته ،

(١) الأصل : « ويهول » وس (٦٢ ب) : « ويزيدوا » ، وما هنا قراءة ترجيحية .

(٢) س : « جمعهم » .

(٣) في الأصل : « ومن » وما هنا صيغة س .

(٤) س : « ضاقوا » .

(٥) أشار ابن أبي طي (الروشتين ، ج ١ ، ص ٢٣٥) إلى ثورة أخرى قامت في طود في نفس الوقت وأخضعها الملك العادل ، قال : « واتفق أيضا أن خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شاذي ، وثار في بلاد قوص ونهبها ونحربها ، وأخذ أموال الناس ، واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ، وكان السلطان قد استنابه بمصر ، فجمع له العساكر وأوقع به وبثد شمله وفض جموعه وقتله ، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بأسوان وكان قصد بلد طود ، فقتل أكثر عسكره ، وهرب ، فأدركه بعض أصحاب الملك العادل ، فقتله » .

وتفريطهم في البلاد ، وبذلهم القطيعة للفرنج من غير أن يبدووا^(١) عذرا في جهادهم ، وقال :

« أنا أحق بتربية الملك الصالح رعاية^(٢) لعهد والده ، [١٧٦] ولو استمرت ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة وطمعت الكفار في البلاد » .

ثم كتب الأمير شمس الدين بن المقدم برسالة منها :

« إنا لا نؤثر الإسلام وأهله إلا ما جمع^(٣) شملهم وألف^(٤) كلمتهم ، والبيت^(٥) الأتابكي — أعلاه الله — إلا ما حفظ أصله وفرعه ، أو دفع ضرره وجلب نفعه ، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة ، والمحبة إنما يظهر أثرها عند تكاثر أطماع^(٥) العداة ، وبالجملة أنا في إدوالاتون بنا ظن السوء في واد ، ولنا من الصلاح مراد ، ولنا يبعدها عنه مراد^(٦) » .

ثم عزم السلطان على المسارعة إلى تلافي الأمر ، فاعترضه أمران : وصول أسطول صقلية^(٧) إلى الاسكندرية ، والثاني نوبة الكنز^(٧) المقدم ذكره ، فلما كفى الله شرهما توجه إلى دمشق ، فخرج إلى البركة^(٨) في متهل صفر من هذه

(١) في الأصل وفي س "يلو" ، وما هنا قراءة ترجيحة .

(٢) في الأصل رس : «دعاية» .

(٣) س : «يجمع وألف» وما هنا يتفق ونص (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤) .

(٤) في الأصل ، وفي س : «والبيت» وقد صححت بعد مراجعة الروضتين .

(٥) كذا في الأصل وفي الروضتين ، وفي س : "عند تطامع العداة" .

(٦) الخطاب موجها في س ، وله في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤) نية نصها : "ولا

يقال إن طلب الصلاح لك قاذح ، وإن ألقى السلاح لك جارج" .

(٧) أنظر ما فات هنا ص ١١ — ١٧ .

(٨) هي بركة الحب أو بركة الحجاج ، وقد عرفها (المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٦٥ —

٢٦٧) بقوله : "هذه البركة في الجهة البحرية من القاهرة على نحو يريد منها ، عرفت أولا بحج عميرة ، ثم قيل لها أرض الحب ، وعرفت إلى اليوم ببركة الحجاج من أجل نزول حجاج البرية عند سيرهم من القاهرة وعند عودهم ... إلخ" وقد حدد (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٩ ، ص ١٦) موقعها تحديدا أدق ، قال : «بركة الحجاج : قرية موضوعة في الشمال الشرقي للقاهرة بنحو خمس ساعات ، وفي غربي التربة الاسماعيلية بنحو ستة آلاف متر ، وفي جنوب الخانقاه كذلك ، وفي شرقي قرية المرج بنحو ثلاثة آلاف متر ... إلخ» .

السنة - أعنى سنة سبعين وخمسمائة - وقد وردت عليه رسل شمس الدين محمد بن المقدم ، وشمس الدين صديق بن جاولى صاحب بصرى ، يستحثونه على سرعة الحركة .

ثم سار ثالث عشر ربيع الأول على صدر^(١) وأيلة في سبعمائة فارس ، ولما قارب بصرى^(٢) خرج صاحبها صديق بن جاولى إلى لقائه ، فلما رأى قلة من معه قال للقاضى الفاضل :

”ما أرى معكم عسكريا ، وهذا بلد عظيم لا يقصد بهذا العسكر ، ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد ، فإن كان معكم مال سهل الأمر“ .

فقال :

”معنا مال كثير يكون خمسين ألف دينار“ .

فضرب صاحب بصرى على رأسه وقال :

”هلكتم وأهلكتمونا“ .

وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار .

ثم رحل السلطان من بصرى لست بقين من ربيع الأول ، فلقية ابن عمه الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شاذى ، والأمير سعد الدين بن معين الدين أنزى يوم السبت لثلاث بقين من الشهر ، ونزل يوم الأحد بجسر الخشب وتوافقت إليه الأجناد والعساكر الدمشقية ، والوجوه والأكابر .

ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من ربيع الأول ركب [السلطان]^(٣) وساق إلى [٧٧١] دمشق ، فاعترضه دون الدخول جماعة من الرجال يريدون بزعمهم دفعه ، فهزمهم عساكره ، ووصل^(٤) إلى البلد ، ولم يفتق في وجهه

(١) س : « مرشد » وما هنا هو الصحيح ، والتعريف بالمدينين انظر : الجزء الأول من مفرج الكروب ، ص ١٣٨

(٢) هكذا ضبطها (بافوت : معجم البلدان) وقال هي من أعمال دمشق ، أو هي قصبة كورة حوران .

(٣) ما بين الحاصرتين من ص (١٦٣) . (٤) س : « ودخل البلد » .

باب ، بن كان البلد لم يزل^(١) له ، فدخل دمشق وخرقها ، ووصل الى دار أبيه المعروفة بدار العقيق ، وامتنع جمال الدين ربحان بالقلعة ، وأمر [السلطان]^(٢) فنودي في دمشق بإطابة النفوس وإزالة المكوس ، وأظهر أنه ما جاء^(٣) إلا لتربية الملك الصالح ولد نور الدين ، وأن الملك له ، وهو نائبه ومدبر دولته ، وأبقى الخطبة والسكة باسمه ، وراسل جمال الدين متولى القلعة ، واستماله وبذل له كلما يطلبه ، فأجاب جمال الدين إلى تسليم القلعة ، فتسلمها السلطان على عوض أعطاه [إياه]^(٤) ، وأتزل بالقلعة أخاه ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ، واستثبت^(٥) أمر السلطان بدمشق^(٥) ، وجاء^(٦) إلى خدمته القاضي كمال الدين بن الشهرزورى ، فوفاه حقه من الإكرام^(٧) ، ونفذت الكتب إلى الديار المصرية بما سناه^(٨) الله تعالى له من هذا الفتح .

(١) س : « كان له » .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (١٦٣) .

(٣) الأصل : « إنما جاء » .

(٤) س : « واستتب » .

(٥) في : (الروشتين ، ج ١ ، ص ٢٢٦) قطعان من رسالتين بقلم القاضي الفاضل أرسلنا إلى مصر نحلان أنباء فتح دمشق ودخولها ، وبهما تفصيلات هامة فانظرهما هناك .

(٦) في الأصل : « وجمال » ، وما هنا عن س ، وهو الأصح .

(٧) لم تكن العلاقات طيبة بين القاضي كمال الدين وصلاح الدين منذ كان يتولى الأخير شحنة دمشق في عهد نور الدين ، ومع هذا فقد قدم كمال الدين المساعدات الممكنة لصلاح الدين لتكمينه من الاستيلاء على دمشق ، وقد عرف صلاح الدين للقاضي فضله ، فذهب إلى زيارته في بيته ، روى قصة هذه الزيارة (سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٢٧) قال : « ومشي (أى صلاح الدين) إلى دار كمال الدين ، فأتزج ونرج إلى لقائه ، ودخل صلاح الدين بجلس وبأسطه ، وقال : يا كمال الدين ، لما كنت في الشحنة قد كانت بيتنا هنات ومشاحنات ، — وكان كمال الدين بكرهه ، فكان كل واحد منهما ينتفض على الآخر أحكامه — فقال له صلاح الدين : ما مشيت إلا لأزيل ما في خاطرك من الوهم ، وأعرفك أن ما في قلبك لك نكرة ، فطب نقسا ، وقرعينا ، فالأمر أمرك ، والبلد بلدك » أنظر أيضا : (نفس المرجع ، ص ٣٤٠)

(٨) كذا في الأصل ، وفي س : « مياه » .

ولما سمع المدبرون للملك الصالح^(١) إسماعيل بن نور الدين — رحمه الله —^(٢)
بملك الملك الناصر دمشق مقط في أيديهم ، وأيقنوا بذهاب البلاد ، فراسلوا
سيف الدين غازي بن [قطب الدين]^(٣) مودود بن زنكي صاحب الموصل
وأرسلوا إلى السلطان الملك الناصر الأمير قطب الدين ينال^(٤) بن حسّان
— صاحب مَنبِج — برسالة فيها غلظ وتعنيف ، وقال للسلطان فيما قاله :
« هذه السيوف التي^(٥) ملكتك مصر — وأشار إلى سيفه — تردك ، وعمّا تصدّيت
له تصدك » ، فلم عنه السلطان وتغافل ، وذكر أنه إنما وصل لترتيب الأمور
وتربية الملك الصالح ، وإخراج الأمراء أولاد الداية من الاعتقال ، فقال له
قطب الدين :

« أنت تريد الملك لنفسك ، وليس مقصودك غير ذلك ، والمصلحة أنك
ترجع من حيث جئت ، ولا تطمع فيما ليس لك فيه مطمع » ، فأظهر له السلطان
التبسم ، ولم يقابله إلا باللين والرفق^(٥) .

(١) ما بين الرقن ما قط من س .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ج ١ ، ص ٢٣٧) ، وهو في س : « عثمان » ، وصيغة
الأصل هي الصحيحة ، وقد ذكر صاحب الروضتين هذا الحادث وهذا الحديث قلا عن ابن أبي طي .

(٤) س (٦٣ ب) : « إلى ملكتك » والأصل : « الذي ملكتك » ، وقد صححت بعد
مراجعة الروضتين .

(٥) تكاد تجمع المراجع على أن صلاح الدين كظم غيظه عند سماعه حديث ينال القامى ،
وأنه قابله بالرفق واللين ، إلا أن صاحب مرآة الزمان (ص ٣٢٨) يذكر أن صلاح الدين غضب عند
سماع هذا الحديث وقال لينال : « والله لولا أنك رسول لضربت عنقك » ، والله ما جئت إلى ها هنا شرها
ولا طمعا في الدنيا ، وفي مصر كهاية ، وما جئت إلا لأستنقذ هذا الصبي من يد مثلك وأمثالك ،
فأتم سبب زوال دولته ، ثم طرده بغير جواب ، فعاد إلى حلب .

ذكر استيلاء

الملك الناصر على حماة ومدينة حمص

ثم إن السلطان الملك الناصر [صلاح الدين] ^(١) استخلف بدمشق أخاه سيف الإسلام [طُغْتِكِين] ، وسار إلى حمص مستهل جمادى الأولى من هذه السنة — أعنى سنة سبعين وخمسمائة — وكانت حمص ، وحماة ، وقلعة بارين ، وسلمية ، وتل خالد ، والرُّها ، إقطاعاً للأُمير نحر الدين [منغود] ^(٢) بن الزعفرانى ، ولم تكن قلعتا حمص وحماة له ، وإنما كان فيهما دُز داران ^(٣) من قبل نور الدين وكان المرتب بقاعة حماة عز الدين جُرْدِيك ^(٤) — مملوك نور الدين — فلم يمكن نحر الدين بن الزعفرانى المقام بمدينتي حمص وحماة ، لسوء سيرته فى الرعية ، ففارقهما ، فلما نزل السلطان [صلاح الدين] ^(١) على حمص ، وذلك حادى عشر جمادى الأولى ، تسلم المدينة ، وامتنعت القلعة ، فترك بمدينة حمص من يحفظها ، ومنع مَنْ بالقاعة من التصرف ، وأن لا يصعد ^(٥) إليهم ميرة .

ثم سار إلى حماة ، فملك المدينة مستهل جمادى الآخرة من السنة ، وراسل الأُمير عز الدين جُرْدِيك فى تسليم القلعة إليه ، فامتنع عليه ، فأرسل إليه يعرفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح ، وإنما يريد حفظ البلاد عليه ، فاستحلفه جُرْدِيك

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (١٦٤) .

(٢) س : « دزدارا » ، وللتعريف باللفظ أنظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٨ ، هامش ١) .

(٣) جرديك ، ويرسم أحيانا « جورديك » كان من مماليك نور الدين ، ولهذا يلقب بالنورى ، وكان واحداً من القواد الذين راققوا أسد الدين شيركوه فى حملته الأخيرة على مصر ، وكان مشاركاً لصلاح الدين عند القبض على شاور . وسترده بقية أخباره فيما يلى .

(٤) س : « وأن تصعد » ، وما هنا هو الصحيح .

على ذلك ، خلف ، وسيره السلطان رسولا إلى حلب ، يدعوهم إلى اجتماع الكلمة في طاعة الملك الصالح ، وفي إطلاق الأمير شمس الدين علي بن الداية وأخوته من السجن ، فسار إليهم جرديك إلى حلب ، واستخلف بقلعة حماة أخاه^(١) ، ولما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه سعد الدين كُشْتِكِين ، فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى السلطان الملك الناصر — رحمه الله —

ذكر منازلة

السلطان الملك الناصر حلب ورحيله عنها

ثم مضى السلطان إلى حلب ، وحاصرها لثلاث مضي^(٢) من جمادى الآخرة ، فقاتله أهلها أشد قتال ، وركب الملك الصالح — وهو صبي عمره اثنتا^(٣) عشرة سنة — وجمع أهل البلد ، وقال لهم :

” قد عرفتم إحسان أبي إليكم ، ومحبة لكم ، وسيرته فيكم ، وأنا يتيحكم^(٤) ، وقد خان^(٥) هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه ، يأخذ بلادى ، ولا يراقب الله [والخلق^(٦)] “ .

وقال من هذا الكلام كثيرا ، وبكى وأبكى الناس ، فبذلوا له الأموال والأنفس ، واتفقوا على القتال دونه ، والمنع عن بلاده ، وجدوا في القتال ، فكانوا يخرجون يقاتلون عند جبل جوشن ، (١٧٩) فلم يقدر السلطان على القرب من البلد .

-
- (١) الضمير هنا يعود على « جرديك » ، فالمقصود أخو جرديك .
 (٢) س : « بقين » ، وما هنا هو الصحيح ، أنظر : (الروضين ، ج ١ ، ص ٢٣٨) .
 (٣) الأصل : « انتقى » .
 (٤) كذا في الأصل ، وفي س (٦٤ ب) : « ييكم » ، وفي الروضين : « ربيكم » .
 (٥) في الأصل « جاء » وما هنا عن س والروضين .
 (٦) ما بين الحاصرتين عن س .

ذكر استنجد

الحلبين بالملاحدة وقتلهم ناصح الدين خمار تكين

وأرسل سعد الدين كُشْتِكِين إلى سنان^(١) صاحب الإسماعيلية بمصبات^(٢) وقلاعها^(٣). وبذل له أموالا كثيرة ليقتل السلطان، فأرسلوا جماعة منهم إلى عسكره، فعرفهم الأمير ناصح الدين خمار تكين — [صاحب بوقيس وهو جد مظفر الدين]^(٤) صاحب صهيون — وكان مناغرا^(٥) لهم، فقال لهم: “لأى شىء جئتم، وكيف تجاسرتم على الوصول؟”

فجرحوه جراحات مشخنة مات منها — رحمه الله — ، وجاء من يدفع عنه فأنخنوه [أيضا جراحات]^(٦)، وعدا أحدهم ليهاجم على السلطان [صلاح الدين]^(٧) وقد شهر سكينا، فشمله طغرل أمير جاندار بالسيف فقتله، وما قُتل الباقون حتى قتلوا عدة [من الأجناد]^(٨).

ثم كاتب الحلبيون صاحب طرابلس، وكان في أسر نور الدين — رحمه الله — وقد كان أسره^(٩) على حارم، وبقى في الأسر أكثر من عشر سنين، ثم فدا نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار، وفكك ألف أسير، فتوجه بالفرنج إلى حمص، فلما سمع السلطان بذلك رحل عن حصار حلب، وذلك مستهل رجب من هذه السنة — أعني سنة سبعين وخمسمائة —

(١) التعريف به أنظر: (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٤٩، هامش ٥). وعن هذا الموضوع راجع أيضا:

(B. Lewis: *Saladin and the Assassins*, B.S.O.A.S. 1953, XV/2).

(٢) التعريف بها أنظر: (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٠٨، هامش ٥).

(٣) ص: «رخلائها».

(٤) ما بين الحاصرتين عن ص (٦٤ ب) وهي زيادة ضرورية لإيضاح النص، لأن ناصح الدين

كان صاحباً لبوقيس لا لصهيون، أنظر أيضاً: (الروضتين، ج ١، ص ٢٤٠).

(٥) ص: “وكان منازع” وما هنا هو الصحيح، أنظر الروضتين.

(٦) ما بين الحاصرتين عن ص.

(٧) الأصل: “كسره” وما هنا عن ص.

ذكر مراسلة السلطان للديوان العزيز

ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدين بن أبي المضاء^(١) رسولا إلى الخليفة الإمام المستضيء بنور الله بن المستنجد برسالة فاضلية^(٢) ، تشمل على تعداد ما للسلطان عليه من الآثار الجميلة ، والقيام بخدمة الدولة العباسية ، من جهاد^(٣) العدو في أيام نور الدين ثم فتح مصر واليمن وبلاد حجة من أطراف المغرب ، وإقامة الخطبة العباسية بها ، وأنه لم تخل سنة من غزو الفرنج برا وبحرا ، و^(٤) مركبا وظهرا ، وفتح معاقل لهم من حملتها قلعة كانت بشغرايلة قد بناها العدو في بحر الهند المملوك منه إلى الحرمين واليمن ، [وغزا ساحل الحرم]^(٥) ، فسي منه خلقا ، وخرق الكفر في ذلك الجانب خرقا ، ففتحت هذه القلعة ، وصارت معقلا لجهاد المسلمين وموئلا للمسافرين^(٦) ، وفيه :

فصل في ذكر أهل مصر :

(١) في س ، وفي (السلوك ، تعليقات الدكتور زبادة قلا عن " بلوشيه " ، ج ١ ، ص ٦) " أبي المضاء " وفي (ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ٢٩٧) : " أبو المضاء " وصحة الاسم كاملا " شمس الدين محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء البلبيكي أبو عبد الله " وذلك قلا عن : (ابن الديني : تاريخه باختصار الذهبي ، نشر الدكتور مصطفى جواد ، ج ١ ، ص ٢٤١) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٢ ، ١٩٥ ، ٢٤١) وقد أشرفنا فيما سبق (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٠٠ ، هامش ٢) إلى الرأية التي تقول بأن هذا الرجل هو أول من قطع الخطبة للعاضد الفاطمي وخطب للمستضيء العباسي في مصر بأمر صلاح الدين ، وتؤكد المراجع التي ترجمت له أنه حظى بعد ذلك عند صلاح الدين " حتى جعله سفيرا بينه وبين الملوك والخلفاء " . أنظر أيضا : (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٣) .

(٢) أنظر النص الكامل لهذه الرسالة في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤١ — ٢٤٣) .

(٣) النص في س مضطرب غير مفهوم وهو : " من جهاد الدين هو دأيم للعدو في أيام نور الدين إلخ " ، ونص الروضتين (ص ٢٤١) : " من جهاد الأفرنج في حياة نور الدين " .

(٤) هذان اللفظان ساقطان من س .

(٥) ما بين الحاصرتين عن س (١٦٥) ، وهو متفق مع نص الروضتين .

(٦) جاء في نسخة س بعد هذا اللفظ ما يأتي : " وفي هذه الرسالة فصولا (كذا) يذكر فيها ما تم له في مصر وغيرها ، تركها خوف الإطالة " ثم حذف بعد ذلك هذه المقبسات من الرسالة الفاضلية التي =

”ووصلنا البلاد وبها أجناد عندهم كثير ، وسوادهم كبير ، وأموالهم واسعة ، وكنزهم جامعة ، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر ، والحياة في السر فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر ، وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف رجل^(١) ، كلهم أغتام أعجام ، إن هم إلا كالأنعام (١٨٠) لا يعرفون ربا إلا ساكن قصره ، ولا قبله إلا ما يتوجهون إليه من ركنه [وامثال أمره]^(٢) ، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية^(٣) ، موضوعة عنهم الجزية ، ولهم شوكة وشكة ، [وحمة]^(٤) وحمة ، لهم حواش لقصرهم من بين داج تتلطف في الضلال مداخله ، وتصيب العقول^(٥) مخاتله ، ومن كُتِّب تفعل أقلامهم فعل الأسل ، وخدام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النجل ، ودولة قد كبر عليها^(٦) الصغير ولم يعرف غيرها الكبير ، ومهابة تمنع من خطرات^(٦) الضمير ، فكيف

= اقردت بذكرها نسخة لك التي اعتدناها أصلا للنشر ، وقد أورد صاحب الرضتين النص الكامل للرسالة وهي رسالة دامة لأنها تلخص جهود صلاح الدين منذ ولي الوزارة بمصر بعد وفاة عمه إلى هذه السنة (٥٧٠) ، وهذا الفارق مثل واضح من أمثلة كثيرة على أفضلية نسخة لك على نسخة س ، ولتصحح هذه النقصات سنعارضها على الرضتين . وسنشر هذه الرسالة كاملة في ملاحق هذا الجزء .

(١) هذا نص هام لأنه يحدد عدد الجند من السودانين في الجيش المصري في أواخر العصر الفاطمي .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (الرضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٢) .

(٣) دخل الأرمن في الجيش الفاطمي وفي وظائف الدولة منذ ولي بدر الجمالي الوزارة للسنصر . ثم كثر عددهم وزادت شوكتهم وأصبحوا غالبية كبيرة في مصر ، ولم يقتصر الأمر على استخدام المسلمين منهم بل استخدم الأرمن النصارى بعد ذلك ، وخامة بعد أن ولي بهرام الأرمني الوزارة للخليفة الحافظ ، ولهذا النص هنا أهميته ، لأن المعروف أن الدول الإسلامية في كل العصور لم تكن تستخدم في جيوشها إلا جنودا مسلمين ، وهذا النص يدل على أن الجيش الفاطمي كان به جنود من الأرمن النصارى .

(٤) النص يختلف هنا قليلا عن الرضتين ، فكان هذا اللفظ هناك ”القلوب“ .

(٥) الرضتين : ”نملها“ .

(٦) الرضتين (٢٤٢) : ”تمنع ما يكنه الضمير“ .

بنخطوات التدبير ، هذا إلى استباحة للمحارم^(١) ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادة [جارية]^(٢) جائزة ، وتحريف للشريعة بالتأويل ، وعدول إلى غير مراد الله بالتزويل ، وكفر يسمى بغير اسمه ، وشرع يستربه ويحكم بغير حكمه ، فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار ، وتحييفهم تحيف الليالي^(٣) والنهار ، يعجائب^(٤) تدبير لا تحتملها المساطير ، وغرائب تقدير^(٥) لا تحملها الأساطير^(٦) ، فشرعنا في تلك الطوائف من الأجناد والسودان والأرمن ، فأخرجناهم من القاهرة^(٧) ، حتى بقي القصر ومن به من خدم وذرية قد تفرقت شيعه ، وتمزقت بدعه ، وأخفيت دعوته ، وخفت ضلالته ، فهناك تمت لنا إقامة الكلمة والجهر بالخطبة ، والرفع للواء الأعظم الأسود ، وعجل الله للطاغية الأكبر بفنائها ، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حشها^(٨) أيسر من إثم إبقائه ، إلا أنه عوجل لفرط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته“.

فصل^(٩) : ” وكان باليمن ما علم من [أمر]^(١٠) ابن مهدي الضال الملبد ، المبتدع المتمرد^(١١) ، وله آثار في الإسلام وثار طالبه النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه سبا الشرائف الصالحات ، وباعهن بالثمن البخس ، واستباح منهن كل

(١) في الأصل : ” المحارم والفرائض “ ، والتصحيح عن الرضتين .

(٢) زيادة عن (الرضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٢) .

(٣) الرضتين : ” الليل “ .

(٤) في الأصل : ” وللاعمال العجائب تدبير “ وما هنا عن الرضتين .

(٥) في الأصل : ” قريب “ وما هنا عن الرضتين .

(٦) قبل هذا اللفظ في الرضتين فقرات طويلة من الرسالة أسقطها ابن واصل اختصارا .

(٧) في الأصل : ” غلبها “ والتصحيح عن الرضتين .

(٨) ما بين الحاصرتين عن الرضتين .

(٩) في الأصل : ” المترد “ والتصحيح عن الرضتين (٢٤٢) .

ما لا تقر عليه نفس ، ودان ببدعة صعبة ، ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة ، وأخذ أموال الرعايا [المعصومة]^(١) وأباحها ، وأحل الفروج المحرمة وأباحها .

فصل : ولنا بالمغرب أثر أغرب ،^(٢) قد ملكنا مما تجاور منه بلادنا بلادا تزيد مساقطها على شهر ، وسيرنا [إليها] عسكرا بعد عسكرا ، رجع بنصر بعد نصر ، من مشاهيرها : برقة ، قفصة ، قسطنطينية ، توزر ، كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا المستضيء بنور الله ، سلام الله عليه .

(١٨١) ثم ذكر تشنت بلاد الشام بعد وفاة نور الدين ، وطمع العدو فيها لاختلاف الآراء ،^(٣) ” وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع إليه طالب ، وساءت السيرة ، وخبثت السريرة “ .

فصل : ”^(٤) وعرفنا أن البيت المقدس إن لم تيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم نجرد العزم لقلعه ، وإلا نبنت عروقه ، واتسعت على المسلمين^(٥) خروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهم القادرين بالقعود آثمة ، وإنا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العارة ، وكلال الدواب التي بها على الجهاد قوة ، وإذا جاوزناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخيول مستريحة ، والعساكر كثيرة [الجموع]^(٦) .

^(٢) وإذا شد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده ، وبلغنا المنى بمشيئة الله ، ويد كل مسلم^(٧) تحت برده ، واستنقذنا أسير من المسجد الأقصى ، الذي أمرى الله إليه بعبده “

(١) ما بين الحاصرتين عن الرضتين .

(٢) قبل هذا اللفظ في الرضتين فقرات أسقطها ابن واصل اختصارا .

(٣) الرضتين (ص ٢٤٣) : ” على أهل الدين “ .

(٤) في (الرضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٣) : ” مؤمن “ .

ثم ذكر فيه : "أنه قدم الشام لإصلاح الأمور ، وحفظ الثغور ، وخدمة ابن نور الدين وكفالاته ، وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويبالغون في ظلمه" (١)

ثم طلب من الخليفة المستضيئ بنور الله تقليدا جامعا بمصر ، والمغرب ، واليمن والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكلما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيفه وسيف عساكره ، ولمن يقيمه من أخ أو ولد من بعده ، تقليدا يتضمن للنعمة تخليدا ، وللدعوة تجديد (١)

ذكر استيلاء

السلطان الملك الناصر على قلعتي حمص وبعليك

قد ذكرنا مكاتبة الحلبيين للقومص (٢) صاحب طرابلس ، وقصده حمص ، ولما وصل إليها نازلها ، (٣) وذلك سابع رجب ، وبلغ السلطان ذلك (٤) فرحل عن حلب ، ووصل إلى حماة ثامن رجب بعد نزول الفرنج على حمص بيوم واحد ، ثم رحل إلى الرستن ، فلما بلغ الفرنج قربه رحلوا عن حمص ، ووصل إليها السلطان ، وحصرها وضائمتها ، فملكها لتسع بقين من شعبان ، ثم سار منها إلى بعليك ، وبها خادم اسمه يمين ، فحصرها السلطان ، فأرسل يمين بطلب الأمان

(١) هذه الفقرة ليست نصا من الخطاب وإنما هي تلخيص له .

(٢) نرجع هذا اللفظ في (نرجع الكروب ، ج ١ ، ص ٧٢ ، هامش ١) والقومص المذكور هنا هو "الكونت ريمون الثالث صاحب إمارة طرابلس الصليبية" ويلقب في بعض المراجع العربية "بالصنجيلي" وهو تحريف عربي للقبه الفرنسي : (Le Conte Raymond descendant ... de Saint-Agilles).

(٣) النص في ص (١٦٥) مضطرب وهو : "وذلك لما بلغ السلطان ذلك فرحل" .

له ولمن معه ، فأمّنهم السلطان . وتسلم القلعة لأربع مصبي من شهر رمضان من هذه السنة — أعني سنة سبعين وخمسمائة — [١٨٢] وامتدحه عماد الدين الكاتب ، وكان قد اتصل بخدمته وهو نازل على حمص من قصيدة أولها :

بفتوح عصرِكَ يفخر الإسلامُ ،	وبنور نصيرِكَ تشرق الأيامُ
وبفتح قلعةٍ بعلبك تهذبُ	هذي الممالكُ ، واستقرَّ الشامُ
وبكى الحسود دماً ، وثغر الثغر — من	فرج بنصيرِكَ — للهدى بسامُ
فتحُ تسنّى في الصيامِ كأننا	— شكراً لما منّ الله — صيامُ
من ذا يرى في الصوم عيدَ سعادةٍ	حلّت لنا ، والفطرُ فيه حرامُ
أسدى صلاحُ الدين والدنيا يدا	بنواها سوقُ الرخاء ^(١) تقامُ
فتملّ فتحكُ ، وافتح القدس ^(٢) الذي	بمحصوله لفتوحك الإتمامُ
دُمّ للدلى حتى يدومَ نظامها ،	واسلم ، يمزُّ بنصيرِكَ الإسلامُ

ذكر منازلة

سيف الدين غازي أخاه عماد الدين زنكي بن مودود بسنجار^(٣)

كان السلطان قد كتب عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي — صاحب سنجار — وأطعمه في الملك^(٤) لأنه كبير البيت ، فمال إلى السلطان وصار من جهته ، ولما ملك السلطان دمشق وحمص وحماة وبلبك كتب الحلبيون إلى سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي — صاحب الموصل — يستنجدونه

(١) كذا في الأصل وفي س ، وفي الروضتين (ج ١ ، ص ٢٤٧) : "الرجاء" .

(٢) كذا في الأصل وفي س (٦٥ ب) ، وفي الروضتين : "وانصد الفتح" .

(٣) س : "صاحب سنجار" .

(٤) س : "البلاد" .

عليه ، وطلبوا منه أن يعبر الفرات ليقصدوا السلطان ، فجمع سيف الدين عساكره ، وكاتب أخاه عماد الدين زنكي ، وأمره أن ينزل إليه من سنجار بعساكره ، ليجتمعها على حرب السلطان الملك الناصر ، فامتنع من ذلك ، بفحش أخوه سيف الدين أخاه عز الدين مشعود بن مودود في عسكر كبير هو معظم عسكره إلى الشام ، وجعل المقدم على العسكر مع أخيه الأمير عز الدين محمود المعروف بزلفندار^(١) ، وجعله المدبر للأمر ، وسار سيف الدين بنفسه إلى سنجار ، وحصرها في شهر رمضان من هذه السنة — أعني سنة سبعين وخمسمائة — ، وجد في قتالها ، فامتنع بها أخوه عماد الدين ، وأحسن حفظها والذب عنها ، فبينما هو [كذلك]^(٢) إذ أتاه الخبر [١٨٣] بانهزام عسكره الذي مع أخيه عز الدين — كما سذكروه — ، فصالح حينئذ أخاه ورحل عائدا إلى الموصل .

ذكر كسرة المواصلة بقرون حماة

لما تسلم الملك الناصر — رحمه الله — بعلبك عاد إلى حمص ، ووصل عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكي بعساكر الموصل إلى حلب ، ومعه عز الدين [محمود الملقب]^(٣) بزلفندار^(٤) ، ثم جاءوا إلى حماة فحصروها ، وراسلوا السلطان في الصلح ، فقدم السلطان في خف^(٥) من أصحابه ، فجاءه

(١) م : ” بركفندار ” وما هنا يتفق والرسم في (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٨) وهو المرجع الذي ينقل عنه المؤلف هنا .

(٢) ما بين الحاصرتين عن م (١٦٦) .

(٣) ما بين الحاصرتين عن م .

(٤) قال (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٩) : ” وكان زلفندار جاهلا بالحروب والقتال ، غير عالم بتدبيرها ، مع جبن منه ، إلا أنه قد رزق سعادة وقبولا عند سيف الدين ” .

(٥) م : ” في جماعة ” وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٨) وهو المرجع الذي ينقل عنه هنا .

الأمير سعد الدين كُشْتِكِين والعدل شهاب الدين أبو صالح بن العجمي وغيرهما ،
وتفاوضوا في معنى الصلح ، فأجابهم السلطان إلى أن يرد عليهم الحصون التي
أخذها ، وأن يقنع بدمشق نائباً عن الملك الصالح مستمياً^(١) إليه ، والخطبة والسكة
له ، وأن يرد عليهم كلما أخذ من الخزانة ، فلما رأوه مجيباً لكل ما يلتمس منه
وقلة عسكره اشتطوا عليه وطمعوا ، وطلبوا الرحبة وأعمالها ، فقال :

”هي لابن عمي نصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، ولا سبيل إلى
الإضرار به“ .

فنفروا وأصبحوا على الرحيل إلى جانب العاصي قريباً من شيزر ، وجمعوا
العساكر وأظهروا عزمهم على المصاف ، فعدَّ السلطان إلى سفح قرون حماة خيامه ،
ووصل إليه جماعة من العسكر المصري ومعهم عشرة من المتقدمين ، منهم أبناء
أخيه : الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وعز الدين فرخ شاه
بن شاهان شاه بن أيوب ، وغيرهم ؛ ثم كانت الوقعة بين الفريقين تاسع عشر
شهر رمضان من السنة ، فلم يثبت عسكر الموصل ، وانهزموا لا يلوى أحد على
أحد ، وثبت عز الدين مسعود بعد انهزام أصحابه ، فلما رأى السلطان ثباته قال :
”إما أن هذا أشجع الناس ، وإما أنه لا يعرف الحرب ،“ وأمر أصحابه بالحملة
عليه ، فحماوا فأزالوه عن موقفه ، وتمت الهزيمة عليهم ، وتبعهم السلطان
وعسكره ، حتى جاوز معسكرهم^(٢) ، وغنم كل ما معهم ، وأسر جماعة منهم ،
ثم منَّ عليهم وأطلقهم ، وعادوا منهزمين إلى حلب ، وتبعهم السلطان بنية
المحاصرة لحلب والمنازلة لها ، وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح ابن نور الدين ،
وأزال اسمه عن السكة في بلاده .

(١) س : ”مستمياً“ .

(٢) س : ”بمعسكرهم“ .

وفي هذه الوقعة يقول عماد الدين الكاتب من قصيدة يمدح بها الملك المظفر

تقي الدين — رحمه الله — :

[١٨٤] لَا تُفْنِ مِنْ فَرَقِ الْفِرَاقِ الْأَدْمَاءَ ، نَهَى الشُّهُودُ عَلَى الْغَرَامِ الْمَدْعَى
 قَلْبٌ أَصَابَتْهُ الْعَيُونُ ، وَلَمْ يَزَلْ — مِنْ مَسْهَا — بِالْهَاجِسَاتِ^(١) مُرَوَّعَا
 وَمَنْ التَّجَبَّرَ أَنِّي أَبْصَرْتُهُ فِي ظَعْنِهِمْ ، وَسَالَتْ عَنْهُ الْأَرْبَعَا^(٢)
 أَصْبَحْتُ إِذْ شِيعَتُهُمْ لثَلَاثَةً : صَبْرِي ، وَغَمْضِي ، وَالْفَوَادَ مُشِيمَا
 أَوْ مَا اتَّقَيْتُمْ^(٣) حِينَ رُعْتُمْ سِرْبَهُ فِيهِ^(٤) تَقَى الدِّينِ ذَاكَ الْأَرْوَعَا
 عُمَرُ بْنُ شَاهِنْشَاهٍ مَنْ هُوَ عَامِرٌ^(٥) أَرْكَانَ مُلْكِ الشَّامِ حِينَ تَضَعُضَعَا
 خَضَعَ الْعَدُوَّ وَذَلَّ بَعْدَ تَعَزُّزٍ لَكُمْ ، وَحَقَّ عَدُوْكُمْ أَنْ يَخْضَعَا
 لِمَا عَصَى الْأَعْدَاءُ بِالْعَاصِي جَرَى بِدَمَائِهِمْ طَوْعَا^(٦) سَيُولَا دُفْعَا

ذكر وقوع الصلح

ثم جاءت الرسل من الحلبيين إلى السلطان يطلبون منه الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم منها ، فأجابهم إلى ذلك ، واستراد منهم المعرة وكفرطاب ، وانتظم الصلح ، ووقعت الأيمان ، ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال من السنة .

(١) س (٦٦ ب) : ” من مسها ما لها حساب مروعا “ ، وهذا دليل على أن كاتب هذه النسخة كان ينقل دون وعي أو فهم لا ينقله ، فهو مجرد ناسخ .

(٢) كذا في الأصل ، وفي س ؛ وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٩) : ” الأضلعا “ ، والقصيدة هناك أكثر أبياتا فاقطرها . (٣) س : ” لقيتم “ .

(٤) س : ” فيهم “ ، وما هنا يتفق وما في الروضتين .

(٥) س : ” من عامر “ . وما هنا يتفق وما في الروضتين .

(٦) كذا في الأصل وفي الروضتين ، وفي س : ” طولا “ .

ووصل إلى حماة فوافته الرسل من جهة الامام المستضيئ بنور الله أمير المؤمنين .
بالتشريفات السلطانية ، والتقليد بما أراد من الولايات ، وأفاضوا الخلع على
السلطان وأقاربه ، وخصَّ ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بمزيد تفضيل
على أقارب السلطان ، رعاية لحق^(١) والده أسد الدين — رحمه الله تعالى — :

ذكر استيلاء الملك الناصر على بارين

وكان صاحبها الأمير نحر الدين^(٢) مسعود بن علي الزعفراني من عهد نور الدين^(٣) ،
وكان من أكابر الأمراء النورية ، فلما رأى قوة السلطان نزل منها واتصل
بخدمته ، وظن أنه يكرمه ويشاركه في ملكه ، ولا ينفرد عنه بأمر ، كما كان
عند نور الدين ، فلم ير منه شيئاً من ذلك ، ففارقه^(٤) ولم يكن بقي له من إقطاعه
النوري غير بارين ، ونائبه بها^(٥) ، فلما انتظم الصلح بين السلطان والحليين ،
وقدم حماة — كما ذكرنا — سار منها إلى بارين وحاصرها ، ونصب عليها
المجانيق ، فسلمت إليه بالأمان ، فلما ملكها عاد إلى حماة ، وأقطعها نخاله
[١٨٥] شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي ، وكان تملك بارين في العشر
الأخير من شوال من هذه السنة .

(١) س : ” لمعنى والده “ .

(٢) الأصل : ” عز الدين “ والتصحيح عن الكامل لابن الأثير والروضتين .

(٣) بعد هذا اللفظ في س : ” وكانت حماة أيضاً وغيرها ، فأخذت منه ، ولم يكن بقي له إلا
بارين “ وهو استطراد لا داعي لإثباته هنا فقد ذكر ما يدل على معناه هنا بالمتن بعد ثلاثة أسطر .

(٤) مكان هذه الجملة في س : ” ففارقه ومضى رقيق ببارين فأبنا له “ .

ذكر استيلاء

ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه على حمص^(١)

وفي هذه السنة — أعني سنة سبعين وخمسمائة — سلم السلطان حمص إلى ابن عمه الملك القاهر ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذى ، وهى كانت إقطاعا لوالده أسد الدين فى أيام نور الدين — كما ذكرنا — فملكها ناصر الدين محمد ، ثم ملكها بعده ولده الملك المجاهد أسد الدين شيركوه إلى سنة سبع وثلاثين وستمائة ، ثم ملكها بعده ولده الملك المنصور إبراهيم إلى سنة أربع وأربعين وستمائة ، ثم ملكها ولده الملك الأشرف موسى بن إبراهيم بن شيركوه ، فأخذت منه سنة ست وأربعين وستمائة .

ثم لما ملك التتر الملاعين البلاد الشامية سنة ثمان وخمسين وستمائة أعادوها إلى الملك الأشرف ، ودخل فى طاعتهم ، ثم لما كسر الملك المظفر سيف الدين قطز المعزى صاحب مصر التتر بعين جالوت وملك الشام قرر الملك الأشرف بها ، فبقيت معه إلى أن توفى الملك الأشرف سنة اثنين وستين وستمائة [فملكها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس صاحب مصر]^(٢)

ثم عاد السلطان الملك الناصر — رحمه الله — إلى دمشق ، فدخلها فى آخر شوال ، ثم رحل منها إلى مرج الصفر ، فقتل به إلى آخر السنة .

ودخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة والسلطان بمرج الصفر ، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة ، فأجابهم السلطان إليها ، بعد أن اشترط عليهم أمورا التزموها ،

(١) هذا العنوان غير موجود فى م ، وإنما ربط بين ما قبله وما بعده بلفظ : " قال " .

(٢) ما بين الحامرتين زيادات عن م (٦٧ ب) وهذا استطراد التزمه ابن راصل فى كتابه هذا ، فهو كلما عرض لذكر مدينة من مدن الشام الكبرى — وخاصة تلك المدن التى كانت مقر الإقطاع فى تلك العصور — تتبع الأسرة الحاكمة لها إلى قيل الوقت الذى يؤلف فيه كتابه . وهذا الاستطراد أخيرا يدل على أن ابن راصل كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٦٢ هـ .

وكان الشام مجدبا ، فأذن السلطان للمساكر المصرية في الرحيل إلى بلادهم ،
وإذا استغلوها^(١) رجموا إليه .

ثم رجع السلطان إلى دمشق ، وواظب الجلوس في دار العدل ، والصيد ،
ومدحه كاتبه عماد الدين بقصيدة أولها :

سوالك لسهم^(٢) العلى لن^(٣) يرشأ فنسأل رب العلى أن تعيشأ
من الناس بالبر صيدت الكرا م ، وبالبأس في البر صيدت الوحوشأ
وكم سرت^(٤) من مصر نحو العريأ ش ، فهدمت للمشركين العروشأ
سراياك تبعت قدأماها — من الرعب ، نحو الأعادى — جيوشأ
[١٨٦] ويوم حماة تركت العدا ة ، كما طردت^(٥) بالفلا الريح ريشأ

ذكر اجتماع

الحلبين والمواصلة لحرب السلطان الملك الناصر ثانيا

لما انتظم الصلح بين السلطان والحلبين ، وسمع بذلك سيف الدين غازى
ابن مودود — صاحب الموصل — عتب على الحلبيين ، ووبخهم ونسبهم
إلى العجلة في ذلك [وإلى الضعف]^(٦) ، وسلوك غير طريق الحزم ، وحملهم
على النقض والنكث ، وأنفذ إليهم من أخذ عليهم الموائيق ، ثم توجه ذلك
الرسول إلى دمشق ، ليأخذ لسيف الدين من السلطان عهدا ، ويكشف أيضا

(١) س : " وإذا استغفروهم " . وما هنا يتفق ونص العماد في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٢)

(٢) كذا في الأصل وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٢) ؛ وفي س : " سهم " .

(٣) في الأصل ، وفي س : " أن " وما هنا عن الروضتين .

(٤) كذا في الأصل ، وفي الروضتين ، وفي س : " قهرت " .

(٥) كذا في الأصل وفي س ، وفي الروضتين : " طيرت " .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س (٦٧ ب) .

ما عنده ، فلما خلا به طالبه السلطان بنسخة اليمين^(١) ، فغلط الرسول وأخرج من كه يمين الحلبيين لسيف الدين ، وناولها له ، فتأملها وأخفى^(٢) سره ، واطلم على ما اتفقوا عليه وردها إليه ، وقال : ” لعلها قد تبدلت “ ، فعرف الرسول أنه قد غلط ، ولم يمكنه تلافي الفارط منه ، وقال السلطان : ” كيف حلف الحلبيون لسيف الدين ، ومن شرط أيمانهم أنهم لا يعتمدون أمرا إلا بمراجعتهم لنا واستئذانهم ؟ “ ، وتحقق أنهم على نقض العهد .

وشاع الخبر عنهم بالخروج في الربيع ، فكتب السلطان إلى نائبه بمصر ، وهو أخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، يعلمه بذلك ، ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد والخروج في شعبان .

وصالح سيف الدين أخاه عماد الدين — كما ذكرنا — وعاد^(٣) عن سنجار إلى الموصل ، وجمع العساكر وأنفق فيهم الأموال ، واستنجد بصاحب الحصن وصاحب ماردين وغيرهما ، ثم سار إلى نصيبين في ربيع الأول من هذه السنة ، وأقام بها حتى انتسخ الشتاء ، ثم سار متوجها إلى حلب ، فعبر الفرات من البيرة ، وخيم على الجانب الغربي ، وراسل الحلبيين ، واستقرت القاعدة أنه يصل إليهم ، وذلك بعد^(٤) رسول سعد الدين كشتكين^(٣) إليه ، ومراجعات كثيرة وقعت بينهم عزم على العود منها مرارا ، ثم سار ووصل إلى حلب ، فخرج إليه ابن عمه الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين — رحمهما الله — فالتقاه قريب القلعة ، واعتنقه وضمه إليه وبكى^(٤) ، ثم أسره بالعودة إلى القلعة ، فعاد إليها ، وسار هو حتى نزل بعين المباركة ، وأقام بها مدة ، وعسكر حلب يخرجون إلى خدمته كل يوم ، وصعد إلى القلعة جريدة ، وأكل فيها ، ونزل .

(١) س : ” فلما خلا به أراد أن يخرج له نسخة اليمين “ .

(٢) الأصل : ” وأخفا “ .

(٣) هذا اللفظ ساقط من س .

(٤) الأصل : ” وبكا “ .

ذكر الواقعة بتل السلطان

ووصلت من مصر العساكر [١٨٧] إلى السلطان الملك الناصر ، فسار بهم متوجها إلى حلب ، فوصل حماة ، ثم رحل منها إلى مرج أبوقيس ، وجاء الخبر أن الحلبين والمواصلة في عشرين ألف فارس سوى سوادهم ، وأنهم موعودون من الفرنج بالنجدة ، وأمدادهم متواصلة ، ولم يكن اجتمع من عسكر السلطان سوى ستة آلاف فارس ، فرتب السلطان عسكره ، وأطلق الحلبيون من في الأسر من ملوك الفرنج ، منهم : أرناط^(١) برنس صاحب الكرك ، وجوسلين^(٢) خال الملك ، وقرروا معهم المساعدة لهم ، ورحل سيف الدين بالعساكر إلى تل السلطان .

وبلغ السلطان الملك الناصر الخبر وقد عيد عيد الفطر ، فعبر العاصي عند شيزر ، ورتب العسكر ، وأعاد الأثقال إلى حماة ، ثم سار حتى أتى قرون حماة ، فبلغ الحلبين أنه قد قارب عسكرهم ، فأخرجوا اليك^(٣) ، ووجهوا من يكشف الأخبار ، فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب^(٤) التركمان ، وتفرق عسكره لسقى خيله ، ولو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة ، لكن صبروا عليه

(١) هكذا ترسمه المراجع العربية وهو (Le Prince Arnould Seigneur de Carac) وكان اسمه قبل مجيئه إلى الشام : (Renaud de Chatillon)
(٢) س : " وابن جوسلين بن خال الملك " وما هنا يتفق ونص العماد (الروضين ، ج ١ ، ص ٢٥٥) .

وهو (Goscelin III of Courtenay, titular Count of Edessa) جوسلين الثالث من كورتيني الأمير الأسمى للزها ، وكان مجيئا في حلب فأطلق سراجه كما بالتم هنا . أنظر أخباره في (RUNCIMEN : A History of the Crusades, Vol. 2 pp. 405-407, -408 etc.)

(٣) اليك لفظ فارسي معناه : طلائع الجيش . أنظر : (Dozy : Supp. Dict. Arab.)

(٤) كذا في الأصل وفي الروضتين . وفي (اللسان) : الجباب الركابيا تحفر ينصب فيها العنب أي يفرس فيها كما يحفر للفيلة من النخل .

حتى سقى خيله هو وعسكره ، واجتمعوا وتعبوا للقتال ، وذلك يوم الأربعاء التاسع من شوال من هذه السنة — أعني سنة إحدى وسبعين وخمسمائة —

ثم وصل السلطان إلى تل السلطان المعصر ، وقد تعب هو وعسكره وعطشوا ، فآلقوا نفوسهم إلى الأرض ليس بهم حركة ، فأشار على سيف الدين جماعة من أصحابه بقتالهم على هذا الحال ، فقال بزلقندار :

” ما بنا حاجة إلى قتال هذا الخارجى هذه الساعة ، غدا بكرة نأخذهم كلهم “

فتركوا القتال إلى الغد ، فلما أصبحوا يوم الخميس اصطفوا للقتال ، وكان فى ميمنة^(١) سيف الدين مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على كوجك — صاحب إربل — ، فكسر ميسرة^(٢) السلطان ، ثم حمل السلطان بنفسه فانكسروا بين يديه ، فلم يقف منهم أحد على أحد ، فأسر جماعة من أمرائهم الأكابر ، منهم نحر الدين عبد المسيح ، فمَزَّ عليهم وأطلقهم ، واستولى السلطان على جميع مخيمهم وسرادق^(٣) سيف الدين غازى وابن أخيه عز الدين فرخشاه .

ثم ركض السلطان وراء سيف الدين فلم يدركه ، فعاد وخلع على [بقية]^(٤) الأصراء المأسورين ، ومنَّ عليهم ، ونزل فى السرادق [١٨٨] السيفى قتلناه بخزائنه واصطبلاته ، ومطابخه^(٥) ، ففرقها جميعا ، ورأى فى السرادق طيوراً من القمارى والبلابل والهزارات^(٦) والبيغاء فى الأقفاص ، فاستدعى السلطان

(١) الأصل : ” ميسرة “ والتصحيح عن : (ابن شداد : السيرة البوسفية ، ص ٤١) .

(٢) م : ” ميمنة “ وما هنا يتفق ونص ابن شداد .

(٣) م : ” وهرب سيف الدين غازى وابن أخيه عز الدين فرخشاه فاستولى السلطان على سرادقهم “ .

(٤) ما بين الحاصرتين عن م (١٦٩) .

(٥) الأصل : ” ومطابخه “ ، وما هنا عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٥) .

(٦) الأصل : ” والقرارات “ والتصحيح عن م والعماد .

(٧) ما بين الحاصرتين عن م (١٦٩ — ب) .

مظفر [الدين] ^(١) الأقرع ، — وهو أحد ندماء سيف الدين — ^(٢) ، فقال له :
 ” خذ هذه الأقفاص ، واذهب بها إلى سيف الدين ، وسلم عليه عنا ،
 وقل له : عد إلى اللعب بهذه الطيور ، فهي أسلم لك عاقبة من الحرب “ ^(٣) .
 ووصل سيف الدين ومن معه [ركضا] ^(٤) إلى حلب ، وترك بها أخاه
 عز الدين مسعود في جمع من العسكر وعاد إلى الموصل وهو لا يصدق بالنجاة ؛
 [وكانت هذه الكسرة من الله تعالى بغير حرب ولا قتال] ^(٥) ، ولم يقتل في هذا
 المصاف مع كثيره إلا رجل واحد .

ولما وصل سيف الدين الموصل استشار وزيره جلال الدين ، ومجاهد الدين
 قايمار ، في مفارقة الموصل والاعتصام بقاعة عقر الحميدية ، فقال له مجاهد الدين :
 ” أرأيت إن ملكك الموصل عليك أتقدر أن تمتنع ببعض أبراج الفصيل ؟ “
 فقال : ” لا “ ، فقال : ” برج في الفصيل خير من العقر “ .

وما زال الملوك منهزمين ، ويعاودوا في الحرب ، واتفق هو والوزير على شد أزره ،
 وتقوية قلبه [فأقام مكانه ، ووصل إليه أخوه عز الدين بمن اجتمع إليه من العسكر
 المنهزم ، وتراجعت بقية العساكر إلى الموصل ، والحاليون إلى بلادهم] ^(٦) ، وغلط
 ابن الأثير في تاريخه ما ذكره عماد الدين في البرق [الشامى] : وهو أن عسكر
 سيف الدين في هذه الواقعة كان عشرين ألف فارس .

وقال : ” عسكر الملك الناصر صلاح الدين لم يكونوا يزيدون على ستة آلاف
 فارس “ .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٦٩) .

(٢) س : ” ومن أخذ بدمام سيف الدين “ .

(٣) أضاف ابن أبي طى (الروضتين ج ١ ، ص ٢٥٥) قوله : ” ورجد السلطان عسكر الموصل
 كالخانة من كثرة الخمر والبرابط والعيدان والجنوك والمغنيين والمغنيات . . واشتهر أنه كان مع سيف
 الدين أكثر من مائة مغنية ، وأن السلطان أرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البلية “ .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (١٦٩ ث ب) .

قال [ابن الأثير] : ” إني وقفت على جريدة العرض وترتيب العسكر في المصاف مميّنة وميسرة وقلبا وجاليشية ^(١) وغير ذلك ، وكان المتولى لذلك والكاّتب له أخى مجد الدين أبى السعادات المبارك ، قال : ” وانما قصّد عماد الدين فى تاريخه تهظيم صاحبه ، وأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفا ، والحق أحق أن يتبع “ .

ولما كسر السلطان الملك الناصر المواسلة والحلبين هنا عماد الدين بقصيدة منها :

فالحمدُ لله الذى إفضاله	حلّوا الجنا ، على السنا ، وضّاحه
عاد العدو بظلمة من ظلمه	فى إيل ويل قد خبا مصباحه
وجنا عليه جهله بوقوعه	فى قبضة البازى ، فهيض ^(٢) جناحه
[١٨٩] حمل السلاح إلى القتال ، ومادى	أن الذى يحنى عليه سلاحه
أضفى يريد مواصله صدوده ،	وغدا يُعيد رثاءه مدّاحه
إن أفسد الدين العداة ^(٣) بخبيثهم ، ^(٤)	فالناصر الملك الصلاح صلاحه
قد كان عزمك للإله مصمما	فيهم ، فلاح كما رأيت فلاحه
فكأننى بالساحل الأقصى ، وقد	ساحت يبحر ^(٥) دم الفرنجية ساحه

(١) س (٦٩ ب) : ” وجناحين “ وما هنا يتفق ونص (ابن الأثير : الكامل ، ج ١ ، ص ١٦٢) ، والجاليش أصلا معناها الراية العظيمة فى رأمها خصلة من الشعر ، ثم أطلقت على مقدمة القلب فى الجيش أو على الطليعة منه . أنظر تعليقات الدكتور زيادة فى (السلوك ، ١ ، ص ٦٢٨ ج ٦٩٢) .

(٢) فى الأصل : ” مبيض “ ، وما هنا عن الروضتين ، وفى س : ” قصص “ .

(٣) كذا فى الأصل وفى س ؛ وفى الروضتين : ” الغلاة “ ، وفى (العاد : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١٨) : ” العصاة “ .

(٤) الأصل : ” بخبيثهم “ ، والصحيح عن الخريدة والروضتين .

(٥) الأصل : ” بخر “ وما هنا رواية الخريدة ، والقصيدة فى الخريدة كثيرة الأبيات ، فراجعها هناك .

فأعبر إلى القومِ الفراتَ ليشربوا الـ
لِتَفُكَّ مِنْ أَيْدِيهِمْ رَهْنُ الرُّهَا
وَابْغُضُوا لِحُرَّانَ الْخِلَاصَ ، فكم بها
نَجُّوا الْبِلَادَ مِنَ الْبَلَاءِ يَغْدَلُكُمْ ،
وَاسْتَفْزِحُوا مَا كَانَ مِنْ مُسْتَفْزِيقٍ
أَنْتُمْ رِجَالُ الدَّهْرِ ، بَلْ فَرَسَانُهُ ،
فُتَاكُهُ ، نُسَاكُهُ ، ضُرَّارُهُ ،
وَأَبُو الْمَظْفِرِ يَوْسُفُ مِطْعَامُهُ ،
وَإِذَا اتَّسَدَى فِي تَحْفَلٍ خَفِيَّةٍ ،
مَوْتَ الْأَجَاجِ ، فَقَدْ طَا طَمَّاحُهُ (١)
عَجَلًا ، وَيَدْرِكُ لَيْلَهَا إِصْبَاحُهُ
حَرَّانُ قَابِ نَحْوِكُمْ مُلْتَاحُهُ
فَالظُّلُمُ بَادٍ فِي الْجَمِيعِ صَرَاحُهُ
مِنْهَا ، فَرَبُّكُمْ (٢) لَهُ فَتَّاحُهُ
وَلَذِي (٣) الْحُلُومِ الطَّائِشَاتِ رِجَاحُهُ
نَفَّاعُهُ ، مَنَاعُهُ ، مَنَاحُهُ
مِطْعَانُهُ ، مِقْدَامُهُ ، جَحَّاجُهُ
وَإِذَا غَدَا فِي جَحْفَلٍ فَوْقَاحُهُ

ذكر ما فتح السلطان من البلاد بعد الكسرة

ثم صار السلطان إلى بزاعة ، فتسلمها لثمان بقين من شوال من هذه السنة
— أعنى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة — ، ثم فتح منبج ، وكان السلطان حثقا
على صاحبها قطب الدين بن ينال بن حسان لفظاظته التي قابله بها حين أرسله
الحلبيون إليه ، فتسلم منه قلعة منبج بما فيها ، فقوم ما كان فيها بستمائة (٤) ألف دينار

(١) كذا في الأصل وفي م؛ وفي الروضتين : « طفاحه » ، وبهذا البيت تنهى (ص ٦٩ ب)
في نسخة م ، ثم يتبع ذلك سقط كبير في نحو الثلاثين صفحة ، وبذلك تقف المقابلة بين النسختين ،
وسنحاول المقابلة بين الأصل هنا وبين المراجع الأخرى لتقويم النص وتصحيحه .

(٢) الأصل : « فرأبكم » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٣) في الأصل : « ولذا » ، وما هنا عن الروضتين والخريدة (ج ١ ، ص ٢٢) .

(٤) كذا في الأصل ، وعند العماد وابن أبي طى : (الروضتين، ج ١ ، ص ٢٥٧) : « بثلاثمائة
ألف دينار » .

من عين ونقد ومصوغ ومنسوج وغلات وغير ذلك ، وسامه السلطان أن يخدمه ويرد عليه ماله ، فأبى وأنف وكبرت نفسه ، ومضى إلى سيف الدين - صاحب الموصل - فأقطعه الرقة ، فبقى فيها إلى أن أخذها السلطان منه في سنة [١٩٠] ثمان وسبعين وخمسمائة .

ولما فتح السلطان منبج قال عماد الدين الأصفهاني :

تزوَّلَكَ في منبجٍ على الظَّفيرِ المُنْبِجِ
وَنَجَّحَكَ في المرتجى وَفَتَحَكَ لِلْمُرْتَجِ (١)
دَلِيلٌ على نُجُوحِ (٢) ما تَحَاوَلُ أو تَرْتَجِي
أَمُورُكَ فَمَا تَرَوْا مُوَاضِعُ الْمُنْهَجِ
وَشَانِيكَ دَامِيَ الشُّؤْ وَنِ مِنْكَ ، شَقِيٌّ شَجِي
وَمَنْ كَانَ فِي حِصْنِهِ وَمِنْ قَبْلُ لَمْ (٣) يَخْرُجْ
يُقَالُ لَهُ : لَيْسَ ذَا بِعُشَّكَ ، قُمْ فَانْدُجْ
فَرَأَيْكَ يَسْتَنْزِلُ الـ خُجُومَ مِنَ الْأَبْرَجِ
فَعَجَّلَ عِبُورَ الْفَرَا تِ ، وَاسِرْ ، وَاسِرْ ، وَأَذِلْجِ
وَعَجَّ نَحْوُ تِلْكَ الْبَلَا دِ ، وَعَنْ غَيْرِهَا عَجَّرَجِ
غُرَانُ وَالرَّقَا نِ نَالِيَا مُنْبِجِ
وَحُلَّ عَنْ الْمَسَلَمِ يَنْ لِيْلَهُمُ الْمَذِلْجِ

(١) الأمل : « في المرتجى » والتصحيح عن الرضتين .

(٢) الأمل : « كما » والتصحيح عن الرضتين .

(٣) الأمل : « ما » وما هنا عن الرضتين .

ذكر استيلاء الملك الناصر على عزاز

وقفز الملاحدة عليه^(١)

ثم سار السلطان إلى أعزاز فحاصرها ثمانية وثلاثين يوما ، وضيق على من بها ونصب عليها المجانيق^(٢) ، وقتل عليها كثير من عسكره .

ولما كانت ليلة الأحد حادى عشر ذى القعدة قفزت الملاحدة على السلطان ، وكانت للأمر جاولى الأسدى خيمة قريبة من المجانيق ، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات ، ويحرض الرجال على الحرب ، فحضر تلك الليلة والباطنية في زى الأجناد وقوف بين يديه ، إذ قفز واحد منهم فضرب رأسه بسكينة ، فلولوا المغفر^(٣) الزرد كان تحت القلنسوة لقتله ، فأمسك السلطان يد الباطنى بيديه ، ولم يقدر على منعه من الضرب بالكلية^(٤) ، فبقى يضربه في عنقه ضربا ضعيفا ، وعلى السلطان كراغند^(٥) ، فكانت الضربات تقع في زيق الكراغند

(١) يقصد بهم إسماعيلية الشام المعروفين بالحشاشين أو الحشيشية ، ولعلمهم يقصدون بهذه المحاولة الثار للدولة الفاطمية التي قضى عليها صلاح الدين . وهذه ثاني مرة يحاولون فيها اغتيال صلاح الدين . انظر ما فات هنا ص ٢٤ ، وعن هذا الموضوع راجع أيضا :

(B. Lewis : *Saladin and the Assassins*. B.S.O.A.S. 1953, XV/2).

(٢) أنظر (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، هامش ٢) .

(٣) المغفر لفظ عربى : وله فى (اللسان) جملة تعريفات ، قال : المغفر والمغفرة والغفارة زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ، وقيل هو روفر البيضة ، وقيل هو حلق يتقنع به التماسيح ، وقيل حلق يملأها الرجل أسفل البيضة تسبغ على العنق فتقويه ، قيل ورد بما كان المغفر مثل القلنسوة غير أنها أوسع يلقبها الرجل على رأسه فتبلغ الدرع ثم يلبس البيضة فوقها ، فذلك المغفر يرقل على العاتقين ، وربما جعل المغفر من ديباج وخز أسفل البيضة .

(٤) الأصل : « من الكلية » وما هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٦٢) .

(٥) الكراغند — أو القراغند — (والجمع كراغنديات وقزغنديات) لفظ فارسى معناه المعطف القصير يلبس فوق الزردية ، وكان يصنع من القطن أو الحرير المبطن المنجد ، ويقابله فى الفرنسية

Jaoquette وفى الإنجليزية Suroast . . انظر : (Dozy : *Supp Deit Arab*)

فتقطعه والزرد [١٩١] يمنهما من الوصول إلى رقبتة ، وأدرك السلطان مملوكه سيف الدين بازكوج^(١) فأمسك السكين بكفه ، بجرحه الباطني فلم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطني وبضع وقطع ، وجاء آخر فاعترضه الأمير داود بن منكلا [الكردي] فمنعه ، وجرحه الباطني في جنبه فمات ، وقتل الباطني ، وجاء آخر فباغته الأمير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت إبطيه ، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من الضرب ، ونادى [علي] :
 ” اقتلوني معه فقد قتلتني وأذهب قوتي “ .

فقطعته ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه فقتله، وخرج آخر من الخيمة منهزما، فثار عليه أهل سوق العسكر فقطعوه .

وركب السلطان إلى خيمته ، وقد ارتاع لهذه الحادثة ، ودمه سايل على خده ، وطوق كراغته مبلول ، واحتجب عن الناس ، واحتاط ، وضرب حول سرادقه على مثال خشب الخركاه^(٢) نازيرا ، وجلس في بيت خشب ، واحترس من الجند فمن أنكره أبعدته ، ومن عرفه أقره .

ولازم حصار عنزاز ثمانية وثلاثين يوما ، وكان كل يوم أشد قتالا مما قبله وكثرت النقوب بها ، فأذن من بها ، وتسلم القاعة حادي عشر ذي الحجة .

(١) الأصل : « بازكوج » وما هنا عن العماد والقاضي الفاضل (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٨)

(٢) الخركاه — راجع نركاوات — لفظ فارسي ، شرحه (Dozy : Supp Dict. Arab.)

بأنه نوع من الخيمة يتكون من قطع من الخشب معقود بينها على شكل قبة ، وتغطيها قطع من البد .

“ Cette espèce de tente, qui se compose de morceaux de bois, réunis en forme de conpote, et sur lesquels on étend des pièces de feutre” .

ذكر منازلة السلطان الملك الناصر لحلب

ووقوع الصلح بينه وبين الحلبيين

ثم رحل السلطان من عَرَاز ، ونزل على حلب في منتصف ذى الحجة ، وكان سعد الدين كُشْكُشِكِين قد خرج إلى حصن حارم ، فحبل بينه وبين العود إلى حلب ، ثم تضرع في الدخول إليهم واحتال ، فتم له ما أراد بالسؤال .

ودخلت سنة اثنين وسبعين وخمسمائة والسلطان محاصر حلب ، فراسلوه وتذلّلوا له ولاذوا بعفوه وصلحه ، فأجابهم إلى الصلح ، وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها وأخرجوا إليه ابنة صغيرة لنور الدين - رحمه الله - فرق لها وأكرمها وأطلق لها شيئا كثيرا ، وقال لها : "ما تريدن" ؟ فقالت : "أريد قامة عَرَاز" - وكانوا قد علموها - فسلمها إليهم ، ثم حلف لهم وحلفوا له ، ودخل في الصلح المواصل وأهل ديار بكر ، وكتب في نسخة اليمين :

"إنه إذا غدر واحد منهم وخرج عن مقتضى اليمين كان الباقيون يدا واحدة عليه".

ذكر بعض المتجددات

لسيف الدين غازي بالموصل

[١٩٢] وفي ربيع الآخر من سنة إحدى وسبعين وخمسمائة استوزر سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي جلال الدين^(١) الوزير ، فظهرت منه كفاية ومعرفة بأمور الدواوين وفضيلة تامة ، وكان عمره لما ولي الوزارة

(١) عرف به (ابن الأنير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٦٤) قال : هو جلال الدين أبو الحسن

ابن جمال الدين محمد بن علي ، وكان جمال الدين وزير البيت الأتابكي .

نمسا وعشرين سنة ، ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين ، فشفع فيه كمال الدين بن بلسان^(١) — وزير صاحب آمد — ، وكان مزوجاً لبنته ، فأطلق ، وسار إليه ، وبقي بآمد مدة يسيرة مريضاً ، ثم توجه إلى دنيسر ، وتوفي بها ، سنة أربع وسبعين ، وحمل إلى الموصل ودفن بها ، ثم حمل منها في موسم الحاج إلى المدينة فدفن عند والده — رحمه الله —

وفي ذي الحجة سنة إحدى وسبعين استتاب سيف الدين غازي بقلعة الموصل مجاهد الدين قايمآز ، ورد إليه جميع الأمور ، وكانت بيده إربل وأعمالها ، على سبيل الأتابكية لزين الدين يوسف بن الأمير زين الدين علي كوجك وهو صغير وكان زين الدين علي كوجك لما توفي ملك ولده مظفر^(٢) الدين [أبو سعيد] كوكبوري ، ثم جرى ما اقتضى نقل الأمر إلى أخيه زين الدين يوسف ، فلم يزل الأمر لزين الدين يوسف إلى أن توفي ، ورجع ملك إربل لمظفر الدين أخيه — على ما سنذكره إن شاء الله تعالى —

ذكر منازلة

الملك الناصر مصياف وبلد الباطنية^(٣)

لما صالح السلطان الحلبيين قصد بلد الباطنية ليقابلهم على ما فعلوه من الوثوب عليه ، وكان رحيله من حلب يوم الجمعة عاشر المحرم سنة اثنين وسبعين وخمسمائة فنازل حصنهم مصياف ، ونصب عليه المجانيق الكبار ، وأوسعهم قتلاً وأسراً ،

(١) الأصل : « بلسان » والتصحيح عن (الرضين ، ج ١ ص ٢٦٠) .

(٢) الأصل : « المظفر » ، وقد صحح الاسم وأضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (زامبارو : معجم الأنساب والأمراء الحاكمة ، الترجمة العربية ، ص ٣٤٤) و (دائرة المعارف الإسلامية ، مادة إربل) .

(٣) سموا الباطنية لأنهم ينسبون لكل ظاهر باطناً ، ويقولون : الظاهر بمنزلة القشور ، والباطن بمنزلة اللب المطلوب . (محمد بن الحسن الديلمي البجلي : قواعد عقائد آل محمد ، ص ٣٤) . وعن العلاقات بينهم وبين صلاح الدين راجع أيضاً :

(B, Lewis: Saladin and the Assassins. B.S.O.A.O. 1953, XI/3), & (B, Lewis:

The Sources for the History of Syrian Assassins, Speculum. 1952. XXVII/4).

ونساق أبقارهم ونحرب ديارهم ، فشفع في القوم خاله شهاب الدين محمود بن تكش
— صاحب حماة — وكانوا قد راسلوه في ذلك — لأنهم جيرانه — ، فرحل عنهم
وقد انتقم منهم .

وكان الفرنج قد غاروا على البقاع ، فخرج إليهم الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك
المعروف بابن المقاتم ، وكان ببعلبك قد أقطعه السلطان إياها ، فقتل منهم وأسر
أكثر من مائتي أسير ، وأحضرهم عند السلطان وهو محاصر مصياف [١٩٣]
ثم وصل السلطان إلى حماة وقد استكمل الظفر .

اجتماع السلطان

بأخيه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب

كما قد ذكرنا مسير الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين توران شاه بن أيوب
إلى بلاد اليمن ، وفي سنة إحدى وسبعين فارق اليمن بعد أن استأب بها ، وقصد
خدمة أخيه السلطان الملك الناصر ، فوصل إلى دمشق في ذي الحجة ، ثم رحل
عنها متوجها إلى السلطان فاجتمع به بمدينة حماة ، فتعانقا في الخيم في الميدان ،
وسر السلطان ببقاءه سرورا شديدا ، وكان عند مفارقتها اليمن قد كتب
إلى السلطان كتابا ضمنه أبياتا من شعر ابن المنجم^(١) المصري أولها :

الشوق أولع بالقلوب وأوجع ، فعَلَّام أدفع منه مالا يدفع

ومنها :

وحملت من وجد الأحيّة مفردا ما ليس بحمله الأحيّة أجمع
لا يستقر في الهوى في موضع إلا تقاضاني الترحل موضع

(١) هو نثر الدولة على بن مفرج المنجم . انظر ترجمته في : (المعاد : الخريدة ، قدم شعرا .
مصر ، ج ١ ، ص ١٦٨ — ١٦٩) و (السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٢٦) .

والى صلاح الدين أشكو إننى من بعده مضمي الجوانج موجه
جزعاً لبعد الدار عنه ، ولم أكن — لولا هواه — لبعد دار الجزع
فلا ركناً إليه متن عزائمي ، ويخبُّ بي ركب الغرام ويوضع
حتى أشاهد منه أسعد طاعة من أفيها صبح السعادة يطلع

فكتب إليه السلطان كتاباً ضمنه قصيدة لعاد الدين الكاتب منها :

مولاي شمس الدولة الملك الذي شمس السيادة من سناه تطلع
مالى سواك من الحوادث ملجأ ، مالى سواك من النوائب مفرع
ولانت نحر الدين نحرى في العلا وملاذ آمالي وركنى الأمتع
وبغير قريرك كلما أرجوه من درك المسنى متعذر متمنع
النصر إن أقبلت نحوى مقبل ، واليمن إن أسرعت نحوى مسرع

ثم سار السلطان إلى دمشق فدخلها سابع عشر صفر ، وملكها لأخيه
الملك المعظم [١٩٤] شمس الدولة ، وعزم على العود إلى الديار المصرية .

وفي المحرم من هذه السنة — أعنى سنة اثنين وسبعين وخمسمائة — توفى
القاضي كمال الدين الشهرزورى ^(١) ، وعمره ثمانون سنة ، وكان في الأيام
النورية إليه قضاء القضاة والتحكم في الدولة ، وكان السلطان الملك الناصر متولى
الشحنكية ^(٢) بدمشق أيام نور الدين ، فكان كمال الدين يعكس مقاصده ،

(١) هو أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله بن أبي أحمد القاسم الشهرزورى ، انظر ترجمته في :
(ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٣٧٥ — ٣٧٨) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ،
صفحات كثيرة منه) و (السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ٥٤) و (سبط ابن الجوزى :
مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ص ٣٢٧ و ٣٤٠ — ٣٤١) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ،
ص ٢٩٦) و (ابن قفري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٧٩ — ٨٠) و (ابن العاد :
مذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٤٣) .

(٢) انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٧ ، هامش ٥) .

ويكسر أغراضه ، ويعترض عليه في أموره ، لتوخي كمال الدين الأحكام الشرعية ؛ فلما صار الملك الناصر إلى ما صار إليه من الملك وافتتح دمشق صار كمال الدين أحد قضاة بلاده ؛ ولم يؤاخذ به على ما صدر منه في حقه ، بل أكرمه واحترمه واستشاره وعظمه ، وكان ابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزوري قد قصد خدمة السلطان بالديار المصرية في أول ملكه ، فأقطعه وأحسن إليه ، ثم وصل معه إلى الشام ، واستمر في صحبته ، فلما اشتد بعمه كمال الدين المرض أراد أن يبقى القضاء في بيته ، فوصى بالقضاء لابن أخيه ضياء الدين علماً منه أن السلطان يمضي ذلك لأجل قدم هجرته عنده ، ثم توفي والسلطان محاصر حاب وجلس ابن أخيه ضياء الدين في القضاء .

وكان الشيخ شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون^(١) قد هاجر من حلب إلى السلطان ، وأنزله عنده بدمشق ، وهو رئيس أصحاب الإمام الشافعي — رحمة الله عليه — في وقته ؛ والمقيم بالفتوى في زمانه فآثر السلطان أن يفوض القضاء إليه ، وكره عزل ضياء الدين بن الشهرزوري ، فأفضى بصره إلى القاضي الفاضل ، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري^(٢) يتعصب للشيخ شرف الدين لأنه شيخه ، فاستشعر ضياء الدين — لما بلغه ذلك — من العزل ، وأشير عليه بالاستعفاء ، ففعل ، فأعفى ، وأبقيت عليه الوكالة الشرعية عن السلطان في بيع الأملاك .

ولما استعفى ضياء الدين من القضاء لم يبق في منصب القضاء إلا فقيه يعرف بالأوحد داود ، كان ينوب عن كمال الدين ، فأمره السلطان بالاستمرار ، وكان السلطان مائلاً إلى بيت زكي الدين [١٩٥] فأمر الشيخ شرف الدين باستنابة

(١) هو شرف الدين أبو سعد عبد الله بن الدمري محمد بن عبد الله بن مطهر بن علي بن أبي عصرون ابن أبي الدمري ، التميمي ، الحديثي ، ثم الموصل . انظر ترجمته في : (ابن خلكان : الوفيات ج ٢ ، ص ٢٥٦ — ٢٥٩) و (الصفدي : نكت الهباني ، ص ١٨٥ — ١٨٦) .
(٢) للتعريف به انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٢ ، هامش ٢) .

القاضي محي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين والأوحد داود ، وكتب لهما بالقضاء توقيعاً سلطاني ، فكانا في حكم المستقلين ، وإن كانا في الظاهر نائبين عن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون .

ولم يزل شرف الدين متولياً للقضاء من سنة اثنين وسبعين إلى أن عاد السلطان من مصر ، فتكلم الناس في ذهاب نور بصره ، وأن من يكون أعمى لا يصلح للقضاء ، وفي المسألة وجهان ، واختار شرف الدين وجه الجواز وكأنه الأظهر إذ لا يمتنع أن يعتمد على تعريف عدلين بمن يحضر من الخصوم كما في المترجمين بالنسبة إلى القاضي الأصم ، فأشار القاضي الفاضل ^(١) على السلطان أن يفوض القضاء إلى ولده محي الدين أبي حامد محمد بن شرف الدين ، ويكون هو الحاكم في الحقيقة ، ويظهر أنه نائب عن أبيه ، بحيث لا يظهر للناس حصره عن القضاء ، ففعل السلطان ذلك ، واستمر هذا الأمر إلى سنة سبع وثمانين وخمسة ، فصرف عن القضاء ، واستقل به القاضي محي الدين بن زكي الدين إلى آخر أيام السلطان الملك الناصر — رحمه الله — .

وفي أواخر صفر من هذه السنة — أعني سنة اثنتين وسبعين وخمسة — تزوج السلطان بعصمة الدين الخاتون بنت الأمير معين الدين أُرّ التي كانت زوجة نور الدين — رحمه الله تعالى — .

(١) ذكر ابن خلكان أن شرف الدين هذا صنف جزءاً طيفاً في جواز قضاء الأعمى ، ثم علق على هذا الحادث بقوله : « ورأيت في كتاب (الزوائد) تأليف أبي الحسن العمري صاحب كتاب (البيان) وجهاً أنه لا يجوز ، ووقع لي كتاب جميعه بخط السلطان صلاح الدين — رحمه الله تعالى — قد كتبه من دمشق إلى القاضي الفاضل وهو بمصر ، وفيه فصول من جعلها حديث الشيخ شرف الدين المذكور ، وما حصل له من العمى ، وأنه يقول إن قضاء الأعمى جائز ، وإن الفقهاء قالوا : إنه غير جائز ، فتجتمع بالشيوخ أبي الطاهر بن عوف الإسكندراني ، وتساءله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى ، هل يجوز أم لا ؟ وبالجمل فلا شك في فضله » . وقد ناقش هذه المشكلة (الصفدي : نكت الميمان ، ص ٦٠ — ٦١) .

ذكر مسير

الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله — إلى الديار المصرية

ثم أزمع السلطان العود إلى الديار المصرية بعد أن قرر بدمشق أخاه الملك المعظم ، فتقدمه الأمراء من أصحابه ، والملوك من أهل بيته ، وخرج من دمشق في يوم الجمعة لأربع بقين من ربيع الأول ، والتقاء أخوه ونائبه الملك العادل .

ولما استقر السلطان بداره بالقاهرة أمر ببناء السور^(١) الدائر على مصر والقاهرة والقلعة التي على جبل المقطم ، ودوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وذراعان بذراع العمل ، وهو الذراع الهاشمي ، وذلك بما فيه من ساحل القاهرة والقاعة بالجبل ، من ذلك : ما بين قاعة المقسم^(٢) التي على

(١) بنى حول القاهرة ثلاثة أسوار : الأول بناء جوهر عند إنشاء القاهرة وأداره على القصر والجامع والمناخ الذي تزل به هو وجنوده ، وكان هذا السور من اللبن ، وقد أدرك المقرئى قطعة منه كانت باقية حتى سنة ٨٠٣ هـ ، والسور الثانى بناه أمير الجيوش بدر الجبالى فى سنة ٨٠٤ هـ وزاد فيه الزيادات التى أضيفت إلى القاهرة ، وبنى هذا السور من اللبن أما الأبواب فبنيت من الحجارة ، والسور الثالث — وهو المشار إليه هنا فى المتن — ، وبدأ فى عمارته السلطان صلاح الدين فى سنة ٥٦٦ هـ وهو لا يزال وزيراً للعاضد ، وبعد استقلاله بمصر انتدب فى سنة ٥٦٩ هـ بهاء الدين قراقوش الأسدى للإشراف على بنائه بحيث يضم بين جنباته القاهرة والقلعة والقسطاط جميعاً . انظر الفصل الذى عقده المقرئى للحديث عن سور القاهرة فى (الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ — ٢٠٩) .

(٢) عرف (ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٤ : ص ٥٣) المقس — قلعة عن القضاء — بقوله : « المقس كانت ضيعة تعرف بأمر دين ، وإنما سميت المقس لأن العشار وهو المكس كان فيها يستخرج الأموال ، فقل له المكس ، ثم قيل المقس » ، وقد حرف اللفظ فيما بعد إلى المقسم كذلك ، وقد علق المرحوم محمد رمزى على هذا بقوله ، « المقس ، والمكس ، والمقسم ، وأمر دين كلها أسماء مترادفة لقرية كانت واقعة على شاطئ النيل وقت أن كان النيل يجرى فى عهد الدولة الفاطمية فى المكان الذى يمر فيه اليوم شارع عماد الدين وميدان محطة مصر وما بعده إلى الشمال بشارع الملكة نازلى ، وكان المقس فى عهد الدولة الفاطمية مقصورا على قرية المقس التى كانت واقعة فى المنطقة التى =

شاطئ النيل وبين البرج بالكوم الأحمر^(١) بساحل مصر [١٩٦] عشرة آلاف وخمسمائة ، وما بين القلعة بالمقسم وحائط قلعة الجبل^(٢) بمسجد سعد الدولة^(٣) ثمانية^(٤) آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعا ، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع وداير القلعة [بالجبل]^(٥) بمسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع ، وذلك طول قوسه في أبراجه وأبدانه ، ومن النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل^(٦) ، وذلك بتولى الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي ، فشرع في بناء القلعة وقطع الخندق^(٧) وتعميقه وحفر واديه وتضييق طريقه ، وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة ، فاشتملت القلعة عليها ، ودخلت في الجملة ، وحفر في رأس الجبل

= يقع فيها اليوم جامع أولاد عنان لغاية شارع قنطرة الدكة ، ويدخل فيها مدخل شارع إبراهيم باشا والمباني التي على جانبيه لغاية درب الإبراهيمي . أما قلعة المقس فقد حدد موضعها المرحوم محمد رمزي (المرجع السابق ، ص ٣٩ ، هامش ٤) بقوله : « ومحلها اليوم المكان القائم عليه عمارتا الأوقاف وراتب باشا المجاورتان لجامع أولاد عنان من الجهة البحرية الشرقية بميدان باب الحديد » .

(١) الكوم الأحمر كان واقعا عند فم الخليج على جانبه الغربي في نهاية شارع قصر العيني من الجهة الجنوبية .

(٢) الأصل : الذلعة بالجبل ، والتصحيح عن (المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٠٨) .

(٣) كان مسجد سعد الدولة واقعا بذلعة الجبل بجوار برج المجلات المشرف اليوم على تربة يعقوب شاه المهندار التي في الجنوب الشرق لسور القلعة ، تعليقات المرحوم محمد رمزي في (النجوم ، ج ٤ ، ص ٤١ ، هامش ١) .

(٤) الأصل : « ثلاثة » والتصحيح عن خطط المقرئ والنجوم الزاهرة ، الأجزاء والصفحات المذكورة سابقا .

(٥) ما بين الحاصرتين زيادة عن (النجوم ، ج ٤ ، ص ٤١) .

(٦) هذا النص مصدره الأصل : العاد الأصفهانى . انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٨)

(٧) ذكر (المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٧٩ — ١٨٠) أن جوهر اقصد باختطاط القاهرة حيث هي « أن تصير حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقا تلهم من دونهما ، فأدار السور اللبن على مناخه الذي نزل فيه بمسكه ... واحفر الخندق من الجهة الشمالية لينبع انتحام عداكر القرامطة إلى القاهرة وما وراءها من المدينة » .

بثراً^(١) ينزل فيه بالدرجة المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين ، ولم يتأت هذا بتمامه إلا بعد موت السلطان ، فإنه توفي وقد بقي من السور مواضع .

وبعد ذلك تكلّم السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك المعادل — رحمهما الله — [وأنشأ] العمارات بالقلعة ، ربحى الأدر السلطانية ، وسكنها ، ولم يسكنها أحد قبله من أهل بيته^(٢) وإنما كان سكنهم بدار الوزارة^(٣) ، ثم استمرت السكنى للملوك بالقلعة إلى يومنا هذا .

وأمر السلطان الملك الناصر ببناء المدرسة^(٤) التي عند قبر الإمام الشافعى —

(١) هذه البر لا تزال موجودة في القلعة وتعرف ببر يوسف ، وقد وصفها ابن قفري بردى — قلا عن ابن عبد الظاهر — (النجوم ، ج ٤ ، ص ٤٠) بقوله : « وحفر البر التي بذلعة الجبل أسارى القرنج ، وكانوا ألوا ، وهذه البر من عجائب الأبنية ، تدور البقر من أعلاها وتنقل الماء من قالة في وسطها ، وتدور أبقار في وسطها تنقل الماء من أسفلها ، ولها طريق إلى الماء تنزل البقر إلى معينا في مجاز ، وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء ، وقيل إن أرض هذه البر مسامة لأرض بركة الفيل وماؤها عذب ، سمعت من يحكى عن المشايخ أنها لما حفرت جاء ماؤها حلوا ، فأراد قراقوش الزيادة في ماؤها فوسّعها ، فخرجت منها عين مالحه غيرت حلاوتها » .

(٢) بدأ صلاح الدين في إنشاء قلعة الجبل سنة ٥٧٢ هـ وكان يقيم بها بعض الأيام ، وسكنها ابنه الملك العزيز عثمان في أيام أبيه مدة ، ثم انتقل منها إلى دار الوزارة . وقد تم بناء القلعة في سنة ٦٠٤ هـ في عهد الملك الكامل محمد الذي انتقل إليها واتخذها دار ملك ، وظلت كذلك إلى عهد الخديو إسماعيل حيث قلت منها دواوين الحكم إلى دور أخرى في قلب القاهرة . انظر : (المقرئى : الخطط ، ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢٦) وتعليقات محمد رمزى (النجوم الزاهرة : ج ٦ ، ص ٥٤ ، هامش ١) .

(٣) انظر : (المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٠١ — ٢٠٤) و (مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٦٤ ، هامش ١) .

(٤) المعروف أن هذه المدرسة بدئ في بنائها سنة ٥٧٢ هـ ولكن الرحالة ابن جبير زار مصر سنة ٥٧٨ هـ وشاهد هذه المدرسة وهي لا تزال في دور البناء والتأسيس ووصفها في رحلته (ص ٤٨) بأنها " مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء ، بخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، بازائها الحمام ، إلى غير ذلك من مراقبها ، والبناء فيها حتى الساعة ، والنفقة عليها لا تنحصر ، تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى ، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول : زد احتضالا وتاقا وعلينا القيام بمؤونة ذلك كله " .

رحمه الله — بتولى الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني^(١) وأمر باتخاذ دار في القصر بـمارستانا^(٢) للمرضى ، ووقف عليه وعلى المدرسة وقوفا كثيرة .

ثم رحل السلطان ، وذلك لثمان بقين من شعبان من هذه السنة ، واستصحب ولديه الملك الأفضل نور الدين عليا والملك العزيز عماد الدين عثمان — رحمهما

== وقد سميت هذه المدرسة فيما بعد ”بالناصرية“ نسبة إلى منشأها الملك الناصر صلاح الدين ، وقد ذكرها (المقريزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٥١) باسم ”المدرسة الناصرية بالقراة“ ، وقال إن صلاح الدين رتب بها مدرسا يدرس الفقه على مذهب الشافعي وجعل فيها معيدين وعدة من الطلبة ، ورتب للجميع الرواتب الشهرية ، وأوقف الأوقاف الكثيرة للصرف عليها . وموضع هذه المدرسة الآن جامع الإمام الشافعي .

(١) هو أبو البركات محمد بن الموقه بن سعيد بن علي بن الحسن بن عبد الله الخبوشاني الشافعي المعروف بنجم الدين ، هو أصلا من خبوشان وهي بلدة بناحية نيسابور ، قدم مصر سنة ٥٦٥ هـ وكان يكره الفاطميين ويهاجمهم ، وكان صلاح الدين حسن العقيدة فيه ، وقد مدحه بعض من ترجموا له فقال (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٣٧٤) إنه كان فقيها فاضلا كثير الورع . وقال (السبكي طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ١٩٠) هو الفقيه الصوفي أحد الأئمة علماء ودينا ورعا وزهدا . أما (سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤١٤) فقد انتقصه وجرّحه ، قال : ”وكان كثير الفتن منذ دخل مصر إلى أن مات ، وما زالت الفتن قائمة بينه وبين الحنابلة وابن الصابوني وزين الدين بن نجية ، ويكفرونه ويكفرهم ، وكان طائشا متهورا ، نبش قبر ابن الكيزاني ، وأخرج عظامه من عند الشافعي ، وكان يصوم ويفطر على خبز الشعير ، فلما مات وجد له ألوف دنانير ، وبلغ صلاح الدين فقال : ”يا خيبة المسعى“ ، وكان يبعث إليه بالصدقات فيأخذها لنفسه ، ولما توجه سيف الإسلام إلى اليمن جاء بعوده ويستنفض حوائجه ، فقال له الخبوشاني : ”لي إليك حاجة“ قال : وما هي ؟ قال : ”تضرب رقبة كل من في المدينة ومكة ، وتأخذ أموالهم ، وتسبي نساءهم ، وقد أبحث لك ذلك“ فقام سيف الإسلام من عنده وهو يسبه ، وقال : ”أنظروا إلى هذا الرقيق يبيع دماء جيران الله ودماء أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم“ . وكانت وفاته في صفر ، وسكنت الفتن ، واهتلع الناس وكان سمي الخلق قبيح العشرة ، وولى بعده تدریس مدرسة الشافعي شيخ الشيوخ صدر الدين ابن حمويه .

(٢) البيارستان المستشفى ، وهي كلمة فارسية مكونة من لفظين ”بيمار“ ومعناها مريض ، و”ستان“ ومعناها مكان . وقد أنشأ صلاح الدين هذا البيارستان سنة ٥٧٧ هـ مكان قاعة بالقصر الكبير بناها العزيز بالله الفاطمي في سنة ٥٣٨ هـ ، وكان القرآن مكتوبا على حيطانها . وذكر محمد زمري في تعليقاته على (النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٠١ ، هامش ٣) أن موضع هذا البيارستان اليوم مجموعة المباني الواقعة خلف دورة مياه جامع سيدنا الحسين من الجهة البحرية إلى عطفة القزازين ، وكان الدخول إليه من باب قصر الشوك بدرب القزازين بقسم الجمالية .

الله — فوصل إلى ثغر دمياط^(١) ، وبها سبي كثير جابه الأسطول ، ثم رحل إلى ثغر الإسكندرية^(٢) وتردد إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي^(٣) — رحمه الله — في كل جمعة ثلاثة أيام : الخميس والجمعة والسبت ، وإنما استصحب ولديه في هذه السفرة لسمعهما الحديث النبوي وتعمهما البركة .

ثم عاد السلطان إلى القاهرة ، فصام بها بقية شهر رمضان ، ووفر نهاره بها على نشر العدل وإفاضة [١٩٧] الجود ، وسامع حديث النبي — صلى الله عليه وسلم — وإشادة قواعد الشرع المطهر ، ومدحه كاتبه عماد الدين بقوله :
فديتك من ظالم مُنْصِف وناهيك من باخل مُسْرِف^(٤)

(١) انظر : (الدكتور جمال الدين الشيال : مجل تاريخ دمياط ، ص ١٨) .

(٢) انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ؛ ج ٢ ، ص ٢٤) و (الدكتور جمال الدين الشيال الاسكندرية ، طبوغرافية المدنية وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، ص ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٢٢) .

(٣) هو أبو طاهر عماد الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحدث المشهور ، والسلفي لقب جدله نسبة إلى سلفته ، وهو لفظ أعجمي معناه ثلاث شفاء ، لأن إحدى شفتيه كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين ، وقد تلقى دراسته الأولى بأصبيان ، ثم حج وسمع بالحرمين وطوف بالبلاد في طلب الحديث ، فزار بغداد ودمشق وصور ، وانهى به المطاف إلى الإسكندرية في سنة ٥٥١١ هـ ، وظل مقبلاً بها إلى أن توفي سنة ٥٧٦ هـ ، ودفن كما يقول ابن خلكان ” في رعدة ” ، وهي مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر ” ، وقد بنى له العادل بن السلار وزير الخليفة الفاطمي الظافر مدرسة بالاسكندرية ، وهي إحدى مدرستين بنيتا في الاسكندرية قبل عصر صلاح الدين . وللحافظ السلفي كتاب قيم عنوانه ” معجم السفر ” ترجم فيه لعدد كبير من العلماء الذين اتصلوا به أثناء مقامه بالاسكندرية وتوجد منه صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، رقم ٣٩٣٢ . انظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ص ٨٧ — ٩٠) و (الذجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٨٧ و ١٢٧) و (السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ٤٣) و (السيوطي : طبقات الحفاظ ، ج ٢ ، ص ٣٩) و (السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٥) و (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٥٥) و (الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج ٤) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٠٧) و (المقرئ : اتعاظ الحنفا ، نسخة طوب قنوسراي ، ص ١٤٣ ب) .

(٤) كذا في الأصل وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٩) ؛ وفي (العماد : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١٥) : ” مسعف ” ؛ والمقتبس هناك من هذه القصيدة تسعة وعشرون بيتاً ، ليس من بينها ما هنا إلا البيتان الأولان .

أبْلَغُ دَهْرِي قَصْدِي وَقَدْ قَصَدْتُ بِمِصْرَ ذُرَى يُوسُفَ ؟
 وَيُوسُفُ مِصْرَ — بَغِيرِ التَّقَى وَبَذَلِ الصَّنَائِعِ — لَمْ يُوصَفِ
 فَسِرَ وَافْتَحَ الْقُدْسَ ، وَاسْفِكَ بِهِ دَمًا مَتَى تُجَرِّهَا تَنْظِفِ
 وَأَهْدِ إِلَى الْإِسْتِارِ الْبِتَّارَ ، وَهْدُ السَّقُوفَ عَلَى الْأَسْفِ
 وَخَاصُّ مِنَ الْكُفْرِ تِلْكَ الْبَلَا دِيخَاصُكَ رَبُّكَ^(١) فِي الْمَوْقِفِ

ووصلت رسل سيف الدين غازي بن مودود صاحب الموصل وصاحب ماردين وصاحب الحصن إلى دمشق ، واستحلفوا الملك المعظم شمس الدولة [تورانشاه ابن أيوب] ، ثم قصدوا مصر ، فوقع في الأسر رسول صاحب حصن كيفا وماردين^(٢) .

ثم خرج السلطان — رحمه الله — من القاهرة إلى مرج فاقوس — من الأعمال الشرقية نخيم به لإرهاب الفرنج ، ولأزم الركوب للصيد والقنص .

(١) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٩) : ” الله “ .

(٢) جاء في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٩) — قلا عن ابن أبي طي — أن الذي أمره رسول صاحب حصن كيفا فقط ، قال : ” قال ابن أبي طي : وصل رسول الموصل القاضي عماد الدين ابن كمال الدين الشهرزوري بهدية وقود ، فخرج الموكب للقائه ، وأكرمه السلطان واحترمه ، وقدم رسول نور الدين قرا أرسلان ، ورسول صاحب ماردين بهدايا ، واجتمعوا في دمشق ، وخرجوا إلى السلطان بمصر ، فاعترضهم الفرنج ، فأمر رسول صاحب الحصن ، ولم يزل في الأمر حتى فتح السلطان بيت الأكران ، فأطلقه وأحسن إليه “ .

ذكر عصيان

صاحب شهر زور على سيف الدين غازي ، وعوده إلى الطاعة

وكان بشهرزور شهاب الدين محمد بن بزّان في طاعة سيف الدين غازي بن مودود ابن زنكي وفي خدمته ، وكان مجاهد الدين قايماز باربل متوليا أمورها ، وقائما بأنا بكية زين الدين يوسف بن زين الدين علي — كما ذكرنا — ، فلما فوض إلى مجاهد الدين النيابة عن سيف الدين غازي ، وكان بينه وبين شهاب الدين عداوة ، خاف ابن بزّان بأن يناله منه أذى ، فأظهر الامتناع عن النزول إلى الخدمة ، فأرسل إليه الوزير جلال الدين — وزير سيف الدين — كتابا يأمره فيه بمعاودة الطاعة ، ويحذره عاقبة المخالفة ، فلما وصل إليه الكتاب والرسول بادر إلى حضور الخدمة بالموصل .

ودخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة والساطان الملك الناصر نازل بمرج فاقوس ، ثم عاد إلى القاهرة فأقام بها إلى ثالث جمادى الأولى من السنة .

ذكر وقعة الرملة

ثم خرج السلطان الملك الناصر — رحمه الله — من القاهرة على نية الجهاد يوم الجمعة ثالث جمادى [١٩٨] الأولى بعد الصلاة ، وخيم ببلييس خامسه ثم تقدم إلى السدير^(١) وخيم بالمبرز^(٢) ، ثم نودي أن خذوا زادكم عشرة أيام أخرى للاستظهار .

(١) وادي بين العباسية والخشي ، وكانت تنصب فيه فضلات مياه النيل إذا زاد ، فيصير غيضة ذات مستنقعات . (ياقوت : معجم البلدان) ، وقال (المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٧٤) عند كلامه عن " العباسية " : هذه القرية فيما بين بلييس والصالحية من أرض السدير ، وقال : فلما كانت سلطة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس مر على السدير — وهو في الوادي — ، فأعجب به وبني في موضع اختاره منه قرية سماها الظاهرية ، وأنشأ بها جامعا ، وذلك في سنة ٦٦٦ هـ .

(٢) لم أجد في المراجع التي بين يدي تعريفا بهذا الموضع .

ثم رحل بعساكره فقتل على عسقلان يوم الأربعاء ليلة بقيت من جمادى الأولى ، فسبا وغنم ، وجمع هناك من كان معه من الأسرى فضرب أعناقهم ، وتفرق العسكر في الأعمال مغيرين ^(١) ، فلما رأوا أن الإفرنج خامدون انبسطوا واسترسلوا ، وتوسط السلطان البلاد .

ولما كان يوم الجمعة ثانی جمادى الآخرة استقل السلطان بعساكره راحلا ليقصدوا بعض المعقل ، واعترضه نهر [عليه] ^(٢) تل الصافية ، فازدحمت على العبور أثقال العسكر ، فلما شعروا بالفرنج إلا وقد أتوهم في أطلابهم ^(٣) وجموعهم ، وجماعة من سرايا المسلمين متفرقون في الضياع للإغارة ، وكان مقدم الفرنج البرنس أرناط صاحب الكرك ، وكانت أسيرا بحلب من أيام نور الدين ، ثم أطلقه الحليون على ما تقدم ذكره ، فجری على المسلمين خلل ذلك اليوم وانكسروا ، فحكى القاضي بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — قال :

” حكى السلطان — رحمه الله — صورة الكسرة في ذلك اليوم ، وأن المسلمين كانوا قد تعبوا تعباً شديداً بالحرب ، فلما قارب العدو رأى بعض الجماعة أن تغیر الميمنة إلى جهة اليسرة ، واليسرة إلى جهة القلب ، ليكون في حالة [اللقاء] ^(٤) وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة ، فبينما هم يشتغلون في التعبئة ، إذ همم الفرنج ، وقدر الله كسر المسلمين فانكسروا كسرة عظيمة ، ولم يكن لهم

(١) الأصل : ” مغيرين ” والتصحيح عن الهاد : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٣) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٣) جمع طُلب ، وقد عرفها الدكتور زيادة في حواشيه على (السلوك ، ج ١ ، ص ٢٤٨ ، هامش ٢) بقوله : ” وهو لفظ كردى معناه الأمير الذى يقود مائتى فارس في ميدان القتال ، ويطلق أيضا على قائد المائة أو السبعين ، وكان أول ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشام أيام صلاح الدين ، ثم عدل مدلوله فأصبح يطلق على الكتيبة (Bataillon) من الجيش “ . انظر أيضا :

(Dozy ; Supp. Dict. Arab).

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط في الأصل ، وقد أضيف بعد مراجعة : (ابن شداد : السيرة

البيوسفية ، ص ٤٢) و(الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٤) .

حصن قريب ياوون إليه ، فطلبوا جهة الديار المصرية ، وضلوا في الطريق ،
وتبددوا ، وأسر منهم جماعة فيهم الفقيه ضياء الدين عيسى ، وكان وهنا عظيما
جبره الله بوقعة حطين .

وأبلى تقى الدين في ذلك اليوم بلاء حسنا ، وثبت وقاتل ، واستشهد جماعة من
أصحابه ، وهلك من الفرنج أضعافهم .

وكان للملك المظفر تقى الدين ولدٌ يقال له شهاب الدين أحمد أول ماطرٍ شاربهُ ،
استشهد ذلك اليوم بعد ما قتل فارسا ، وقد كان له ولد آخر ، يقال له سعد الدين
شاهنشاه ، وهو والد سليمان شاه صاحب اليمن الذي سيأتي ذكره ، فوقع شاهنشاه
هذا في أسر الفرنج ، ذلك أن بعض [مستأمن الفرنج بدمشق] ^(١) خدعه ، وقال
له : " تبحى إلى الملك ، وهو يعطيك الملك " وزوّر له كتابا ، فسكن إلى صدقه
وخرج معه ، فلما انفرد به [١٩٩] شد وثاقه وحمله إلى الداوئية ، وأخذ به منهم
مالا ، ولم يزل في الأسر إلى أكثر من أربع ^(٢) سنين حتى استفكه السلطان بمال
كثير ، وأطلق للداوئية كل من كان لهم عنده في الأسر .

قال عماد الدين الكاتب :

" فغلظ القلب التقوى على ذلك الولد خبر هلاك أخيه في ذلك اليوم " .

ومت الهزيمة على المسلمين ، وحمل بعض الفرنج على السلطان ، فقاربه حتى
يكاد يصل إليه ، فقتل الفرنجى بين يديه ، وتكاثر الفرنج عليه ، فمضى منهزم يسير
قليلًا ويقف للاحقه المسكر ، إلى أن دخل الليل فسلك البرية ، ومضى في نفر
يسير إلى بصرى ، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة ، وقلّ عليهم القوت والماء

(١) الأصل : " من يأتي منهم إلى دمشق " والتصحيح عن العماد (الرضتين ، ج ١ ، ص

٢٧٢) .

(٢) عند العماد (المربع السابق) : " سبع سنين " .

وهلك كثير من دواب العسكر جوعا وعطشا وسرعة سير ، وفُقد [كثير ممن لم يعرف له خبر]^(١) .

وفُقد الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظهير ومن كان في صحبتهم ، فضل الطريق عنهم^(٢) ، وكانوا سائرين إلى وراء ، فأصبحوا بقرب الأعداء ، فأكنوا في مغارة ، وانتظروا من يدهم على بلاد الإسلام ، فوقعوا بمن يزعم أنه يدهم ، فدلّ الفرنج عليهم ، وسمى في أسرهم وعطبتهم ، فأسروا ، وما خلاص الفقيه عيسى إلا بعد سنين^(٣) بستين ألف دينار وفكاك جماعة من أسارى الفرنج ، وبالجملة لم تعظم^(٤) هذه الواقعة إلا بسبب ما اتفق للمسلمين من دخول الرمل وعدم الماء والدليل .

وكان ما قدره الله سبحانه من أسباب السلامة أن القاضي الفاضل كان يستظهر باستصحاب جماعة من [الكثنية]^(٥) والأدلاء ، فلما وقعت الواقعة خرج بدوابه وغلماناه وأصحابه وثقاته^(٦) ، وبث أصحابه في تلك الرمال حتى أخذوا خبر السلطان وقصده ، وانتفع السلطان بتلك الأدلاء الذين معه ، وفرّق الفاضل ما كان معه من الأزواد على المسلمين وعلى المنقطعين ، وجمعهم في خدمة السلطان .

وأما العسكر الذين دخلوا بلاد الفرنج للغارة فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير

(١) الأصل : ” وفقد كثير لم يظهر لهم خبر ” ولا يستقيم بها المعنى ، والتصحيح عن العماد — وهو الأصل المنقول عنه — (المرجع السابق) .

(٢) الأصل : ” عليهم ” والتصحيح عن العماد (المرجع السابق) .

(٣) الأصل : ” سنين ” والتصحيح عن العماد (المرجع السابق) .

(٤) الأصل : ” ينفطهم ” ولا يستقيم بها المعنى ، وما هنا قراءة ترجيحية إذ لم يستطع الناشر تصحيحها على المراجع الأخرى ، فهي من تعليق المؤلف وليست من منقوله .

(٥) ما بين الحاصرتين زيادة عن العماد (المرجع السابق) .

(٦) عند العماد — وهو الأصل المنقول عنه هنا — (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٣ : ” رأفقاله ” .

وكان وصول السلطان — رحمه الله — إلى القاهرة منتصف جمادى الآخرة
وكتب إلى أخيه الملك المعظم توران شاه يصف له الوقعة بخط يده وأوله :
ذِكْرُكَ وَالْحِطْيُ يَخْطُرُ بَيْنَنَا . وَقَدْ نَهَلْتُ مِنَ الْمُتَقَفَّةِ السُّمْرِ

ويقول في كتابه :

” لقد أشرفنا على الهلاك غير مدة ، وما نجانا الله تعالى منه إلا لأمر يريده ،
[٢٥٠] وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر “ .

وفي هذه الوقعة يقول عماد الدين الكاتب يمدح الملك المظفر تقي الدين من
قصيدة :

سقى ^(١) الله العراق وساكنيه ،	وحياه حيا الغيث الهتون
وجيرانا أمنت الجور منهم ،	فما فيهم سوى وافي أمين
صفوا ، والدهر ذو كدر ، وقُدماً	وفوا بالعهد في الزمن الخئون
بنو أيوب زانوا الملك منهم	بحلية سودي وتقى ^(٢) ودين
ملوك أصبحوا خير البرايا ،	لخير رعية في خير دين ^(٣)
أسانيد السيادة عن علامهم	منعنة ، مصححة المتون
بنو أيوب مثل قريش مجداً ،	وأنت لها كآثر عها البطين
أخفت الشرك حتى الدغر منهم	يرى ^(٤) - قبل الولادة - في الجنين

(١) الأصل : ” سقا “ .

(٢) الأصل : ” وتقا “ .

(٣) الأصل : ” حين “ والصحيح عن (الروضين ، ج ١ ، ص ٢٧٤) .

(٤) الأصل : ” بدا “ وما هنا عن المرجع السابق .

ويومَ الرملة المرهوب بأماً تركتَ الشركَ متزعجَ القطينِ
وكنتَ لعسكرِ الإسلامِ كهفاً ، أوى منه إلى حصنِ حصينِ
وقد عرفَ الفرنجُ سَطاكَ لما رأوا آثارها عَيْنَ اليقينِ^(١)

ذكر مقتل

سعد الدين كُشتكين وشهاب الدين أبي صالح بن العجمي

كان السبب في ذلك وقوع المنافسة بين مدبري الملك الصالح بن نور الدين — رحمه الله — ، وأن العدل شهاب الدين أبا صالح بن العجمي استولى على التدبير ، وكانت مقدمة الجيوش لسعد الدين ، وله حصن حارم إقطاعاً ، إلا أن رفقاءه حسدوا مرتبته ، فمالوا إلى أبي صالح ، وصارت الأمور كلها بيده ، فوقع بينهما وحشة ، فقفز جماعة من الباطنية يوم الجمعة على أبي صالح بن العجمي فقتلوه ، واستقل سعد الدين بالأمر ، فتكلم فيه حساده ، وقالوا للملك الصالح :

” ما قتل وزيرك ومشيرك ابن العجمي إلا كُشتكين ، فهو الذي حسن ذلك للإسماعيلية “ .

وقالوا له :

” أنت السلطان ، [٢٠١] وكيف يكون لغيرك حكم أو أمر ؟ “

فما زالوا به حتى قبض عليه ، وطالبوه بتسليم قلعة حارم ، فكتب إلى نوابه يأمرهم بتسليمها إلى نواب الملك الصالح ، فامتنع الذين بها من التسليم ، وتحصنوا فيها ، فسير سعد الدين تحت الاستظهار ، ليأمر أصحابه بتسليمها إلى الملك الصالح ، وأمرهم بذلك ، فامتنعوا ، فعُذِّب سعد الدين ، وأصحابه يرونه ولا يرحمونه ، فمات في العذاب ، وأصرَّ أصحابه على العصيان ، وذكر أن سعد الدين علق منكوساً ودُخِّن تحت أنفه حتى مات .

(١) في الرضتين بيت أخيراً يشبه المؤلف هنا وهو :

رأيت ثبت دون الدين تمى حماه أراَنَ رلى كل دين

ذكر منازلة الفرنج حماة ورحيلهم عنها

ووصل في هذه السنة — أعني سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة — كُنْدُ كَبر من الفرنج إلى الساحل يقال له "أقلندس" ، من أكبر طواغيتهم ، فاجتمع إليه خلق من الفرنج ، وحشدوا ، ونازلوا حماة في العشرين من جمادى الأولى ، وصاحبها يومئذ شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي خال السلطان ، وهو مريض ، وكان الأمير سيف الدين علي بن [أحمد] ^(١) المشطوب بالقرب من حماة ، فدخلها ، وقاتل الفرنج ، ومنعهم من البلد بعد أن كادوا يهجمونه ، وأخرجوا من الدروب ، ونصر الله أهل الإسلام ؛ ثم رحلوا عن البلد ، وكان مدة حصارهم له أربعة أيام .

ذكر منازلة الفرنج حارم

ثم ساروا إلى حارم ، ونازلوا حصنها ، وأقاموا على حصرها مدة أربعة أشهر ، ولما سمع السلطان — رحمه الله — بتول الفرنج على حارم ، عزم على التوجه إلى البلاد الشامية ، ليدفع عنها العدو ، واستتاب بالديار المصرية أخاه الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب .

ذكر مسير السلطان — رحمه الله — إلى الشام

ثم رحل السلطان من البركة ^(٢) بعساكره ، ووصل إلى دمشق لست بقين من شوال من هذه السنة — أعني سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة — وتخاف

(١) ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٥) .

(٢) راجع ما فات في هذا الجزء ، ص ١٨ ، هامش ٨ .

القاضي الفاضل بمصر بنية الحج في السنة القابلة ، ووصل منه كتاب إلى
السلطان يذكر فيه :

” أن العدو — خذله الله — نهض ووصل إلى صدر ، وقاتل القلعة [٢٠٢]
ولم يتم له أمر ، وصرف الله شره ، وكفى أمره ، ووصل من الفريخ مستامن
وذكر أنهم يريدون الغارة على فاقوس ، فاستقلوا أنفسهم وعرجوا .“

وذكر :

” أنهم مضوا بنية تجديد الحشد ، ومعاودة القصد .“

وفيه :

” فصل : وأما نوبة العدو في الرملة فقد كانت عثرة ، علينا ظاهرها ،
وعلى العدو باطنها ، ولزمتنا ما نسي من اسمها ، ولزمهم ما بقي من عزمها ،
لا دليل أدل على القوة من ^(١) المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتنا إلى الشام ،
نخوض بلاد الفريخ بالقوافل الثقيلة والحشود الكثيرة ، والحريم المستور ،
والمال العظيم الموقور .“

وولد للسلطان ولد بعد سفره ، [هو] الملك الزاهر مجير الدين [أبو سليمان] ^(٢)
داوود ، وهو أخو الملك الظاهر غياث الدين غازي لأبيه وأمه ، فورد كتاب
القاضي [الفاضل] ^(٣) إلى السلطان بتهنئته ، و[به] يقول :

” إنه ولد لسبع بقين من ذى القعدة ، وهذا الولد المبارك هو الموفق لاثني عشر
ولدا ، بل لاثني عشر نجما متوقدا ، فقد زاد الله في أنجمه عن أنجم يوسف
— عليه السلام — نجما ورآهم المولى يقظة ، ورأى تلك الأنجم حلما ، ورآهم

(١) الأصل : ” من القوة على المسير “ والنصحيح عن (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦) .

(٢) ما بين الحامرتين عن المرجع السابق .

ساجدين له ، ورأينا الخلق له سجدوا ، وهو قادر [سبحانه] ^(١) أن يزيد جدود
المولى إلى أن يراهم آباء وجدودا “

وورد منه أيضا كتاب ^(٢) في السنة يقول فيه :

” فصل : للمولى أولاد وقد صاروا رجالا ، ويجب أن تستجد ^(٣) للرجال
قلاعا كما جعل للسابقين ^(٤) أعمارا وأعمالا ، وقيل : القلاع أنوف ، من حلها
شمخ بها ما في الرجال على النساء أمين “

ثم ذكر في الكتاب أبيانا تتضمن السلام على الملك العزيز عماد الدين عثمان
ولد السلطان — وكان توجه إلى الشام صحبة أبيه [وهى] :

مملوك مولانا ، ومملوك ابنه ، وأخيه ، وابن أخيه ، والجيران
طى الكتاب إليه منه إجابة لسلام مولانا ابنه عثمان
والله قد ذكر السلام ، وأنه يجزى بأحسن منه فى القرآن
وغريبة قد جئت فيها أولا ، ومن افتفاها كان بعدى ^(٥) الثانى
[٢٠٣] فرسولى السلطان فى إرسالها ، والناس رسلهم إلى السلطان

(١) ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٢) ذكر فى (الرضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٧) أن تاريخ هذا الخطاب متصف ذى الحجة سنة

٥٧٢ هـ .

(٣) الأصل : ” نستجد “ والتصحيح عن قس المرجع .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى المرجع السابق : ” كما فعل السابقون أعمارا وأعمالا “ .

(٥) الأصل : ” بعد “ ، والتصحيح عن قس المرجع .

[ووردت من الفاضل كتب من بعض فصولها] ^(١) :

” فصل : أما سور القاهرة فعلى ما أمر به المولى ، شرع فيه وظهر العمل ، وطلع البناء ، وسُلكت به الطريق المؤدية إلى الساحل بالمقسم ^(٢) ، والله يعمر المولى إلى أن يراه نطاقا مستديرا على البلدين ، وسورا ^(٣) بل سوارا يكون به الإسلام محلى ^(٤) ، البلدين ، محلى ^(٥) الضدين ، والأمر بهاء الدين قراقوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجاله ، لازم لما يعنيه بخلاف أمثاله ، قليل التثقل مع حمله لأعباء التذير وأثقاله .

” فصل : فى معنى نقل القضاء عن شرف الدين بن أبى عصرون [لما ذهب بصره] ^(٦) إلى ولده محى الدين : لن يخلو الأمر عن قسمين ، والله يختار للمولى خيرة الأقسام ، ولا ينسى له هذا التخرج الذى لا يبلغه ملك من ملوك الإسلام : إما إبقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشورته وفتياه وبركته ^(٧) ، ويتولى ولده النيابة ، ويشترط عايه ^(٨) المجازاة لأول زلة ، وترك الإقالة لأقل عثرة ، فطالما بحث حب المنافسة الراجعة على اكتساب الأخلاف

(١) أضيف ما بين الحامرتين عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢) وإضافته ضرورية إذ بدون هذه الجملة يفهم أن الفصول التالية هى من نفس الخطاب السابق ، والذى يفهم من الروضتين أن الخطاب الأول الخاص بأولاد السلطان أرسل فى ذى الحجة سنة ٨٥٧٣هـ ، وأن الحديث عن السور وغيره فصول من خطاب آخر أرسله الفاضل فى أوائل سنة ٨٥٧٤هـ .

(٢) انظر ما فات ص ٥٢ ، هامش ٢

(٣) انظر ما فات هنا ، ص ٥٢ — ٥٣

(٤) الأصل : ” محلا ” .

(٥) الأصل : ” بجلا ” ، والروضتين : ” محلا ” .

(٦) الزيادة عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢) وعن هذا الموضوع انظر ما فات ص ٤٩ — ٥١

(٧) الأصل : ” ويزكه ” ، والتصحيح عن الروضتين .

(٨) فى الروضتين : ” عليها ” .

الصالحة ، وإما أن يُفوض الأمر إلى الإمام قطب الدين ، فهو بقية المشايخ وصدر الأصحاب ، ولا يجوز أن يتقدم عليه في بلد إلا من هو أرفع طبقة في العلم منه .

[ومنها في إقامة عذر التأخر عن الجهاد]^(١)

فصل : وأما تأسف المولى على أوقات تنقضى عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها ، وتجدد العوائق التي لا يوصل إلى آخر حبلها ، فالله المولى نية رشده ، أو ليس الله بعالم بعبده ، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله ، لأنه غير مقدور له ، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة ، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة ، وإذا كان المولى [أخذا]^(٢) في أسباب الجهاد ، وتنظيف^(٣) الطرق إلى المراد ، وهو في طاعة قد من^(٤) الله عليه بطول أمدها ، وهو منه على أمل في نجاح موعدها ، والثواب على قدر [٢٠٤] مشقته ، وإنما عظم الحج لأجل جهده وبعد شقته ، ولو أن المولى فتح الفتوح العظام في أول^(٥) الأيام ، وفصل القضية بين أهل الشرك وأهل الإسلام ، لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت ، وصحائف البر المكتسبة بالمرابطة والانتظار قد طويت .

[ومنها في ذكر أولاد السلطان]^(٦) :

-
- (١) ما بين الحاصرتين زيادة عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢) زيدت للإيضاح .
 - (٢) هذه الكلمة ماقطة من الأصل ، وقد أضيفت عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣) .
 - (٣) الأصل : « وتنطرق » والتصحيح عن نفس المرجع .
 - (٤) الأصل « يبر » والتصحيح عن نفس المرجع .
 - (٥) في لروضتين : « أقل » .
 - (٦) ما بين الحاصرتين عن الروضتين ، زيدت للإيضاح .

” فصل : وقبل الإجابة عن الفصول ، فنبشر بما جرت العادة به — لا قطع الله تلك العادة — من سلامة وصحة وعافية شملت موالينا أولاده السادة — أطاب (١) الله الخبر إليهم عن المولى وإلى المولى عنهم ، وعجل لقاءهم ولقاؤهم له ، فإنه من يلقى منهم [بل] (٢) كل منهم ملك دسسته برجة ، وفارس مهذه سرجه ، فهم بحمد الله بهجة الدنيا وزينتها ، وريحان الحياة وزهرتها ، وإن فؤادا وسع فراقهم لواسع ، وإن قلبا قنع بأخبارهم لقانع ، وإن طرفا نام عن البعد عنهم لهاجع ، وإن ملكا ملك تصبره (٣) عنهم لحازم ، وإن نعمة الله فيهم لنعمة بها العيش ناعم ، أما يشتاقي جيد المولى أن يتطوق بدورهم ؟ أما نظما عينه إلى أن تروى بنظرهم ؟ أما يحن قلبه إلى قلبه ؟ أما يلتقط هذا الطير الطائر بتقبيلهم ما خرج منهم من حبه ؟ وللولي أبقاه الله أن يقول :

وما مثل هذا الشوق يحمل بعضه ولكن قلبي في الهوى بقلوب “

[وفي أخرى] (٤) :

” وكل من الموالى السادة ، الأمراء الأولاد والقادة ، (٥) كلهم جوهر ، وكلهم المقدم ، وليس فيهم بحمد الله من يؤخر على ما عود الله من صحة وسلامة وكفاية ووقاية ، ولزوم المستقل منهم لمشهد الكتاب ، ولموقف الآماج ، ومخايل الخفر منهم من تحت ليل الصبي أنور دلالة من ضوء السراج ، والله تعالى يمد في عمر المولى إلى أن يرى من ظهورهم ما رأى جدّهم — رحمه الله — في أهل بيته

(١) الأصل : « أطال » والتصحيح عن الرضتين .

(٢) ما بين الحاصرتين عن الرضتين .

(٣) الأصل : « صبره » ، وما هنا عن الرضتين .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن : (الرضتين ، ج ٢ ، ص ٢) ، ومنها بفهم أن النص التالي

قطعة عن رسالة أخرى غير السابقة .

(٥) الأصل : « والقلادة كلها » والتصحيح عن قس المربع .

من البطن الرابع فوارس الحرب الرائعة ، وملوك الإسلام التي منهم للإسلام أكاسرة
وتبابعة ، وصغيرهم ما فيهم عند العلا صغير ، [٢٠٥] وصغار أبناء الكبار كبار ،
نجوم الأرض ، وذرية بعضها من بعض ، والخلف الصالح المحض ، وهم
في الدنيا والآخرة فرسان القوة والتقى يوم الحرب ويوم العرض .

” فصل : في ذكر وخم دمشق : عرف المملوك من الكتب الواصلة التياث
جسم المولى الأمير عثمان ، والحقير ^(١) مما ينال ذلك الجسم الكريم يوقد ^(١)
في قلوب الأولياء الأمر العظيم ، وقليل قذاة العين غير قليل ، وماذا تقول
في بلد لو صحت الحمية من مائه لكنت من أكبر أسباب صحة المحتفى وشفائه ،
فإنه ماء يؤكل وبقية المياه تشرب ، ويجد وخامته من ينصف ولا يتمصب .“

” فصل : وأما المأمور به في معنى المنكرات الظاهرة وإزالة أسبابها ، وغلق
أبوابها ، وتحصين كل مبتوة ^(٢) من عصمه ، وتطهير كل موسومة بوصة ،
فإنه يثيب مولانا ثواب من غضب [ليرضيه بغضبه] ^(٣) ، وحمل الخلق
على منهاج شرعه وأدبه .“

ودخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة : ففي العشر الأول من ربيع الآخرة
منها أغارت طائفة من الفرنج على بلد حماة ، وكان الأمير شهاب الدين محمد بن
تكش الحارمي صاحبها قد توفي في حادي عشر جمادى الآخرة من السنة الماضية ،
وتوفي ولده تكش بن أخت السلطان قبله بثلاثة أيام ، فخرج إليهم مقدم عسكر
السلطان بحماة الأمير ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين نهار تكين — صاحب
أبوقيس — فأسر مقدميهم ، وقتل بقيتهم ، وجاء إلى خدمة السلطان وهو

(١) الأصل : « وألحقه » و « فوقع » ، والتصحيح عن الرضين .

(٢) الأصل : « مبتوة » ، والتصحيح عن الرضين .

(٣) الأصل : « له صفة تعصمه » ، ولا يستقيم بها المعنى ، وما بين الحاصرتين عن الرضين .

بظاهر حصص — والأسرى معه — فأمر السلطان بضرب أعناقهم وأن يتولى ذلك من بحضرته من أصحابه ، فتقدم إمامه ضياء الدين الطبرى وضرب عنق بعضهم ، وفعل كذلك الشيخ سليمان المغربى^(١) ، والأمير ايطغان بن ياروق ؛ ثم استدعى عماد الدين الكاتب وأمره أن يضرب عنق بعضهم ، فلم يفعل ، وطلب أن يملكه السلطان صغيرا منهم فمؤوض عنه .

ذكرى عصيان

شمس الدين بن المقدم بعلبك وما [آل]^(٢) إليه أمره

كان السلطان لما فتح بعلبك سلمها إلى الأمير شمس الدين [٢٠٦] بن المقدم ؛ ففى هذه السنة طلبها من السلطان أخوه الملك شمس الدولة توران شاه ، لأنها مرباه ومنشؤه ، لأنها كانت بيد والده نجم الدين — على ما ذكرنا — ، فكان الملك المعظم يختار سكنائها ويحبها ، فلم يمكن السلطان مخالفتها ، فأمر شمس الدين بالتزول عنها ويعطيه عنها عوضا يرتضيه ، فلم يجب إلى ذلك ، وذكره اليهود التى له ، وما اعتمده . من تسليم البلاد إليه ، فلم يصنع إليه ، ولج فى أخذها ، فامتنع ابن المقدم بها وعصى ، فرحل السلطان على طريق^(٣) الزراعة إلى بعلبك ونازلها محاصرا من غير قتال ، فطال أمرها ، ولم يسمح بها صاحبها ، ودخل فصل الشتاء ، فرحل السلطان عنها إلى دمشق فى العشر الآخر من رجب من هذه السنة ، أعنى : — سنة أربع وسبعين وخمسمائة —

وتمادى الأمر إلى أن رضى شمس الدين بن المقدم ببارين وكفرطاب ، وفى قرى من بلد المعرة ، وسلم السلطان بعلبك إلى أخيه الملك المعظم .

(١) الأصل : " سدان المعرى " ، والتصحيح عن : (الروضتين . ج ٢ ، ص ٥) .

(٢) أضفنا ما بين الحاصرتين ليستقيم المعنى .

(٣) الأصل : " الطريق " ، وقد صححت بعد مراجعة الروضتين .

ذكر بناء الفرنج بيت الأحران

ولما كان السلطان مشتغلا بأمر بعلبك اتهمز الفرنج الفرصة ، وبنوا حصنا على مخاضة بيت الأحران ، وهو بيت يعقوب — عليه السلام — ، وبينه وبين دمشق مسافة يوم ، وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم ، فقبل للسلطان : «إنه متى أحكم بناء هذا الحصن تمكن الوهن من بلاد الإسلام» ، فقال : «إذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه إلى الأساس» .

ولما انقضى أمر بعلبك ، ووصل إلى دمشق ، جعل هذا الحصن من همه ، وعزم على قصد حصاره ، وكان قد وصل من الديوان العزيز رسول ، وهو الخادم فاضل ، وهو من أكبر الخدام ، ففرح به السلطان ، واستصحبه معه إلى الغزاة ، ووقف على الحصن الذي استجده الفرنج بالمشهد اليعقوبي ، وتخطف من حوله جماعة من الفرنج ، ثم عاد إلى دمشق .

ذكر وقعة الهنفرى^(١)

وتواترت الأخبار بأن الفرنج قد تجمعوا في جمع عظيم ، وأنهم عازمون على الخروج على المسلمين على غرة ، فقدم ابن أخيه عز الدين فرخشاه [٢٠٧] بن شاهنشاه ابن أيوب — رحمه الله — على العساكر ، وأمره أن يخرج إلى قتالهم ، وأمره أن لا يستعجل بالقتال ، بل يتركهم حتى يتوسطوا البلاد ، فلم تشعر طلائع عز الدين إلا وقد خالطوهم على غرة ، ف وقعت الوقعة ، فقتل صاحب الناصرة ، وجماعة من مقدميهم ، وطلب الملك فقتل حصانه ، وجاء الهنفرى — وهو من عظمائهم وشجعانهم — ليحميه ، ف وقعت فيه جراحات إحداها نصابة وقعت

(١) هو هنفرى الثانى صاحب حصن بانياس جنوبى شرقى دمشق

Humphrey II, Lord of Toron, Constable

انظر : (Lane-Poole : *Saladin*, p. 157) . : (RUNCIMAN : *op. cit.* vol 2. p. 419)

في مارنه فجذعته ، وتعدت إلى فيه ومرت بضربه فقلعته ، وخرجت من تحت فكه ، ووقعت أخرى^(١) في مشط رجله ، فنفذت إلى إحمصه ، وأخرى^(٢) في ركبته ، وضرب يَلَتْ^(٣) في جنبه ، فكسر منه ضلعان ، وقُتلت جماعة من الرجال والحباله ، ورجعت الفرنج خائبين ، ليس فيهم إلا منخن بالجراح ، وكل يوم ترد البشري بموت مقدم من جراحة أصابته .

ووردت البطاقة في ذلك اليوم بالبشري ، وخرج السلطان فما وصل إلى الكسوة إلا ورؤوسهم وأسراؤهم قد جرى بهم ، ورجع منصورا مظفرا ، ومات المهتفري فذل العدو لموته ، ثم سار السلطان إلى حصن بيت الأحران ، فازعجهم وذعرهم ، ثم عاد إلى دمشق .

ذكر مسير الملك المعظم

شمس الدولة نحر الدين توران شاه بن أيوب إلى مصر

ثم وجه السلطان أخاه الملك المعظم شمس الدولة إلى الديار المصرية بمن^(٣) ضعف من الأجناد لأنها كانت سنة جذب شديد ، فرتب في بعلبك نائباً عنه ، وودعه السلطان من مرج الصفر ، وذلك في أواخر ذي القعدة .

ولما ودّعه السلطان أغار على بلاد الفرنج ، وقصد حصن بيت الأحران ، ورجع بالأسرى والغنائم ، وخيم السلطان بمرج الشعراء ، ثم انتقل إلى بانياس وخيم بتل القاضي ، وبلغت الخيم حدود بلاد العدو ، وكان يركب كل يوم

(١) الأصل : " الأخرى " ، والتصحيح عن : (الرضين ، ج ٢ : ص ٦) .

(٢) انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٠ ، هامش ١) .

(٣) الأصل : " عن " ، والتصحيح عن الرضين .

بحجة الصيد ، وينزل على النهر [٢٠٨] ويجرد العساكر وقبائل العرب إلى صيدا ويبروت ، حتى يحصدوا غلات العدو ، وما يبرح مكانه حتى يعودوا بجواهرهم وأحماهم ، حتى خفف زرع الفرنج .

ودخلت سنة خمس وسبعين^(١) وخمسمائة ، والسلطان فخر بنمير بمنزلته .

ذكر استيلاء الملك المظفر تقي الدين

عمر بن شاهنشاه بن أيوب — رحمه الله — على مدينة حماة

وكان برنس^(٢) أنطاكية قد غدر وأغار على شيزر ، وغدر القومص^(٣) باطرابلس بجماعة من التركمان بعد الأمان ، واقتضى رأى السلطان أن يرتب عمر ابن شاهنشاه بن أيوب بحماة ، وأقطعته إياها ، ورتب في خدمته شمس الدين ابن المقدم وسيف الدين بن أحمد المشطوب ، فكان في مقابلة صاحب أنطاكية ورتب ناصر الدين محمد بن شيركوه بمخص في مقابلة القومص .

وكان ترتب الملك المظفر بحماة في سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، فلم تزل بيده إلى أن توفي وهو محاصر ملاز كرد في رمضان في سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، فرتب السلطان فيها ولده الملك المنصور ناصر الدين أبا المعالي محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، فملكها إلى أن توفي بها في ذى القعدة سنة سبع عشرة وستائة ، فملكها من بعده الملك الناصر صلاح الدين قايج أرسلان بن محمد ، فحاصره الملك الكامل بن الملك العادل سنة ست وعشرين وستائة ، وأخذها منه ، وملكها

(١) الأصل : "ثمانين" وهو خطأ واضح .

(٢) هو (Boémund or Bohemond II).

(٣) عن اللقب انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٧٣ ، هامش ١) ، وعن اسمه انظر ما فات

هنا ص ٢٩ ، هامش ٢

للك الملك المظفر تقي الدين أبي الفتح محمود بن محمد ، ولم يزل مال كها إلى أن توفي بها سنة اثنين وأربعين وستائة ، فملكها بعده ولده مولانا ومالك رقنا الساطان الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب — رحمهم الله تعالى — فقد مضى من مدة ملكه وملك آبائه لها إلى يوم تأليف هذا الكتاب — وهو سنة إحدى وسبعين وستائة — ^(١) نحو من سبع وتسعين سنة ، ونحن نسأل الله سبحانه أن يديم ملكهم ، وملك ذريتهم بها إلى يوم الدين .

ذكر كسرة الفرنج بمرج العيون

أجمع رأى السلطان ومن معه من المسلمين على أن يقتحموا على الفرنج بلادهم ويستوعبوا ما بقى في أيديهم من الغلات في يوم واحد ثم يرجعوا ، فرحلوا صوب البقاع ليلة الأحد ثاني [٦٠٩] المحرم سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

ولما أصبح السلطان جاءه الخبر أن الفرنج قد خرجت فالتقاهم ، فنصر الله المسلمين عليهم ، فأسر فرسانهم وشجعائهم ، وانهزمت رجالتهم في أول اللقاء ، فكان في جملة الأسرى مقدم الداوية ^(٢) . ومقدم الاسبتارية ^(٣) . وصاحب

(١) هذا استيراد هام وطبيعي من المؤلف لتبع أسماء من حكموا حماة — وطنه الأصلي — من بيت تقي الدين عمر إلى أن وصل إلى الملك المنصور الثاني الذي ألف هذا الكتاب باسمه ، وأهم من هذا تحديده للسنة التي بدأ يؤلف فيها الكتاب وهي سنة ٦٧١ هـ . انظر الجزء الأول من مفرج الكروب (المقدمة ، ص ١٩ ، والمثنى ، ص ٩٩ هامش ٤ ، ص ١١٣ هامش ٣ ، ص ١٥٤) .

(٢) أطلقت المراجع العربية والمسلمون المعاصرون هذا الاسم على جماعة فرسان المعبد (Templars) ومؤسس هذه الجمعية هو (Hugh de Payns) ، أسسها سنة ١١١٩ م لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس ، ولقد لعب فرسان هذه الطائفة ورمفاؤهم « الاسبتارية » دورا خطيرا طوال عصر الحروب الصليبية ، أما اسم هذا المقدم الذي وقع أسيرا في هذه الواقعة فهو : Odo of Saint-Amand, Grand Master of the Temple انظر : (RUNCIMAN : op. cit. vol. 2 p. 420)

(٣) انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٨ ، هامش ٢) . ولم أعثر على اسم مقدم الاسبتارية الذي أسرى في هذه المعركة .

الطبرية ، وأخوه صاحب جُبيل ، وابن القومصية ، وابن بارزان^(١) صاحب الرملة ، وصاحب جينين^(٢) ، وقسطلان^(٣) يافا ، وابن صاحب مرقية^(٤) ، وعدة كثيرة من خيالة القدس وعكا ، ومن البارونية^(٥) ، وغيرهم من المقدمين ما يزيد على مائتين ونيّف وسبعين سوى غيرهم ، ونقلوا إلى دمشق ، فبذل ابن بارزان في نفسه بعد سنة ، مائة ونحسين ألف دينار صورية^(٦) ، وإطلاق ألف أسير من المسلمين .

وكان الفقيه ضياء الدين عيسى^(٧) من نوبة الرملة عندهم ، قالتزم فكاهه ، واستفكت^(٨) القومصية ابنها بخمسة ونحسين ألف دينار صورية ، وأما مقدم الداوية — واسمه أود — فإنه هلك في السجن ، فطلبت جيفته ، فسلمت إليهم ،

(١) هو : (Baldwin of Ibelin).

(٢) الأصل : « جنين » وقد ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها بلدة بين نابلس وبيسان .

(٣) الأصل : « قسطلان » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨) ، وقسطلان معرب اللفظ اللاتيني (Castellanus) ومعناه مستحفظ القلعة ، ويقابله في الفرنسية : (Châtelain).

(٤) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها قلعة بساحل الشام قرب حص .

(٥) الأصل : « البارندية » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨) .

(٦) انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، هامش ٧) . ويضاف إلى ما هناك أن الأب لويس شيخو ذكر في (صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ١٤٩ ، هامش ٢) أن الدينار الصوري ضرب في صور في أيام الدولة الفاطمية ، وكانت الذهب يساوي نحو خمسة عشر فرنكا ذهبيا من النقود الحالية . وقد كان الدينار الصوري أقل قيمة من الدينار المصري ، وعن دار الضرب في صور وعن الدينار الصوري وعن أنواع الدنانير المتداولة في مصر والشام في العصر الأيوبي راجع : (منصور بن بكرة الذهبي الكالاء : (كشف الأسرار العلوية بدار الضرب المصرية ، مخطوطة بدار الكتب المصرية) و (Ehrenkreutz : Extracts from the technical Manual on the Ayyubid Mint in Cairo. B.S.O.A.S., 1953, XV/3 P. 424—447 ; (Ehrenkreutz : The Standard of Fineness of gold coins Circulating in Egypt at the time of the Crusades. Journal of the American Oriental Society. vol 74, No. 3 July — Sept. 1954, P. 162 - 166)

(٧) أنظر ما فات هنا ، ص ٦١

(٨) الأصل : « واستفكت » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩) .

وأخذ عوضا عنها أسير من المسلمين، وطال أسر الباقين، فمنهم من هلك في الأسر، ومنهم من خرج بقطيعة .

وكانت عدة العدو عشرة آلاف مقاتل، وانهزم ملكهم مجروحا، وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الموقعة بلاء حسن، فحكي حسام الدين تيمرك بن يونس — وكان مع عز الدين — قال :

” كما في أقل من ثلاثين فارسا، قد تقدمنا العسكر، فشاهدنا من خيل الفرنج ستمائة فارس، واقفين على جبل، وبيننا وبينهم المساء، فأشار عز الدين أن نعبث النهر إليهم، ففعلنا، ولحقنا عسكر السلطان، فهزمناهم “ .

ومن غريب الاتفاق أن في هذا اليوم بعينه ظفر الأسطول المصري ببطسة^(١) كبيرة، فاستولى عليها المسلمون، وعلى أخرى، وعاد إلى الشرف مستصحبا ألف رأس من السبي .

(١) البَطْسة أو البُطْسة، ويقال أحيانا بَطْشة أو بَطْنة، وقد تحرف إلى بَسْطة أو بُسْطة، والجمع بَطْسات وبَطْس، وبَطْشات وبَطْش. ذكر صاحب (محيط المحيط) أنها مأخوذة عن الإسبانية ومعناها السفينة الكبيرة، ويفهم من نصوص المراجع العربية في العصور الوسطى أنها كانت تستخدم أصلا للحرب، وقد تستخدم لنقل التجارة، وقال (علي مبارك: المخطط التوفيقية، ج ١٤ ص ٨٢) : ” ومن أسماء المراكب أيضا البطسة، وجمعها بطس، يقال: جهز الفرنج بطسا متعددة، وجعلوها على سوارى البطس أبراجا، ووجدوا بطسة فيها ثلاثمائة من الفرنج، وبطسة كبيرة تشتمل على ميرة وذخيرة “، ويفهم من هذه النصوص أيضا أن البطسة كانت تحمل في العادة ما بين ٣٠٠ و ٧٠٠ مقاتل، وسبشير ابن واصل فيما يلي هنا إلى بطسة كبيرة عند حديثه عن حصار عكا في سنة ٥٨٧ هـ بقوله: ” وكان السلطان قد أمر بتعينة بطشة عظيمة هائلة ببيروت، مشحونة بالآلات والأسلحة والمير والرجال والمقاتلة لتدخل إلى عكا، وكانت عدة المقاتلة بها ستمائة وخمسين رجلا... إلخ “ . ويصنف أيضا بطسة كبيرة أخرى استعملت للقتال عند محاصرة برج الذبان في سنة ٥٨٦ هـ. انظر أيضا: (صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، نشر لويس شيخو، ص ٣١، هامش ٣) و (KINDERMANN: Schiff im Arabischen p.p. 7-9) و (الشبال: معجم السفن العربية، مخطوطة لم تطبع بعد) .

وفي هذه الواقعة يقول أبو علي الحسن بن علي الجويني^(١) يمدح السلطان :
 لك رب السماء خير معين ، وكفيل لما تُحب^(٢) ضمير
 فله الحمد ، أي نصر عزيز قد جابنا به ، وفتح مبين !
 أدرك النار حين نازله المغم وأرحيف^(٣) الكفار ليث العرين
 اللهم الغضنفر الملك الناصر مولى الورى صلاح الدين
 يا مليكا أضحي الزمان ينجيه به بلفظ المذلل المسكين
 فارقت أهلها الحصون إلى بأى سبك حتى عوضتهم بالسجون^(٤)
 وأراهم رب السماء بأسيافك ما لم يحل لهم في ظنون
 لك قلب عند اللقاء مكنى ، وله من ثقاه ألف كمين
 يا مليكا ما زال يلقي الأعادى وهو مستعصما بصدق اليقين^(٥)
 إن هذا الفتح المبين شفاء لصدور ، وقرة لعيون
 هو يوم أضحي كيوم حنين ، سهل الله نصره في الحزون

(١) هو أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم ، الملقب بخر الكباب ، الجويني الأصل ، والنسبة إلى جوين ناحية من نواحي نيسابور ، كان من ندماه أتابك زنكي ، واتصل بابنه نور الدين محمود ، وسافر إلى مصر في أيام ابن رزك وتوطن بها . توفي سنة ٥٨٤ هـ وقيل ٥٨٦ هـ بالقاهرة . انظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ٣٩٨ — ٣٩٩) .

(٢) النص في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩) : ” وكفاه بما يحب ” .

(٣) الأصل : ” خوف ” ، وما هنا عن قس المرجع .

(٤) الأصل : ” عرضتهم للسجون ” وما هنا صيغة الروضتين .

(٥) صيغة الروضتين :

يا مليكا يلقي الحروب بحول الله مستعصما بصدق اليقين .

ذكر الحرب بين عسكر السلطان

الملك الناصر والسلطان عز الدين قَلِج أرسلان الساجوق
صاحب قونية

وسبب هذه الحرب أن نور الدين — رحمه الله — كان قد أخذ حصن
رَعْبَانَ^(١) من السلطان قَلِج أرسلان بن مسعود بن قَلِج أرسلان بن سليمان قُطْلُمِش
ابن أرسلان بِيغُو^(٢) بن سلجوق — صاحب قونية — .

وفي هذه السنة — أعني سنة خمس وسبعين وخمسمائة — كان الحصن بيد الأمير
شمس الدين بن المقدم ، وهو في خدمة السلطان الملك الناصر — كما ذكرنا — ،
فطمع قَلِج أرسلان في تملك الحصن ، ليكون الملك الصالح صاحب حلب بينه
وبين السلطان ، فأرسل عسكراً لحصره ، فيقال إن العسكر الذي أرسله عشرون^(٣) ألف
فارس ، فتوجه إلى الحصن الملك المظفر تقي الدين — صاحب حماة — في ألف
فارس ، فواقعهم فهزمهم ، وأصلح تلك الولاية وعاد إلى خدمة عمه السلطان ،
ولم يزل الملك المظفر^(٤) — رحمه الله — يدل بهذه النصرة ، وأنه هزم بألف
فارس عشرين^(٥) ألفاً .

(١) هي بلدة بين حلب وسمياط ، قرب الفرات ، (ياقوت : معجم البلدان) .

(٢) الأصل : « بينوار أرسلان » ، والصحيح ما ذكرناه ، أنظر : (معجم الأنساب ، الأسرات
الحاكمة ، الترجمة العربية ، ص ٢١٥ — ٢١٧) . (٣) الأصل : « عشرين » .

(٤) وصف ابن أبي طي (الرضتين ، ج ٢ ، ص ٩) هذه الواقعة وشجاعة تقي الدين هموفته
الحربي وصفاً ممتازاً مفيداً ، ولهذا آثراً نقله هنا لتمام الصورة . قال : ” واتصل بالسلطان أن قَلِج
أرسلان قد طمع في أخذ رعبان وكبسون ، فلما دخل دمشق وصله رسوله يطلبهما منه ، ويدعي أن
نور الدين بن زنكي اغتصبهما منه ، وأن الملك الصالح قد أنعم عليه بهما ، فاغتاظ السلطان ، ورسو
الرسول ، وتوعد صاحبه ، فعاد الرسول وأخبر قَلِج أرسلان ، فغضب ، وصير عسكراً إلى رعبان
فحاصرها وسمع السلطان ، فتدب تقي الدين عمر في ثمانمائة فارس ، فسار فلما قارب رعبان أخذ معه
جماعة من أصحابه مقدار مائتي فارس ، وتقدم عسكره ومارح حتى أنشرف على عسكر قَلِج أرسلان ليلاً =

ذكر تخريب حصن بيت الأحران

لما كسر السلطان الفرنج بمرج عيون عاد إلى بانياس ، وتجهز إلى المضى إلى الحصن وتخريبه ، فسار إليه في ربيع الأول من هذه السنة ، وأحاط به وبث العساكر في بلاد الفرنج [٢١١] للغارة ، واحتاج إلى نصب ستائر لأجل المنجنقات ، فركب السلطان إلى ضياع صفد — وهي للدأوية — ، فأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها ، فأخذ كلما احتاج إليه ورجع ، وجمع من الزرجون^(١) والأخشاب شيئا كثيرا ليجعل منار^(٢) للجانيق ، فقال له جاولي الأسدي — وهو مقدم الأمراء الأسدية — :

= فرآهم قد سدوا القضا. وهم قارون آمنون وادعون ، فقال تنى الدين لأصحابه : « هؤلاء على ما روى من الطمانينة والأمن والثقل ، وقد رأيت أن نعمل الساعة فيهم بعد أن تفرق في جوانب عسكرهم وتصبح فيهم ، فإنهم لا ينتنون لنا » ، فأجابوه إلى ذلك ، فأخذ واحدا من أصحابه إلى باقى عسكره وأمرهم أن ينفروا أطلابا ، وأن يعمل في كل طلب نطاعة من الكوسات والبوقات ، فإذا سمعوا الضجة فمرورا بكوساتهم وبوقاتهم وجذروا في السير حتى يلحقوا به ، ففعلوا ما أمرهم ، ثم إنه حمل في عسكر قلع أرسلان ، وصرخ أصحابه في جوانبه ، وكان عدة عسكر قلع أرسلان ثلاثة آلاف فارس ، فلما سمعوا الضجة وحس الكوسات والبوقات ، وشدة وقع حوافر الخيل ، وجلبة الرجال ، وأصطكاك أجرام الحديد هالهم ذلك ، وظنوا أن قد فوجئوا بعالم عظيم ، فلم يكن لهم إلا أن جالوا في كواب خيولهم هربا ، وطلبوا النجاة ، وأخذتهم السيوف ، فتركوا خيامهم وأثقالهم بجالها ، وأكثر تنى الدين فيهم القتل والأسر ، وحصل على جميع ما تركوه ، فلما أصبح جمع المأسورين ومن عليهم بأموالهم وكراهم وصرحهم إلى بلادهم .

(١) الزرجون — بفتح الزاء أو سكونها — كلمة فارسية ، ومعناها شجر العنب أو قضبان الكرم ، وقد يكون من معانيها أيضا النمر ، و « زر » بالفارسية معناها الذهب ، « جون » اللون وذلك لأن النمر شبه لونها بلون الذهب . والمعنى المقصود هنا هو المعنى الأول أى شجر العنب أو قضبان الكرم . أنظر : (الجواليقي : المغرب ، ص ١٦٥) .

(٢) الترس أصلانوع من السلاح ، وهو صفيحة من الفولاذ مستديرة تتحمل في اليد تطلق بها ضربة السيف ونحوه ، وفي (اللسان) : الترس التستر بالترس ، والترس خشبة توضع خلف الباب .

الرأى أنا نجر بهم بالزحف أول مرة، فننظر الحال معهم ، فإن حصل الغرض وإلا فنصب المجانيق ما يفوت .

فأمر فتودى في المعسكر بالزحف إليه ، واجلح في قتاله ، فزحفوا إليه ، واشتد القتال ، وعظم الأمر ، فصعد إنسان من العامة بقميص خلق في باشورة^(١) الحصن ، وقاتل على السور من أعلاه ، ويتبعه غيره من أضرابة ، ولحق بهم الجند ، فملكوا الباشورة ، فصعد الفرنج حينئذ منها إلى أسوار الحصن يحمون نفوسهم وحصنهم إلى أن يأتيهم المدد، وكان الفرنج قد جمعوا بطبرية ، وألح المسلمون في قتال الحصن خوفا من وصول الفرنج إليهم وإزاحتهم عنه ، وأدركهم الليل^(٢) وباتوا طول الليل يحرسون ، وخافوا أن تفتح الفرنج الأبواب ، ويغيروا عليهم على غرة ، وإذا الفرنج قد أوقدوا خلف كل باب نارا ليأمنوا من المسلمين ، فاطمأنوا المسلمون ، وقالوا : " ما بقي إلا ثقب البرج " .

فلما أصبحوا فرق السلطان جوانب البرج على الأمراء ، فأخذ عمر الدين فرخشاہ ابن شاهنشاه بن أيوب الجانب القبلي ، وأخذ السلطان الجانب الشمالى ، وأخذ ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه بقربه [نقبا]^(٣) ، وكذلك الملك المظفر تقي الدين ، وكل كبير في الدولة أخذ قسما ، وكان البرج محكم البناء ، فصعب ثقبه ، فعمقوا^(٤) الثقب بعد الجهد ، وأشعلوا النيران فيه ، وانتظرا سقوط السور ، فلم يسقط لعرضه ، فإنه كان عرضه تسعة أذرع بالنجارى .

(١) الباشورة — والجمع براشير — الحائط الظاهري من الحصن يخفى وراءه الجند عند القتال ، ويقابلها في الفرنسية (Bastion) . (Dozy : Supp. Dict. Arab)

(٢) عند هذا اللفظ ينتهى نقل المؤلف عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٧٢) ، ثم يبدأ باللفظ التالى النقل عن العمد الكاتب (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١) ، وهذا هو منهجه دائما لا ينقل أخبار الحادثة الواحدة عن مرجع واحد ، بل يبدأ النقل عن مرجع ما ، فيأخذ عنه سطورا ، ثم ينتقل إلى غيره فينقل سطورا أخرى ، وقد يعود إلى المرجع الأول فيأخذ عنه ، أو قد يتم النقل عن مرجع ثالث وهكذا .

(٣) ما بين الحاصرتين عن العمد (المرجع السابق) وهو الأصل الذى ينقل عنه هنا .

(٤) وقف المؤلف في نقله عن العمد عند هذا اللفظ ، وعاد ثانية للنقل عن نص ابن الأثير .

وذكر العماد الكاتب^(١) : أن النقب كان طوله ثلاثين ذراعا^(٢) في عرض ثلاثة أذرع ، وكان عرضه تسعة أذرع — كما ذكرناه — فأمر السلطان بإطفاء النار بعد يومين ليتم نقبه ، وقال :

” من جاء بقربة ماء فله دينار “ .

بخفاء الناس بالقرب ، وصبوا الماء على النار حتى أطفأوها ، ثم عاد النقبون فنقبوا ونحرقوا السور ، [٢١٢] وألقوا فيه النار ، فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول ، ملك المسلمون الحصن ، وأمروا كل من فيه ، وأطلقوا من كان فيه من أسرى المسلمين .

وكان الفرنج قد جمعوا وراء السور الواقع حطبا ، فلما وقع دخلت الرياح فودت النار عليهم ، فأحرقت بيوتهم وطائفة منهم ، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد من النار ، وطلبوا الأمان ، فلما نحدثت النار دخل المسلمون واستولوا عليهم قتلا وأسرا ، وغنموا مائة ألف قطعة من الحديد من أنواع الأسلحة ، وشيئا من الأقوات وغيرها ، وجرى بالأسارى إلى السلطان ، فمن كان مرتدا أو راميا ضربت^(٣) عنقه ، وأكثر الأسارى قتلَه في الطريق المطوَّعة^(٤) وكان عدد الأسرى نحو سبعمائة ، وخلص من أسرى المسلمين أكثر من مائة مسلم ، وسير باقى الأسرى إلى دمشق .

وأقام السلطان في منزله حتى دُدم الحصن إلى الأساس ، وطُمَّ جب ماء معين كان حفرة الفرنج في وسطه ، ورمى فيه القتلى ، وكان عند السلطان — رحمه الله — رسول القومص ، فشهد البلية في أهل ملته ، وكان السلطان قد بذل لهم في هدمه ستين ألف دينار فلم يفعلوا ، فزادهم حتى باع مائة ألف فأبوا ، وكانت مدة المقام على الحصن أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوما .

(١) وبهذا اللفظ عاد للنقل عن العماد . (٢) الأصل : « ذراع » .

(٣) الأصل : « ضرب » والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١) .

(٤) النص عند العماد — وهو الأصل المتقول عنه هنا :

” وأكثر من أسرى قتله في الطريق الغزاة المطوَّعة “ ، راجع : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١) .

ثم سار السلطان إلى أعمال طبرية وصور وبيروت فأغار عليها، وأرجف قلوبهم، ثم رجع إلى دمشق، ومرض [جماعة من ذلك الوباء]^(١) بسبب شدة الحر وتنفج جيف القتلى، وطول [السلطان]^(٢) المقام عليه لأجل هدمه، فتوفي أكثر من عشرة أمراء.

وهنا السلطان الملك الناصر — رحمه الله — جماعة من الشعراء بهذا الفتح الجليل، منهم بهاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن رستم بن الساعاتي^(٣) الخراساني بقصيدة أولها :

يحدك أعطاف القنا تتعطف وطرف الأعادي دون مجدك يطرف

(١) الأصل : « ومرض لأنه حصل له وباء » ولا يستقيم به المعنى إذ قد يفهم أن الذي مرض هو السلطان، والتصحيح عن العماد (الروضتين، ج ٢، ص ١١) وهو الأصل الذي ينقل عنه المؤلف هنا.

(٢) ما بين الحاصرتين عن نفس المراجع.

(٣) كان أبوه محمد بن علي بن رستم بن هردوز خراساني الأصل والمنشأ، ثم انتقل إلى دمشق، وكان ماهراً في صناعة الساعات، وهو الذي عمل الساعات التي كانت عند باب الجامع بدمشق. فأنعم عليه نور الدين محمود بن زنكي بالإنعامات الكثيرة، وكان له ولدان : شاعرنا هذا، وأخ له اسمه نحر الدين رضوان اشتغل بالطب ومهر فيه، ثم وزر لذلك للفائز ولأخيه الملك المعظم ابن العادل الأيوبي؛ وقد قضى الشاعر شبابه في دمشق، ثم رحل بعد الثلاثين من عمره إلى مصر وقضى فيها بقية حياته إلى أن توفي بها سنة ٦٠٤ ودفن بسفح المقطم؛ وله ديوان شعر كبير، نشره أخيراً في جزئين الأستاذ أنيس المقدسي (مطبوعات الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٣٨ — ١٩٣٩). وهذه الأبيات لم ترد في الديوان المطبوع، وإنما وردت في (الروضتين، ج ٢، ص ١١) وقد قلما عنه الأستاذ المقدسي وألحقها بالجزء الثاني من الديوان (ص ٤٠٩). ولاستيفاء ترجمة الشاعر أنظر : (ابن خلكان : الوفيات، ج ٣، ص ٧٣ — ٧٤) و (ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء، ج ٢، ص ١٨٣ — ١٨٤) و (مقدمة الأستاذ المقدسي لديوان ابن الساعاتي) و (ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٣).

شهابٌ هدى في ظلمة الشرك ^(١) ناقبٌ وسيفٌ هدى في طاعة ^(٢) الله مرهفٌ
وقفت على حصن المخاض وإنه لموقفٌ حقٌ ما ^(٣) يوازيه موقفٌ
ومنها :

ومارفت ^(٤) أعلامك الصفر ^(٥) ساعةً إلى أن غدت أبادها السود ترجفُ
[٢١٣] كما من أعاليه صليبٌ وبيعةٌ وساد به ^(٦) دينٌ حنيفٌ ومصحفٌ
آسكن أوطانَ النبيين عصبهٌ تمينُ لدى أيمانها حين ^(٧) تحلفُ
نصحتكم ، والنصح في الدين واجبٌ : ذروا بيتَ يعقوب ، فقد جاء يوسفُ
ثم أوردت البشائر إلى سائر الأمصار بما سناه الله سبحانه من هذا الفتح ، وورد
إلى الديوان العزيز النبوي كتاب بالإنشاء الفاضلي منه :

”فصل في ذكر الحصن : وقد عرض حائطه إلى أن زاد على عشرة أذرع ،
وقطعت له عظام الحجارة ، وكل فص منها من سبعة أذرع إلى ما فوقها وما دونها ،

(١) كذا في الأصل ، وفي الرضتين : « الشك »

(٢) الأصل : « وسيف إذا ما هزك الله مرهف » ، وما هنا صيغة الرضتين . انظر

أيضا : (ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٤٠٩) .

(٣) في الرضتين : « لا » .

(٤) في الرضتين : « ومارجت » .

(٥) هذه إشارة لها فيما تدل على أن أعلام الدولة والبلش في عصر صلاح الدين كانت صفراء اللون .

(٦) الأصل : « وشاد » والنصحيح عن الرضتين والديوان .

(٧) في الرضتين : « وهي تحلف » .

وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر ، لا يستقر ^(١) الحجر في مكانه ، ولا يستقل في بنيانه ، إلا بأربعة دنانير فما فوقها ، وفيما ^(٢) بين الحائطين حشو من الحجارة الصم ، المرغم بها أنوف الجبال الشم ، وقد جعلت مقبته بالكس الذي إذا أحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه ، وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه ، وأوغز إلى خصمه من الحديد بالألا يتعرض لهدمه .

فصل: "وبات الناس في ليلة الجمعة مطيفين بالحصن والنيران به مطيفة وعليه مشتملة ، وعذبات ألسنها على تاجه مهدلة ومسدلة ، ومن خلفه مسبلة ، ونارهم قد أطفأها الله بملك النار الواقعة ، ومنعهم قد أذهبها الله بملك الأبرجة الساجدة ، وبنفسج الظلماء قد استحال جلائرا ، والشفق قد عم الليلة فلم يختص أصالا ^(٣) ولا أسحارا ، ونفحاتها حميمة وقودها الناس والحجارة ، والبلاء ينادى بلسان مصابها : إياك أغنى واسمعي يا جارة ؛ فوجلت النار مواج يضيق بها ^(٤) الفكر ، ويعجز عنها الإبر ، ونقلت البناء من العين إلى الأثر ، وقال الكفر : إنها لإحدى الكبر ، وخولف المثل "إن السعادة لتلحظ الحجر" ، وأغنى ضوءها لسان كل إمعة أن يسأل هذا وهذا : ما الخبر؟ وقذفت بالشرر كالجملات الصفرة ، وزفرت يغيظ تغمر له حدود الجبال الصمر ، وتلحقها بالكشب العفر ، وبات الليل والنهار يثله ، وكلما [٢١٤] أغمده الحمد جعل الوقود يسله ، إلى أن بدا الصباح كأنه منها يمتار الأنوار ، وانشق الشرق ومن عصفرها صبغ الأزار ، فحينئذ تقدم الخادم فاقتلع الأحجار بيده من أسها ، ومحا حروف البنيان من طرسها ، وتبعه الجيش ورفاقه ، وكافة من اشتمل عليه نطاقه .

(١) الأصل : « يستقل » والنصحیح عن نسخة الرسالة الواردة في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣) .

(٢) الأصل : « ما » وما هنا عن قس المرجع .

(٣) الأصل : « أصلا » وما هنا عن قس المرجع .

(٤) في الروضتين : « منها »

ذكر استيلاء عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب

— رحمه الله — على بعلبك

وفي هذه السنة أنعم السلطان الملك الناصر ببلبك وأعمالها على ابن أخيه الملك المنصور عز الدين فرخشاه بن أيوب ، فلم يزل مالكها إلى أن مات في حياة السلطان ، فأنعم بها بعده على ولده الملك الأجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه ، فلم يزل مالكها إلى أن أخذها منه الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك العادل — رحمه الله — سنة سبع وعشرين وستمائة ، — على ما سند كره إن شاء الله تعالى — ، واستمر الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب بالديار المصرية ، وأنعم عاياه السلطان باسكندرية ، ثم توفي بمصر — على ما سند كره — .

وفي هذه السنة أغار عز الدين فرخشاه — صاحب بعلبك — على صفد ثامن عشر ذي القعدة ، وكان قد جمع لهم من رجال بانياس وما حولها ، ورجع سالماً غانماً .

ذكر وفاة المستضيء بنور الله بن المستنجد

وبعض سيرته

كما قد ذكرنا تقلد الإمام المستضيء بنور الله أبي^(١) مجد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتدى لأمر الله أبي عبدالله مجد بن المستظهر بالله . وأنه لما ولى الخلافة استوزر عضد الدين مجد بن عبد^(٢) الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء ،

(١) : « بن » ، والتصحيح عن (السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٤) .

(٢) الأصل : « عيد » والتصحيح عن (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٨٢) حيث أورد ترجمة مفصلة لهذا الوزير ، وانظر أيضا : (ابن الجوزي : المتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٨٠) .

وأنه تقدم عنده قايمار غلام أبيه ، وأقطعته الحلة ، وأقطع أردن وتماش نسيبي قايمار واسطا ، وطوق الخليفة قايمار بطوق ذهب ، وسماه ملك العرب ، وسوره بسوارين من ذهب . وحمل إلى دؤلاء الثلاثة من الأموال ما زاد على أمانيتهم وأمالهم .

وفي سنة سبع وستين وخمسمائة حصل خلف بين الوزير عضد الدولة وقايمار ، وسعى كل منهما بصاحبه [٢١٥] وطلب قايمار من الخليفة عزل الوزير ، فلم يسمعه مخالفته ، لقوة تمكنه من الدولة ، فعزل الخليفة وزيرا ، فلم يكتف قايمار بذلك واشتد طمعه ، وأطمع الممالك والعوام في نهب دار الوزير ، فنهبت ، ومزقت أمواله كل ممزق ، وهتك حريمه ، فغضب الخليفة المستضيئ لذلك ، وأنكر هذا الفعل على قايمار ، وشدد عليه في إعادة ما نهب من دار الوزير ، وبعث الخليفة إلى الوزير نجاحا الخادم رسولا ، ليسكن منه ، ووعدته بإعادة ما كان له من الإناعام والقرب والمعروف ، ولم تزل الرسالة إليه متواترة بما يقوى قلبه ويبسط أمله .

وأطلع على ذلك قايمار ، فغضب وأظهر الخلاف والعصيان ، هو ونسيباه ومن أطاعه ، فلم ير الخليفة في تلك الحال مشاققته ، وأرنى له في زمامه ، وأرسل إليه يرضيه بأنه يخرج الوزير من داره إلى الحرم ، وأرسل إلى الأمراء الذين مع قايمار^(١) في الباطن بما يغير قلوبهم عن طاعة قايمار ، وأحس قايمار بذلك ، فركب مع جماعة من لفيفه مظهرا للغدر والمكر ، وقصدوا دار الخلافة على قصد المحاربة ، فأمر الخليفة عند ذلك بأن ينادى : ” من أراد النهب فعليه بدار قايمار “ .

فمضت العامة إلى دار قايمار فانتهبوها ، وتقلل عنه أكثر من كان معه ، ودعى إلى وجهه حائرا في أمره ، ينكت الأرض ببتان التحير ، ويغم السماء بأنفاس التحسر .

وكانت هذه الواقعة لثلاث عشرة مضت من ذي القعدة سنة سبعين وخمسمائة ، فاستدعى الوزير عضد الدين عند ذلك إلى دار الخلافة بأستاذ الدار

(١) انظر (ابن الجوزي : المتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٥٤ و ٢٥٥ - ٢٥٦) و (ابن الأثير

الكامل ، ج ١١ ، ص ١٦٠ - ١٦١) .

صنديل المقتفوى ، وعلى يده من الملابس ما يليق به ، وحمل على فرس من خيل الخلافة ، وحضر الدار ، فأكرم غاية الإكرام ، ثم مضى إلى منزله ، واستقر في ولايته .

ثم بعد أربعين يوما ورد الخبر بوفاة قايماز ، ثم اضطربت بعد ذلك أحوال الوزير عضد الدين ، بسبب ظلم ولده للرعية ، وانحلت منزلته عند الخليفة ، فالتمس من الخليفة أن يفسح له في الحج ، فأذن له ، فتوجه إلى بيت الله الحرام ، فوثبت عليه نفر من الباطنية فقتلوه بظاهر قَطْفَتَا^(١) ، ونسب قتله إلى وضع من ظهير الدين أبي بكر منصور بن العطار صاحب المخزن ، وكان متمكنا من الخليفة .

ولما [٢١٦] قتل الوزير عضد الدين بن رئيس الرؤساء تمكن ظهير الدين ابن العطار^(٢) من الدولة تمكنا عظيما ، وفوض إليه الخليفة المستضى نيابة الوزارة ، واستولى على الأمور جميعا .

ولما كانت هذه السنة — أعني سنة خمس وسبعين وخمسمائة — عرض للخليفة المستضى مرض شديد ، فأغلق ظهير الدين بن العطار أبواب الدار التي للخليفة وحمل السلاح ، وأرهب البلد ، وأخذ جماعة بغير جناية فصلبهم تجاه داره بباب النوبى^(٣) ، وجرت منه أسباب تنفر منها الطباع ، وتمجها الأسماع ،

(١) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها محلة كبيرة ذات أسواق بالجنب الغربي من بغداد مجاورة لمقبرة الدير التي فيها قبر الشيخ معروف الكرنى ، بينها وبين دجلة أقل من ميل ، وهي مشرفة على نهر عيسى .

(٢) انظر : (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٨٤) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١ ، ص ١٧٣)

(٣) الأصل : « البوق » وقد صححت بعد مراجعة (ابن الساعى : الجامع المختصر ، ج ٩ ، نشر الدكتور مصطفى جواد) .

فعند ذلك أمر الخليفة بالبيعة لولده وولى عهدده الناصر لدين الله أبي العباس أحمد ، وذلك يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة مضت من شوال من هذه السنة .

وتوفي الخليفة في هذا اليوم ؛ وكان — رحمه الله — ديناً حسن السيرة جميل الطوية ، محباً للعامل ، كارهاً للظلم ، لين الجانب ؛ وذكر بعض جلسائه : أنه كان يوماً بحضرته ، فعرضت عليه مطالعة لظهير الدين بن العطار ، وكانت قد لاحت أمارات التغير عليه والالتفات عنه ، فأنشد الخليفة :

وإذا كرهت بأن تجاهل في الذي يأتي فلا تعمل برأى الجاهل

وكانت مدة خلافته تسع سنين ويسيراً .

ذكر البيعة بالخلافة

للإمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد

وفي التاريخ المذكور ببيع بالخلافة للإمام الناصر أبي العباس أحمد بن المستضى ابن المستنجد بن المقتدى ؛ وكان مولده سنة اثنين وخمسين وخمسمائة ، في أيام جد أبيه المقتدى ، وكان عمره يوم البيعة له ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً ، وخطب له ببغداد ، ونثرت الدنانير على المنابر ، ومدحه أمين الدولة أبو الفتح بن عبيد الله

سبط [ابن] التعاويذي ^(١) ، وهو من فحول شعراء العراق بقصيدة أولها :

طاف يسعى بها على الجلّاس كفضيب الأراكـة الميـاس

(١) هو سبط أبي محمد المبارك بن المبارك بن علي بن نصر السراج الجواهري الزاهد المعروف بابن التعاويذي ، وقد نسب الشاعر إلى جده لأنه كفه صغيراً ونشأ في حجره ، ولد أبو الفتح سنة ٥١٩ هـ ، وتوفي سنة ٥٨٣ هـ أو ٥٨٤ هـ ، وكان كاتباً بديوان المقاطعات ببغداد ، وعمل في آخر عمره سنة ٥٧٩ هـ . ولاستيفاء تربيته انظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ص ٩٠ — ٩٧) و (الصفدي : نكت الحميان ، ص ٢٥٩ — ٢٦٣) و (ديوان سبط ابن التعاويذي ، نشر الأستاذ مرجليوث ، المقدمة) ؛ وعلى هذا الديوان عارضنا القصيدة الواردة بالمتن هنا وصححناها .

بذرٌ تمَّ غازلتُ من لحظه
ذلتته لي المدام ، فاضحي
[٢١٧] لا يبت ذلك الحبيب بما يبت
قلبي من وشاحه ، وبقلي
ورأى الغانيات شيبي فأعرض
كيف لا يفضل السواد وقد أض
أمناء الله والكرام ، وأهل الحب
ولقد زينت الخلافة منهم
مالك ، جل قدسه عن مثال ،
يا لها بيعة أجدت من الإس
والى الله أمرها ، فله المن

ليلة تدمته غزال كئاس
لين العطف بعد طول شماس
أعاني في حبه وأقاسي
ما يخالاه من الوسواس
ن وقلن : الشباب خير لباس
حي شعارا على بني العباس
سود والعلم^(١) والتقى والباس
بلام الهدى أبي العباس
وتعالت آلاؤه عن قياس
سلام بالي رسومه الأذراس^(٢)
ة فيها عليه ، لا للناس

وتولى أخذ البيعة له ذو الرياستين محمد بن أبي الفضل بن الصباح أستاذ الدار ،
ونائب الوزارة ظهير الدين بن العطار ، ثم بعد ثلاثة عشر يوما برز أمر الخليفة
بالقبض على ابن العطار ، لما كان صدر عنه في أيام أبيه من الظلم للرعية
والحيف عليهم ، فقبض عليه ، وضرب بالعصى إلى أن مات ، وأخرج
تابوته من باب النوبي ، فثار عليه العوام^(٣) ، وألقوه عن رأس الجمالين ،
وكسروا تابوته ، ومزقوا أكفانه ، وربطوا في إحدى رجله حبلا ، وسحبوه
في الأسواق ، وقطعوا خنصره وأذنه ، ودفنته أخته ليلا خلصة من الناس .

(١) في (الديوان ، ص ٢٣٧) : « والحلم » .

(٢) الأصل : « الأمراس » وما هنا عن (الديوان ، ص ٢٣٨) .

(٣) راجع : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص

١٧٣) و (ابن طاطبا : الفخرى ، ص ٢٨٦) .

واستدعى الخليفة الناصر لدين الله نحر الدين بن المطلب ، وطلب منه أن يلى الوزارة ، فامتنع واعتذر ، فطلب منه أن يشير بمن يصلح ، فأشار بأن يستناب فى الوزارة سليمان بن حارس ، فولى نيابة الوزارة ، وخاع عليه ، ولقب بحسام الدين ، فأقام مديدة يسيرة ، ثم عزل .

وولى نيابة الوزارة جلال الدين أبو المظفر محمد بن النجارى ، وكان فقيها فاضلا فى المذهب والخلاف .

وبسط الإمام الناصر لدين^(١) الله العدل ، وأمر بالنداء فى الناس به ، وأمر بكسر الملاهى ، وإراقة الخمر ، وإقامة الحدود ، ومنع من التظاهر [٢١٨] بشرب الخمر والمنكرات ، وإزالة المكوس المضروبة على التجار الورداء الى بغداد ، فعمرت البلاد ، وكثرت الأرزاق .

وكان الناصر عظيم الهيبة ، عالى الهمة ، وافر العقل ، حسن السياسة ، متيقظا ، لا يفوته أمر مما يجرى فى بلاده وغيرها من بلاد الإسلام .

وكان له أصحاب أخبار يطاقونه بما يحدث وما يروونه^(٢) من الأمور فى كل صقع ، نخافه الناس خوفا شديدا ، وهابوه ، وكان الإنسان فى العراق لا يجسر أن يجرى فى بيته وخلوته ما يخاف الإنكار عليه منه ، حتى كان يتوهم من أهل بيته وأخص الناس به أن ينقل خبره الى الخليفة .

وفتح فى أيامه فتوحات كثيرة ، واتسع ملكه جدا ، واستولى على خوزستان والجليل ، وفتح كثيرا من بلاد العجم ، وقامت للدولة العباسية فى أيامه حشة لم يكن مثلها موجودا إلا فى الزمن القديم قبل استيلاء الملوك على العراق .

(١) انظر ترجمته فى : (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٧ — ٣٠٣) و (ابن الأثير الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٦٨ — ١٦٩) و (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٨٥) و (ابن السامى : الجامع المختصر ، مقدمة الناشر الدكتور مصطفى جواد) و (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ص ٦٣٥ — ٦٣٦) .

(٢) الأصل : « يرويه » .

ولما اشتدت دولة الناصر بالله واستأبقت أمره بعث رسله الى الآفاق مبشرين بخلافته مهتئين بإمالاته .

وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين قد أرسل ضياء الدين بن الشهرزورى رسولا الى الإمام المستضى بنور الله ، فاتفقت وفاة المستضى ، ومصير الخلافة الى الناصر لدين الله — وهو ببغداد — فحضر الديوان ، وبايع ، وكتب السلطان بالخبر ، فبادر الى الخطبة في جميع بلاده .

ومضى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل من بغداد رسولا الى بهلوان بن ايلدرك^(١) صاحب العجم ، وألزمه الخطبة بهمدان وأصفهان ، ثم لما رجع شيخ الشيوخ جاء الى السلطان الملك الناصر ، فأخذه السلطان معه الى مصر ، وركب البحر منها ، وجج — كما سذكره إن شاء الله تعالى —

ذكر وفاة

سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الموصل

وفى ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة توفى سيف الدين غازى بن مودود ابن زنكى صاحب الموصل ، وكان مرضه السلى ، وطال به ، ثم أدركه فى آخره سراسم^(٢) ، وكان عمره لمسامات نحو ثلاثين سنة ، وكانت مدة ملكه عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر .

(١) الأصل "الدكى" وهو شمس الدين أبو جعفر محمد بهلوان جهان بن ايلدرك . حكم حوالى سنة ٥٦٨ هـ ، وتوفى فى ذى الحجة سنة ٥٨١ هـ . انظر : (زا مبارك : معجم الأنساب العربية ، الترجمة العربية ، ص ٣٤٩) .

(٢) السراسم هى دأمة مع صداع وثقل فى الرأس والعين ، وحررة فيها شديدة ، وكرهية الضوء . (الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ٩٦) .

ذكر صفته وسيرته

كان حسن الصورة ، تام القامة ، أبيض اللون ، وكان عاقلا عفيفا ، شديد الغيرة ، [٢١٩] لا يدخل دوره غير الخدم الصغار ، فإذا كبر أحدهم منه ، وكان يكره سفك الدماء وأخذ الأموال ، وكان بخيلا جباناً ، وكان عنده سكون ووقار ، وقلة التفات إذا ركب وإذا جالس .

ذكر استيلاء عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي

على الموصل

كان لما اشتد المرض بسيف الدين غازي أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجر شاه بن غازي ، وكان عمره يومئذ اثنتي عشرة سنة ، تخاف على الدولة من الملك الناصر ، وامتنع [أخوه] ^(١) عز الدين مسعود من الإذعان لذلك والإجابة إليه ، فأشار مجاهد الدين قايماز وأكابر الدولة بأن يجعل الملك في عز الدين ، لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل ، وأن يعطى ابن سيف الدين بعض البلاد ، ويكون مرجعهما إلى عز الدين عمهما ، ومتولى الأمر مجاهد الدين قايماز ، ففعل ذلك ، وعهد بالملك لأخيه عز الدين مسعود ، وأعطى جزيرة ابن عمر وبلادها لولده معز الدين سنجر شاه ، وقلعة [عقر] ^(٢) الحميدية لولده ناصر الدين كسك ^(٣) .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٧٥) وهو المرجع الذي ينقل عنه المؤلف هنا .

(٢) ما بين الحاصرتين عن : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٧٥) .

(٣) الأصل : « كك » والتصحيح عن المرجع السابق .

فلما توفي سيف الدين استقرت القاعدة على ذلك ، وانتظمت الأمور ، وقام بتدبير الأمور كلها مجاهد الدين قايماز ، وورد رسوله إلى السلطان الملك الناصر — وهو الشيخ الفقيه نجر الدين أبو شجاع بن الدهان البغدادي — يطلب من السلطان أن يكون معه كما كان مع أخيه من إبقاء سروج والرّها والرقّة وحرّان والخابور ونصيبين في يده ، فلم يحب السلطان إلى ذلك ، إذ هي له بتوقيع الخليفة ، وإنما جمعها في يد سيف الدين غازي بالشفاعة ، بشرط أن يقوى السلطان بالعساكر .

ولما مات سيف الدين كتب السلطان إلى الإمام الناصر لدين الله يعلمه بذلك ، وأن هذه البلاد لم يزل ارتفاعها بصدد تقوية ثغور [٢٢٠] الإسلام بالشام ، وسأل أن يفوضها الخليفة إليه ، وكان الكتاب في ذلك من السلطان إلى الشيخ صدر الدين عبد الرحيم شيخ النيوخ بإنشاء عمادى فيه :

”فصل : قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية ، للدار العزيزة النبوية ، بما لم يختص به أحد ، وامتدت اليد منا في إقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بمالم تمتد إليه يد ، وأزلنا من الأقاليم الثلاثة ثلاثة أدياء ، وخالفناهم ^(١) لاردى ، حيث دعوا بلسان الغواية خلفاء ، ولا خفاء أن مصر ، إقليم عظيم وبلد كريم ، بقيت مائتين وخمسين سنة مضية ، وعانت كل هزيمة ، وعانيت كل عظمة ، حتى أنقذها الله بنا من عبيد بنى عبيد ، وأطلقها بمطلقات ^(٢) أعنتنا إليها من عناء كل قيد ، وفيها شيعة القوم ، وهم غير مأمونى الشر إلى اليوم ، وطوائف أقاليم الروم والفرنج [من البر والبحر] ^(٣) بها مطيفة ، فمن حقها أن يتوافر عسكرها ، فلو حصل — والعياذ بالله — بها نتق لأعضل رتقه ، واتسع على الراقع خرقه ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام وثغور الإسلام إلى استصحاب العسكر المصرى إليها ، وله مدة خمس

(١) الأصل : « وخلصناهم » وما هنا — عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧) .

(٢) الأصل : « مطلقات » والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن المرجع السابق .

سنين في بيكارها^(١) [متقما من كفارها]^(٢) متحدا لمشاقها على غلاء أسعارها، وإنما أحوج إلى ذلك أن بلاد هذا الثغر قد اقتطعت عنه، وعساكرها أخذت منه، “
فوصل في رجب رسل الديوان : صدر الدين شيخ الشيوخ [أبو القاسم عبد الرحمن]^(٣)،
وشهاب الدين بشير الحارثي بالتفويض والتقليد والتشريف^(٤)، فتلقاهم السلطان،
وترجل لهم، فنزل الرسل وسلموا عليه عن أمير المؤمنين، فقبل الأرض، ثم
ركبوا ودخلوا المدينة، وكان السلطان قد عزم على قصد الديار المصرية، وسلك
طريق أيلة والبرية فحسن للشيخ صدر الدين مصاحبته، ورغبه في زيارة قبر
الشافعي — رحمة الله عليه — ، فقال :

” قد عزمت في هذه السنة على الحج ، فأصل معكم إلى القاهرة، بشرط إقامة
يومين [٢٢١] ولا أدخلها، وإنما أسكن بالتربة الشافعية ، وأسير منها إلى بحر
عذاب ، لعل أدرك صوم رمضان بمكة“^(٥) .

فالتزم له ذلك، وأعاد أصحابه إلى بغداد ليأتوه من طريقها إلى الحجاز ، ورجع
شهاب الدين بشير في جواب رسالته، ومعه القاضي ضياء الدين بن الشهر زورى ،
وكتب السلطان إلى الديوان كتابا ، وفيه :
” قد توجه الخادم إلى الديار المصرية لتجديد النظر فيها ، ثم يستخير الله
في الحج وأدائه، ويعود إلى مجاهدة أعدائه“ .

(١) اليكار ، وقد تجمع على بياكير ، لفظ فارسي معناه الحرب بوجه عام ، راجع أيضا :

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن المرجع السابق

(٣) أورد ابن أبي طي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩) وصفا تفصيلا للخام التي أرسلها الخليفة
الناصر إلى صلاح الدين ، وهو وصف له أهميته ولهذا أثرا نقله هنا (قارنه بوصف الخام التي أرسلها
الخليفة المستنصر لصلاح الدين فيما سبق هنا) ، قال : ” وكانت هذه أول خلعة قدمت من الإمام
الناصر على الملك الناصر ، وكانت : ثوب أطلس أسود واسع الكم مذهب ، وبيقار أسود مذهب
وطيلسان أسود مذهب ، ومشدة سوداء مذهب ، وطوق ، وتخت ، ومرفسار ، وجواد كيت من مراكب
الخليفة عليه سرج أسود ، وعلال أسود ، وطوق مجوهر ، وقصة ذهب ، وعم أسود ، وعدة خيول
وبقج ، وركب السلطان بالخلعة ، وزينت له دمشق ، وكان يوما عظيما“ .

(٤) بهذا اللفظ يتقابل الأصل مرة أخرى مع نسخة س في أول (ص ١١٤) منها .

ذكر وفاة الملك المعظم شمس الدين^(١) توران شاه بن أيوب

وفي هذه السنة في المحرم^(٢) توفي الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب — وهو أخو السلطان الأكبر — بشعر الإسكندرية^(٣)، ووصل الخبر بذلك إلى السلطان أخيه، فحزن عليه حزنا شديدا، وجعل يكثر من إنشاد أبيات المراثي، وكان أكثر أبيات الحماسة من حفظه.

ذكر مسير السلطان لحرب قليج أرسلان صاحب قونية

كان السبب في ذلك أن نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق — صاحب حصن كيفا — كان قد تزوج بابنة السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود السلجوقي، وبقيت عنده مدة ثم أحب مغنية، فتروجها ومال إليها، وحكمت في بلاده وخزائنه، وأعرض عن ابنة قليج أرسلان، فبلغ أباه ذلك، فعزم على قصده نور الدين — صاحب الحصن — وأخذ بلاده، واستجار نور الدين بالسلطان، وسأله كف يد قليج أرسلان عنه، فأرسل السلطان إلى قليج أرسلان في المعنى، فأعاد الجواب:

(١) ص (١١٤): «شمس الدولة»، وقد ذكر بهذه الكنية في أبي المتن، وفي: (الروضتين، ج ١، ص ٢٥٩، ج ٢، ص ١٨) و(الحنبل شفاء القلوب، ص ١١٢). واتفق مع المتن (Zambour, op. cit. p. 98).

(٢) كذا في الأصل وواقعه صاحب الروضتين قلا عن الهاد، وفي ص، و(الحنبل، شفاء القلوب ص ١٣ ب) أنه توفي في صفر، والتاريخ الأول أرحم فقد قال به مؤرخ معاصر.

(٣) قال ابن أبي طي (الروضتين، ج ٢، ص ١٨) إنه دفن عند موته «بقصر الاسكندرية»، وقال صاحب الروضتين (ج ٢، ص ١٩) «وقبر تورانشاه الآن بالتربة الحسامية بالعوية ظاهر دمشق، نقله إليه أخته بنت الشام بنت أيوب، وبنت القبر عليه وعلى زوجها ناصر الدين محمد ابن شيركوه — وهو ابن عمها — وعلى قبرها وقبر ابنها حسام الدين عمر بن لابن وإليه تنسب التربة».

فأنتى كنت قد سلمت إلى نور الدين عدة حصون [من بلادى] ^(١) تجاوز بلادهما
تزوج ابنتى ، فحيث آل الأمر معه إلى ما يعلمه ^(٢) ، فإنا أريد أن يعيد على ما أخذ منى .

وترددت الرسل بينهما ، فلم يستقر حال .

فهاذن السلطان [صلاح الدين] ^(١) الفرنج ، وسارت عساكره ، وكان [٢٢٢] الملك
الصلاح بن نور الدين بحلب ، فتركها ذات اليسار ، وسار على ^(٣) نيل باشر إلى
رعبان ، فاتاه بها نور الدين — صاحب الحصن — فأقام عنده ، فلما سمع قلعج
بقربه منه ، أرسل إليه أكبر أمير عنده ، يقول له :

”إن هذا الرجل فعل مع ابنتى كذا وكذا ، ولا بد من قصد بلاده ، وتعريفه محل
نفسه“ .

فلما وصل الرسول ، واجتمع بالسلطان ، وأدى إليه الرسالة ، غضب
السلطان واستشاط ، وقال للرسول :

”نزل لصاحبك : والله الذى لا إله إلا هو لئن لم يرجع لأسيرك إلى ملطية ، وبنى
وبينها يومان ، ولا أنزل عن فرسى إلا فى اليوم ، ثم أقصد جميع بلاده وأخذها منه“ .

فرأى الرسول أمرا ^(٤) شديدا ، فقام من عنده ، وقدر أى العساكر وما هو فيه من
القوة والتجمل ، وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك ، وليس عندهم ما يقاربه ، فعلم أنه إن
قصدهم أخذ بلادهم ، فأرسل إليه من الغد يطلب أن يجتمع به ، فأحضره ، فقال له :

”أريد أن أقول شيئا من عندى ، ليست رسالة من صاحبي ، وأحب أن تنصبنى“

فقال : ”قل“ .

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (١١١٤) .

(٢) الأصل : «تقله» و ص : «تقلبه» ، وما هنا صيغة (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ،

ص ١٧٥) وهو الأصل الذى ينقل عنه المؤلف هنا .

(٣) الأصل : «إلى» والتصحيح عن المرجع السابق .

(٤) ص (١١٤ ب) : «الأمر» .

قال : ” يا مولانا ما هو قبيح بمثلك — وأنت أعظم السلاطين وأكبرهم شأنا — أن يسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج ، وتركت الغزو ومصالح المملكة ، وأعرضت عنى كل ما فيه صلاح لك ولرعييتك وللمسلمين عامة ، وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة ، وسرت وخسرت أنت وعسكرك الأموال العظيمة ، لأجل [قحبة] ^(١) مغنية ، ما يكون عذرك عند الله تعالى ثم عند الخليفة وملك الإسلام والعالم ؟ وأحسب أحدا ما يواجهك بهذا ، أما تعلمون أن الأمر هكذا ؟ وأحسب أن قايح أرسلان مات ، وهذه ابنته قد أرسلتني إليك تستجير بك وتسألك ^(٢) أن تنصفها من زوجها ، فإن فعلت فهو الظن بك ، وإن لم تفعل فلا تقوى أمر هذه المغنية ، أفيحسن بك أن تردّها ؟ “ .

فقال : ” والله إن الحق بيدك ، والأمر لكما تقول ، ولكن هذا الرجل دخل على وتمسك بى ، ويقبّع على تركه ، ولكن أنت اجتمع به ، وأصلحوا الحال بينكم على ما [٢٢٣] تحبون ، وأنا أعينك عليه ، وأقبّع فعله عنده “ .

ووعده من نفسه بكل جميل .

فاجتمع الرسول بصاحب الحصن ، وتردد القول بينهم ، واستقر أن صاحب الحصن يخرج المغنية منه بعد سنة ، وإن كان لا يفعل فينزل السلطان عن نصرته ، فاصطلحوا على ذلك ، وعاد السلطان ، فلما انقضت السنة أخرج نور الدين المغنية عنه ، فتوجهت إلى بغداد [وأقامت بها إلى أن ماتت] ^(٣)

ذكر غزو السلطان الملك الناصر بلاد الأرمن

وفى هذه السنة — أعنى سنة ست وسبعين وخمسمائة — دخل السلطان بلاد الأرمن لقمع ملكهم ابن لاون ، لأنه كان استمال قوما من التركمان حتى يزعوا

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن الأصل (ابن الأثير) .

(٢) مد هذا اللفظ فى س سقط يسير وبه تنقطع الصلة بين النسختين مرة أخرى .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن الأصل المنقول عنه وهو (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٧٦) .

في بلاده ، وأمنهم ، ثم غدر بهم وأسرهم ، فدخل السلطان بلادهم ، وأوغل بها ، نخاف ابن لاون ، وأحرق السلطان قلعة شامخة حصينة تعرف بالمناقير^(١) ، وبادر المسلمون إلى إخراج ما فيها من الغلات والآلات ، وتقووا بها ، وتمموا هدمها إلى الأساس ، نخضع ابن لاون وذل ، ودخل تحت طاعة السلطان ، وأطلق ما بيده من الأسارى ، ورجع السلطان مؤيدا مظفرا منصورا ، ووصل إلى حماة في أواخر جمادى الآخرة .

ومدحه جمال الدين أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب^(٢) المقرئ

بقصيدة منها :

لقد جمل الله منك الورى	بأوفى مليك وفى هجان
تهش إلى نغمت السيو	ف فى الهام ، لانغمت القيان
أزرت ^(٣) ابن لاون لأواءه ،	فأضخى به خبرا عن عيان
ودان من الذل لا يرعوى ،	حذارا من الراعفات اللدان
فلا قدم عنده للثبا	ت ، وليس له بسطاكم يدان
وأخل ^(٤) إليكم مناقيره ، ^(٥)	وغادر للهدم تلك المباني
وأرسل بالأسراء العنا	ة يسأل إطلاقه ، فهو ^(٦) عانى

(١) الأصل : « بالما يغير » ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦) .

(٢) لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي من مراجع .

(٣) الأصل : « أزمت » ، وما هنا صيغة (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦) .

(٤) الأصل : « أخلا » .

(٥) الأصل : « لهينك الما يغير » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٦) الأصل : « وهو » وما هنا عن الروضتين .

[٢٢٤] رَتَقَتْ بِعَزْمِكَ وَالْمَكْرَمَا تِ فِتْوَا مِنْ الْأَرْتَقِي^(١) الْهَجَانِ
وَرُعَّتْ أَبْنُ سَلْجُوقِ^(٢) فِي مُلْكِهِ ، فَقَعَقَعَ مِنْ رَعْبِهِ بِالْشِنَانِ^(٣)
وَذَكَرَ الْقَاضِي بِهَاءِ الدِّينِ بْنِ شَدَادٍ — رَحِمَهُ اللَّهُ — أَنَّ دُخُولَ السُّلْطَانِ بِلَادِ
الْأَرْمَنِ كَانَ لِأَنَّ رَسْلَ قَائِجِ أَرْسَلَانَ بْنِ مَسْعُودٍ — صَاحِبِ قُوَّةٍ وَمُلْطِيَةٍ —
أَتَوْهُ يَلْتَمِسُونَ مِنْهُ الْمَوَافَقَةَ ، وَيَسْتَغِيثُونَ مِنْ أَبْنِ لَاوْنِ^(٤) الْأَرْمَنِ ، فَدَخَلَ
إِلَى بِلَادِ الْأَرْمَنِ لِنَصْرَةِ قَائِجِ أَرْسَلَانَ عَلَيْهِ ، [وَنَزَلَ بِقَرْهٍ حَصَارًا وَأَخَذَ
عَسْكَرًا]^(٥) حَلَبَ فِي خِدْمَتِهِ ، لِأَنَّهُ كَانَ اشْتَرَطَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي الصَّلَاحِ ، فَاجْتَمَعُوا
عَلَى النِّهْرِ الْأَزْرَقِ — بَيْنَ بَهْسَنَا وَحَصْنِ مَنْصُورٍ — وَعَبَّرَ مِنْهُ إِلَى النِّهْرِ^(٦) الْأَسْوَدِ ،
[وَ] طَرَقَ^(٧) بِلَادَ أَبْنِ لَاوْنٍ ، وَأَخَذَ مِنْهُمْ حَصْنًا وَأَخْرَبَهُ ، فَبَذَلُوا لَهُ أُسَارَى ،
وَالْتَمَسُوا مِنْهُ الصَّلَاحَ ، وَعَادَ عَنْهُمْ ، ثُمَّ رَاسَلَهُ قَائِجُ أَرْسَلَانَ فِي صِلَاحِ الشَّرْقِيِّينَ
بِأَسْرِهِمْ ، وَاسْتَقَرَّ الصَّلَاحُ عَاشِرَ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ،
وَدَخَلَ فِي الصَّلَاحِ قَائِجُ أَرْسَلَانَ وَالْمَوَاصِلَةُ وَأَهْلُ دِيَارِ بَكْرٍ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى نَهْرِ
شَيْخَةٍ^(٨) ، وَهُوَ نَهْرٌ يَرِي إِلَى الْفَرَاتِ .
ثُمَّ سَارَ السُّلْطَانُ إِلَى دِمَشْقَ .

- (١) الْأَصْلُ : «الارتقا» ، والنصحيح عن الروضتين .
(٢) الْأَصْلُ : «سلجوق» .
(٣) فِي الرُّوضَتَيْنِ : « قَعَقَعَ مِنْ رَعْبِهِ بِالْشِنَانِ » ، وَفِي الْأَصْلِ هُنَا «بِالْشِنَانِ» ، وَفِي اللَّسَانِ :
«فِي الْمَثَلِ : فَلَانٌ لَا يَقَعَقَعُ لَهُ بِالْشِنَانِ أَيْ لَا يَخْذَعُ وَلَا يَرُوعُ» .
(٤) هُوَ لِيُونُ الثَّانِي صَاحِبُ أَرْمِينِيَّةِ (Leo II Roupenian Prince of Armenia) .
أَنْظَرِ (RUNCIMAN : op. cit. vol. 2, p. 430)
(٥) الْأَصْلُ مُضْطَرَبٌ غَيْرُ مَفْهُومٍ وَنَصْهِ : «وَتَرَكَ مَعْرَى مِنْ عَمَلِ حَلَبٍ» ، وَقَدْ صَحَّحَتِ الْعِبَارَةُ
عَنْ : (ابْنِ شَدَادٍ : السِّيرَةُ الْيُوسُفِيَّةُ ، ص ٤٣) وَهُوَ الْأَصْلُ الْمَنْقُولُ عَنْهُ هُنَا .
(٦) الْأَصْلُ : «الْحَصْنُ الْأَسْوَدُ» وَقَدْ صَحَّحَ عَنْ الْمَرْجِعِ السَّابِقِ . وَقَدْ عُرِفَ (يَاقُوتُ : مَعْجَمُ
الْبِلَادِ) نَهْرُ الْأَزْرَقِ بِأَنَّهُ نَهْرُ الْبَلْغَرِيِّينَ بِهَسَنًا وَحَصْنُ مَنْصُورٍ فِي طَرَفِ بِلَادِ الرُّومِ مِنْ جِهَةِ حَلَبٍ ؛
ثُمَّ قَالَ : وَنَهْرُ الْأَسْوَدِ نَهْرٌ قَرِيبٌ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ فِي طَرَفِ بِلَادِ مَصْبِيحَةِ طَرَسُوسَ .
(٧) الْأَصْلُ : «طَرَفٌ» وَقَدْ عُدِلَتْ وَزِيدَتْ الْوَاوُ لِاسْتِقْمَاحِهَا الْمَعْنَى .
(٨) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَفِي (الرُّوضَتَيْنِ ، ج ٢ ، ص ١٧) قَوْلًا عَنْ ابْنِ شَدَادٍ : وَهُوَ فِي الطَّبْعَةِ
الَّتِي بَيْنَ يَدَيِ ابْنِ شَدَادٍ — وَهِيَ كَثِيرَةُ الْأَخْطَاءِ — : «نَهْرٌ صِبْغَةٌ سَنَخَةٌ» ، وَلَمْ أَجِدْ لِهَذَا
النَّهْرِ ذِكْرًا عِنْدَ يَاقُوتَ لَضَبْطِ اسْمِهِ .

ذكر مسير^(١) السلطان إلى الديار المصرية

ثم عزم السلطان على السفر إلى الديار المصرية ، واستتاب بالشام ابن أخيه
عن الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب - صاحب بعلبك - ، ورحل
إلى مصر يوم الاثنين ثامن عشر رجب ، وفي صحبته صدر الدين شيخ الشيوخ -
رسول الديوان العزيز - بنية الحج - كما ذكرناه - ، فوصل إلى القاهرة
ثالث عشر شعبان من السنة ، فخرج إلى استقباله أخوه ونائبه بمصر الملك العادل
سيف الدين أبو بكر بن أيوب - رحمه الله - ، وفارقه [بعد وصوله
إلى مصر]^(٢) الشيخ صدر الدين شيخ الشيوخ ، وتوجه إلى مكة ، وركب البحر
من عيذاب ، فوصلها وجاور بها إلى أن جاء الموسم ، فوقف بعرفات وأتم حجه ،
ثم توجه مع الحج العراقي إلى بغداد .

ودخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة والسلطان - رحمه الله - بالقاهرة
مشتغلا [٢٢٥] بالنظر في مصالح الديار المصرية والمواظبة على سماع الأحاديث
النبوية .

ذكر غزو عماد الدين فرخشاه الكرك^(٣)

في هذه السنة - أعني سنة سبع وسبعين وخمسمائة^(٤) - سار عن الدين
فرخشاه إلى أعمال الكرك فنهبا ، وسبب ذلك : أن البرنس أرناط صاحب

(١) بهذا اللفظ تتقابل مرة أخرى مع نسخة س في أول (ص ١٧١) .

(٢) ما بين الحاصرتين من س (١٧١) .

(٣) هذا العنوان غير موجود في س .

(٤) هذه الفقرة غير موجودة في س .

الكرك — لعنه الله — كان أشد الفرنج عداوة للإسلام، فجمع عسكره وعزم على المسير إلى تيماء، وحدثته نفسه بالمسير إلى مدينة النبي — صلى الله عليه وسلم — ليستولى عليها وعلى تلك النواحي الشريفة، فلما بلغ ذلك عز الدين — وهو بدمشق — سار بالعساكر الدمشقية إلى بلده فنهبه ونخر به، وعاد إلى طرف بلاد الإسلام، وأقام هناك ليمنع^(١) البرنس — لعنه الله — من المسير، فامتنع بسببه من قصده^(٢)، فلما طال مقام كل واحد منهما في مقابلة الآخر علم البرنس أن المسلمين لا يعودون حتى يتفرق جمعه، ففرقه، وانقطع طمعه في الحركة، وعاد عز الدين إلى دمشق، وحمى الله الحرمين الشريفين من غائلة الكفار.

ذكر المتجددات باليمن بعد مفارقة الملك المعظم لها

لما فارق الملك المعظم شمس الدولة توران شاه — رحمه الله — اليمن استتاب بزيد الأمير سيف الدولة^(٢) مبارك بن كامل بن منقذ الكثاني، وبعدهن عز الدين

(١) مقابل هذه الفقرة في س : (ليسمع البرنس — لعنه الله — خبره فيمتنع عن المسير، فلما سمع ذلك امتنع بسببه من قصد مدينة النبي — صلى الله عليه وسلم —).

(٢) من (٧١ ب) : « سيف الدين »، وما هنا هو الصحيح، وهو أبو الميمون مبارك بن كامل ابن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكثاني. وذكر (بالحرملة : تاريخ نعر عدن، ج ٢، ص ٣٨) أن تورانشاه لما عزم على السفر إلى الشام "استتاب في اليمن نوابا، فجعل أبا الميمون مبارك بن كامل... ابن منقذ على زيد وأعمالها من التهام، وجعل عثمان بن الزنجيل على عدن وما تاجها، وجعل ياقوت التغزي على تمر وأعمالها، وجعل مظفر الدين قايمآز على بجلة ونواحيها، وتقدم صائرا إلى الشام في رجب سنة ٥٧١ هـ"؛ وذكر هؤلاء النواب مرة أخرى (قص المرجع والجزء، ص ٦٩) ثم قال : "وتوجه (أي تورانشاه) ببقية الأمراء والعساكر إلى مصر وفيهم الأمير أبو الميمون المبارك بن كامل — أخو حطان —، فإن إمرة زيد كانت لأبي الميمون، فلما عزم شمس الدولة على التقدم إلى مصر استأذنه أبو الميمون في العزم صحبته، وأن يستنصب على عمله أخاه حطان، فأذن له في ذلك؛ ولما توفي شمس الدولة بمصر قبض أخوه الملك الناصر صلاح الدين على أبي الميمون المبارك بن كامل، وسأده...، ولما اتصل العلم إلى اليمن بموت شمس الدولة، ولم يأت اليمن متفقد من قبل صلاح الدين، =

عثمان بن الزنجيل^(١) وكان هوى سيف الدولة الشام ، لأنها وطنه ، فأرسل إلى الملك المعظم ، [يطلب الإذن بالمجيء إليه ، فأذن له ، واستناب أخاه حطان ، وعاد إلى عند الملك المعظم]^(٢) وهو إذ ذاك بمصر ، ولما توفي الملك المعظم — كما ذكرنا — بقي سيف الدولة في خدمة السلطان بمصر ، فقبل إن سيف الدولة أخذ أموال اليمن وادخرها ، وسمى^(٣) به أعداؤه ، فلم يعارضه السلطان . فلما كانت هذه السنة والسلطان بمصر عمل سيف الدولة دعوة كبيرة دعا إليها أعيان الدولة الصلاحية بقرية على شاطئ النيل تسمى العدوية^(٤) ،

= أظهر النواب غير الطاعة ، وضرب كل منهم لنفسه سكة ، وحرم على أهل بلده المعاملة بغيرها ، ثم إن الملك الناصر صلاح الدين بعث مملوكه خطيباً إلى اليمن وكتب إلى كافة الأمراء باليمن أن يجتمعوا على حطان ويخرجوه من زبده ويتولى ولايته خطيباً — إلخ " انظر أيضاً : (ابن حاتم : السط الغالي الثمن ، ص ٧ ب وما بعدها ؛ و (الخنبل : شفاء القلوب ، ص ٥٣ ب) .

(١) الأصل : " الزنجيل " ، قال (باخرمة : تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ، ص ١٣١ — ١٣٢) في ترجمته له : " أبو عمرو عثمان بن علي الزنجيل ، نسبة إلى زنجيلة قرية من قرى دمشق ، ويقال له الزنجاري ، الملقب عز الدين ، كان أميراً كبيراً قدم من مصر مع المعظم توران شاه بن أيوب ، ولما رجع المعظم من اليمن إلى الديار المصرية في شهر رجب من سنة ٥٧١ استناب في اليمن نواباً منهم الأمير عثمان المذكور ، استنابه على عدن وما ناهجها ... فلما قدم سيف الإسلام طغتكين بن أيوب من الديار المصرية إلى اليمن في سنة ٥٧٩ ، وأمر حطان بن متقذ وقبض أمواله ... فلما علم بذلك عثمان المذكور هرب من عدن وركب البحر ، وحمل جميع ما معه وذخائره من ساحل زبيد ، فقبض عليها كلها ، ولم يفلت غير المركب الذي هو فيه ، فلما خرج من عدن سكن دمشق ، وابتنى فيها مدرسته ، وتوفي سنة ٥٨٣ بدمشق ودفن بمدرسته " . ومدرسته بدمشق كانت تعرف باسم " المدرسة الزنجارية " أو " الزنجيلية " خارج باب توما وباب السلامة ، أنشئت سنة ٦٢٦ هـ وبها تربة وجامع بخطبة . انظر : (النعمي : الدارس في المدارس ، ج ١ ، ص ٥٢٦ — ٥٢٧) و (رحلة ابن جبير ، ص ١٧٠) .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادات عن س .

(٣) الأصل : " وسما " .

(٤) الذي يذكره العماد (الرضين ، ج ٢ ، ص ٢٥) أن سيف الدولة مبارك بن متقذ « ابتاع من السلطان الناحية المعروفة بالعدوية بمصر لما عاد إليها ... فصنع دعوة عظيمة بها » ، وذكر العماد أنه حضرها هو وغيره من الفضلاء والأعيان ، فبينما هم عنده في أسرحال إذ أحرق بهم الأمير بهاء الدين فراغوش فقبض على سيف الدولة ، واعتقل بالقصر إلخ » .

وأرسل أصحابه يتجهزون من البلد ، ويشترون ما يحتاجون إليه من الأطعمة وغيرها ، فقبل للسلطان : ” إن ابن منقذ يريد الهرب [إلى اليمن] ^(١) ، وأصحابه يترودون له ، ومتى دخل [٢٢٦] اليمن أخرجه من طاعتك “ ، فاعتقله السلطان وحبسه ، فبذل للسلطان ثمانين ألف دينار ، ولم يظهر فيها بيع متاع ولا استدانة من تجار ، وغرم لأخوى السلطان : الملك العادل ، وتاج الملوك بوري جملة ، فأطلق وعاد إلى منزلته .

ثم وقع باليمن خلف بن حطّان بن منقذ — وإلى زبيد — وعن الدين عثمان ابن الزنجبيل — وإلى عدن — لما بلغهما وفاة الملك المعظم ، ورام كل واحد منهما أن يغلب ^(٢) على ما بيده ^(٣) ، وجرت بينهما فتن ، واشتد الأمر ، وبلغ ذلك السلطان ، فخاف أن يطمع أهل اليمن فيها بسبب الاختلاف بين أصحابه ، فأرسل إلى اليمن عسكرياً وقدم عليهم قتلغ أبه ^(٤) — وإلى مصر — ومعه عدة من الأمراء ، فاستولى قتلغ أبه على زبيد ، وأزال حطّان عنها ، ثم توفي قتلغ أبه ، فعاد حطّان إلى إمارته بزبيد وإقطاعه ^(٥) ، وأطاعه الناس لجوده وشجاعته .

(١) ما بين الحاصرتين عن س .

(٢) في الأصل : « يغلبك » ، والتصحيح عن س (٧١ ب) .

(٣) كذا بالأصل ، وفي س : « ما ييد الآخر » .

(٤) الأصل : « فبلغ أبه » ، وما هنا عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٧٨) وهو عند باخرمة (أنظر ما فات هنا ، ص ١٠٢ ، حاشية ٢) : « خطباً » ، وهو في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٦) : « صارم الدين خطباً » .

(٥) هذا اللفظ غير موجود في س .

ذكر استيلاء

سيف الإسلام طغتكين ^(١) بن أيوب على بلاد اليمن

ثم قرر السلطان مع سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب أخيه أن يمضي إلى بلاد اليمن لتقطع الفتن بها ، فسار إليها ^(٢) في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بعد مسير السلطان [فوصل إلى زبيد فلما بها ، وأمن حطان وطيب قلبه ، فاستأذنه حطان في المسير] ^(٣) إلى الشام ، فأذن له ، فجمع حطان كلما له من مبد ولبد ، وكان قد حصل على أموال عظيمة ، ورحل بها ، فردّه سيف الإسلام إليه ليودعه ، ويركب معه ليشيعه ، فلما دخل إليه اعتقله واحتاط على جميع موجوده ، ثم نقله إلى بعض الحصون فحبسه به ثم قتله .

وحكى عماد الدين الكاتب عن السلطان فيما قبض من حطان من الأموال ، قال : ” كان سبعين غلافا من غاف الزرد مملوءة بالذهب ، وقوم المأخوذ منه بألف ألف دينار “ .

ولما سمع عز الدين بن الزنجبيلي بسيف الإسلام تجهز من عدن إلى الشام ، وسار إليه خائفا يترقب ، وسير معظم أمواله في البحر ، فصادفها مراكب فيها

(١) في الأمل : « سيف الدين الإسلام سيف الدين طغتكين » وقد صحح بعد مراجعة من .
(٢) كان الرحالة ابن جبير موجودا في مكة عند مرور طغتكين بها في طريقه إلى اليمن ، وقد وصف الأيام التي قضاها طغتكين مع جيشه في مكة وصفا شائقا . انظر : (الرحلة ، ص ١٤٥ — ١٤٩) ؛ وقال ابن أبي طي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٦) في أسباب خروج طغتكين لليمن : ” كانت قس سيف الإسلام طغتكين أخى السلطان تشرب إلى اليمن من حيث مات أخوه شمس الدولة ، ويشتهي أن يصير إليها ، فأمر ابن سعدان الحلبي أن يعمل قصيدة يعرض فيها بإقناذ سيف الإسلام إلى اليمن ، فعمل القصيدة التي يقول فيها (وروى أبا قاتا منها) ، قال : فلما سمع السلطان هذه القصيدة أذن لسيف الإسلام في المسير إلى اليمن “ .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات عن ص (١٧٢) .

أصحاب سيف الإسلام، فأخذوا كلها لعز الدين، ولم يبق إلا ما صحبه في الطريق [ووصل إلى الشام، وأقام به إلى أن مات] ^(١) وصفت زبيد وعدن وما بينهما من الحصون والبلاد لسيف الإسلام، وقدم عز الدين دمشق، وكان له معروف وبر [٢٢٧] وصدقات بمكة واليمن ودمشق، وإليه تنسب المدرسة والرباط المتقابلان بباب العمرة بمكة، والمدرسة المعروفة به التي هي خارج باب توما ^(٢)، [وأقام في دمشق إلى أن مات — كما ذكرنا —] ^(٣).

ذكر وفاة الملك الصالح

إسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله —

وفي هذه السنة — أعني سنة سبع وسبعين وخمس مائة — توفي الملك الصالح إسماعيل ابن نور الدين — رحمه الله — وكان مرضه بالقولنج ^(٣)، وأبتدأ ^(٤) به المرض تاسع رجب، وفي الثالث والعشرين منه أغلقت أبواب قلعة ^(٥) حاب أشدة مرضه، واستدعى الأمراء واحدا واحدا، واستحلوا لابن عمه عز الدين مسعود ابن مودود بن زنكي — صاحب الموصل —، وفي الخامس والعشرين منه توفي — رحمه الله — واشتد حزن أهل حلب عليه.

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (١٧٢).

(٢) انظر ما فات ص ١٠٣، هامش ١.

(٣) مرض وصفه (الخوازمي: مفاتيح العلوم، ص ٩٨) بأنه اعتقال الطبيعة لانسداد المي المسي قولون.

(٤) ص: "راشد"، وما هنا هو الصحيح فهو يفتق ونص ابن شداد، وهو المرجع الذي ينقل عنه المؤلف هنا.

(٥) هذا اللفظ غير موجود في ص.

ذكر سيرته^(١) — رحمه الله —

كان دينا صالحا، مجبولا على الخير، ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر، فقال: «لا أفعل حتى استفتي الفقهاء»، وكان عنده الإمام علاء الدين الكاساني الحنفي — رئيس أصحاب أبي حنيفة بحلب — وكان يعتقد فيه اعتقادا حسنا ويكرمه، فاستفتاه، فأفتاه بجواز شربها للتداوي، فقال له: «يا علاء الدين، إن كان الله سبحانه قد قرب أجل أيؤخره شرب الخمر؟»، فقال: «لا والله» فقال: «والله، لا لقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرّمه عليّ»، وكان عمره قريبا من عشرين سنة.

ذكر استيلاء عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي

على حلب

لما اشتد المرض بالملك الصالح — رحمه الله — وأيسر من نفسه أحضر الأمراء كلهم والأجناد، واستحلفهم لابن عمه عز الدين مسعود، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه، فقال له بعضهم:

«إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من همدان إلى الفرات، فلو أوصيت بحلب لعاد الدين ابن عمك كان أحسن»،^(٢) ثم هو تربية والدك، وزوج أختك، وهو أيضا عديم المثل في العقل والتدبير والحلال والشجاعة التي تفرد بها».

(١) هذا العنوان غير موجود في س.

(٢) س (٧٢ ب): «أخبر»

فقال : ” إن هذا لم يغب عني ، ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ومعي ، فإن سلمت حلب إلى عماد الدين يهجز عن حفظها منه ، فإن ملكها صلاح الدين لا يبقى لأهلنا معه مقام ، وإذا سلمتها إلى عز الدين [٢٢٨] أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله “ .

فاستحسن الحاضرون قوله وعلموا صحته ، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه وصباه .

فلما توفي أرسل شاذبخت — دزدار حلب — إلى عز الدين يدعوه إلى حلب ليسلموها إليه ، فورد الخبر ونائبه مجاهد الدين قايماز قد سار إلى ماردين لهم عرض له فلقى القاصدين عندها ، فأخبروه الخبر ، وسار إلى الفرات ، فأرسل إلى عز الدين يعرفه الحال ، ويشير بمعجيل الحركة ، وأقام على الفرات ينتظر ، فسار عز الدين مجدا ، فلما وصل إلى المنزلة التي بها مجاهد الدين [قايماز] ^(١) أقام معه ، وأرسل [إلى حلب] ^(٢) يستحضر الأمراء ، فحضروا كلهم عنده ، وجددوا اليمين له ، فسار حينئذ إلى حلب ، ودخلها وملكها .

ولما دخل الفرات كان الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب — ابن أخي السلطان — بمنبج — وكانت إقطاعا له مع حماة ^(٣) وسامية وغيرها — ، فسار عنها هاربا إلى مدينة حماة ، وثار أهل حماة ، ونادوا بشعار عز الدين مسعود أيل ^(٤) الناس كان إلى عود الدولة الأتابكية ، وكان السلطان إذ ذاك بمصر — كما ذكرنا — فأشار الحليون على عز الدين بقصد دمشق ، وأطمعوه فيها وفي غيرها من البلاد الشامية ، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتابكي ، فلم يفعل ، وقال : ” بيننا يمين ولا تغدر به “ ، وأقام بحلب مدة يسيرة .

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (١٧٣) .

(٢) هذا اللفظ ساقط من ص .

(٣) في الأصل : ” يميل “ ، وقد صححت إلى ما بالمتن ليستقيم المعنى ؛ وفي ص : ” وخطر الناس

عردة الدولة ... إلخ “ .

ذكر استيلاء

عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي على حلب

وكان وصول عز الدين إلى حلب وتملكه لها في العشرين من شعبان من هذه السنة ، واستولى على الخزائن والذخائر ، وتزوج أم الملك الصالح ، وأقام بقلعة حلب إلى سادس عشر شوال من هذه السنة ، وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لأجل السلطان [صلاح الدين] ،^(١) وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات [في إقطاعهم ، وفي طلب الأموال] ،^(٢) وأكثروا إدلالهم عليه بسبب اختيارهم إياه^(٣) .

[وكان عنده بخل] ^(١) فضاق عطشه [منهم] ،^(١) فرحل من حلب إلى الرقة وخلفه ولده ، ومظفر الدين بن زين الدين بها ، ولقيه عماد الدين زنكي بالرقة على قرار بينهما ، واستقر [الأمر بينهما] ^(١) أن يسلم حلب إلى عماد الدين ، ويأخذ عز الدين عنها عوضا سنجار .

وذكر ابن الأثير أن عماد الدين أرسل أخاه يلتمس ذلك ، وأن عز الدين امتنع عنه ، وأن عماد الدين لجّ في هذا الأمر ، وقال :

« إن سلمتم إلى حلب^(٣) [٢٢٩] ولا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين » .

فأشار حينئذ الجماعة بتسليمها إليه وكان أكثرهم في ذلك مجاهد الدين قايماز ، فاستقر الأمر على ذلك ، وحلف كل منهما لصاحبه في الحادي والعشرين من شوال ،

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (٧٢ ب) .

(٢) ص : « وأكثروا عليه لإدلالهم عليه بسبب إلح » .

(٣) ص : « إن لم تسلموا إل حلب وإلا ... إلخ » .

وسار من جانب عماد الدين من تسلّم حلب ، ومن جانب عز الدين من تسلّم سنجار ، وعاد عز الدين إلى الموصل ، وتوجه عماد الدين إلى حلب ، وكان صعوده قلعتها في ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، واستقر بها .

ذكر المتجددات

للسلطان [صلاح الدين] ^(١) بمصر إلى حين سفره إلى الشام

ولما بلغ السلطان وفاة الملك الصالح بن نور الدين تحرك عزمه على التوجه إلى الشام ، وندم على الزواج عنه ، فكتب إلى ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر — صاحب حماة — يأمره بالتأهب والنهوض ، وكتب سائر نوابه بالشام بذلك ، وكتب إلى الديوان العزيز بانشاء عمادى فيه :

” فصل : وشاع الخبر بغارة أفرنج أنطاكية على حارم ، وأتوا من النهب والسبي بالعظام ، وشاع أيضا أن عسكر حلب أغاروا على الراوندان وهي [في] عملنا ، ورسلمهم عند الفرنج يستجدونهم ^(٢) وراسلوا الحشيشية ، والمراد من الرسالة غير خاف . والعلم بالمعتاد عنه كاف ، وابن أخينا ^(٣) غائب في أقصى بلاد الفرنج في أول برية الجحاز ، فإن طاغية منهم جمع خيله ورجله ، وحدثته نفسه الخبيثة بقصد تيماء ، وهي دهليز المدينة — على ساكنها السلام — واغتم كون البرية معشبة مخضرة مخصبة في هذا العام ، والعجب أنا نحامي عن قبر النبي — صلوات الله عليه وسلامه — مشتغلين بهم ، والمذكور — يعني صاحب الموصل —

(١) ما بين الحاصرين ص ٧٣ ب .

(٢) الأصل : ” يستجدونهم “ ، والتصحيح عن ص (١٧٤) ، رف (الرضتين ، ج ٢ ،

ص ٢٣) : ” ورسولهم عند الفرنج يستجدهم “ .

(٣) هو ابن أخيه عز الدين فرخشاء .

ينازع في ولاية هي لنا ، ليأخذها بيد ظلمه ، وكم بين من يحارب الكفر ويحمل إليهم قواصم الآجال^(١) وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين ، ويحمل إليهم كرائم الأموال ، هذا مع ما نعد في الملة الحنيفية والدولة الهادية العباسية من آثار لا يعدُّ مثلها أولاً لأبي مسلم ، لأنه أقدم ثم خامس^(٢) ، ووالى ثم ولى ، ولا آخراً لطفرلك ، فإنه نصر ونصب ، ثم حجر وحجب ، وقد عُرف ما فضلنا الله به عليهما في نصر الدولة ، وقطع^(٣) من كان ينازع الخلافة رداءها ، ويطهر المنابر^(٤) من رجس الأدعياء ، ولم نفعل ما فعلناه [٢٣٠] لأجل الدنيا ؛ غير أن التحدث بنعمة الله واجب ، والتبجح بالخدمة الشريفة والافتخار بالتوفيق فيها على السجية غالب ؛ ولا غنى عن بروز الأوامر الشريفة إلى المذكور بأن يلزم حده ، ولا يتجاوز حقه ، فإن دخول الأيدي المختلفة عن الأعداء المتفقة شاغل ، ويحتاج فيه إلى مغرم ينفق فيه العمر بغير طائل ، فإن الأعمار تمر مر السحاب ، والفرص تيمض وتيمض السراب ، وبقاؤنا^(٥) في هذه الدار القليلة البت القصيرة المكث يؤثر أن نقتنمه في مجاهدة العدو الكافر ، الذي صار به البيت المقدس محلاً للأرجاس ، ومضت عليه دهور وملوك لم يحصلوا من رجاء تطهيره إلا على اليأس ، وإن كان القوم قد بذلوا للدار العزيزة بذولا معارة فقد أسلف الخادم خدمات ليست بعوار^(٦) ، فإنهم لو بذلوا بلادهم كلها ما وقت بفتح مصر التي رحل^(٧) بها أسامى الأدعياء الزاكية^(٨) أعوادها ، وأعاد إلى عينها بعد بياض عماها من نور الشعار العباسي

(١) في الأصل : " الآمال " وما هنا عن س ، والروضتين .

(٢) في الأصل : " خام " ، وما هنا عن س والروضتين .

(٣) كذا في الأصل وفي الروضتين ؛ وفي س (٧٤ آ) : " رطلع " .

(٤) في الأصل وفي س : " المناير " والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣) .

(٥) س : " وقعادنا " .

(٦) الأصل : " بعوانى " .

(٧) كذا في الأصل وفي الروضتين ؛ وفي " دخل " .

(٨) كذا في الأصل وفي س (٧٤ ب) ؛ وفي الروضتين : " الزاكية " .

سوادها ؛ فإن اقتضت الأوامر الشريفة أن يوعز للذكور بحلب بتقليد ،
فالأولى أن يقلد الكل ، فلا رغبة فيما لا يؤمن معه شر الشريك ؛ ولمالك الأمر
الحكم في ممالك الممالك .

وفيه فصل مغناه أن حاب من جملة البلاد التي اشتل عليها تقليد أمير
المؤمنين المستضيء بنور الله ، وإنما تركها في يد ابن نور الدين لأجل أبيه ، والآن
فليرجم كل ذي حق إلى حقه ليقتنع برزقه .

ذكر سفر^(١) السلطان إلى الإسكندرية وعوده

وسافر السلطان بعد شهر رمضان من هذه السنة — أعنى سنة سبع وسبعين
ونعمسمائة — إلى الإسكندرية على طريق البحيرة ، وخيم عند السواري ، وشاهد
الأسوار التي جددتها ، وأمر بالانعام والاهتمام ، وقال :
« نغتنم^(٢) حياة الشيخ أبي طاهر ابن عوف^(٣) » .

فحضر عنده ، وسمع عليه موطأ مالك بن أنس — رحمة الله عليه — ؛ بروايته
عن الطرطوشي^(٤) في العشر الأخير من شوال ، وتم له ولأولاده [٢٣١] السماع .

(١) س : " مسير " .

(٢) في الأصل : " نغتنم " ، وما هنا عن س ، و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤) .

(٣) في الأصل ، وفي س : " أبي طاهر السلفي " ، وما هنا عن العباد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤)
أنظر أيضا : (التيال : الإسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢١٨ و ٢٢٢) ، وقد
بنيت لابن عوف أول مدرسة بنيت في مصر في أواخر العصر الفاطمي ، بناها له رضوان بن ونحشي وزير
الخليفة الحافظ في سنة ٥٣٣ هـ ، وأستد إليه التدريس بها ، أنظر : (المقريزي : اتعاظ الحنفا ،
مخطوطة سراي ، ص ١٣٨ ب) .

(٤) الأصل : " الطرطوسي " ، وس : " الطرسومي " ، والتصحيح عن الروضتين حيث نقل
خبر هذه الزيارة — كما ورد هنا تماما — عن العباد الكاتب الذي نص على أنه كان في صحبة صلاح الدين
ورولديه أثناء الزيارة ، وأنه شاركه هذا السماع ، وأنظر ترجمة الطرطوشي في : (ابن خلكان : الوفيات ، =

ثم عاد إلى القاهرة في ذى القعدة، وشرع في التجهز والاستعداد لسفر الشام،
بجمع العساكر، واستكثر من السلاح، فأمر بهاء الدين قراقوش بإتمام السود
الداير على مصر والقاهرة.

ذكر مسير السلطان إلى الشام

ثم برز السلطان من القاهرة، وخرج الناس لوداعه، فمن عجيب ما ذكر
في الاتفاق أن السلطان بينما هو في سرادقه، والعلماء والفضلاء عنده، وكل منهم
ينشد بيتا [أو أبياتا] ^(١) في الوداع، إذ أخرج أحد مؤدبي أولاده رأسه،
وأشدد مظهرها بذلك فضليته:

تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَارٍ نَجْدٍ فَا بَعْدَ الْعِشِيَّةِ مِنْ عَرَارٍ

نحمد نشاط السلطان، وانقبض انبساطه، وجعل الجماعة ينظرون بعضهم
لبعض متعجبين من سوء أدب المؤدب، وكأنه نطق بما هو كائن في الغيب،
فإن السلطان فارق الديار المصرية هذه النوبة، واشتغل بما سذكركه من الفتوحات
والغزوات، وتمادى الحال إلى أن قضيت منيته بدمشق، ولم يعد بعد ذلك إلى
الديار المصرية، فكان كما قيل: «القال موكل بالمنطق».

ثم سار السلطان متوجها إلى الشام لخمس مضي من المحرم سنة ثمان وسبعين
وخمسمائة، وجعل طريقه على أيلة، وكان قبل سفره قد غدر الفرنج، ونقضوا
عهدهم، واستولوا على تجار في البحر وغيرهم، فقدر الله سبحانه بطسة ^(٢) للمسلمين

= ج ٣، ص ٣٩٣ - ٣٩٥) و (مقدمة كتابه سراج الملوك)، وقد أورد صاحب (الروضتين،
ج ٢، ص ٢٤). نص خطاب هام لطيف كتبه القاضي الفاضل إلى صلاح الدين يهنيه فيه بهذا السماع،
فاظفر هناك.

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (١٧٥).

(٢) أنظر ما فات هنا ص ٧٧، هامش ١.

عظيمة من المراكب مقلعة للفرنج من بلد لهم يقال له بوليه ، يحتوى على ألفين^(١) وخمسمائة من رجال القوم وأبطالهم وأتباعهم على قصد زيارة القدس ، فآلتهم الريح على ثغردمياط ، ففرق شطرحم وأسر الباقون ، وكان عدة من أسر ألفا وستائة وتسعين نفسا^(٢) .

ولما وصل السلطان إلى عقبه أيلة فإنه سمع باجتماع الفرنج في الكرك لقصد قطع الطريق ، فاحتز بحفظ الأطراف ،^(٣) وانحاز^(٤) بحمى ، ثم عقبه شنار^(٥) ثم القريتين^(٦) ، وأغار على طرف بلاد العدو ، ثم تجرد السلطان في شجمان أصحابه ، وسار على سمت الكرك [٢٣٢] إلى الحسى^(٧) ، وأمر أخاه تاج الملوك بورى على الناس ، وأمره أن يسير بهم يمنا ، ثم اجتمعوا بالسلطان بالأزرق بعد أسبوع .

وكان الفرنج لما سمعوا بمسير السلطان ، وأن معه خلقا من التجار ، اجتمعوا بالكرك ، للقرب من طريقهم ، لعلهم يتهمزون فرصة من القافلة ، فخرج الملك المنصور عزالدين فرخشاى ابن أنى السلطان من دمشق ، واغتم خلوديارهم ، وأغاز على طبرية وعكا ، وفتح دبورية^(٧) ، وجاء إلى حبيس جلدك بالسواد ، وهو

(١) فى الأصل ، وفى س (١٧٥) : ” ألف ” ، وقد صححت بعد مراجعة (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٧) . وهو تصحيح يقتضيه السياق ، أنظر تفصيل الخبر فى السطور التالية .

(٢) كذا فى الأصل ؛ وس : ” ألفا وستائة نفس ” ؛ والرّوضتين : ” زهاء ألف وستائة وست وسبعين نفسا ” .

(٣) هذه الفقرة غير موجودة فى س .

(٤) الأصل : ” رجاز ” وما هنا عن الرّوضتين .

(٥) الأصل : ” سنان ” وما هنا عن الرّوضتين .

(٦) كذا فى الأصل ، وفى (الرّوضتين ، ج ٢ ، ص ٢٨) . وفى س (٧٥ ب) : ” الحبا ” .

(٧) فى الأصل : ” دنورية ” وفى س : ” دنوره ” بدون قطع ، وقد ضبطت بعد مراجعة :

(الرّوضتين ، ج ٢ ، ص ٢٨) و (ياقوت ، معجم البلدان) ، وقد عرفها الأخير بأنها بلدة قرب طبرية من أعمال الأردن .

شقيف يشرف على بلاد المسلمين ، ففتحها وأسكنه المسلمين ، فبقى عينا على الفرنج بعد ما كان لهم ، ورجع بالأسرى والغنائم ، ومعه ألف أسير وعشرون ألف رأس من النعم ، ووصل إلى السلطان البشري بذلك وهو في الطريق ، [ففرح بهذا الفتح]^(١) .

ثم وصل السلطان دمشق لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر من هذه السنة — أعني سنة ثمان وسبعين .

ثم خرج السلطان وأغار على طبرية وبيسان ، والتحم بينهم القتال تحت حصن كوكب ، واستشهد جماعة من المسلمين ، وكان النصر لأهل الإسلام ، ثم رجع السلطان مظفرا^(٢) .

ذكر مسير السلطان إلى البلاد الشرقية

ثم عزم السلطان على المسير [إلى البلاد الشرقية و]^(١) إلى حلب ، فبلغه أن المواصله كاتبوا الفرنج ورغبوهم في قصد الثغور الإسلامية ليشتغلوا السلطان عن قصدهم ، فتوجه السلطان [صلاح الدين — رحمه الله —]^(١) إلى بعلبك وخيم بالبقاع ، وكان قد واعد^(٣) أسطول مصر [أن]^(١) يتجهز إلى بلاد الساحل ، فبلغه الخبر أنه وصل إلى يروت ، فبادره السلطان بعسكره جريده ، فلما وصل رأى أن أمر يروت يطول ، وكان قد سبى الأسطول منها^(٤) وسلب ، فأغار

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (٧٥ ب) .

(٢) أورد صاحب (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٨ — ٢٩) نص رسالة بقلم الفاضل أرسلها صلاح الدين إلى الديوان العزيزيصف له فيها هذه المعارك والنصر التي أحرزه .

(٣) الأصل : ” وعد “ ، وما هنا عن ص والروضتين (ج ٢ ، ص ٢٩) .

(٤) ضيغة ص : ” وكان قد سبا الأسطول منها خلق (كذا) كثير ، فردده السلطان إلى مصر ، وأغار... إلخ “ .

السلطان على تلك البلاد ورجع ، وأعاد ابن أخيه عز الدين فرخشاه إلى دمشق ورحل [السلطان] إلى بعلبك ، ومنها إلى حمص ، ثم إلى حماة ، واستصحب معه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين صاحبها ، فلما قرب من حلب وصل إلى خدمته مظفر الدين [٢٣٣] كوكبوري بن زين الدين على كوجك ، وكان بيده حرّان ، فأشار على السلطان بعبور الفرات ، ^(١) وكان سبب قصد مظفر الدين خدمة السلطان استيحاظه من مجاهد الدين قايماز ^(٢) وعز الدين مسعود — صاحب الموصل — ، فالتجأ إلى السلطان وأطمعه في البلاد .

وكان نزول السلطان على حلب ثامن [عشر] ^(٣) جمادى الأولى من السنة ، وأقام منازلها ثلاثة أيام ، ثم رحل يطلب الفرات ، فوصلها وخيم عليها من غربي البيرة ، ومد الجسر ، وكانت البيرة لشهاب الدين الأرتقي ، فمات وملكها بعده ولده ، وصار في طاعة عز الدين — صاحب الموصل — فقصدتها في السنة الماضية قطب الدين ايلغازي ^(٤) بن نجم الدين ألبى بن حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي ^(٥) بن أرتق — صاحب ماردين — بعد أن استأذن صاحب الموصل ، وهو ابن عمته ، وقصدتها وأخذها منه ، فأذن له في ذلك ، فسار في عسكره إلى سميساط ، وهي له ، فنزل بها ، وسير العسكر إلى البيرة ، فحصرها ، فلم يظفر منها بطائل ، فأرسل صاحبها إلى السلطان — وقد خرج من مصر — يستنجد به على ابن عمته ^(٦) ، وطلب منه أن يكون في خدمته كما كان أبوه في خدمة نور الدين ، فأجابه إلى ذلك ، فأرسل رسولا إلى صاحب ماردين يشفع فيه ، ويطلب منه أن يرسل عسكره عنه ، فلم يقبل شفاعته .

(١) صيغة من مضطربة التركيب والمعنى ، ونصها : " وكان قصد مظفر الدين بخدمة السلطان صلاح الدين استخداما من مجاهد الدين قايماز . . الخ " .

(٢) ما بين الحاصرتين عن ص (١٧٦) ر (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٠) .

(٣) هذه الفقرة غير موجودة في ص .

(٤) في الأصل عمه ؛ أنظر النص قبل هذا بشرين .

واشتغل السلطان بما ذكرناه من الفرنج ، فلما رأى قطب الدين طول مقام
عسكره على حصار البيرة ولم يبلغوا منها غرضاً ، أمرهم بالرحيل عنها وعاد
إلى ماردين ، فسار صاحبها إلى خدمة السلطان ، فكان معه حتى عبر الفرات .

ولما نزل السلطان على البيرة كاتب ملوك الأطراف :

« من جاء مستسلماً سلمت بلاده ، على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه
ومساعديه على جهاد الكفرة » .

بخاء رسول نور الدين بن قرا [٢٣٤] أرسلان بن سقمان بن أرتق — صاحب
حصن كيفا — بالإذعان .

ذكر استيلاء السلطان على البلاد الجزيرية^(١)

ثم رحل السلطان من البيرة فنزل الرها ، وفيها الأمير نغرا الدين مسعود بن
الزعفراني [صاحب حماة أولاً]^(٢) ، فسلمها إلى السلطان ، فأقطعها لمظفر
الدين بن زين الدين مضافة إلى حران [ومضى ابن الزعفراني إلى الموصل فأقام
بها]^(٣) ، ثم وصل السلطان إلى حران فرتبها ، وانفصل منها إلى الرقة ،
وصاحبها الأمير قطب الدين ينال بن حسان^(٣) — صاحب منبج — ، فأذعن
للسلطان ، فسلم البلد إليه ، وأصلحها السلطان ، ثم رحل إلى مشهد الرمان ،
ثم إلى عربان ، وتسلمها أيضاً ، ثم استولى على الحابور ، ففتح رأس عين

(١) أورد صاحب (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣١ — ٣٢) خطاباً طويلاً بقلم القاضي الفاضل
أرسله صلاح الدين إلى الديوان العزيز عند عبوره الفرات يمدد فيه انتصاراته المتتالية هناك ، وهو خطاب
هام يتضمن تفصيلات كثيرة ، فأنظره هناك .

(٢) ما بين الحاصرتين عن ص (٧٦ ب) .

(٣) ص : ” حاف “ بدون قط .

ودورين وما كسين والشمسانية^(١) والفدين^(٢) والمجدل والحصين ، ثم قطع
نهر الخابور على قنطرة تَنْبِير^(٣) ، ونازل نصيبين ، فامتعت القلعة عليه أياما ،
ثم استسلم من فيها ، فملكها ، وولاهها حسام الدين أبا هيجاء السمين ، وولى
الخابور جمال الدين خوشترين^(٤) .

وأقام السلطان بنصيبين ليصلح أمورها ، فأتاه الخبر أن الفرنج قد قصدوا
بلد دمشق ، ونهبوا القرى ووصلوا إلى داريا ، وأرادوا تخريب جامعها ،
فأرسل النائب بدمشق إليهم جماعة من التصاري ، يقول لهم : « إذا خربتم جامع
داريا جددنا عمارته ، ونخرب كل بيعة لكم في بلادنا ، ولا نمكن أحداً
من عمارتها » ، فتركوه ، ولما وصل الخبر بذلك إلى السلطان ، أشار عليه بعض
أصحابه بالعود ، فقال السلطان : « يخرّبون قرى ونملك عوضها بلادا ، ثم نعود
فنعمرها ، ونقوى على قصد بلادهم » ، ولم يرجع وعزم على منازلة الموصل .

ذكر منازلة السلطان الملك الناصر الموصل

لما ملك^(٥) السلطان نصيبين جمع الأمراء الأكابر واستشارهم : أى البلاد
يبدأ بها ، بالموصل أم بسنجار أم بالجزيرة ؟ فاختلفت آراؤهم ، فقال مظفر الدين
كوكبورى بن زين الدين على كوجك :

(١) كذا في الأصل وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٢) ، وس : " النمامة " وهو خطأ ؛
وقد ضبط الاسم بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) ، حيث ذكر أنها بليدة بالخابور .
(٢) كذا في الأصل ، وفي س : " القدير " ، والروضتين : " الفدين " ؛ وصيغة الأصل هي
الصحيحة ، وقد ضبط اللفظ عن (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفه بأنه قرية على شاطئ الخابور
ما بين ما كسين وقرقيسيا .

(٣) الأصل : " القبتين " ، س : " العسس " دون نقط ؛ والروضتين : " التنبير " ؛ وقد
صححت وضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بقوله : " تنبير تصغير تنور ،
اسم لبلدين من نواحي الخابور : تنبير العليا ، وتنبير السفلى ، وهما على نهر الخابور " .

(٤) الأصل : " جوشيرين " ، والتصحيح عن س والروضتين .

(٥) س (١٧٧) : " أصلح " .

« لا ينبغي أن تبدأ بغير الموصل ، لأنها في أيدينا لا مانع لها ، [٢٣٥] فإن عز الدين ومجاهد الدين متى سمعا بمسيرنا تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية » .

ووافقه على ذلك ناصر الدين محمد بن شيركوه ، وكان قد بذل للسلطان مالا كثيرا ليقطعه الموصل إذا ملكها ، فأجابه إلى ذلك ، فأشار بهذا الرأي لهواه ، فسار السلطان إلى الموصل ، وكان عز الدين صاحبها ونائبه مجاهد الدين [قايماز] ^(١) قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل ، وأظهرا من السلاح وآلات الحصار ما حارت له الأبصار ، وكانت طريق السلطان على أعمال ما بين النهرين ، ثم أعمال البقعة ^(٢) ، ثم سار ^(٣) إلى دجلة ، فوردت خيله — في أشهر متقاربة — نيل مصر والفرات والدجلة ؛ ثم صمم على قصد الموصل ، فلما قرب منها انفرد هو ومظفر الدين بن زين الدين ، وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ، ونفر من أعيان دولته ، وقربوا من البلد ، فلما رآه وحققه رأى ما هاله وملا صدره وصدور أصحابه ، فإنه رأى بلدا عظيما ، ورأى الأسوار قد ملئت بالرجال ، وليس فيها ^(٤) شرافة ^(٥) إلا وعليها رجل مقاتل ، سوى من عليه من عامة البلد المتفرجين ، فلما رأى ذلك علم أنه لا يقدر على أخذه ، فقال لناصر الدين :

(١) ما بين الحاصرتين عن س .

(٢) كذا في الأصل ، و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢) ؛ وس (١٧٧) : ” همه “ بدون قط .

(٣) قبل هذا اللفظ في س : ” ثم للد “ ، ولعلها : ” بلد “ ، فقد جاء في الروضتين قسلا عن العماد : ” ثم سرقا إلى بلد وأشرفنا على دجلة “ .

(٤) الأصل : ” فيه “ وقد صححت ليستقيم بها المعنى .

(٥) في (اللسان) : ” الشرف “ كل تشر من الأرض قد أشرف على ما حوله ، و ” الشرفة “ ما يوضع على أعالي القصور والمدن ، واجمع شرف . فكل المقصود هنا بالشرافة الأجزاء العليا من السور التي تشرف على خارجه .

”إذا رجعنا إلى العسكر فاحمل ما بذلت من المال، فنحن معك على^(١) القول“.

فقال . ناصر الدين :

”قد رجعتُ عما بذلتُ من المال“ .

فقال له ولمظفر الدين :

”غررتماي وأطمعتماي في غير مطمع ، ولو قصدت غيره قبله كان أسهل أخذا بالاسم والهيبة التي حصلت لنا [في قلوب الناس]^(٢) ، ومتى نازلناه^(٣) وعدنا عنه ولم نأخذه ينكسر ناموسنا ، ويقل حدنا وشوكتنا“ .

ثم رجع إلى معسكره [وبات تلك الليلة]^(٢) وضجَّ البلد ، ودار العسكر حول السور ، وعيَّن لكل مقدم مقاما ، ونزل هو وراء البلد ، ونزل الملك المظفر تقي الدين — صاحب حماة — من شرقيه ، ونزل تاج الملوك بوري بن أيوب عند الباب العمادي^(٤) ، ونزل نور الدين — صاحب حصن كيفا — بباب الجسر .

وكان نزول السلطان على الموصل [٢٣٦] يوم الخميس حادي عشر رجب من هذه السنة — أعني سنة ثمان وسبعين وخمسمائة — ثم نشب القتال بين الفريقين ، ولم يمكن عز الدين [صاحب الموصل]^(٢) ومجاهد الدين أحدا^(٥) من الخروج ، بل لزموا القتال على الأسوار ، وخرج يوما بعض العامة إلى العسكر ، فقالوا منه .

ثم إن الملك المظفر أشار على عمه السلطان بنصب منجنيق ، فقال :

”مثل هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق^(٦) ، ومتى نصبناه أخذوه ، ولو خربنا

برجا^(٧) أو بدنة من يقدر على الدخول إلى هذا البلد وفيه هذا الخلق الكثير؟“

(١) الأصل : ”فنحن على هذا القول“ ، وما هنا صيغة (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٢) وهو

المرجع الذي ينقل عنه المؤلف هنا . (٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) في الأصل : ”باريناه“ ، وفي س (١٧٧) : ”فارقناه“ ، وما هنا عن ابن الأثير .

(٤) س : ”المادية“ . (٥) هذا اللفظ غير موجود في س .

(٦) الأصل : ”منجنيقا“ .

(٧) في الأصل المتقول عنه وهو (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٨٣) : ”وبدنة“ .

فألح عليه ، وقال :

”نجربهم به“ .

فنصب منجنيقا^(١) ، فنصبوا عليه من^(٢) البلد تسعة^(٣) منجنيقات ، وخرج جماعة من العامة فأخذوه ، وجرى عنده قتال كثير ، وأخذ بعض العامة مداببا^(٤) فيه مسامير كثيرة ، ورمى به أميرا يقال له : جاولي الأسدي ، مقدّم الأسدية وكبيرهم ، فأصاب صدره ، فوجد لذلك الما شديدا ، فأخذ المداس وعاد إلى السلطان ، وقال :

”قاتلنا أهل الموصل بمحاقات ما رأينا بعد مثلها“ .

وألقي المداس ، وحلف أنه لا يعود يقاتل أُنْفَةً ، حيث ضرب بالمداس .

ذكر رحيل السلطان من الموصل

ثم إن السلطان رحل من قرب البلد ، ونزل متأخراً خوفاً من البيات^(٥) فإنه كان لا يأمن ذلك^(٦) ، فإن^(٧) مجاهد الدين أخرج في بعض الليالي جماعة من باب السر الذي للقلعة ومعهم المشاعل ، فكان أحدهم يخرج من الباب ، ويتزل

(١) الأصل : ”منجنيقات“ ، وما هنا عن ابن الأثير ، وهو الصحيح .

(٢) الأصل : ”بين“ والتصحيح عن ابن الأثير .

(٣) من (٧٧ ب) : ”سبع“ والأصل : ”تسع“ والتصحيح عن ابن الأثير .

(٤) في الأصل المفعول عنه وهو (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٨٣) : ”لالكة“ ،

وقد ذكر ابن راصل هنا اللفظ العربي المقابل له ، فقد ذكر (Dozy : Supp. Dict. Arab)

أن ”لاك“ لفظ فارسي معناه الخذاء أو المداس ، واجمع ”لواك“ ، واللالكان الخذاء أو صانع الأحذية . (٥) من : ”الكبيبات“ .

(٦) بهذا اللفظ تنهى ص (٧٧ ب) من نسخة من ، ثم تنقطع الصلة مرة أخرى بين النسختين .

(٧) يلتقي النص بهذا اللفظ مع نسخة من في (١١١٢) .

إلى دجلة مما يلي عين الكبريت^(١) ، ويطفي المشعل ويعود ، فرأى العسكر^(٢) ذلك ، فلم يشكوا في الكبسة ، فحملهم ذلك على الرحيل والتأخير ، ليتعذر البيات على أهل الموصل .

وكان عز الدين — صاحب الموصل — قد سیر القاضي بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — رسولا إلى الديوان العزيز قبل نزول السلطان [على الموصل]^(٣) بأيام قلائل ، قال :

”فسرت مسرعا إلى دجلة ، وأتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجدا بهم ، فلم يحصل منهم سوى الإنفاذ إلى صدر الدين شيخ الشيوخ ، — وكان في صحبة [٢٣٧] السلطان [صلاح الدين]^(٤) — يأمرونه بالحديث معه [في الصلح]^(٥) .

وسیر عز الدين إلى بهلوان بن ايلدكر — صاحب همذان — رسولا يستنجده ، فلم يحصل من جانبه سوى تشريط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان . ودخل صدر الدين [شيخ الشيوخ]^(٦) رسول الخليفة الإمام الناصر لدين الله ، وبشير الخادم بين السلطان وصاحب الموصل ، وتحدثوا في الصلح ، فطلب عز الدين إعادة البلاد التي أخذت منهم ، فأجاب السلطان إلى ذلك بشرط أن يسلموا إليه حلب ، فامتنع عز الدين من ذلك ، ثم تزل السلطان عن ذلك إلى تسليم البلاد إليهم ، بشرط أن يتركوا إنجاز صاحب حلب^(٧) عليه ، فامتنع عز الدين ، وقال : ”هو أنخي ، وله [ممي]^(٨) العهود والمواثيق ، ولا يسعني نكثها“ .

(١) كذا في الأصل وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٣) ؛ وفي س : ”عين الأرب“ .

(٢) كذا في الأصل ؛ وفي س : ”فرأى العسكر الناس يخرجون“ ، وهذا يتفق مع نص ابن

الأثير وهو المربع الذي ينقل عنه هنا ابن واصل قلا حريا .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س ، أنظر أيضا : (الزوختين ، ج ٢ ص ٢٢) حيث ينقل هذا

الخبر عن ابن شداد نفسه .

(٤) في الأصل : ”سنبار“ ، وما هنا عن س ، وهو يتفق وسياق الحديث ، كما أنه يتفق ونص

(ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٣) حيث ينقل عنه ابن واصل قلا حريا .

(٥) ما بين الحاصرتين عن س .

ووصل رسل قرا أرسلان — صاحب أذربيجان — ، ورسا شاه أرمن^(١)
صاحب أخلاط — في المعنى^(٢) ، ولم ينتظم أمر ولا تم صلح .

ثم رأى السلطان أنه لا ينال من الموصل غرضا ، فرحل قاصدا سنجار ،
وقدم أمامه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر — صاحب حماة — .

ذكر منازلة السلطان سنجار وتملكه لها

ولما توجه السلطان إلى سنجار وجد في طريقه عسكريا من الموصل سائرا
إليها ، فأحاط بهم ، وأخذ خيلهم وعددهم وردهم إلى الموصل رجالة ، ووصل
إلى سنجار ومعه رسل دار الخلافة ، وكان بسنجار شرف الدين أمير أميران هندوا
ابن مودود ابن زنكي^(٣) نائبا بها عن أخيه عز الدين ، فواصل السلطان سنجار ،
وضايقها ، وألح في قتالها ، ونصب عليها المنجنيق ، فهدم ثلثة من سور القلعة ،
[فأخذها]^(٤) ووكل بها من يحفظها .

ودخل شهر رمضان فكف السلطان عن القتال ، ثم بلغه أن الموكلين يحفظ
تلك الثلثة نيام ، فأرسل إليهم من أوثقهم وحملهم إليه ، وكان فيهم جماعة من
المقدمين والأعيان ، فلما أصبح شرف الدين [هندوا]^(٤) أذعن وسلم [القلعة
وسنجار إلى السلطان]^(٤) ورحل بأهله وماله إلى الموصل ، ودخل السلطان

(١) رسمت في الأصل : " شاهر من " .

(٢) كذا في الأصل وفي ابن الأثير ؛ وفي س : " الصلح " .

(٣) صيغة س : " وكان بسنجار أمير أميران بن مودود بن زنكي إلخ " ، واسم هذا الرجل
في الأصل ، " هندو " وقد صحح بعد مراجعة (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٣) ، وبلاحظ
أن ابن واصل ينقل هنا عن الكامل لابن الأثير ، وعن الروضتين ، مجتمعين ، دون أن يصرح بذلك ،
كما يلاحظ أن صاحب الروضتين ينقل كثيرا في هذا الموضوع عن العباد الكاتب .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (١١٢ ب) .

إلى سنجار وإلى القلعة ، ورتبها وأمر بعمارتها ، وولّاها الأمير سعد الدين مسعود ابن معين [الدين] ^(١) أنز .

وذكر ابن الأثير أن جماعة من الأكراد الذين [كانوا] ^(١) بها كاتبوا السلطان وأشاروا عليه بقصد بعض النواحي ، فقصدها ، فسلموا تلك الناحية إليه ، فملك الباشورة ^(٢) ، فضعف إذ ذاك قلب صاحبها ، فسلمها بالأمان .

ثم رحل السلطان [٢٣٨] إلى نصيبين ، فأقام بها لقوة البرد ، وودع رسل الخليفة [ومضوا] ^(١) ، وشكا أهل نصيبين من حسام الدين أبي الهيجا السمين ، فعزله واستصحبه معه إلى دارا ، وبها الأمير صمصام الدين بهرام الأرتقي ، فتلق السلطان أحسن ملتي ^(٢) فأكرمه ، ثم سار السلطان إلى حرّان ، وأقام بها للاستراحة ، وعاد كل إلى بلده ، وعاد الملك المظفر تقي الدين إلى حماة .

ذكر وفاة الملك المنصور عز الدين فرخشاه

ابن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك ، واستيلاء
ولده الملك الأجد بهرام شاه عليها

وفي جمادى الأولى من هذه السنة — أعنى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة — توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، ووصل خبره بذلك إلى السلطان ، فأمر ولده الملك الأجد بهرام شاه على بعلبك وأعمالها ، وأستتاب بدمشق مكان عز الدين شمس الدين محمد بن المقدّم .

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (١١٢ ب) .

(٢) أنظر ما فات هنا ص ٨١ ، هامش ١

(٣) بهذا اللفظ تنهى ص (١١٢ ب) من نسخة س ، ثم تنقطع الصلة بينها وبين الأصل .

ذكر سيرته — رحمه الله —

كان عز الدين فرخشاه — رحمه الله — فاضلا أديبا ، كريما ، كثير العطايا والبذل ، محبا للفضلاء ، متكثرا بهم ، حسن السيرة ، وكان قد احتضن الشيخ الإمام تاج الدين أبا اليمن الكندي^(١) — رحمه الله — إمام عصره وفريد وقته في الأدب ، فاستفاد منه ، واقتبس من علومه ؛ وللشيخ تاج الدين هذا في عز الدين — رحمه الله — قصيدة أولها :

هل أنت راحمٌ عبْرَةٍ وتولِّهُ	ومجيرُ صبٍّ عند مأمْنِهِ دُهِي ؟
هيهات يرحمُ قاتلٌ مقتولَه !	وسنانهُ في القلبِ غيرُ منهيه
من بَلٍّ من داءِ الغرامِ ؟ فإني	مُدَّ حَلٍّ بي مرضُ الهوى لم أنقَه
إني بُلِيْتُ بحبِّ أغْبَدَ ساحرٍ	بلحاظِهِ ، رَخِصَ البنانِ بزهرِهِ
أبني شفاءَ تدلُّهُ من دَلِّهِ ،	ومتى يرقُّ مُدَلِّلٌ لِمُدَلِّهِ ؟ !
يا مفردا بالحسنِ إنك مُتَّهِ	فيه ، كما أنا بالصبايةِ منتهى
قد لامَ فيك معاشرٌ ، أفاتهي	باللومِ عن حُبِّ الحياةِ ، وأنتَ هي ؟
أبكي لَدَيْهِ ، فإن أحسَّ بلوعةِ	وتشيقِ أومي بطرفٍ مقهقه ^(٢)

(١) هو زيد بن الحسن بن زيد الكندي . انظر ترجمته في : (باقوت : معجم الأدباء ، ج ١١ ، ص ١٧١ — ١٧٥) و (أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ٦٥ و ٩٥ — ٩٨) و (السيوطي : بغية الوعاة ، ص ٢٤٩) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٧١) و (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٥٤) . و (ديوان ابن الساعاتي ، صفحات كثيرة منه) .

(٢) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٥) : ” ويشقه أوما بطرف مقهقه “

[٢٣٩] أنا من محاسنِهِ وحالِ عنده حيرانُ بينَ تَفَكُّهِ وَتَفَكُّهِ (١)
ضِدَّانِ قَدْ جُمِعَا بِلَفْظٍ وَاحِدٍ لِي فِي هَوَاهُ بِمَعْنَيْنِ مُوجَّهِ

ومنها :

أنا عبدٌ من شَهِدَ الزَّمانُ بعجزِهِ عن أنْ يَجِيءَ لَهُ بِنْدٌ مُشَبِّهِ
عبدُ لَعزِ الدينِ ذِي الشَّرَفِ الَّذِي ذَلَّ المُلُوكُ لَعزَّهُ (٢) ، فَرِخْنَشَه
طابَتْ مَوارِدُهُ فُغِصَ فِئائُهُ وشَدَا الحُدَاةُ بِذِكْرِهِ فِي المَهْمَةِ
يَفِيدُكَ كُلُّ مُمْلِكٍ مُتَّابِهِ أَبَدًا بِالسَّنَةِ الرِّعَاعِ مُمَدِّهِ
لا يَفْقَهُ النُّجُوى إِذَا حَدَّثَتْهُ وَإِذَا بَدَأَ (٣) بِحَدِيثِهِ لَمْ يُفْقَهُ

قلت : مولد الشيخ تاج الدين الكندي — رحمه الله — سنة عشرين وخمسمائة ،
وروى عن أبي منصور الجواليقي وغيره ، وتوفي بدمشق سنة ثلاث عشرة وستمائة ،
ومات وعمره ثلاث وتسعون سنة .

ولم تزل بعلبك بيد الملك الأبعد بهرام شاه بن فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب
إلى أن أخذها منه الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك العادل سيف الدين
أبي بكر بن أيوب — على ما سند كره إن شاء الله — .

وملك بعلبك بعد الملك الأشرف أخوه الملك الصالح إسماعيل ، ثم ملكها
ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك العادل ، ثم ابنه الملك المعظم

(١) الأصل : ” بين تفكّه وتفكّه ” والتصحيح عن الروضتين ، وقد عقب على البيت بالشرح
الآتي ، قال : ” يقال : تفكّمت بالشئ أي تمتعت به ، وتفكّمت تعجيب ، ويقال أيضا تفكّمت
تندمت ، فهو في تفكّه أي تمتع بالمحاسن ، وفي تعجيب من حاله وتندم عليها “ .

(٢) في الروضتين : ” لعز عبد فرخشه “ .

(٣) في الروضتين : ” أتى “ .

توران شاه، ثم ملكها الملك الناصر صلاح الدين بن الملك العزيز^(١) — صاحب حلب. — ، ثم ملكها التتر، ثم صارت بعده للملك المظفر قطز، ثم ملكها بعده الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، ثم صارت بعده لمولانا الأعظم الملك المنصور سيف الدين قلاوون^(٢) رحمة الله على سائر ملوك الإسلام أجمعين وعلى سائر المسلمين.

ذكر نصرة المسلمين على الفرنج ببحر القلزم^(٣)

لما صعب على البرنس أرناط — صاحب الكرك — ما توالى عليه من نكايه المسلمين المقيمين بحصن أيلة — وهى فى وسط البحر لا سبيل للفرنج إليها — أفكر فى وجه يتأتى له به فتحها، فبنى سفنا، ونقل أخشابها على الجمال إلى الساحل، ثم ركب المراكب وشحنها بالرجال وآلات القتال، وأوقف منها مركبين على جزيرة القلعة^(٤)، تمنع أهلها استقاء الماء، ومضى الباقيون فى مراكب إلى عيذاب [٢٤٠]، فقطعوا طريق التجارة، وشرعوا فى القتل والأسر والنهب، ثم توجهوا إلى أرض الحجاز، فعظم البلاء، وأعضل الداء، وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر عظيم.

(١) أنظر أسماء ملوك بعلبك من الأيوبيين وسنى حكمهم فى : (زامبارد : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، الترجمة العربية، ج ١، ص ١٥٢ — ١٥٣).

(٢) هذا استطراد من نوع الاستطرادات السابقة واللاحقة التى امتاز بها المؤلف فى هذا الكتاب، التى دأب على إيرادها كلها عرض لذكر مدينة من مدن الشام، فهو يتبع حاكمها إلى عصره، وتقيد من هذا الاستطراد كذلك أن المؤلف كان يكتب هذا الجزء من تاريخه فى حياة السلطان قلاوون، وبعد سنة ٦٧٨ هـ، وهى السنة التى تولى فيها هذا السلطان الحكم. أنظر أيضا ما فات هنا ص ٧٥، هامش ١.

(٣) هو البحر الأحمر الحالى، وسمى هكذا نسبة إلى مدينة القلزم التى كانت تقع فى أقصى شمال خليج القلزم، وقد خربت هذه المدينة فى القرن الخامس الهجرى، وعلى أقواضها نشأت مدينة السويس الحالية فى القرن السادس الهجرى، وسمى الخليج بخليج السويس كذلك.

(٤) يقصد الجزيرة التى عليها قلعة أيلة فقد قال فى صدر هذه الفقرة إن حصن أيلة كان فى وسط البحر (أى فى جزيرة) لا سبيل للفرنج إليها.

ووصل الخبر إلى مصر ، وبها نائب السلطان — وهو أخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب — فأمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ يعمر في بحر القلزم مراكب بالرجال البحرية ، وصار إلى أيلة ، فظفر بالمركب الفرنجى عندها ، فأحرقه وأسر من فيه ، ثم سار إلى عيذاب^(١) ، ودل على مراكب الفرنج ، فتبعها ، فوقع بها بعد أيام ، وأوقع بها ، وأطلق المأسورين من التجار ، ورد عليهم ما أخذ منهم ، ثم صعد البر ، فرجد هناك يربانا نازلين ، فركب خيلهم ، وصار وراء المنهزمين من الفرنج ، فحصرهم في شعب لا ماء فيه ، فأسرهم جميعهم ، وكان ذلك في الأشهر الحرم ، فساق منهم أسيرين إلى منى لينحروا بها كما ينحر الهدى ، عقوبة لهم على قصد حرم الله وحرم رسوله ؛ وعاد إلى القاهرة ومعه الأسرى^(٢) .

(١) كانت عيذاب ميناء هامة على بحر القلزم (الأحمر) يتهى إليها طريق الحج والتجارة الذى يبدأ من فوس على النيل ، وإليها تنهى تجارات اليمن والحبشة والهند ، وكان الحاج من الغاربة يؤثرون هذا الطريق على غيره لينقادوا صعوبات الإبحار في بحر القلزم ، وأخطار الطريق البرى عبر صحراء سيناء وبلاد العرب ، لأن عيذاب تقابل تفرجدة على الشاطئ العربى ، وتعب السفينة المسافة بينهما في ليلة واحدة . وقال (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٤ ، ص ٥٦) أن عيذاب تقع مكان « بيريس القديمة » ، غير أن محمد رمزى قال في تعليقاته على (النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٦٩ ، هامش ٢) أن هذا خطأ ، وأن موقعها كان جنوبى رأس أبو فاطمة على خط عرض ٢٢ درجة و ٢٠ دقيقة ، يقابلها من الغرب على النيل قرية أبو سنبل التى بمركز الدر الواقعة شمال بلدة وادى حلفا على بعد ٦٦ كيلو مترا منها . أنظر أيضا : (رحلة ابن جبير) و (رحلة ابن بطوطة) و (خطط المقرئى) .

(٢) رزع الأسرى على المدن الكبرى ليشتروا بها ثم يقتلوا ، وقد شاهد الرحالة ابن جبير عند نزوله بالاسكندرية الموكب الذى شهيقه بعض هؤلاء الأسرى ، ووصف الحادثة وصفا فيه تكملة للعلوم الواردة هنا ، قال فى (الرحلة ، ص ٥٨ — ٦٠) : « ... لما حللنا الاسكندرية فى الشهر المؤرخ (ذو الحجة سنة ٨٥٧٨) أولا عاينا مجتمعا من الناس عظيما برزوا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنانها ، وحولهم الطبول والأبواق ، فسألنا عن قصتهم ، فأخبرنا بأمر تنفطر له الأقدام إشفافا وجزا ، وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب فى أقرب المواضع التى لهم من بحر القلزم ، ثم حملوا أقدانها على جمال العرب المجاورين لهم بركاء اتفقوا معهم عليه ، فلما حصلوا بساحل البحر سمروا مراكبيهم ، وأكلوا إنشائها وناليفها ، ودفعوها فى البحر وركبوا قاطعين بالججاج ، واتبوا إلى بحر النعم (اليمن) فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا ، واتبوا إلى عيذاب =

وكتب الملك العادل إلى أخيه السلطان يعرفه ذلك ، فورد عليه كتاب السلطان يأمره بضرب رقابهم ، بحيث لا يبقى منهم أحد ينخر عن ذلك البحر وطريقه ، ففعل ذلك وكفى الله الحرمين الشريفين شر عدو الدين ؛ وكتب القاضي الفاضل عن السلطان بالبشارة منه :

” فصل : كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرا ، واقتضوا من البحر بكرا ، وعمرّوا صراكب بحرية ، شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد ، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز وأثخنوا وأوغلوا في البلاد ، [واشتدت مخافة أدل تلك الجوانب ، بل أهل القبلة لما أومض إليهم من خلل العواقب]^(١) وما ظن المسلمون إلا أنها الساعة ، وقد نشر مطوى^(٢) أشراطها ، والدنيا وقد طوى منشور بساطها ، وانفطر^(٣) غضب الله لفناء بيته المحرم ، ومقام خليله الأكرم ، وتراث أنبيائه^(٤) الأقدم ، وضريح نبيه الأعظم — صلى الله عليه وسلم —

= فأخذوا فيها مركبا كان باقي بالحجاج من جدة ، وأخذوا أيضا من البرقافة كبيرة تأتي من قوص إلى عذاب ، وقتلوا الجميع ولم ينجوا أحدا ، وأخذوا مركبين كانا مقبلين بنجار من اليمن ، وأحرقوا أطمعة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لمكة والمدينة — أعزهما الله — ، وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها في الإسلام ، ولا انتهى روى إلى ذلك الموضع قط ، ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة ، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وإخراجه من الضريح المقدس ، أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم ، فأخذهم الله باجترائهم عليه وتعايطهم ما يحول عناية القدر بينهم وبينه ، ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم ، فدفع الله عاديهم بمراكب عمرت من مصر والاسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد من المغاربة البحرين ، فلهقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه ، فأخذوا عن آخرهم ، وكانت آية من آيات العناية الجبارية ، وأدركهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان نيف على شهر ونصف أو حوله ، وقتلوا وأمرؤا ، وفرق من الأسارى على البلاد ليقتلوا بها ، ووجه منهم إلى مكة والمدينة ، وكفى الله بمجيل صنمه الإسلام والمسلمين أمرا عظيما .

(١) ما بين الحاصرين زيادة عن نص الرسالة الوارد في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٧) .

(٢) الأصل : « مطوا » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٣) في الروضتين : « وانتظر » .

(٤) الأصل : « بنيانه » ، وما هنا عن الروضتين .

ورجوا أن تسحب البصائر آية [كآية] ^(١) هذا البيت إذ قصده أصحاب الفيل ،
ووكلوا إلى الله الأمر وكان حسبهم ونعم الوكيل ، وكان للفرنج مقصدان :
أحدهما قلعة أيلة التي هي على فوهة بحر الحجاز [و] ^(١) مداخله ، والأخرى
الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم [من] ^(١) سواحله ، وانقسموا ^(٢)
فرقتين ، وسلكوا الطريقين ؛ [٢٤١] فأما الفريق الذي قصد قلعة أيلة فإنه
قدر أن يمنع أهلها [من] ^(١) ، مورد الماء الذي به قوام الحياة ، ويقابلهم
بنار العطش المشبوب الشباه ، وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقد
أن يمنع طريق الحاج عن حجه ، ويحول بينه وبين ثبجه ، [ويأخذ تجار اليمن ،
وأكارم عدن] ^(١) ، ويلم بسواحل الحجاز ، فيستبيح — والعياذ بالله — المحارم ،
ويهبج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظامم .

”وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمر مراكب ، وفرقها إلى الفرقتين ^(٣)
وأمرها بأن تطوى وراءهم الشقتين فأما السائرة إلى قلعة أيلة فمنها انقضت على
مرابطة منع الماء انقضااض الجوارح على بنات الماء ، فقذقتها قذف شهب
السماء مسترقى سمع الظلماء ، [فأخذت مراكب العدو برمتها ، وقتلت أكثر
مقاتلتها ، إلا من تعلق بهضبة وما كاد ، أو دخل في شغب وما عاد ، فإن العربان
اقتصوا آثارهم ، والترموا إحضارهم ، فلم ينج منهم إلا من ينهى عن المعاودة ،
ومن قد علم أن أمر الساعة واحدة] ^(١) “ .

”وأما السائرة إلى بحر الحجاز فتبادت في الساحل المجازي إلى غابر ^(٤) إلى سواحل
الخوراء ، [فأخذت تجارا وأخافت رفاقا ، ودلها على غوارب البلاد من
الأعراب من هو أشد كفرا ونفاقا] ^(١) ، فهناك وقع عليها أصحابنا ، وأخذت

(١) ما بين الحاصرتين زيادات عن النص الوارد في (١١ الرضتين ، ج ٢ ، ص ٢٧) .

(٢) الأصل : « وانقسموا » : والصحيح عن الرضتين .

(٣) الأصل : « وفرقها فرقتين » وما هنا عن الرضتين .

(٤) في الرضتين : « رابع سواحل الخوراء » .

المراكب بأسرها ، وفرّ فرنجها^(١) بعد إسلام المراكب ، فسلكوا في طريق الجبال مهاوى المهالك ، ومعاطن المعاطب ؛ وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب فشلوهم شلا ، واقتنصوهم أسرا وقتلا ، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلا ورجلا ، نهارا وليلا ، حتى لم يتركوا منهم مخبا ، ولم يبقوا لهم أثرا ، وسبق الذين كفروا إلى جهنهم زمرا ، وقيد منهم إلى مصر مائة وسبعون^(٢) أسيرا [وسير هذا الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد^(٣)] “ .

ومن كتاب آخر :

« فصل : ومن جملة^(١) الدشائر الواصلة من مصر عود الأسطول مرة ثانية كاسرا كاسبا ، غائما غالبا ، بعد نكايته في أهل الجزائر ، وإخراجه ما وجدته^(٥) فيها من الأعمال^(٦) والعائر ، وفي جملة ما ظفربه في طريقه بطسة من مراكب الفرنج تحمل أخشابا منجورة إلى عكا ، ومعها نجارون ليبنوا^(٧) بها شوانى ، فأسر النجارون ومن معهم ، وهم نيف وسبعون ، وأما الأخشاب فقد انتفع بها المجاهدون ، وكفى شرها المؤمنون ؛ وللآدم في المغرب عسكر^(٨) قد بلغت أقصى إفريقية فتوحه^(٨) ، وعاد به شخص الدين في تلك البلاد روحه^(٩) »

(١) بهذا اللفظ يلتق النص مرة أخرى بنسخة س (١٧٨) .

(٢) كذا في الأصل و (الرضتين ، ج ٢ ، ص ٢٧) ؛ وفي س (١٧٨) : « ما بنى وصبعون » وفي (الرضتين ، ج ٢ ، ص ٣٦ — ٣٧) مقتطفات من جملة رسائل كتبها الفاضل عن هذه الحادثة تردها إيضا ، فانظرها هناك . (٣) ما بين الحاصرتين عن س .

(٤) كذا في الأصل ، والرضتين ؛ وفي س : « جماعة » .

(٥) في الأصل : « رجدر » ؛ والتصحيح عن الرضتين .

(٦) الأصل وس : « الأعمار » ، والتصحيح عن الرضتين .

(٧) الأصل : « لينوا » ، وس « لينوا » ، وما هنا عن الرضتين .

(٨) يقابل هذه الفقرة في س جملة مضطربة ونصها : « عسكرة بلغت أقصى إفريقية وهي مفتوحة »

(٩) نص هذه الفقرة في الأصل وفي س : « وعاد به شخص تلك البلاد روحه » ، وقد صححت

بعد مراجعة الرضتين .

وفي هذه السنة — أعني سنة ثمان وسبعين^(١) وخمسمائة — أنعم السلطان بأعمال قلعة الهيثم على نور الدين محمد^(٢) بن قرا أرسلان صاحب الحصن^(٣) ، وكانت جارية في عمل [٢٤٢] الموصل ، فلما تسلمها سلمها إليه ؛ وكان نور الدين [محمود بن زنكي] — رحمه الله — حين توجه إلى الموصل في أوائل سنة ست وستين عند وفاة أخيه قطب الدين [مودود] وعد ابن قرا أرسلان بقلعة الهيثم ، ثم سلمها إليه دون أعمالها ، تحلة ليمينه ووفاء بوعدة ؛ ولما جاء نور الدين بن قرا أرسلان لمساعدة السلطان [صلاح الدين] في هذه السنة خصه عاجلها ، ثم وهبه قلعته الجديدة ، [وهي قريبة من نصيبين]^(٤) ووعدته بفتح آمد له .

ذكر اتفاق^(٥)

صاحب أخلاط وصاحب ماردین وصاحب الموصل
على حرب السلطان — رحمه الله —

وترددت رسل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي — صاحب الموصل — إلى شاه أرمن^(٦) — سبكان ظهير الدين — صاحب أخلاط — يستنجده ويستنصره على السلطان ، فأرسل شاه أرمن^(٦) ظهير الدين إلى السلطان عدة رسل في الشفاعة

(١) الأصل : « وسبعون » .

(٢) الأصل « محمود » والتصحيح عن (الروضين) و(وزامبارد) : معجم الأنساب ، الترجمة العربية ، ص ٣٤٤ .

(٣) المقصود « حصن كيفا » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضين ، ج ٢ ، ص ٢٨) زيد للإيضاح .

(٥) الأصل : « قاق » وما هنا عن س (١٧٨) وهو الصحيح .

(٦) رسمت في الأصل : « شاهر من » .

إليه بالكف عن الموصل وما يتعلق بعز الدين ، فلم يجبه إلى ذلك وغالطه ، فأرسل إليه مملوكه سيف [الدين] ^(١) بكتمر ، فأتاه وهو يحاصر سنجار يطلب منه أن يتركها ، وقال له إن رحل عنها وإلا تهدده بقصده ومخاربه ، فأبلغه بكتمر الشفاعة ، فسوف في الجواب رجاء أن يفتحها ، فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة الثانية بالتهديد وفارقه ^(٢) غضبان ، ولم يقبل منه خلعة ولا صلة ، وأخبر صاحبه الخبر ، وخوفه عاقبة الإهمال والتواني عنه ، فسار ظهير الدين من أخلاط وكان مخيا بظاهرها ، وسار إلى ماردین وصاحبها ابن أخيه وهو قطب الدين إيلغازي ^(٣) بن ألي بن تمر تاش بن إيلغازي بن ارتق ، وقطب الدين ابن خال عز الدين صاحب الموصل وحموه ^(٤) ، وحضر مع ظهير الدين دولة شاه — صاحب بدليس وأرزن — ، وسار عز الدين — صاحب الموصل — في عسكره جريدة من الأتقال ، واجتمعت عساكرهم على حرزم ^(٥) ، وهي ضيعة من أعمال ماردین .

وكان السلطان قد ملك سنجار ، وعاد منها إلى حران ، وتفرقت عساكره كما ذكرناه ، فلما سمع اجتماعهم ^(٦) أرسل إلى ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين — صاحب حماة — يستدعيه ، فوصل إليه مسرعا ، وأشار عليه بالرحيل إليهم ، وحذره آخرون ، فكان هوى ^(٧) السلطان في الموصل ، فرحل إلى رأس عين

(١) ما بين الحامرتين عن س والروضتين .

(٢) س : « وفارق السلطان » .

(٣) س : « ابن الينانى » .

(٤) س (٧٨ ب) : « رجاء » وما بالأصل هو الصحيح ، فهو يقصد أن قطب الدين كان والد زوجة عز الدين صاحب الموصل .

(٥) س : « حرزم » وقد ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة (باتوت ، معجم البلدان) حيث عرفها أنها بلدة في واد ذات نهر جاروسا بين ماردین وديسر من أعمال الجزيرة ، وأكثر أهلها أرمن نصارى

(٦) س : « فلما سمع باجتماع العساكر مع صاحب الموصل » .

(٧) الأصل ، « هوا » والتصحيح عن س .

فلما سمعوا برحيله تفرقوا [٢٤٣] فعاد شاه أرمن إلى أخلاط ، واعتذر :
 ”بأنى أجمع العساكر وأعود“ ، ورجع عز الدين إلى الموصل ، وأقام قطب الدين
 بماردين ، وسار السلطان — رحمه الله — فقتل حرزم ، وهى منزلتهم التى كانوا
 عليها عدة أيام .

ذكر منازلة السلطان آمد وفتحها

ثم سار السلطان إلى آمد ، فقتل عليها يوم الأربعاء لثلاث^(١) بقين من ذى الحجة
 من هذه السنة — أعنى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة — بعد أن استأذن الخليفة
 الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين فى ذلك ، فأذن له ، وكان صاحبها إذ ذاك
 محمود بن أيكلدى^(٢) ، وهو شيخ كبير كان الملك له بها من جهة السلاطين السلجوقية
 ولم يكن له من الملك إلا مجرد الاسم ، وكان المتغلب على الأمر ومدبر الدولة
 مؤيد الدين أبا على بن نيسان ، فتوفى وتولى ولده مسعود الأمر ، ومحمود
 [ابن أيكلدى]^(٣) محكوم عليه فى قبضته ، يطعمه ويسقيه ويظهر أنه غلامه ،
 وليس له معه حكم أصلا ، فإذا جاء رسول يحضره عنده ، ويسند ما يدبره إلى
 تديره ، ويظهر أن الملك لمحمود وإنما هو نائبه ويتصرف تحت أمره ونهيه ،
 ونصب السلطان المجانيق على آمد وضايقها .

(١) كذا فى الأصل ، وفى س : « للبتين بقين من ذى الحجة » ، وفى : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٨) و (الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٨) : « يوم الأربعاء سابع عشر ذى الحجة » ،
 وبالرجوع إلى (التوقيعات الإلهامية) يتبين أن اليوم السابع عشر من ذى الحجة سنة ٥٧٨ كان
 يوم الأربعاء ، ولم يكن يوم ٢٧ أو ٢٨ من هذا الشهر كذلك .

(٢) هو جمال الدين شمس الملوك محمود بن أيكلدى (Ilaldi or Aikaldi) الأينالى ، حكم آمد من سنة
 ٥٣٦ إلى سنة ٥٧٩ حيث انتقلت إلى ملك ملاح الدين . أنظر : (ZAMBAUR : Op. Cit. p. 139)

(٣) ما بين الحاصرتين عن س (١٧٩)

ودخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة وهو على حصار آمد ، وأساء مسعود ابن أبي علي بن نيسان المتغلب عليها السيرة ، ولم يعط الناس من الذخائر شيئا ، ولا فزق فيهم دينارا ولا قوتا ، وقال : " قاتلوا عن نفوسكم " ، فقالوا^(١) : " ليس العدو بكافر حتى نقاتل عن نفوسنا " ، فلم يفعل شيئا ، وقاتلهم السلطان وزحف إليها وهي في غاية الحصانة والمنعة ، وسورها يضرب به المثل ، وابن نيسان على حاله في الشح ، وتصرفه تصرف من أدبرت عنه السعادة ، فلما رأوا الناس ذلك تهاونوا في القتال وأجنحوا إلى السلامة .

وكانت أيام بني نيسان قد طالت وثقلت على أهل البلد لسوء صنيعهم وتضييقهم [عليهم]^(٢) في مكاسبهم ، والناس كارهون لهم مجبون لا تقراض دولتهم ، وأمر السلطان أن يكتب على السهام إلى أهل البلد ويعدم الخير والإحسان إذا أطاعوه ، ويهددهم إن قاتلوه ، فزادهم ذلك تقاعدا وتحاذلا ، وأحبوا ملكه^(٣) ، وتركوا [٢٤٤] القتال ، ووصل النقبون إلى السور فنقبوه وعلقوه ، فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك طمعوا في ابن نيسان ، واستطالوا في الطلب ، فحين صارت الحال إلى ذلك أخرج مسعود بن نيسان نسائه إلى القاضي الفاضل يسأله أن يأخذ له الأمان لأهله وماله ، وأن يؤخر ثلاثة أيام ، حتى ينقل ماله بالبلد من الأموال والذخائر ، فسعى له الفاضل في ذلك ، فأجابه السلطان إليه ، وتسلم السلطان البلد في العشر الأول من المحرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وأخرج ابن نيسان خيامه إلى ظاهر البلد ، وكان التقرير أن ابن نيسان يحمل في ثلاثة أيام ما قدر عليه من المال والأثاث ، وأعانه السلطان على نقل الأموال بالدواب والرجال ، ورام ابن نيسان نقل جميع ماله في تلك الأيام ، فتعذر عليه

(١) س : « فقال له بعض الناس » .

(٢) عن س .

(٣) في الأصل « ملكته » ، وس : « وأحبوا ملكة السلطان » ، والتصحيح عن ابن الأثير ، وهو المرجع الذي ينقل عنه المؤلف أخبار حصار آمد وفتحها مع تغيير طفيف .

لزوال حكمه عن أصحابه واطراحهم أمره ونهيه ، فحمل البعض على الدواب التي أعانه السلطان بها ، وأسرق البعض ، وانقضت الأيام الثلاث قبل الفراغ من الباقي ، ومنع عما بقي ، وكانت أبراج المدينة مملوءة من أنواع الذخائر فتركها بحالها ، ولو كان ساعده التوفيق لأخرج بعضها في الحصار ، وحفظ سائر نعمه وأمواله ، وإذا أراد الله تعالى أمرا هيا أسبابه .

[ولما تسلم السلطان آمد أحضر بين يديه محمود بن ايكلي الذي كان في الظاهر صاحب البلد ، فرآه شيخا كبيرا فأكرمه وأحسن إليه وأمر نور الدين بالإحسان إليه^(١) وأن يقيم عليه ما يكفيه ، له ولأصحابه ، ففعل ذلك ، ولم يزل عند نور الدين مكرما حتى مات — رحمه الله —]^(٢)

ذكر تسليم

السلطان آمد لنور الدين صاحب حصن كيفا

ولما تسلم السلطان آمد أنعم [بها]^(٣) على نور الدين محمد بن قرا أرسلان ابن سقمان بن أرتق — صاحب حصن كيفا — لأنه كان وعده بها ، فأنجز وعده ، وقد كان أبوه عانى^(٤) أخذها مرارا ، فأعجزه ذلك ، وقيل للسلطان قبل تسليمه آمد إلى نور الدين :

”إن هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار ، فلو أخذت ذلك وأعطيته جندك وأصحابك ، وسلمت إليه البلد فارغا لكان راضيا ، لأنه لا يطمع في غيره“ .

فامتنع من ذلك ، وقال :

”ما كنت لأعطيه الأصل وأبخل بالفرع“ .

(١) بهذا اللفظ تنهى (ص ٧٩ ب) من نسخة م ، ثم يضطرب ترتيب الصفحات بعد ذلك في هذه النسخة وتجد النص يتصل بعد ذلك في (ص ١١٤٢) .

(٢) هذه الفقرة كلها زيادة عن م (٧٩ ب و ١١٤٢) . ولا وجود لها في الأصل ولا في الروضتين أو ابن الأثير .

(٣) الأصل و م : « ما » .

(٤) عن م .

ثم عمل نور الدين بآمد دعوة عظيمة ، ودعا إليها السلطان وأمرائه ، وقدم له
ولأصحابه من ^(١) التحف والهدايا شيئا كثيرا ، واستحلفه السلطان أنه يظهر
العدل ويقمع الجور ويكون سامعا مطيعا للسلطان ^(٢) من معاداة أعدائه ، ومصافاة
أوليائه ^(٣) ، وأنه متى استمده لقتال [٢٤٥] الفرتج سارع إليه وكانت هذه فعلة
جميلة من السلطان ، وإن كانت أفعاله وخلاله كلها جميلة ، فله دُرّه ، ما كان
أسمحه وأكرمه !!

ففي ذلك يقول القاضي السعيد أبو القسم هبة الله ابن جعفر بن سناء الملك ^(٣) يمدحه
من قصيدة :

أَرْضُ الْجَزِيرَةِ لَمْ تَظْفَرْ بِمَمَالِكُهَا ^(٤) بِمَالِكٍ فَطِنٍ أَوْ سَائِسٍ دَرِبِ
مَمَالِكُ لَمْ يَدْبِرْهَا مُدَبِّرُهَا إِلَّا بِرَأْيِ خَصِيٍّ أَوْ بِعَقْلِ صَحِيٍّ

(١) هذه الألفاظ غير موجودة في م .

(٢) نص م : « عدو من عاداه ، ومصافيا لمن صافاه » والأصل يتفق مع نص (الروضتين ج ٢ ،

ص ٤١) حيث ينقل عن الماد الكاتب .

(٣) هو القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك ، أكبر شعراء مصر وأشعرهم
في العصر الأيوبي ، ولد في حدود سنة ٥٥٠ هـ ، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٠٨ هـ . كان أبوه يشرف
على شئون القاضي الفاضل أثناء تغيبه في الشام ، وهذا يفسر لنا مر إقبال الفاضل على ابنه هبة الله
وتقريبه له . وللشاعر قصائد كثيرة في مدح القاضي الفاضل تضمنها ديوانه ونقل بعضها من ترجمه له ، وديوان
الشاعر لم ينشر بعد ، وتوجد منه نسختان في دار الكتب المصرية ، إحداها مصورة عن نسخة في مكتبة
جامعة فؤاد الأول بالقاهرة ، والثانية في المكتبة النجيرية ، وله ديوان موشحات نشره أخيرا الدكتور
جودة الركابي الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة السورية ، وله كذلك مجموعة من الرسائل المتبادلة بينه وبين
القاضي الفاضل تحت عنوان « فصوص الفصول وعقود العقول » وتوجد منه نسخة خطية في المكتبة
الأهلية بباريس رقم ٣٣٣٣ ، ولا ستيفاء ترجمته وأخباره انظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٥ ، ص
١١٢ — ١١٦) و (ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ٢٦٥ — ٢٧١) و (الماد
الاصفهانى : خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، الجزء الأول : ص ٦٤ — ١٠٠ و ١٠٣) و (ابن
الماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٥) و (السيوطى : حنن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٣٥)
و (ابن سناء الملك : دار الطراز ، مقدمة الناشر الدكتور جودة الركابي) و (GAWDAT RIKABI : La
Poésie Profane Sous les Ayyubides p.p.69-86) . هذا ولا بن سناء الملك كتاب مفقود هو
« روح الحيوان » اختصر فيه كتاب الحيوان للجاحظ .

(٤) الأصل وم : « بمالكها » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٣) حيث أورد من

القصيدة آياتا أكثر مما أوردناها هنا ابن واصل .

حتى أتاها صلاح الدين فأنصلحت بعد الفساد، كما صحت من الوصيف
 واستعمل الجُدَّ فيها غير مكترث بالجد، حتى كان الجُدُّ كاللعيب^(١)
 وقد حواها فأعطى بعضها هبة، فهو الذي يهب الدنيا، ولم يهب
 يعطى الذي أخذت منه ممالكه، وقد يمن على المسلوب بالسلب^(٢)

ثم كتب السلطان إلى الديوان العزيز بالإنشاء الفاضل في معنى فتح آمد
 يقول فيه :

” فصل : ^(٢) وهو يتوقع في جواب هذا الفتح أن يمد بجيش هو الكلام ،
 ورماح هي الأعلام ، ونصر هو وافد العز ^(٣) ، ورشد ^(٤) هو فك المجز ^(٥) ،
 وليس ذلك لوسائل من دولة أقامها بعد ميل عروشها ، ولا دعوة قام فيها بعدما
 تصاغرت دونه هم جيوشها ، ولكن لأن ^(٦) هذه الجزيرة الصغيرة [منها تنبعث
 الجزيرة الكبيرة و] ^(٧) هي دار الفرقة ومدار الشقة ، فلوانتظمت في السلك
 لانتظم جميع عسكر الإسلام في قتال الشرك ، وكان الكفر يلقي يديه ^(٨) وينقلب
 على عقبيه ، ويفشاه الإسلام من خلفه ومن بين يديه ، ويفزى من مصر برا وبحرا ،
 ومن بلاد الشام سرا وجهرا ، ومن الجزيرة مدا وجزرا ^(٩) “ .

-
- (١) هذا البيت لم يرد في الروضتين .
 (٢) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤١) ، وفي س (١٤٢ ب) : « وقد »
 (٣) كذا في الأصل ، وفي س ، والروضتين : (الأمر) .
 (٤) س : « ورسد » ، والروضتين : « وترشد » .
 (٥) س والروضتين : « المجز » .
 (٦) الأصل ومن : « الآن » ، والتصحيح من الروضتين .
 (٧) ما بين الحاصرتين عن الروضتين .
 (٨) الأصل : « تكف أيديه » ، وس : « وكان كف يديه » ، والتصحيح عن الروضتين .
 (٩) س : « وحسرا » .

ثم جاءت رسل ملوك الأطراف إلى السلطان كل منهم يطلب الأمان لصاحبه ،
وأن يتخذ من جملة أنصاره ، منهم صاحب ماردين وغيره ، فرد السلطان
كل رسول منهم بإجابة مطلوبة .

ذكر فتح تل خالد وعين تاب

ثم رحل السلطان من آمد^(١) وعبر الفرات لقصد حلب وولاياتها ، فنازل
في طريقه تل خالد وهي من أعمال حلب ، فحصرها [٢٤٦] ورمها^(٢) بالمنجنيق
وطلب أهلها الأمان فأمّنهم وتسلمها في المحرم من السنة .

ثم سار منها إلى عين تاب ، وبها ناصر الدين محمد [بن نهار تكين]^(٣) أخو الشيخ
إسماعيل خازن نور الدين — رحمه الله — وحاجبه ، وكان قد سلمها إليه نور الدين ،
فبقيت في يده إلى هذه السنة ، فلما نازله [صلاح الدين]^(٤) راسله وطلب منه
أن يقر الحصن بيده ، ويتزل إلى خدمة السلطان ويكون في طاعته ، فأجابه
السلطان إلى ذلك ، فتزل إلى خدمته ، فأقر السلطان عين تاب له إقطاعا .

ذكر وقوع أسطول المسلمين على أسطول الفرنج

وفي العاشر من المحرم من هذه السنة — أعني سنة تسع وسبعين وخمسمائة —
سار أسطول [المسلمين]^(٥) من مصر فلقوا بطسّة^(٦) فيها ثلاثمائة مقاتل

(١) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بأنها أعظم مدن ديار بكر ، وقال هي بلد قديم حصين ركين
مبنى بالججارة السود وعلى نسر ، ودجلة محيطة بأكثره مستديرة به كالحلال .

(٢) من "ورمى" .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (الروضتين ، ج ٢ : ص ٤٢) .

(٤) زيادة عن ص .

(٥) عن ص و (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٦) .

(٦) أقصر ما فات هنا ص ٧٧ ، هامش ١

من الفرنج بالسلاح التام ، ومعهم أموال وسلاح يسرون به إلى فرنج الساحل ، فقاتلهم المسلمون ، وصبر الفريقان ، وكان الظفر للمسلمين فأخذوا الفرنج أسرى ، وقتلوا البعض وأبقوا البعض ، وعادوا بهم وبالغنائم إلى مصر .

ذكر وقعة بين المسلمين والفرنج بأطراف الشام

وفي المحرم من هذه السنة سار جماعة كبيرة من الفرنج إلى نواحي الدارون^(١) ينهبون ويغيرون ، فخرج إليهم المسلمون على طريق صدر وأيلة ، فاترح الفرنج من بين أيديهم ، ونزلوا بماء يقال له العسيلة ، فسبقو الفرنج إليه ، وأتاهم المسلمون وهم عطاش ، فأنشأ الله عز وجل سحابة عظيمة ، فمطروا منها حتى ربوا ، وكان الزمان قيظا والحر شديدا في برمهلك ، فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم ، ووثقوا بنصر الله سبحانه وتعالى عليهم ، وقاتلو الفرنج فنصرهم الله عليهم ، فقتلوهم ولم يسلم منهم إلا الشريد الفريد ، وغنم المسلمون مائتهم من سلاح ودواب ، وعادوا منصورين .

ذكر تخريب قلعة عزاز وكفرلاتا

وكان عماد الدين زنكي بن مودود صاحب حلب قد خرب في السنة الماضية قلعة عزاز في تاسع جمادى الآخرة خوفا من السلطان ، وخرب حصن كفرلاتا وأخذها من بكش^(٢) ، فإنه كان قد صار مع السلطان ، وقاتل أهل تل باشر فلم يقدر عليها .

(١) كذا في الأصل ، وفي ص (١١٤٣) : " الداروم " ، واللفظان صحيحان كما ورد في (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بأنها قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر ، بينها وبين البحر مقدار فرسخ ، وقد خربها صلاح الدين لما ملك الساحل في سنة ٥٨٤ هـ .

(٢) الأصل : " تلبش " ، وما هنا عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٢) .

ذكر استيلاء

السلطان الملك الناصر صلاح الدين على حلب

[٢٤٧] ثم سار السلطان إلى حلب فنازلها ، وذلك لأربع بقين من المحرم من هذه السنة — أعنى سنة تسع وسبعين وخمسمائة — وكان أول نزوله بالميدان الأخضر ، وسير المقاتلة يقاتلون ويباسطون عسكر حلب ببانقوسا وباب الجنان غداة وعشيّة ، وفي نزوله جرح أخو السلطان تاج الملوك بوري بن أيوب [فصب على السلطان ذلك] (١)

واستدعى السلطان العساكر من الأطراف ، فاجتمع إليه خلق كثير ، ولم يجد السلطان في القتال رجاء أن يأخذها بدون ذلك ، لكن الشباب والجهال (٢) والأصحاب تقدموا وقاتلوا ، والسلطان ينهزم فلا يتنهون ، ثم رحل السلطان من الميدان الأخضر إلى جبل جوشن ونهى (٣) عن القتال ، وقال :

”نحن هنا نستغل البلاد وما علينا من الحصن (٤)“ .

وأظهر أنه يريد أن يبنى المساكن بجبل جوشن ، ويتدير (٥) ويقيم ، ونفذ رسله [إلى عماد الدين صاحب حلب] (٦) .

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (١١٤٣) .

(٢) بعد هذا اللفظ في ص : ”من أحداث حلب“ ، وليس بها لفظ : ”والأصحاب“ .

(٣) الأصل : ”ونها“ .

(٤) الأصل : ”الحسن“ ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٣) حيث ينقل عن العماد : أما صيغة من فضطربة المعنى ونهضا : ”نحن ها هنا نشغل بالبلاد وما علينا من الضرر شيء“ .

(٥) ص (١٤٣ ب) : ”ويريد أن يقيم“ .

(٦) ما بين الحاصرتين عن ص .

وكان مع عماد الدين بحلب عسكر كثير من النورية، وهم مجتهدون في القتال مجتدون فيه، ورأى عماد الدين كثرة الخرج فشجَّ بماله، وحضر عنده بعض الأجناد وطلبوا منه شيئاً فاعتذر بقلة المال عنده، فقبل له^(١) :

”من يريد يحفظ مثل حلب يخرج الأموال ولو باع نساءه“.

فقال حينئذ إلى تسليم حلب وأخذ العوض عنها، فأرسل الأمير حسام الدين طمان الباروق في سر إلى السلطان على أن يتسلم حلب ويرد على عماد الدين سنجار بلده، فأجابه السلطان إلى ذلك وزاده الخابور ونصيبين والرقه وسروج، واشترط عليه إرسال العساكر في خدمته إلى الغزاة.

ولما تم الأمر بين عماد الدين والسلطان في السر أعلم عماد الدين الأمراء بذلك، وأذن لهم في تدبير أنفسهم، فأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جورديك وزين الدين بك، فبقوا عنده إلى الليل، واستحلفوه للعسكر وأهل البلد، فحلف لهم ولعماد الدين، وذلك في سابع عشر صفر من السنة.

ونخرجت العساكر إلى خدمة السلطان واجتمعوا به في الميدان الأخضر، وخرج إليه مقدمو حلب، فخلع عليهم، وطيب قلوبهم، وقبَّح أهل حلب على عماد الدين بيع حلب بسنجار وهو أبلخس الأثمان^(٢).

[٢٤٨] مع قدرته على حفظ حلب والامتناع بها، حتى أن بعض عامة حلب أخضر إجانة^(٣) وفيها ماء، وناداه: ”أنت لاتصلح لللك [بل]“^(٤) تصلح أن تغسل الثياب، وسمعه المكره.

(١) الأصل: ”قال“، والتصحيح عن س.

(٢) س: ”وهو أبلخس الأعمال“.

(٣) الإجانة المكنى الذي يغسل فيه الثياب. (اللسان) و(ابن سيده: المخصص، ج ٩، ص ١٦٠).

(٤) عن س.

[قال صاحب التاريخ^(١) : وبلغنى أن العامة كانوا إذ رأوه صاحوا وقالوا :
”يا حمار ، يامن باع حلب بسنجار“ .

وأقام عماد الدين بقلعة حلب يقضى أشغاله وينقل أقمشته وخزائنه إلى يوم
الخميس ثالث عشر^(٢) صفر^(٣) .

ذكر وفاة تاج الملوك بورى^(٤)

ابن أيوب أنحى السلطان — رحمه الله تعالى —

وفي يوم الخميس^(٥) هذا توفي تاج الملوك من الجرح الذى أصابه [على حلب]^(٦)
وحزن عليه السلطان [صلاح الدين حزنا عظيما]^(٦) ، وجلس في العزاء [ثلاثة أيام]^(٦) .
وكان مولده سنة ست وخمسين وخمسمائة ، فكان عمره اثنتين وعشرين سنة وشيئا .

(١) عن س .

(٢) الأصل وس : ”عشرين“ .

(٣) مقابل هذا اللفظ في هامش س (١١٤٤) : ”بلغ مقابلة“ ، ولعلها إشارة من النسخ
للدلالة على أنه وقف في مقابلة النسخة على الأصل عند هذا اللفظ .

(٤) كان تاج الملوك بورى أصغر أخوة صلاح الدين جميعا ، وكان يشرب بمستقبل طيب ، فقد كان شجاعا
وشاعرا ، وتذكر المراجع أن له ديوان شعر (ولكنه غير موجود) . أظفر أخباره وترجمته في : (ابن
خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٦١ — ٢٦٢) و (الحنبل : شفاء القلوب ، ص ١٣ — ١٤ ب)
و (الروضين ، ج ٢ ، ص ٤٢ و ٤٤) و (الدكتور الشيال : شاعر من البيت الأيوبي ، مقال مجلة
الثقافة ، العدد ١٣٠ ، ٢٤٤ يونيو ١٩٤١) . و بورى كلمة تركية معناها الذئب .

(٥) مكان هذا اللفظ في س : ”ثالث وعشرين صفر“ .

(٦) عن س .

ذكر سيرته^(١)

كان فاضلاً أديباً شاعراً ، وله ديوان شعر مشهور ، ومن جملة بيتان في ذكر صوم رمضان قالهما على سبيل المداعبة^(٢) :

رمضانُ ، بل رمضان ، إلا أنهم أخطوا إذا في قولهم وأساؤا
مَرَضَانِ^(٣) فيه تحالفا ، فنهاره سل ، ولكن ليله استسقاء^(٤)

وفي ذلك اليوم الذي توفي فيه تاج الملوك نزل عماد الدين زنكي [من قلعة حلب]^(٥) إلى خدمة السلطان وعزاه وسير معه في الميدان الأخضر ، وتقررت بينهما القواعد ، وأنزله عنده في الخيمة ، وقدم تقدمه سنية وخيلا ، وخلع عليه ودل جماعة من أصحابه [خلعة من ملابسه]^(٦) ، وسار عماد الدين من يومه إلى سنجار .

وأقام السلطان بالخميم بعد مسير عماد الدين ، غير مكثرت بأمر حلب ، ولا مستعظم لشأنها إلى يوم الاثنين لثلاث بقين من صفر ، ثم صعد القلعة في ذلك اليوم ، وعمل له حسام الدين طمان دغوة ، وكان تخلف لأخذ ما لعماد الدين من قماش وغيره .

(١) هذا العنوان غير موجود في م ، وإنما مكانه : " قال صاحب الكتاب " .

(٢) الأصل : " الملاعبة " وما هنا عن م .

(٣) الأصل : " مضان " والتصحيح عن (شفاء القلوب ، ص ١٤ ب) .

(٤) نص البيت في (شفاء القلوب) :

رمضان فيه تحالفا ، قناره عطش ، وسائر ليله استسقاء

(٥) عن م .

(٦) عن م (١١٤٤) ، وانظر بيان هذه الخلعة والتقدمة التي قدمها صلاح الدين لعماد الدين

في : (الروضين ، ج ٢ ، ص ٤٥) .

وهنا الشعراء السلطان الملك الناصر صلاح الدين بملك حلب ، ومن امتدحه
وهنا بذلك القاضي محي الدين بن زكي الدين بأبيات منها :

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر مبشرا بفتوح القدس في رجب

فكان ذلك فالا عجا ، فان القدس فتحت في رجب ؛ ولكن في غير
هذه السنة [٢٤٩] على ما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ومدحه القاضي السعيد بن سناء الملك بقصيدة أولها :

وبابن أيوب ذلت شيعه الصليب	بدولة الترك عزت ملة ^(١) العرب ،
من أرض مصر ، وعادت مصر من حلب	وفي زمان ابن أيوب غدت حلب
بالصفح ، والصلح ، أو بالحرب والحرب	ولابن أيوب دانت كل مملكة
إلى العزائم ، مدلول على الغلب	مظفر النصر ، مبعوث بهمتيه
والأرض بالخلي ، والأفلاك بالشهب	والدهر بالقدر المحتوم يخدمه ،
مبيضة النصر من مصفرة العذب	وتجلى الخلق من راياته هما

ومنها :

فاليض كالموج ، والبيضات كالجب	أتى إليها يقود الجيش ملتطما ،
بين النقيضين من ماء ومن لب	تبدو القوارس منها في سوابغها
عوايد الحرب لاستغنوا عن الساب	مستسلمين ، ولولا أنهم حفظوا
حمالة السبي لا حمالة الخطب	^(٢) جمالم من مغازيم إذا فعلوا

(١) في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٣) : “ دولة العرب ” ، وهذا هو البيت الوحيد الذي
أورده صاحب الروضتين من القصيدة ، ثم أورد أبياتا أخرى غير التي اقتبسها هنا صاحب مفرج الكروب .

(٢) ص (١٤٤ ب) : “ جمالم من سمارهم إذا حملوا ” .

ومنها :

فطاف منها بركن لا يُقبَّلهُ إلا أسنةُ أطرافِ القنَّ السُّلبِ
بك العواصمُ طابت بعد ما خبثتُ بمالكها ، ولولا أنت لم تطبِ
فلت كلُّ صباحٍ در شارقِه فذا ليل^(١) فتي الفتيان في حلب
ألهى مديحك شغرى عن تغزله ، بجاء مُقتَضِباً في إثر^(٢) مقتضبِ
فلم أقل فيه : لا^(٣) إن الصباة بي يوم الرحيل ، ولا إن المليحة بي

ذكر فتح حارم

كان بقلمة حارم مملوك من الممالك النورية يقال له سرخك^(١) ولأه بها الملك الصالح إسماعيل ، فامتنع من تسليمها إلى السلطان ، فقال له : « اطلب من الإقطاع ما أردت » ، ووعدته الإحسان ، فاشتط^(٥) في الطلب ، وترددت الرسائل بينهما ، وراسل الفرنج ليحتمى بهم ، فسمع من بها من الأجناد أنه يراسل الفرنج ، تخافوا أن يسلمها إليهم ، فوثبوا عليه وقبضوه وحبسوه ، وأرسلوا [إلى] السلطان يطالبون منه الأمان والإنعام ، فأجابهم [٢٥٠] إلى ما طلبوا ، وحلف لهم ،

(١) س : " فدا اليك "

(٢) س (١١٤٥) : " وفي ليل " .

(٣) س : " إلا " .

(٤) الأصل : " مرخاب " ، وفي س : " مرحاب " ، وما هنا عن : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٧) و (أبو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٧) و (شفاء القلوب ، ص ٢٨ ب) .

(٥) س : " واشترطت عليه في الطلب " .

ورحل من حلب إليهم لليلتين بقيتا من صفر ، فوصلها لليلة بقيت منه ، وبات بها ليلتين [بعد تسليمها] ^(١) ، وقرر قواعدها ، وولى فيها إبراهيم بن شرويه ، وعاد إلى حلب ، فدخلها ثالث ربيع الأول [وأخذ المملوك النورى المتولى فأطلقه من محبسه ، ولم يستخدمه ، ووفى للأجناد الذين كانوا بها بما وعدهم ، وزادهم] ^(١) ، ثم أعطى العساكر دستورا ، فسار كل منهم إلى بلده ، وأقام بحلب يقرر قواعدها .

وخاف أهل أنطاكية من السلطان ، فأرسل صاحبها جماعة من أسرى المسلمين ، وانقاد ، وسارع إلى الياذ بعفو السلطان وأمانه [فقبله السلطان] ^(١) .

وولى السلطان القضاء بحلب لمحى الدين بن زكى الدين ^(٢) ، واستتاب فيها زين الدين [أبا البيان] ^(٣) نبأ بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياس ، وكشف السلطان عن حلب المظالم ، وأزال المكوس ، وولى قلعتها سيف الدين يازكوج ، وجعل الملك بحلب لولده الظاهر غياث الدين إيلغازى بن يوسف — رحمهما الله — وكان قد استصحبه من مصر عند وصوله إلى الشام ، وأقر عين تاب على صاحبها ، وأعطى تل خالد وتل باشر للأمير بدر الدين دلدريم بن بهاء الدين ياروق ، وأعطى قلعة عزاز للأمير علم الدين سليمان بن جندر ^(٤) .

(١) عن ص .

(٢) الأصل : "زكى الدين" ، وما هنا عن ص (١١٤٥) ر (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٧) .

(٣) عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٧) .

(٤) الأصل : "حيدر" ، والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٧) . (١٢)

ذكر مسير السلطان من حلب إلى دمشق

ثم رحل السلطان من حلب يوم السبت لثمان بقين من ربيع الآخر من هذه السنة — أعني سنة تسع وسبعين وخمسمائة — فخرج إلى الوضيحي^(١) مبرزا ، واستنفض العساكر فخرجوا يتبعونه ، ثم وصل لست بقين من الشهر إلى حماة ، ثم إلى حمص ، ثم إلى بعلبك ، ووصل دمشق ثالث جمادى الأولى ، فأقام بها متأهبا إلى السابع والعشرين منه ، ثم برز إلى جسر الخشب ، وتبعته العساكر مبرزة فأقام به تسعة أيام ، ثم رحل ثامن جمادى الآخرة حتى أتى الفوار ، وتعبا للقاء الكفار .

ذكر غارة السلطان على الفرنج

ثم سار السلطان حتى أتى القصير ، فبات به وأصبح على المخاض ، وعبر وسار حتى أتى بيسان ، وقد أخلاها أهلها ، فأطلق المسلمون فيها النيران ، ونهبوا ما [كان قد تبقى]^(٢) فيها ، وكذلك فعل بأبراج^(٣) وقلاع وغيرها ، وصادفت مقدمة العسكر خيلا ورجلا للفرنج عابرين من نابلس ، ومقدمهم ابن هنقرى ، فقتل منهم وأسر ، وهرب الباقون [٢٥١] في الجبال .

وفي الحادى عشر من جمادى الآخرة بلغ السلطان اجتماع الفرنج بصفورية ، ورحيلهم إلى القولة ، وكان غرضه المصاف ، فلما سمع ذلك تهيأ لقتالهم ، وسرى للقائهم ، فجرى بينه وبينهم قتال ، وقتل من العدو جماعة وجرح جماعة ، وهم

(١) س : " إلى خان الأرضى " وما هنا يتفق مع (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٠) حيث ينقل

عن بهاء الدين بن شداد .

(٢) من س .

(٣) الأصل : " بانزاح " والتصحيح عن الروضتين .

ينضم بعضهم إلى بعض يحى راجلهم فارسهم ، ولم يخرجوا للصاف ، ولم يزالوا
سائرين حتى أتوا عين جالوت ، فتزاولوا عليها ، وهم ألف وخمسمائة ربح ، ومنهم تركي^(١)

(١) الأصل «بركتي» ، وس : «ركلي» بدون نقط ، والتصحيح عن : (الروضين ، ج ١ ، ص ١٨٣ ؛ ج ٢ ، ص ١٨٩) ؛ والتركي «Του κερπουλλοι» لفظة يونانية معناها أبناء أو سلالة الترك ، ودو مصطلح كان يطلقه البيزنطيون على فرقة من فرق جيشهم تلى في الأهمية فرقة الفرسان ، ويخدر أفرادها من أب تركي (أو عربي) وأم يونانية ، ويبدو أن البيزنطيين بعد اتصالهم بالأتراك السلاجقة وانهمامهم في وقعة «ملازكرد» كونوا هذه الفرقة من الفرسان التي تعتمد — تشبها بالأتراك — على الكر والفر والحرب السريعة ؛ هذا ولم يحاول أحد من مؤرخي العرب القدامى أو المحدثين تتبع تاريخ هذه الفرقة أو بيان أهميتها ، وقد بدا لي وأنا أتبع النصوص التي تذكر هذا المصطلح أن الصليبيين عند ما مروا بأراضي الدولة البيزنطية أثناء حملتهم الأولى اقتبسوا نظام هذه الفرقة وكونوا لأقسامهم فرقا كثيرة تحمل اسم «تركي» لعبت دورا كبيرا أثناء نضالهم مع المسلمين ، وأغرب من هذا أنني عثرت على نصوص تفيد أن الجيوش الإسلامية بدورها اقتبست هذا النظام وكونت فرقا في جيوشها تحمل اسم «تركي» راجع : (أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، نشر فيليب حتى ، ص ٥١) و (العقاد الأصفهاني : الفتح النسي ، طبعة لندن سنة ١٨٨٨ ، ص ٤٢٥) و (ابن الأثير : الكامل في مواضع كثيرة منه) و (Hitti : An Arab Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades New York, 1929, P. 42)

هذا وأقدم تعريف للفظ «تركي» ذكره : (Raymond d'Agiles : Historia Francorum : qui ceperunt Hierusalem. R.H.C. Hist. Occid III)

وقد ذكر هذا التعريف عند كلامه عن التركوبولي الموجودين في الدولة البيزنطية أثناء مرور الحملة الصليبية الأولى ببلاد البلقان ، قال : «Turcopoli vel de matre Christiana, patre turco procreantur»

ومعناها : «التركوبولي هم نتاج أم مسيحية وأب تركي» .

وعرفهم مؤرخ صليبي آخر هو (Albert d'Aix : Historia Hierosolymitana, R.H.C. Hist. Occid. IV. P. 434)

تعريفا مشابها فقال : (Turcopoli, ex Turco patre et graeca matre procreati) ومعناها أن التركوبولي نتاج أب تركي وأم يونانية .

وهذه التعريفات تشرح المصطلح من حيث اشتقاقه اللفظي وتوضح الأصول الجنسية لجنود هذه الفرقة ؛ وهناك تعريفات أخرى ذكرها مؤرخون صليبيون معاصرون تلقى ضوءا على طبيعة هذه الفرقة من الناحية الحربية ، منها نص ذكره وليم الصوري (Guillaume de Tyr : Historia Rerum in Paltibus Transmarinis Gestaruna, R.H.C. Hist. Occid. I P. 925).

ونحمة عشر ألف راجل ، فقتلوا وخندقوا عليهم^(١) ، ونزل^(٢) السلطان حولهم ، وأخرج^(٣) تعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف ، وهم لا يخرجون

= وذكر وليم الصوري هذا النص عند حديثه عن معركة قرب بليس بين عموري ملك بيت المقدس وأمسد الدين شيركوه ، قال (Erant praeterea nobis equites levis armaturae quos turcopolos vocant.)

وترجمة النص : « وكان يصحبنا جماعة من الفرسان المدرعون بالدروع الخفيفة ويسمون التركوبولي . » وقال نفس المؤلف في موضع آخر (ص ١٠٩٧) عند حديثه عن حوادث سنة ١١٨٢ في الشام : (Triginta sex levis Armaturae milites quos turcopolos appellant, interfecisse.)

وترجمتها : « وقتل في هذه المعركة ٣٦ فارسا مدرعون بالدروع الخفيفة ويسمون التركوبولي . » راجع كذلك : (Barker : Assises de Jerusalem (R. H. C. Lois). P. 612 — 613) : (The Crusades. P. 40)

ومن العجيب أن هذه الفرقة ظلت موجودة في جيوش الصليبيين والمسلمين إلى وقت متأخر ، فقد أثير إلى التركلي في نص الهدنة بين السلطان الملك المنصور قلاوون وفرنج عكا في خامس ربيع الأول سنة ٦٨٢ هـ فقد نص في هذه الهدنة على أن يقدم بديل عن كل قبيل : « فارس بفارس ، وتركلي بتركلي ، وتاجر بتاجر ، وراجل براجل ، وفلاح بفلاح... الخ » راجع نص الهدنة في : (ابن القرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١٤ ، ص ١٨٨ — ١٩٥ ، صور شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٣٢٩٧ تاريخ ، عن نسخة فينا) و(المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٩٩١ ، نشر الدكتور زيادة) ولاحظ أن الدكتور زيادة عند نشر هذه الوثيقة قرأ هذا المصطلح قراءة خاطئة ، فجعله « بركيلى » ، وفسره تفسيراً اجتهادياً ، فقال إنه يعنى رجل البحر المشرف على السفن .

(١) بهذا اللفظ تنهى (ص ١٤٥ ب) من نسخة س ، وبذلك تنقطع الصلة مرة أخرى بينها وبين النص الأصلي .

(٢) بهذا اللفظ تبدأ (ص ١٨٠) من نسخة س ، وبذلك يتصل النص في النسختين مرة أخرى .

(٣) في الأصل وفي س : « الجراح » وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٠) : « الجرح » ، والصحيح ما ذكرناه ، والجرح (Jarkh) مأخوذة عن الفارسية « تشرخ (Tcharkh) » — والجمع جروح — وهو نوع من القوس الرامى الذى ترمى عنه النشاب أو النقط ، هكذا تصفه النصوص وهكذا وصفه (Dozy : Suppl. Dict. Arab.) بأنه (Une arbalette avec laquelle on lançait, soit des flèches, soit le naphte) ، وقد ذكر (مرضى بن على : تبصرة أبواب الألباب ، ص ٦ — ٨) أربعة أنواع للقوس الرامى الذى يشبه المنجنيق ، وهى : قوس الزبار ، والقوس العقار ، والجرح ، وقوس الرجل . ويقال للذى يرمى عن قوسه السهام أو النقط : « الجرحى » ويقابله بالفرنسية (Arbalétrier) والجمع « الجرحية » . أنظر أيضاً (C. Cahen : Un Traité D'Armurerie Composé pour Saladin. Extrait du Bulletin d'Etudes Orientales. Damas, Tome XII. 1947 — 1948 p. 162.)

خوفا من المسلمين ، فاتترح السلطان عنهم ليرحلوا ، فيضرب معهم المصاف ، فرحلوا نحو الطور سابع عشر جمادى الآخرة ، فنزل تحت الخيل متقبا رحيلهم ، فرحل الفرنج راجعين على أعقابهم ، فرحل نحوهم وجرى من رمى النشاب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة ، فلم يخرجوا ، ولم يزل السلطان — رحمه الله — خولهم حتى نزلوا القولة راجعين إلى بلادهم ، فعاد السلطان وقد نال منهم قتلا وأسرا وحرب كقر بلا^(١) ، ويسان ، وزرعين وقرى عدة ، ونزل الفوار ، وأعطى الناس دستورا ، فسار من آثار المسير ، وسار هو إلى دمشق ، فوصلها يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة .

ذكر منازلة السلطان الكرك

ثم سار السلطان إلى الكرك في رجب من هذه السنة — أعني سنة تسع وسبعين وخمسمائة — وحاز^(٢) في طريقه قبل الوصول إليها غنائم ، وخيم على الربة^(٣) ثم وصل الكرك فحاصره ورماه بالمجانيق صباحا ومساء ، وتناوب عليه الأمراء حتى خرج شهر رجب وما حصل على مطلوب ، لكنه أكثر النكاية في العدو بأخذ أموالهم وتخريب ديارهم ، ووصله الخبر أن الفرنج قد اجتمعوا بالواله على قصد المسلمين وتخليص الكرك ، ورأى السلطان أن أمر الكرك يطول ، فعول على الرحيل إلى دمشق .

(١) الأصل : "عقربلا" وما هنا عن الروضتين .

(٢) الأصل : "جاز" والتصحيح عن "س" (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥١) .

(٣) الأصل : "والدة" وما هنا عن الروضتين .

ذكر استنابة السلطان الملك الناصر

لابن أخيه الملك المظفر تقي الدين بمصر وتمليك أخيه الملك العادل حلب

١١٠٠ ملك السلطان [صلاح الدين] (١) حلب كاتبه أخوه الملك العادل (٢) — وهو ينوب عنه بمصر — يطلبها منه مع أعمالها ، [٢٥٢] ويدع الديار المصرية ، فكتب إليه السلطان يأمره أن يوافيه بالكرك ، فإنه سائر إلى فتحه . وأشار القاضي الفاضل على السلطان أن يستنيب بالديار المصرية — موضع الملك العادل — الملك المظفر تقي الدين ، فاستصحبه السلطان معه إلى (٣) الكرك ، ووصل الملك العادل إلى السلطان وهو بالكرك ، بفهمز [السلطان] (٤) الملك المظفر إلى مصر نائباً ، وقوى عضده بصحبة القاضي الفاضل ، وأنعم على الملك المظفر بالأعمال الفيومية وسائر نواحيها بجميع جهاتها وجواليها (٥) ، وزاده القبايات (٦) وبوش وأبقى عليه بالشام حماة وجميع أعمالها .

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (١٨٠) .

(٢) روى (ابن أبي طي) — وهو مؤرخ حلب — (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٢) تفصيلات هامة عن رغبة العادل في ولاية حلب وكيف حقق له صلاح الدين هذه الرغبة ، فانظرها هناك .

(٣) الأصل : ” على “ والتصحيح عن ص .

(٤) ما بين الحاصرتين عن ص (١٨٠) .

(٥) في الأصل وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٣) : ” وحواليها “ ولا معنى لها ، والتصحيح ما ذكرناه هنا ، والمقصود بالحوالي ضريبة الجزية المفروضة على أهل الامة .

(٦) في الأصل : ” القبايات وقوس “ وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٣) : ” القبايات وبوش “ ، والأرجح أن تكون ” القبايات وبوش “ فقد كانتا تعتبران حتى العصر المملوكي من ” الأعمال الفيومية “ انظر : (ابن الجيعان : التحفة السنية ، ص ١٦٢ و ١٦٥) ، وقد ذكر ابن أبي طي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٣) أن السلطان أقطع تقي الدين ” الاسكندرية ودمايط ، وجعل لخاصته البحيرة والقيوم وبوش ، ثم عوضه عن بوش بمنود وحواف دمسيس “ .

وسار السلطان إلى دمشق ومحبته أخوه الملك العادل، فوصل إلى دمشق لست بقين من شعبان من هذه السنة، وأعطى أخاه الملك العادل حلب ثاني شهر رمضان، فسار إليها، وصعد قلعتها يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان وبها الملك الظاهر غازي، وسيف الدين باركوج^(١) وكان الملك الظاهر — رحمه الله — من أحب الأولاد للسلطان، لما خُصَّ به من الشهامة والفطنة والعقل وحسن السمات والشفقة بالملك، وكان أبر الناس بوالده وأطوعهم له، فلما دخل عمه الملك العادل إلى حلب خرج هو وسيف الدين باركوج^(١) سائرين إلى خدمة السلطان، فدخلوا دمشق يوم الاثنين ثامن عشر شوال، فأقام [في] ^(٢) خدمة والده لا يظهر له إلا الطاعة والانقياد مع انكسار في باطنه لا يخفى عن نظر والده.

ذكر قبض

عن الدين — صاحب الموصل — على نائبه مجاهد الدين قايمآز

^(٣) كان التدبير بالموصل مفوضا إلى مجاهد الدين قايمآز^٣، وكان إليه أمر إربل وبلادها، وفيها زين الدين يوسف بن زين الدين علي كويك بن بكتكين، وهو صغير السن لاحكم له، وتحت حكمه أيضا معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، وهو أيضا صبي، والحكم والنواب لمجاهد الدين قايمآز، ويده أيضا شهرزور وأعمالها، ونوابه فيها، ودقوقا ونائبه فيها، وقلعة عقر الحميدية ونائبه فيها، فأشار عن الدين محمود زلقندار،

(١) كذا في الأصل، وفي الرضتين: "باركوج".

(٢) عن "مس" ص ٨٠ ب.

(٣) هذه الجملة غير موجودة في مس.

وشرف الدين أحمد بن أبي الخير المعروف والده بصاحب الغراف^(١) — وهما من أكابر الأمراء — على عز الدين بالقبض عليه^(٢) [٢٥٣] وفعلا في ذلك خلاف المصلحة ، فإن الأمور كانت به منتظمة ، والبلاد التي ذكرناها كلها في الطاعة ، فلما أراد القبض عليه لم يقدم على ذلك لقوة مجاهد الدين ، فأظهر أنه مريض ، وانقطع عن الركوب عدة أيام ، فدخل عليه مجاهد الدين [قيام]^(٣) وحده ، وكان خصيا لا يمتنع من الدخول على النساء ، فلما دخل قبض عليه ، وركب لوقته إلى القلعة ، واحتوى على الأموال التي لمجاهد الدين [قيام]^(٣) ونخائنه ، وولى زلقندار قلعة الموصل ، وجعل ابن صاحب الغراف^(٤) أمير حاجب ، وحكهما في دولته ، ولم يحصل لعز الدين من البلاد التي بيد مجاهد [الدين قيام]^(٣) سوى شهرزور والعقر ، فأما زين الدين يوسف فامتنع بإربل ، وامتنع أيضا معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي — صاحب الجزيرة — وراسلا السلطان بالطاعة له والركوب^(٥) في خدمته [فأجابهما إلى ذلك]^(٣) وأرسل الإمام الناصر لدين الله إلى دقوقا فحصرها وأخذها .

(١) الأصل : "صاحب العراق" وما هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٨٨) وهو المرجع الذي ينقل عنه المؤلف هنا ، وقد نقل صاحب الروضتين (ج ٢ ، ص ٥٤) هذا النص وشدد الراء .

(٢) في ص (١٨١) : "على قيام" .

(٣) ما بين الحاصرتين عن ص .

(٤) الأصل : "صاحب العراق" ، وما هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٨٨) وهو المرجع الذي ينقل المؤلف هنا ، وقد نقل صاحب الروضتين (ج ٢ ، ص ٥٤) هذا النص وشدد الراء .

(٥) الأصل : "الكون" والتصحيح عن ص .

ذكر ورود رسل الديوان العزيز^(١)

إلى السلطان في الصلح بينه وبين صاحب الموصل

وأرسل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي إلى الإمام الناصر لدين الله يسأل منه إنفاذ شيخ الشيوخ صدر الدين رسولاً وشفيعاً إلى السلطان ليسيره إليه ، ويسير شهاب الدين بشير^(٢) الخادم ، [ففعل ذلك]^(٣) ، فلما وصلا إلى الموصل أرسل عز الدين معهما القاضي محي الدين أبا حامد بن القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري ، وسافر^(٤) في صحبتهما القاضي بهاء الدين بن شداد ، فخرج السلطان إلى لقاء رسل الخليفة ، فأنزل شيخ الشيوخ^(٥) بالرباط على المنيع ، والقاضي محي الدين في جوسق بستان الخلل^(٦) [ومعه القاضي بهاء الدين]^(٧) ، وشهاب الدين بشير بجوسق الميدان ، فأقاموا أياماً يراجعون في فصل أمر الصلح فلم يتفق ، وحصل من القاضي محي الدين ترفع في أداء الرسالة ، وغلظ^(٨) في الكلام ، فالان له السلطان ، وقال :

(١) س : " الرسل إلى السلطان " .

(٢) س (١٨١) : " ويسير الخادم " دون ذكر الاسم .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٤) س : " وسير أيضاً في صحبتهما " .

(٥) الأصل : " الشيخ " وما هنا عن س والروضتين .

(٦) هذه الكلمة غير موجودة في س .

(٧) ما بين الحاصرتين عن س (١٨١)

(٨) س : " وغلظ " .

”إنما^(١) أقضى حاجته على ما أراد ، ولكن قد سبق مني يمين لأولئك السلاطين ، وأنا استثنيتهم^(٢) وأردتهم إلى اختيارهم لى أوله “ — يعنى صاحب إربل وصاحب الجزيرة —

فامتنع محي الدين ، وقال :

” لا بد من ذكرهما فى النسخة “ .

وأراد أن تكون الصداقة لمخدومه [٢٥٤] عز الدين دون سائر [ذوى]^(٣) الممالك ، وأشار فى كلامه إلى أن لهم^(٤) من ينصرهم من جهة البهلوان بن ايلدكز ملك العجم ، فعط ذلك على السلطان ، وكان ذلك محر كاله إلى أن يعود إلى الموصل .

ورجعت الرسل من غير ظفر بطائل ، وكان رجوعهم يوم الخميس سابع ذى الحجة من هذه السنة .

وأقام السلطان بدمشق ، والرسل ترد إليه من الجوانب ، فوصله رسول معز الدين سنجر شاه صاحب الجزيرة ، واستخلفه^(٥) لنفسه وانتمى إليه ، ورسل إربل [أيضا] وحلف لهم ، ووصل إلى السلطان أخوه الملك المعادل سيف الدين صاحب حلب يوم الاثنين رابع^(٦) ذى الحجة ،^(٧) فأقام عنده^(٧) ، وعيّد وعاد إلى حلب .

(١) س : ” أنا “ .

(٢) الأصل : ” استعنيهم “ وما هنا عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٤) .

(٣) ما بين الحاصرتين عن الروضتين ، وهو الأصل المفقول عنه .

(٤) س : ” لصاحب الموصل من ينصره “ .

(٥) الأصل : ” واستخلفه “ والتصحيح عن س .

(٦) س : ” تاسع “ .

(٧) هذان اللفظان ساقطان من س .

ودخلت سنة ثمانين وخمسمائة والسلطان — رحمه الله — بدمشق ، وقد انصرم
البرد [وطار البرد]^(١) وطاب الزمان ، وأرسل إلى [ملوك] الأطراف يطلب
العساكر ، فجاءه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر من الديار المصرية^(٢) بالعساكر
المصرية^(٢) وصحبته القاضي الفاضل ، وجاءه أخوه الملك العادل من حلب بعسكره ،
وجاءته العساكر المشرقية ، وجاء نور الدين [بن قرا أرسلان] صاحب الحصن
وآمد ، واجتمعت العساكر برأس الماء ، فأشفق السلطان على نور الدين —
صاحب الحصن — من اقتحام المشاق ، فأقامه برأس الماء إلى حين العود ،
وأمر الملك العادل بالإقامة معه .

ذكر منازلة السلطان الكرك

ثم سار السلطان^(٣) إلى الكرك ونازلها ونزل بواديها ، وذلك لأربع عشرة ليلة
مضت من جمادى الأولى من هذه السنة — أعنى سنة ثمانين وخمسمائة — ،
ونصب عليها تسعة مجانيق صفا قدام الباب ، فهدمت السور المقابل لها ،
ولم يبق مانع إلا الخندق الواسع العميق ، وهو من الأودية الهائلة ، ولم يكن
من الحيلة إلا هدمه وردمه بكل ممكن ، فعُدَّ ذلك من الأمور الصعاب ، فأمر
السلطان بضرب اللبن وجمع الأخشاب وبناء الحيطان المقابلة من الربض
إلى الخندق وتسقيفها وتلقيق ستائر^(٤)ها^(٤) فتحت^(٥) دروبا واسعة لا يزحم فيها

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (٨١ ب) .

(٢) هذان اللفظان ساقتان من ص .

(٣) تنقطع الصلة عند هذا اللفظ ثانية بين الأصل ونسخة ص .

(٤) الأصل : ” شيا من برها “ ولا معنى لها ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص

٥٦) وهو الأصل المتقول عنه هنا .

(٥) الأصل : ” فقيت “ ، والتصحيح عن العماد (المرجع السابق) .

الجاني الذاهب ، واجتمع رجال العسكر على نقل ما يرمى في الخندق ، فهان
[٢٥٥] طم الخندق بالدبابات^(١) التي قدمت ، ونقب الأسراب وإحكامها ،
فوجد الناس إلى الخندق طريقا واسعا مهيعا ، فهم يزدحمون^(٢) آمنين من الجراح
والناس تحت^(٣) القاعة على شفير الخندق لا يستثمرون حذرا ولا يخافون وقع
الحجارة والسهام ، وامتلأ الخندق حتى أن أسيرا مقيدا رمى بنفسه من السور
ونجا بعد ما توالى من الفرنج رمى الحجارة عليه .

ولما رأى الفرنج الذين بالكرك ما قد دهمهم من السلطان ، وخافوا أن يملكه ،
كاتبوا ملوكهم وفرسانهم يستنجدونهم ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ
الحصن ، فسارت الفرنج في حدهم وحديدتهم ، ونزلوا بالواله ، وهى مواضع
صعبة ضيقة المسالك ، فسار السلطان حتى نزل البلقاء على قرية يقال لها حسيان ،
ثم رحل منها إلى ماء عين ، والفرنج مقيمون بالواله ، فأقام أياما^(٤) ينتظر
خروجهم من المكان الذين هم به ليتمكن منهم ، فلم يرحوا منه خوفا على أنفسهم
فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراعخ ، وجعل بإزائهم من يعلمه بمسيرهم ،
فساروا ليلا إلى الكرك ، فلما علم السلطان ذلك علم أنه لا يتمكن منهم حينئذ
ولا يبلغ غرضه .

ذكر إحراق نابلس وتخريبها

كان رحيل الفرنج إلى الكرك لأربع بقين من جمادى الآخرة ، فلما قصدوا
الكرك عزم السلطان على قصد الساحل لخلوه من العساكر ، فسار إلى نابلس

(١) الأصل : " الطم بالدبابات " والتصحيح عن العماد (المرجع السابق) .

(٢) الأصل : " لا يزدحمون " والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) الروضتين : " بحب القلعة " .

(٤) الأصل : " أيام " .

ونهب كل ما على طريقه من البلاد ، ولما وصل إلى نابلس أحرقها ونهبها وقتل من فيها وأسر وسبها فأكثرت ، ثم سار عنها إلى سَبَسْطِيَّة^(١) — وبها مسجد زكريا عليه السلام وبها كنيسة — وفيها جماعة من أسرى المسلمين فاستنقذهم ، ورحل إلى جينين^(٢) فنهبا ونحربها ، وعاد إلى دمشق ؛ ونهب ما على طريقه ونحربه ، وبث السرايا يمينا وشمالا ينهبون ويخربون .

ومن كتاب لعناد الدين الكاتب يصف فيه صورة حصار الكرك :

” فصل : ولولا الخندق المانع من الإرادة ، وأنه ليس من الخنادق المعتادة^(٣) ، بل هو وادٍ من الأودية ، واسع الأفنية ، لسهل المشرع ؛ وهجم الموضع ، فلم يبق إلا تدبير طم الخندق ؛ والأخذ بعد ذلك من العدو بالمخفق ، فعملنا دبابات قدمناها ، وبنينا^(٤) إلى شفير الخندق ثلاثة أسراب [٢٥٦] باللبن سقفناها وأحكنناها ؛ فصارت منها إلى طرف الخندق طرق آمنة ، وشرع الناس في طم الخندق منها ونفوسهم مطمئنة ، وقلوبهم ساكنة ، وكان الشروع فيه يوم الخميس سابع جمادى الأولى ، وقد تسنى طمها ، ونهبا^(٥) ردمه ، وتسارع الناس إليه ، وازدحموا عليه ، ولم يبق صغير ولا كبير إلا وهو مستبشر بالعمل ، متظر لبشرى نُجَح الأمل ، قد تحاشدوا^(٦) حتى ازدحموا على تلك القلعة نهارا

(١) الأصل : ” سنسطة “ ، والتصحيح عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٩١)

وقد ضبطها (ياقوت : معجم البلدان) وقال لأنها بلدة من نواحي فلسطين ، بينها وبين البيت المقدس يومان ، وبها قبر زكريا ويحيى عليهما السلام وجماعة من الأنبياء والصديقين ، وهي من أعمال نابلس .

(٢) الأصل : ” جيلين “ والتصحيح عن ابن الأثير .

(٣) الأصل : ” المادة “ والتصحيح عن : (الرضتين ، ج ٢ ، ص ٥٦) .

(٤) الأصل : ” وتنبا “ والتصحيح عن المرجع السابق ذكره .

(٥) الأصل : ” ونمس “ ، والتصحيح عن الرضتين .

(٦) كذا في الأصل ، وفي الرضتين : ” تجاسروا “ .

كازدحامهم^(١) في المصلى يوم العيد ، وليلا كحضورهم في جامع دمشق ليلة النصف
السعيد ، وهم بحمد الله من الجراح سالمون ، وبنصر الله موقنون عالمون ، وإن أبطأ
العدو عن النجدة فالنصر سريع ، والحصن ومن فيه صديق ، وقد خرقت الحجارة حجابها
وقطعت بهم أسبابه ، وناولته من الأجل كتابه ، وحسرت لثام سوره ، وحلّت
نقابها ، فأناف الأبراج مجذوعة ، وثنايا الشرفات مقلوعة ، ورؤوس الأبدان
مجزوزة ، وحروف العوامل مهموزة ، وبطون السقوف مبقورة^(٢) ، وأعضاء
الأساقف معقورة ، ووجوه الجُدُر^(٣) مسلوخة ، وجلود البواشير^(٤) مبدشورة^(٥)
والنصر أشهر من نار على علم ، والحرب أقوم من ساق على قدم .

ومدح القاضي السعيد بن سناء الملك^(٦) السلطان بقصيدة يهنبه بها بعد انصرافه
عن الكرك وفتح نابلس ، وأولها :

وَصَدُّكَ وَاللَّاحِ يَعَانِدُ بِالْعَدْلِ ، فَكُنْتَ أَبَا ذِرٍّ ، وَكَانَ أَبَا جَهْلٍ
لَهُ شَاهِدَا زَوْرٍ مِنَ النَّهْيِ وَالنَّهْيِ عَلَيْكَ ، وَمِنْ عَيْنِكَ لَمْ شَاهِدَا عَدْلٍ

ومنها :

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مِثْلِي فَلَانَهُ يَعِيشُ بِلَا حَبٍّ^(٧) ، وَمِثْلِي بَلْ خَلَّ
وَمَنْ كَانَ فِي هَذَا الْوَرَى مِثْلِي يُوسِفُ وَمَنْ أَيْنَ هَذَا الْمِثْلُ ؟ كَانَ بَلَا مِثْلٍ

(١) الأصل : "لازدحامهم" والتصحيح عن الرضتين .

(٢) الأصل : «مبقورة» والتصحيح عن الرضتين .

(٣) الأصل : «الجُدُر» والتصحيح عن الرضتين .

(٤) أنظر ما فات هنا ص ٨١ ، هامش ١

(٥) في (الرضتين ، ج ٢ ، ص ٥٦) ، «منسورة»

(٦) أنظر ما فات هنا ص ١٣٧ ، هامش ٣

(٧) ديوان ابن سناء الملك (مخطوطة دار الكتب المصرية ، ٩٣١ ، أدب) : «بلا صبر» .

تمخر^(١) له الأملاك ذلاً وإنما
أعاديهِ من غلمانهِ في بلادهم
وأنفسهم عارية منه عندهم
إذا راسل الأعداء يوماً فإنما^(٢)
[٢٥٧] له صارم يشفى به الدين صدره
تغيب^(٣) عنا سيفه^(٤) بنجيعة ،
يعز إذا نحرث لديه من الذل
يصرفهم بين الولاية والعز
متى ما أراد استرجعتها يد القتل
كثائبه كالكتب ، والحيل كالرسل
وينجز وعد النصر منه بلا مطل
فما تملأ سيفه حلية^(٥) الصقل

ومنها :

وما خالفتك الجرد قط ، وإنها
وأرجلها لو قطعت كسرت بمن
جنا أهل تلك القلعة الشر إذا رأوا
غدا بعلها الإبرنس يلعن عرسه
وقد رجمتها المنجنيقات إذ زنت
وصبحت أخرى صبحتك بأهلها
فنايلس لما أقت برئمتها
أحسوا بطل الخويف ، بفاءهم
لتلحق من عاديته وهى فى الشكل
عليها لهم ، والصلى يسعى بلا رجل
هواديا كالباقيات من النخل
بها ، وهى لا تنفك من لعنة البعل
هناك بشيخ كافر جاهل رذل^(٦)
ومستك إذ مشيت وهى بلا أهل
أقامت لهم حق الضيافة والنزل
ربيع من النيل المسدد بالوئيل

-
- (١) الأصل : « تمخر » والتصحيح عن الديوان .
(٢) الأصل : « كأنما » والتصحيح عن الديوان .
(٣) الأصل : « يغيب » ، والتصحيح عن الديوان .
(٤) الأصل : « لونه » ، والتصحيح عن الديوان .
(٥) الأصل : « بحليه » ، والتصحيح عن الديوان .
(٦) نص الشطرة الثانية فى الأصل : « بشيخ لعين كافر جهل نذل » ، والتصحيح عن الديوان .

ولم أر أرضاً جادها الغيثُ قبلها،
وما شَرَقُوا بالماءِ والرنقِ إذ رأوا
ولم يبقَ إلا من سبا الجيشِ منهم،
عذارى أسارى كُتِلَتْ بشعورها،
وقد شُفِلَتْ عن أدمها بأسارها،
يُكَبَّرُ فيها الله بالجوامِجِ الذي
وَصَلَّتْ فيها جُمُعَةٌ وجماعةٌ،
وعدتَ بفضلِ الله للخلقِ سالماً،
وتصبَّح تشكو بعده غلَّةَ الخيلِ
جيوشك، لكن بالفوارسِ والرجلِ
وإن كان يسبي الجيشُ بالحدقِ النجلِ
بفرحها في الساقِ والمعصمِ العنبلِ
وأنت بحمد الله في أشغلِ الشغلِ
جمعت به بين الفريضةِ والنقلِ
يناديك الإسلامُ: يا جامعَ الشملِ
وأى زمانٍ لم تعد فيه بالفضلِ

ولما وصل السلطان إلى دمشق وجد بها رسل الخليفة الإمام الناصر لدين الله
— أمير المؤمنين — وهما : الشيخ صدر الدين عبدالرحيم بن إسماعيل بن أبي سعيد
أحمد ، وبشير الخادم ، وكانا قد وصلا إلى دمشق والسلطان محاصر الكرك ،
فمرضا بدمشق ، ومات جماعة من أصحابهما ، وكان الشيخ نازلاً بالمنيع [٢٥٨]
وكان السلطان يعود في كل يوم ؛ وكان قدومهما في معنى تقرير الصلح
بين السلطان وبين عز الدين مسعود — صاحب الموصل — ، فلم يتقرر أمر ،
فاستأذنوا في العود إلى بغداد قبل الشتاء ، فأذن لهم فعادوا ، فمات بشير الخادم
بالسخنة ، ومات صدر الدين ^(٣) بالرجبة ، وكان صالحاً زاهداً ، فدفن بمشهد

(٢) الأصل : « مسي » ؛ والتصحيح عن الديوان .

(١) النص بالديوان : « بالداق » .

(٣) هو عبدالرحيم بن إسماعيل بن أبي سعد أحمد بن محمد النيسابوري ، ولد سنة ٥٥٠ هـ ، وقال صاحب
(الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٧) في ترجمته — نقلاً عن ابن القادسي — : كان شيخاً طائلاً في العلم
والدين والسخاء ، نابت الجنان في الحوادث المزبجة والوقائع الباغية الملجلة ، سديد البديهة ، صافي
الفكرة ، جمع بين نظم الشعروثر الترحل ، وكان يرسل إلى الأطراف ، ورتب في مشيخة الشيوخ منذ
توفي والده في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين ونعمسائة ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي ، وتولى بعده
مشيخة الرباط صفي الدين إسماعيل ، أنظر أيضاً (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٩٧) .

البوق^(١) ولم يستعمل في مرضه هذا دواء توكلأ على الله تعالى ، وكان مولده سنة ثمان وخمسة مائة .

ثم خرج السلطان من دمشق في شعبان من هذه السنة ، وخيم على سبعين ، وأمر ابن أخيه الملك المنظر أن يرجع بالعسكر إلى مصر ، فسار في منتصف الشهر ثم رجع السلطان إلى دمشق فصام بها شهر رمضان ، وزجج كل عسكر إلى بلده .

وكانت رسل الخليفة لما قدموا على السلطان أفاضوا عليه الخلع ، فلبسها وألبس أخاه الملك العادل وابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه خلعا جاءت لهم ، ثم خلع السلطان خلعة الخليفة على نور الدين قرا أرسلان — صاحب الحصن — ، وأعطاه دستورا ، فسار إلى بلاده .

وفي هذه السنة — أعني سنة ثمانين وخمسة مائة — كتب السلطان لزين الدين يوسف بن زين الدين على كوجك منشورا بإربل ومايجرى معها من البلاد والقلاع ، وذلك لما انفرد زين الدين عن صاحب الموصل واعتزى إلى السلطان ، ومن جملة المنشور :

« أن الله لما مكن لنا في الأرض ، ووفقنا في إعزاز الحق وإظهاره لأداء الفرض ، رأينا أن تقدم فرض الجهاد في سبيل الله فنوضح سبيله ، ونقبل على إعلاء الدين وتنصر قبيله ، وندعو أولياء الله من بلاد الإسلام إلى غزو أعدائه ، ونجمع كلمتهم في رفع كلمته العليا [في أرضه]^(٢) على استئزال نصره^(٣) من سمائه ، فمن ساعدنا على أداء هذه الفريضة ، واقتناء [هذه]^(٢) الفضيلة ،

(١) كذا بالأصل ، والذي ذكره ابن القادسي (المرجع السابق) أن صدر الدين توفي في رجب برجة مالك بن طوق ، ودفن في قبة إلى جنب قبر الشيخ موفق الدين محمد بن المتقن الرحبي .

(٢) ما بين الحاصرتين عن نص المنشور الوارد في (الرضنين ، ج ٢ ، ص ٦٠) .

(٣) في الرضنين : « نصر » .

يحظى من عوارفتنا الجزيلة بحسن الصنيعة ونجح الوسيلة ، ومن أخلد إلى الأرض
واتبع دواه ، وأعرض عن حق دينه بالإقبال على باطل دنياه ، فإن تاب ^(١)
ورجع قبلناه ، وإن أصر على غوايته أزلنا يده وعزلناه ” .

وعين له في المنشور إربل وقلعتها وأعمالها جميع ما قطعه الزاب الكبير :
شهرزور ^(٢) وأعمالها ، معاش ^(٣) بنى قفجاق ، ومعاش بيت القرايلي ، الدست
والرزارية .

[٢٥٩] ووصلت رسل زين الدين إلى السلطان تخبره أن عسكر الموصل
وعسكر قزل — صاحب العجم — نازلوا إربل مع مجاهد الدين قايماز ،
وأنهم نهبوا وأحرقوا ، وأنه نصر عليهم وكسرهم ، فكان ذلك مما حرك السلطان
على التوجه إلى الموصل لحصارها .

ذكر مسير السلطان إلى البلاد الشرقية

ثم سار السلطان من دمشق وتقدم إلى العساكر فتبعته ، وسار على طريق
المغار ويبوس ^(٤) البقاع وبعلبك ، ثم ساروا إلى حمص ثم إلى حماة ، وأقام القاضي
الفاضل بدمشق ، وأقام السلطان بحماة إلى أن خرجت السنة .

(١) النص في الروضتين : « فإن أتاب قبلناه » .

(٢) في الروضتين : « شهرزور » .

(٣) الأصل : « بنفائيس » ، وما هنا عن الروضتين .

(٤) الأصل : « المغاروسوس البقاع » ، وما هنا عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٠) .

وفي هذه السنة توفي قطب الدين إيلغازي بن نجم الدين ألبى بن حسام الدين
نمر تاش بن إيلغازي بن أرتق ، وملك بعده ولده حسام الدين [يولق أرسلان] ^(١)
فقام بتدبير أمره نظام الدين ألبقش مملوك والده .

ودخلت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة والسلطان بجامة ، ثم سار منها إلى حلب ،
فالتقاه أخوه الملك العادل صاحبها ، واجتمعت العساكر بها ، ثم سار السلطان منها
في صفر ، وقطع الفرات ، وأقام العسكر ثلاثة أيام للعبور ، ثم وصل حرّان
— وصاحبها مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك — وكان قد التقاه
باليرة ، وكان يرأس السلطان في كل وقت ، ويشير عليه بقصد الموصل ،
ويقوى طمعه في ذلك ، حتى أنه بذل له خمسين ألف دينار ، وأن يقوم بكل
ما يحتاج إليه من النفقات والغرامات ، فلما وصل السلطان إلى حرّان لم يرف له
بما بذل من المال ، فأنكر ذلك وارتاب به ، وظن أن ميله إلى أصحاب الموصل ،
ووشى الأعداء به ، وذكروا أن نيته قد تغيرت ، فخلف للسلطان أنه لم يتغير
وأن ما التزمه الرسول لم يكن بأمره ، فقبض السلطان عليه ليتبين أمره ، وشاور
فيه أصحابه ، فأشار بعضهم باتلافه ، وبعضهم باستبقائه ، فعفا ^(٢) السلطان عنه
على أن يسلم إليه قلعتي الرها وحرّان ، ففعل ذلك وهو مسرور ببقاء نفسه ،
ثم رضى عنه بعد ذلك ، وأعيدت له القلعتان في آخر السنة لما حقق براءته .

ثم رحل السلطان من حرّان في ثاني ربيع الأول من السنة إلى رأس عين ،
ووصل في ذلك اليوم رسول الملك قايج أرسلان بن مسعود — صاحب بلاد
الروم — يخبره أن ملوك الشرق [٢٦٠] بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصده

(١) الأصل : « حسام الدين يرتق » وقد صحح الاسم بعد مراجعة (زامباور : معجم الأنساب ،
الترجمة العربية ، ص ٣٤٥) ؛ وقد كان لقب الدين إيلغازي المتوفى ولدان صغيران هما : حسام الدين
يولق أرسلان ، وناصر الدين أرتق أرسلان ، وقد وليا الحكم الواحد بعد الآخر ، ولكنها كانت تحت
سيطرة نظام الدين ألبقش ، الذي اغتاله ناصر الدين أرتق أرسلان في سنة ٦٠١ هـ .

(٢) الأصل : « فعفى » .

إن لم يعد عن الموصل وماردين ، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصرَّ على ذلك ، فرحل السلطان إلى دُنَيْسَر ، فوصلها ثامن ربيع الأول عماد الدين قرا أرسلان ، ومعه عسكر أخيه نور الدين — صاحب آمد والحصن — فالتقاهم السلطان واحترمهما وأكرمهما ، ثم رحل طالبا^(١) الموصل فوصل إلى نصيبين ، وجاءه معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود ابن زنكي — صاحب الجزيرة — فأكرمه السلطان ، ثم سار من أقرب الطرق من دجلة ، وتَنَكَّب طريق الدولة ، فنزل على بلد آخر ربيع الأول ، ثم توجه إلى الموصل ، وخيم على الإسماعيليات .

وقدم عليه زين الدين يوسف — صاحب إربل — فأرسل السلطان — وهو على بلد قبل نزوله الإسماعيليات — القاضي ضياء الدين أبا الفضائل القسم ابن يحيى بن عبد الله بن الشهرزوري إلى الخليفة بما عزم عليه من حصر الموصل ، وذكر أن أهلها يخطبون لسلطان العجم ، وينقشون السكة باسمه ، وأنهم يرسلون الفرنج ، ويفرونهم على قصد بلاد المسلمين ، وأنه لم يأت لأجل الزيادة في الملك ولا لقلع البيت القديم وقطع أصله ، وإنما مقصوده ردهم إلى طاعة الخليفة ونصرة الإسلام ، وردّهم عما اعتادوه من الظلم واستحلال المحارم ، وقطعهم عن مواصلة العجم ، وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ البحار وصلة الرحم ، فهذا صاحب الجزيرة وهو ابن أخي صاحب الموصل عز الدين ولي عهد أبيه لم يرع فيه ذمة أخيه ، وأبعده عما يستحقه بالإرث ، وقطع رحمه وأخافه ، ولو تمكن منه لأهلكه ، ولولا خوفه منه لما أفضى [إلى]^(٢) هذا المقام ،

(١) الأصل : « طالب » .

(٢) ينقل المؤلف هنا عن العماد مع تغيير طفيف ، والنص عند العماد (الروضتين ، ج ٢٢ ص ٦٢) ، « ... لما التجأ إلى هذا الجانب ، ولما اختار الأجانب على الأقارب ، وهذا صاحب إربل جار الموصل أبوه زين الدين على ... الخ » .

وما اختار البعيد على القريب ، وصاحب إربل جارهم ، وأبوه زين الدين هو
بيتهم ، وشيّد أمرهم ، وهو يشكو جوارهم في حقه وظلمهم له ؛ وذكر أيضا
الذي حفظ خوف صاحب الحديثة وصاحب تكريت منهم .

ذكر منازلة السلطان الموصل

وهي المنازلة الثانية

ولما خيم السلطان بالإسماعيليات شرع في إقطاع البلاد للجنود ، وسير الأمير
سيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري ومعه الأمراء من عشيرته إلى بلد
الهكارية ، وأرسل جماعة من الأمراء الحميدية إلى العقرو وأعمالها لافتتاح قلاعها ،
وأمر بنصب الجسر ، [٢٦١] وعبر مظفر الدين بن زين الدين وغيره من الأمراء ،
وخيموا بالجانب الغربي .

وكان الحر إذ ذاك شديدا ، فأمر السلطان بالكف عن القتال إلى أن يطيب
الزمان ، وتقدم بتحويل دجلة ، وكان مأوها قد قل ، وذكر من له خبرة ونظر
في علم الهندسة أنه يمكن سدها وسكرها ونقلها وتحويلها إلى دجلة نينوى ،
ويعطش أهل الموصل^(١) إذا انقطع الماء عنها ، فلا يبقى إلا تسليمها ، وكان
أهل الموصل يعبرون إلى الجانب الشرقي فيقاتلون العسكر ثم يعودون .

(١) ذكر العماد (الروضين، ج ٢ ، ص ٦٢) أن هذا الرأي عرض على أحد المهندسين المعاصرين
فأقره ووافق عليه ، أما هذا المهندس فهو «الفقيه العالم نضر الدين أبو شجاع بن الدهان البغدادي ،
وكان مهندس زمانه» ؛ ونقل صاحب الروضين (ج ٢ ، ص ٦٢) فقرة من رسالة بقلم العماد أرسلت
إلى الديوان العزيز تشير إلى هذا الموضوع ، ونصها : «وذكر المهندسون من أهل الخبرة أنه يسهل
تحويل دجلة الموصل عنها بحيث يبعد مستقى الماء منها ، وحينئذ يضطر أهلها إلى تسليمها بغير قتال ،
ولا حصول ضرر في تضيق ولا تزال» .

وبلغ عز الدين صاحب الموصل أن نائبه بالقلعة زلقندار يكتب السلطان ،
فمنعه من الصعود إلى القلعة ، وعاد إلى الاقتداء برأى مجاهد الدين والصدور
عن رأيه ، وأقام السلطان بالموصل إلى آخر ربيع الآخر من هذه السنة ١٠٠٠ أعني
سنة إحدى وثمانين وخمسمائة —

ذكر رحيل السلطان عن الموصل

وورد على السلطان الخبر بوفاة شاه أرمن^(١) بن سكران صاحب أخلاط
في العشرين من ربيع الآخر ، وكان موته في التاسع منه ، ولم يخلف ولدا ذكرا
ولا ذا قرابة .

وورد كتب أهل بدليس وغيرها إلى السلطان يخطبونه لها ، وهم خائفون
من العجم أن يملكوها .

وكان المقيم بالملك بعد شاه أرمن^(١) مملوكه سيف الدين يكتمر ، وكان قد ورد
على السلطان رسولا من سيده وهو بسنجار ، فلما مات سيده شاه أرمن^(١) ،
وملك البلاد وأحبه الناس لحسن سيرته ، فسار نحوه البهلوان أتابك شمس الدين
مجد بن ايلدكز صاحب العجم ، فلما قرب منه خافه ، فسير إلى خدمة السلطان
من يقرر معه تسليم أخلاط إليه واندراجه في سلكه ، وكتب السلطان في ذلك
أيضا الوزير بأخلاط ، وهو مجد الدين ابن الموفق بن رشيق ، وأظهر للسلطان
المودة والمناصحة وهو على خلاف ذلك ، فطمع السلطان في ملك أخلاط والاستيلاء
عليها ، ورحل من الموصل في آخر شهر ربيع الآخر ، وقدم في مقدمته ابن عمه

(١) رسمت في الأصل : « شاهر من » ، وهو ناصر الدين سكران الثاني بن إبراهيم . انظر :

(زامبار : معجم الأنساب ، ص ٣٤٨) .

ناصر الدين محمد بن شيركوه ، ومظفر الدين بن زين الدين ، وأمرهما أن يسيرا الى أخلاط من أقرب الطرق ، وسير السلطان إلى سيف الدين الفقيه ضياء الدين عيسى ، والأمير غرس الدين قايج لتقرير القاعدة وتحريرها ، فوصلت الرسل إليها والبهلوان قد قارب البلاد جدا ، فراسله [٢٦٢] سيف الدين وخوفه من السلطان ، وأشعر بأنه إن قصده سلم البلاد إلى السلطان .

وراسل الأمير محمد الدين ناصر الدين محمد أن يقيم على قرن ، فهو أشد للارهاب ، وإنما فعل ذلك خديعة ، وإنما كان مقصود سيف الدين والوزير دفع كل واحد من السلطان والبهلوان بالآخر ليتم غرضهما ، ولا يمكن كل واحد منهما من البلاد ، ثم أحال الوزير الأمر على البهلوان ، وقال لرسول السلطان :

” إن البهلوان جاء ليتملك ، ولو استعجلتم لسهل الأمر “ .

واصطلح سيف الدين والبهلوان ، وأقره البهلوان على البلاد ، وجرت مراسلة بين البهلوان والسلطان ، وانفصل الأمر .

وفي رابع عشر ربيع الأول من هذه السنة توفي نور الدين محمد بن قرا أرسلان — صاحب آمد والحصن — وولى بعده ولده قطب الدين سُكَّان بن محمد ، واستمر على طاعة السلطان .

ذكر استيلاء السلطان على ميّا فارقين

وكانت لصاحب ماردين ، فوصلها السلطان في جمادى الأولى من هذه السنة ، وبها من أمراء صاحب ماردين أسد الدين برتقش ، فحاصره السلطان وقاتله ، ثم رأى أن أمر القتال يطول فراسل أسد الدين ورغبه في المهادنة والتسليم .

وكان بالبلد الخاتون ابنة نحر الدين قرا أرسلان أخت نور الدين الدارج، وهي زوجة ابن عمها قطب الدين إيلغازي بن ألي صاحب ماردین الذي توفي، فأحال أسد الدين الأمر إليها، فراسلها السلطان ورغبها، وضمن لها ما تطلبه، وأن يصاهر إليها، ولم يزل بها وبأسد الدين إلى أن أجابا، فقرّر لها السلطان كل ما كان باسم خدامها، وطلبت حصن الهتّاخ^(١) لتكون هي وأولادها به، فأجيب؛ وزوّج السلطان ابنه معز الدين إسحق^(٢) إحدى بناتها، وتسلم السلطان ميّاً فارقين.

وجاء قطب الدين سُكّان بن نور الدين — صاحب آمد — إلى خدمة السلطان، فأكرمه وأعادته إلى بلده ومعه وزيره قوام الدين أبو عبد الله محمد بن سماقة، وقتل غيلة في رمضان من السنة.

ذكر منازلة السلطان الموصل

وهي المنازلة الثالثة

ثم رحل السلطان وولى بتمك الديار مملوكه حسام الدين سُتْقُر الخلاطى، فنزل على دجلة بكفر زمار بقرب الموصل في شعبان من السنة، وعزم أن يشق في ذلك المكان، فخرج [٢٦٣] إليه من الموصل أتايكيات وفيهن ابنة الملك العادل نور الدين — رحمه الله — يشفعن إليه في الكف عن الموصل والرحيل عنها،

(١) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بأنها قلعة حصينة في ديار بكر قرب ميّا فارقين.

(٢) هو المعز أبو يعقوب اسحاق فتح الدين، ولد بمصر في ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ، فكان أباه زوجه وهو في الحادية عشرة من عمره؛ ذكر صاحب (شفاء القلوب، ص ١٧٣) أنه توفي في ذي الحجة سنة ٦٢٥ هـ. انظر أيضا : (الروضتين، ج ١، ص ٢٧٦).

فأنزلهن وأكرمهن ، وأحضر أصحابه واستشارهم فيما يفعل ، فأشار أكثرهم
بإجابتهن إلى ما طلبن ، فقال له الفقيه ضياء الدين عيسى وعلى بن أحمد المشطوب :
” مثل الموصل لا تترك لامرأة ، فإن عز الدين ما أنفذهن إلا وقد عجز عن
حفظ البلد “ .

فوافق ذلك هواه ، وقال لهن : .

” قد قبلت شفاعتكن ، لكن لا بد أن نعمل ما تقتضيه المصلحة “ .

واعتذر إليهن ، فرجعن خائبات متلومات .

ذكر مرض السلطان ورحيله عن الموصل

ثم دخل شهر رمضان وبدأ بالسلطان مرضٌ أزعجه وأقلقه ، فقدم على ردّ
النساء الأتابكيات وعدم قبول شفاعتهن ، فسير إلى عماد الدين زنكي بن مودود
— صاحب سنجار — وأذن له في الدخول بينه وبين عز الدين — صاحب الموصل —
في الصلح ، فدخل رسوله ، وهو وزيره شمس الدين بن عبد الكافي ، وشمس
الدين قاضي العسكر من جانب السلطان إلى الموصل .

وكان من قبل قد سبق القول أن السلطان يتسلم بلاد شهرزور وقلاعها
وحصونها وضياعها ، وكذلك ما وراء الزابين من البوازيج والرساق ، وبلد القرابلية
وبني قفجان ، فدخل الرسولان إلى الموصل لأجل العهد على هذا الملتزم ، ورحل
السلطان في سلخ شهر رمضان وهو في شدة من المرض ، ووصل إلى حران .

قال القاضي بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — :

” كان عز الدين — صاحب الموصل — قد سير إلى الخليفة يستنجد به ،
فلم يصل منه زبدة ، وسير إلى العجم فلم يحصل منهم زبدة ، فلما وصلت من

بغداد وأدیت جواب الرسالة آیس من النجدة ، فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة ، وعلموا بركة قابله وسرعة انقياده في ذلك الوقت ، فندبوني لهذا الأمر ، وبهاء الدين الريب^(١) وفوض إلى أمر النسخة ” .

ذكر انتظام الصلح بين الموصل والسلطان

قال بهاء الدين :

” فسرنا حتى أتينا العسكر — یعنی بجران — [٢٦٤] ، والناس كلهم آيسون من السلطان ، وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة ، فاحترمنا احتراماً عظيماً ، وجلس لنا ، وكان ذلك أول جلوسه من مرضه ، وحلف يوم عرفة ، وأخذنا منه بين النهرين ، أخذها من سنجر شاه وأعطاها الموصل ، وحلفته يميناً تامة ، وحلفت أخاه الملك العادل ، وسرت عنه وهو بجران وقد تماثل ، واستمر الصلح ، وصلاح الأمر ” .

وخطب في جميع بلاد الموصل للسلطان ، وقطعت خطبة السلاطين السلجوقية بها ، وخطب له في ديار بكر وجميع البلاد الأرمنية ، وضربت السكة باسمه . وكان المرض لما أشد بالسلطان وصل إليه أخوه الملك العادل ومعه الأطباء ، وقام يضبط الأمور ، والجلوس في كل يوم في النوبتية^(٢) الذي للسلطان ، وإقامة وظيفة السباط .

(١) الأصل : « بن الريب » والتصحيح عن : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٥٦) .

(الروضتين ؛ ج ٢٢ ص ٦٤) .

(٢) النص عند العماد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٥) : ” والجلوس في كل يوم في النوبتية السلطانية ؛

لتولى مصالح الرعية ؛ وإقامة وظيفة السباط ؛ والعمل في كل يوم بالاحتياط ” .

وكان الملك العزيز عماد الدين عثمان حاضراً مع أبيه ، خلف السطان الناس لأولاده ، وجعل لكل منهم نصيباً معلوماً ، وجعل أخاه الملك العادل وصياً على الجميع ، وأكثر السلطان في مرضه من الصدقات ، وكتب بذلك إلى الشام والديار المصرية ، فلم يبق في سائر ممالكه من الفقراء والمساكين إلا من وصل إليه نصيب من رفته وبره وصدقته .

وذكر عماد الدين الكاتب قال :

” أمرني أن أكتب إلى نائبه بدمشق صفى الدين بن القابض بأن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية^(١) ، فقال : ما عندي غير دنانير مصرية ، فقال : يتصدق بها مصرية “ .

ولما امتد زمان مرضه أمر ببناء دار عند سرادقه وحمام ، فبنت في أربعة أو خمسة أيام ، واستحضر من دمشق ولديه الصغيرين : الملك المعظم توران شاه ، وملكشاه^(٢) ، وأمهما ، فأسكنهما في تلك الدار مدة مقامه وسماها : ” دار العافية “ .

ولما تم الصلح بينه وبين الموصلة أهدى لعزيز الدين هدايا عظيمة ، ولوالدته ، ولزوجته ، ولابنة نور الدين ، وقوم ماسيره إليهم بما يوفى على عشرة آلاف دينار سوى الخيل والملبوس والطيب والأشياء المستطرفة .

(١) أنظر ما فات دنا ، ص ٧٦ ، هامش ٦

(٢) هما أخوان شقيقان لأم واحدة ، الأول الملك المعظم أبو منصور تورانشاه نحر الدين ، ولد بمصر في ربيع الأول سنة ٥٧٧ هـ ، والثاني الملك الغالب أبو الفتح ملك شاه نصير الدين ، ولد بالشام في رجب سنة ٥٧٨ هـ ؛ انظر : (الروضتين ، ج ١ ص ٢٧٦ — ٢٧٧) ؛ وقد ترجم (الحنبل : شفاء القلوب ، ٧٣ ب) للعظم تورانشاه ، فقال إنه كان كبير البيت الأيوبي ، وقد اشتغل بالعلم وحضر غزى مصاف وكان ذا شجاعة وعقل ، ولما استولى التار على حلب اعتصم بقلعتها ثم سلمها بالأمان ، وأدركه الأجل على قرب ذلك فتوفي في السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ بحلب عن ثمانين سنة ، ردف هناك مدحليز داره .

ذكر وفاة الملك القاهر

ناصر الدين محمد ^(١) بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص

[٢٦٥] وكان ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه في صحبة السلطان وهو مريض بجرّان ، فلما أشد مرضه توجه إلى إقطاعه ، وكانت له حمص والرحبة وتدمر وسلمية ، فلما اجتاز بحلب أحضر جماعة من أحمائها ، ووعدهم وأعطاهم مالا ، ولما وصل إلى حمص أرسل جماعة من الدمشقيين ووعدهم على تسليم البلد إليه إذا مات السلطان ، وأقام بحمص ينتظر موته ليسير إلى دمشق فيملكها ، فعوفى السلطان ، وبلغ ناصر الدين الخبر ، فلم يمض غير قليل حتى مات ناصر الدين ليلة عيد الأضحى من هذه السنة — أعنى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة — وذلك أنه شرب نحرًا وأكثر منه ، فأصبح ميتا .

استيلاء الملك المجاهد

شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى على حمص

فاقطع السلطان ما كان لناصر الدين لولده الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ، وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة ، فلم يزل مالكا لحمص وبلادها إلى أن توفى بها في سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وكانت مدة ملكه نحوًا من ست وخمسين سنة ، وملك بعده ولده الملك المنصور إبراهيم ، وتوفى بدمشق سنة أربع وأربعين وستمائة ، فملك بعده ولده الملك الأشرف موسى بن إبراهيم ، فأخذت منه في سنة ست وأربعين وستمائة ، وملكها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك

(١) ترجم له (الحنبل . شفاء القلوب ، ص ١١) ترجمة مختصرة قل معظمها عن ابن واصل ، وزاد عليها قوله : «وقيل إن السلطان اغتاله بسم ، وقيل مات بغاة» .

العزیز محمد بن الملك الظاهر غازى — صاحب حلب — ، فلم يزل مالكا لها إلى أن وطئت التتر البلاد وملكوها سنة ثمان وخمسين وستمائة ، فأعادوا حمص إلى الملك الأشرف موسى بن الملك المنصور ، ثم لما رجعت البلاد إلى المسلمين أقره عليها الملك الظاهر ركن الدين ، ثم توفى الملك الأشرف فى سنة اثنتين وستين وستمائة ^(١) ، وهو آخر من ملك حمص منهم .

وكتب السلطان إلى الملك المجاهد يعزیه بأبيه :

” قد علمنا المصاب بوالده رحمه الله ، وعظم أجرتنا وأجره فيه ، وإن كان مضى لسبيله فولدنا أسد الدين — أحياء الله — نعم الخلف الصالح ، وإن انتقل والده إلى دار البقاء ، فهو فى مكانه المستقر من المجد والعلاء ، والبلاد والمعاقل باقية عليه ، مسلمة إليه ، مقررة فى يديه ، وما مضى من والده — رحمه الله — [٢٦٦] إلا عينه ، وولدنا قرة العيون ، وبه استقر السكون ، والحمد لله الذى جبر به كسر المصاب ، وألبسنا وأياه ثوب الثواب ، فليشرح ولدنا صدره ، ولا يشغل سره ، ويعرف خواصه وأصحابه وولاته ونوابه بحمص والرحبة وغيرها أنهم باقون على عادتهم “ .

وكان المندوب إليه فى هذه الرسالة القاضى نجم الدين أبا البركات عبد الرحمن بن الشيخ شرف الدين بن أبى عمرو ، وهو الذى تولى الحكم بحماة ، وتوفى بها .

وخاف ناصر الدين أموالا جزيلة وذخائر كثيرة ، [و] قسم السلطان الميراث لما قدم حمص ، وكان تحت ناصر الدين ست الشام المعروفة بالحسامية زوجة ناصر الدين ، فصرف إليها ثمنها ، وقسم الباقي بين أسد الدين وأخوته ، على مقتضى الشريعة المطهرة .

(١) هذا التاريخ يدل على أن ابن واصل كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٦٢ هـ .

وذكر عهاد الدين :

أن المخلف كانت تنيف قيمته على ألف ألف دينار ، وأن السلطان ما أعاره طرفه ، بل تركه على أهل التركة .

وذكر غير العهاد :

أن السلطان أخذ ما جلت قيمته ، وأبقى الباقي ، وأن السلطان سأل الملك المجاهد أسد الدين :

” إلى أين بلغت من القرآن ؟ ”

فقال :

” إلى قوله تعالى :

” إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ،
وَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ” (١)

فعجب السلطان والحاضرون من فرط ذكائه مع صغر سنه .

ودخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ، ففي أولها دخل السلطان إلى الشام ،
ووصل إلى حلب في العشر الأوسط من المحرم .

ذكر وصول

السلطان الملك الناصر — رحمه الله — إلى دمشق

ثم رحل السلطان — رحمه الله — إلى دمشق من حلب ، وصحبته أخوه الملك
العادل ، فوصل إلى حماة وبها ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين نحرار تكين
— صاحب بوقبيس — نائباً عن الملك المظفر تقي الدين عمر .

(١) السورة : (النساء) : الآية (١٠) م .

ثم رحل إلى حمص فقرر أمورها، ورتب بها الملك المجاهد أسد الدين شيركوه، وكتب له منشورا بحمص وتدمر والرحبة ووادي بني حصين [والرحبة وزليبا] ^(١)؛ وأمر بإسقاط المكوس ^(٢)، ورتب في ولاية القلعة ^(٣) الحاجب بدر الدين إبراهيم بن شروة الهكاري، ثم نقله إلى حلب، ورتب بحمص مع أسد الدين أميرا من الأسدية يعرف بأرسلان بوغا، ولم يزل معه إلى أن ترعرع الملك المجاهد واستقل بالأمر.

ثم سار السلطان إلى دمشق فدخلها في ثاني ربيع الأول من هذه السنة —
أعني سنة اثنين وثمانين وخمسمائة —.

[٢٦٧] ذكر قدوم الملك الأفضل

نور الدين عليّ ابن السلطان عليّ أبيه بدمشق

كان الملك الأفضل بالديار المصرية ومعه ابن عمه الملك المظفر تقي الدين نائبا عن السلطان بالبلاد، ف وقعت بينهما منافرة بسبب أن الملك المظفر ربما كان ينقم على واحد ما، فيثقل عليه الملك الأفضل ويمنعه من إيقاع مكروه به، فكتب إلى السلطان يشكو منه، وكان في نفس السلطان نقل الملك العزيز إلى مصر وتفويض ملكها إليه، فكتب إلى ولده الملك الأفضل يشوقه ويستدعيه بجميع أهله وجماعته ووالدته وحشمهم وأصحابه، فخرج بهم متوجها إلى الشام، فوصل

(١) الأصل : «وراثيا»، وما بين الحاصرتين عن الأصل المنقول عنه هنا وهو العباد (الرضي عنهما) .
ج ٢ ، ص ٦٩ .

(٢) المؤلف يختصر هنا عن العباد، والنص عنده (المرجع السابق) : «ركتب منشورا آنحربا إسقاط المكوس بالرحبة رفيه : (وهذا دأب السلطان في جميع البلاد، اقتصر منها على الرسوم التي يديحها الترع، رمى : الخراج والأجور والزرع)» .

(٣) المقصود قلعة حمص .

دمشق يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الأولى من هذه السنة ، وخرج السلطان لاستقباله ، وأنزله في القلعة في دار رضوان ، وكتب إلى الملك المظفر أنه قد استقل أمره وزال عذره^(١) ، ففرح بذلك ، وخفى عنه أنه كان في ذمة ولد السلطان وعصمته .

ذكر استيلاء الملك الظاهر

غياث الدين ابن السلطان الملك الناصر على حلب

وهو الاستيلاء الثاني

لما قدم السلطان دمشق كان بها من أولاده الملك الظاهر ، وكان قد تزوج ابنة عمه الملك العادل — رحمه الله — وليست هي بأم الملك العزيز محمد ، وإنما هي أخرى توفيت عنده ، ثم تزوج أختها أم الملك العزيز ، فزار عمه الملك العادل ، فقال له :

” قد نزلت عن حلب لك ، وأنا أقنع من أنى بإقطاع أين كان ، وألزم الخدمة ، ولا أفارق السلطان ، فاطلبها من أبيك “ .

ثم جاء الملك العادل إلى السلطان وقال :

” هذه حلب مع رغبتى فيها أرى أن أحد أولادك بها أحق ، وهذا ولدنا الملك الظاهر أحب أنى أوتره بها “ .

فوقع الاتفاق بينه وبين السلطان على ذلك .

(١) الأصل : «عذره» ولا يستقيم بها المعنى ، والتصحيح عن العماد (الرضتين ، ج ٢ ، ص ٦٩) .

والتمس الملك العادل من السلطان بلادا أو نواحي بمصر ، فأجيب اليها ، وأقطعه البلاد الشرقية بمصر ، وتقرر أنه يسير إلى مصر نائباً عنه بها ، ويكون الملك العزيز عماد الدين عثمان السلطان بها ، ويكون الملك العادل أتابكه ومربيه والكافل له والمقيم [٢٦٨] بتدبير أموره كلها ، وكان الملك العادل شديد الحب له ، وكان الملك العزيز هو الذي سأل أباه أن يكون الملك العادل معه .

حكى القاضي بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — قال :

« قال الملك العادل : لما استقرت هذه القاعدة اجتمعت لخدمة الملك العزيز والملك الناصر وجلست بينهما ، وقلت للملك العزيز : اعلم يا مولاي أن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر ، وأنا أعلم أن المفسدين كثير ، وغدا فما يخلو ممن يقول عني ما لا يجوز ، ويخوفك مني ، فإن كان لك عزم تسمع فقل لي حتى لا آجى معك ، فقال لا أسمع ، وكيف يكون ذلك ؟ ثم التفت ، وقلت للملك الظاهر : أنا أعرف أن أخاك ربما سمع في أقوال المفسدين ، وأنا فإلى إلا أنت ، وقد قنعت منك بمنهج متى ضاق صدري من جانبه ، فقال : مبارك ، وذكر كل خير » .

ثم إن السلطان سير ولده الملك الظاهر إلى حلب ، وفي خدمته : حسام الدين بشارة شحنة ، و [شجاع الدين] ^(١) عيسى بن بلاش ^(٢) واليا ، فوصل الملك الظاهر إلى العين المباركة يوم الجمعة ثامن جمادى الآخرة من هذه السنة — أعني سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة — وخرج الناس إلى لقائه يوم السبت تاسع جمادى الآخرة ، وصعد إلى القلعة ضحوة ، وفرح الناس به فرحاً شديداً ، وعدل في الناس ، وأفاض عليهم وأبل فضله ، واستمر مآكلاً لها إلى أن توفي بها سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وكان ملكه لها نحواً من إحدى وثلاثين سنة .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧١) .

(٢) كذا في الأصل ، وفي المرجع السابق : « بلاشو » .

وملك بعده ولده الملك العزيز عماد الدين محمد بن الملك الظاهر [الى أن توفي]^(١)
في سنة أربع وثلاثين وستمائة .

فملك بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف
ابن أيوب ولم يزل مالكا إلى أن ملك التتر الملاعين حلب في سنة ثمان
ونحسين وستمائة .

ثم صار الملك بها بعدهم للملك المظفر قطز ، ثم للملك الظاهر ركن الدين .
فكانت مدة [٢٦٩] ملك الملك الظاهر بن صلاح الدين وأولاده لها نحسا
وسبعين سنة وشهورا . .

ذكر قدوم الملك المظفر

تقي الدين عمر إلى خدمة عمه السلطان بدمشق

ولما بلغ الملك المظفر ما استقرت القاعدة عليه من توجه الملك العزيز والملك
العادل إلى الديار المصرية شق ذلك عليه وغضب ؛ وعبر بأصحابه إلى الجيزة مظهرا
أنه يمضي إلى بلاد المغرب ويستولى عليها ، فإن مملوكه قراقوش^(٢) كان قد
مضى إلى المغرب واستولى على نواحي منها — كما تقدم ذكره — وكاتب مولاه
الملك المظفر يرغبه في تلك البلاد ، ويقول إن البلاد سايبة .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة يقتضيها السياق .

(٢) نظر (معرج الكروب ، ج ١ ، ٢٢٦ ، هامش ٤)

فلما تجدد للملك المظفر ما تجدد عزم على قصد تلك البلاد وأخذها بسيفه ،
ومالت إليه عساكر مصر لبذله وشجاعته ، فعبر بعسكره إلى الجيزة ، وقدم مملوكه
بوزابة^(١) في المقدمة .

ولما بلغ السلطان ذلك كتب إليه يأمره بالقدوم عليه ، فلم يسعه مخالفة عمه ،
وقبّع عليه جماعة من الأكابر المشاققة ، وعرفوه أن عمه السلطان يخرج من يده

(١) الأصل : "موربا" وعند العماد (الروستين ، ج ٢ ، ص ٧٠) "بوزبا" : وما هنا عن
(ابن الأثير ج ١١ ، ص ١٩٧) ؛ هذا ورواية العماد أكثر تفصيلا في هذا الموضوع الهام ، فأثرتا قلها
هنا لتتم الفائدة ، قال : " فعبر (أى تقى الدين) إلى الجيزة مظهرا أنه يمضى إلى بلاد المغرب ليمسكها ،
وكتب يسأل السلطان ألا يمنعه من سلوك مسلكها ، رسمت همته إلى مملكة جديدة ، وأقاليم مديدة ،
وبلاذ واسعة ، ومدن شاسعة ، وقد كان أحد عماليكه المعروف بقراقوش قد جمع من قبل الجيوش ،
وسار إلى بلاد برقة فملكها ، وهرته الأمنية للنفاس من بلاد نفوسة فأدركها ، وتجاوز إلى إفريقية وهو
يكتب أبدا إلى مالكة الملك المظفر يرغبه في تلك المملكة ، ويقول : إن البلاد سائبة ؛ فلما تجدد لتقى الدين
ما تجدد ، وتمهد لعمه العادل ما تمهد ، عادله ذكر المغرب ، فعبر بعسكره ، ومالت إليه عساكر مصر
لبذله ، وقدم مملوكه بوزبا في المقدمة ، فلما انتهى إلى السلطان خبر عزمه ، قال : لعمري إن فتح المغرب
مهم ، لكن فتح البيت المقدس أهم ، والفائدة به أتم ، والمصلحة منه أخص وأعم ، وإذا توجه
تقى الدين واستصحب معه رجالنا المعروفة ذهب العمر في افتناء الرجال ، وإذا فتحنا القدس والساحل
طوينا إلى تلك الممالك المراحل ، وعلم نجاح تقى الدين في ركوب تلك الهبة ، فكتب إليه يأمره بالقدوم
عليه وكتب القاضى الفاضل إلى تقى الدين : " سبب هذه الخدمة ما اتصل بالمملوك من تردد
رسائل مولانا في التماس السفر إلى الغرب والدستور إليه ، (يكفى الزمان فسا لنا نستعجل) ؛ يا مولانا :
ما هذا الواقع الذى وقع ؛ وما هذا الغريم من الهم الذى ما اندفع ؟ بالأسس ما كان لكم من الدنيا إلا
البلغة ، واليوم قد وهب الله هذه النعمة ، وقد كان الشمل مجموعا ، والهم مقطوعا ممنوعا ، أفصبح الآن
الدنيا ضيقة علينا وقد وسعت ، والأسباب بنا مقطوعة ولا والله ما انقطعت ؟ يا مولانا : إلى أين ؟
وما الغاية ؟ وهل نحن في ضائقة من عيش أو في قلة من عدد أو في عدم من بلاد أو في شكوى من عدم ؟
كيف نختار على الله وقد اختار لنا ؟ وكيف ندبر لأقربنا وهو قد دبر لنا ؟ وكيف نتجع الجلب ونحن
في دار الخصب ؟ وكيف نعدل إلى حرب الإسلام المنهى عنها ونحن في المدعو إليها من حرب أهل
الحرب ؟ معاشر الخدام والجيوش وأرباب العقول والآراء : أليس فيكم رجل رشيد ؟

نعقب الرأى وانظر فى أواخره فطالما اتهمت قدما أوائله

لا زال مولانا يعضى الآراء صائبة ، وبلحظها يادية وعاقبة ، ولا خلت منه دار إن خلت فهيات
أن تعمر ، ولا عدته أيام إن لم تطلع فيها شمس وجهه دخلت في عداد اللبالي فلم تذكر .

في الحال ، والله يعلم ما يكون بعد ذلك ، فأجاب بالسمع والطاعة ، وتوجه إلى دمشق ، وتلقاه السلطان ، وخيم على المصري فوق قصر أم حكم ، فلما قرب ركب إلى موكبه ورحَّب به ، وفرح بوصوله فرحا شديدا ، وذلك في الثالث والعشرين من شعبان من السنة .

ودخل دمشق واستقر على ما كان بيده من البلاد وهي : حماة والمعرَّة ومنبج وقلعة نجم ، ثم أضاف إليه ميافا رقين وما حولها من البلاد والمعاقل .

وكتب إلى مصر باستدعاء رجاله ، وأخبرهم بتأخير عزم المغرب ، فامتلوا الأمر ، وقدموا سوى زين الدين بوزابة^(١) ، فإنه مضى إلى المغرب واستولى على مواضع ، ثم قصده صاحب المغرب فأسره ثم أطلقه .

وفي هذه السنة دخل الملك الظاهر على ابنة عمه الملك العادل التي كان عقد عليها ، وذلك في السادس والعشرين من شهر رمضان ، ودخل الملك الأفضل نور الدين على زوجته ابنة ناصر الدين محمد [٢٧٠] بن شيركوه أخت الملك المجاهد صاحب حمص ، وذلك في شوال من هذه السنة .

ذكر مسير

الملك العزيز وعمه الملك العادل إلى الديار المصرية

ولما تقررت القاعدة على ما ذكرنا سار الملك العزيز وعمه الملك العادل إلى مصر ، فدخلوا القاهرة في خامس شهر رمضان .

(١) الأصل : "موربا" ، وعند العماد : "بوزبا" ، وما هنا عن (ابن الأثير ، ج ١١ ،

وذكر بن الأثير :

أن السبب في الذي فعله السلطان في هذه السنة من نقل الملك العادل عن حلب وتوليها ولده الملك الظاهر ، ونقل الملك المنصور عن ملك [مصر]^(١) وتسيير ولده الملك العزيز إليها ، أن السلطان لما مرض وعوفي وسار إلى الشام ، ساره يوما علم الدين سليمان بن جندر ، فخرى حديث مرضه فقال له سليمان :

”بأي رأى كنت تظن أن وصيتك تمضي ، وأن أمرك يقبل ؟ كأنك تظن أنك كنت تمضي إلى الصيد وترجع فلا يخالفونك ! بالله أما تستحي أن يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة ؟“

فقال :

”وكيف ذلك ؟“ — وهو يضحك —

قال :

”إذا أراد الطائر يعمل عشا لفراخه قصد أعالي الشجر ليحمي فراخه ، وأنت سلّمت الحصون إلى أهلك وجعلت أولادك على الأرض ؛ هذه حلب بيد أخيك ، وهذه حماة بيد تقي الدين ، وهذه حمص بيد ابن شيركوه ، وأحد ابنيك بمصر مع تقي الدين يخرجهم أي وقت شاء ، وهذا ابنك الآخر مع أخيك في خيمته يفعل به ما أراد“ .

فقال له :

”صدقت ، اكنتم هذا الأمر“ .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين ليستقيم به المعنى .

ثم أخذ حلب من أخيه وأعطاه الملك الظاهر ، وأخرج تقي الدين من ملك مصر ، وأعطاه الملك العزيز ، وجعل معه الملك العادل ؛ ثم أعطى الملك العادل البلاد الشرقية ، ونقله عن مصر على ماسنذكره ، وأراد الاحتراز بجهدته عن أن تخرج البلاد من يد أولاده ، فلم ينفعه ذلك بعد وفاته لما أراد الله خلافه .

وتوفي في هذه السنة البهلوان بن ايلدكز ، وملك بعده أخوه قرا أرسلان .

وفي هذه السنة عصى معين [الدين] بن معين الدين بقلعة الراوندان ، وكان السلطان قد أعطاه [٢٧١] إياها ، فنازله علم الدين سليمان بن جندر في عسكر حلب ، فتسلموها منه ، ونزل إلى خدمة السلطان .

ذكر انتماء القومص صاحب طرابلس

إلى خدمة السلطان^(١)

وكان السبب في ذلك أن الفرنج كان لهم ملك مجذوم ، وكان له أخت [ولم يكن له ولد] ^(٢) ، فأوصى بالملك [لها] ، وكان لها ولد صغير ، وأوصى أن أن يكون لولدها أيضا إذا كبر ^(٣) ، فلما هلك تزوج القومص بأخت الملك ، وربى ولدها المعهود له بالملك ، وهو طفل صغير ، فمات الصغير ، فانتقل ^(٤) الملك إلى

(١) بهذا العنوان تبدأ ص ٨٢ من نسخة من ، وبذلك تعود للقارنة بين هذه النسخة والأصل .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن من ، أما الملك المجذوم فهو بلدوين الرابع ملك بيت المقدس (Baldwin IV, King of Jerusalem) وأخته هي : سيبلا ملكة بيت المقدس (Sibylla, Queen of Jerusalem) وأما الطفل ابنها فهو بلدوين الخامس (Baldwin V, King of Jerusalem) ، وأما زوج الملكة سيبلا فهو جى لوسنيان ملك بيت المقدس (Guy Lusignan, King of Jerusalem) أنظر : (RUNCIMAN: Op. Cit. vol. 2: pp. 442—451).

(٣) الأصل : ” فأوصى بالملك لابنها “ ، وما هنا صيغة من .

(٤) من : ” فثبت “ .

أمه ، ثم إنها [بعد موت ابنها]^(١) مدت عينها إلى بعض المقدمين من الغرب وتزوجته ، وهجرت القومص ، وفوضت الملك إلى ذلك المقدم ، فطلب من القومص حساب البلاد ، فوقع الخلاف بينهم بسبب ذلك ، فالتجأ القومص إلى ظل السلطان ، فقبله وقواه وشد عضده بإطلاق من كان في الأسر من أصحابه ، فقويت منا صحته للمسلمين ، وباين^(٢) أهل ملته ، وبث السرايا في بلادهم ، بخافوه^(٣) وحذروا مكره.

ذكر ما اعتمده الابرنس صاحب الكرك

من الغدر بالمسلمين

كان الابرنس أرناط صاحب الكرك كثير الغدر والخبث ، وكان قد هادن السلطان وسأله ، فأمنت الطريق بين مصر والشام ، وتواصلت القفول ، حتى كان يمكن الذهاب والجلأى ، ثم إنه لاحت له فرصة في الغدر فغدر بقافلة عظيمة فيها نعم جليلة ، فأخذها بأسرها ، وكان معهم جماعة من الأجناد فأسروهم وحملهم إلى الكرك ، وأخذ خيلهم وعدتهم ، فأرسل إليه السلطان وقبح فعله ، فأسامه^(٤) إطلاقهم فامتنع ، وأصر على عصيانه ، فنذر السلطان دمه ، وأعطى الله عهدا إن ظفر به أن يستبيح مهبجته .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٢) س : " وأمنت " وما هنا هو الصحيح .

(٣) س : " بخافوه وصدروا عنه ولم يعودوا يلاطخوه بشر " .

(٤) س : " أسامه " .

ذكر مسير السلطان

الملك الناصر من دمشق إلى الجهاد^(١)

وأقام السلطان بدمشق بقية سنة اثنين وثمانين وخمسمائة ، وأرسل إلى سائر الأطراف يطلب العساكر ، فجاءته من كل فج ، وبرز من دمشق يوم السبت مستهل المحرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وهي السنة الغراء التي طهر الله فيها الأرض المقدسة من نجاسة الشرك بعد أن مكثت [٢٧٢] مرتبة في أيدي الكفار نيفا وتسعين^(٢) سنة .

ولما وصل السلطان إلى رأس الماء أمر ولده الملك الأفضل نور الدين بالإقامة هناك في بعض العساكر ، لتجتمع عنده الأمداد والنجدة ، ثم سار السلطان إلى بصرى ، وخيم على قصر السلامة ، وأقام مرتقبا الحاج خوفا عليهم من غدر عدو الله الأبرس ، ولما وصل الحاج في صفر ، وخلا سر السلطان من شغلهم سار إلى الكرك ونازلها وقطع ما حولها من الشجر ، وأفسد زرعها وكرومها ، ثم سار إلى الشوبك وفعل به مثل ذلك .

ثم وصلت العساكر المصرية ، فتلقاها بالقريتين ، وأمرهم بالانبثاث في أراضي الكرك والشوبك ، وأقام على ذلك شهرين ، والملك الأفضل مقيم برأس الماء ، وقد اجتمعت عنده الجحافل والجموع .

وكانت العساكر الحلبية تأخرت بسبب اشتغالها بالفرنجة بأرض أنطاكية وبلاد ابن لاون ، وكان قد مات وأوصى لابن أخيه لاون .

(١) هذا العنوان غير موجود في س .

(٢) س : " اثنين وسبعين " وما في المتن هو الصحيح .

فكتب السلطان إلى الملك المظفر تقي الدين — وهو بجمة — يأمره بالدخول إلى بلاد العدو وإنجاد ثأرته ، فوصل الملك المظفر إلى حلب ، ونزل في دار العفيف بن زريق ، وانتقل إلى دار طمان ، وخرج في تاسع صفر من حلب بعسكر حلب إلى حارم ليعلم العدو أن هذا الجانب غير مهمل

وقدم مظفر الدين [كوكبرى] بن زين الدين — صاحب حران — في العساكر الشرقية .

ثم قدم عسكر حلب مع بدر الدين دلدوم بن ياروق ، [صاحب تل باشر]^(١) فأنهض الملك الأفضل سرية إلى بلاد العدو ، والمقدم على عسكر دمشق صارم الدين قايماز النجمي ، فصبّحوا صفورية ، فأتاهم الفرنج والتقوهم ، فقتلوا من الافرنج^(٢) وأسروا^(٣) ، وهلك^(٤) مقدم الاسبتار ، وحصل في الأسر جماعة من فرسانهم ، وأفلت مقدم الداوية ، وعاد المسلمون سالمين غانمين ، وكانت هذه الغارة مقدمة الفتوح .

وجاءت هذه البشري إلى السلطان وهو بعد بنواحي الكرك والشوبك ، فسار إلى عشترا وخيم بها ، واجتمعت عنده العساكر الإسلامية ، وقد غُصَّ بها الفضاء ، وعرض العسكر فكان في اثني عشر ألف مقاتل ، ثم رتب العسكر أطلابا^(٥) ، وسار يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من ربيع الآخر من السنة ،

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (٨٢ ب) .

(٢) نص ص : ” فهزم المسلمون الفرنج ، فقتل من الفرنج خلق كثير ، وأمروا الملك “ .

(٣) عند هذا اللفظ تنهى ص ٨٢ ب من نسخة ص ، ثم يوجد خرم جديد مقداره صفحة .

(٤) الأصل : ” لتلك “ والتصحيح عن الهامد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦) .

(٥) انظر ما فات هنا ص ٥٩ ، هامش ٣

فأناخ ليلة السبت على خسفين ، وكان قد تقدم إلى ابن أخيه تقي الدين بمصالحة العدو [٢٧٣] الذى فى ناحية بلد حلب ، فصالحهم وتوجه إلى حماة قاصدا خدمة السلطان ، ومعه عسكر الموصل ، ومقدمهم نحر الدين مسعود بن الزعفرانى ، وعسكر ماردين ، فلحقوا السلطان بعشرا ، ثم رحل السلطان من خسفين إلى الأردن ، فقتل بثغر الأخوان ، فأقام هناك خمسة أيام ، وقد عين مواقف الأمراء وشعارهم ، وأحاطت عساكره ببحيرة طبرية عند قرية تعرف بالضبرة^(١) .

ذكر فتح طبرية

ثم رحل من هناك ، وتزل غرب طبرية على سفح^(٢) الجبل لتعبية الحرب ، منتظراً أن الفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من منزلتهم ، فقتل جريدة على طبرية ، وترك الأطلاب بجبالها قبالة وجه العدو ، وزحف إلى طبرية ففتحها فى ساعة من نهار ، وامتدت الأيدى إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل ، وامتنعت عليه القلعة وحدها .

ذكر وقعة حطين

وهذه الوقعة كانت مفتاح الفتوح الإسلامية ، وبها تيسر فتح بيت المقدس ، وكان من حديثها أن الفرنج — لعنهم الله — لما تحققوا باجتماع كلمة المسلمين ،

(١) الأصل : " بالصيرة " وقد صححت بعد مراجعة (الروضين ، ج ٢ ص ٨١) ، وضبطت بعد مراجعة (باقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها موضع بالأردن مقابل لعقة أفق ، بينه وبين طبرية ثلاثة أميال .

(٢) الأصل : « سطح » ، وما أثبتناه قراءة ترجيحية .

وجاءهم مالا يمهّد لهم مثله اجتمعوا وانتحوا ، وكان القومص قد باينهم — كما ذكرنا — ، فدخل عليه الملك ، ورمى نفسه عليه ، فدخل معهم ووافقهم ، فصففوا راياتهم بصفورية ، وحشدوا وجمعوا جموعهم ، وجاءتهم الأمداد من سائر بلادهم الساحلية ، وجمعت عبرتهم نحسين ألفا ، ورفعوا صايب الصلبوت^(١) ، وهو قطعة من الخشبة التي يدعون أن المسيح عليه السلام صُلب عليها .

وانتظر السلطان بروزهم للمصاف فلم يبرحوا من صفورية ، فقصد طبرية — كما ذكرنا — ، وفتحها ، وامتنعت القلعة ، وبها زوجة القومص ؛ ولما بلغه افتتاح بلده قامت قيامته ، وقال للفرنج :

” لا تعود لنا بعد اليوم ، وإذا أخذت طبرية ذهبت منا البلاد بأسرها “.

فوافقوه ورحلوا بجموعهم نحو السلطان لينعوه من أخذ قلعة طبرية ، ولما بلغ السلطان حركتهم نحوه سر بذلك ، لأنه كان مقصوده لقاهم ، وإطفاء جمريتهم ، إذ علم — رحمه الله — أنه لا يتيسر له أخذ [٢٧٤] البلاد إلا بعد ذلك ، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها ، ولحق العسكر هو ومن معه ، والتقى^(٢) العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها ، وحال الليل بين الفئتين ، وباتا على مصاف ، شاكين في السلاح إلى صبيحة^(٣) الجمعة ، وهو الرابع والعشرين من ربيع الآخر ، فركب العسكران وتصادما ، وذلك بأرض تسمى اللوبيا ، ولم يزل الحرب بينهم إلى أن حجز الظلام ، فبات كل فريق في سلاحه .

(١) تذكر المراجع أن هذا الصليب نقل إلى جزيرة قبرص بعد إجلاء الصليبيين عن الشام ، ثم استولى عليه المسلمون عند فتحهم لهذه الجزيرة سنة ١٤٢٦ م ، على أنه بقي بتلك الجزيرة ، وراه هناك أحد الرحالة الأوربيين سنة ١٤٨٨ م . أنظر : (ZIADA : Mamlouk Conquest of Cyprus, p.102)

(٢) الأصل : ” والتنا “ .

(٣) الأصل : ” صبة “ وقد صحت بعد مراجعة (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨١) .

وأصبحوا يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر على هبتهم ،
وقد حاز المسلمون عنهم ماء البحيرة وراءهم ، فلم يبق للفرنج إليه وصول ،
فاشتد بهم العطش ، وفرغ ما معهم من الماء ، وأخذتهم سهام المسلمين ،
وكثرت فيهم الجراح ، وقوى الحر ، وسلبهم العطش القرار ، وصاروا كلما حملوا
ليتيسر لهم ورود الماء^(١) صُدُّوا وردُّوا ، واستولى عليهم الأسر والقتل ،
فأووا إلى جبل حطّين ليعصمهم^(٢) من البلاء بعد أن انهزم منهم طائفة ،
وتبعهم طائفة من المسلمين ، فلم ينبج منهم أحد .

وهرب القومص — لعنه الله — فلم ينجه إلا الهزيمة بحشاشة نفسه متوجها
نحو صور^(٣) ، وتبعه جماعة من المسلمين ، ولم يدركوه ، وكفى الله المسلمين
كيد .

وأحاط المسلمون بالباقيين الذين اجتمعوا^(٤) بجبل حطّين ، وهي قرية
عندها قبر شعيب النبي عليه السلام ، وضايقوهم ، وأشعلوا حولهم النيران
في حافء كانت هناك ، فارتفع لهبها ، واجتمع عليهم حر الهاجرة وحر النار وحر
العطش وألم الجراح ، وخطوا خيامهم على ظهر التل ، فعاجلهم المسلمون عن
ضربها ، واشتد الطعن والضرب ، ودارت عليهم دائرة السوء ، وعلموا أنه
لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه ، فحملوا على المسلمين حملات متداركة
كادوا يزيأون المسلمين — إلى كثرتهم — عن مواضعهم ، فثبت الله أقدام
المؤمنين ونصرهم ، ولم يحمل العدو حملة إلا وقتل منهم وأسر جماعة ، فوهنوا

(١) بهذا اللفظ تعود ثانية للقابلة مع نسخة من وإتمام في (ص ١١٠) .

(٢) م : "ليمنهم" .

(٣) م : "صفورية" .

(٤) م : "اختروا" .

وهنا عظيمًا ، ولم يمكنهم نصب خيمة إلا خيمة ملكهم لا غير^(١) ، وملك المسلمون صليبهم الأعظم الذي يسمونه صليب الصليبوت^(٢) ، فأيتنوا بعده بالبوار ، واشتجرو فيهم القتل والأسر ، وبقى الملك [٢٧٥] على التل في مائة وخمسين فارسًا .

لحكي ابن الأثير عن من حكى له عن الملك الأفضل نور الدين على
— رحمه الله — قال :

” كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بازائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي ، قال : فنظرت إليه وقد علته كآبة ، واربدة لونه ، وأمسك بلحيته ، فتقدم وهو يصيح : ” كذب الشيطان “ ، فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا^(٣) فصعدوا على التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم ، صحت من فرحى : ” هزمناهم ، هزمناهم “ ، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ، حتى ألحقوا المسلمين بوالدي ، وفعل هو مثل ما فعل أولا^(٤) ، وعطف المسلمون عليهم ، فألحقوهم بالتل ، فصحت أنا : ” هزمناهم ، [هزمناهم] “^(٥) ، فالتفت إلى والدي فقال : اسكت ، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة — يعنى خيمة الملك — ، فهو يقول لى [ذلك]^(٦) ، وإذا الخيمة قد سقطت ، فنزل السلطان ، فسجد شكراً لله تعالى ، وبكى من [شدة]^(٦) فرحه “ .

(١) س (١١٠) : ” إلا خيمتين : خيمة ملكهم ، وخيمة أخرى “ .

(٢) انظر ص ١٨٩ ، هامش ١

(٣) س (١٠ ب) : ” فرجعوا الفرنج “ .

(٤) س : ” في التوبة الأولى “ .

(٥) ما بين الحاصرتين عن س ، وكلمة ” هزمناهم “ في الأصل وهو (ابن الأثير) مفردة غير مكررة .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س (١٠ ب) .

وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملة [الثانية] ^(١) ازدادوا عطشا ، وكانوا يرجون الخلاص في تلك الحملات مما هم فيه ، فلما لم يجدوا إلى الخلاص طريقا نزلوا عن دوابهم ، وجلسوا على الأرض ، فصعد ^(٢) المسلمون إليهم ، وألقوا خيمة الملك ، وأسروهم كلهم .

قال القاضي بهاء الدين بن شداد :

”ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصا واحدا ومعه طنب خيمة ، وفيه نيف وثلاثون ^(٣) أسيرا يجرهم وحده لخذلان ^(٤) وقع عليهم ، وكان من جملة من وقع في الأسر : الملك كي ^(٥) ، وابرنس الكرك أرناط ^(٦) ، و [أخو] ^(٧) الملك جفرى ، وأوك ^(٨) صاحب جبيل ، وهنفرى بن هنفرى ^(٩) ، وابن صاحب اسكندرونة ^(١٠) ، وصاحب مرقية ^(١١) [وأسر من نجا من القتل من الداوية

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٠ ب) .

(٢) الأصل رس : ” فمعدوا ” والتصحيح عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٠٢) .

(٣) الأصل رس : ” وثلاثين ” والتصحيح عن (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٦٣) .

(٤) الأصل : ” بخذلان ” والتصحيح عن المرجع السابق .

(٥) الأصل : ” سلى ” رس : ” لى ” ، وقد صححناه بالمتن إلى الرسم الذى اعتادت الكتب

العربية المعاصرة أن تكتبه به ، وهو : (Guy of Lusignan, King of Jerusalem)

(٦) هو (Reynald of Châtillon) صاحب الكرك .

(٧) زيد ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨) وهى زيادة ضرورية يستقيم بها المعنى ، واسم هذا الأخ عند (RUNCIMAN : Op. Cit. Vol. 2. p.459) : (Constble Amalrio)

(٨) فى الأصل : ” أولى ” ، وفى س : ” اودك ” ، وقد صححت بعد مراجعة (الروضتين ، ج ٢

ص ٧٨) واسم صاحب جبيل : (Hugh II Embriaco, Lord of Jebail)

انظر : (RUNCIMAN : Op. Sit. Vol. 2; p. 462-463)

(٩) هو : (Humphrey IV Lord of Toron) انظر (المرجع السابق ، ص ٤٥٩ و ٤٦٨) .

(١٠) س (١٠ ب) : ” اسكندرية ” وهو خطأ .

(١١) ضبطت بعد مراجعة (باقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها قلعة بساحل الشام قرب حمص .

ومقدمها ، ومن الاستتارية معظمها ، ومن البارونية من أخطاه البوار ، فأصابه وساءه الإسار ^(١)

قال عماد الدين الكاتب :

”فمن شاهد القتلى ذلك اليوم قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل“ .

ومذ ملك الفرنج البلاد الساحلية واستولوا عليها لم يقع للمسلمين معهم يوم كيوم حطين ، فرحم الله الملك الناصر صلاح الدين وقدس روحه ، فلم يؤيد الإسلام بعد الصعابة — رضى الله عنهم — برجل مثله ومثل [٢٧٦] نور الدين محمود بن زنكي — رحمة الله عليهما — ، فهما جددا الإسلام بإبعد دروسه ، وشيدا بنيان التوحيد بعد طموسه ، ثم أيد الله الإسلام بعدهما بالملك الظاهر ركن الدين ، ^(٢) وكان أمره أعجب إذ جاء إبعد أن استولى التتر على معظم البلاد الإسلامية ، وأيس ^(٣) الناس أن لا انتعاش للملة ، فبدد شمل التتار ، وحفظ البلاد الإسلامية ^(٤) ، وملك من الفرنج أكثر الحصون الساحلية

ولم ينج في الكسرة ^(٥) من ألوف الفرنج إلا أحاد ، وامتلات الأرض بالأسرى والقتلى ، ثم أمر السلطان فضرب له دهايز ^(٥) سرادقه ، فنزل وصلى لله تعالى فيه صلاة الشكر على هذه النعمة ، التي درج الملوك قبله على تمنى مثلها وماتوا بحسرتها ،

(١) في س : ”صاحب اسكندرية ، والبارونية ، هولاي نجوا من القتل في الوفعة“
وفي الأصل : ”رأسرت الداوية والاستتارية والبارونية من نجا من القتل“ وهي عبارة مضطربة ،
والصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨) وهو المرجع الذي ينقل عنه المؤلف هنا ما خلاصه .

(٢) يقصد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى .

(٣) هذه الجملة ساقطة من س .

(٤) س (١١١) : « الكرة » .

(٥) الدهايز هنا معناها الخيمة التي ترافق السلطان في الحرب ، وهي خيمة كبيرة ينزل بها السلطان في الأوقات التي تتخلل المعركة .

وأحضر ملوك الفرنجية ومقدميهم ، وأجلس الملك كى ^(١) إلى جانبه ، وأجلس البرنس إلى جانب الملك وفي نفسه وفاء نذره بقتله ، جزاء له على غدره ومكره ، فصرعه السلطان وأذكره ذنبه ، وقال له : ” كم تحلف وتنكث ؟ ” فقال الترجمان عنه : ” إنه [يقول] ^(٢) قد جرت بذلك عادة الملوك “ .

وآنس السلطان الملك ^(٣) وحادثه ، وأمر له بجَلَّاب ^(٤) مثلوج فشربه ، وكان قد بلغ منه العطش مبلغاً عظيماً ، ولما روى ناول الابرنس أرناط القدح ، فشربه ، فقال السلطان للملك : ” لم آذن لك في سقيه الماء حتى لا يوجب ذلك أماناً له “ ، ثم أمر السلطان بمسيرهم إلى موضع عين لتزولهم ، وركب السلطان ، ولم ينزل ^(٥) إلى أن ضرب السراق الذي له وركزت أعلامه ، ثم عاد إلى سراقه .

ذكر مقتل ابرنس أرناط صاحب الكرك

واستحضر السلطان الملوك ، ولم يبق عنده أحد سوى الخدم ، فأفعد الملك وجماعته في الدهليز ، واستحضر البرنس خاصة ، وواقفه على قوله ، وكان — لعنه الله — لما غدر بالقافلة الموجهة [من] ^(٦) الديار المصرية [إلى الشام] ^(٦) قال : ” قولوا لمحمدكم يخلصكم “ .

(١) الأصل : « جفرى » وس (هجرى) والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٩) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) في س : « الملك جفرى » هو خطأ .

(٤) ذكر في (اللسان) و (الجواليقي : المغرب ، ص ١٠٦) و (الملك المظفر يوسف بن رسول : المعتمد في الأدوية ، ص ٧١) أن الجلاب هو ماء الورد ، فارسي معرب ، وفي (Dozy : Supp. Dict. Arab) أنه الماء ينقع فيه الزبيب (l'eau dans laquelle on a laissé tremper les raisins secs) .

(٥) الأصل : ” لم يزل “ والتصحيح عن س .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س (١١ ب) .

فقال له السلطان — رحمه الله — :

”ها أنا أنتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم“ .

ثم عرض عليه الإسلام ، فلم يفعل ، فسئل التَّجَاه^(١) [من وسطه]^(٢) وضربه بها فخل كتفه ، وأتم عليه من حضر من الخدم ، وعجّل الله بروحه إلى النار ، فسحب وأخرج من الخيمة ، [٢٧٧] فلما رآه الملك ، وقد أخرج على تلك الصورة لم يشك أنه يثنى به ، فخاف وارتاع ، واستحضره السلطان وطيب قلبه ، وقال :

”لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فتجاوز حدّه ، بجري عليه ما جرى“ .

ثم جمع السلطان الأسارى المعروفين إلى الناصح الغيدى^(٣) ليحملهم إلى قلعة دمشق ، فتسلمهم أصحاب الناصح ، وأمرهم أن يأخذوا خط الصفى بن القابض في دمشق بوصولهم ، ويحتاط عليهم ، [ففعل ذلك]^(٤)

ذكر فتح قلعة طبرية

٤ وبات الناس^(٥) ليلة الأحد لأربع بقين من ربيع الآخر على أتم سرور ، ترتفع أصواتهم بالحمد والشكر لله تعالى والتكبير حتى طلع الصبح من يوم الأحد ، فتوجه السلطان إلى طبرية ، وخيم بها ، وراسل التومصية صاحبها ، فأجابته إلى التسليم ، وطلبت الأمان لها ولمن معها ، فأمنوا وسلمت الحصن ، [بما فيه]^(٦) وخرجت

(١) التَّجَاه — بالهاء — خنجر مقوس يشبه السيف القصير ، وهو معرب اللفظ ، الفارسي ”تيجّه“ ويقال أيضا : ”تيجا“ و ”تجه“ و ”تمشا“ ”تمشه“ ، انظر : (Dozy : Supp. Dict. Arab)

(٢) ما بين الحاصرتين عن م (١١ ب) .

(٣) م : ”الكندى“ . والتصحيح عن المواد (الروضين ، ج ٢ ، ص ٧٩) .

(٤) مكان هذين اللفظين في م (١١ ب) : ”وبات السلطان رحمه الله ليلة الأحد هو والعسكر“ .

بما لها إلى طرابلس — بلد زوجها القومص — ، وذكر أن ^(١) القومص بعد وصوله عرضت له ذات الجنب ، فكانت بها منيته .

وولى السلطان طبرية لصارم الدين قايمار النجمي ، وكانت طبرية في عهد الفرنج تقاسم على نصف مغل بلاد الصلت والبلقاء وجبل عوف والسواد والجولان إلى بلد حوران ، فصفت هذه كلها بأخذ طبرية للمسلمين .

ذكر مقتل الداوية والاسبتارية

ثم رأى السلطان أن عين المصلحة تطهير الأرض من هذين الجنسين النجسين ، فأمر بإحضار كل داوي واسبتاري ليمضى فيهم حكم السيف ، وجعل لكل من يأتيه ^(٢) بأسير منهما خمسين ديناراً ، فأتى في الحال بمائتين ^(٣) منهم ، فأمر بضرب رقابهم ، وكان بحضرته جماعة من أهل الدين والفقه والتصوف ، فسأل كل واحد منهم أن يقتل واحداً ^(٤) ، فأذن في ذلك ، فكل واحد منهم سل سيفه وقصد أن يقتل منهم قتيلاً ، والسلطان جالس والناس بين يديه صفوف ، فمن الجماعة من خارت ^(٥) قوته ، فامتنع وعذر ، ومنهم من لم يؤثر ضربه ، فضحك منه ، وناب غيره منابه ، ومنهم من ظهرت نجابته ، وفرت ضربته .

(١) النص في س : " وذكر القومص بعد وصوله إلى طرابلس عرضت عليه " .

(٢) النص في س (١١٢) مضطرب وهو : " بفعل كل من يأتي منهما خمسين ديناراً ، فأبى ذلك " .

(٣) س : " ثلاثمائة " ، وفي (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٠٣) " مائتين " ،

والنص عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٩) أكثر إيضاحاً فهو يقول : " فتقدم بإحضار كل أسير داوي واسبتاري ليمضى فيه حكم السيف ، ورأى البقا عليه عين الحيف ، ثم علم أن كل من عنده أسير لا يسمح به وأن يضمن بعطبه ، بفعل لكل من يأتيه بأسير منهما من الدناير الخمسين ، فأتوه في الحال بمئين ، فأمر بإعطائهم وضرب رقابهم . . الخ " .

(٤) النص في س مضطرب وهو : " فسأل كل واحد منهم واحداً من الفرنج " .

(٥) الأصل : " تجارت " رس : " جارت " .

ثم سیر السلطانُ الملكَ — إلى دمشق ، وأخاه ، وهنقری ، وصاحب جبیل ،
ومقدم [٢٧٨] الداویة ، وجميع الأكابر ، وفرّق بقية السبي بين الناس ، فتصرفوا
فيه ، وبيع في جميع البلاد الإسلامية .

وكتب السلطان إلى نائبه بدمشق الصفي بن القابض أن يضرب عنق كل من
يجد من الداویة والاسبتارية ، فامثل أمره ، وما ضرب عنق أحد منهم حتى
عرض عليه الإسلام أولاً وامتنعوا ، إلا أحاد منهم أسلموا وحسن إسلامهم^(١) .

وحكى العمد الكاتب قال :

” ما زلت أبحث عن سبب نذر السلطان إراقة دم البرنس حتى حدثني الأمير
عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز^(٢) بن باديس الصنهاجي أن القاضي الفاضل
حدثه : أن السلطان لما عاد إلى دمشق من حران^(٣) بعد المروضة التي مرضها
بالشرق ، وخيف عليه منها ، وهو في عناء من سقمه ، قال : فقيل له : إن الله
تعالى أيقظك وإن يعيذك من سوء سواه ، فأنذر الله أنك إذا أبالت من هذا
المرض أنك تقوم بكل ما افترضه الله عليك ، ولا تقاتل أحدا من المسلمين ،
وتكون في جهاد [أعداء]^(٤) الله مجتهدا ، وأنت إذا انتصرت على الكفار

(١) ص (١١٢) : ” الإجماعة من الأكابر وهم المقدمين فأسلوا ” ، والنص في المتن يتفق مع
الأصل المقول عنه وهو العمد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٠) .

(٢) الأصل : ” ابن عبد العزيز ” والصحيح عن ص ، والعمد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٠)
وقد أضاف العمد هناك فقرة للتعريف بابن شداد هذا ، قال : ” وهو ذو البيت الكبير والحسب الجليل ،
وكان جده صاحب إفريقية والقيدوان ، وكانوا يتوارثون ملكه إلى قريب من هذا الزمان ” .

(٣) ص : ” من دمشق إلى حران ” وما بالمتن هو الصحيح فهو يتفق مع الأصل المقول عنه . أظن
المرجع السابق .

(٤) ما بين الحاصرتين عن العمد ص (١٢ ب) .

تتقرب إلى الله تعالى بإراقة دم البرنس والقومص بعد الظفر بهما ، فأعطى^(١) يده على هذا النذر ، فلما أظفره الله بالابرنس وفي^(٢) بما عاهد عليه ، وأراق دمه ، وأما القومص فإنه هرب فلاقاه حمامه ، وكفى الله تعالى المسلمين شرهما^(٣) .

ولما فتحت طبرية قال بهاء الدين أبو الحسن على بن الساعاتي يمدح السلطان — رحمه الله — :

جَلَّتْ عَزَمَاتُكَ الْفَتْحَ الْمِينَا	فَقَدْ قَرَّتْ عَيُونُ الْمُؤْمِنِينَ ^(٣)
رَدَدْتَ أَخِيذَةَ الْإِسْلَامِ لِمَا	غَدَا صَرَفُ الْقَضَاءِ بِهَا ضَمِينَا
فَهَانَ بِهَا ^(٤) الصَّلِيبُ ، وَكَانَ قُدَمَاءُ	يَعِزُّ عَلَى الْعَوَالِي ^(٥) أَنْ يَهُونَا
يُقَاتِلُ ^(٦) كُلُّ ذِي مَلِكٍ رِيَاءً ،	وَأَنْتَ تَقَاتِلُ الْأَعْدَاءَ دِينَا
غَدَتْ فِي وَجَنَةِ الْأَيَّامِ خَالًا ،	وَفِي جِيدِ الْعُلَى عِقْدًا ثَمِينَا
فِي اللَّهِ كَمْ سَرَّتْ قُلُوبًا ؟	وَيَا لِلَّهِ كَمْ أَبَكَّتْ عَيُونًا ؟
وَمَا طَبْرِيَّةٌ إِلَّا هَدْيٌ ^(٧)	تَرْفَعُ مِنْ أَكُفِّ الْأَمْسِينَا
[٢٧٩] حَصَانُ الذَّيْلِ ^(٨) لَمْ تُقَذَّفْ بِسُوءٍ ،	فَسَلَّ عَنْهَا اللَّيَالِي وَالسَّنِينَا
فَضَضْتَ خَتَامَهَا قَسْرًا ، وَمَنْ ذَا	يَصُدُّ اللَّيْتَ أَنْ يَلْجَ الْعَرِينَا ؟

(١) الأصل : " فأعطا " و " وفا " .

(٢) م (١٢ ب) : " شرهما " .

(٣) في (ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٤٠٦) : " المسلمينا " .

(٤) الديوان : « رهان بك » .

(٥) م : « العواتي » ، وما هنا يتفق ونص الديوان .

(٦) م : « ققاتل » .

(٧) الأصل : « غدا » ، وما هنا عن الديوان وس ، والهدى العروس .

(٨) الأصل : « الديك » والتصحيح عن الديوان .

لقد أنكحتها الصم^(١) العوالى ،
هناك ندى^(٢) أهل الأرض طراً
قست حتى رأت كفواً فلانت ،
قضيت فريضة الإسلام منها ،
تهز^(٣) معاطف القدس ابتهاجا ،
فلو أن الجهاد يطبق نطقاً
جعلت صباح آهائها^(٥) ظلاماً ،
تخال حماة حوزتها نساء
ليضك في جماجمهم غناء
تميل إلى المثقة العوالى
يكاد النقع يذهلها ، فلولا
فكم حازت قدود قناك منها

فكان نتاجها الحرب الزبونا
سواك ، ومعقل أعبا القرونا^(٣)
وغاية كل قيس أن يلينا
وصدقت الأمانى والظنونا
وترضى عنك مكة والمجونا
لنادتك : ادخلوها آمينا
وأبدلت الزئير بها أنينا
يخوضون الحديد مقنعينا
لذيذ^(٦) علم الطير الحنينا
فهل أضحت رماحاً أم غصونا^(٧)
بروق القاضيات^(٨) (١٠) لم هدينا
قدوداً كالقنا لونا ولينا

-
- (١) في الديوان : « صم » .
(٢) الأصل : « نال بذ » والتصحيح عن الديوان و (الروضين ، ج ٢ ، ص ٨٤) .
(٣) هذا البيت غير موجود في س .
(٤) س : « فهز » ، وما هنا يتفق وما في الديوان .
(٥) الأصل وس : « أهليها » وما هنا عن (الديوان ، ج ٢ ، ص ٤٠٧) و (الروضين ، ج ٢ ، ص ٨٥) .
(٦) الأصل وس : « لذذا » والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٧) في الديوان والروضين : « أمست » .
(٨) س (١١٣) « رحاما » .
(٩) الأصل : « أو غصونا » والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(١٠) الأصل وس : « الماضيات » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

وغيد^(١) كالجاذر أنسأت
ولما باكرتها^(٢) منك نغمي
أعدت^(٣) بها الليالى وهى بيض،
فليس بعادم مرعى خصيباً
فلا عديم الشأم وساكنوه
سهاد جفونها فى كل فيج^(٦)
فاليم بالسواحل فهى صور
[٢٨٠] فقلب القدس مسرور، ولولا
أدرت على الفرنج — وقد تلاقى
فى يسان ذاقوا منك بؤساً ،
لقد جاءتهم الأحداث جمعاً ،
وخانهم الزمان ولا ملام ،
لقد جردت عزماً ناصرياً
فكنت كيوسف الصديق حقا
لقد أتعبت من طلب المعالى ،
وإن تك آخرأ^(٩) - وخلاك ذم - ،

كغيد نذاك أبكاراً وعونا
بنان تفضح الغيث الهتونا
وقد كانت بها الأيام جونا
أخوسغب^(٤) ، ولا ماء معينا
ظبي تشفى^(٥) بها الداء الدفينا
سهاد يمنح الغمض الجفونا
إليك ، وألحق الهام المتونا
سطاك ، لكان مكتئباً حزينا
جموعهم عليك — رحي طحونا
وفى صفد لقوك^(٧) مصفدينا
كانت صروفها كانت كينا
فلست بمغيض زمناً^(٨) خؤونا
يحدث عن سناه طور سينا
له هوى الكواكب ساجدينا
وحاول أن يسوس المسلمينا
فإن مجدأ فى الآخرينا

-
- (١) الأصل « رغيدا » والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٢) س : « ولما كرتها » . (٣) س : « أعدت » .
(٤) الأصل : « سيف » والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٥) الأصل : « ظبا يشفا » والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٦) الأصل وس : « فتح » وما هنا عن المرجعين السابقين .
(٧) كذا فى الأصل ، وفى الديوان والروضتين وس : « أتوك » .
(٨) س : « ذمن » .
(٩) الأصل وس : « آخر » والتصحيح عن المرجعين السابقين .

ذكر فتح عكا

ثم رحل السلطان إلى عكا فوصلها يوم الأربعاء بقاء سلخ ربيع الآخر من هذه السنة — أغنى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة — وخيم بقربها وراء التل ، ولما طلع الصبح من يوم الخميس مستهل جمادى الأولى ركب في عساكره ، ووقف بازاء التل^(١) مصمما على الزحف والقتال ، وبينما هو يرتاد موصعا للنزال إذ خرج كثير من أهلها يتضرعون ويطلبون الأمان ، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وخيرهم بين الإقامة والظن ، فاخترأوا الرحيل خوفا من المسلمين ، وساروا عنها متفرقين ، وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقي على حالها ، ودخل المسلمون يوم الجمعة ثانی جمادى الأولى البلد ، واستولوا على ما فيه من الأموال والذخائر ، واستنقذوا^(٢) من كان بها من أسرى المسلمين ، وكانوا أربعة [آلاف]^(٣) أنفس .

وحضر القاضي الفاضل كنيستها العظمى ، فرتب فيها المنبر والقبلة ، وأقيمت الجمعة ، وهي أول جمعة أقيمت في الساحل بعد يوم الكسرة ، وسلم السلطان البلد إلى ولده الملك الأفضل نور الدين ، وأعطى جميع ما فيه مما كان للداوية^(٤) من إقطاع وضياع للفقهاء ضياء الدين عيسى الهكاري .

(١) س (١٣ ب) : « البلد » .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من س .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س (١٣ ب) و (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٦٤) .

(٤) س : « للدارية والاستنارية » وما بالمتن هو الصحيح فهو يتفق ونص العماد (الروضتين ،

ج ٢ ، ص ٨٦) و (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٣) .

ذكر فتح مجدليّابة^(١)

[٢٨١] وأقام السلطان مخيمًا على النل بباب عكا ، وكتب إلى أخيه الملك العادل بمصر يبشره بما فتح الله تعالى على يديه ، ويأمره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جهة الديار المصرية فيمن بقي عنده من العساكر في محاصرة ما يليه منها ، فسار إلى حصن مجدليّابة ، فحصره وفتحته وغنم ما فيه ، وورد كتابه بذلك إلى السلطان ، فكان فتحًا عظيمًا .

ذكر فتح عدة حصون حول عكا

وفي مدة مقام السلطان بعكا فرق عسكره إلى الناصرة ، وقيسارية ، وحيفا ، وصفورية ، ومعليا ، والشقيف ، والفرونة ، والطور ، وغيرها من البلاد المجاورة لعكا ، فملكوها ونهبوا ما فيها ، وسبوا نساءها وأطفالها ، وقدموا من ذلك بما سد الفضاء ، وسير السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين فزل على تبين ليقطع الميرة عنها وعن صور ، وسير ابن اخته^(٢) حسام الدين بن لاجين إلى نابلس .

ذكر فتح نابلس

فأتى حسام الدين سبسطية ، وفيها قبر زكريا — عليه السلام — ، فأخذها من أيدي الكفار ، ووصل إلى نابلس ، فدخلها وحصر قلعتها ، واستنزل من بها

(١) الأصل : « مجدل ياقا » وفي س (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٠٤) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٧) : « مجدل يابا » ، وقد رسمت كما بالثن وضبطت بمد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها قرية قرب الرملة بها حصن محكم .

(٢) الأصل : « أخيه » والتصحيح عن س (١١٤) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٨) .

بالأمان ، وتسلم القلعة ، وأقام أهل البلد — وكانوا مسلمين — تحت الذمة ،
فأقرهم على أموالهم وأملاكهم .

وكتب السلطان في تلك الأيام إلى الخليفة الإمام الناصر لدين الله — أمير
المؤمنين — كتابا بالإنشاء العادي ، أوله :

«وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ»^(١) ،
الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن
بعد، وجعل من بعد عسريرا ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا، وهو أن الأمر
الذي ما كان الإسلام يستطيع عليه صبرا ، وخوطب الدين بقوله : ولقد مننا
عليك مرة أخرى ، فالأولى في عصر النبي والصحابة ، والأخرى هذه التي عتق
بها من ذل الكتابة ، وهو قد أصبح حُرًّا رِيَّانَ الكبد الحرا ، والزمان كهيئته
استدار ، والكفر قد رُدَّ ما كان عنده من المستعار ، فالحمد لله الذي أعاد الإسلام
جديدا ثوبه ، مبيضا نصره ، مخضرا نصله ، متسعا فضله ، مجتمعما شمله .

والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم والنصر [٢٨٢] الكريم ما يشرح صدور
المؤمنين ، ويمنح الجبور لكافة المسلمين ، ويورد البشرى بما أنعم الله به من
يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس سلخه ، وتلك سبع
ليال وثمانية أيام حسوما ، سخرها الله على الكفار ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم
أعجاز نخل خاوية ، وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خاوية^(٢) ، ورأيتها
إلى الإسلام ضاحكة وكانت من الكفر باكية :

فيوم الخميس الأول فتحت طبرية .

(١) الآية ١٠٥ (ك) ، السورة ٢١ (الأنبياء) .

(٢) الأصل : «خالية» والتصحيح عن س (١٤ ب) و الهامد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٩) .

ويوم الجمعة والسبت نازل الفرنج فكسروا الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة ،
وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه ، أخذ القرى وهي ظالمة .

وفي يوم الخميس الثاني سلخ الشهر فتحت عكا بالأمان ، ورفعت أعلام الإيمان ،
وهي أم البلاد ، وأخت إرم ذات العماد .

وقد أصدر هذه المطالعة و صليب الصليبوت مأسور ، وقلب ملك
الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسور ، والحديد الكافر الذي كان في يد
الكفر يضرب وجه الإسلام قد صار حديدا مسلما يعوق خطوات الكفر
عن الإقدام ، وأنصار الصليب وكباره^(١) وكل من العمودية عمدته والدير داره
قد أحاطت به يد القبضة ، وغلق رهنه فلا يقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب
والفضة ، وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها ، ونكصت من عكاملة^(٢)
الكفر على عقبها ، وعمرت إلى أن شهدت يوم الإسلام وهو خير يومها .

وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر ، وصارت
المذابح مواقف لخطباء المنابر^(٣) ، واهترت أرضها لموقف المسلم فيها وطالما
ارتجت لموقف الكافر .

فأما القتل والأسرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفا^(٤) .

وأما فرسان الداوية والاسبتارية فقد أمضى حكم الله فيهم ، وقطعتهم سيوف
نار الجحيم ، ودخل الداخل منهم إلى الشقاء المقيم ، وقتل الأبرنس كافر الكفار ،
ونشيدة^(٥) النار من يده في الإسلام كما كانت يد الكليم .

(١) س : « ركهاره » ، وما بالمتن يتفق ونص العماد .

(٢) هذان اللفطان ساقطان من س .

(٣) الأصل وس : « الخطباء والمنابر » وما هنا عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٩) .

(٤) س : « ثلاثين ألف فارس » .

(٥) الأصل : « ونشده » والتصحيح عن العماد ، أما س (١٤ ب) فإن النص فيها : « وصار

إلى المذاب المقيم في النار » .

والمعاقل التي فتحت :

طبرية ، عكا ، الناصرة ، صفورية ، قيسارية ، [٢٨٣] ، نابلس ، حيفا ،
معليا ، الفولة ، الطور ، الشقيف ، وقلاع بين هذه كثيرة .

الملك المظفر تقي الدين — ظفريه الله — مضايق لصور و^(١) احصن تبينين^(١) ،

والأخ الملك العادل سيف الدين — نصره الله — قد كوتب بالوصول فيمن
عنده من العساكر ، ويتزل في طريقه على غزة وعسقلان ، ويجهز مراكب
الأسطول المنصور إلى عكا .

وما يتأخر النهوض إلى القدس ، وهذا أوان فتحه ، ولقد دام عليه ليل
الظلام ، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه^(٢) .

ذكر فتح تبينين وصيدا وبيروت وجبيل

قد ذكرنا منازلة^(٢) الملك المظفر تقي الدين عمر بتبينين ، ولما ضايقها ولم يمكنه
فتحها كتب إلى عمه السلطان يستدعيه ليتولاها بنفسه ، فرحل السلطان من عكا
ثامن جمادى الأولى من هذه السنة ، ووصل إليها في حادى عشره ، فحصرها
وضايقها وزحف إليها وهى قلعة منيعة على رأس جبل ، فلما اشتد عليهم الحصر
راسلوا السلطان يطلبون منه الأمان^(٣) ، واستمهلوه خمسة أيام لينزلوا بأموالهم ،
فأمهلوا^(٤) ، وبذلوا رهائن من مقدميهم ، وتقربوا بإطلاق الأسارى من المسلمين

(١) هذان اللفظان ساقطان من س .

(٢) س : « السلطان الملك المظفر » وهذا خطأ .

(٣) بعد هذا اللفظ في س (١١٥) : « فأجابهم إلى ذلك على قاعدة بينه وبينهم » .

(٤) س : « فأتزلوا » .

وهم يزيدون على مائة^(١) رجل ، فكساهم السلطان وسيرهم إلى أهلهم ، ولما أخلى الفرنج البلد سيرهم السلطان إلى مامنهم ، ومعهم جماعة من العسكر ، فأوصلوهم إلى صور ، وتسلمها السلطان يوم الأحد لاثني عشرة [ليلة]^(٢) بقيت من جمادى الأولى ، وكان شرط عليهم تسليم العدد والدواب والخزائن [ففعلوا ذلك]^(٣)

ولما فرغ من تبئين سار إلى صيدا ، واجتاز في طريقه بصرفند ، فأخذها بغير قتال ، ثم سار إلى صيدا ، فلما علم صاحبها مسيره إليها ، سارعها وتركها فارغة من غير ممانع ولا مدافع ، وجاءت رسل صاحبها بمفاتيحها إلى السلطان ، وطلعت أعلامه الصفرة^(٣) على سورها^(٤) ، وكان تسلمه لها لتسع بقين من جمادى الأولى .

ثم سار السلطان إلى بيروت ، فوصلها من الغد ، فضايقها وحاصرها ثمانية أيام ، ثم طلبوا الأمان وأمنهم ، وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى .

وذكر ابن الأثير :

أن السلطان لما نازلها اغتر أهلها [٢٨٤] بحصانة البلد وقوته ، فمانعوا وقاتلوا ، وزحف المسلمون إليها مرة بعد أخرى ، وبينما الفرنج على السور يقاتلون إذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة ، وغلبة زائدة ، فاتاهم من خبرهم أن البلد قد دخله المسلمون من الناحية الأخرى قهرا وغلبة ، فأرسلوا يسألون ما الخبر ،

(١) س : « مائة » .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (١١٥) .

(٣) هذه إشارة قيمة تدل على أن أعلام صلاح الدين كانت صفراء اللون

(٤) بعد هذا اللفظ في س : « وأعطى لصاحبها جميع ما كان له فيها » .

وإذا ليس له صحة ، وأرادوا تسكين من به ، فلم يمكنهم ذلك لكثرة من اجتمع فيه من السواد ، فلما خافوا على أنفسهم من الاختلاف راسلوا في طلب الأمان على أموالهم وأنفسهم ، فأجيبوا [إلى ذلك]^(١) .

وكان صاحب جبيل من جملة الأسرى الذين سيروا إلى دمشق مع ملكهم ، فتحدث مع نائب السلطان بدمشق في تسليم جبيل على شرط إطلاقه ، فعرف السلطان ذلك ، ، فأحضر إليه مقيدا تحت الاستظهار ، والعسكر^(٢) إذ ذاك على يروت^(٣) ، فسلم حصنه ، وأطلق أسرى المسلمين الذين به ، وأطلقه السلطان كما شرط له ، [وتسلمت يروت بالأمان]^(٤) فانتظمت هذه البلاد كلها للمسلمين ، وخلص من بها من الأسر .

وذكر عماد الدين الأصفهاني — رحمه الله — :

أنه خالص في هذه السنة من الأسرى^(٥) أكثر من عشرين^(٥) ألف أسير ، ووقع في الأسر من الكفار مائة ألف أسير .

ذكر خروج المركيس إلى صور

لما انهزم القومص صاحب طرابلس من الوقعة — كما ذكرنا — سار أولا إلى مدينة صور ، وهي من أقوى بلاد الساحل وأشدّها حصانة ، فلما ملك

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٥١) .

(٢) النص في س : « وذلك على يروت » .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س (١٥١ ب) ، والنص عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٠) : « وتبعها فتح يروت وتلاها ، فانتظمت هذه البلاد » .

(٤) الأصل : « أسرى الكفر » ولا يستقيم بها المعنى ، فالمقصود أسرى المسلمين ، وقد صحح المتن بعد مراجعة الأصل المتقول عنه وهو العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٩) .

(٥) س : « ثلاثين » وما هنا يتفق النص العماد .

السلطان تبين وصيدا ويروت خاف أن يقصد السلطان صور فيأخذها ، لأنها فارغة ليس فيها من يقاتل ولا يقوى على حفظها ، فسار إلى مدينة طرابلس ، وهلك فيها — كما ذكرنا — ، وكان — كما قيل — : ” راح يبغى نجوة من هلاك فهلك “ .

وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر ، وأغوى شياطينهم ، داهية خبيثا ، نخرج في هذه السنة من داخل البحر بمال كثير للزيارة^(١) ، ولم يشعر بما جرى على الفرنج ، فأرسي بعكا ، وظن أنها لهم ، فلم يربها شيئا من عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرح^(٢) ، وضرب الأجراس وغير ذلك ، فانكر ما رأى من زى أهل البلد ، فوقف ولم يدرك ما الخبر ، وكانت الريح قد ركبت ، فأرسل الملك الأفضل نور الدين — وهو صاحب عكا — بعض أصحابه [٢٨٥] في سفينة يبصر ما هو ومن هو وما يريد ، فأناه القاصد ، فسأله المركيس عن الأخبار ، فأخبره بكسر الفرنج ، وأخذ عكا وغيرها ، وأعلمه أن صور بيد الفرنج وعسقلان وغيرها ، وحكى الأمر على جليته ، فلم يمكنه الحركة لركود الريح ، فأخذ في المخادعة ، ورد الرسول يطلب الأمان ليدخل البلد بما معه من متاع و مال ، فأجيب إلى ذلك ، فردّه مرارا كل مرة يطلب شيئا لم يطلبه في المرة الأولى ، وهو يفعل ذلك انتظارا لهبوب الهواء ليسير به ، فبينما هو في مراجعاته إذ هبت الريح ، فسار نحو صور .

وسير الملك الأفضل الشواني^(٣) في طلبه فلم يدركوه ، فأتى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير ، لأن السلطان [كان] كلما فتح مدينة أعطى أهلها الأمان ، فساروا كلهم إلى صور وكثرا لجمع بها ، إلا أنهم ليس لهم رأس

(١) س : « لزيارة البيت المقدس » .

(٢) الأصل : « الفرنج » والتصحيح عن س و (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٥) .

(٣) أنظر ما فات هنا ص ١٣ ، فامش ١

يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم ، وكانوا عازمين على مكاتبة السلطان وطلب الأمان منه ، وتسليم البلد إليه ، فأتاها المركيس وهم على ذلك العزم ، فردهم عنه ، وقوى نفوسهم ، وضمن لهم حفظ البلد ، وبذل ما معه من الأموال ، وشرط عليهم أن تكون المدينة وأعمالها له دون غيره ، فأجابوه إلى ذلك ، وأخذ أيمانهم عليه ، فأقام عندهم ودبر أحوالهم ، وشرع في تحصين البلد ، وتجديد حفر الخنادق له ، وبني الأسوار وحصنها .

ذكر فتح عسقلان وبلادها

ولما فرغ السلطان من صيدا سار إلى عسقلان ، وكانت عنده أهم من غيرها ، ^(١) لأنها على طريق الديار المصرية ، فإذا أخذت أمنت الطريق واتصلت القوافل ^(٢) ، فتسلم قبلها في طريقه الرملة ، وتبنين ، وبيت لحم ، والخليل ، واجتمع بأخيه الملك العادل سيف الدين ومن معه من العساكر المصرية ، ونازل عسقلان يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخر من هذه السنة — أعنى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة — .

وكان السلطان قد أحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية إليه من دمشق ، وقال لهما : ” إن سلمتا البلاد إلى فلنكما الأمان “ ، فأرسلا إلى من بعسقلان من الفرنج يأمرؤنهم بتسليم البلد ، فلم يسمعوا أمرهما ، وردوا عليهما أقبح رد ، وجبهوهما [٢٨٦] بما يسوءهما ، فلما رأى السلطان ذلك جد في قتال المدينة ، ونصب المنجنقات عليها ، وزحف مرة بعد أخرى ، وتقدم النقاؤون إلى السور ، فنالوا من باشورته ^(٣) شيئا .

(١) هذه الجملة غير موجودة في س .

(٢) أنظر ما فات هنا ص ٨١ ، هامش ١

هذا وملكهم يكرر المراسلات إليهم بالتسليم ، ويشير عليهم ، ويعددهم أنه إذا أطلق أضرم البلاد على المسلمين نارا ، واستنجد بالفرنج من البحر ، وأجلب الخيل والرجل عليهم من أقاصى بلاد الفرنج وأدانيها ، وهم لا يجيبون إلى مايقول ، ولا يسمعون مايشير به ، ولما رأوا أنهم لايزدادون كل يوم إلا ضعفا ووهنا ، وإذا قتل الرجل لايجدون له عوضا ، ولا لهم نجدة ينتظرونها ، راسلوا ملكهم الماسور في تسليم البلد على شروط اقترحوها ، فأجابهم السلطان إليها ، وكانوا قتلوا في الحصار الأمير حسام الدين إبراهيم بن حسين المهراني ، تخافوا عند مفارقة البلد أن تقتلهم عشيرته ، فاحتاطوا فيما شرطوا لأنفسهم ، فأجيبوا إلى ذلك جميعه ، وسلموا البلد في سلخ جمادى الآخرة ، وكانت مدة مقام الحصار أربعة عشر يوما ، وسيرهم السلطان ونساءهم وأولادهم إلى البيت المقدس .

ذكر فتح غزة وما معها من الحصون

وما برح السلطان مقيا بظاهر عسقلان حتى تسلم حصون الداوية ، وهى : غزة والنطرون ، وبيت جبريل .

وكانت مدة مقام عسقلان بيد الفرنج خمسا وثلاثين سنة فإن الفرنج ملكوها من المصريين لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

ووصل إلى السلطان وهو نازل بظاهر عسقلان ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان ، فقرت عينه به .

وكان السلطان قد استدعى من مصر الأساطيل المنصورة .

وقال العماد :

«بجاءت كالفتح بالغلك الموانخ، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجاً، وأفواج تراحم أفواجاً، تدب على البحر عقاربها، وتخب كقطع الليل سمائها، والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدمها، وضرغام غايتها وهمامها، فطفق يكسر ويكسب، ويسل ويسلب، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه» .

[٢٧٣] ذكر فتح بيت المقدس

وحين خلا سر الساطان من فتح عسقلان وماحولها، ووصل الأسطول، سار متوجها إلى البيت المقدس وبه البترك المعظم^(١)، وهو عندهم أعظم شأنا من ملكهم، وبه أيضا بلدان^(٢) بن بارزان — صاحب الرملة —، ومرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك، وبه أيضا من خاص من فرسانهم من حطين [وغيرها]^(٣) وقد جمعوا وحشدوا، واجتمع أدل عسقلان ونواحيها إليهم [وهم]^(٣) يرون أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون عليهم البيت المقدس، إذ هو بيت معبودهم، ومحل تجسد^(٤) ناسوتهم، — كما زعموا — بلاهوتهم، وفيه قمامة التي يدعونها القيامة، ومحل ضلالتهم، وقبلة جهالتهم، وفيها زعموا أن المسيح [عليه السلام]^(٥) دفن بعد الصلب، وقام بعد ثلاث^(٥)

(١) الأصل : «الأعظم» والتصحيح عن س (١٧ ب) و (ابن الأثير : الكامل، ج ١١، ص ٢٠٦) وهو المرجع المقول عنه هنا .

(٢) هو بليان الثاني الإبليني (Balain II of Ibelin) والاسم في ابن الأثير : «باليان بن يرزان»

(٣) ما بين الحاصرتين عن س .

(٤) هذا اللفظ ساقط من س .

(٥) في س (١٧ ب) : «ذلك» .

من القبر ، وصعد إلى السماء ، فهم يعتقدون أن بذل الأنفس والأموال والأولاد بعض ما يجب عليهم في حفظه والذب عنه ، فخصنوه في تلك الأيام بكل ممكن ، ونصبوا المنجنيق على السور ليمنعوا ممن يريد النزول عليه والدنو منه .

ولما قرب السلطان منه تقدم الأمير جمال الدين شروين بن حسن الزرزارى في جماعة من أصحابه ، غير محتاط ولا حذر ، فلقى جماعته من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يزكا^(١) ، فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه ، فأهم المسلمين فقده ، وبفجوا بقتله .

وسار السلطان في عساكر المسلمين حتى نزل على القدس يوم الأحد خامس عشر رجب ، ونزل بالجانب الغربى ، وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة ، لقد تحاذر [كذا] أهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة ، بما يزيد على ستين ألفا ما عدا النساء والصبيان .

وبقى السلطان خمسة أيام يطوف حول البلد ، لينظر من أين يقاتله ، لأنه في غاية الحصانة والامتناع ، فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو [باب عمود أو كنيسة صهيون]^(٢) ، فانتقل إلى هذه الناحية يوم الجمعة لعشر بقين من رجب ، ونصب عليها المنجنقات ، وأصبح العدو وقد فرغ من نصبها ، ورمى بها ، ونصب العدو على سور البلد منجنقات ورموا بها ، وتقاتل الفريقان أشد قتال رآه الناس ، وكل [٢٨٨] منهم يراه فرضا واجبا في دينه ، لا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني ، بل كانوا يمتنعون فلا يمتنعون ويزجرون فلا يتزجرون .

وكانت خيالة^(٣) الفرنج يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد فيقاتلون وبارزون ، فيقتل من الفريقين جماعة ، فمن استشهد من المسلمين على القدس الأمير

(١) راجع ما فات هنا ص ٣٨ ، خامس ٣

(٢) الأصل رس : « باب عمودا » والتصحيح عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٧) .

(٣) كذا في الأصل وفي ابن الأثير ، وفي س : « رجالة » .

عز الدين عيسى بن شهاب الدين بن مالك العقيلي ، الذي كان أبوه صاحب قامة جعبر ، وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم ، فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ، وحملوا حملة رجل واحد ، فأزالوا الفرنج عن مواقعهم ، وأدخلوهم بلدهم ، ووصل المسلمون إلى الخندق ، فجاوزوه والتصقوا بالسور فنقبوه ، وزحف الرماة يرمونهم ، والمجانيق توالى الرمي ، ليكشف العدو عن السور ، ليتمكن المسلمون من النقب ، فلما نقبوه حشوه [بالأخشاب] ^(١)

ولما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين ، وتحكم المنجنقات في السور ، وتمكن النقاين من النقب ، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك ، اجتمعوا يتشاورون فيما يأتون ويذرون ^(٢) ، فاتفق رأيهم على طلب الأمان ، وتسليم القدس للسلطان ، فأرسلوا جماعة من كبرائهم في طلب الأمان وتسليم القدس للسلطان ، وامتنع السلطان من إجابتهم للأمان وقال :

« لا أفعل إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه [من المسلمين] ^(٣) سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي ، وجزاء السيئة بمثلها ^(٤) » .

فلما رجع الرسل خائنين محرومين أرسل باليان بن بارزان يطلب الأمان لنفسه ، ليحضر عند السلطان في هذا الأمر وتحريره ، فأجيب إلى ذلك ، وحضر ورغب في الأمان ، وسأل فيه فلم يجبه إلى ذلك ، فاستعطفه فلم يعطف عليه ، واسترحمه فلم يرحمه ، فقال له :

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (١١٨) ، والنص في ابن الأثير : « حشوه ، ما جرت به العادة » ، والنص عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٤) : « والتصقوا بالسور فنقبوه ، وعلقوه وحشوه وأحرقوه » .

(٢) س : « ويدبزون » .

(٣) ما بين الحاصرتين من س .

(٤) س : « وجزاء السيئة سيئة مثلها » وما هنا ، يتفق ونص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٧) وهو الأصل المنقول عنه هنا .

”أيها الملك : اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم^(٥) إلا الله تعالى ، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظنا منهم أنك تجيبهم إليه ، كما أجبنا غيرهم ، وهم يكرهون الموت ، ويرغبون في الحياة ، فإذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ، ونحرق ما نملكه من أموالنا وأمتعتنا ، ولا نترككم تغنمون منا دينارا ولا درهما ، ولا تأسرون رجلا ولا امرأة ، فإذا فرغنا من ذلك كله أحرقنا الصخرة والمسجد الأقصى ، وغيرهما من المواضع الشريفة ، [٢٨٩] ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين ، وهم خمسة^(١) آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا إلا قتلناه ، ثم نخرجنا إليكم ، وقاتلنا قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه ، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ، ونموت عزاء ونظفركرما^(٢)“ .

فاستشار السلطان أصحابه ، فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان ، وأن لا يخرجوا ويحملوا على مالا ندرى عاقبة الأمر فيه ، وعن أى شيء ينجلي الأمر ، وقالوا :

”نحسب أنهم أسارى بأيدينا ، فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم“ . فأجاب السلطان إلى بذل الأمان للفرنج ، واشترط : أن يزن كل رجل عشرة دنانير ، يستوى فيها الغنى والفقير ، وتزن المرأة خمسة دنانير ، ويزن الطفل من الذكور والإناث دينارين ، فمن أدى ذلك إلى أربعين يوما نجا ، ومن انقضت الأربعون يوما ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا .

فبذل الملك باليان بن بارزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار ، فأجيب إلى ذلك .

(٥) س : « لا يعلم عددهم » .

(١) س : « ستة » . وما هنا يتفق والأصل المتقول عنه وهو (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٢٠٨) . وأظن أيضا البراد (الرضتين ، ج ٢ ، ص ٩٥) .

(٢) س : « ونموت أعزاء كراما ولا نموت أذلاء لنا » ، والنص هنا يتفق ونص ابن الأثير .

وسلمت المدينة يوم الجمعة لثلاث بقين من رجب من هذه السنة — أغنى
سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة —

وكان ذلك اليوم مشهودا ، ورفعت الأعلام الإسلامية على الأسوار ، ورتب
السلطان على كل باب من أبواب البلد أمينا من الأمراء ، ليأخذوا من أدله
ما استقر عليهم ، فاستعملوا الخيانة ، ولم يؤدوا الأمانة ، واقتسم الأمناء الأموال ،
وتفرقت أيدي [سبا] ^(١) ، ولو أديت فيها الأمانة ، لملائت الخزائن ، فإنه كان
فيه ستون ألفا ، ما بين فارس وراجل ، سوى ما يتبعهم من النساء والولدان
والأطفال ، وأطلق باليان بن بارزان ثمانية عشر ألف [رجل] ^(٢) ، ووزن
عنهم ثلاثين ألف دينار ، وبقي بعد هذا كله من لم يكن معه ما يعطى وأخذ أسيرا
سنة عشر ^(٣) ألف آدمى ما بين رجل وامرأة وصبي ، وهذا بالضبط اليقين .

ثم إن كل واحد من الأمراء وأصحاب الأطراف ادعى أن جماعة من رعية
إقطاعه مقيمون بالقدس ، فكان يطلقهم ويأخذ منهم القطيعة ، كمظفر الدين
بن زين الدين ، ادعى أن جماعة من أهل الرها بالقدس ، وعدتهم ألف نفس ،
وكذا صاحب البيرة ، ادعى أن فيه جماعة من أهل بلده من الأرمن ، وعدتهم
خمسمائة نفس .

وكان جماعة من الأمراء يلبسون الفرنج زى الجند [٢٩٠] من المسلمين
ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قرروها ، واستوهب جماعة من السلطان
عددا من الفرنج ، فوهبهم لهم ، فأخذوا قطيعتهم .

(١) ما بين الحاصرتين عن س وابن الأثير .

(٢) ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٨) ، والنص في س : « وأطلق
باليان بن بارزان ثلاثة الاف رجل ووزن عنهم سنين ألف دينار » .

(٣) س (١١٩) : « ستة الاف » وما هنا يتفق والأصل المقول عنه وهو ابن الأثير .

وكان في القدس بعض نساء ملوك الروم وقد ترهبت وأقامت به ، ومعها من الحشم والعبيد والحواري خلق كثير ، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم ، فطلبت الأمان لنفسها ولمن معها ، فأمنها وسيرها .

وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور [كي]^(١) وهي ابنة الملك أماري ، وكانت مقيمة بالقدس مع مالها من الخدم والحوال^(٢) والحواري ، فاستأذنت السلطان في الاجتماع بزوجها ، وكان مقيما في برج نابلس ، موكلابه ، فأذن لها في ذلك ، فتوجهت إليه وأقامت عنده^(٣) .

وأنت أيضا امرأة الابرنس أرناط — صاحب الكرك — الذي قتله السلطان بيده يوم حطين ، فشفعت في ولد لها مأسور ، فقال لها السلطان : ” إن سلمت الكرك أطاقتة “ ؛ فسارت إلى الكرك ، فلم يسمع منها الفرنج الذين فيه ، ولم يساموه ، فلم يطلق ولدها ، لكنه أطلق مالها ومن يتبعها .

ونخرج البطرك الكبير الذي للفرنج ، ومعه من أموال البيع — منها الصخرة والأقصى وقمامة — مالا يعلمه إلا الله تعالى ، وكان له من المال مثل ذلك ، فلم يعرض له السلطان ، فقليل له : ” خذ ما معه لتقوى به المسلمين “ فقال : ” لا أغدر به “ ؛ ولم يأخذ منه غير عشرة^(٤) دنانير ، وسير الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور .

(١) ما بين الحاصرتين عن س ، والعماد (الروضين ، ج ٢ ، ص ٩٦) .

(٢) س : « الخيول » وما هنا يتفق والنص المنقول عنه وهو العماد (المرجع السابق) .

(٣) في س (١٩ ب) بعد هذا اللفظ : « إلى أن خلا جميعا » .

(٤) س : « عشرين ديناراً » ، وما هنا يتفق ونص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٨) .

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير^(١) من ذهب ، فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم إلى أعلا القبة ليقتلعوا الصليب ، فحين صعدوا نظر المسلمون إليهم والأفرنج لينظروا ماذا يصنعون ، فلما قلعوه وسقط ، صاح الناس كلهم صوتا واحدا ، من البلد ومن ظاهره ، المسلمون والأفرنج ، أما المسلمون فكبروا فرحا ، وأما الأفرنج فصاحوا توجعا وتفجعا ، فسمع الناس صيحة كادت الأرض تميد بهم لعظمتها وشدتها ، ولم يتأت صلاة الجمعة يوم الفتح ، وضاق الوقت [٢٩١] لأدائها .

وكان المسجد الأقصى — لاسيما^(٢) محرابه — مشغولا بالخنازير والخبث ، وما أحدثوه من الأبنية ، فإن الداوية بنوا غربى الأقصى أبنية ليسكنوها ، وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هري^(٣) ومستراح ، وغير ذلك ، وأدخلوا بعض الأقصى فى أبنيتهم ، وبنوا فى وجه المحراب جدارا ، وتركوه هريا للغلة ، وقيل اتخذوه مستراحا عنادا للإسلام وبغيا ، فأمر السلطان بإزالة ما أحدثوه من البنيان ، وكشف الجدار الساتر للمحراب ، وتنظيفه وما حوله من الأقدار والنجاسات ، ونصب المنبر لإقامة الخطبة الإسلامية ، ونقض ما أحدثوه بين^(٤) السوارى ، وبسط صحن الجامع بالبسط النفيسة بدل الحصر والبوارى ، وتعليق القناديل وإقامة شعار الدين .

(١) هو صليب الصلبوت ، وقد وصفه العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨) بقوله : « وهم يزعمون أنه من الخشب التى يزعمون أنه صلب عليها مبودهم ، وقد غلقوه بالذهب الأحمر وكلوه بالدر والجوهر... الخ » ، أنظر أيضا ما فات هنا ص ١٨٩ هامش ١

(٢) هذا اللفظ ساقط من س .

(٣) الهري ، والجمع «أهرا» و«هري» البيت الكبير الضخم تخزن فيه الغلال أو طعام السلطان أنظر : (اللسان) و(المقريزى ، إغاثة الأمة ، نشر زيادة والشبال ، ص ٢٨) .

(٤) الأصل : « ما أحدثوا من السوارى » وس (١٢٠) : « وخفض ما أحدثوا من السوارى » والتصحيح عن الأصل المنقول عنه هنا وهو العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٨) .

ذكر أول خطبة

خطب بها بيت المقدس بعد الفتح

ولما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح ، وهو الرابع من شعبان ، حضر المسلمون الحرم الشريف ، ففَصَّ بالزحام ، فإنه من حين^(١) تناسع الناس به في سائر الأطراف ، وكسر العدو ، والقصد إلى فتح بيت المقدس ، توافى الناس من كل صقع ، وجاءوا من كل فج ، ليفوزوا بالزيارة ويحظوا بالمشاهدة للفتح ، فاجتمع من أهل^(٢) الإسلام عدد عظيم لا يقع عاينهم الإحصاء ، فلما أذن الظهر من يوم هذه الجمعة المباركة حضر السلطان بقبة الصخرة المقدسة وهو في غاية السرور والفرح ، إذ جعله الله تعالى في هذا الفتح ثانيا لعمر بن الخطاب — رضى الله عنه — الفاتح الأول وميزه بهذه المنقبة دون سائر الملوك من ملوك الإسلام^(٣) .

وامتلأت عراض المسجد وصحورنه بالخلائق ، واستعبرت العيون من شدة الفرح ، وخشعت الأصوات ، ووجلّت القلوب ، وكان جماعة من الأكابر والعلماء قد رشحوا أنفسهم للخطبة في هذا المسجد المعظم ، وأخذوا لذلك أهبتة وألقوا ما ينخبون به ، ومنهم من عرض للسلطان يطلب ذلك ، ومنهم من صرح ، والسلطان ساكت لا يبدي سره ، فلما حان وقت الخطبة نصَّ على القاضي محي الدين بن زكى الدين ،

(١) هذا اللفظ ساقط من س .

(٢) س : « أعمال » .

(٣) س : « دون سائر ملوك المسلمين » .

وقدمه لهذا الأمر الجليل ، فرقى^(١) المنبر بالأهبة السوداء العباسية ، وخطب خطبة بديعة بليغة ، هي :

[٢٩٢] ” نَقِطِعْ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ “^(٢) .

” الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ “^(٣) .

” الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ “^(٤) ثم الذين كفروا يَرْبِّهِمْ يَعْدِلُونَ “^(٥) .

” وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا “^(٦) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا “^(٧) .

” الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ “^(٨) وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ، قَبْلًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ، مَا كَثُرِينَ فِيهِ أَبَدًا ، وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا “^(٩) .

(١) الأصل رس : « فرقا » .

(٢) السورة ٦ (الأنعام) ، الآية ٥٤ (ك) .

(٣) السورة ١ (الفاتحة) : الآية ٢ (ك) .

(٤) بعد هذا اللفظ في الأصل : « الآية » أى أن الناصح لم يشأ أن يتم الآية اختصارا ، وقد أتتها صاحب شفاء القلوب (ص ١٣٥) ، وقد آثرنا نحن أيضا إتمامها هنا .

(٥) السورة ٦ (الأنعام) ، الآية ١ (ك) .

(٦) السورة ١٧ (الإسراء) ، الآية ١١١ (ك) .

(٧) السورة ١٨ (الكهف) ، الآيات ١ — ٥ (ك) هذا ولم يتم صاحب شفاء القلوب هذه الآيات كذلك وإنما وقف عند لفظ « قبا » ثم قال ، إلى قوله « كذبا » فأتينا الآيات ليكمل النص .

”قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يُشْرِكُونَ“ (١) .

”الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة
وهو الحكيم الخبير ، يعلم ما يابح في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء
وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور“ (٢) .

”الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً“ (٣) .

الحمد لله معز الإسلام بنصره ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره
ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذي قدر الأيام دولا بعدله ،
وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاض على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين
كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خائفته فلا ينازع ، والآمر بما
يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع .

أحمده على إظفاره وإظهاره ، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهير
بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره
وظاهر جهاده .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحد الأحد ، الفرد الصمد ،
الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ،
وأرضى به ربه .

(١) السورة ٢٧ (النمل) ، الآية ٥٩ (ك) .

(٢) السورة ٣٤ (سبا) ، الآيتان ١ ، ٢ (ك) .

(٣) السورة ٣٥ (فاطر) ، الآية ١ (ك) . وهذه الآية لم تذكر في نص الخطبة في نسخة من .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، دافع الشرك ، وداحض الإفك ، الذى أسرى بعبده ليلا^(١) من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السموات العلى ، إلى سدره المنتهى ، عندها جنة المأوى ، ما زاغ البصر وما طغى .

صلى الله عليه وعلى خليفته أبى بكر الصديق ، السابق إلى الإيمان ؛ وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصليبان ؛ وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذى النورين جامع القرآن ؛ وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، منزل الشوك ومكسر الأوثان ؛ وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان .

أيها الناس : أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم [٢٩٣] من استرداد هذه الضالة ، من الأمة الضالة ، وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها فى أيدي المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإمالة الشوك عن طريقه ، بعد أن امتد عليها رواقه^(٢) واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد ، فإنه بنى عليه ، وإنه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه ، وهو موطن أبيكم إبراهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليهما السلام ، وقبلتكم التى كنتم تصلون إليها فى ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومقر الرسل ، ومهبط الوحي ، ومنزل تنزل الأوامر والنهى ، وهو فى أرض المحشر ، وصعيد المنشر^(٣) ، وهو فى الأرض المقدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين ،

(١) هذا اللفظ ساقط من الأصل .

(٢) س : ” امتد عليه رواقه ” وهو خطأ ، وما هنا يتفق ونص الخطبة فى (الروضين ، ج ٢ ،

ص ١١٠) . و (الحنلى : شفاء القلوب ، ص ٣٥ ب) .

(٣) س : ” المنشر ” . وما هنا يتفق والنص فى المرجعين السابقين .

وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحها عيسى، الذي شرفه الله برسالته، وكرّمه بنبوته^(١)، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته^(٢)، فقال تعالى: «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِي»^(٣) وقال: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ»^(٤).

وهو أول القبالتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تُعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سكان بلاده، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجارٍ، ولا يباريكم في شرفها مبارٍ^(٥)، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوح^(٦) العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية، جددتم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات^(٧) الخالدية.

فجزاكم الله عن محمد نبيه أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء، وتقبل منا ومنكم ما تقرّبتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء، فاقدروا — رحمكم الله — هذه النعمة [٢٩٤]

(١) هذه الجملة غير موجودة في س (١٢١) ولا في (شفاء القلوب)، ولكنها موجودة

في الروضتين.

(٢) السورة ٤ (النساء)، الآية ١٧٢ (م).

(٣) السورة ٥ (المائدة)، الآية ١٧ (م).

(٤) كذا في الأصل وفي الروضتين، وفي س والشفاء: «ولا يباريكم في شرفها عار».

(٥) كذا في الأصل وفي الروضتين، وفي س والشفاء، «والفتوحات».

(٦) كذا في الأصل والروضتين؛ وفي س والشفاء (١٣٦): «والهجمات».

حق قدرها ، وقوموا لله بواجب شكرها ، فله النعمة^(١) عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء ، وتبليجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرَّب به عيناً^(٢) الأنبياء والمرسلون ، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذى يفتح عليه البيت المقدس فى آخر الزمان ، والجند الذى يقوم بسيوفهم بعد فترة من الرسل^(٣) أعلام الإيمان ، فيوشك أن تكون التهانى به بين أهل الحضراء أكثر^(٤) من التهانى به بين أهل الغبراء .

أليس هو البيت الذى ذكره الله فى كتابه ، ونصَّ عليه فى خطابه ؟ فقال تعالى : ”سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى“^(٥)

أليس هو البيت الذى عظَّمته الملوك ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة من إلهكم عز وجل ؟

أليس هو البيت الذى أمسك الله عز وجل فيه الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب ؟

أليس هو البيت الذى أمر الله [تعالى] موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلاً ، وغضب عليهم من أجله ، وألقاهم فى التيه عقوبة العصيان ؟

(١) كذا فى الأصل والروضتين ، وفى من والشفاء : ”المنة“ .

(٢) الأصل : ”وقرت به أعين الأنبياء والمرسلون“ ، وفى من : ”وفره عين الأنبياء المرسلون“ ، وما هنا صيغة (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١١) ، وهى أصح .

(٣) كذا فى المراجع الثلاثة ، وفى الروضتين : ”النبوة“ .

(٤) الأصل ومن : ”لأكثر“ والتصحيح عن المرجعين الآخرين .

(٥) السورة ١٧ (الإسراء) ، الآية ١ (ك) .

فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم لما نكثت عنه بنو إسرائيل وقد فضلهم^(١)
على العالمين ، ووفقكم لما خذل عنه أمم ممن كان قبلكم من الأمم الماضية ، وجمع
كلماتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى

فلينبهكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم
جنده ، وشكر لكم الملائكة المنزلون على ما أهديتهم إلى هذا البيت من طيب
التوحيد ، ونشر التقديس والتحميد^(٢) ، وما أمطتم فيه عن طرقهم من أذى
الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاسد الخبيث ، فهو^(٣) الآن يستغفر^(٤) لكم
أملك السموات ، ويصل^(٥) عليكم الصلوات المباركات .

فاحفظوا — رحمكم الله — هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله
التي من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع
[٢٩٥] الهوى ، ومواقف^(٥) الردى ، ورجوع القهقري ، والنكول عن العدى ،
وخذوا في انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقى من الغصة ، وجاهدوا في الله حق جهاده ،
وبيعوا أنفسكم عباد الله في رضاوا إذ^(٦) جعلكم من عباد^(٧) ، وإياكم أن

(١) س وحدها : " وقد فضلتكم " ، وهو خطأ .

(٢) كذا في الأصل والروضتين ، وفي س : " والتجيد " ، وفي الشفاء (٣٦ ب) : " والتجيد
والتحميد " .

(٣) الأصل : " فهذا الآن " ، وفي الروضتين والشفاء : " والآن " وما هنا صيغة س .

(٤) الأصل : " تستغفر " و " تصلى " .

(٥) كذا في الأصل ، وفي س والشفاء : " ومراقبة " ، وفي الروضتين : " ومواقفة " .

(٦) كذا في الأصل والروضتين ، وفي س والشفاء : " الذى " .

(٧) كذا في الأصل والشفاء ، وفي س : " من عباده الذين اصطفى " ، وفي الروضتين :
" من خير عباده " .

يستذلکم الشیطان ، وأن یتداخلکم الطغیان ، فیخیل إلیکم أن هذا النصر
بسیوفکم الحداد ، وبخیولکم الجیاد ، وبجلادکم فی موضع الجلاد ، والله ما النصر
إلا من عند الله ، [إن الله عزیز حکیم] ^(١) .

واحدروا — عباد الله — بعد أن شرفکم بهذا الفتح الجلیل ، والمنح الجزیل ،
وخصکم بهذا النصر المبین ، وأعلق أیدیکم بحبله المتین ، أن تقرؤوا كثيرا
من مناهیه ، وأن تأتوا عظیما من معاصیه ، فتکونوا کالتی نقضت غزلها من بعد
قوة أنکاثا ، والذي آتیناه آیاتنا فانسلخ منها فاتبعه الشیطان فكان من الغاوین ،
والجهاد الجهاد ، فهو أفضل عباداتکم وأشرف عاداتکم ، انصروا الله ینصرکم ،
اذکروا الله یدکرکم ، اشکروا الله یزدکم ویشکرکم ، جدوا ^(٢) فی حسم الداء ، وقطع
شأفة الأعداء ، وتطهیر بقیة الأرض التی أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع
الکفر واجتثوا أصوله ، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية والملة المحمدية .

الله أكبر ، فتح الله ونصر ، وغلب الله وقهر ، وأذل الله من کفر .

واعلموا — رحمکم الله — أن هذه فرصة فاتhezوها ، وفریسة فناجزوها ،
ومهدة فأنخرجوا إلیها هممکم وأبرزوها ، وسيروا ^(٣) إلیها سرايا عزماتکم
وجهزوها ، فالأمور بأواخرها ، والمکاسب بذخائرها ، فقد أظفرکم الله بهذا
العدو المخذول وهم مثلکم أودون ، فكیف وقد أضحی فی قبالة الواحد منهم منکم
عشرون ، وقد قال تعالى : ” إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ” ^(٤)

(١) الأصل : ” من عند الله العزيز الحكيم ” ، والتصحيح عن المراجع الثلاثة الأخرى •

(٢) كذا فی الأصل والروضتين ، وفي س (١٢٢) والشفاء : ” خذوا ” •

(٣) الأصل : ” وامرؤا ” والتصحيح عن المراجع الثلاثة الأخرى •

(٤) السورة ٨ (الأقوال) ، الآية ٦٥ (م) •

أعانا الله وإياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجره، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده ، ”إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَمْزِلْكُمْ فَنَ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ“ (١) .

ثم أتم الخطبة الأولى وجلس .

ثم قام وخطب الثانية كما جرت العادة :

[٢٩٦] ثم دعا للخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، ثم قال :

”اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحامي عن دينك الدافع ، والذاب عن حرمك [وحرمة رسولك] (٢) الممانع ، السيد الأجل (٣) الملك الناصر جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس ، أبي المظفر يوسف [صلاح الدين] بن أيوب ، محي دولة أمير المؤمنين .

اللهم عم بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك براياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه ، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاهه .

اللهم أبق للإسلام مهجته ، ووق للإيمان حوزته ، وانشر في المشارق والمغارب دعوته .

اللهم فكما فتحت على يديه البيت المقدس ، بعد أن ظنت [به] الظنون ، وابتلى المؤمنين ، فافتح على يديه دائي الأرض وقواصيها ، وملكه صياصي الكفر

(١) السورة ٣ (آل عمران) ، الآية ١٦٠ (م) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (٢٢ ب) ، والشفاء (ص ١٣٧) .

(٣) بعد هذا اللفظ في س والشفاء ”والكهف الأطل“ .

وبواصيه . فلا يبق منها كتيبة ، لا مرفه ، ولا حمى ، ولا ورفه ،
ولا طائفة بعد طائفة^(١) ، لا الحفها من سبقها .

اللهم اشكر عن محمد - صلى الله عليه وسلم - سعيه ، وأنفذ في المشارق
والمغرب أمره ونهيه ، وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك
وأكنافها .

اللهم ذلل به معاطس^(٢) الكفار ، وأرغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب
ملكه على الأمصار ، واثبت سرايا جنوده في سبيل الأقطار .

اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه في بيته وبني أبيه
الملوك الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقص باعزاز أوليائه وأوليائهم .

اللهم فكما أجريت على يده في الإسلام^(٣) هذه الحسنة التي تبقى على الأيام ،
وتتخلد على مرور الشهور والأعوام ، فارزقه الملك الأبدى الذي لا ينفد في دار
المتقين ، وأجب دعوته ودعائه في قوله : ” رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ بِنِعْمَتِكَ الَّتِي
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ [٢٩٧]
فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ “^(٤) .

ثم دعا بما جرت به العادة ، ونزل وصلى بالناس صلاة الجمعة .

(١) بعد هذا اللفظ في س والشفاء : ” بهرتك “ .

(٢) بعد هذا اللفظ في س والشفاء : ” عزتك “ .

(٣) بعد هذا اللفظ في س فقط : ” بهرك “ .

(٤) بعد هذا اللفظ في س والشفاء : ” أأاف “ .

(٥) هذا هو نص الأصل والروصين ، وفي س والشفاء : ” وكما أجريت على يدي نعمتك هذه

الحسنة التي بقى على الآباء “ وهي جملة مصط به المعنى .

(٦) السورة ٢٧ (النمل) الآية ٩ . (ك)

ولما قضيت الصلاة نُصب سرير الوعظ [وتقدم السلطان صلاح الدين إلى زين الدين الواعظ]^(١) ، بفلس وذكر الفتح ، وفضائل الأرض المقدسة ، والصخرة وما ورد فيها من الأخبار والآثار ، فحلب بعبارته العبرات ، وشار^(٢) العسل بمعسول الإشارات .

ثم خطب مجي الدين بالبيت المقدس بعد هذه الخطبة ثلاث خطب كلها من إنشائه .

ذكر نقل المنبر

الذي أنشأه نور الدين — رحمه الله — إلى البيت المقدس

لما فتح السلطان القدس أمر بعمارة المحراب الغربي^(٣) القديم وترخيمه ، ووضع منبر رسمي ليقام عليه الفرض ، واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن فائق لائق بذلك المكان ، وكان نور الدين محمود — رحمه الله — قد أنشأ منبرا برسم الأقصى قبل فتح القدس بذي القعدة سنة ٥٠٠ هـ ، لأنه — رحمه الله — كانت أطماعه متعلقة بفتح القدس ، وأمانيه لم تزل تحدث به ، وكان بحلب رجل نجار يقال له ”الأختريني“ من ضيعة تعرف بأخترين ، لم يكن له نظير في صناعته ، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيت المقدس ، فقال له : ”اجتهد أن تأتي به على أحسن نعت يمكن ، وأحكمه“ ، فجمع الصناع ، وبالع في إتقانه وصنعتة ، وآتمه في سنتين ، ثم اتفق أن جامع حلب في الأيام النورية أحرق واحتيج

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (١٢٣) يتضح بها المعنى ، راجع أيضا العماد (الروضتين ،

ج ٢ ، ص ١٠٩) .

(٢) الأصل : ”رشاب“ والتصحيح عن العماد .

(٣) الأصل : ”المحراب الغربي“ وما هنا عن س .

إلى منبر ، فنصب ذلك المنبر ، وتولى ذلك النجار عمل محراب حلب مشابها
للمنبر في الرسم ، ومن رأى الآن محراب حلب ، شاهد^(١) فيه مثال المنبر المقدسى .
فلما من^(٢) الله سبحانه على السلطان الملك الناصر بفتح بيت المقدس تقدم
بحمل المنبر من حلب ، فحمل ونصب بالمسجد الأقصى ، وهو الآن منصوب .
ثم أمر صلاح الدين فعمل للجامع حلب منبر شبيه المحراب والمنبر الذى
في القدس ، فكان كما أراد^(٣) .

ذكر ما أزاله السلطان [صلاح الدين]

من آثار الشرك بالبيت المقدس

وكان الفرنج قد بنوا على الصخرة المقدسة كنيسة ، وستروها بالأبنية ، وغيروا
أوضاعها ، وملئوها بالصور ، وندبوا في ترخيمها أشباه الخنازير ، ونصبوا عليها
مذبحا ، وعينوا بها مواضع للرببان ، ومخط الإنجيل ، وأفردوا فيها لموضع القدم
قبة صغيرة مذهبة بأعمدة الرخام ، وأمر السلطان بمحو تلك الآثار كلها ، وأزال عن
الصخرة تلك الأبنية ، فأبرزها للعيون ، ولم يكن يظهر منها قبل الفتح إلا قطعة
منها ، وكان الفرنج قد قطعوا [٢٩٨] منها قطعا وحملوا منها إلى قسطنطينية^(٤) ،
ونقلوا منها إلى جزيرة صقلية ، وقيل كانوا يديعونها بوزنها ذهباً ، وقيل إن بعض
ملوكهم تقدم بستر الصخرة إشفاقاً عليها من القطع ، فتولى إصلاحها والقيام بأمرها
الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري ، وأدار عليها شبابيك من حديد .

(١) الأصل : " شاهد مثال فيه مثال " وقد حذفت مثال الأولى ليستقيم المعنى ، وفي س :
" شابهه فيه مثال " .

(٢) الأصل : " منا " والتصحيح عن س (٢٣ ب) .

(٣) ما بين الحامرتين زيادة عن س (٢٣ ب) .

(٤) الأصل : " قسطنطينية " .

وأحضر الملك المظفر تقي الدين — رحمه الله — [إلى] ^(١) قبة الصخرة أحمالا من ماء الورد وتولى بيده كنس ساحاتها وعراصها ، ثم غسلها بالماء مرارا حتى تطهرت ، ثم أفاض عليها ماء الورد ، ثم طهر حيطانها ، وغسل جدرانها ، ثم بنجرها ^(٢) بجامر الطيب ، وفرق مالا كثيرا على الفقراء .

وجاء الملك الأفضل — رحمه الله — ببسط نفيسه ^(٣) ، ففرشها فيها .

ورتب السلطان في الجامع الأقصى من يقوم بوظائف الخطبة والإمامة ، ورتب في قبة الصخرة إماما حسنا ، ووقف عليها ^(٤) دارا وأرضا وبستانا ، وحمل إليها وإلى المحراب والمسجد الأقصى مصاحف وختمات وربعات منصوبة على الكراسي ، ورتب القومة والمؤذنين ، وجدد بهما شعار الدين .

ثم عين كنيسة صندحنه ^(٥) مدرسة للفقهاء الشافعية ، ووقف عليها وقوفاً جليلاً ، وعين دار البطرك ^(٦) رباطاً للفقراء .

وكان لأمرأء ^(٧) الأفرنج ومقدميهم مقابر مجاورة للصخرة وباب الرحمة ^(٨) قباب معمورة فأزالها ومحا آثارها .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة الأصل المنقول عنه هنا باختصار وهو العباد الاصفهانى فى البرق الشامى (الروضتين ج ٢ ، ص ١١٤) .

(٢) الأصل : ” بنجرها ” ، وقد صححت بعد مراجعة المرجع السابق ومن .

(٣) هذا اللفظ مأخوذ من من .

(٤) الأصل : ” عليه ” والتصحيح عن من والمرجع السابق .

(٥) الأصل . ” صيد حنه ” والتصحيح عن العباد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٤) والمقصود كنيسة ” القديسة حنا أرسنت آن ” وقد ذكر العباد أن موقع هذه الكنيسة كان عند باب أسباط ، أما نسخة من ، فالنص فيها : ” ثم بنى مدرسة جليلاً للفقهاء الشافعية ” دون أن يشير إلى الكنيسة .

(٦) حدد العباد (المرجع السابق) موضع هذه الدار فقال : ” وهى بقرب كنيسة قمامة ” .

(٧) الأصل : ” الأمراء ” .

(٨) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة العباد ، وذلك ليستقيم المعنى .

وأمر بإغلاق كنيسة قمامة ، وحرم على النصارى زيارتها . وشاور أصحابه فيما يعتمدونه في أمرها ، فمنهم من أشار بهدمها وتعفية آثارها ، وقالوا : « [إذا] ^(١) هدمت القبة ونبشت المقبرة ، وحرثت ^(٢) أرضها وعفت ، انحسرت ^(٣) عن قصدها مواد أطماع الكفار ، ومهما بقيت كانت الزيارة مستمرة » ؛ وقال أكثر الجماعة : « لا فائدة في هدمها ، فإن متعبدتهم موضع الصليب والمقبرة لا ما نشاهد من البناء ، فلو نسفت أرضها في السماء لما انقطع عنها قصد أهل دين النصرانية ؛ ولما فتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — البيت المقدس في صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمر بهدمه » ، فأعرض السلطان عن هدمها ؛ ثم تقرر بعد ذلك على من يدخلها منهم قطيعة يؤديها .

قلتُ : ولهم في هذا المكان ضلالة تقع في كل سنة في اليوم الذى يلبه يوم فصيحهم ، وهو أنه يزعمون أن نورا ينزل من السماء ، ولقد كذبوا [٢٩٩] وافتروا ، وإنما هو تدليس وتلبيس من بتركهم ، يغرب به ضعفاء العقول ويستدرجهم به إلى ضلالتهم وغيرهم ^(٣) ، ولقد حضرت في زمن الصبي يوم سبت النور هذه الكنيسة مرارا على سبيل التفرج ، فكنت أجدهم يعكفون على القبة الصغيرة التى فيها القبر ، والنصارى مجتمعون ^(٤) بها يرفعون صلبانهم ويقرآن إنجيلهم ، ويضجون ، والديوان ^(٥) — الذى للمسلمين على باب الكنيسة — والموالى يأخذون من كل رجل القطيعة المقررة ، وذلك في أيام الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل — رحمهما الله — فإذا كان وقت الظهر أو بعده دخل البترك القبة ، وأخرج شمعة

(١) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة العباد ، وذلك ليستقيم المعنى .

(٢) الأصل : " حرث " ر " انحسم " ، والتصحيح عن العباد (الرضنين ، ج ٢ ، ص ١١٥)

(٣) الأصل : " وغيرهم " والتصحيح عن س (٢٤ ب) .

(٤) س : " محيطون " .

(٥) لاحظ أن المؤلف يستعمل هنا لفظ " الديوان " بمعنى الموظف .

موقدة زعم أنه أوقدها من القنديل الذي اشتعل بالنور المنزل [من السماء] ^(١)، فيأتيه
النصارى بشمعهم فيقدونه من تلك الشعة ، فيمتلئ المكان بالشمع الموقدة ،
ويظهر على النصارى من الفرح والاستبشار مالا مزيد عليه ، جهلا وضلالة ،
وظنا فاسدا أنه نور أنزل عليهم ، وإنما هو نار محرقة افتعلها عدو الله البترك
على سبيل المخرقة والإيهام ، وهؤلاء القوم دون سائر الطوائف أكثر أمورهم مبنية
على ذلك ^(٢) .

ولقد ^(٣) حدثني القاضي نحر القضاة ابن بصاقة — رحمه الله — ونحن بالكرك ،
وهو من أهل الفضل والمعرفة والتقدم في الدول ، قال :

« كنت صبيا صغير السن ، وقد حضر البترك الذي كان [مقيا] ^(١) بقمامة
عند والدي ، فسمعت والدي يقول له : إن السلطان قد عزم على كشف قضية
هذا النور الذي تدعون أنه ينزل عليكم [من السماء] ^(١) ، فقال له البترك : إن النور
كان ينزل في قديم الزمان ثم انقطع ، فنحن اليوم نفعله لإقامة الناموس وحفظا
لحرمة دين النصرانية ، وليس من المصاحبة أن تتعرضوا لهذا ، وكشف سره ،
فإنه يُقوّت ^(٤) عليكم أموالا جزيلة ، وليس لكم في بطلان ذلك منفعة » .

قلت ^(٥) : وكان الواجب على ولاية الأمر أن لا يلتفتوا إلى ما يحصل من هذا
السحت ، وأن يهتكوا ستر هؤلاء القوم فيما يدلسون به على الأمم ، وأن يرفعوا
القناع عن هذا التدليس الموقع ^(٦) في عمايات الضلال الداعية إلى أنواع الكفر
والجهالات .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٢) هذا استطراد من المؤلف له قيمته وأهميته .

(٣) قبل هذا اللفظ في س (٢٤ ب) : ” قال جمال الدين صاحب هذا التاريخ ” .

(٤) س : ” يروح ” .

(٥) مكان هذا اللفظ في س : ” قال القاضي جمال الدين بن واصل المؤلف ” .

(٦) هذا اللفظ ساقط من س .

ولما أفتتح القدس [٣٠٠] مدح السلطان — رحمه الله — الشريف النسابة
 محمد بن أسعد^(١) بن علي بن معمر الحسيني المعروف بالحوّاني المصري نقيب
 الأشراف بالديار المصرية بقصيدة منها :

أُتْرَى منامًا ما بعينى أُبْصِرُ ؟	القدس يُفْتَحُ والفرنجة تُكْسَرُ !!
وقامة قُمْتُ من الرّجس الذي	بزواله وزوالها يتطهّرُ
ومليّكهم في القيد مصفودٌ ، ولم	يرقبَلْ ذاك لهم ملكٌ يُوسرُ ^(٢)
قد جاء نصرُ الله والفتح الذي	وعَدَ الرسولُ ، فسبحوا واستغفروا
فُتِحَ الشّامُ وطهرَ القدس الذي	هو في القيامة للأنام المحشرُ
من كان هذا فتحه لمحمدٍ	ماذا يُقالُ له ، وماذا يُذكرُ ؟
يا يوسفُ الصديقُ أنت لِفَتْحِها	فاروقها عمرُ الإمامِ الأطهرُ
ولأنتَ عثمانُ الشريعةَ بَعْدَهُ ،	ولأنتَ في نصرِ النبوة حيدرُ

(١) الأصل : " اسماعيل " ، وهو شرف الدين أبو علي محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحوّاني ، صاحب كتاب " النقط بهجم ما أشكل من الخطط " ولم يظهر للان ما يثبت وجود هذا الكتاب ، غير أن المؤلفين المتأخرين نقلوا عنه كثيرا ، وخاصة المقرئ في خطه حيث يقول عنه إنه " نبه على معالم قد جهلت وآثار قد دثرت " ، وقد ولد الشريف سنة ٥٢٥هـ وتوفي سنة ٥٨٨هـ (١١٣١-١١٩٢) وقال (العقاد الاصفهاني : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١١٧) إنه كان نقيب مصر في الأيام المصرية (يقصد الفاطمية) ، والآن فهو ملازم مشغل بالتصنيف في علم النسب ، وهو فيه أوحده ، وله فيه تصانيف كثيرة . أنظر أيضا : (المقرئ ، الخطط ، ج ١ ، ص ٦ - ٧) و (ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٤ ، ص ٤٣ ، ج ٦ ، ص ١١٩ ، ٢١٨) و (عثان : مصر الإسلامية ، ص ٣٩ ، ٥٥ ، ٨٩) و (الصفدي : فوات الوفيات ، طبعة استانبول ، ج ٢ ، ص ٢٥٢) و (لسان الميزان ، ج ٥ ، ص ٧٤) و (ابن الأثير : اللباب في الأنساب) .

(٢) ص (١٢٥) : " يرى من قبل ذلك ملك موسر " وهو نص مضطرب .

وقال بهاء الدين أبو الحسن علي بن محمد الساعاتي^(١) .

أَعْيَا^(٢) وقد عاينتُم الآيةَ العظمى؟ لأيةٍ حالٍ تدنرُ النثرَ والنظما
وقد ساغ^(٣) فتحُ القدس في كل منطقٍ، وشاعَ إلى أن^(٤) أسمعَ الأسَلَ الصَّما
فليتَ فتى الخطَّابِ شاهِدَ فتَحِها فيشهدَ أنَّ السيفَ^(٥) من يوسفِ أضمي
حبَّ مَكَّةَ الحُسنى وثنى بيثربَ، وأسمع^(٦) ذِيَّكَ الضَّريحَ وما ضمَّا
وما كانَ إلا الداءَ أَعْيَا دواؤه، وغيرُ الحسامِ العَضيبِ لا يُحسِنُ^(٧) الحسما
وأصبحَ ثغرُ الدينِ^(٨) جَذلانَ باسماً والسنةُ الأغمادِ توسِعهُ لثما
سَلوا الساحلَ المخشى عن سطواته، فما كانَ إلا ساحلاً صادفَ^(٩) اليمَّ

وقال القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك^(١٠) يمدح السلطان الملك
الناصر ويهنته بالفتوح، ويذكر وقعة حطين، وقتل البرنس، من قصيدة أولها:
لستُ أدري بأى فتْحٍ تُهَنَّا؟ يا منيلَ الإسلامِ ما قد تَمَنَّا

(١) أنظر ما فات هنا ٨٣، هامش ٣

(٢) الأصل: "أعيا" والتصحيح عن (ابن الساعاتي: الديوان، ج ٢، ص ٣٨٥)
و (الروضتين، ج ٢، ص ١٠٦) .

(٣) الأصل: "شاع"، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٤) الأصل: "وقد شاع حتى أسمع" وما هنا عن المرجعين السابقين .

(٥) كذا في الأصل والروضتين، وفي الديوان: "السهم" .

(٦) في الديوان والروضتين: "وأطرب"

(٧) في الديوان: "لا يعرف" .

(٨) في الديوان: "وأصبح ذاك الثغر"

(٩) الأصل: "صادق" وما هنا عن المرجعين السابقين .

(١٠) أنظر ما فات هنا ص ١٣٧، هامش ٣ .

[٣٠١] أَنُهِنِّكَ إِذْ تَمْلِكُ^(١) شَامًا ؟ أَمْ نُهِنِّكَ إِذْ تَمْلِكُ عَدَنًا ؟

قد ملكت الجنان قصراً فقصرًا ، إذ فتحت^(٢) الشام حصناً فحصناً

ومنها :

قَتَ فِي ظُلْمَةِ الْكُرْبَةِ كَالْبَدْرِ سَنَاءً ، وَالْبَدْرُ يَطْلُعُ وَهَنًا

لَمْ تَقِفْ قَطُّ فِي^(٣) الْمَعَارِكِ إِلَّا كُنْتَ يَا يُوسُفُ كِيُوسُفَ حُسْنًا

تَجْتَنِي النَّصْرَ مِنْ ظُبَاكَ^(٤) كَانَ الْعُضْبُ قَدْ صَحْفُوهُ^(٥) أَوْ صَارَ غُصْنًا

قَصِدُوا نَحْوَكَ الْأَعَادَى فَرَدَّ اللَّهُ مَا أَمْلَوْهُ عَنْكَ وَعَنَّا

حَمَلُوا كَالْجِبَالِ عِظْمًا ، وَلَكِنْ جَعَلَهَا جَمَلَاتُ خَيْلِكَ عَيْنًا

جَمَعُوا يَكْدُهُمْ وَجَاهُوكَ أَرْكَانًا ، فَمِنْ هَدَّ فَارِسًا هَدَّ رُكْنًا

لَمْ تُلَاقِ الْجِيُوشَ مِنْهُمْ وَلَكِنَّكَ لَاقَيْتَهُمْ جِبَالًا^(٦) وَمُدَنًا

كُلُّ مَنْ يَجْعَلُ الْحَدِيدَ لَهُ ثَوْبًا وَتَاجًا^(٧) وَطَيْلَسَانًا وَرِدَنًا

خَانَهُمْ ذَلِكَ السَّلَاحُ ، فَلَا الرِّيحُ تَنُفَا وَلَا الْمِهْنَدُ ظَنًا

وَتَوَلَّتْ تِلْكَ الْخِيُولُ وَلَمْ يَثْنِ عَلَيْهَا بِأَنْهَا لَيْسَ تَنُفَا

(١) س : "ملكك" ، وما هنا هو الصحيح ويتفق والنص في (شفاء القلوب ، ص ١٤١) .

(٢) س : "وفتحت" والنص هنا يتفق وشفاء القلوب ، ولم يورد صاحب الشفاء من هذه القصيدة غير الآيات الثلاثة الأولى .

(٣) هـ : اللفظ ساقط من س .

(٤) س : "طبائعك" .

(٥) س : "صفحوه" .

(٦) س : "جبالاً منك ومدناً" .

(٧) هـ : اللفظ ساقط من س .

واستعالت شقائق الكفر ضحاً حين عادت الشجاعة جنباً
 وتصيّدتهم بحلقة صيد يجمع الليث والغزال الأغنى
 وجرت منهم الدماء بحاراً ، فحرت فرقة الجزائر سقناً
 صنعت فيهم وليمة عريس رقص المشرفي فيها وغنى
 وحوى الأسر كل ملك يظن الدهر يفنى وملكه ليس يفنى
 والمليك العظيم فيهم أسير يتشا في أدم يتشا
 يحسب النوم يقظة ، ويظن الشخص طوداً ، ويبصر الشمس دجناً
 كم تمنى اللقاء حتى رآه ، فتمنى لو أنه ما تمنا
 ظن ظناً ، وكنت أصدق في الله يقيناً ، وكان أكذب ظناً
 [٣٠٢] رَقَ مَنْ رَحِمَهُ لَهُ الْقَيْدُ والغل عليه ، فكلمنا أن أنا
 واللعين الأبرس أصبح مذبوهاً يمين لم يعدم الدين يميناً
 أنت ذكيتك فوفيت نذراً كنت قدمته بخوزيت حسناً
 وتهادت عرائس المدين تَحَلَّلاً ، وثمار الآمال منهن تُجَنَّا
 لا ينحصر الشأم منك التهانى ، كل صفع وكل قُطْرِ يَهْنَى
 قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً ، وحويت الآفاق سهلاً وحزناً
 وتفرّدت بالذى هو أسما ، وتوحّدت بالذى هو أسنا
 واعتدى الوصف في علاك حسيراً أئى لفظ يُقال أو أئى معنى ؟
 ورأينا الاله قال أطيعوه سمعنا لرئيسنا وأطعنا

وقال الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح عمر بن شاهنشاہ بن أيوب — قدس الله روحه —
 يبنى عمه السلطان الملك الناصر — رحمه الله — بفتح القدس بقصيدة مطلعها يقول فيها:

دَعْ مُهْجَةَ الْمُشْتَاكِ مَعَ أَهْوَائِهَا بِالْأَنَّى مَا أَنْتَ مِنْ نَصَبَائِهَا

ومنها :

جاءتك أرض القدس تطلب ناكحاً ياكفوها ، ما العذر من عذرائها
زفت إليك عروس خذر مجتلى ما بين أعبيدها وبين إمائها
إليه صلاح الدين ، خذها^(١) عادة بكراً ، ملوك الأرض من رفقاءها
كم طالب لجمالها قد رده^{هو} عن نيلها أن ليس من أكفائها

وكان الملك المظفر — رحمه الله — فاضلاً متأديباً حسن الشعر ، وكان أخوه
عز الدين فرخشاه كذلك .

ومن جملة شعر الملك المظفر — رحمه الله :

يعاتبنى قومٌ يمزُّ عليهم^{هو} مسيرى ، ما هذا السرى في السباب
فقلتُ لهم : كُفُّوا ، فَاوَكَّفتُ لكم جفون^(٢) ولا ذُقتم فراق الحباب

ومن شعره :

إني لأكتم لوعتي وأظنه^{هو} يوم التفريق بالمسدام فاضحي
[٣٠٣] لا تتجحوا في هجركم ، فربما خشي العثار على الحصان الجاح

ومن شعره :

أحببنا إن الوشاة إليكم سعت ، لا سعت أقدام من كان واشيا
يرومون بتّ الحبل بيني وبينكم فلا بلفوا مما أرادوا الأمانيا

(١) من : "إليه صلاح الدين طادت" .

(٢) من : "فاوكتت جفوني" .

ومن شعره :

كُلُّ يَوْمٍ يَسْمَى إِلَى الْمُلْكِ قَوْمٌ فِي ازْدِيَادٍ وَعُمْرُهُمْ فِي انْتِقَاصٍ
شَرِكُ هَذِهِ الْأُمَانِي ، فِيَا اللَّهُ تَكْمُ وَاقِعٌ بِغَيْرِ خَلَاصٍ^(١)

ومن شعره :

إِن كُنْتُ وَاحِدًا ذَا الْجَمَالِ فَإِنِّي فِي الْحَزَنِ وَاحِدُهُ
كُلُّ يَبُوحٍ بِحُبِّهِ ، وَأَنَا كَتُومُ الْحَبِّ جَاهِدُهُ

ومن شعره يخاطب عمه الملك السلطان الناصر صلاح الدين — رحمه الله تعالى —

أَصْلَاحَ دِينِ اللَّهِ أَمْرُكَ طَاعَةٌ ، فَمُرُّ الزَّمَانِ بِمَا تَشَاءُ فَيَفْعَلَا
فَسُكْنَا الدُّنْيَا بِيَهْجَةٍ حَسَنِيَا تَحَلَّ عَلَى إِذَا رَأَيْتُكَ مُقْبَلَا

قلت : كان الساطان — رحمه الله — يحب الملك المظفر تقي الدين أكثر من محبته لسائر أهله لما كان خص الملك تقي الدين [به] من الشهامة والنجابة والإقدام العظيم ، الذي لم يكن لأحد مثله من بني أيوب ، ولفرط طاعته لعمه صلاح الدين وانقياده إليه ، ولأنه كان الصقهم به قرابة ، لأن والده الملك المظفر ركن الدين شاهنشاه — رحمه الله — كان أخا الملك الناصر لأمه وأبيه ، والملك العادل ، وتاج الملوك ، وسيف الإسلام ، كانوا أخوته لأبيه فقط .

وقيل ركن الدين شاهنشاه قتل شهيدا على باب دمشق لما حاصرها الفرنج ، ولم يدرك الدولة الأيوبية ، وقد ذكرنا ذلك .

وكتب السلطان إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين وإلى سائر ملوك الأطراف ينشرهم بهذا الفتح العظيم ، فمن جملة كتّاب فاضلي إلى الديوان العزيز:

(١) هنا تنتهي ص ٢٦ ب من نسخة س ، ثم تضطرب الصفحات مرة أخرى وتنقطع العملة بين النص فيها والنص في الأصل المعتمد للنشر وهو نسخة (ك) .

” تقلص ظل الكفر المبسوط ، وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط وقع المشروط ، واسترد المسلمون ثرائنا كان عنهم أبقا ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النائم طارقا “

ومنه [٣٠٤] فصل في وصف نقب السور :

” فأخلى السور من الستارة^(١) ، والحرب من النظارة ، وأمكن النقب أن يسفر للحرب النقب ، وأن يعيد الحجر إلى سيرته من التراب ، فتقدم إلى الصخر فضغ سرده بانياب معوله ، وحل عقده بضربة الإحراق الدال على لطافة أنمله ، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقتله ، وتبرا بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الأرض “ .

فصل :

” واستقرت على الأعلام أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها — وإن كانت صخرة — كما يشفى الماء غلهم ، وملك الإسلام خطة كان عهد به دمنة سكان ، فقدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان ، لا جرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم ، وأرضى أهل الحق وأسخطهم .

وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهد المعهود ، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورد ، وأقيمت الخطبة فيه يوم الجمعة رابع شعبان فكادت السموات^(٢) للنجوم يتفطرن ، والكواكب منها للطرب ينتثرن ، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طريقها مسدودة ، وطهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة ،

(١) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٠) : «السيارة»

(٢) الأصل : «السماء» ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠١) .

وأقيمت الخمس و كان التثليث يقعدھا ، وجهرت الألسنة^(١) بالله أكبر وكان
سحر الكفر يعقدها ، وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر ،
فرحب به ترحيب من بر بمن بر^(٢) ، وخفق علماء في حفافيه^(٣) ، فلو طار سروراً
لطار بجناحيه .

وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه [المنقبة]^(٤) العظمى ، ولا يقاسى تلك
البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ، ولا يحارب من يستظلمه إلا لتكون الكلمة مجموعة
فتكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا ،
وكانت الألسنة ربما صالقتة فانضج قلوبها بالاحتقار^(٥) ، وكانت الخواطر ربما غلت
عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار ، ومن طلب خطيراً خاطر^(٦) ،
ومن رام صفقة رائجة جاسر^(٧) ، ومن سما لأن تجلى غمرة غامر .

ومنه فصل في وصف يوم حطين :

” وكان [٣٠٥] اليوم مشهودا ، والملائكة شهودا ، وكان الصليب^(٨) صارخا
وكان الإسلام مولودا ، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه ، وأكّد وصلته بالدين
وعلائقه ، وهو صليب الصلبوت ، وقائد أهل الجبروت ، مادموا قط بأمر
إلا وقام بين دهمائهم يحرضهم ، يبسط لهم باعه ، وكان مد اليدين في هذه الدفعة
وداعه ، لا جرم أنه تهافت على ناره فراشهم ، وتجتمع في ظل ظلامه خشاشهم ،

(١) الأصل : « الأنس » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠١)

(٢) صيغة الروضتين : « ترحيب من بر » فقط .

(٣) الأصل : « عداؤه في حفايفه » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن الروضتين .

(٥) النص في : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠١) : « بالاكتهاء والانتصار » .

(٦) الأصل : « نفاطر » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٧) الأصل : « كان راجح أو خاسر » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٨) النص في الروضتين : « وكان الضلال » .

ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه ، ويرونه ميثاقا يبنون عليه
أشدَّ عقد وأوثقه ، ويعدونّه سورا لا تحفر الخيل خندقه^(١) ، و^(٢) بعد الكسرة
مرّ الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية السوداء صبغا ، البيضاء صبغا ،
الخافقة هي وقلوب أعدائها ، العالية هي وعزائم أوليائها ” .

وكتب السلطان إلى أخيه سيف الدين ظهير الدين طغتكين بن أيوب صاحب
اليمن يبشره بالفتح بإنشاء عمادى ، من جملة :

” وهو فتح بيت المقدس الذى غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه ، وطال
في أسره سجنه ، واستحكم وجهه ، وقوى مكره وضعف ركنه ، وزاد حسنه وزال
حزنه ، وأجديت من الهدى أرضه وأخلف مزنه ، وواصله خوفه وفارقه أمانه ،
واشتغل خاطر الإسلام بسببه وساء ظنه ، وذكر فيه الواحد الأحد الذى تعالى
عن الولد ، أن المسيح ابنه ، وأربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه ، وأفرد عنه
التوحيد فكاد يهى^(٣) منه ، ودرج الملوك المتقدمون على تمنى استنقاذه ، فأبى
الشیطان غير استيلائه واستحواده ، وكان فى الغيب الإلهى أن يعاد إلى معاده^(٤) ،
وطيب أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس ، وجُلبت الصخرة
المقدسة جَلوة العروس ، وزارها شهر رمضان مضيها لها نهار صومها بالتسبيح ،
وليل فطرها^(٥) بالتراويح ” .

(١) كذا فى الأصل ، والنص فى الروضتين : « سورا تحفر حوافر الخيل خندقه » .
(٢) فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠١) بين لفظى : « خندقه » و « وبعده » فقرة أسقطها
المؤلف ولم ينقلها هنا ، وهى : ” ولما بقلت منهم معروف إلا القمص ، وكان لعنه الله جليا يوم الظفر
بالقتال ، وملينا يوم الخذلان بالاحتيا ، فنجنا ولكن كيف ، وطارخونا من أن يلحقه منسرا لرح
وجناح السيف ، ثم أخذه الله بعد أيام يده ، وأهلكه لموعده ، وكان لعنتهم فذلك (كذا) ” وانتقل
من ملك الموت الى مالك ” .

(٣) الأصل : « وأفرد التثليث فكاد يهى منه » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٩)

(٤) النص فى الروضتين : « أن معاده فى الآخرة إلى معاده » .

(٥) الأصل : « وليلها » ، والتصحيح عن الروضتين .

ذكر منازلة السلطان — رحمه الله — صور

ولم يزل السلطان مقيا بالقدس إلى الخامس والعشرين من شعبان من هذه السنة — أعني سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة — يرتب إخوته ، وينظر في مصالحه ، ويفرق الأموال .

فحكى عماد الدين الأصفهاني ، قال :

”سمعت الملك [٣٠٦] العادل يقول — وقد جرى ذكر إفراط السلطان في العطاء — : أنا توليت استيفاء قطيعة القدس ، فأنفدت إليه ليلة سبعين ألف دينار ، فجاءني رسوله بكرة وقال : يريد اليوم ما يخرج به في الإنفاق ، فإن الذي سيرت إلينا بالأمس قد نفدت ، فنفدت إليه ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال ، فأنفقها“ .

ثم وردت على السلطان كتب الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب — وهو نائب السلطان بصيدا وبيروت — يحرضه على حصار صور ، فرحل السلطان عن القدس يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان متوجها إلى عكا ، وقد سبقه إليها ولده الملك الأفضل نور الدين ، وابن أخيه الملك المظفر تقي الدين ، وودع السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان ، وردّه إلى الديار المصرية ، وكان آخر عهده به .

وترك الملك العزيز خزانة سلاحه بالقدس كلها ، وكانت كثيرة جدا ، وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن يتركوا خيلهم وعدتهم فتوفر بذلك عدد البلد .

وتوجه مع السلطان أخوه الملك العادل ، فوصلا إلى عكا مستهل شهر رمضان من السنة ، فأصلح السلطان من شأنها ، ثم رحل منها وزل على صور يوم الجمعة

تاسع شهر رمضان ، وخيم بازاء السور ، بعيدا منه على النهر ؛ وصور مدينة حصينة ، متوسطة^(١) في البحر ، وكان المركيس — لعنه الله — قد حفر لها خندقا من البحر إلى السور والبواشير وأحكم أمرها واستظهر بالعدد والعدد ، واغتم اشتغال السلطان بفتح البيت المقدس ، فأقام السلطان على تلك الحال بالمنزلة ثلاثة عشر يوما ، حتى تلاحت به العساكر ، وجاءته العدد والآلات ، ورتب المنجنيقات .

ثم حوّل السلطان مضاربه إلى تل قريب من السور يشرف منه ، ثم أخذ في محاصرة البلد ، ووكل كل واحد من الملوك بجانب يكفيه إياه ، منهم : الملك العادل ، والملك الأفضل ، والملك المظفر ، فحاصروهم وضايقوهم .

ووصل في تلك الأيام الملك الظاهر غازي — صاحب حلب — بعسكره ، فاستظهر السلطان أبوه به ، واستدعى الأصطاول^(٢) المصري — وكان بعكا — بجاء منه عشرة شواني^(٣) ، وكان للفرنج في البحر مراكب وشواني ، وفيها رماة الجرح^(٤)

(١) الأصل : ” معظمها “ ، والتصحيح عن : (الروضين) ج ٢ ، ص ١١٩ .

(٢) كذا بالأصل ، راجع ما فات دنا ص ١١ ، هامش ١

(٣) الأصل : ” عشرة أذراع شواني “ ، وشرح ” شواني “ راجع ما فات دنا ص ١٣ ،

هامش ١

(٤) لشرح هذا المصطلح راجع ما فات دنا ص ١٥٠ ، هامش ٣ ، هذا وقد عقد (الحسن بن عبد الله : آثار الأول في ترتيب الدول ، ص ١٦٠) نصلا في صفة القسي والنشاب ، أضاف فيه معلومات قيمة عن الشعوب التي تؤثر استعمال الجرح ، وعن المفاضلة بين الجرح والقوس القار ، وأين يستعمل كل منهما ، لأن قوس الجرح يصنع من القرن ، والقار يصنع من الخشب ، قال : ” والمقاربة والفرنج يعانون قسي الجرح ، وهي أكثر قسما من داخل الدور وفي مراكب البحر ، والقسي الجروح القرن تصلح للقلاع ، والقفاير جميعها خشب ، ما تصلح إلا في البحر ، لأن دواء البحر يضر بالقرن ويفسده ، والقفاير الخشب ما تتغير فيه ، وقليل أن تخلى مهام الجروح إذا كان الرامي بها عارفا حاذقا “ .

والزنبورك^(١) يرمون من دنا من البحر، فلما وصل الأسطول الاسلامى استطال عليها وأبعدها ، [٣٠٧] فأحاط بهم المسلمون ، وقاتلهم برا وبحرا ، فبينما هم فى استظهار وظفر إذ ملك الفرنج خمسة من شوانى المسلمين ، وأسروا مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربى ، ومتولى بدران الفارسى ، فألقى جماعة أنفسهم فى البحر ، فمن ناج وهالك ، وذلك أنهم سهرروا تلك الليلة بازاء ميناء صور إلى

(١) الزنبورك : والجمع زنبوركات — قد يعنى نوعا من القسي التى ترى عنها السهام ، وقد تعنى نوعا من السهام ذاتها ؛ فن النصوص التى تؤيد المعنى الأول ما ورد فى : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤) عند حديثه عن فتح صهيون سنة ٥٨٤ ، إذ يقول : ” ودام رشق السهام من قسي اليد ، والخرخ ، والزنبورك ، والزيار “ ، فهذه جميعا أنواع معروفة من القسي ، وذكر الزنبورك بينها دليل على أنه واحد منها ؛ وجاء أيضا فى : (العماد : الفتح القسى ، ص ١٦٨) : ” وتوتير الجروح والزنبوركات ، وتطير الناوكات “ فالتوتير لا يكون إلا للروس ، والتطير لا يكون إلا للسهم ، فالنارك — تبعاً لهذا — نوع من السهام ؛ وجاء أيضا فى : (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٤٦) : ” الروم أهل صنائع وحرف وحكم ، وفيهم صبر وخدمة ، ولهم حيل فى السياسات ووضع آلات حربية ، وحظهم فى الفروسية قليل ، ولهم ضرب بالسيف ، ورمى بالخرخ والزنبورك... الخ “ ، وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٩) ” مراكب وحراريق وفيها رماة الجروح والزنبوركات “ .

ولكن (Dozy : Supp. Dict. Arab.) يورد نصاً آخر قلاعاً عن تاريخ بطارقة الاسكندرية يؤيد المعنى الثانى ، أى أن الزنبورك يعنى نوعا من السهام ، وقال :

« Suivant l'histoire des patriarches d'Alexandrie, Le Zenbouek était une flèche, de l'épaisseur du pouce, de la longueur d'une coudée, qui avait quatre faces; la pointe de la flèche était en fer, et des plumes en rendaient le vol plus sûr. Partout où ce trait tombait, il transperçait; il traversait quelquefois du même coup deux hommes placés l'un derrière l'autre, perçant à la fois la cuirasse et l'habillement du soldat; il allait ensuite se planter en terre; il pénétrait même dans la pierre des murailles. »

وترجمة هذا النص :

” الزنبورك سهم فى سمك الإبهام وفى طول الذراع ، وله أربع أوجه ، وطرفه من الحديد ؛ وهو حريش ليكون فى انطلاقه أكثر ثباتا ، وحيثما سقط فإنه يؤكد الإصابة ؛ وقد اخترق الزنبورك أحيانا — فى رمية واحدة — جسمين رجلين اثنين وقف أحدهما خلف الآخر ؛ واخترق فى نفس الوقت درع الهندى وملابسه ، ثم قد بعد ذلك واستقر فى الأرض ؛ وقد يصيب كذلك أجار الأسوار “ .

السحر، ثم غلبهم النوم ، فما اتبهاوا إلا والفرنج قد ركبتهم ، فودن المسلمون بذلك ووجهوا ، وتقدم السلطان إلى المراكب الباقية أن تسير إلى بيروت ، وخاف عليها لقلتها أن يستولى عليها العدو ، فنج منها شيني رئيس جبيل ، والباقون نظروا إلى الفرنج ورائهم فالتقوا أنفسهم في الماء ، وخرجوا إلى [البر] على وجودهم ، فأخذ السلطان الشواني فنقضهم ، وعاد إلى مقابلة صور في البر ، فكان ذلك الشواني لحدوى لضيق المجال (كذا) .

ذكر الواقعة على باب صور

ولما وقعت واقعة الأسطول طمعت الفرنج وخرجوا منها يوما بعد العصر مستعدين للقتال ، فالتقاهم المسلمون ، فكانت الدائرة على الفرنج ، وأسر مقدم كبير لهم ، وظن أنه المركيس ، فسلمه السلطان إلى ولده الملك الظاهر ليحفظه ، فضرب عنقه ، ثم دخل الليل وأصبحوا ، وتبين أن المركيس بعد في الحياة .

ذكر رحيل السلطان من صور

ولما طال الحصار على صور ضجر كثير من أمراء المسلمين ، لأنهم رأوا مالم يألفوه من تعسر الفتح عليهم ، فأشاروا على السلطان بالرحيل لثلا تفتي الرجال وتقل الأموال ، وكان الشتاء قد دخل واشتد البرد ، وكان رأى السلطان وجماعة من أتقياء أمرائه ، كالفقيه ضياء الدين عيسى ، وحسام الدين طمان ، وعزالدين

== ويقول دوزى بعد هذا — قلا عن كاترمير — أن اللفظ قد يعني " الزنبور الصغير " ، سمى كذلك للشبه بين الصوت الذي تحدثه تلك الحشرة الصغيرة " الزنبور " وبين الصوت الذي يحدثه وتر القوس عند انطلاق الدهم ؛ ثم يردف دوزى بعد هذا قوله إن هذا اللفظ أصبح — منذ اكتشاف الأسلحة الحديدية — يطلق على نوع من المدفع الصغير الذي يحمل على ظهر الجمل : انظر كذلك :

جوردك النورى إلى الثبات إلى الفتح ، لثلا يضيع ماتقدم من الأعمال وإنفاق الأموال ، وقال السلطان :

” إن السور قد تهدم ، وقاربت الأمور النجاز ، فاصبروا ولا تعجلوا تفاحوا“

فأظهروا الموافقة وفى أنفسهم ما فيها ، ولم يصدقوا القتال ، وتعالوا بكثرة الجراح ، وقلة العلوفات ، فلم يسع السلطان إلا الرحيل فأمر بنقل الأثقال ، فحمل بعضها إلى صيدا ويروت ، وأحرق الباقي لثلا يناله العدو ، [٣٠٨] فرحل فى آخر شوال من السنة ، وهو الموافق أول كانون الأول .

وسار الملك المظفر إلى دمشق على طريق هونين ، واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل والجزيرة وسنجار وماردين .

ذكر وصول السلطان إلى عكا ومقامه بها

ورحل السلطان إلى عكا [فوصلها] فى ثلاث مراحل ، لأنه سلك طريق الناقورة ، وهى طريق ضيقة ، مطلة على البحر لا يعبر منها إلا جمل بعد جمل ، فعبرت الأثقال فى أسبوع ، وعين يوم رحيله من صور أمراء يقيمون عليها إلى أن يعرفوا عبور الثقل ، وخيم السلطان عند التل ، وسار الملك العادل إلى مصر ، والملك الظاهر إلى حلب ، وبدر الدين دلدردم الياروق إلى بلاده .

ذكر الكبسة على حصن الكوكب

كان السلطان لما سار إلى عسقلان قد جعل على قلعة كوكب من يحصدها ، ويحفظ البحر والطريق للاجتازين ، لثلا يتزل من به من الفرنج يقطعونه ، وقدم على الجماعة الأمير سيف الدين محمود أخا جاولى الأسدى ، وسير طائفة أخرى من العسكر إلى قلعة صفد فحصروها ، وهى مطلة على مدينة طبرية ، وكانت كوكب للاستتارية ، وصفت للداوية ، وقدم على المنازلين بصفد مسعود الصلتى .

وكان سيف الدين محمود شهما شجاعا يرجع إلى دين وعبادة ، فأقام على كوكب إلى آخر شوال ، وكان أصحابه يحرسون نوباً مرتبة ، فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الذين كانت نوبتهم في الحراسة ، وكان قد صلى وردد من الليل إلى السحر ، وكانت ليلة باردة ذات رعد وبرق وريح ومطر ، فلم يشعروا إلا والفرنج قد خالطوهم بالسيوف ، ووضعوا السلاح فيهم ، فاستشهد سيف الدين وأصحابه ، وأخذ الفرنج ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره ، وعادوا إلى قلعته ، فتقووا في ذلك قوة عظيمة ، وأتى الخبر بذلك إلى السلطان عند رحيله من صور ، فعظم ذلك عليه ، مضافاً إلى ما ناله من أخذ الشوانى وما فيها ، ورحيله من صور .

ثم رتب على حصار كوكب الأمير صارم الدين قايمآز النجمى في جماعة من الأجناد .

ذكر فتح هونين

[٣٠٩] كان السلطان لما فتح تبين امتنعت عليه هونين ، وهى من أحصن القلاع وأمنعها ، فلم ير التعريج عليها ، ولا الاشتغال بمحاصرتها ، بل سير إليها جماعة من الأمراء والعسكر ، فحاصروها ، ومنعوا من حمل الميرة إليها ، فلما كان السلطان على محاصرة صور أرسل من بها يطلب الأمان فأمنهم ، فسلموا هونين إلى السلطان ، ونزلوا منها ، فأمنهم .

وأقام السلطان بظاهر عكا ، ينظر في أمورها ، ودخلها وسكن قلعته ، وسكن ولده الملك الأفضل بيرج الداوية ، وولى عكا عز الدين جرديك ، ووقف دار الاسبتار نصفين : نصفاً على الفقهاء ، ونصفاً على الصوفية ، ووقف دار الأسقف بيمارستان ، ووقف على ذلك وقوفاً جليلة ، وفوض جميع ذلك إلى قاضيه كمال الدين بن الشيخ أبى النجيب .

ذكر قدوم رسل الملك والملوك إلى السلطان بالتهنئة

وورد على السلطان رسل الروم ونحراسان والعراق ، وكلهم يهنئ السلطان بما خصه الله تعالى به من فتح بيت المقدس ، الذي درج على حسن تمنيه الملوك ، وتقاصرت عنه أيديهم وهمهم ، ومن جملة الرسل : رسول صاحب العجم ، وهو أتابك مظفر الدين قرا أرسلان بن عثمان بن إيلدكز ، وهو الذي ملك بعد أخيه البهلوان ، وكان في الظاهر إليه الأتابكية ، واسم السلطنة للسلطان طغرل بن محمد بن طغرل بن محمد بن ملكشاه ، وهو آخر من دعى له بالسلطنة ببلاد العجم من السلجوقية .

ذكر ورود رسول الديوان العزيز إلى السلطان بالعتب

كان السلطان لما كسر الفرنج بمحطين قد ندب للرسالة إلى الديوان العزيز في معنى البشارة شابا بغداديا من الأجناد كان قد هاجر إلى الأبواب السلطانية مسترفدا ، وكان ببغداد حاملا كثير الإدبار ، مشمرا في دروب بغداد ، فتوجه إلى الشام هاربا من الفقر والفاقة وكان يعرف بالرشيد البوشنجي .

فلما سيره السلطان في الرسالة إلى بغداد قامت القيامة بمراسلته ، وأنكر ذلك على السلطان غاية الإنكار ، وحقروا الرسول وما وقروه ، ونظروه بالعين التي يعرفونه بها ، وحبوه بحباء قليل يليق به ، فتمسح المذكور [٣١٠] في الكلام ، وصدرت منه أمور قبيحة لا تليق ، فأنهى إلى المقام النبوي شيئا من مقالاته الردية ، وجهالاته ، فاشتد العتب بسبب ذلك .

وانضاف إليه أن قوما من أعداء السلطان تطرقوا إلى القول والتدح، وراموا إبعاد السلطان، وإيغال قاب الخليفة عليه، فقالوا: إنه أساء الأدب لإبقاء اسمه بالملك الناصر مضافا للاسم الأشرف الذي هو الإمام الناصر، وأن مقصوده قلب الدولة والاستبدال بها، كما فعل بالمصريين فإنه يدلُّ بمسأله من القوة والعساكر وكثرة الممالك، وقالوا من ذلك ما كثروا حتى الديوان.

وأفضى ذلك إلى أن أرسلوا إلى السلطان تاج الدين الأصفهاني — أخا عماد الدين الكاتب —، وقالوا: إن أخاه مطلع على الأسرار، وهو مستظم في سلك الأولياء، فعولوا عليه في هذه الرسالة، وردوا معه جواب البشارة، وقد كتب له تذكرة بموجبات مقاصد العتب والمخاطبة فيها، وخشّنوا في القول وأغاظوا، وكان ابن البوشنجي قد عاد شاكيًا من الديوان، ونجّبا بأن أخا العماد واصل بكتب عتب وغضب ولفظ ممض.

ولما قرب تاج الدين من العسكر السلطاني، وكان بعد نازلا على صور، تقدم السلطان إلى الملوك والأمراء بتلقيه، فتلقاه الملك العادل، والملك الأفضل، والملك الظاهر، والملك المظفر، والأمراء على مراتبهم، ثم ركب السلطان بنفسه وتلقاه، وبالغ في إكرامه واحترامه، وآنسه، وأراه مواضع الحصار، ومصارع الفرج، ثم نزل وأنزله بالقرب منه، ثم حضر عنده داخل المجلس له ولأخيه عماد الدين قارئ الرسالة، وأحضروا التذكرة فقرأها عماد الدين على السلطان، وكان فيها غلظة وألفاظ مؤلمة، فقال السلطان:

”إن الإمام أجل من أن يأمر بهذه الألفاظ، والأسجاع الغلاظ، وقد أمكن إيداع هذه المعاني في أرق من هذه الكلمات، ومعاذ الله أن يحبط عملي في خدمة الديوان، وأماما نسب الأعداء إلى ما عرف غنى إلا الاعتراف بالعارفة“.

ثم ذكر أياديه السابقة في الفتوحات الإسلامية وإقامة الدعوة العباسية [٣١١] بمصر واليمن وإزالة الأعداء، وإبادة الأعداء، وفتح البيت المقدس.

” وأما النعت الذى أنكر على ، فهذا من عهد الإمام المستضى بنور الله أمير المؤمنين ، والآن فكل ما يشرفنى به أمير المؤمنين من السمة فهو اسمى الذى أتشرف [به] وأعرف ، وما غرضى إلا استكمال الفتوح لأمر المؤمنين ، وقطع دابر الكفار .“

ثم ودّع السلطان تاج الدين ، وأودعه من المشافهة كلما فى النفس ، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضى ، ومضى ما مضى ، وكان جماعة من الملوك والأمراء قد ونحوا السلطان لما قيل فى حقه ، وأرادوا أن يغضبوه ، كالملك العادل ومظفر الدين بن زين الدين ، فما غضب بل احتمل ، وتلقى ذلك بصدر رحب .

ذكر الفتنة بعرفة بين أصحاب الخليفة والسلطان

ومقتل شمس الدين المقدم

لما فتح السلطان البيت المقدس طلب الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك — المعروف بابن المقدم — إذنا من السلطان فى أن يحج ، ويحرم من القدس ، ويجمع فى سنة بين الجهاد والحج وزيارة الخليل إبراهيم عليه السلام وما بالشام من مشاهد الأنبياء وبين زيارة قبر الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، فأذن له فى ذلك .

وكان قد اجتمع فى تلك السنة من الحجاج بالشام الخلق العظيم من العراق والموصل وبلاد الجزيرة وبلاد الروم وغيرها ، ليجمعوا بين زيارة القدس أول فتوحه وبين مكة ، فجعل شمس الدين بن المقدم أميرا عليهم ، وساروا حتى وصلوا عرفات سالمين ووقفوا ، فلما كان عشية عرفة تجهز هو وأصحابه ليسيروا فأمر بضرب كوساته التى هى أمانة الرحيل ، فضربها أصحابه ،

فأرسل إليه أمير الحاج العراقي ، وهو محي الدين طاشتكين ينهيه عن الإفاضة من عرفة قبله ، ويأمره بكف أصحابه عن ضرب الكوسات ، فأرسل إليه : ” أنه ليس لي معك تعلق ، أنت أمير الحج العراقي ، وأنا أمير الحج الشامي ، وكل منا يفعل ما يراه ويمختاره “ ، وسار ولم يقف ولم يسمع قوله .

فلما رأى طاشتكين إصراره على مخالفته ، ركب في أصحابه وأجناده ، ومعهم من غوغاء الحاج العراقي وبطاطيهم^(١) العالم الكثير ، وقصدوا الحاج الشامي مهزولين عليهم ، فلما قربوا منهم خرج الأمر [٣١٢] عن الضبط ، وعجزوا عن تلافيه ، فهجم طاعة العراق على حجاج الشام ، وقتلوا منهم جماعة ، ونهبت أموالهم ، وسُبيت^(٢) جماعة من نسائهم إلا أنهم ردّون عليهم .

و. روح شمس الدين عدة جراحات ، وكان يكف أصحابه عن القتال ، ولو أذن لهم لا نتصف وزاد ، ولكنه راقب الله تعالى وحرمة المكان واليوم ، فلما أثنى بالجراحات أخذه طاشتكين إلى خيمته ليمرضه ، وأنزله عنده ، ليستدرك الفائت في حقه ، وساروا تلك الليلة من عرفة ، فلما كان من الغد توفي شمس الدين بمنى ، ودفن بمقبرة المعلى .

ورزق الشهادة بعد الجهاد وفتوح بيت المقدس — رحمه الله — .

وارتاع طاشتكين بما اجترمه ، وكيف لم يراقب الله في الحرم الشريف ، وكيف اعتدى على حجاج بيت الله تعالى وسفك دماهم بغير حق ، فكتب محضرا

(١) المؤلف ينقل هنا عن ابن الأثير ، والنص عنده (الكامل ، ج ١١ ، ص ٢١٢) : ” من غوغاء الحاج العراقي وبطاطيهم وطاعتهم العالم الكثير “ ، ويفهم منه أن لفظ ” بطاطى “ مرادف لغوغاء وطاعة ؛ وقد جاء في (القاموس) : ” البطيط : العجب ، ورأس الخف بلا ساق ، والداهية “ وفي (اللسان) : ” البُطُط : الأعاجيب ، والأجواع ، والحق ؛ والبطيط : رأس الخف ، عراقة “ .

(٢) الأصل : ” وسبا “ ، والتصحيح عن ابن الأثير ، وهو المرجع الذي ينقل عنه المؤلف هنا .

على ما اقترحه ، وألزم أعيان المجاج من سائر البلاد بوضع خطوطهم على ما عيّنه ، فكتبوا خطوطهم مكرهين ، وكان عذره أنه أنكر عليه ضرب الطبل ونهاه فأبى .

فلما انتهت تلك الحالة إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أنكرها أشد الانكار ونسبها إلى طيش طاشتكين ، فانحط قدره عنده بسبب ذلك ، ثم نكبه بعد سنتين ، وحبسه وأطال سجنه ، ثم عفا عنه بعد مدة ، وولاه [حرب] (١) بلاد خوزستان ونحراجها ، وولى إمارة الحج غيره .

ولما بلغ السلطان استشهاد شمس الدين حزن عليه واحتسبه ، وأقر ولده الأمير عز الدين مقامه ، وأقر عليه إقطاعه .

وأقام السلطان بعكا إلى آخر السنة .

ذكر منازلة السلطان حصن كوكب

ولما دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة خرج السلطان من عكا ، ونازل كوكب في العشر الأوسط من المحرم ، وحاصرها وصابرها أياما ، ولم يتمكن من فتحها لمنعتها وحصانتها ، ورآها تحتاج إلى طول مدة ومصابة ، فوكل بها صارم الدين قايمار النجمي ، ووكل بصفد طغرل الجاندار ، كل واحد منهما في خمسمائة فارس ، ووجه إلى الكرك والشوبك سعد الدين كمشبه (٢) الأسدي ، وكانت هذه الحصون [٣١٣] الأربعة في غاية الحصانة .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن العباد (الروضين ، ج ٢ ، ص ١٢٣) ، وهو المرجع الذي

ينقل عنه المؤلف هنا .

(٢) الأصل "كشبا" ، والتصحيح عن العباد (الروضين ، ج ٢ ، ص ١٢٤) .

ووصل السلطان — وهو بكوكب — رسولُ صاحب آمد قطبُ الدين سكران ابن نور الدين محمد بن قزل أرسلان الأرتقي ، وكان خائفا من السلطان أن يسترجع آمد ، لأنها من جملة مواهبه — كما سبق — واستوثق بالوصلة بإحدى بنات الملك العادل ، وكان قد وكل أخاه السلطان في ذلك لما سار إلى مصر ، فبما قدم رسوله تمت الوصلة بينهما .

ووصل أيضا اختيار الدين حسن بن غفراس — مدير دولة الملك قايخ أرسلان صاحب الروم — وكان هذا الرسول مغرى بلبس الحلى والديباج والموشى ، وفي يده زنود وخواتيم مرصعة بزينة ثقيلة الجواهر ويواقيت ثمينة ولآلى نفيسة ، وفي يده عمود من ذهب ، وعدته مجوهره ، وكان السلطان اذا رآه تبسم تعجبا من قلة عقله ، ويقول : ” بهذا سافر لينظر الناس ذهبه وجوهره “.

وكان جماعة من أهل الحزم قد أشاروا على السلطان بتخريب عكا وتعفية أنارها حتى يؤمن عود الكفر إليها ، ويبنى قلعة القيمون ، وكان هذا عين المصلحة ، فكاد يجيب إلى ذلك ، فقبل له : ” هذه مدينة كبيرة ، وعماراتها كثيرة ، والمصلحة تبقيتها ، وأن تعمر وتحصن “ ، فولى عمارتها وتدير أمورها الأمير بهاء الدين قراقوش ، وهو الذى تولى إدارة السور على مصر والقاهرة ، فاستدعاه من مصر ، وأمره أن يستنيب^(١) في تلك العماره ، فقدم عليه وهو بكوكب ، فقوض إليه عمارة عكا ، فشرع في تجديد سورها وتعليه أبراجها ، وكان لما قدم من مصر قدم معه أساتيد العمل^(٢) وأبقاره وآلاته ودوابه .

(١) الأصم : ” يستنيب “ ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٥) وهو المقول عنه هنا .

(٢) الأصل : ” أسارى للعمل “ ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) الأصل : ” رنحت “ ، والتصحيح عن المرجع لمسبق .

ذكر مقدم السلطان إلى دمشق

ولما رتب السلطان الأمور على كركب رحل إلى دمشق مستهل ربيع الأول من هذه السنة — أعني سنة أربع وثمانين وخمسمائة — وكان طريقه شرقى بحيرة طبرية ، وتجنب عقبة فيق لاستصعاب رقيها ، ولما قارب دمشق تلقاه الناس وفرحوا بقدومه ، لأنهم كانوا متعطشين إلى رؤيته ، وإنه كانت عيبته عنها هذه الدفعة سنة وشهرين وخمسة أيام ، كسرفها الكفر ونصر فيها الإسلام . وفتح بيت المقدس ، وكان دخوله دمشق سادس ربيع الأول .

[٣١٤] ولما استقر بها قراره أمر بإنشاء الكتب لاستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد ، وابتدأ بالجلوس في دار العدل ، وبحضرته الفقهاء والعلماء وأهل الدين . وكان قد ولي بدمشق بدر الدين مودودا المعروف بالشحنة — وهو أخو عز الدين فرخشاه لأمه — ثم فوض إليه ولاية الديوان ، وكان مع الصفى بن القابض ، وكان الصفى قد بنى للسلطان دارا بالقلعة مظلة على الشرفين ، وأنفق عليها أموالا جلية ، وبالغ في حسناتها ، وظن أنها تقع من السلطان بموقع ، فلما رآها السلطان ما أعارها طرفه ولا استحسناها ، وكانت من جملة ذنوب الصفى التي أوجبت عزله عن الديوان ، وقال :

” ما يصنع بالدار من يتوقع الموت ؟ وما خلق العبد إلا للعبادة والسعى في تحصيل السعادة الأبدية ، وما جئنا إلى دمشق بذية الإقامة “ — رحمه الله وقدس روحه — وكذا فلتكن الملوك .

ولم يكن سعيه إلا في الجهاد وتحصيل مجد ، ولم يكن يرغب [فيما كان يرغب] غيره من الملوك من الملهذات الخميسة ، لذاب البطن والفرج ، ولم يكن من رأيه التوزع والسكون وإضاعة الحرم ، بل الحذر والتشعب والحرم والعزم الصادق فيما يحصل به المجد في الدنيا ، والحمد في الآخرة

ذكر رحيل السلطان من دمشق إلى الغزاة

ولما عزم السلطان على الخروج للغزاة بدأ بزيارة القاضي الفاضل، وكان يجوسق ابن القراش بالشرف الأعلى في بستانه، فاستضاء برأيه فيما يريد أن يفعله، وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه، وأقام عنده إلى الظهر ثم ودعه ورحل، وكانت مدة مقامه بدمشق خمسة أيام، فسلك على عين البحر والدممية والبقاع، وأتى بعلبك، وخيم بمرج عدوسه، ثم رحل على سمت اللبوة.

ثم أتى الدراعة، ووصله الخبر بوصول عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار في جموعه وجنوده، وتزوله على بحيرة قدس من عمل حمص، فسار إليه، واجتمعا، ونزل السلطان وعماد الدين بالبحيرة، وعمل عماد الدين على البحيرة للسلطان دعوة، وعمل له السلطان دعوة، واجتمعا في الركوب والجلوس، وتأكد بينهما التصافي والمودة.

وأرسل السلطان إلى ابن أخيه الملك المظفر — صاحب حماة —، وولده الملك الظاهر [٣١٥] — صاحب حلب — فأمرهما بأن يجتمعا ويتزلا بتيزين^(١) قبالة أنطاكية لحفظ ذلك الجانب، ففعلا.

وأقام السلطان بالبحيرة إلى آخر ربيع الأول، ثم رحل في أول ربيع الآخر، وخيم على تل قبالة حصن الأكراد، وشن الغارة على نواحي الحصن، وصافيتا، والعزيمة، وتلك الحصون، وفتح حصن يحمور، ولم تزل الإغارات والغنائم وهم في تلك المنزلة إلى آخر ربيع الآخر.

(١) تيزين، عرفها (ابن الشحنة: الدر المنخب في تاريخ مملكة حلب، ص ٢٢٢) فقال إنها من مضافات أنطاكية من الحصون، وهي مدينة صغيرة قديمة كان لها سور قد تهدم، ولم تزل في أيدي المسلمين إلى أن استولت الفرنج على أنطاكية، ثم استعادها المسلمون منهم، وقصبتها الآن "أرتاح".

ووصل إلى السلطان وهو في تلك المنزل قاضي جبلة منصور بن نذيل ، وجماعة معه ، فأشار على السلطان بقصد جبلة ، وتكفل له بفتحها ، وفتح اللاذقية ، وتلك الحصون الشمالية والمعقل ، وكانت تلك البلاد قد سلمها إليه ابرنس أنطاكية ، وعول عليه فيها ، وقال للسلطان :

” إن الاشتغال بطرابلس مع حصاتها ومنعتها يذهب الزمان ، والمسلمون يجبله راغبون في التسليم ، مستظرون للسلطان أن يخلصهم من الفرنج “ .

فأصغى إلى قوله .

ذكر فتح أنطربوس

ثم سار السلطان من منزله تلك ذلك اليوم — يوم الجمعة رابع جمادى الأولى — على تعبئة لقاء العدو ، ورتب الأطلاب ، وسارت الميمنة ومقدمها عماد الدين زنكى ، والقلب فى الوسط ، والميسرة فى الآخرة ، ومقدمها مظفر الدين بن زين الدين ، والثقل فى وسط العسكر ، حتى أتى المنزل ، فبات تلك الليلة فى بلد العدو ، ثم رحل صبيحة السبت ونزل على العزيمة ، فلم يعرض لها ، ولكن أقام عليها بقية يومه ، ورحل يوم الأحد ، فوصل إلى أنطربوس ، فوقف قبالتها ينظر إليها ، وكان عزمه الاجتياز إلى جبلة ، فاستهان بأمرها ، فسير من رد الميمنة ، وأمرها بالنزول على البحر من الجانب الآخر ، فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور وغنم العسكر جميع ما فيها ، ونخرج الناس ومعهم الأسرى والأموال ، وترك الغلمان نصب الخيم ، واشتغلوا بالكسب ، ووفى بقوله — رحمه الله — فإنه كان قد عرض عليه الغدا ، فقال : ” نتغدى بأنطربوس إن شاء الله “ .

قال القاضي بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — :

” فعاد إلى خيمته فرحا مسرورا ، وحضرنا عنده للهناء بما جرى ، ومد الطعام ، وحضر الناس ، وأكلوا على عاداتهم ، ورتب على البزجين الباقين الحصار ، فسلم أحدهما إلى مظفر الدين ، فما زال [٣١٦] يحاصره حتى أخربه ، وأخذ من كان فيه ، وأمر السلطان بأحراق سور البلد ، وقسمه على الأمراء .

وكان البرج الآخر حصينا منيعا مبنيًا بالجمر النحيت ، وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة فيه ، وخندقه فيه الماء ، وفيه خروج^(١) كثيرة تخرج الناس على بعد ، فرأى السلطان تأخير أمره ، والاشتغال بما هو أيسر منه ، واشتد في خراب السور حتى أتى عليه ، ونحرب البيعة ، وهي بيعة عظيمة يحجونها من سائر البلاد ، وأمر بوضع النار في البلد ، وأحرق جميعه ، والأصوات مرتفعة بالتهليل ، وأقام ينحرب البلد إلى رابع عشر جمادى الأول .

ثم سار يريد جبّة ، فالتقاه ولده الملك الظاهر في أثناء الطريق ، ومعه العسكر التي كانت بتيزين^(٢) ، ونزل السلطان على مرقية ، وقد أخلاها سكانها ، نفيم بها ، وكانت الطريق إلى جبلة على الساحل ضيقة المسلك ، وهناك حصن للاسبتار يقال له المرقب ، مأهول معمور ، ولا طريق إلا تحته .

وكان ملك صقلية لما بلغه ما تم على الفرنج بالشام جهز أسطولا يشتمل على ستين قطعة ، وقدم عليها رجلا يقال له المرعريط ، فوصل وما ضر ولا نفع ، فإن فرنج الساحل لم يرفعوا به رأسا ، وضجروا منه ، فإنه كان في عشرة آلاف رجل ، ويحتاجون إلى ميرة وكلف كثيرة ، فصار إلى مدينة صور ، ثم رجع إلى طرابلس ، وتردد أشهرًا في البحر ، فلما سمع بعبور عسكر المسلمين على الساحل

(١) انظر ما فات هنا ، ص ١٥٠ ، هامش ٣

(٢) انظر ما فات هنا ، ص ٢٤٤ ، هامش ١

إلى جبله جاء بالشواني، ووضعها على مرازاة الطريق، وفيها الرماة، فأمر السلطان بنقل الجفاتي^(١) إلى هناك وتصفيها، وتكثير ستائرهما، وأجلس الرماة من ورائها، فما زال الأمر كذلك، والرماة ترمى، والمسلمون سالكون المضيق إلى أن عبرت الأتقال والأحمال، وخلص المسلمون من تلك المشقة، ووصلوا إلى مدينة يقال لها بلانياس، وقد انجلى عنها أهلها، فخيم السلطان عليها، ثم أصبح على الرحيل، فاعترضه نهر عميق ما فيه طريق، وهو مطرد من الجبل إلى البحر، وعليه قنطرة واحدة، فتكبتها السلطان بالحففل، ومضى يمينا إلى الجبل، وأبعد حتى عبر فوق رأس العين، وأحاطت العساكر بالنهر من جانبيه، (٣١٧) وتزاحمت الأتقال على القنطرة، فما خلصوا تلك الليلة إلى آخرها، ونزل السلطان قبل وصول الأتقال إلى بلده، ودعى بليدة من غربي النهر على شاطئ البحر، وقد أخلاها أهلها.

ذكر فتح جبلة

وأصبح السلطان يوم الجمعة لا تثنى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى نازلا على جبلة، وكان قاضيا قد سبق إليها، واتفق مع من فيها من المسلمين على التسليم، فما وصل المسلمون إليها إلا وقد رفعت على سورها الأعلام السلطانية،

(١) الجفّتا — والجمع جفّاتي وجفّيات — حرفها دوزي بالكافة الفرنسية: (palissade) أي السياج السائر، ويبدو أنها كانت نوعا من المتراس أو الحاجز المعيق لتقدم العدو، أو الذي يستتر وراءه الجنود الرماة أثناء القتال، وفي المراجع المعاصرة نصوص قد تلقى الضوء على معنى هذا اللفظ؛ فقد جاء في (العماد: الفتح القسي، ص ٥٨): "فخول السلطان إلى قربها له خيمة صغيرة، وأنهم بنات الحنايا بالمنايا عليها مغيرة، وصف الجفّاتي، فصدف أنّها الآتي... الخ" وقال في ص ٦٠: "توكان من إحكام العزم، وإتمام الحزم، تكميل الآلات وتتميمها، وتركيب الأبراج والدبابات وتأليقها، وتقريب الجفّاتي والجنويات وتصفيها"؛ وقال في ص ٦١: "وظلمت الستائر من القضيبي، وصفت من سور صور بالمكان القريب، وكنت من ورائها الكافة، واستترت بالجفّاتي قدامها الرماة".

وتحصن الفرنج بحصنها ، فما زال بهم قاضي جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى استزلهم منها بشرط أن يأخذ منهم رهنا إلى أن يردوا من أنطاكية رهائن جبلة من المسلمين ، فأخذ منهم جماعة من رؤوسهم ومقدميهم ، فبقوا عنده حتى أعاد الأبرنس صاحب أنطاكية الرهائن التي عنده ، فحينئذ أطلقوا .

وكان تسلم جبلة يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى ، وأقام السلطان عليها إلى الثالث والعشرين منه .

ذكر فتح بكسراييل

وفي الجبل على سمت طريق حماة حصن حصين يعرف ببكسراييل ، وكان أهل الحصن استعادوه من الفرنج منذ سنين ، فسلموه إلى السلطان ، ونزلوا مقدموا الجبل إلى خدمته سامعين مطيعين .

ثم سلم السلطان جبلة إلى الأمير سابق الدين [عثمان] بن الداية — صاحب شيزر — ، واحترم قاضي جبلة ، وأحسن إليه وحبس عليه أملاكاً ، وصرفه في أملاك آبائه ، وحكمه في القضاء وفوضه إليه .

ذكر فتح اللاذقية

ثم رحل السلطان إلى اللاذقية يوم الأربعاء لسبع بقين من جمادى الأول ، فبات بالقرب منها وصبحها يوم الخميس ، وقد امتنع الفرنج بقلاعها ، وهي ثلاث متلاصقات على طول البلد ، فاشتد القتال ، وعظم الزحف إلى آخر النهار ، فتسلم السلطان البلد دون القلاع ، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة ، فإنه كان بلد التجار ، وفرق بين الناس الليل ، وأصبح يوم الجمعة مقاتلاً ، وأخذ النقوب من شمال

القلاع، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله ستين^(١) ذراعا ، وعرضه أربعة أذرع ، واشتد الزحف عليه ، حتى صعد الناس الجبل ، وقاربوا السور ، وتواصل القتال [٣١٨] حتى صاروا يتحاذفون بالحجارة ، فحينئذ استغاثوا بالأمان ، فاستدعوا بقاضى جبلة ، فدخل إليهم ، وقرر لهم قاعدة الأيمان ، فأجيبوا إليه ، وعادوا الناس عنهم إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب .

ولما كان صبيحة السبت دخل إليهم قاضى جبلة ، واستقر الحال معهم على أن يطلقوا بنفوسهم وذرايرهم ونسائهم وأموالهم ، خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب ، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى ما منهم ، ورفع العلم السلطاني على السور في يوم السبت ، فأقام السلطان عليها يوم الأحد سابع عشر من جمادى الأولى .

ومن جملة كتاب كتبه السلطان إلى أخيه سيف الدين طفتكين بن أيوب

— صاحب اليمن — :

” وهذه اللاذقية مدينة واسعة ، وخطة جامعة ، معاقلها لا ترام ، وأعلاقتها لا تستام ، وهى أحسن بلاد الساحل وأحصنها ، وأزيدها أعمالا وضياعا وأزيناها ، وما فى البحر مثل ميناها ، ولا للمراكب^(٢) الواردة إليها مثل مرساها ، وهى جنة كان يسكنها أهل الجحيم ، وطالما مكثت بالكفر دار يؤس فعادت بالإسلام دار نعيم “ .

وكانت شوانى صقلية قد قابلت فى البحر اللاذقية ، طلبا^(٣) لامتناعها ، فلما فتحت وقف السلطان على شاطئ البحر بعساكره ، فطلب مقدم تلك الشوانى

(١) النص فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٦) : « عشرين ذراعا » .

(٢) الأصل : ” المراكب “ ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٨) .

(٣) النص عند العماد (المرجع السابق) : ” طمعا فى امتناعها “ .

أمانا ليصعد ويجتمع به ، فصعد وخدم السلطان ، وعفّر وجهه على الأرض بين يديه ، وقال له :

”أنت سلطان عظيم قد شاع في الأرض عدلك ، واشتهر فضلك وإحسانك ، فلو مننت على هذه الطائفة الساحلية الخائفة لملكيت قيادها ، ولو أعدت عليها ما أخذته من البلاد صاروا لك عبيدا وأطاعوك ، وإلا جاءك من وراء البحر في عدد الموج أفواجا فوجا بعد فوج ، وسار إليك ملوك النصرانية من سائر الممالك ، وأمر هؤلاء القوم أهون عليك من غيرهم ، فاعطف عليهم واصفح“.

فقال له السلطان :

”قد أمرنا الله بالجهاد لأعداء الدين ، واقترضه علينا ، فنحن قائمون في طاعته بأداء ما افترض علينا من الجهاد ، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد ، ولو اجتمع علينا أهل الأرض لتوكلنا على الله تعالى“ .

فصلّب الفرنجي على وجهه وعاد إلى مركبه .

ذكر فتح صهيون

ورحل السلطان من اللاذقية (٣١٩) قاصدا صهيون بعد أن سلمها إلى ابن أخيه الملك الظفرتقي الدين ، فقتل على صهيون يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى ، فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بكرة الأربعاء ، ونصب عليها المناجيق ، وهي قلعة حصينة منيعة شاهقة في الهواء ، وهي في طرف جبل ، وخنادقها أودية هائلة واسعة عميقة ، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد طوله ستون ذراعا ، وهو تفر في حجر ، ولها ثلاثة أسوار : سوران دون ربيضها ، وسور دون القلعة^(١) مع سور القلعة .

(١) النص عند ابن شداد — وهو المرجع الذي ينقل عنه هنا — ”دون القلعة وسور القلعة“ ، انظر : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٩) .

وأُنزل السلطان ولده الملك الظاهر على المكان الضيق من الوادى ، فنصب
منجنيقا مقابل قرنه من السور ، وكان صائب الحجر ، ولم يزل يضربها حتى هدم
من السور قطعة عظيمة ، وكان معه جماعة من الرجالة الحلبيين ، وهم فى الشجاعة
بالمنزلة المشهورة ، ودام رمى النشاب^(١) والجرخ^(٢) والزنبورك^(٣) والزيار^(٤) ،
فخرج أكثر أهل الحصن وهم يظهرون التجلده .

ولما كان بكرة الجمعة ثانى جمادى الآخرة عزم السلطان على الزحف ، وركب
وتقدم ، وتواتر ضرب المنجنيقات ، وارتفعت الأصوات ، وعظم الضجيج
بالتكبير والتهليل ، فتعلق المسلمون بقرنه من ذلك الجبل ، وقد أغفل الفرج
إحكامها ، فتسلقوا منها بين الصخور حتى التحقوا بالسور الأول ، فقاتلوه عليه
حتى ملكوه ، وملكوا بقية أسوار الرىض وهجموا .

(١) النشاب النبل أو السهام ، واحده نُسابة ، والناشبة والنَّشابة قوم يرمون بالنشاب (اللسان) ،
وقد ذكر (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٦٠) أنواع النشاب وما يمتاز به كل نوع
على الآخر ، قال : ”وأما النشاب فيجب أن تكون صحيحة الاعتدال والاستدارة والفنل والثقل والخفة ،
وطوله وقصره على حسب مقادير الرامى ، والمرشش المربع أو المثلث ، والجناح الأيمن أخف من الأيسر ،
والمثلث المارِش أسرع ، والمربع أعدل وأصح ، لكن فيه بطل ، ورشش الذنب لا خير فيه ، فإن اضطر
إليه فليخلط مع غيره ... الخ“ .

(٢) راجع ما فات هنا ص ١٥٠ ، هامش ٣ ، ص ٢٤٣ ، هامش ٤

(٣) راجع ما فات هنا ص ٢٤٤ ، هامش ١

(٤) الزيار — والجمع زيارات — نوع من القسى الرامية للسهم ، يذكر غالبا مع أنواع القسى
الأخرى مثل الجرّخ والعقار ، ولكنه أكبرها وأضخمها ، وقد وصفها (مرضى بن على : تبصرة
أرباب الألباب ، ص ٦) وصفا واضحا دقيقا ، قال : ”قسي الزيار ، وهى أشدها رميا ، وأعظمها
جرما ، وأنكأها مهما ، ويحتاج إيتارها إلى عدة من الرجال ، وتركيب هيولها من أصناف من الأخشاب ،
وتُنصب على الأبراج وما شاكلها ، ولا يكاد أحد يقف لها“ ، أنظر أيضا : (Dozy : Suppl. Dict. Arab) و (C. Cahen : Un Traité d' Armurerie . . . etc. P, 151 — 152) و (العقاد الأصفهاني :
الفتح القسى ، ص ٦٤) .

قال القاضي بهاء الدين بن شداد :

” فلقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدور وقد استوى فيها الطعام ،
فياً كلونها وهم يقاتلون القلعة ، وانضم من كان في الربض إلى القلعة بما أمكنهم
أن يحملوه من أموالهم ، ونهب الباقي ، ثم استدار المسلمون حول أسوار القلعة ،
فلما عاينوا الهلاك استغاثوا وطلبوا الأمان ، فأمنهم السلطان ، على أن يسلموا
بأموالهم وأنفسهم ، وقرر عليهم قطعة القدس ، فسلمت القلعة .

ثم سلم السلطان صهيون بجميع أموالها وسائر ما حوته من ذخائر وأموال إلى الأمير
ناصر الدين منكورس بن نهارتكين — صاحب بوقيس — فأحكم البلد وحصنه
وحفظه .

وكان ناصر الدين له همة عالية ، ومعروف [٣٢٠] كثير وسياسة تامة ،
وصدقات كثيرة دارة ، وأوقف وقوفا جليلة ، ولم يزل مشكور السيرة ، مرضى
الطريقة ، مقصدا وملاذاً لمن قصده من أهل الفضل والدين إلى أن توفى وهو
مالك صهيون ، وتولى بعده ولده مظفر الدين عثمان ، ثم توفى مظفر الدين عثمان
ابن منكورس بن نهارتكين ، فملكها بعده ولده سيف الدين مجد ، فلم يزل
مالكا لها إلى أن توفى سنة إحدى وسبعين وستمائة^(١) ، وولى بها السلطان الملك
الظاهر ركن الدين نوابه ، فكان مدة ملك آل نهارتكين لها نحو سبع وثمانين سنة .

وكان مظفر الدين عثمان سالكا طريقة والده في العدل والإحسان ، والصدقة
وحسن السيرة ، وكان جده ناصح الدين نهارتكين — رحمه الله — أميراً جليل
القدر ، واستشهد بيد الباطنية ، وهو في خدمة السلطان ، وقد ذكرنا ذلك .

(١) هذا النص يدل على أن ابن واصل كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٧١ هـ .

ذكر فتح عدة حصون

ثم تسلم يوم السبت ثالث جمادى الآخرة قلعة العيد ، ويوم الأحد رابع الشهر قلعة الجماهريين ، ويوم الاثنين خامس جمادى الآخرة حصن بلاطنس ، وندب إلى كل حصن من تسلمه ، وكانت هذه الحصون متعلقة بصهيون .

ذكر فتح الشَّغْر وبكاس

ثم رحل السلطان حتى أتى بكاس ، وهى قلعة حصينة على جانب النهر العاصى المعروف بالارنليط ، ولها نهر يخرج من تحتها ، وكان نزول السلطان على جانب العاصى يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة ، وصعد السلطان إلى القلعة وأحرق بها من كل جانب ، وقاتلها أشد قتال بالمنجنقات والزحف ، ثم تسلمها يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة ، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم ، وغنم جميع ما كان فيها ، وكان لها قلعة تسمى الشَّغْر قريبة منها يجاز إليها بجسر ، وهى فى عاية المنعة ليس إليها طريق ، فسلطت عليها المنجنقات من الجوانب الأربع ، فطلبوا الأمان ، وذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة ، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لأجل استئذان من بأنطاكية ، ثم سلمت ، وصعد العلم السلطانى على سورها يوم الجمعة سادس عشر الشهر ، ثم عاد السلطان إلى مخيمه .

ذكر فتح سرمانية

ولما كان يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة [٣٢١] بقيت من جمادى الآخرة سير السلطان ولده الملك الظاهر — صاحب حلب — إلى قلعة تسمى سرمانية ، فقاتلها قتالا شديدا ، وضايقها مضايقة عظيمة ، ثم تسلمها يوم الجمعة لسبع بقين من الشهر ، بعد قطيعة قررها وقبضها ، ولما أخرجهم منها هدمها وسواها إلى الأرض .

ومن عجيب الاتفاق أن هذه ست قلاع ومدن فتحت في ست جمع ،
وهي علامة قبول دعاء خطباء المسلمين وسعادة السلطان ، حيث يسر الفتوح
في اليوم الذي تضاعف فيه الحسنات ، ولم يتفق مثل هذا في تاريخ ، وهي :
جبله ، واللاذقية ، وصهيون ، وبكاس ، والشفر ، وسرمانية .

ثم أنعم السلطان بالشفر وبكاس على الأمير غرس الدين قلعج ، وكان هذا قلعج
قد تسلم كفردين — وهو معقل حصن الأرمن — ، وكان هذا أميراً جليل القدر ،
وخلف أولاداً أكابر ثلاثة ، وهم : شمس الدين ، وسيف الدين ، وعماد الدين ، وكان
شمس الدين أكبرهم ، وله ميل إلى الفضيلة ، وكذلك أخوه .

ثم أخذ منهم الملك الظاهر بعد موت السلطان الحصون ، وأقطعهم أقبازاً كثيرة
بحلب ، ثم فارق سيف الدين وأخوه عماد الدين حلب ، وذلك بعد وفاة الملك الظاهر
ووفاة أخيهما شمس الدين ، وخدم الملك الكامل بن الملك العادل ، ثم تقلبت
بهما الأحوال ، فقتل عماد الدين بالشرق ، وأما سيف الدين فخدم الملك الناصر
داوود بن الملك المعظم عيسى ، فأقطعه عجلون ، ثم سلمها بعد ذلك سيف الدين
إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ، وتوفي سيف الدين بدمشق ،
وكانت له مشاركة في علوم وفضيلة وثاقب رأى عند ملوك بني أيوب .

ذكر فتح حصن برزية

ثم سار السلطان جريدة إلى حصن برزية ، وهو في غاية المنعة والقوة على من
جبل شاهق يضرب به المثل في جميع بلاد الفرنج والمسلمين ، تحيط به أودية
من سائر جوانبه ، وذرع علو القلعة فكان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً ،
ثم جرد عزمه على حصاره بعد رؤيته ، فاستدعى الثقل ، ونزل تحت جبل الحصن ،
ولما كان بكرة يوم الأحد لخمس بقين من جمادى الآخرة صعد السلطان جريدة مع

المقاتلة [٣٢٢] والمنجنيقات^(١) وآلات الحصار إلى الجبل ، وأحرق بالقلعة من سائر جوانبها ، وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة ليلا ونهارا .

ولما كان يوم الثلاثاء لثلاث بقين من جمادى الآخرة رتب السلطان العسكر ثلاثة أقسام ، ورتب كل قسم يقاتل شطرا [من النهار ، ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الآخر]^(٢) بحيث لا يفتر القتال أصلا .

وكانت النوبة الأولى لعاد الدين زنكى — صاحب سنجار — فقاتل قتالا شديدا حتى استوفى نوبته وكل أصحابه .

ثم تسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه وخواصه ، وكان الزمان حرا شديدا ، فاشتد الكرب على الناس ، والسلطان فى سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم ، وابن أخيه الملك المظفر كذلك ، فقاتلوهم إلى قريب الظهر ، ثم تعبوا ورجعوا ، فلما رأهم السلطان قد عادوا تقدم اليهم ويده جُمَاق^(٣) فردهم ، وصاح فى القسم الثالث وهم ينتظرون نوبتهم ، فوثبوا ملبين ، وساعدوا إخوانهم وزحفوا ، بجاء الفرنج ما لا قبل لهم به .

وكان أصحاب عماد الدين قد استراحوا ، فقاموا حينئذ ، وتناصرت أنصار الله ، واشتد الأمر ، وبلغت القلوب الحناجر ، فاشتد تعب الفرنج ونصبهم ، وظهر عجزهم وضعفهم عن حمل السلاح ، وخالطوهم المسلمون ، فعاد الفرنج يدخلون الحصن ، فدخل المسلمون معهم ، وكانت طائفة قليلة فى الخيام شرق الحصن ، فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك المكان ، فصعدوا إلى الحصن من تلك الجهة ، فلم يمنعهم مانع ، والتقوا مع المسلمين الداخلين والتقوا مع الفرنج ، فملكوا الحصن

(١) راجع (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، هامش ٢) .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن المرجع الذى ينقل عنه المؤلف هنا ، وهو ابن شداد ، راجع أيضا : (الروضين ، ج ٢ ، ص ١٣١) ، وهى إضافة ضرورية يستقيم بها المعنى .

(٣) جُمَاق أو جوماق نوع من السلاح يشبه الدبوس ، عرفه (Dozy : Supp. Dict. Arab.) بأنه "Une arme semblable à une massue" أى أنه نوع من السلاح يشبه القضيب أو الدبوس .

عنوة وقهرا ، ودخل الفرنج القلة التي للحصن ، وأحاط بها المسلمون ، وأرادوا نقبها ، وكان الفرنج قد رفعوا مَنْ عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلة ، وأرجلهم في القيود والخشب [المثقوب] ^(١) ، فلما سمعوا تكبير المسلمين في نواحي الحصن والقلعة كبروا في سطح القلة ، فظن الفرنج أن المسلمين قد صعدوا إلى سطح القلة ، فآلقوا بأيديهم إلى الأسر ، وملكها المسلمون عنوة ، ونهبوا ما فيها ، وأسروا وسبوا ، وأمست خالية لا ديار بها ، وألقى المسلمون النار في بيوتهم فاحترقت ، وولى السلطان حصن برزية للأمر عز الدين إبراهيم بن الأمير شمس الدين بن المقدّم - وهو صاحب حصن أفامية - وبين الحصنين بحيرة تحجز بينهما .

وكانت زوجة البرنس [٢٢٣] صاحب أنطاكية تهادى السلطان وتناصحه ، وتطالعه على أسرار الفرنج ، وكان السلطان يكرمها لذلك ، ويهدى إليها أنفس الهدايا ، وكانت أختها صاحبة برزية فسبيت يوم الفتح ، فما زال السلطان يطلبها حتى أحضرها ، وأحضرها زوجها ، وابنة له ، وجماعة من أصحابها ، وصهرها ، فأنعم عليهم السلطان بما لهم ، وسيرهم إلى أنطاكية إكراما لامرأة البرنس ، فشكرته على ذلك ، ودامت مودتها له .

ذكر فتح دَرَبَسَاك ^(٢)

ثم سار السلطان حتى أتى إلى جسر الحديد ، وأقام عليه ثلاثة أيام ، ثم سار إلى دَرَبَسَاك ^(٢) فنزلها يوم الجمعة ثامن رجب من هذه السنة ، وهي قلعة منيعة من معقل الداوية ، قريبة من أنطاكية ، ونصب عليها المنجنيقات ، وتابع الرمي بالجحارة ، فهدمت من سورها شيئا يسيرا ، فلم يبال من فيها بذلك ،

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٢) ، وهو المرجع الذي ينقل عنه المؤلف هنا .

(٢) الأصل : ” دِيرْبَاك ” ، وقد ضبطت بعد مراجعة : (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٢٢)

فزحف إليها بعساكره ، وكشف الرجال عن سورها ، وتقدم النقبون فتقبوا برجا وعلقوه ، فسقط واتسع المكان لمن يريد أن يدخل من المقاتلة ، واستمروا يومهم ذلك على الزحف من الغد ، وحمل الفرنج موضع النقب بالرجال المقاتلة ، ووقف في الثغرة رجال يحمونها عن من يصعد فيها .

قال القاضي بهاء الدين :

” ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه ، وهم قيام عوض الجدار مكشوفين “ واشتد الأمر فطلبوا الأمان ، فأومنوا على أن يخرجوا بثياب أبدانهم ، ويدعوا كل ما في الحصن من خيل وعدة وأثاث وقماش وذهب وفضة ، واستهلوا ثلاثة أيام ليراجعوا أهل أنطاكية ، فأمهلوا حتى أخرجوا ، وتسلم الحصن يوم الجمعة لثمان بقين من رجب .

ذكر فتح بَغْرَاس

ثم سار السلطان عن دَرَبَسَاك إلى قلعة بَغْرَاس بعد أن اختلف أصحابه في حصرها ، فمنهم من أشار به ، ومنهم من نهى عنه ، فقال : ” هو حصن ، وقلعته منيعة بالقرب من أنطاكية ، ويحتاج أن يكون أكثر العسكر يزكا في مقابلتها ، وحينئذ يفشل المقاتلون على بَغْرَاص ويتعذر الوصول إليها ، فاستخار السلطان الله تعالى ، وسار إليها ، [٣٢٤] وجعل أكثر العسكر في مقابلة أنطاكية يزكا يغيرون على أعمالها ، وكانوا حذرين خوفا إن غفلوا لقربهم منها (كذا)

وبقي السلطان في بعض أصحابه يقاتل القلعة ، ونصب عليها المنجنيقات ، فلم تؤثر فيها شيئا لعلوها وارتفاعها ، فغلب على الظن تعذر فتحها ، وتأخر ملكها وشق على المسلمين قلة الماء عندهم ، فبينما الناس على هذه الحال وإذا بباب القلعة قدفتح ، وخرج منها إنسان يطلب الأمان ليحضر ، فأذن له في الحضور ، فحضر وطلب الأمان لمن في الحصن حتى يسلموه بما فيه على قاعدة دربساك فأجيبوا إلى ذلك .

وعاد الرسول ، وأخذوا الأعلام السلطانية ، فرفعت على الأسوار ،
ونزل من فيها ، وتسلم السلطان القاعة بما فيها من الرجال والسلاح والأموال ،
وأمر السلطان بتخريب الحصن نُفُورًا ، وكان في ذلك مضرة عظيمة على المسلمين ،
فإن ابن ليون — صاحب الأرمن — أخرج إليه من ولايته بعد ذلك ، بفقد
عمارته ، وأتقنه ، وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون به على البلاد ، ووقع
الضرر بسببه .

وكان فتح بَغْرَاص في ثاني شعبان .

قال عماد الدين الكاتب :

”وهذان الحصنان دَرْبَسَاك وبَغْرَاص كانا لأنطاكية جناحين ، ولطاغية الكفر
سلاحين ، فتم للسلطان فتح هذه الحصون المذكورة مع أبراج ومغارات
وشققانات^(١) كثيرة حتى خاض ذلك الإقليم ، وتم^(٢) الفتح العظيم ، وعادت الكنائس
مساجد ، والبيعُ معابد ، والصوامعُ جوامع ، والمذابحُ لعبدة الصليبان^(٣) مصارع“ .

ذكر الهدنة مع الأبرنس صاحب أنطاكية

ولما فتح السلطان بَغْرَاص عاد إلى مخيمه الأكبر وأنقاله ، وراسله الأبرنس
في طلب الصلح ، فصالحه أشدة ضجر العسكر ، وقوة قلق عماد الدين — صاحب
سنجار — في طلب الدستور ، واشترط على الأبرنس إطلاق جميع أسارى المسلمين

(١) في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٣) : ”شققان“ ، ولعلها جمع ”شقيف“ ، وقد قال
(باقوت : معجم البلدان) عند كلامه عن شقيف أرنون : الشقيف كالكهف .

(٢) بهذا اللفظ يتقابل النص هنا مرة أخرى مع نسخة س ، وإنما في ص ١٨٣ .

(٣) الأصل : ”السلطان“ والتصحيح عن س .

الذين عندهم [وكانوا ألف أسير فأطلقوا] ^(١) ، وكانت مدة الصلح ثمانية أشهر ،
أولها [أول] تشرين الأول ، وآخرها آخر أيار ، وودع السلطان عماد الدين
— صاحب سنجار — والعساكر [٣٢٥] الشرقية .

ثم سار السلطان إلى حلب ، وقد خرج كل من بها لتلقيه ، مستبشرين بإقباله ونصره ،
وصعد إلى قلعتها ، وأقام بها أياما ، ووجد ولده الملك الظاهر قد سار في أهلها
أحسن سيرة [ففرح بذلك] ^(١)

ثم سار السلطان إلى معرة النعمان ، وقصد زيارة الشيخ الزاهد أبي زكريا
المغربى ، بدير النقيرة ، وزار قبر عمر بن عبد العزيز — رضى الله عنه —

ثم سار إلى حماة ، فصعد مع صاحبها ابن أخيه الملك المظفر إلى قلعتها ، ومع
السلطان أمير المدينة النبوية — على ساكنها أفضل الصلاة والسلام — وهو السيد
الشریف عز الدين أبو فليحة القاسم بن مهنا ، وكان مصاحباً للسلطان في جميع
فتوحاته ، وكان السلطان لا يفارقه ، [وكان له فيه اعتقاد عظيم ، لأجل جده
ولمين طاعته] ^(٢) ، ووجد السلطان ابن أخيه الملك المظفر قد عمر قلعة حماة
وحصنها ، وعمر خنادقها ، وكانت ذات تل مسطح ، فأصبحت من القلاع
العظام المشهورة ، فسر السلطان لما رأى من حصانتها ، وقام الملك المظفر
بوظائف خدمة عمه .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٢) هذه الجملة واردة بهامش الأصل ، ولا توجد في س .

ذكر قدوم السلطان — رحمه الله — إلى دمشق^(١)

ثم رحل السلطان من حماة قاصدا دمشق ، فلم يقيم بمحصر ، وجاء إلى بعلبك على طريق الزراعة واللبن ، ووصل إلى دمشق قبل دخول شهر رمضان ، فأقام بها إلى أن دخل شهر رمضان ، فأشير عليه أن يريح عسكره ، فقال رحمه الله : ” إن القدر غير مأمون ، والعمر لا يعلم كم بقي منه ، وللفرص أوقات تنتهز ، وقد بقيت مع الكفر هذه الحصون ، ولا بد من المبادرة إلى أخذها ، لا سيما صفد وكوكب ، فإنهما للدأوية والاستتارية في وسط البلاد ، فنخرج ونشتو^(٢) عندهما لنفتحهما “ .

ذكر فتح الكرك والشوبك

قد ذكرنا أن الأمير سعد الدين كمشبا^(٣) الأسدي رتبة السلطان على منازلة الكرك ، فلأزم حصاره هذه المدة الطويلة حتى فنت أزواد الفرنج وذخائرهم ، وأكلوا دوابهم ، وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال ، وكان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب مقبلا بتبنين في جملة من العسكر ، قد أقامه السلطان هناك عند توجهه إلى البلاد الشمالية ، فراسل الفرنج^[٣٢٦] الذين بالكرك الملك العادل يبذلون تسليم القلعة إليه ، ويطلبون الأمان ، وترددت بينهم في ذلك رسائل ، وآخر الأمر أنه أجابهم ، وأرسل إلى صهره سعد الدين كمشبا في المعنى ، فتسلم القلعة ،

(١) هذا العنوان غير موجود في نسخة س .

(٢) من : ” نشتي “ .

(٣) رسم هذا الاسم عند العاد (الروضين ، ج ٢ ، ص ١٣٤) : ” كمشبه “ .

وتسلم أيضا ما يقاربها من الحصون ، كالثوبك وهرمز والوعر^(١) وطلع ، وفرغ القلب من تلك الناحية وأمن من في ذلك الصقع ، كأهل القدس وغيرهم ، فإنهم كانوا وجلين من مجاورتهم ، مشفقين من شرهم .

وكان هذا الفتح في أثناء شهر رمضان من هذه السنة — سنة أربع وثمانين وخمسة — ووردت البشرى بذلك إلى السلطان .

ذكر فتح صفد^(٢)

ثم سار السلطان من دمشق متصفا شهر رمضان إلى قلعة صفد ، فحصرها ونصب عليها المنجنيقات ، وأدام الرمي إليها ليلا ونهارا بالجمرة والسهم ، وكان أهلها قد قاربت ذخائرهم الفناء ، لأن عسكر السلطان كان محاصرا لهم قبل ذلك ، فلما رأوا قوة القتال ، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك لقلة الأقوات ، طلبوا الأمان فأمّنهم وتسلمها منهم ، وخرجوا إلى صور وكفى الله المسلمين شرها ، فإنها كانت في وسط البلاد الإسلامية ؛ وكان فتح صفد رابع عشر شهر شوال .

ذكر فتح كوكب

ولما كان السلطان على منازلة صفد قال الفرنج الذين بصور :
” إن فتح المسلمون^(٣) قلعة صفد لم يبق كوكب ، وحينئذ ينقطع طمعنا من هذه البلاد “ .

(١) الأصل : ” والوعرة “ وس : ” والوعرة “ ، وما هنا عن العماد (المراجع السابق)

(٢) س : ” ذكر فتح صفد وكوكب “ ، وميرد هنا بعد سطور فتح كوكب تحت عنوان خاص

بهذا الموضوع .

(٣) س : ” السلطان “ .

فاتفق رأيهم على إنفاذ نجدة لها من رجال وسلاح وغير ذلك ، فأخرجوا مائتي رجل من شجعان الفرنج وأجلادهم ، فساروا في الليل مستخفين ، وأقاموا النهار مكثين ، فاتفق أن رجلا من المسلمين الذين كانوا يحاصرون كوكب خرج متصيذا ، فلقى رجلا من تلك النجدة ، فاستغربه بتلك الأرض ، فضربه ليعلمه بحاله وما الذي أقدمه إلى هناك ، فأقر بالحال ودلّه على أصحابه ، فعاد الجندى المسلم إلى صارم الدين قايمار النجمي وهو مقدم ذلك العسكر ، فأعلمه بصورة الحال والفرنجي معه ، فركب في طائفة من العسكر إلى الموضع الذي قد اختفى فيه الرجال ، فكبسهم وأخذهم ، وتبعهم في الشهاب [٣٢٧] والكهوف ، فلم ينفلت منهم أحد ، وكان معهم مقدمان من فرسان الاسبتارية ، فحملوا إلى السلطان وهو على صفد ، فأحضرهما ليقتلهما ، وكان عادته قتل من ظفر به من هذين البيتين : الداوية ، والاسبتارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم^(١) ، فلما أمر بقتلهما قال له أحدهما :

” ما أظن ينالنا سوء وقد نظرنا إلى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح “.

وكان — رحمه الله — كثير العفو ، يؤثر فيه الاستعطاف والاعتذار ، فلما سمع كلامه^(٢) لم يقتلهما وأمر بهما فسجنا .

ولما فرغ السلطان من صفد سار إلى كوكب ، فنزل على سطح الجبل ، وجرّد العسكر ، وأحرق بالقلعة ، وضايقها بالكلية ، بحيث اتخذ له موقعا يتجاوزه نشاب العدو ، وبني له حائطا من حجر وطين يستتر وراءه ، والنشاب يتجاوزه ، ولا يقف أحد على باب خيمته إلا أن يكون ملبسا ، وكانت الأمطار متواثرة ، والوحول بحيث تمنع [الماشى والراكب] ^(٣) إلا بمشقة عظيمة ، وعانى [السلطان] ^(٤)

(١) الأصل : ” وعداوتهم “ ، والتصحيح عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٩) .

(٢) الأصل : ” كلامهما “ ، والتصحيح عن س (٧٩ ب) .

(٣) ما بين الحاصرتين عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٥) .

شدايد وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الأمطار ، وكون العدو مسلطا عليهم بعلو مكانه ، وُجرح وقتل خلق كثير .

ولم يزل — رحمه الله — راكبا مركب الجدد حتى تمكن النقب من سورها ، وكان المقام قد طال عليها ، وفي آخر الأمر زحف إليها دفعات متناوبة في يوم واحد ، فوصل المسلمون إلى باشورة^(١) القلعة ، ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب عن يد واحدة والجروح^(٢) ، فلم يقدر واحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور فنقبوا الباشورة ، فسقطت ، وتقدموا إلى السور الأعلى ، فلما رأى الفرنج ذلك طلبوا الأمان ، فأمنهم ، وتسلم الحصن متصرف ذي القعدة ، فسيّرهم إلى صور ، فاجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صديد ، فاشتدت شوكتهم وحميت جمرتهم ، وتابعوا الرسل إلى من بصقلية والأندلس وغيرهما يستغيثون ويستنجدون ، والأمداد في كل وقت تأتيهم ، وكان ذلك بتفريط السلطان في إطلاق كل من يحضره ، حتى عَضَّ بنانه أسفا وتندما حين جرى على المسلمين ما سذكروه إن شاء الله تعالى .

ثم ولى السلطان كوكب لصارم الدين قايمار النجمي ، ونزل السلطان إلى المخيم بالغور ، فرحم الله السلطان الملك الناصر صلاح الدين وشكر سعيه ، فما كان أشد ذبه وقيامه بنصرة الدين .

ولقد حكى عنه القاضي بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — قال :

”حضرت مع السلطان حصار صفد ليلة ، وقد [٣٢٨] عيّن مواضع خمسة مناجيق ، حتى نصب الخمسة ، وسلم كل منجنيق إلى قوم ، ورساله تتواتر إليه يخبرونه ، ويعرفهم كيف يصنعون ، حتى أظلمنا الصباح وقد فرغت المنجنيقات ،

(١) انظر ما فات هنا ص ٨١ هامش ١

(٢) انظر ما فات هنا ، ص ١٥٠ هامش ٣ ، ص ٢٤٣ ، هامش ٤

ولم يبق إلا تركيب خنازيرها^(١) فيها ، فرويت له الخبر المشهور في الصباح ،
وبشرته بمقتضاه ، وهو قوله عليه السلام :

”عينان لا تمسهما النار : عين [باتت]^(٢) تحرس في سبيل الله ، وعين
بكت من خشية الله“.

[فلقد رأيته وقد سرورا عظيما]^(٣).

وكتب السلطان إلى الديوان العزيز كتابا بالإهداء الهادي مباشرا بفتح
الكرك والشوبك وصفد وكوكب ، يقول فيه :

”وقد خلص [لنا]^(٤) جميع مملكة القدس وحدها في سمت مصر من^(٥)
العريش ، وعلى صوب المجاز من الكرك والشوبك ، ويشتمل على البلاد الساحلية
إلى منتهى أعمال يروت ، ولم يبق من هذه المملكة إلا صور ، وفتح أيضا
جميع أعمال أنطاكية ومعاقلها التي للفرنج والأرمن ، وحده^(٦) من أقصى أعمال
جبله واللاذقية إلى بلد ابن لاون ، وبقيت أنطاكية بمفردها ، والقصير من حصونها ،
ولم يبق من البلاد التي لم تفتح أعمالها ولم تحل عما كانت عليه سوى طرابلس ، فإنها
لم يفتح منها إلا مدينة جبيل ، فقد سحبت عليها المهلة الذيل ، ومعاقلها باقية ،
وليس لها من عذاب الله الواقع واقية ، والخادم الآن على التوجه إليها ، وعزم
الزول عليها ، وأنه قد رتب الجانب القبلي والبلد المقدسي ، وشحن الثغور من حد

(١) كذا في الأصل ، وعند ابن شداد ؛ ولعلها «خنازيرها» وقد قال دوزي إن جِزِير مأخوذة
من «زنجير» الفارسية ، ومعناها السلسلة .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٥) .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٤) زيادة موضحة عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٧) ، وفي س : ”وقد خلصنا“ .

(٥) الأصل : ”من سمت مصر إلى العريش“ والتصحيح عن الهاد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٧) .

(٦) الأصل : «وهذه» ، والتصحيح عن الهاد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٧) .

جبيل إلى عسقلان، بالرجال والآلات والعُدَد ، والعَدَد المتواصل المدد ، وربب فيها ولده الأفضل علياً^(١) لحمايتها ، وحفظ ولايتها ، وقلد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها ، لتهديب أحوالها وتقويمها .

ولما نزل السلطان إلى الغور ودّعه القاضي الفاضل ، وتوجّه إلى مصر ، ثم تحول السلطان إلى صحراء بيسان ، وأقام بها إلى مستهل ذي الحجة .

ذكر ظهور جماعة من الشيعة بمصر

وثار في هذه السنة في القاهرة إثنا^(٢) عشر رجلاً من الشيعة ليلاً ، ونادوا : « يآل علي . يآل علي » ، وسلكوا الدروب ينادون ، ظناً منهم أن رعية البلد يلبون دعوتهم ، ويخرجون معهم ، فيعيدون دولة أهل القصر ، ويخرجون من هو محبوس منهم ، ويملكونه البلد ، فلم يلتفت أحد [٣٢٩] من الناس إليهم ، ولا أعارهم سمعه ، فلما رأوا ذلك تفرقوا خائفين .

وكتب السلطان بذلك وهو على محاصرة صفد ، وكان على بابة جماعة من وفود المصريين^(٣) فأهمه هذا الأمر وأزعجه ، وتبرم بمن على بابة منهم ، وقال : « إلى متى تتحمل منهم هذا ؟ » ، وهم بطردهم من بابة وردعهم ، ودخل عليه القاضي الفاضل فأخبره بذلك ، فقال :

« يجب عليك أن تشكر الله على هذه النعمة ، فقد عرفت بهذا الأمر طاعة رعيّتك ، أليس لم يلب دعوتهم أحد وأنه لم يكن لهم من يمدّهم ؟ فطب بذلك نفساً^(٤) ، وتحقق زيادة منزلتك عند الله تعالى . »

(١) الأصل : « عليها » ، والتصحيح عن المرجع السابق . (٢) الأصل : « اثني » .

(٣) الذي ذكره العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٨) أن الوفد الذي كان يباب السلطان كان يتكون من جماعة من أولاد الوزراء المصريين والأمراء المقدمين .

(٤) بعد هذا اللفظ في س (٨٥ ب) : « وقرعنا » والنص هنا يتفق ونص العماد .

فقال له السلطان :

” [كان الملوك قبل]^(١) تخافهم الرعية وتهرب منهم ، وتتوقع سطوتهم ، ورعيتنا^(٢) قد تكاثروا علينا وأشجرونا وملونا ، وإذا ركبنا ونزلنا تعاورونا بالقصص^(٣) .

فقال له القاضي القاضل :

” أنت أولى الناس بشكر هذه النعمة ، كان بمصر بالأمس صاحب القصر وأشياعه ، وخدمه وأتباعه ، وأمرأؤه وخواصه ، وما منهم أحد إلا ويرتع الخلق في رياض إنعامه ؛ وكان بالشام والبلاد الشرقية في كل بلد وإل وصاحب له على أهله نعم ؛ وفي كل قطر ملك يلوذ أهل ذلك القطر به ، وقد أصبحت اليوم سلطان الجميع ، وقد رد الله سبحانه آمال الكل إليك ، وجمع المتفرقين على بابك ، فلا يجدون لهم — بعد الله — إلا جودك وكرمك ” .

فأغرورقت عينا السلطان بالدموع ، وشكر الله على إحسانه إليه ، وآلى على نفسه ألا يرد قاصدا ، ولا يخيب وافدا ، فمثل هذا فليكن السلطان ، ومثل القاضي القاضل فليكن الوزير المشير — رحمهما الله وقدمهما أرواحهما —

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن العاد (المرجع السابق) ، وهي زيادة يقتضيا المعنى والسياق ، والنص في س : ” فقال له صلاح الدين : إن السلطان تخافه الرعية وتهرب منه ... الخ ” .

(٢) بعد هذا اللفظ في الأصل : ” الذي لنا ” وفي س : ” بحنا قد تكاثروا ” ، والنص هنا مختصر عن العاد .

(٣) الأصل : ” تعاودنا ” ، وس : ” يعاودونا ” ، وما هنا عن العاد .

ذكر وصول السلطان إلى القدس

وتوجهه بعد ذلك إلى عكا ثم إلى دمشق^(١)

ثم رحل السلطان من البلاد الفورية مستهل ذي الحجة من هذه السنة — أعني سنة أربع وثمانين وخمسمائة — وصحبته أخوه الملك العادل سيف الدين ، فوصل إلى القدس يوم الجمعة ثامن الشهر ، وهو يوم التروية ، وصلى الجمعة في قبسة الصخرة ، وعيد بها يوم الأحد الأضحى ، ثم سار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظر في أحوالها ، وسير أخاه الملك العادل إلى الديار المصرية لمعاونة ولده الملك العزيز [٣٣٠] ومساعدته ، وأعطاه الكرك ، وأخذ منه عسقلان — وكان وهبها له — .

ثم توجه السلطان إلى عكا ، فامر على بلد إلا قوى عدده ، وكثر عدده ، ووصل إليها ، وأقام بها إلى أن خرجت السنة .

ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة والسلطان الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله — مقيم بعكا ينظر في أمورها ومصالحها ، وقد تقدم إلى بهاء الدين قراقوش باتمام العمارة^(٢) ، وولى حسام الدين بشارة الولاية [بها] ، وأقام السلطان بعكا معظم المحرم ، ثم سار يريد دمشق ، فدخلها في مستهل صفر من السنة .

وفي ثاني عشر صفر وصل ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينه رسولا من الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين يأمر بالخطبة لوليدته وولى عهده عدة^(٣) الدنيا والدين

(١) هذا العنوان غير موجود في س .

(٢) س : ”عمارتها“ .

(٣) الأصل : ”عمدة“ والتصحيح عن س والروضتين .

أبي نصر محمد ، وهو الذي ولى بعده ، ولقب الظاهر بأمر الله ، فأمر السلطان
برقاقة الخطبة له ، وسير معه رسوله ضياء الدين أبا^(١) القسم بن يحيى الدين بن
الشهرزورى ، وسيرت معه هدايا وتحف ، وأسارى من الفرنج بعددهم وتاج
ملكهم الأسير ، والصليب الذى كان فوق الصخرة ، وشئ كثير من الملبوس
والطيب .

وسار الرسولان إلى بغداد ، ودخلت الأسارى من الفرنج على هيئتها يوم
قرأعها^(٢) ، رابكة حصنها ، فى طوارقها^(٣) وأدراعها وبيارقها ، وقد نكست

(١) الأصل : "أبي" ، وفى س : "ضياء الدين القسم بن يحيى الشهرزورى" . وفى (المفرزى :
السلوك ، ج ١ ، ص ١٠١ و ١١٤) : "ضياء الدين القاسم أبو الفاضل بن يحيى بن عبد الله
الشهرزورى" .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى س : "مراعها" بدون نقط ، وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص
١٣٩) : "فراعها" ، وما هنا هو الصحيح .

(٣) الطارقة — وتجمع على طوارق أو طارقيات — ، اختلف فى أصلها ، ويرى (Dozy : Suppl.
Dict. Arab) أنها لا ترجع إلى أصل عربى ، بل هى مأخوذة عن الكلمة اللاتينية "targa" ومنها
أخذت الكلمة الإيطالية (tarja) والفرنسية (targe) ، والأصل اللاتينى لها جميعا (tergum) ، ويؤيد
دوزى رأيه هذا القائل بأن اللفظة ترجع إلى أصل أوروبى بشواهد كثيرة متقولة عن المراجع العربية
المعاصرة للحروب الصليبية ، ومعظم هذه الشواهد يورد لفظ "الطوارق" عند وصفه للصليبيين الأوربيين
وأسلحتهم ، فقد جاء فى : (المعاد الأصفهاني : الفتح القسى ، ص ١٦٤) عند وصفه للقتال مع الفرنج
قوله : "وهم (أى الفرنج) مواضعهم ملازمون ... وبالحنادق من البوائق محتنون ، وبالطوارق
من الطوارق متصمون ..." ، ويقول فى ص ٢٤٧ : "فتراجع الفرنج واصطفوا على خنادقهم
ووقفوا بقطارياتهم وطوارقهم" ، وقال فى ص ٢٦٢ : "وتدرع (أى العدو) بأسواره وخنادقه ،
وتستر عن طوارق البلاء بستانه وطوارقه ، فلا يخرج منه إلى مباركه" ، وقال فى ص ٢٦٣ : "إلى
أن انتقل القتال من السور إلى الدور ، ومن الطوارق إلى الطرق والسطوح ... الخ" .

أما عن معنى اللفظ فالرأى مختلف ، ولكننا بدراسة هذه النصوص نستطيع أن نقول إن هذا
المصطلح كان يطلق على نوعين من السلاح :

الأول : نوع من الترس يحمله الجندي لحماية نفسه أثناء القتال ، أو هو كما عرفه دوزى : "ترس
كبير مستطيل يغطى معظم الجزء الأسفل من الجسم
Un grand bouclier oblong qui couvrait
presque toute la partie inférieure du corps

أعلامها وبنودها ؛ فدفن الصليب^(١) تحت عتبة باب النوبي الشريف يتبين منه الشيء القليل ، وكان من نحاس قد طلى بذهب ، فديس بالأرجل ، وبصق الناس عليه .

= ويؤيد هذا المعنى قول العماد فنيا سلف : " ووقفوا بقطار باتهم وطوارقهم " ، وتول (بهاء الدين ابن شداد : السيرة اليوسفيه ؛ ونقله عنه ابن واصل فيما يلي هنا : " ما وجدت مع واحد منهم (من الفرنج) طارقة ولا رحا إلا النادر " ؛ وكان في القاهرة حارة تسمى " حارة الطوارق " أو " حارة صبيان الطوارق " ، قال (المقرئ : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٤) " وهم من جملة طوائف السكر ، كانوا معدين لحمل الطوارق " . وبهذا المعنى أيضا استعمل اللفظ في الغرب الإسلامي ، ففي كتاب الحلل مثلا فقرة لابن اليسع يقول فيها أحد الموحدين : " فصنعنا دائرة مربعة في البسط ، جعلنا فيها من جهاتها الأربع صفا من الرجال بأيديهم القنا الطوال والطوارق المانعة ، ووراءهم أصحاب الدرق والحرب صفا ثانيا " .

والمعنى الثاني : آلة حربية مكونة من جملة من الألواح الخشبية تستخدم كتراس يحمي الجنود الرماح والصخور خلفها ، فهي كما وصفها دوزي :

"Un mantelet, une sorte de machine composée de plusieurs madriers, derrière laquelle on se mettait à couvert des traits et des pierres."

ويؤيد هذا المعنى الثاني قول العماد السالف الذكر : " وهم بالخنادق من البراق محتمون ، وبالطوارق من الطوارق معتصمون " وقوله : " وتدرع بأسواره وخنادقه ، وتستتر عن طوارق البلاء بستائره وطوارقه " وقوله : " إلى أن انتقل التتال من السور إلى الدور ، ومن الطوارق إلى الطرق " ، تلفظ الطوارق في هذه النصوص يستعمل دائما مقرونا بلفظ الستائر أو الخنادق ، فكأنه كان يؤدي عملها ، وليس أوضح في هذا المجال من قول (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩٢) عند وصفه لنوع من الدبابة أو البرج : " ... فتندفع وتجرى على سهولة العجل التي ركبت عليها ، ويصعد الرجال في أعلاه ، وقد أديرت حوله الستائر والطوارق " .

وقد وصف مرضى بن علي الطوارق في كتابه (تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٢) الذي ألفه لصالح الدين وصفا دقيقا يقطع الشك باليقين ، قال عند ذكره لأنواع التراس : " ومنها الطوارق ، وهي التي يستعملها الفرنج والروم ، ويتباها (؟) في حسن إزهايا ودهانها وتلوينها بأنواع الأصباغ ، وتصويرها وإتقانها ، وهي مستطالة ، وتكون منها إلى أن تستر الفارس والراجل ، تبدى مندورة ، ثم تجمع أولا أولا إلى أن ينتهي آخرها إلى قطعة محدودة كزروس المعاول " . راجع كذلك :

(Cahen : Un Traité d'Armurerie .. etc. P 155-156) .

و (ابن التلاني : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٩) .

(١) المقصود به : " صليب الصلبوت " المشهور ، راجع ما فات هنا ، ص ١٨٣ ،

قالت (١) : إن عدة (٢) الدين أبا نصر محمد بن الإمام الناصر لدين الله كان الأكبر من ولد الإمام الناصر ، وكان شهما قوى النفس شجاعا مقداما له همة عالية ونفس أبية ، وكان أبوه يخافه ويستشعر منه لما يرى من شهامته وقوة نفسه ، وكان أيضا أبو نصر محمد مخالفا لأبيه في المذهب ، لأن أباه كان شيعيا ، وكان أبو نصر سنيا يبغض الروافض ، ويميل إلى الحنابلة ، وكان أبوه يكرهه أيضا لهذا الأمر ، لكنه لم يجد بدا من توليته العهد بعده إذ لم يكن له في ذلك الوقت من يصلح للأمر من بعده من ولده غيره .

ثم إن الناصر لدين الله من بعد ذلك [٣٣١] نشأ له ولد أصغر من أبي نصر محمد ، وهو أبو الحسن علي ، فكان منقادا لأبيه جدا ، موافقا له في مذهب التشيع ، فقال إليه الناصر لدين الله ميلا عظيما ، وأعرض عن أبي نصر محمد ، وقويت النفرة بينهما ، وأدى ذلك إلى خلع الناصر ولده أبا نصر من ولاية العهد ، وأمر بإسقاط اسمه من السكة والخطبة ، وكتب بذلك إلى سائر الآفاق ، وقيد أبا نصر وحبس .

ثم بعد ذلك توفي أبو الحسن علي بن الناصر ، فحزن عليه أبوه الناصر حزنا عظيما ، وتقدم إلى الشعراء بمرثيته ، (٣) وأظهر الملوك في سائر الأطراف شعار الحزن عليه ، وجلسوا له في العزاء (٤) ، ورثته — كما سنذكره إن شاء الله تعالى — الشعراء ، ولم يبق للخليفة غير أبي نصر ، فدعته الضرورة إلى إعادة أبي نصر (٥) إلى ولاية عهده ،

(١) مكان هذا اللفظ في س (٨٦ ب) : "قال صاحب التاريخ قاضي قضاة حماة المحروسة ابن واصل" .

(٢) الأصل "عدة" والتصحيح عن س والروضتين . (٣) هذه الجملة غير موجودة في س .

(٤) انظر ابن واصل هنا بما ذكره من أن الخليفة الناصر كان شيعيا ، وأنه عزل ابنه أبا نصر محمد عن ولاية العهد لأنه كان سنيا يختلف مع أبيه في المذهب ، والذي ذكرته المراجع الأخرى أن أبا نصر محمدا هو الذي استقال من ولاية العهد فأقاله والده . راجع في هذا : (ابن عربي : محاضرة الأبرار، ج ١ ، ص ٤٨) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٠) و (سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، حوادث سنة ٦٠١) و (ابن الساعي : الجامع المختصر ، نشر مصطفى جواد ص ١٤٤) و (السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٩) .

وكاتب بذلك الملوك ، نخطبوا له بولاية العهد ثانيا سنة ثمانى عشرة وستائة ، لكنه لم يرض عنه ، ولم يزل محبوسا مقيدا ، والخطبة والسكة باسمه إلى أن توفى الناصر ، وولى الخلافة بعده ، لكنه لم يبق في الخلافة إلا أشهراً ومات .

ذكر منازلة السلطان شقيف أرنون^(١)

ثم خرج السلطان من دمشق يوم الجمعة ثالث ربيع الأول من هذه السنة بعد صلاة الجمعة ، فنزل بمرج فلوس ، ونزل من الغد وهو يوم السبت بمرج برغوث ، وأقام به والعساكر تتابع إلى حادى عشره ، ورحل إلى بانياس ، ومنها إلى مرج عيون ، نخيم به ، وهو قريب من شقيف أرنون ، بحيث يركب كل [يوم] فيشارفه ثم يعود ، والعساكر تتواصل ، وتأتى من كل ناحية ، فأقام أياما يشرف كل يوم على الشقيف ، فنزل صاحب الشقيف وهو أرناط^(٢) — صاحب صيدا — بنفسه إلى السلطان ، وكان صاحب دهاء [ومكر]^(٣) ، وكان من كبار الفرنج وعقلائهم ، عارفا بالعربية^(٤) ، وعنده اطلاع على شئ من التواريخ والأحداث ، فحضر عند السلطان وأكل معه الطعام ، ثم خلا به ، وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته ، وأنه يسلم المكان إليه من غير تعب ، واشترط أن يعطى موصعا يسكنه بدمشق ، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الفرنج ، وإقطاعا بدمشق يقوم به وبأهله ، وقال :
” إني أخاف من المركيس أن يعرف ما بينى وبينك ، فينال أولادى وأهل منه أذى ، فإنهم عنده ، وأريد أن تمهلنى حتى أتوصل إلى تخليصهم من [٣٣٢] عنده ، وحينئذ أحضر أنا وهم عندك ، ونسلم الحصن إليك ، ونكون فى خدمتك “ .

(١) هرقه ابن شداد بأنه موضع حصين قريب من بانياس .

(٢) هو Reynold Garnier, Lord of Sidon and Beaufort أنظر عن سياسته لعقد هذه الهدنة .

(RUNCIMAN : Op. Cit. Vol. 2, pp. 469-470)

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة من س (ص ١٨٧) .

(٤) هذا شاهد له أهميته ، لأنه يدل على أن بعض أمراء الصليبيين فى الشام بدأوا يتعلمون اللغة العربية ويتأثرون بالثقافة الإسلامية .

فطن السلطان صدقه ، وإنما كان ذلك مكرًا ودفعًا للوقت ، فأجابه إلى ما سأل ، واستقر بينهما الأمر أن يسلم الشقيف في جمادى الآخرة .

وأقام السلطان بمرج عيون ينتظر الميعاد ، وهو قلق يفكر لقرب انقضاء الهدنة بينه وبين بيرنس^(١) . يجند — صاحب أنطاكية — ، فتقدم إلى الملك المظفر تقي الدين أن يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتي من بلاد الشرق ، ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة ، وكان أيضا متزعج^(٢) الخاطر لما بلغه من اجتماع الفرنج في مدينة صور ، وما يتصل بهم من الأمداد من البحر .

وكان السلطان لما فتح عسقلان والبيت المقدس قد أطلق ملك الفرنج ، فاصطلح هو والمركيس بعد اختلاف كان بينهما ، واجتمعوا في خلق لا يحصون ، وخرجوا من صور إلى ظاهرها قاصدين استنقاذ البلاد التي أخذت ، فكان هذا وما أشبهه يزعم السلطان ، وكان يخاف أن يترك الشقيف وراء ظهره ، ويتقدم إلى صور وفيها الجموع المتواترة فتقطع عنه الميرة ، فأقام منتظرا انتهاء المدة التي ضربها له أرناط ، وأخذ أرناط — صاحب الشقيف — في شراء الأقوات من سوق العسكر، والسلاح وغير ذلك مما يحصن به الحصن ، وهو شقيفه ، والسلطان يحسن به الظن ، وإذا قيل له ما هو فيه من المكروا أن قصده المطاول إلى أن يظهر الفرنج من صور ، وحينئذ يبدى صفحته ، ويظهر مخالفته ، و[هو] لا يقبل فيه .

وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت . قال القاضي بهاء الدين :
” وكان يناظرنا في دينه ، وناظره في بطلانه ، وكان حسن المحاورة ، متأدبا في كلامه ، ولما كثر عند السلطان القول فيه رأى السلطان أن يصعد إلى ظهر الجبل ليقترب من المكان ، ويمنع من دخول نجدة وميرة ، وأظهر أن سبب ذلك هو الزمان والفرار من وخم المرج ، فزل أرناط وسأل أن يمهل تمام سنة ،

(١) كذا في الأصل ، وفي س : ” الابرنس ” .

(٢) الأصل : ” متزعج ” والتصحيح من س .

فماطله السلطان [وما] ^(١) آنسه ، وقال : ” تفكر في ذلك ، ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم “ ، ثم وكل به من حيث [٣٣٣] لم يشعر إلى أن كان من أمره ما سذكركه “ [إن شاء الله تعالى] ^(٢) .

وفي أثناء ربيع الأول وصل الخبر بتسليم الشوبك بالأمان ، وقد ذكرناه عند تسليم الكرك .

ذكر وقعة اليزك مع الفرنج ^(٣)

قد ذكرنا اجتماع الملك والمركيس بصور واتفاقهما ، وتواتر أمداد الفرنج إليهم ، وحشدهم وخروجهم إلى ظاهر صور ، وكان الملك قبل ذلك لما أطلق — وكان إطلاقه والسلطان منازل حصن الأكراد — قد اشترط عليه ألا يشهر عليه سيفاً أبداً ، ويكون مملوكه وطليقه ، فنكت — لعنه الله — ، وجمع الجموع وأتى صور نفيم على بابها ، وطلب الدخول إليها ، فمنعه المركيس ، وجزت بينهما مراجعات كثيرة ، وقال له المركيس :

” إنني نائب الملوك الذين وراء البحر ، وما أذنوا لي في تسليمها إليك “ .
ثم استقرت القاعدة بينهما على الاتفاق على حرب المسلمين ، وعسكروا ظاهر صور كما ذكرنا .

ولما كان يوم الاثنين ثلاث عشرة ^(٤) ليلة بقيت من جمادى الأولى بلغ السلطان من جانب اليزك أن الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا ، وهي الأرض التي السلطان عليها ، فركب السلطان بنفسه نحو اليزك في شجيمان أصحابه ، سوى من جعله على الشقيف ، فوصل وقد انفصلت

(١) ما بين الحاصرتين عن ابن شداد . (٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٣) هذا العنوان غير موجود في س . (٤) هذا اللفظ ساقط من س .

الوقعة ، وكان صورتها : أن الفرنج عبر منها جماعةً الجسر ، فنهض إليهم يرك الإسلام ، وكانوا في عدة وقوة ، فقاتلوهم فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وجرحوا أضعاف ما قتلوا ، ورموا في النهر جماعة^(١) فغرقوا .

ولم يقتل من المسلمين إلا مملوك واحد للسلطان يعرف بأبيك الأخرس^(٢) ، وكان شجاعا فارسا مقداما ، فتقنطربه فرسه ، فاجأ إلى صخرة ، فقاتل بالنشاب حتى فنى نسابه ، ثم بالسيف حتى قتل جماعة ، ثم تكاثروا عليه فقتلوه ، وأسر من الفرنج سبعة من فرسانهم المشهوره ، ثم عاد الفرنج إلى مكانهم خائبين .

ذكر واقعة الغزاة المطوعة

ولما وصل السلطان إلى اليزك وقد فاتته الوقعة أمر فضربت له خيمة صغيرة^(٣) وأقام ينتظر عود الفرنج لينتقم منهم ، ويأخذ بثأر من قتل^(٤) من المسلمين ، فلما كان يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ركب السلطان ليشرع على [٣٣٤] القوم على عادته ، فتبعه خلق عظيم من الرجالة والغزاة المطوعة والسوقة ، وحرص على ردهم ، فلم يفعلوا ، وخاف عليهم ، فإن المكان كان حرجا ليس للراجل فيه ملجأ ، ثم هجم الرجالة الجسر وناوشوا العدو ، وعبر منهم جماعة إليهم ، وجرى بينهم قتال شديد ، واجتمع عليهم من الفرنج خلق كثير وهم لا يشعرون ، وكشفوهم بحيث يعلمون أنه ليس وراءهم كمين ، فحمل الفرنج عليهم جملة واحدة ، وقاتلوهم ، وكان السلطان بعيدا عنهم ، ولم يكن معه عسكر ،

(١) النص في س (ص ٧٩ ب) : ” ورموا في النهر جماعة أنفسهم فغرقوا “ ، وما هنا يتفق ونص ابن شداد ، وهو الأصل الذي ينقل عنه هنا .

(٢) عند (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٨١) : ” الأخرس “ أنظر أيضا : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٠) .

(٣) س : ” خيمته الصغيرة “ .

(٤) س : ” من بني “ ، وما هنا هو الصحيح .

فإنه لم يخرج للقتال ، وإنما قصد كشف حال العدو فقط ، ولما بان له
الوقعة وظهر غبارها بعث إليهم من كان معه ليردوهم ، فوجدوا الأمر قد فرط ،
وقد تكاثرت الفرنج حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان ، وظفر العدو
بالرجال ظفرا عظيما ، وأسروا جماعة كثيرة ، وقتلوا نحو مائة وثمانين نفرا ، وقتل
من الفرنج أيضا عدة عظيمة ، وغرق أيضا منهم عدة ، وقتل منهم مقدم الألمان
وكان عندهم عظيما محترما ، واستشهد في ذلك اليوم من المسلمين الأمير غازي
ابن سعد الدين بن النصار^(١) ، وكان شابا حسنا شجاعا ، فاحتسبه أبوه في سبيل الله
ولم تقطر من عينه دمنعة عليه .

ذكر توجه السلطان إلى عكا وعوده إلى معسكره

بمخرج عيون^(٢)

ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين في هذه الوقعة النادرة التي لم يصابوا
بمثلها قبل ذلك جمع أصحابه وشاورهم وقرر معهم أنه يهجم على الفرنج ، ويعبر
الجسر ويقاومهم ويستأصل شأقتهم . وكان الفرنج قد رحلوا من صور ونزلوا
قريبا من الجسر ، وبين صور وبين الجسر مقدار فرسخ أو أكثر ، فلما صم
العزم على ذلك رحل الفرنج عائدين إلى صور ملتجئين إلى سورها ، فحينئذ توجه
السلطان جريدا إلى عكا ليحظر ما بنى من سورها ، ويبحث على الباقي ، فمضى
إلى تبين ، ثم إلى عكا ، فرتب أحوالها ، وعاد إلى المعسكر بمخرج عيون ،
منتظرا مهلة صاحب الشقيف .

(١) كذا في الأصل ، وفي س : " النصار " بدران قط ، وفي (ابن شداد : السيرة البوسنية
ص ٨٢) : " ابن البصار " ، وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤١) — قلا عن ابن شداد — :
" ابن اليطار " .

(٢) نص العنوان في س (ص ١٨٠) : " ذكر خروج السلطان وعوده إلى معسكره بمخرج عيون " .

ذكر وقعة الكمين

ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغ السلطان أن الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متبدين^(١) ويصلون إلى جبل تبنين، وفي قلبه من رجالة المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم، فرأى أن يقرر كميناً لهم، وبلغه أنه [٣٣٥] يخرج وراءهم^(٢) أيضاً خيل تحفظهم، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع، ثم أنفذ إلى عسكري تبنين أن يخرجوا في نفر يسير عابرين^(٣) على تلك الرجالة، فان تبعهم خيل العدو ينهزموا إلى جهة عينها لهم، وأن يكون ذلك صديحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة، وأرسل إلى عسكري عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكري العدو، وحتى إن تحركوا يكونوا في نصرة أصحابهم، وقصد واخيمهم.

وركب السلطان في عساكره إلى الجهة التي عينها لهزيمة عسكري تبنين، حتى قطع تبنين ورتب العسكري ثمانية أطلاب، واستخرج من كل طُلب عشرين فارساً، وأمرهم أن يترأوا للعدو حتى يظهروا إليهم ويناشوهم، وينهزموا بين أيديهم، حتى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك وظهر لهم من الفرنج معظم عسكريهم، يقدمهم الملك، وجرى بينهم وبين [هذه] الفرقة اليسيرة قتال شديد والتمت السرية^(٤) القتال، وأنفت من الانهزام، وحماتهم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الأمر وقد هجم الليل، فبعث بعوثاً كثيرة، فعاد الفرنج فأكصين على أعقابهم، وقتل من الفرنج عشرة، ومن

(١) الأصل : "مشردين"، والتصحيح عن س، والأصل المتقول عنه هنا وهو (ابن الأثير،

الكامل، ج ١٢، ص ١٢).

(٢) الأصل : «لهم» والتصحيح عن : (الروضتين، ج ٧، ص ١٤١).

(٣) الأصل : "غابرين"، والتصحيح عن س وابن شداد والروضتين.

(٤) س : "الرجال".

المسلمين ستة : اثنان من الترك ، وأربعة من العرب ، منهم الأمير زامل ^(١) ، وكان مقدم عشيرته ، وسبب قتله أن فرسه تقنطر به ، ففداه ابن عمه بفرسه ، فتقنطرت به أيضا ، وأسر هو وثلاثة من أهله ، فلما بصر الفرنج بمدد العسكر قتلوهم لئلا يستنقذوا ، وبُرح ^(٢) من الطائفتين ومن خيولهم كثير .

ومن نوادر هذه الواقعة أن مملوكا من ممالك السلطان يقال له "أبيك" اتخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشخب دما ، وبات ليله أجمع على تلك الحال إلى صبيحة يوم الثلاثاء ، فتفقده أصحابه ، فلم يجدوه ، فعرفوا السلطان فقده ، فأنفذ من يكشف خاله ، فوجده بين القتلى ، فحملوه إلى [النخيم] ^(٣) وداووه ، وعافاه الله تعالى ، وعاد السلطان إلى النخيم عاشر جمادى الآخرة فرحا مسرورا .

ذكر مسير الفرنج إلى عكا ومحاصرتهم لها

قد ذكرنا حشد الفرنج واجتماعهم بصور ، وتواصل الأمداد إليهم من البحر ، وكان الرهبان والقساوس من حين ملك المسلمون ^(٤) بيت المقدس قد لبسوا السواد وأظهروا الحزن [٣٣٦] وأخذهم بطرك القدس ، ودخل بهم بلاد الافرنج يطوفها بهم جميعا ^(٥) ، ويستنجدون أهلها ، ويحثونهم على استرجاع القدس ، وقد صوروا المسيح عليه السلام وجعلوا معه صورة رجل عربي يضربه [بعضا] ^(٦) وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح ، وقالوا : هذا المسيح يضربه مجد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله .

(١) كذا في الأصل (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤١) وفي س وابن شداد : "رامل" .

(٢) بهذا اللفظ تنهى ص ٨٩ ب من نسخة س ثم تخطرب الصفحات ، وتبدأ ص ١٧٠ من هذه

النسخة بالكتابة التالية وهي : "وبُرح" . (٣) ما بين الحاء مرقين زيادة عن س .

(٤) النص في س : "بيت المقدس دخلوا بلاد الفرنج يطوفون بها جميعا" .

فعمم ذلك على الفرنج ، فحشدوا وحشروا ^(١) ، حتى النساء خرجن للقتال ، ومن لم يستطع الخروج استأجر من خرج عوضه ، أو يعطيهم مالا على قدر حاله ، فاجتمع لهم من الرجال والأموال مالا يقع عليه الإحصاء ، ولما عظمت جموعهم وتكاملوا صمموا على قصد عكا ومحاصرتها ، وساروا إليها نحو النواقيز ، وبعضهم نزل باسكندرونة ^(٢) وجرى بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشة ، وقتل من المسلمين نفر يسير ، وأقاموا هناك .

ولما بلغ السلطان حركتهم إلى تلك الجهة عظم عليه ، ولم ير المسارعة خوفا من أن يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف لا قصد المكان ، فأقام مستكشفا للحال إلى يوم الأحد ثاني عشر رجب ، فوصل قاصد يخبر أن الفرنج في بقية ذلك اليوم دخلوا ونزلوا عين بصّ ^(٣) ووصل أوائلهم إلى الزيت ^(٤) ، فعمم ذلك عليه ، وكتب إلى سائر الأطراف بالمسير إليه ، وعزم على قصد الفرنج .

ذكر القبض على صاحب الشقيف وفتح الشقيف

وقد ذكرنا خداع أرناط — صاحب الشقيف — ومكره ومدافعه ، وأن السلطان وكل به من حيث لم يشعر ، وقد ذكرنا تحول السلطان بعسكره إلى قرب الحصن ، ولما قربت مدة الهدنة ، وبقي منها يومان تضرع [أرناط] ^(٥)

(١) س : " فحشدوا وجمعوا وجندوا " .

(٢) س : " باسكندرية " ، وما هنا هو الصحيح .

(٣) الأصل وس : " عين قصه " والضمحني عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٢) و

(Dussaud : Topographie Historique de la Syrie. p.17)

(٤) الأصل : " الزيت " ، وقد صححت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرّفها بأنها قرية كبيرة على ساحل بحر الشام قرب عكا . وقد ذكر (Dussaud : Op. Cit.) أنها قرية على الشاطئ بين عكا وصور .

(٥) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (٧٠ ب) .

وأبدى ضرورة وملقاً ، فقبل له لا بد وأن تسلم ولا تحوج إلى المقابحة ؛ فطلب قسيساً ذكره ليحمله رسالة إلى أهل الشقيف ليسلموه فأحضروه عنده ، فسار به بمالم يعلموه ، فمضى ذلك القسيس إلى الشقيف ، فأظهروا العصيان ، وقالوا : ” يبقى مكانه “ ، فحينئذ تحقق غدره ، وبطل الرجاء منه فقيّد وحبس ، ثم استحضر في سادس رجب وتهدد وتوعد^(١) ، فلم يفد ذلك ، فسيره السلطان إلى دمشق بعد رحيله إلى عكا ، وحبس بها .

ورتب السلطان عدة من الأمراء على محاصرة الشقيف صيفا وشتاء [٣٣٧] فتسلموه بعد سنة بحكم السلم ، وأطلق صاحبه وعفا عنه .

ذكر رحيل السلطان إلى عكا ومنازلة الفرنج المنازلين لها

ثم رحل السلطان إلى عكا يوم الاثنين ثالث عشر رجب على طريق طبرية إذ لم يكن طريق يسع العساكر إلا هو ، وسير جماعة على طريق تبنين يتشرفون العدو ويواصلون بأخباره .

ولما كان غد يوم الرحيل — وهو يوم الثلاثاء — سير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة ، واشتد حنقه عليه ، بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئاً .

وسار^(٢) السلطان بجريدة^(٣) من المنية^(٤) حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية ، فإنه كان واعدهم إليه ، وتقدم إلى

(١) الأصل : ” وتهدد وتوقد “ وفي س : ” وشدد عليه بالقول وتوعد “ وقد صححت العبارة بعد مراجعة الماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٠) .

(٢) بهذا اللفظ تاتى (ص ٧٠ ب) من نسخة من ثم يضطرب ترتيب الصفحات ، ولتنق بالنص مرة أخرى في (ص ١١٥) من نفس النسخة وتبدأ بلفظ ” السلطان “ .

(٣) هذان اللفظان ساقطان من س .

الثقل أن يلحقه إلى مرج صفورية ، ولم يتزل حتى شارف العدو من الخروبة وأنفذ بعض العسكر ، فدخل عكا على غرة من العدو وتقوية لمن فيها ، ولم يزل يبعث إليها بعثا بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير .

وذكر عماد الدين الكاتب : أن العدو لما قصدوا عكا كان من رأيهم مسايرتهم في الطريق ليمنعهم من النزول ، لأنهم إذا نزلوا صعب إزالتهم وأتعب قتالهم ، فخالفه أمراؤه في ذلك ، وقالوا : ” بل نمضي على أسهل ^(١) الطرق “ ، فسار الثقل من الليل على طريق الملاحه ، وجب يوسف ، والمنية .

ووصل الثقل عصر يوم الثلاثاء رابع عشر رجب كفرنكا ^(٢) والسلطان نازل بها ، ونزل يوم الأربعاء ^(٣) منتصف رجب على جبل الخروبة ، ونزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر يحيطونها ، وضرب الملك خيمة على تل المصلية ^(٤) ، ورابطت مراكبهم بشاطئ البحر ، ثم عبأ السلطان أطلابه ، وسار من الخروبة إلى تل كيسان في أوائل مرج عكا ، فنزل عليه ، وأمر الناس أن يتزلوا على التعبئة وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو ، وآخر الميمنة مقابل تل العياضية ، واختلط العسكر الإسلامي بالعدو ، وأخذوا عابهم الطرق من الجوانب ، وصار السلطان محاصراً للفرنج ، والفرنج محاصرين لعكا ، وتلاحقت العساكر الإسلامية واجتمعت ، وترتب اليزك الدائم ، وحُصر العدو في خيامه [٣٣٨] بحيث لا يخرج منهم أحد إلا ويحرج أو يقتل ، وكانت عدة خيالتهم ألفين ^(٥) ورجالتهم ثلاثين ألفا .

(١) الأصل : ” أسفل “ ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٣) .

(٢) هذا اللفظ ساقط من س .

(٣) كذا في الأصل ، وعند ابن شداد : « على تل المصلين قريبا من باب البلد » ، انظر :

(الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٢) .

(٤) كذا في الأصل ، وهو يتفق روايا في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٢) وفي س : ” أربعة

آلاف “ .

قال القاضي بهاء الدين :

”مارأيت من نقصهم عن ذلك ، ورأيت من حرهم بزيادة على ذلك ، ومددهم من البحر متصل غير منقطع ، وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة ، والمسلمون يتهاونون على قتالهم ، والساطان يمنهم من ذلك إلى وقته^(١) ، وعساكر المسلمين وملوكهم وأمراؤهم تتواصل من الأمصار ، ووصل من حماة الملك المظفر تقي^(٢) الدين عمر ، ووصل من الشرق مظفر الدين بن زين الدين على كوچك ، وتوفي في تلك الأيام حسام الدين سنقر الخلاطى وكان شجاعا دينا“.

ذكر الواقعة الأولى التى تيسر للمسلمين بها دخول البلد

ولما استفحل أمر العدو وحصروا البلد من جميع جهاتها بحيث تعذر على المسلمين دخول البلد والخروج منه ضاق صدر الساطان بذلك ، وسمت همته إلى فتح الطريق إلى عكا ، لتستمر السابلة ، وترد إليها الميرة والنجدة ، فباكر الفرنج القتال مستهل شعبان من هذه السنة ، فلم ينل منهم ما يريد ، وبات الناس على تعبئة .

فلما كان الغد باكرهم القتال ، واستدار عليهم من سائر جهاتهم ، فقاتلهم من بكرة إلى الظهر ، وصبر الفريقان صبرا تاما حار له من رآه ، فلما كان وقت الظهر حمل الملك المظفر حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم ، فأزالهم عن مواقعهم ، يركب بعضهم بعضا ، لا يلوى أخ على أخيه ، فالتجأوا إلى من يليهم من أصحابهم ، واحتتموا بهم ، وأخلوا جانب البحر الشمالى^(٣) ، شمال عكا ،

(١) الأصل : ”وقتهم“ ، والتصحيح عن (ابن شداد ، ص ٨٨) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٢) .

(٢) الأصل : ”زين الدين“ وما أثبتناه هو الصحيح .

(٣) هذا اللفظ غير موجود فى س .

ولم يكن لهم هناك خيام ، لكن عسكرهم كان قد امتد جريدة شمال عكا إلى البحر ، ولما انكسر العدو في ذلك الجانب تبعهم المسلمون ، وهجموا خلفهم إلى أول خيامهم ، ووقف اليزك الإسلامي مانعا أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل ، وانفتح الطريق إلى عكا من باب القلعة المسماة بقاعة الملك إلى باب بهاء الدين قراقوش الذي جدته ، وصار الطريق مهيبا يمر فيه السوق ومعه الحوائج ويمر به الرجل الواحد والمرأة ، واليزك بين الطريق وبين العدو .

ودخل السلطان ذلك^(١) اليوم إلى عكا ، ورقى إلى السور [٢٣٩] ونظر إلى عسكر العدو ، وتراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقى الدواب وأخذ الراحة ، ولم يعودوا للقتال ، وأصبحوا يوم الأحد ثالث شعبان فرأى بعض الأمراء تأخير القتال إلى أن يدخل الراجل كله إلى عكا ، ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو ومن ورائه ، وتركب العساكر من خارج من سائر الجوانب ، ويحملوا حملة الرجل الواحد .

ذكر الواقعة الثانية

ولما كان يوم الجمعة ثامن شعبان خرج الفرنج من مخيمهم بفارسهم وراجلهم ، والراجل - ولهم كالسور يتلو بعضهم بعض ، حتى قاربوا خيام اليزك ، فصاح السلطان بالعساكر الإسلامية ، فركبوا بأجمعهم ، وحملوا حملة الرجل الواحد ، فعاد العدو ناكضا على عقبه ، والسيف يعمل فيهم ، فالسالم جريح والعاطب طريح ، حتى لحقوا بنخيامهم ، وانكفوا عن القتال أياما ، واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون إليها .

(١) تنتهى بهذا اللفظ (ص ١١٥ ب) من نسخة س ، ثم تنقطع الصلة مرة أخرى بين النص هنا

فلما كان الحادى عشر من شعبان رأى السلطان توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون إلى مصارعهم ، فنقل الثقل إلى تل العياضية ، وهو تل قبالة تل المصليين مشرف على العدو وعكا ؛ وتوفى فى هذه المنزلة حسام الدين طمان ، وكان من شجعان المسلمين ، ودفن فى سطح التل .

ذكر وقعة العرب

ثم باغ السلطان أن جمعا من الفرنج يخرجون للاحتطاب والاحتشاش من طرف النهر مما يثبت عليه ، فمكن لهم جماعة من العرب فهجموا عليهم ، وقتلوا منهم خلقا عظيما ، وأسروا جماعة ، وأحضرُوا رؤوسا عدة بين يديه ، وذلك لإحدى عشرة ليلة بقيت من شعبان .

وفى عشية هذا اليوم وقع بين الفرنج وبين أهل البلد حرب عظيم ، قُتل فيها جمع عظيم من الطائفتين ، وطال الأمر بين الفئتين ، فلم يخلُ يوم من جرح وقتل وسبي ونهب ، وأنس المسلمون بالفرنج بطول المدة بحيث كانوا يتركون القتال ويتحدّثون ، وربما غنّى^(١) بعضهم لبعض ، ثم يعاودون القتال بعد ساعة ، وكانوا ربما خرجوا صبيانهم وقتلوا صبيان المسلمين ، وأصرعوهم وصارعوهم^(٢) ، وأسر بعضهم بعضا .

ذكر الوقعة العظمى بمرج عكا

ولما كان يوم الأربعاء لتسع بقين من شعبان من هذه السنة خرج الفرنج بفارسهم وراجلهم ، وتحركوا حركة لم يتحركوا قبل ذلك مثلها ، واصطفوا ميمنة [٣٤٠] وميسرة ، وفى القاب الملك ، وبين يديه الإنجيل محمول مستور

(١) الأصل : "غنا" .

(٢) راجع قصة الصراع والمقاتلة بين الصبية من المسلمين والفرنج أثناء القتال حول عكا عند ابن شداد :

(الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٣) .

بثوب أطلس مغطى ، وأربعة أنفس يمسون أطرافه ، وهم يسرون بين يدي الملك ، وامتدت الميمة مقابلة ميسرة المسلمين من أولها إلى آخرها ، والميسرة في مقابلة الميمة ، وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميمتهم إلى النهر ، وميسرتهم إلى البحر ، ونادى الجاوش (١) : ” يا للإسلام وعساكرا الموحدين “ ، فركب الناس وباعوا أنفسهم بالجنة ، وامتدت الميمة إلى البحر ، كل قوم يركبون ويصطفون بين يدي خيمهم ، والميسرة إلى النهر كذلك .

وكان السلطان في القاب ، وفي الميمة ولده الملك الأفضل نور الدين ، ثم ولده الملك الظافر خضر — وهو المعروف بالمشمر — ، ثم عسكر الموصل ، ومقدمهم ظهير الدين بن البتكري (٢) ، ثم عسكر ديار بكر ومقدمهم قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن وآمد ، ثم حسام الدين لاجين بن أخت السلطان [صاحب] (٣) نابلس ، ثم صارم الدين قايمار النجوى ، وجموع عظيمة متصلون بطرف الميمة ، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بعسكره ، وهو (٤) مطل على البحر .

(١) يفهم من النص هنا أن الجاوش جندي كانت مهمته النداء واستنفار الجند للقتال ، ومثل هذا ما جاء في (العياد : الفتح القسى ، ص ٢٤٢) : ” وضابقوا البلد أشد مضابقة ، . . . فامر الجاوش حتى نادى . . الخ “ ، هذا في العصر الأيوبي ، أما في العصر المملوكي فقد كان النظام يقضى بأن يسير أربعة من جنود الحلقة الشجوان أمام السلطان في مواكبة النداء وتنيه المارة ، والجاوش أيضا جندي من رتبة بسيطة يكلفه تخدومه بحمل الرسائل وتبليغها ، والجاوش أو الجاوش أو الشاوش لفظ تركي ، وجمعه جاوشية . انظر : (Dozy : Supp. Dict. Arab.) و (المقريزي : السلوك ، نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٨٧٠ ، هامش ٢)

(٢) كذا في الأصل ، وهو في (الروضتين ، ج ٢ : ص ١٤٤) : ” البكنرى “

(٣) الأصل : ” السلطان بالسر “ وقد صححت وأضيف ما بين الحاصرتين عن (ابن شداد ، ص ٩٣) .

(٤) بهذا اللفظ تبدأ (ص ١٩٠) من نسخة من ، وبهذا تعود للقارنة بين النسختين .

وأما الميسرة فكان مما بلى القاب الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب^(١) — ملك الأكراد ومقدمهم — والأمير مجلى ، وجماعة من المهرانية والهكارية ، ومجاهد الدين برتقش مقدم عسكري سنجار ، وجماعة من الماليك ، ثم مظفر الدين ابن زين الدين بعسكره ، وأواخر الميسرة كبار الأسدية ، مثل : سيف الدين يازكوج^(٢) ورسلان بغا .

وفي مقدمة القلب الفقيه ضياء الدين عيسى وجمعه .

والسلطان يطوف بنفسه على الأطلاب ، ويحثهم على القتال ، ويدعوهم إلى النزال ، ويرغبهم فيما عند الله من الأجر والثواب الجزيل لمن جاهد في سبيل الله وقام بنصرة دينه .

ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى مضت أربع ساعات من النهار ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلابات^(٣) كثيرة ، وتكاثروا على الملك المظفر ، وكان طرف الميمنة على البحر ، فتراجع عنهم قليلا إطماعا لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم ، فينال منهم غرضا ، فلما رآه السلطان قد تأخر أمده بأطلاب [٣٤١] عدة من القلب حتى قوى جانبه ، وتراجعت ميسرة العدو ، واجتمعت على تل مشرف على البحر.

ولما رأى الذين في مقابلة القاب [ضعف القلب]^(٤) ومن نخرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع ، وتحركوا نحو ميمنة القلب ، وحملوا حملة رجل واحد بفارسهم

(١) س : " سيف الدين بن علي المشطوب " وما هنا هو الصحيح فهو يتفق وما في (ابن شداد ، ص ٩٣) و(الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٤) .

(٢) الأصل وس : " ياكوج " والتصحيح عن ابن شداد والروضتين .

(٣) كذا في الأصل وفي السيرة اليوسفية لابن شداد والروضتين ، وفي س : " مناوشات " .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٥) .

وراجاهم ، وجاءت الحملة على الديار بكربة ، وكان بهم غرة عن الحرب^(١) ،
فانهزموا هزيمة قبيحة ، وسرى الأمر حتى انهزم معظم الميمنة .

واتبع العدو المنهزمين^(٢) إلى العياضية ، فإنهم استداروا حول التل ، وصعد العدو
إلى خيم السلطان ، وجالوا حولها جولة ، ثم رأوا انقطاع أصحابهم عنهم ،
فاتحدروا عن التل ، وأما الميسرة [فقد] ثبتت إذ لم تصادفها الحملة .

وطاف السلطان على الأطلاب ينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ، ويحثهم على
الجهاد ، وينادى بالإسلام ، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس ، وهو يطوف ويتخرق
الصفوف ، وأوى إلى تحت التل الذي عليه الخيام ، وأما المنهزمون فإنه باغت
هزيمتهم إلى الأخوانة قاطع جسر طبرية ومنهم من تم إلى دمشق .

قال عماد الدين الكاتب :

” كنت في جماعة من أهل الفضل ، ونحن على بغال بغير أهبة^(٣) قتال ، فرأينا
العسكر موليا ، والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخليا ، فوصلنا إلى طبرية
فيمن وصل ، ووجدنا ساكنها قد أجفل ، فسقنا إلى جسر الصنبرة ، ونزلنا
على شريقه ، وكل منا ذاهل عن شعبه وريه ، ومن المنهزمين من باغ عقبة فيق
[وهو غير مفیق]^(٤) ، ومنهم من وصل إلى دمشق وهو غير معرج على طريق “ .

وأما المتبعون للمنهزمين فإنهم تبعوهم إلى العياضية ، فلما رأوهم قد صعدوا
الجلبل رجعوا عنهم ، وجاءوا عائدين إلى عسكرهم ، فاقبهم جماعة من الغلمان

(١) الأصل : ” غرة في حراب الافرنج “ ، والتصحيح عن الأصل المقول عنه وهو (ابن شداد ،
ص ٩٤) . أنظر أيضا (الرضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٥) .

(٢) الأصل : ” المنهزمون “ ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٣) لشرح هذا المصطلح راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢١٨ ؛ هامض ٣)

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن المرجع المقول عنه هنا وهو العباد (الرضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٦)

والخَرَبَنْدِيَّةُ ^(١) والسَّاسَةُ ^(٢) منهزمين على بغال الحمل ، فقتلوا منهم جماعة ، وقتل منهم جماعة ، فإن أهل السوق كان أكثرهم يحمل السلاح .

وكان السلطان واقفا تحت التل ومعه نفر يسير ، وهو يجمع الناس ليعود على الحملة على العدو ، فلما رأى الفرنج الذين كانوا صعدوا إلى خيم السلطان منحدرين من التل أراد لقاءهم فأمر ^[٣٤٢] أصحابه بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم ، وأسرعوا يطلبون أصحابهم ، فصاح السلطان في الناس ، فحملوا عليهم ، وطرحوا منهم جماعة ، واشتد الطمع فيهم ، وتكاثر الناس ^(٣) وراءهم ، حتى لحقوا أصحابهم ، والطرده وراءهم ، فلما رآهم أصحابهم منهزمين والمسلمون وراءهم في عدد كثير ، ظنوا أن من حمل منهم قد قُتل ، وأنه ^(٤) إنما نجا هذا النفر فقط ^(٥) ، وأن الهزيمة قد عادت عليهم ، فاشتدوا في الهرب والهزيمة ، ثم تحركت الميسرة من المسلمين على العدو .

وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة ، وتناخت ^(٥) الرجال ، وتراجع الناس من كل جانب ، وكثر القتل والجرح في الفرنج إلى أن اتصل المنهزمون المسلمون إلى عسكر العدو ، فهاجم المسلمون عليهم في الخيام ، فخرج منهم أطلاب كانوا قد أعادوها خشية من هذا الأمر مستريحة ، فردوا المسلمين ، وكان التعب قد أخذ من الناس ^(٦) ، والخوف والعرق قد أجمعهم ، فتراجع الناس ^(٦) عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم فرحين مسرورين .

(١) خربندج أو خربنده — والجمع خربنديه — لفظ فارسي معناه الخمار أو المكارى .

(٢) الأصل وس : ” الساسية “ والتصحيح عن العماد .

(٣) الأصل : ” وتكاثروا للناس “ والتصحيح عن نس والروضتين .

(٤) هذه الجملة غير موجودة في س ، ولكنها موجودة في الأصل المتقول عنه هنا وهو (ابن شداد ص ٩٥) .

(٥) كذا في الأصل ، وفي س (ص ٩٠ ب) : ” تناحا “ ، وفي ابن شداد : ” وتجمعت “ .

(٦) س : ” المسلمون “ .

وعاد الساطان وجلس أصحابه في خدمته يتذاكرون مَنْ فُقد منهم ، فكان مقدار من فُقد منهم من الغلمان المجهولين^(١) مائة وخمسين .

واستشهد في ذلك اليوم ظهير الدين أخو الفقيه ضياء الدين عيسى .

قال القاضي بهاء الدين :

” ولقد رأيت الفقيه عيسى وهو جالس يضحك والناس يعزونه ، وهو ينكر عليهم ، وهو يقول : هذا يوم الهنا لا يوم العزا “ .

واستشهد في ذلك اليوم الأمير مجلى بن مروان ، والحاجب خليل الهكاري .
وأما قتلى العدو فحزرتنا قتلاهم سبعة آلاف نفس .

قال القاضي :

” ولقد رأيتهم وقد حملوا إلى شاطئ النهر ليلقوا^(٢) فيه ، فحزرتهم بدون^(٣) سبعة آلاف “ .

وكانت الهزيمة لما وقعت على المسلمين أولا ، ورأى الغلمان خلوا الحيام ، وظنوا أن الكسرة تتم ، وأن العدو لابد أن يستأصل الخيم ، ووضع الغلمان أيديهم ونهبوا جميع ما كان فيها ، وذهب من الناس أموال عظيمة ، وكان ذلك أعظم من الكسرة ، فلما عاد الساطان إلى الخيم ، ورأى ما قد تم على الناس من نهب الأموال والهزيمة سارع في الكتب والرسل في رد المنهزمين ، وتببع من شد^(٤) من العسكر ، وتتابعت الرسل في هذا [٣٤٣] المعنى حتى بلغت عقبة فيق وردوهم

(١) الأصل : ” غير المجهولين “ والتصحيح عن ابن شداد .

(٢) الأصل : ” ليكنفوا “ والتصحيح عن (ابن شداد ، ص ٩٦) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٥) .

(٣) س : ” فوق “ وما هنا يتفق ونص ابن شداد .

(٤) س : ” سلم “ وما هنا يتفق ونص ابن شداد .

وأخبروهم بالكسرة للمسلمين^(١)، فعادوا، وأمر بجمع الأقمشة [من أكف الغلمان، وجمع الأقمشة]^(٢) في خيمته حتى جلالات الخيل والمخالي، وهو جالس وأصحابه حوله، وهو يتقدم إلى كل من عرف شيئا وحاف عليه يُسلم إليه.

وشدت من عساكر الإسلام خلق كثير بسبب الهزيمة، فإنه مارجع منهم إلا رجل معروف خاف على نفسه، والباقون ذهبوا في حال سبيلهم.

وأخذ السلطان في جمع الأموال المنهوبة، وأعادها إلى أصحابها، وأقام المنادية في المعسكر، وقرن النداء بالوعيد والتهديد، وهو يتولى تفرقتها بنفسه، واجتمع من الأقمشة في خيمته شيء كثير حتى أن الجالس في أحد الطرفين لا يرى الجالس في الطرف الآخر، فرد كل شيء على مستحقه، فلم يُعدم إلا القليل.

قال عماد الدين الكاتب :

”العجب أن الذين ثبتوا منا في الواقعة لم يبلغوا ألفا، فردوا مائة ألف، وكان الواحد يقول : قتلت من الفرنج ثلاثين وأربعين“.

ولما عاد السلطان إلى مضاربه أمر بمواراة الشهداء، وكان من حملتهم : الشيخ جمال الدين أبو علي الحسين بن الشيخ أبي محمد عبدالله بن الحسين بن رواحة ابن إبراهيم بن عبدالله بن رواحة بن عبيد بن محمد بن عبدالله بن رواحة الأنصاري الخزرجي الحموي^(٣)، وهذه النسبة نقلتها من نسخة بخط الشيخ جمال الدين هذا،

(١) النص في س : ”وأخبروهم بأن المسلمين كسروا الفرنج كسرة عظيمة“.

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن س وابن شداد .

(٣) هذه أطول ترجمة عثرت عليها لابن رواحة، إذ لم يترجم له إلا (ياقوت : معجم الأدباء، ج ١٠، ص ٤٦ وما يليها)، ولا عجب في هذا فإن رواحة مواطن مؤلف . أنظر أيضا ما نقله أبو شامة في : (الروضتين ج ٢، ص ١٤٧) عن البرق الشامي للمعاد عند ترجمته لهذا الشاعر؛ و (المعاد : الخريدة، قسم شعراء مصر، ج ١، ص ١٤٧ و C. CAHEN : Une Chronique Syrienne du

VI (XII) Siècle. Le Eustan Al-Jam'i. : p. 47)

وكان رجلا عالما فاضلا شاعرا زاهدا ، سافر من حماة بلده إلى الديار المصرية ،
ومدح العاضد والصالح رزّيك ، وأحسننا إليه إحسانا كثيرا ، وسافر في البحر
فأسره الفرنج ثم من الله تعالى بإطلاقه ، وجج إلى بيت الله تعالى ، وزار قبر
النبي — صلى الله عليه وسلم — وامتدحه بقصيدة أولها :

دَعِ الْعَيْسَ فِي طَيِّ الْفَلَا تَبْلُغُ الْمَدَى ، فَقَدْ أَهْمَتُ أَنْ الْمَسِيرَ إِلَى هُدَى
لَقَدْ غَنَيْتُ بِالْقَصْدِ عَنْ جَاذِبِ السَّرَى ^(١) كَمَا شَغَلَتْ بِالشَّوْقِ عَنْ سَائِقِ الْهِدَا
سَرَتْ فَرَأَتْ طَيْبَ الْمَعْرِسِ فِي السَّرَى ، وَعَدَتْ ظِلَّ التَّأْوِيلِ فِي الْخَمْسِ مَوْرِدَا
أَعْدُ لَهَا فِي قَبْضِهَا بِأَنَا مَلَى يَدَا ، كَمَا أَلْقَتْ إِلَى يَثْرِبِ يَدَا
[٣٤٤] وَلَمْ أَرَ فِي الْأَيَّامِ يَوْمًا مَبَارَكًا عَلَيَّ ، كَيَوْمِ زُرْتُ فِيهِ مُحَمَّدَا
وَأَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ أَكْرَمُ شَافِعٍ لَوْفِدٍ ، وَأُولَى أَنْ يُزَارَ وَيُقْصَدَا

وهي طويلة جدا . وزاداه — صلى الله عليه وسلم — يودعه بهذين البيتين :
يَا خَاتِمَ الرُّسُلِ سَلِّ اللَّهُ لِي خَاتِمَةَ مَحْمُودَةٍ الْعَاقِبَةِ
وَلَا تَرُدَّنِي ^(٢) يَدِي — بَعْدَ مَا مَدَدْتُهَا مُسْتَشْفَعًا — خَائِبَهُ
فذكر أنه نام فرأى النبي — صلى الله عليه وسلم — وهو يقول له : ” قُبِلَتْ
يَا بَنَ رَوَاحَةٍ “ ، فقبل الله شفاعته رسوله فيه ، وقبضه شهيدا إليه بمرج عكا ، وشارك ^(٣)

(١) الأصل : ” البرى “ وما هنا عن س (ص ٩١ ب) .

(٢) الأصل : ” ولا يردان “ والتصحيح عن س .

(٣) الأصل : ” وسار إلى “ والتصحيح عن س .

جده عبد الله بن زواحة الأنصاري — رضى الله عنه — في فضيلته^(١) اللتين هما :
مدح الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، والشهادة ؛ مات ذلك شهيدا بمؤته
في غزو الروم ، ومات هذا شهيدا بالمرج .

وذكر عماد الدين الكاتب بأنه كان قد أنعم السلطان عليه بمزرعة في حلب^(٢) ، قال :
”وكتبْتُ توقيعه ، وأراد الله تعويقه ، وحملتُ توقيعه تلك الليلة إلى السلطان
ليعلم فيه فما علم ، وراجعتُه في معناه فسكت وما تكلم ، وكان ساعة الوقعة راجعا
معنا ، ثم قال : ”وقوفنا يطول“ ، ومضى إلى خيمته فتودع ، فلما علم باندفاعنا^(٣)
ساق وراءنا ، ففُطِعَ عمره قبل أن يَقْطَعَ الوادي ، وكان قال لنا لما أصبح :
رأيت كأن رجلا يحلق رأسي في المنام ، فقلنا له : هذا من أضغاث الأحلام
فنقله الله بعد ساعة إلى دار السلام . — رحمه الله — “ .

ومن الشهداء : إسماعيل الصوفي الأرموي المكبّس ، وشيخُ من الطشت دارية^(٣) ،
وغلّام في الخزانة أمين ، وآخرون صودفوا فدفنوا عند التل .

وانتفش الفرنج — لعنهم الله — بعد هذه الوقعة ، وجاءتهم في البحر سراكب
أخلفت من عِدَمِ منهم ؛ وكان السلطان قد نقل جيف القتلى إلى النهر لما اشتد
تنّها ، ليشرب الفرنج من صديدها .

(١) الأصل : ”قصيدته“ وقد صححت إلى ما بالمتن لينسق المعنى ، هذا والجملة في الأصل وس
مضطربة ويبدو أنه قد سقط منها ألفاظ عند النسخ . ويوضحها ما ورد في المراجع الأخرى ، فقد جاء
في (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٥) : ”وما ورث الشهادة من بعيد فإن جده عبد الله بن
زواحة صاحب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قتله الروم يوم مؤته ، وهذا قتله الفرنج يوم عكا“
ولكن العماد أنكر في (البرق الشامي) نسبة إلى ابن زواحة الصحابي ، قال : ”وليس هو من أولاد
ابن زواحة الصحابي ، ذلك لم يعقب ، وإنما في أجداده من اسمه زواحة“ . (الروضتين ، ج ٢ ،
ص ١٤٧) . وانظر أخبار عبد الله بن زواحة الأنصاري الصحابي في : (ابن هشام : السيرة ، نشرة السقا
وآخرين ، ج ٤ ، ص ١٣ و ١٥ و ١٦ و ١٧ و ٢١ و ٢٢) (إلخ) و (المقرئ : إمتاع الأسماع ، نشر محمود
شاكر ، ج ١ ، ص ٣٤٦ و ٣٤٨ و ٣٥٠) .

(٢) هذا اللفظ غير موجود في س (١٩٢) .

(٣) راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٠٢ ، هامش ٤) .

ذكر انتقال السلطان والعسكر إلى الخروبة^(١)

ولما انقضى أمر الواقعة وسكنت نائرتها أمر السلطان بالانتقال إلى الخروبة ،
فانتقل في رابع^(٢) شهر رمضان من السنة ، وأمر أهل عكا بإغلاق أبوابها ، ووجد
بذلك الفرج ، فشرعوا في حفر الخندق على معسكرهم [٣٤٥] حوالى عكا^(٣)
من البحر إلى البحر ، وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحصار ، وعمقوا
الخندق عايمهم ، وأداروا حولهم سورا مستورا^(٤) بالستائر^(٥) ، ورتبوا عليه الرجال ،
وتركوا له أبوابا يظهرون منها إذا أرادوا الخروج ، فانقطعت طريق المسلمين
إلى عكا بالكلية .

(١) س : " ذكر انتقال المعسكر السلطاني " .

(٢) س : « سابع » ، وما يأتى يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ٢ ص ١٤٧) و (ابن الأثير ،
ج ١٢ ، ص ١٦) .

(٣) الأصل : « معسكرهم » والتصحيح عن س والروضتين .

(٤) الأصل : « سورا » .

(٥) الستائر جمع ستارة ؛ وهي من أهم معدات الحرب عند المسلمين في العصور الوسطى ، كانوا
يخذونها من الجلود واللبود المبلولة بالخل والشب والنطرون لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط ،
وكانت تعمل بوجه خاص لحماية الأبراج والدبابات المصنوعة من الخشب ، وكذلك لحماية السفن من
قذائف النفط ، قال : (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ؛ ص ١٩٧) : " وليس في حرب البحر شيء
أصعب من النفط ؛ بسبب الزيت والقيح الذي يطلى به المركب ؛ فيحتمل لدفع ذلك باللبود المبلولة بالخل
والشب والنطرون " ؛ وكان هناك نوع آخر من الستائر يعلق بعيدا عن الأسوار ليضعف قذائف المجانيق
والجروح والزيارات فتقل قوتها ولا تؤثر في جدران القلاع والحصون ؛ وقد وصف هذا النوع
(الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩٤) وصفارنا ، قال : " وأما ما يدفع به آلات
الحصار فالمنجنيق أشدها ، فمن أراد التوقي منه فليخرج من أعلى السور أخشابا طولا لا يظهرها كالخناجر
المطل ، ويدلى منها البسط والأكسية والشباك من الخبال الغلاظ واللبود ما أمكن ، ولتكن مرصاة
بعيدة من السور ، فيجىء الجرح وقد ضعف فعله وبطلت قوته ، وكذلك النشاب والجرح والزيار ، لا يجاوز
تلك الستائر " . أنظر أيضا : (مرضى بن علي : تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٨ — ١٩) .

وما كان انتقال السلطان من منزله صوابا ، فإنه لو أقام لما تمكن العدو ، لكن كان أمر الله قدرا مقدورا ، وكان السبب في تأخر السلطان أنه استحضر الأمراء وأرباب المشورة^(١) .

قال القاضي بهاء الدين ابن شداد — رحمه الله — :

« كنتُ من جماتهم ، فقال السلطان : « بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة على رسول الله : اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا ، ووطىء أرض الإسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليهم إن شاء الله تعالى ، وقد بقي [العدو]^(٢) في هذا الجمع اليسير ، ولا بد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك ، وأتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءها نجدة ننظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو وإن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأى كل الرأى عندي مناجزته ، فليخبرنا كل منكم ما عنده في ذلك » .

وكان ذلك في ثالث عشر تشرين الثاني من الشهور الشمسية ، وهو آخر شعبان ، فانفصلت أراؤهم على أن المصلحة تأخر العسكر إلى الخروبة ، وأن يبقى العسكر أياما حتى يستجم من حمل السلاح ، وترجع نفوسهم إليهم ، فقد أخذ منهم التعب ، واستولى على نفوسهم الضجر ، وتكليفهم أمرا على خلاف ما يحمله القوى لا تؤمن غائلته ، والناس لهم خمسون يوما تحت السلاح وفوق التحيل ، والتحيل قد ضجرت من عرك اللجم ، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ، ويصل الملك العادل ، ويشاركنا في الرأى [والعمل]^(٣) ونستعيد من شد من العساكر ، ونجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة العدو » .

(١) الأصل : « الأمراء المشهورة وغيرهم » ، والتصحيح عن : (ابن شداد : السيرة ، ص ٩٧) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن ابن شداد .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن ابن شداد وس .

وكان السلطان قد انحرف مزاجه لجمه على قابه ومعاناة التعب لحمل السلاح ، والفكر في تلك الأيام ، فوق له ما قالوه ، وراه مصلحة ، فأقام بالخروبة يصلح مزاجه ، ويجمع العسكر إلى عاشر رمضان .

[٣٤٦] وفي يوم الاثنين ثالث رمضان أخذ المسلمون بعكا مركبا للفرنج كان مقلعا إلى صور ، محتويا على ثلاثين رجلا ، وامرأة واحدة ، ورزمة^(١) من الحرير ، فقوى نشاط أهل البلد ، فصاروا يخرجون ويقاتلون ويغنمون .
وفي منتصف شوال قدم من مصر الملك العادل سيف الدين بعساكره .

ذكر وصول الأسطول^(٢)

وقدم من مصر خمسون قطعة من الأسطول ، مقدمها حسام الدين لؤلؤ ، وذلك منتصف ذي العقدة ، بجاءت إلى مراكب الفرنج بغتة [فخرتها]^(٣) وسحقها ، وبددت شملها ، وظفر المسلمون ببطشتين كبيرتين من بطش العدو بما فيها من الرجال والأموال والغلال^(٤) ، ونقل السلطان إلى البلد في المراكب جماعة من الأمراء بأجنادهم وعددهم وأزوادهم ، واستظهر البلد برجال الأسطول وكانوا عشرة آلاف ، وتطرفت رجالة المسلمين إلى العدو ، وأذاقوهم القتل والأسر والسروقة^(٥) ، حتى أن رجالة المسلمين ربما كانوا يختفون في الحشيش في أجواف^(٦) الأنهار فإذا صادفوا فارسا ورد الماء فاجأوه بالقتل والأسر .

(١) الرزمة : الربطة أو الخزمة أو البالة ؛ وبالفرنسية (ballot) أنظر : (Dozy: Supp. Dict. Arab.)

(٢) أكل كاتب نسخة من هذا العنوان بقوله : « ومكاتبة السلطان صلاح الدين إلى الأطراف في الاستنفار للجهاد » غير أن كاتب الأصل فصل جزئ العنوان ، وأورد الجزء الثاني وحده بعد قليل .

(٣) ما بين الحاصرتين عن من . (٤) بعد هذا اللفظ في من : « وكان شيء كثير » .

(٥) كذا في الأصل ، وفي من ، « وأذاقوهم ثمرا من القتل والأمر... إلخ » وعند الماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٨) : « ويذيقونهم من القتل والأمر والبرقة وبلا » .

(٦) الأصل : « أجواف » ، والله حبيب عن الماد (المراجع السابق) .

ذكر مكاتبة السلطان إلى الأطراف في الاستنفار للجهاد

وواصل السلطان كتبه إلى جميع الأقطار يستدعى الناس إلى الجهاد ويحثهم عليه ، وسرّح عدنان النّجّاب إلى أخيه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين ابن أيوب — صاحب اليمن — يشرح له ما جرى من الحوادث ويطلب منه الإعانة بالمال .

وكتب مظفر الدين قرا أرسلان — صاحب العجم — يحتج عليه بما افترضه الله تعالى من القيام بنصرة الإسلام ، وكان اسم السلطنة بالعجم لابن أنخى مظفر الدين هذا لأمه ، وهو السلطان ركن الدين طغرل بن محمد بن طغرل بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ، وهو آخر السلاطين السلجوقية ، فورد على السلطان كتابه يتظلم إليه من عمه قرا أرسلان ، ويطلب من السلطان إعانتة عليه ، فاعتذر إليه السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد مع الكفار ، وأرسل رسولا — في السفارة بينه وبين عمه — جمال الدين أبا الفتح إسماعيل بن محمد بن عبد كويه ، وكتب إلى زين الدين [٣٤٧] بن نور الدين — صاحب إربل — ، وإلى حسن بن قفجاق ونائبه بشهرزور يأمرهما بالتوفر^(١) على خدمته .

وكتب السلطان إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين كتابا منه :

”وقد مضت ثلاثة أشهر [شهر]^(٢) بها التلايت وحلّ التوحيد سلاحه ، وبسط الكفر جناحه ، وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روّعت [و]^(٢) الروعات التي وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فارس وراجل ، وراح

(١) الأصل : «بالوفود» والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩) .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن نص الرسالة الوارد في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩) .

وتارس^(١) ونابل ، فما أثر ذلك في قعرهم ولا أرت إلا نار حرصهم ، وليس هذا العدو بواحد فينجح فيه التدبير ويأتي عليه التدمير ، وإنما هو كل من وراء البحر ، وجميع من في ديار الكفر ، فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة ، ولا خطة صغيرة ولا كبيرة إلا جهزت مراكبها ، وأنهضت كائنها ، وتحرك ساكنها ، وبرز كامنها ، ونار نائرها^(٢) ، وسار سائرها^(٣) ، وطار طائرها ، ونقضت خزائنها ، وانقضت معادنها ، وحملت ذخائرها ، وبذلت أخائرها^(٤) ، وثلت كائن كائنها ، واستخرجت دفائن نقائسها ، وخرج بصلابانها أساقفها وبطاركها ، وغصت بالأنفواج بغاجها ومسالكها ، وتصلبت للصليب السليب ، وتعصبت للصاب المصيب ، ونادوا في نواديهم بأن البلاد بلادهم ، وأن إخوانهم بالقدس أبارهم^(٥) الإسلام وأبادهم ، وأنه من خرج من بيته مهاجرا لحرب الإسلام وهبت له ذنوبه ، وذهبت عنه عيوبه ، ومن عجز عن السفر فمر من يقاتل عوضه ، أو يعين بماله وعدته قدره ، بغاءوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين الحديد ، وتواصلت منهم الأمداد .

وورد على السلطان من عز الدين . مسعود بن مودود — صاحب الموصل — أحوال من النفط الأبيض ، ومن التراس والرماح ، ومن كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده .
قال : وكتب إليه السلطان :

« ووصل السلاح ، وتم الإسلام من قروح الكفر الاقتراح ، فإن الحرب المتطاولة [٣٤٨] المدد أتت على جميع العدد ، ومن العجب أن العدة تفتن وما تفتن العدة ، وتنمو على الحصاد كأنها النبات ، فالبخر يمدهم ، والكفر إلى الردى يردهم » .

(١) هذا اللفظ غير موجود في م ولا في نص الرضتين .

(٢) هذان اللفظان ساقطان من م .

(٣) الأصل : « أجارها » ، وما هنا عن الرضتين .

(٤) الأصل : « أنارهم » وما هنا عن الرضتين .

ذكر من وصل في هذه المدة من مدد العدو^(١)

ووصل في البحر^(٢) امرأة جليلة المقدار ؛ وفي صحبتها^(٣) خمسمائة فارس
بنحوهم وأتباعهم وغلماهم ، وهي متكفلة بجميع ما يحتاجون إليه من المؤونة ،
فهم يركبون لركوبها ، ويحملون بحملها .

وذكر العماد الكاتب :

أن في يوم الواقعة قاتل مع الفرنج جماعة من النسوة ؛ وأنهن لم يعرفن حتى
سُلبن وتُزع عنهن لآمة^(٤) الحرب ؛ وأنه سُبى منهن عدة ، واشترين ، وأنه حضر
المصاف جماعة من العجائز يحرضن على القتال ويحثن عليه ، ووصل في مركب
ثلاثمائة أفرنجية مستحسنات ، اجتمعن من الجزائر^(٥) وسبلن أنفسهن لله بزعمهن ،
والترمن أن لا يمنعن من أراد وطأهن من مقاتلة الفرنج ، وزعمن أن هذه قريبة
ما فوقها قريبة ، لا سيما إذا مَكَّن من اجتمع فيه غربة وعزبة .

(١) لم يرد هذا العنوان في س (١٩٤) ، وإنما جاء مكانه : « قال صاحب التاريخ » .

(٢) بعد هذا اللفظ في س : « من مدد العدو » .

(٣) الأصل : « وفي حلتها » ، والتصحيح عن س ، والنص عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ،

ص ١٤٩) : « وفي حلتها » .

(٤) الآلة (والجمع : لآم ولؤم) الدرع ، أو السلاح بوجه عام ، والمعنى الثاني هو المقصود

هنا ، فقد جاء في (اللسان) : يقال : استلأم الرجل إذا لبس ما عنده من عدة رُخٍّ وبيضة ويفقر

وسيف وتبيل ، وفي : (ابن هذيل الأندلسي : حلية الفرسان وشعار الشجعان ؛ نشر محمد عبد الغني

حسن ، ص ٢٣٨) « فإذا لبس الفارس الدرع يقول استلأم أي لبس الآلة » .

(٥) الأصل : « الحرائر » ، والتصحيح عن : (العماد : الفتح القدسي ، ص ١٦٩) ، وس .

وتواصلت الأمداد من البحر إليهم يتلو بعضها بعضا ؛ وكان كلما نقض من العدو عدد جاء من داخل البحر أمثاله (١) .

وفي هذه السنة توفي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري — رحمه الله — وذلك في تاسع ذي القعدة بمنزلة الخروبة ؛ والأمير عز الدين موسك بن جكر (٢) وهو ابن خال السلطان .

وورد على السلطان من مصر كتاب فاضلي يشير فيه بمولد الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك العزيز عماد الدين عثمان ؛ وهو الذي ملك بعد أبيه — على ما سنذكره إن شاء الله تعالى — وأول الكتاب :

« المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر دائم رشاده وإرشاده ؛ وزاد سعده وإسعاده ؛ وكثرت أولياؤه وعبيده وأعداده ؛ واشتد بأعضاده فيهم اعتضاده ؛ وأنمي الله عدده حتى يقال هذا آدم المملوك وهذه أولاده ؛ ويهي أن الله — وله الحمد — رزق الملك العزيز — عز نصره — ولدا مباركا [٣٤٩] عليا ؛ ذكرا سويا ؛ برازكا ، نقياً تقيا ، من ذرية كريمة بعضها من بعض ، ومن بيت شريف كادت ولاته تكون ولاية في السماء ، وممالك تكون ملوكا في الأرض ، وكان مقدمه الميمون في ليلة الأحد ، وهي من الجمعة أولى العدد ، وبه وبآله يعز [الله] (٣) أهل الجمعة ويذل أهل الأحد » .

(١) بعد هذا اللفظ في س : « قال القاضي » ويقصد به المؤلف ابن راضل .

(٢) الأصل : « موسكى بن خلو » وفي س : « موسى بن خلوا » ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ،

ج ٢ ، ص ١٤٩) .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن النص الوارد في (الروضتين ، ج ٢ : ص ١٥٠) .

ذكر مسير القاضي بهاء الدين بن شداد

في الرسالة إلى الشرق وإلى الديوان العزيز

وورد كتاب الملك الظاهر — صاحب حلب — إلى أبيه السلطان يخبره أنه
صح أن ملك الألمان قد خرج من جهة القسطنطينية في عدة عظيمة ، قيل
لأنهم مائتا ألف ، وقيل مائتا ألف وستون ألفا ، يريد البلاد الإسلامية ،
فاشتد على السلطان ذلك وعظم عليه .

قال القاضي بهاء الدين :

”فاستندبني السلطانُ بالمضى إلى خليفة الوقت [الإمام الناصر لدين الله] (١)
وإعلامه بهذه الحادثة ، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار ، وإلى صاحب
الجزيرة وصاحب الموصل ، وإربل ، واستدعائهم إلى الجهاد بأنفسهم ،
فسرتُ (٢) حادى عشر شهر رمضان ، ويسر الله تعالى الوصول إلى الجماعة
وإبلاغ الرسالة إليهم ، فأجابوا إلى ذلك بنفوسهم ، وسير صاحب الموصل
ابنه علاء الدين بمعظم عسكره ، ووعد الديوان بكل جميل ، وعدتُ إليه
خامس ربيع الأول سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وسبقت العساكر ، وأخبرته
بإجابتهم وتأهبهم للسير ، فسُرَّ بذلك“ .

وذكر عماد الدين :

”أن السلطان كان قد سير القاضي ضياء الدين بن الشهرزورى رسولا إلى
بغداد ، وأن القاضي بهاء الدين لما وصل إلى حلب متوجها إلى بغداد

(١) مدعين الحاصرتين زيادة عن س .

(٢) مكان هذا اللفظ في س : «من» .

صَادَفَ الْقَاضِي ضِيَاءَ الدِّينِ قَدْ عَادَ مِنَ الرِّسَالَةِ ، فَقَالَ ضِيَاءُ الدِّينِ : ”أَنِي قَدْ بَلَغْتَ الْمُرَادَ ، فَمَا هَذَا الرَّسُولُ الرَّايِحُ ؟“ وَوَصَلَ إِلَى الْعَسْكَرِ السُّطَانِيِّ وَهُوَ مَغْتَاطٌ ، وَتَغَيَّرَ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَ^(١) نَسَبَ إِنْفَاقَ الْقَاضِي بِهَاءِ الدِّينِ إِلَى^(٢) ، ثُمَّ اجْتَمَعَ بِالسُّلْطَانِ وَعَرَفَهُ فَرَاغَ الشَّغْلِ وَبَلُوغَ الْمَقْصُودِ ، وَقَرَّرَ مَعَهُ أَمْرًا ، ثُمَّ عَادَ عَلَى النُّجَبِ إِلَى بَغْدَادَ وَصَادَفَ الْقَاضِي بِهَاءَ الدِّينِ بْنِ شَدَادٍ^(٣) فَلَمْ يَسْفِرْ أَمْرَ سَفَارَتِهِ عَنْ سَدَادَ ، وَقِيلَ لَهُ : ”جَوَابُ مَا أَتَيْتَ بِهِ مَعَ ضِيَاءِ الدِّينِ ،“^(٤) نَسِيرُهُ^(٥) وَنُنْدَبُهُ فِيمَا نَتَخَيَّرُهُ“^(٦) .

وَدَخَلَتْ سَنَةٌ سِتٌّ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةً :

وَالسُّلْطَانُ نَازِلٌ [٣٥٠] بِالْخُرُوبَةِ عَلَى حِصَارِ الْفَرَنْجِ الْمَحَاصِرِينَ لَعَكَا ، مَرَابِطًا لِلْجِهَادِ ، وَعِنْدَهُ أَخُوهُ الْمَلِكُ الْعَادِلُ ، وَوَلَدُهُ الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ ، وَابْنُ أَخِيهِ الْمَلِكُ الْمُظْفَرُ تَقِيُّ الدِّينِ — صَاحِبُ حِمَاةٍ — وَكَانَتْ الْعَسَاكِرُ الْغَرِبِيَّةُ قَدْ انْصَرَفَتْ إِلَى بِلَادِهَا لِمُجُومِ الشِّتَاءِ ، وَتَوَالَى الْأَنْوَاءُ وَالْأَنْدَاءُ .

ذِكْرُ وَقْعَةِ الرَّمْلِ^(٥)

وَاتَّفَقَ أَنَّ السُّلْطَانَ رَكِبَ يَوْمًا فِي صَفَرٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ لِلصَّيْدِ بِالْبَزَاةِ ، فَطَابَ لَهُ الْقَنْصُ فَأَبْعَدَ ، وَكَانَتْ الْيَزِيدِيَّةُ عَلَى الرَّمْلِ فِي سَاحِلِ الْبَحْرِ ، فَخَرَجَ الْفَرَنْجُ وَقَتَ الْعَصْرِ فِي عِدَدٍ لَا يَحْصَى ، وَتَسَامَعَ الْمُسْلِمُونَ بِهِمْ فَرَجَعُوا إِلَيْهِمْ وَطَرَدُوهُمْ إِلَى خِيَاهِمَ ، وَقَاتَلُوهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا حَتَّى قَتَلَ نَشَابُ الْمُسْلِمِينَ ، وَشَاعَ نِدَاؤُهُمْ

(١) النص في س : « بسبب إقناذ القاضي بهاء الدين إلى بغداد » .

(٢) الأصل : « بهاء الدين فعند ذلك فلم يسفر... إلخ » ، وس : « فصادف بهاء الدين ولم يتم له أمر رسالته » ، والتصحيح عن الأصل المنقول عنه هنا وهو العباد (الروضتين ج ٢ ، ص ١٥١) .

(٣) س : « بهاء الدين » وما هنا هو الصحيح .

(٤) س : « فرجع وهو منكسر القلب ووصل القاضي ضياء الدين في النوبة الثانية إلى بغداد وعاد إلى السلطان بالجواب الشافي » ، وما هنا يتفق ونص العباد .

(٥) هذا العنوان غير موجود في س ، ومكانه : « قال » .

بإستدعائه، فلما علم الفرنج بذلك تجاسروا عليهم، وحملوا على المسلمين حملة منكزة، فردوا بها المسلمين إلى النهر، وثبت جماعة من العادلية في وجه العدو، واستشهد جماعة من الشجعان، وسبب ذلك أنهم صرعوا جماعة من خيالة العدو ونزلوا لأخذ سلبهم، وصرت بهم حملة الفرنج، وأعجلوا عن الركوب، فاستشهدوا، ثم أظلم الليل، واقترب الجمعان.

ومن حملة من فقد من المسلمين الحاجب أيدغمش المجدي^(١)، وكان للسلطان مملوك يقال له "سراستقر" عثر به جواده، فأخذ بعض الفرنج بشعره، وسلّ آخر سيفاً ليضربه به، فوقعت الضربة في يد الذي قبض شعره، فأطلقه، واشتد سراستقر يعدو وهم خلفه فلم يدركوه، وكان هذا من غريب الاتفاق. ثم عاد السلطان من صيده فوجد الأمر قد انفصل.

وفي خامس^(٢) ربيع الأول من هذه السنة تسلم السلطان شقيف أرنون^(٣) [بعد أن فنى ما فيه من الزاد]^(٤)، وأطلق صاحبه أرناط، فتوجه إلى صور.

ذكر قدوم العساكر إلى خدمة السلطان^(٤)

ثم دخل الربيع، وجاءت العساكر والنجد يتلو بعضها بعضاً، فوصل الملك المجاهد [٣٥١] أسد الدين شيركوه — صاحب حمص —، وسابق الدين عثمان — صاحب شيزر —، وعز الدين إبراهيم بن المقدم — صاحب بعين وقامية وكفر طاب —، ووصل معهم جموع من أعيان الأجناد وحشود من التركمان والعرب.

(١) س : «المجدي» وما هنا يتفق والعماد (الروضتين، ج ٢، ص ١٥٢).

(٢) كذا في الأصل وس، وفي الروضتين وابن شداد : «وفي يوم الأحد خامس عشر».

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س.

(٤) هذا العنوان غير موجود في س، وإنما مكانه : «قال».

ذكر مقدم^(١) السلطان إلى تل كيسان

ولما كثرت العساكر عند السلطان رحل من الخروبة إلى تل كيسان يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول^(٢) من هذه السنة ، ورتب الأطلاب ، فكان الملك المظفر في آجر الميمنة ، والملك العادل في آخر الميسرة ، والملك الأفضل في أول ميمنة القلب ، وأخوه الملك الظافر في أول الميسرة على الجانب .

ثم وصل الملك الظاهر — صاحب حلب — ، وعماد الدين محمود بن بهرام الأرتقي — صاحب دارا — ، وغيرهم من الملوك والأمراء .

ثم وصل عماد الدين زنكي بن مودود — صاحب سنجار — وذلك لثمان بقين من ربيع الآخر ، فأكرمه السلطان وبالع في احترامه ، وقدم له شيئا كثيرا من اللطف والتحف ، وبسط له ثوبا أطلس عند دخوله إليه ، وطرح له طراحة مستقلة^(٣) إلى جانبه ، وضربت خيمته على طرف الميسرة .

ووصل في سابع جمادى الأولى معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي ابن مودود — صاحب الجزيرة — ، فأنزله إلى جانب عمه عماد الدين .

ووصل بعده بيومين ابن عمه علاء الدين خرمشاه بن عز الدين مسعود — صاحب الموصل — نائبا عن أبيه ، فالتقاه السلطان ، واحترمه ، وأنزله

(١) س : «مقدم» .

(٢) س : « ربيع الآخر » ، وما بالمتن هو الصحيح فإنه يتفق والنص عند ابن شداد (ص ١٠٢) والعماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٢) .

(٣) الأصل ، وس : « مستقلة » والتصحيح عن : (ابن شداد ، ص ١٠٤) ، والعماد : (الروضتين ،

ج ٢ ، ص ١٥٢) .

عنده في الخيمة ، وقدم له تحفا كثيرة ، ثم أمر بضرب خيمة له بين ولديه :
الملك الأفضل ، والملك الظاهر .

ثم وصل زين الدين يوسف بن زين الدين كوجك — صاحب إربل —
فأكرمه السلطان ، وأنزله عند أخيه مظفر الدين في الميسرة .

ذكر وصول رسول^(١) الخليفة الإمام الناصر لدين الله تعالى أمير المؤمنين إلى السلطان

[٣٥٢] وهو الشريف نحر الدين نقيب مشهد التبن ببغداد ، وكان قدومه
سادس عشر ربيع الأول^(٢) من هذه السنة ، ومعه حملان من النفط ، وتوقيع
بعشرين ألف دينار تُقرض من بعض التجار على الديوان العزيز ، ونحسة^(٣)
من الزراقين^(٤) المتقنين صناعة الإحراق بالنار ، فاعتد السلطان بكما حضر، وشكر
عليه الديوان ، وردّ التوقيع عليه ، وقال :

« كل مامعى من نعمة أمير المؤمنين ، ولولا صرف أموال هذه البلاد للجهاد ،
لكانت محمولة إلى الديوان » .

وأركب الرسول مرارا ، وأراه معارك القتال ، حتى يشهد بما شاهد ،
وأقام عند السلطان مدة ، ثم استأذن في العود ، فعاد .

(١) الأصل « رسل » والتصحيح يقتضيه السياق والمعنى .

(٢) س : « سادس عشرين شعبان » ، وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين، ج ٢ ،
ص ١٥٢) .

(٣) س : « وجماعة » ، وما هنا يتفق ونص العماد .

(٤) الزراق — والجمع زراقون — هو الذى يرى النفط من الزرارة ، وهى أنبوبة خاصة يزرق
بها النفط (Dozy : Suppl. Dict. Arab) وجاء فى : (النعماني : الجندية فى الدولة العباسية ، ص ١٥٤)
أن النفط كان يرسل من أنابيب تجعل فى السفن وتعرف فى اليونانية بامم « سيفونية » ، وتسمى عند
العرب بالزراقات ، تنبعث منها نار النفط بأعداد ودخان شديد فتحرق السفن .

ذكر نصب الأبراج على عكا وإحراقها

وكان الفرنج قد شرعوا في بناء ثلاثة أبراج عالية عظام ، ونقلوا في البحر آلاتها وأخشابها الجافية ، وقطع الحديد ، وتعبوا فيها سبعة أشهر ، وفرغوا منها في ربيع الأول من هذه السنة فَعَلَّتْ كأنها أطواد ، ونُصِبَتْ في ثلاثة مواضع من أقطار البلد ، ومائت طبقاتها بالعدد والعدة ، وكل برج منها في أركانه أربع اسطوانات عالية غلاظ ، طول كل واحدة خمسون ذراعا لتشرف على ارتفاع سور البلد ، وبسطوها على دوائر العجل ، ثم كسوها بجلود البقر ، وسقوها بالخل والنجر^(١) وكانوا يقربونها كل يوم من البلد على حسب ما تيسر لهم ، وكشفوا من جوانبها سور البلد .

ثم شرعوا في طم الخندق ، وورد الخبر إلى السلطان بأن العدو قد طم بعض الخندق وقد قوى عزمه على منازلة البلد ومضايقته ، فكتب السلطان إلى سائر الأطراف يأمر بالحث على وصول العساكر ، واشتد خوف المسلمين بسبب الأبراج الخشب فإنها كانت في غاية العظم ، فإن كل واحد منها كان يحمل من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة فارس [٣٥٣] ويتسع سطحه لأن ينصب عليه منجنيق ، ولم يبق إلا ملاصقة الأبراج السور ، ووقع الناس من حفظ البلد في تعب عظيم ، وأعمل السلطان فكره في إحراق الأبراج وإهلاكها ، وجمع الصناع من الزرايين والنفاطين ووعدهم بالأموال الجزيلة إن أحرقوها ، فضاقت في ذلك حيلهم .

ولازم السلطان القتال صباح ومساء وفرق العساكر فرقتين : فرقة تقاتل ، وفرقة تشغل الذين يجرون الأبراج عن جرحها ، ورميت بكل قارورة نبط فلم يؤثر فيها شيء .

(١) هذا نص هام يفيد من يدرس أدوات القتال في تلك العصور ، فقد كانوا يتقنون الجلود في الخل والنجر مدة لتصبح غير قابلة للاشتعال ، ثم يتخذونها ستائر يسترون بها الأبراج والحصون من القذائف النارية ، راجع ما فات هنا أيضا ص ٣٠٣ ، هامش هـ

وكان شاب من أهل دمشق يقال له علي، ابن عريف النحاسين مولعا بجمع آلات الزرّاقين وتحصيل عقاقيرها [فوعد السلطان صلاح الدين بإحراقها ، وفرح بذلك ووعد به بكل جميل]^(١) ، فدخل إلى عكا بعد أن حصل من الأدوية التي يعرفها ما يحتاج إليه ، فطبخ الأدوية من النفط في قدور من النحاس حتى صار الجميع كأنه جمر نار ، ورمى إحدى الأبراج ، وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ربيع الأول ، وهو يوم وصول الملك الظاهر ، فاشتعل البرج من ساعته ، وصار كالجلجل العظيم من النار طالعة ذوائبها نحو السماء ، فاستغاث المسلمون وضجّوا بالتكبير والتهليل ، ثم رمى الثاني بالقدر الثانية ، والثالث بالثالثة ، فأحرق الثلاثة .

وذكر العماد :

أنه رمى الأبراج أولا بقدر نفط خالية من النار ، حتى عرف أنه سقاها ورواها ، ثم رماها بالقدر المحرقة ، فتسلطت النار على طبقات الأبراج ، وذكر أنه احترق في البرج الأول سبعون^(٢) فارسا بعدتهم ، واشتد سرور المسلمين بهذا الفتح .

وحمل الزرّاق إلى السلطان [فأعطاه شيئا كثيرا]^(٣) ، فلم يقبل عطاه وقال : « هذا عمامته لله ، فما أريد من سواه جزاء » . [^(٢) فأوقف السلطان عليه قرية من خيار قرى دمشق]^(٣) ، وخرج أهل عكا من البلد ، فطفوا النار ، وسدوا الثغر ، وجاءوا إلى مواضع الأبراج فاستخرجوا حديدها ، وما وجدوا من الزرديات والعدد التي سلمت فأخذوها .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ص ١٩٧) .

(٢) س : « تسعون » وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٤) وبعد هذا اللفظ في س : « وكذلك في الثاني والثالث أعظم من ذلك » .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

ذكر وصول الأسطول^(١)

[٣٥٤] ووصل الأسطول ، فخرج السلطان إلى لقائه بجميع كتائبه ، وجهزت الفرنج أساطيلهم لمقاتلة أسطول المسلمين ، فطحن أسطول المسلمين أسطول الفرنج ، وأخذ منهم مركبا برجاله وأخذ العدو من أسطول المسلمين مركبا ، واشتد القتال بين الفريقين في البحر إلى أن حجز بينهما الليل ، فتفرق الأسطولان وقد قتل من الفرنج مقتلة عظيمة .

وذكر عماد الدين :

أنه حرر ما قتل من الفرنج في مدة الحرب فكان أكثر من مائة ألف^(٢) .

ذكر خروج ملك الألمان

لنصرة الفرنج المنازكين لعكا وما آل إليه أمره

وقد ذكرنا وصول الخبر إلى السلطان في سنة خمس وثمانين بخروج ملك الألمان إلى بلاد الإسلام^(٣) فيما يزيد على مائتي ألف مقاتل ، وكان الحامل لملك الألمان على هذا الخروج ما بلغه من انكسار الفرنج بحطين قتلا وأسرا ، وأخذ بلادهم وانتزاع البيت المقدس منهم ، الذي فيه قمامتهم ، ومحل ضلالتهم ، فحملته الحمية لدينه والانتصار لبيت معبوده على أنه جمع وحشد ، وسار في أمم لا تدخل تحت

(١) هذا العنوان غير موجود في س ، وإنما مكانه : « قال » .

(٢) بعد هذا اللفظ في س : « ما بين فارس وراجل وغيرهم » ثم افتدى السلطان أسطوله

بأسطول الفرنج .

(٣) س : « بلاد الشام » .

الحصر ، فسار مدة شهر حتى وصل قسطنطينية ، وهى يومئذ مع الروم ، فكتب ملك الروم بها إلى الساطان يخبره بأخبارهم ويقول :

« أنا لا أمكنهم من العبور »^(١) .

ثم إنه لما لم يقدر على منعهم لم يسعفهم بزاد ، فضاقت عليهم الأقوات وقلت ، ثم عبروا خليج القسطنطينية وقد اشتدت ضائقتهم ، وكثرت جموعهم وجوعهم^(٢) ، ولما سلكوا^(٣) إلى حدود بلاد الإسلام سلكوا فى الأودية والآجام ، نخطفتهم التركمان ، ودخل الشتاء ، فتراكمت عليهم الثلوج ، فاحتاجوا إلى أكل الدواب ، وأحرقوا عددهم لعوز الحطب عندهم ، وعدموا العلف ، وكانوا مع هذا جاهلين بالبلاد ، لا يقطعون فرسخا إلا فى يومين ، وذهبت بركتهم ، وصاروا كل يوم فى نقص من أنفسهم ودوابهم ، ودفنوا من عددهم ما عجزوا عن نقله ، ثم عرضوا عسكرهم [٣٥٥] بعد أشهر بعد ما نقص من نقص منهم فكانت ستين ألف مدرع .

ولما قربوا من بلاد الملك قايج أرسلان بن مسعود السلجوقى فنهض إليهم ابنه قطب الدين ملكشاه بن قايج أرسلان ، فوقع بينهم مصاف فكسروه ، واندفع عنهم إلى مدينة قونية ، فساقوا وراءه ، ودخلوها ، وأحرقوا أسواقها^(٤) ، فنفذوا إلى قايج أرسلان :

« إنا لم نصل لأخذ بلادك ، وإنما نزلنا لنأر البيت المقدس » .

(١) بعد هذا اللفظ فى س (١٩٨) : « فطاب قلب السلطان » .

(٢) هذا اللفظ غير موجود فى س .

(٣) س : « ولما وصلوا » .

(٤) س : « أسوارها » .

ونفذوا إليه هدايا ، وطلبوا الهدنة منه ، فهادنهم ، [فبقوا في بلاده مدة ، ولم يؤذوا أحدا منها ، وتقوّوا بعد ذلك بما أرادوا من بلاده]^(١) من العدة والأزواد ، وبعث قايچ أرسلان وابنه إلى السلطان يعتذران من تمكينهم إياه من العبور ، وأنهم غلبوا على ذلك .

ثم طلب ملك الألمان من قايچ أرسلان إنفاذ جماعة من الأمراء معهم تمنعهم من لصوص التركمان حتى يصلوا إلى بلاد الأرمن ، فنفذ معهم خمسة وعشرين أميراً ، وكان ذلك موافقا لغرض قطب الدين ، لأنه كان كارها لجماعة من المتقدمين ، فتقدم إليهم بأن يكونوا في صحبة ملك الألمان ، [فساروا معه]^(٢) فما قدروا على منع اللصوص والسراق ، فغضب عليهم ملك الألمان ، وقيدهم بعد أن أخذ كل ما كان معهم ، ثم منهم من خلاص بعد ذلك ، ومنهم من مات في الأسر .

ووصل ملك الألمان إلى بلاد الأرمن ، ومقدمهم لافون بن اصطفانه بن لاون ، فوصل إلى خدمة ملك الألمان ، ودخل في طاعته ، وأقام لهم الإقامات والغلوفات ، وهداهم الطريق ، فزلوا بطرسوس ، وأقاموا بها أياما ليريحوا أنفسهم ، فعن ملك الألمان أن يسبح في النهر ، فسبح فعرض له مرض شديد أداه إلى الموت ، وأراح الله المسلمين منه .

وذكر في سبب هلاكه أنه لما عبرت جموعه^(٣) النهر ازدحموا والتطم الموج بهم ، واقتحموا ، فطلب الملك موضعا يعبر فيه وحده ، فدخل في مخاضة قوية بالحرية فاخطفه سورة الماء إلى شجرة شجت رأسه ، فاستخرجوه وهو في آخر رمق ، فهلك عن قرب .

(١) الأصل ، . تقوّوا بمن بلاده بما أرادوا من العدة الأزواد « وهي بخلة مضطربة المعنى وما بين الحاصرتين نص من وهو أصح » .

(٢) ما بين الحاصرتين عن من (٩٨ ب) .

(٣) الأصل : « جموعهم » والتصحيح عن من .

[ووصل إلى السلطان]^(١) كتاب كاغيوس الأرمني — صاحب قلعة الروم — وهو للأرمن بمنزلة الخليفة عندنا ، ونسخة كتابه :

« كتاب الداعي المخلص كاغيوس : مما أطلع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الملك الناصر جامع كلمة الإيمان ، رافع علم العدل والإحسان ، صلاح الدنيا والدين^(٢) ، ساطان الإسلام والمسلمين ، من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره ، وذلك أنه أول ما خرج من دياره دخل بلاد الهنكر^(٣) غصبا ، ثم دخل أرض مقدم الروم ، وفتح البلاد ونهبها ، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه ، وأخذ رهائنه : ولده وأخاه ، وأربعين نفرا من خلسائه^(٤) ، وأخذ منه^(٥) خمسين قنطاراً ذهباً ، وخمسين قنطاراً من فضة ، وثياب أطلس مبلغاً عظيماً ، واغتصب المراكب ، وعدى بها إلى هذا الجانب ، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قايج أرسلان ، ورد الرهائن ، وبقي سائراً ثلاثة أيام ، وترك الأوج يلقونه بالأغنام والأبقار والخيول والبضائع ، فدخلهم الطمع ، وجمعوا من جميع البلاد ، ووقع القتال بين التركمان وبينهم ، وضايقوه ثلاثة أيام^(٦) وهو سائر .

ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قلع أرسلان العساكر وقصده ، وضرب معه مصافاً عظيماً ، فظفر به ملك الألمان ، وكسره كسرة عظيمة ، وسار حتى أشرف على قونية ، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين ، فردهم مكسورين ، وهجم قونية بالسيف وقتل منها عالماً عظيماً من المسلمين ، وأقام بها خمسة أيام ،

(١) ما بين الحاضرتين عن من (٩٨ ب) ، ونها يتم المعنى .

(٢) الأصل : « الدين والدنيا » ، وما هنا عن من ، وهو أفضل لتمام السبعة التالية .

(٣) الأصل : : « الهنك » ، وما هنا عن من ، وهو الأصح ، والمقصود بها بلاد هنغاريا أو المجر .

(٤) من : « جلسائه » .

(٥) الأصل : « منهم » وما هنا عن من ، وهو الأصح .

(٦) الأصل ، « ثلاثة وثلاثين يوماً » ، والتصحيح عن من (١٩٩) و (الروضتين ، ج ٢ ،

فطلب قاج أرسلان منه الأمان ، فأمنه الملك ، واستقر بينهم قاعدة أكيدة ، وأخذ منه الملك رهائن عشرين من أكابر دولته ، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ، ففعل .

وقبل وصوله إلى هذه البلاد أنفذ كتابه ورسوله بشرح حاله ، وأين قصده ، وما لقي في طريقه ، وأنه لابد يجتاز بهذه الديار اختيارا أو كرها ، فاقضى الحال إنفاذ المملوك حاتما ، وصحبته ما سأل ، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه ، وكانت الوصية معهم إلى بلاد قلعج أرسلان إن أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب ، وعرفوه الأحوال أبي إلا الانحراف ، [٣٥٧] ثم كثرت عليه العساكر والجموع ونزل على شط نهر ، وأكل خبزا ، ونام ساعة ، فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد ، ففعل ذلك وخرج ، وكان من أمر الله أنه تحرّك عليه مرض عظيم في الماء البارد ، فمكث أياما قلائل ومات .

وأما لافون فكان سائرا يلقي الملك ، فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدموا إليه وأخبروه بالحال فدخل في بعض حصونه ، واحتسب هناك .

وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه لقصد هذه البلاد نصب ولده الذي هو معه عوضه ، وتأكدت قواعده ، وبلغه هرب رسل لافون فأنفذ واستعطفهم ،

وقال :

” إن أبي كان شيخا كبيرا ، وإنما قصد هذه الديار لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذي دبرت الملك ، وعانيت المشاق في هذه الطريق ، فمن أطاعني ^(١) ولا بدأت بقصد دياره “ .

(١) س ، « فن لم يطعني » .

واستعطف لافون ، واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة ، وبالجملة هم في عدد كثير ، ولقد أعرض عسكره فكان اثنين وأربعين ألفاً^(١) ، وأما الرجالة فلا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، وهم أجناس متفاوتة ، وخلق غريبة^(٢) ، وهم على قصد عظيم وجد وسياسة هائلة ، حتى أن من جنى منهم جناية ليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة ، ولقد بلغهم^(٣) عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له ، وجاوز الحد في ضربه ، فاجتمعت القسوس للحكم ، واقتضى الحال والحكم العام ذبحه ، وشفع إلى الملك منهم خلق كثير منهم ، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه ، وقد حرموا الملاذ^(٤) على أنفسهم ، حتى إن أى من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه ، وكل ذلك كان حزناً على بيت المقدس ، ولقد صحَّ عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة ، وحرروها على أنفسهم ، ولم يلبسوا إلا الحديد ، حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك ، وهم من الصبر على الذل والشقاء والتعب في حال عظيم هذا آخر كتابه .

ولما هلك عدو الله ملك الألمان قام بالملك بعده ولده ، واجتمعت العساكر على طاعته ، ثم سار بهم إلى أنطاكية ، وقد عمَّ المرض أكثرهم ، وصار معظمهم حملة عصى وركاب حمير .

ولما وصلوا إلى أنطاكية [٣٥٨] تبرم بهم صاحبها ، وثقلت عليه وطأتهم فحسن لهم قصد بلاد حاب ، فلم يفعلوا ، وطلبوا من صاحب أنطاكية قلعه لينقلوا إليها ما معهم من المال والخزائن والثقل ، فأخلاها لهم طمعاً في أن يفوز بما ينقلونه

(١) كذا في الأصل ، وفي س (٩٩ ب) : « اثنين وأربعين ألف فارس » ، وفي (ابن

شداد : السيرة ، ص ١٠٩) و (الروستين ، ج ٢ ، ص ١٥٥) : « اثنين وأربعين ألف مجفف »

(٢) توجد بعد هذا اللفظ في س الجمل الآتية : « وهذا المعظم بعد ما هلك منهم خلق منهم في

طريقهم » ، ولا توجد هذه الجملة في الأصل المتقول عنه هنا وهو (ابن شداد : السيرة ، ص ١٠٩)

(٣) س : « بلغ ملكهم » .

(٤) الأصل : « البلاد » ، والتصحيح عن ابن شداد وس .

إليها من المال ، وكان الأمر على ما حدث ، فإنهم لما فارقوا أنطاكية لم يعودوا إليها ، وفاز الأبرنس — صاحب أنطاكية — بكل ما صار فيها .

وجاءت فرقة من الألمانية إلى بغراس ، وظنوا أنها بعد بأيدي الكفر، ففتح والى القلعة الباب، وأخرج أصحابه، وتسلم ما مع الألمانية من الأموال بصناديقها، وأسر منهم وقتل كثيرا ، وخرج بعد ذلك أهل حلب وجندُها إلى طريقهم والتقطوهم ، فكان الواحد يأسر جماعة منهم ، ودانوا في الأنفس بعد ما كان قد تهيئوا هبة عظيمة ، وبيعوا في الأسواق بالثمن البخس .

وذكر القاضي بهاء الدين بن شداد :

أن ملك الألمان لما توفي وقام ولده مقامه ، مرض مرضا عظيما في بلاد ابن لاون ، وأقام معه خمسة وعشرون فارسا ، وأربعون داويا ، وجهاز عسكره نحو أنطاكية حتى يقطعوا الطريق ، ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم ، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغراس ، ومقدمها كند كبير^(١) عندهم ، وأن عسكر بغراس مع قلته أخذ منهم مائتي رجل قهرا ونهباً ، وكتبوا إلى السلطان يخبرون عنهم بالضعف العظيم ، والمرض الشديد ، وقلة الخيل والعدد والآلات .

ولما اتصل خبرهم بالنواب بالبلاد الشامية سيروا إليهم عسكرا يكشفون أخبارهم ، فوقعوا على جمع عظيم منهم قد خرجوا لطلب العلوفة ، فقتلوا وأسروا زهاء عن خمسمائة نفس^(٢) .

قال القاضي بهاء الدين :

ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ، ويقول : "هم عدد كثير ، ولكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة، وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة" ، قال الحاكم :

(١) الأصل : « قدمها لذكر » والمصحح عن س (١١٠٠) .

(٢) س : « فارس » .

”ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم ، فعب منهم جمع عظيم ما وجدتُ مع أحد منهم طارقة^(١) ولا رحا إلا النادر ، فسألتهم عن ذلك ، فقالوا : أقمنا بمرج وخم أياما ، وقلت أزوادنا وأحطابنا ، فأوقدنا معظم عددنا ، ومات منا خلق عظيم ، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها“

ومات الكُند الذى وصل [٣٥٩] إلى أنطاكية ، وطمع ابن لاون فيهم حتى عزم على أخذ مال الملك ، لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذى تخلف معه .

ولما تحقق السلطان [صلاح الدين] وصول الألمانين إلى بلاد الأرمن ، وقربهم من البلاد الشامية ، شاور أمراءه فيما يصنع ، فوقع الاتفاق على تسير بعض العساكر إلى طريقهم ، وأن يقيم على منازلة العدو ببقية العساكر ، فكان أول من سار الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر [تقي الدين] ، وكان إقطاعه منبج ، ثم سار عز الدين بن المقدم — صاحب بعرين^(٢) وأفامية — ، ثم الملك الأبعد — صاحب بعلبك — ، ثم سابق الدين عثمان بن الداية — صاحب شيزر — ، ثم الياروقية من عسكر حلب ، ثم عسكر حماة ، ثم سار الملك الأفضل ولد السلطان لمرض عرض له ، وكذا بدر الدين^(٣) — شحنة دمشق — ، ثم سار الملك الظاهر إلى حاب لحفظ ما يليه من البلاد ، ثم سار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد ، وتدير أمر العدو المجتاز .

ولما سارت هذه العساكر خُفَّت الميمنة ، فأمر السلطان أخاه الملك العادل ، فانتقل إلى منزلة الملك المظفر في طرف الميمنة ، وكان عماد الدين زنكى بن مودود — صاحب سنجار — في طرف الميسرة ، ووقع في العسكر مرض شديد ،

(١) راجع مناقات هنا ص ٢٧٩ ، هامش ٣

(٢) س : « بفراس » .

(٣) س : « عز الدين » وما هنا يتفق وابن شداد (السيرة البوسفية ، ص ١١٠) .

فرض مظفر الدين بن زين الدين — صاحب حران — ، ثم شفى ؛ ومرض بعده الملك الظافر ولد السلطان ، ومرض خلق من الأكابر ، إلا أن المرض كان سليماً ، وكان عند العدو مرض عظيم وموتان كثير ، وتقدم السلطان بهدم سور طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وصيدا وجبيل ، وانتقل أهلها إلى بيروت .

ذكر الواقعة العادلية على عكا

لما علم الفرنج أن عساكر المسلمين قد تفرقت في أطراف البلاد ، وأن ميمنة العسكر قد خفت بسبب من سار منها لأجل حماية البلاد من العدو الواصل ، أجمع رأيهم واتفقت كلمتهم على الخروج من معسكرهم بغتة ، والهجوم على طرف الميمنة فجأة ، فخرجوا ، وقصدوا الميمنة ، وفيها مخيم الملك العادل ، فلما نظر الناس لهم صاح صائحهم ، وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها ، وركب السلطان ، ونادى مناديه : « يا الإسلام ! » ^(١) وكان أول [٣٦٠] راكب .

قال القاضي بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — :

« لقد رأيته وقد ركب من خيمته ومعه نفر يسير من خواصه ، والناس لم يستم ركوبهم ، وهو كالفاقة لولدها والشكلى لواحدتها ، ثم ضربت كوساته ^(٢) ، فأجابتها كوسات الأمراء من أماكنها ، وركب الناس ، ووصل الفرنج إلى مخيم العادل قبل استتمام ركوب العساكر ، ودخلوا في وطاقته ^(٣) ، وأمتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة ، ووصلوا إلى خيمته

(١) الأصل : « الإسلام » ، وما هنا عن (ابن شداد : السيرة ، ص ١١٢) ، وفيه : « ياالاسلام »

(٢) لشرح هذا المصطلح راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١١ ، هامش ٢)

(٣) من : « وطاقه » . والوطاق لفظ معرب ، وأصله بالتركية (أوتاق ، أو أوطاق ، أو أوتاغ) . معناه الخيمة ؛ أو مجموعة الخيام ؛ أو المعسكر ؛ أو الفرنة . أظن : (Dozy : Supp. Dict. Arab.)

الخاصة ، وأخذوا من الشراب خائاه شيئا ، وركب الملك العادل ، وركب معه من يليه من الميمنة ، كالأمر صارم الدين قايمار النجمي ، والأمير عز الدين جُرديك النوري ، ووقف بمن معه حتى توغل الفرنج ، وطمعوا في الخيم ، واشتغلوا بالنهب ، وعاثت أيديهم في الخيام والأقمشة والفواكه والأطعمة .

فلما علم [الملك العادل]^(١) اشتغالهم صاح بالناس ، وحمل — رحمه الله — بنفسه ، يقدمه ولده الأكبر شمس الدين مودود ، وهو والد الملك الجواد مظفر الدين يونس ، وحمل لحماته من كان يليه من الميمنة حتى وصل الصياح إلى عسكر الموصل ، فهجموا على العدو ، واشتد القتال ، ووقعت الكسرة على الفرنج ، فولوا على أذبارهم ، منهزمين نحو خيامهم ، وأخذتهم السيوف من كل ناحية ، وصاح صائح السلطان [صلاح الدين]^(٢) :

” يا أبطال الموحدين ، هذا عدو الله قد أمكن الله منه ، وقد داخله الطمع حتى غشى خيامكم بنفسه ، فبادروا إلى إجابته “ .

[فحملت]^(١) حلقته وخاصته ، ثم طُلب عسكر الموصل ، ومقدمهم علاء الدين ولد عز الدين ، [فتقدموا وتقدم بعدهم]^(٢) عسكر مصر ومقدمهم سنقر الحلبي ، وتتابع العساكر ، وتجاوبت الأبطال ، وقامت الحرب على ساق ، ولم يك إلا ساعة حتى ردوا^(٣) القوم من حد خيام الملك العادل إلى خيامهم ، ولم ينج من القوم إلا النادر ، وأسر من الفرنج يومئذ نفر يسير ، لأن السلطان أمر ألا يُستبقى أحد ، وهذا كله كان في الميمنة ، وفي بعض القلب .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١١٠١) .

(٢) الأصل : « زوى » والتصحيح عن س ، أنظر أيضا : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ،

ص ١١٣) .

وأما الميسرة فما اتصل الصباح بهم إلا وقد نبجز الأمر لبعد ما بين المسافتين ، وكان مبتدأ هذه الوقعة منتصف النهار من يوم الأربعاء لعشر بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة — أعني سنة ست وثمانين وخمسمائة — ، [٣٦١] ولم يفقد من المسلمين سوى عشرة أنفس غير معروفين ، ولما شاهد المسلمون بعكا من الأسوار هذه الوقعة خرجوا من البلد ، وجرى مقتلة عظيمة ، وهجموا خيام العدو ، ونهبوا منها جمعا من النسوان والأقمشة ، حتى القدور فيها الطعام ، واختلف في عدد القتلى [من الفرنج] ^(١) ، فقليل عشرة آلاف ، وقيل ثمانية آلاف ، ولم ينقصهم أحد في الحزر عن خمسة ^(٢) آلاف .

قال القاضي بهاء الدين :

” لقينا إنسانا عاقلا جنديا يسعى بين صفوف القتلى ويعددهم ، فقلت له : كم عددت ؟ فقال : إلى ههنا أربعة آلاف ونيفا وستين قتيلًا ، وكان قد عدّ صفين ، وهو في الصف الثالث ، وكانت الصفوف خمسة ، لكن ماضى من الصفوف أكثر عددا من الباقى “ .

وذكر عماد الدين الكاتب :

” أنهم كانوا مفروشين في مدى فرسخ من الأرض ، وهم في تسعة صفوف من تلال الرمل إلى البحر بالعرض ، وكل صف يزيد على ألف قتيل “ .

وشرع الفرنج في الخداع والمراسلة ، وسألوا في الصلح .

(١) ما بين الحامرتين عن م (١٠١ ب) .

(٢) م : « سبعة الاف » ، وما هنا يتفق ونص (الرضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٨) .

ذكر قوة الفرنج

بوصول الكُندهرى إليهم وتحويل السلطان إلى الحروبة

لما وقعت هذه الواقعة العظيمة وهنَّ الفرنج وخافوا ، فلو أن السلطان عاودهم القتال فيه مرة بعد أخرى لاستأصدهم وأطفأ جمرتهم لكن لما يختاره الله تعالى تهاون بهم ، واشتغل عن قتالهم ، فوصلت إليهم النجد [من البحر]^(١) ، وتقووا ، وورد إليهم أضعاف من هلك منهم ، ووصل إليهم كُند عظيم — يعرف بالكُندهرى — قد فرق الأموال واستخدم الرجال ، وأنفق في عشرة آلاف راجل ، وأظهر أنه يريد الخروج إلى لقاء عسكر الإسلام ، فتحول السلطان إلى منزلة الحروبة ليوسع عليهم الدائرة ، ونصب الكُندهرى على عكا منجنيقات عدة ، فأحرقها المسلمون ، وقُتل من الفرنج سبعون فارساً ، وأسر عدة معروفون ، ثم نَصَبَ منجنيقين آخرين^(٢) فأحرقا أول شعبان^(٣) ، وأنكَبَ^(٤) فيهم العرب بالسرقة والنهب ، وكذلك من بعكا من المسلمين .

ذكر مكاتبة ملك الروم بقسطنطينية للسلطان بالمودة

وإقامة الخطبة [له]^(٥) ببلده

وكان بين السلطان وبين ملك الروم بقسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وكان قد وصل منه رسول إلى الباب السلطاني — والسلطان [٣٦٢] إذ ذاك بمرج عيون — في جواب رسول كان أنفذه السلطان في تقريره القواعد وإقامة الخطبة في جامع القسطنطينية ، وهو الجامع القديم الذى بُنى في عهد بنى أمية ، فمضى^(٥) الرسول

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١١٠٢) . (٢) س : « ثم نصب منجنيقات أخر » .

(٣) الأصل : « وانكب » : والتصحيح عن س . (٤) ما بين الحاصرتين عن س .

(٥) الأصل رس : « فاقام » والتصحيح عن : (الروضين ، ج ٢ ، ص ١٦٠) .

وأقام الخطبة ، ولقى باحترام عظيم وإكرام زائد ، وكان السلطان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجمعا^(١) من المؤذنين ، وكان يوم دخولهم إلى القسطنطينية يوما مشهودا عظيما من أيام الإسلام ، وكان ثم جمع كثير من المسلمين من التجار ، ورقى الخطيب المنبر وأقام الدعوة الإسلامية العباسية .

ثم عاد رسول السلطان ومعه رسول ملك الروم وبيده كتاب من الملك مختوم بالذهب ، يتضمن إعلام السلطان وتمكينه من إقامة الخطبة ببلده ، واستعطاف السلطان وإظهار مودته ومحبته ، واعتذر إلى السلطان من عبور ملك الألمان ببلاده ، وأنه قد فجع في طريقه بالأمانى ، ونال من الشدة ونقص العدة ما أضعفه وأوهاه ، وأنه لا يصل إلى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع ، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع .

ذكر ما آل إليه حال ابن ملك الألمان وأصحابه

قد ذكرنا نزول الألمانين بأنطاكية ، وأنهم طلبوا من صاحبها قلعة أنطاكية ، لينقلوا إليها خزائنها وذخائرهم ، وأنه أجابهم إلى ذلك طمعا فيها ، ولما كان الخامس والعشرون من رجب من هذه السنة سار ابن ملك الألمان من أنطاكية طالبا عكا في جيوشه وجموعه على طريق اللاذقية حتى أتى طرابلس ، وكان قد سار إليه المركيس — صاحب صور — من معسكر^(٢) الفرنج لأجل تلقيه ، وكان هو الأصل في استدعاء أهل الكفر إلى هذه الواقعة ، فلما وصل إليه قوى قلبه وبصره بالطريق ، وسلك به الساحل ، وكانت عدة من معه لما وصل إلى طرابلس خمسة آلاف بعد ذلك الجمع العظيم الذي خرج معه من بلاده .

ونزل ابن ملك الألمان في البحر في بعض أصحابه .

(١) الأصل وس : « جمع » والتصحيح عن (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ١١٦) وانظر

(الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٠) (٢) ص (١٠٢ ب) : « بعسكر من الفرنج » .

وسار الباقر على الساحل ، فثارت على ابن ملك الألمان ريح فأهلكت من أصحابه ثلاث مراكب ، ووصل ابن ملك الألمان إلى عكا في جمع قليل في سادس [٣٦٣] رمضان ، فلم يظهر لهم موقع ، ثم هلك ابن ملك الألمان على عكا في ثاني عشر ذى الحجة من هذه السنة ، وأطفأ الله جمرته وجمرة أصحابه ، وأبادهم بعد أن كان المسلمون قد يؤسوا — لكثرتهم — من بلاد الإسلام ، وتيقنوا أنهم لا طاقة لهم به ، ففعل الله تعالى ما لم يكن في حسابهم .

ذكر الواقعة الكائنة عند وصول ابن ملك الألمان

ولما وصل ابن ملك الألمان رام أن يظهر لمحبيته وقعا ، فركب في الفرنجية فارسها وراجلها وقربوا من تل العياضية ، وعليه خيم الزكية ، والنوبة فيها للحلقة السباطانية وعسكر الموصل ، فقابلهم اليك ، وركب السلطان ، وتقدم إلى تل كيسان ، ولم تزل الحرب قائمة إلى أن جن الظلام ، وكانت الدائرة على الكفار ، فقتل منهم وجرح خلق كثير ، فلم يزل السيف يعمل فيهم وهم هاربون حتى وصلوا إلى مخيمهم ، ولم يقتل من المسلمين ذلك اليوم إلا رجلان ، وجرح جماعة كثيرة .

ذكر دخول الميرة إلى عكا

وكان السلطان قد أعد بيروت بطشة^(١) عظيمة ، وأودعها أربعمائة غرارة قمح ووضع فيها الحب والبصل والغنم وسائر ما يحتاج إليه ، وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول البلد منعاه من أن يدخل إليها ميرة ، وكانت حاجة أهل البلد قد اشتدت جدا إلى الطعام ، فركب في تلك البطشة جماعة من المسلمين وتزبوا

(١) شرح هذا المصطلح راجع ما فات هنا ، ص ٧٧ ، هامش ١

بزى الفرنج ، وحاقوا لحامهم ، ووضعوا الخنازير على سطح البطشة ، وعلقوا الصلابان وجاءوا قاصدين إلى البلد حتى خالطوا مراكب العدو ، فخرجوا عليهم واعترضوهم في الحراقات^(١) والشواني ، وقالوا لهم :

” نراكم قاصدين البلد “ واعتقدوا أنهم منهم ، فقالوا : ” أولم تكونوا قد أخذتم البلد ؟ “ فقالوا : ” لا ، لم نأخذ البلد بعد “ فقالوا : ” نحن نرد القلوع إلى المسكروورانا بطشة أخرى في هوائنا ، فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد “ .

وكان وراءهم بطشة أفرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدة إلى العسكر ، فنظروا فرأوها ، فقصدوها لينذروها ، واشتدت البطشة الإسلامية في السير ، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد ، واشتد الفرح والسرور بذلك ، وكان ذلك في العشر الآخر من رجب .

ولما كان العشر الأول [٣٦٤] من شعبان كتب الأمير بهاء الدين قراقوش — وهو والى البلد — ، والحاجب لؤلؤ — وهو مقدم الأسطول — يذكران للسلطان أنه لم يبق بالبلد ميرة إلا قدر ما يكفي البلد إلى ليلة النصف من شعبان ، فكتم السلطان ذلك لئلا يسمع^(٢) الأمر ، وقد كان كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث

(١) الحراقة (والجمع : حراقات وحراريق) نوع من السفن الحربية التي استعملها المسلمون في العصور الوسطى ، عرفها صاحب (محيط المحيط) وصاحب (تاج العروس) بأنها سفن بالبصرة فيها مرأى فيران يرى بها العدو ، وذكرها (ابن عاتق : قوايين الدواوين) فقال أنها أصغر من الثيني ، وأنها تسير بنحو مائة مجذاف . والنصوص المختلفة تفيد أن هذا النوع من السفن الحربية كان يستعمل بكثرة في مياه البحر الأبيض المتوسط وفي نهر النيل إبان الحروب الصليبية . انظر : (المقرئى ، ج ١ ص ٣٥١ — ٣٥٢ و ٣٥٨) و (البتانوى : رحلة الأندلس ، ص ١٤١) و (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٦٤ ، ص ٨١ — ٨٢) ، وهناك نصوص أخرى تفيد أن هذا اللفظ كان يطلق على نوع من السفن الصغيرة المستعملة للترعة والنقل في مياه نهر دجلة في العصر العباسي . انظر مثلا : (البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، نشر كرد على ، ص ٢٩١) و (دلال الصابى : تاريخ الوزراء ، ص ١٩) وراجع أيضا : (Kindermann : Schiff im Arabischen. p. 22—23) و (الشيال : معجم السفن الحربية ، مخطوطة لم تنشر بعد) .

(٢) س (١٠٣ ب) : « يسبح » .

بطش مشحونة بالأقوات والميروما يكفي البلد إلى آخر الشتاء ، فأقامت البطش
الثلاث من الديار المصرية وطابت لها الريح ، ووصلت إلى عكا ليلة النصف من
شعبان ، وقد فئت الأزواد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم ،
فخرج عليها أسطول العدو يقاتلها ، والعساكر الإسلامية تشاهد ذلك من الساحل
والناس في تهليل وتكبير وقد كشفوا رؤوسهم بتهلون إلى الله تعالى بسلامتها ، ولم
يزل القتال بين أسطول العدو وبين البطش إلى العصر من ذلك اليوم ، ووصلت
سالمة ، وكانت ليلة بليال .

ذكر المكتبة إلى الديوان العزيز

وكتب السلطان إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين كتابا منه :
” وقد بلى الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت واستجابوا الصوت ^(١) ،
وفارقوا المحبوبين : الأوطان والأوطار ، وهجروا المألوفين : الأهل والديار ،
وركبوا اللجج ، ووهبوا المهج ، كل ذلك طاعة لقسيسهم ، وامثالهم لأمر
مركيسهم ، وغيره لمعتقدهم وتهالكا على مقبرتهم ، وتحرقا على
قامتهم ، لا يطالبون مع شدة الإملاق ^(٢) مالا ، ولا يجدون مع كثرة المشاق
ملالا ، بل يتساقطون على نيران الظبي تساقط الفراش ^(٣) ويقتحمون الردى
متدربين للصبر مثبتين الجأش ، حتى خرجت النساء من بلادهن ^(٤) متبرزات ،

(١) س (١١٠٤) : « واستحبوا الفوت » وما هنا يتفق ونص العمد (الروضين ، ج ٢ ، ص ١٦١) .

(٢) س : « الوقت » وما هنا يتفق ونص العمد : (المرجع السابق) .

(٣) بعد هذا اللفظ في س : « على لب الدراج » ، وما هنا يتفق ونص العمد (الروضين ، ج ٢ ، ص ١٦٢) .

(٤) الأصل : « بلادهم » والنصحيح عن العمد وس .

وسرن إلى الشام في البحر متجهزات ، وكانت منهن ملكة استتبت خمسمائة مقاتل : [فارس وراجل]^(١) ورايح ونابل ، والترمت مؤتتهن ، فصودف مركبها بقرب الاسكندرية ، وأخذت برجالها ، وأراح الله من شراحتفاتها .

ومنهن ملكة وصلت مع ذلك الجمع ، ذوات المقانع من الفرنج مقنعات دارعات^(٢) ، يحملن إلى الطعان الطوارق والقنطاريات^(٣) ، وقد وجدت في الوقعات [٣٦٥] التي جرت عدة منهن في القتلى ، فما عرفن حتى سلبن .

وأن البابا الذي لهم برومية قد حرم عليهم مطاعهم ومشاربهم وقال : ” من لا يتوجه إلى القدس مستخلصا فهو عندي محروم لا منكح له ولا مطعم “ . فلاجل هذا يتهافتون على الورد ، ويتهاكون على يومهم الموعود ، وقال لهم : ” إني واصل في الربيع ، جامع على الاستغفار شمل الجميع “ ، وإذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد ، ويصل معه بأهله وولده كل من يقول لله أهل وولد .

فهذا شرح حال هؤلاء وتعصبهم في ضلالهم ولجاجتهم في غوايتهم ، بخلاف أهل الإسلام فانهم يتضجعرون ولا يصبرون ، بل يتفألون ولا يجتمعون ، ويتسألون ولا يرجعون ، وإنما يقيمون ببذل نفقة ، وإذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة ، ليعلم أن الإسلام من عند الله منصور ، وأن الكفر بارادة الله محسور مدحور .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن النص عند العماد (الروضتين ج ٢ ، ص ١٦٢) ، والنص في س : ” نهمائة فارس ما بين مقاتل ورايح ونابل “ .

(٢) يختلف نص العماد ونص س عما هنا قليلا ، فهو عند العماد : » ومنهن ملكة رحلت مع ملك الألمان وذوات المقانع من الفرنج مقنعات مقارعات « ، وفي س : ” ومنهن ملكة وصلت مع ذلك إلى عسكر الفرنج في ذوات المقانع مقنعات دارعات “ .

(٣) لشرح هذا المصطلح راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٣ ، هامش ٢) .

ذكر ما اتخذ العدو من آلات الحصار

واتخذ العدو دبابة عظيمة يدخل تحتها خلق عظيم ، وهي مابسة بصفايح الحديد ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل ، وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور ، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد [وهي تسمى كبشاتنطح السور بشدة عظيمة] ^(١) لكثرة من يجرها ، فتهدمه بتكرار نطحها .

واتخذ آلة أخرى ، وهي قبو ^(٢) وفيه رجال تسحبها ، ورأسها محدد ^(٣) على شكل السكة التي يحرك بها ، وأما رأس الكبش فمدور ، فهذا يهدم بثقله ، وتلك تهدم بجذبتها وثقلها ، وتسمى هذه السكة سفودا .

واتخذ أيضا ستائر وسلايم هائلة كبار .

واتخذ في البحر بطشة هائلة ، وفيها برج بخرطوم ، فاذا أريد قلبه عن السور انقلب بحيل هندسية ويبقى طريقا إلى المكان الذي تنقلب عليه ، ليمشى عليه المقاتلة ، وعزموا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذوه .

(١) النص في الأصل ناقص مضطرب وهو "من حديد شديدة عظيمة" ، وقد صحح إلى ما بين الحاصرتين بعد مراجعة (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ١٢٦) وس (١٠٤ ب) ، وانظر أيضا (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٢) . وهذا شرح واضح لإحدى آلات القتال في تلك العصور ، وهي "الكبش" .

(٢) بعد هذا اللفظ في الأصل جملة زائدة يضطرب بها المعنى لحذفها ، وهي : "وهي كبشا ينطح بها السور" .

(٣) الأصل : "محدد" ، والتصحيح عن ابن شداد والروضتين وس .

ذكر إحراق منجنقات العدو

ونصب العدو على البلد منجنقات هائلة حاكمة على السور، وتواترت حجارتها حتى أثرت فيه أثرا بينا وخيف على البلد ، فأحرق بعض المسلمين سهمين من سهام الجرخ الكبير حتى صاروا كالشعلة من النار، ثم رميا في المنجنق الواحد فعلقا فيه واجتهد العدو في إطفائه فلم يقدر على ذلك [٣٦٦] وهبت ريح شديدة ، واشتعل اشتعالا عظيما واتصل لهبه بالآخر فاحترق ، واشتدت ناراها بحيث لم يقدر أحد أن يقرب مكانهما ليحتال في إطفائهما ، فاشتد بذلك فرح المسلمين .

ذكر إحراق ما حوصره برج الذبان

وتحريق الكبش

ولما كان الثاني والعشرين من شعبان من هذه السنة — أعني سنة ست وثمانين وخمسمائة — قصد العدو محاصرة برج الذبان ، وهو برج في وسط البحر مبني على الصخر على باب ميناء عكا ، يحرس منه الميناء ، ومتى عبره المركب ^(١) أمن غائلة العدو ، فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء بحكمه ، ويمتنع بذلك دخول شيء من البطش إلى عكا ، فتقطع الميرة عن البلد ، فجهزوا بطشا متعددة ، وجعلوا على صواري البطش برجا ، وملئوا خطبا ونفطا ، وقصدوا أن يسيروا البطش ، فاذا قاربت البرج ولا صفته أحرقوا البرج الذي على الصاري ، وألصقوه بالبرج ليلقوه على

(١) الأصل : "ومن غير المراكب" ، وس "ومن عبر المراكب" والتصحيح عن (ابن شداد ،

السيرة اليومية ، ص ١٢٣) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٢) .

سطحه، فيهلك كل من على البرج^(١) من المقاتلة ويأخذونه ، وجعلوا في البطشة وقودا كثيرا حتى يلقى في البرج إذا اشتعلت النار فيه .

وعينوا^(٢) بطشة ثانية وماؤوها حطبا ووقودا، على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطش الإسلامية ، ثم يحرقونها ، فتلهب البطش الإسلامية ، ويهلك ما فيها من المير .

وجعلوا في بطشة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل اليهم نشاب ولا شئ من آلات السلاح، حتى إذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه دخلوا تحت ذلك القبو فأمنوا، وكان طمعهم ممتدا حيث كان الهوا مسعدا^(٣) لهم ، فلما حرقوا البطشة التي أرادوا أن يحرقوا بها بطش المسلمين ، والبرج الذي أرادوا أن يحرقوا به من على البرج ، فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط ، وقدر الله انعكاس الهوا عليهم، فاشتعلت البطشة التي كان فيها البرج بأسرها، وهلك كل من كان بها من المقاتلة، واحترقت البطشة الأخرى التي أريد بها إحراق بطش المسلمين، ووثب المسلمون فأخذوها إليهم، وأما البطشة الثالثة التي بها القبو فاضطرب^[٣٦٧] من بها وخاف، ووقع بينهم اختلاف، فانقلبت بمن فيها وأغرقتهم ، وأذل الله الكافرين، وأنزل بهم عقوبته .

ولما كان الثالث من شهر رمضان زحف العدو على البلد في خلق لا يحصى، فأهلهم أهل البلد حتى نشبت مخالب أطاعهم فيهم ، وسحبوا آلاتهم التي قدمنا ذكرها حتى قاربوا أن يلصقوها بالسور ، وحصل منهم في الخندق جمع عظيم ،

(١) النص في س : " فيهلك كل من على برج الذبان الذي قبالة البلد من المقاتلة " .

(٢) كذا في الأصل وس ، وفي ابن شداد والروضين : " وعينوا " .

(٣) الأصل : " مستعدا " ، والتصحيح عن (ابن شداد ، ص ١٢٤) و (الروضين ، ج ٢ ،

ص ١٦٣) وس (١١٠٥) .

فأطلق أهل البلد عليهم الجروح والمجانيق والنيران ، وفتحوا الأبواب دفعة ، وهجموا على العدو ، وكبسوهم في الخنادق ، فهربوا ، ووقع السيف فيمن بقى على الخندق .

ثم هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط ، وتمكنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه ، فاحترق حريقا شديدا ، وارتفع لهبه إلى السماء ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل ، وسرت نار الكبش إلى السفود ، فاحترق حريقا شديدا ، وعلق المسلمون في الكبش كلاليب الحديد المصنوعة في الأسل^(١) فسحبوها وهو يشتعل حتى حصل عندهم في البلد ، وألقى عليه الماء حتى برد حديده ، وكان وزن ما فيه من الحديد مائة قنطار بالشامي ، ثم سيروا رأسه إلى السلطان لينظره .

وفي السادس عشر من شهر رمضان وصل الخبر إلى السلطان بأن الأبرنس — صاحب أنطاكية — أغار على بلاد حلب فخرج إليه نواب الملك الظاهر ، فقتلوا من عسكره خمسة وسبعين نفرا ، وأسر خلق كثير ، فاعتصم بموضع يسمى شبيح حتى اندفعوا ، وسار إلى بلده .

وفي العشر الأوسط من الشهر ، ألفت الرياح بطشتين فيهما رجال ونساء وميرة عظيمة وغنم كثير قاصدين نحو العدو ، فغنمها المسلمون ، وكان العدو قد ظفر للمسلمين ببركوس^(٢) فيه نفقة ورجال أرادوا الدخول للبلد ، فكان أخذ هاتين البطشتين جابرا .

(١) كذا في الأصل وفي (الروضين، ج ٢، ص ١٦٤) ، وفي م ر (ابن شداد) : "الأسل" ،

(٢) الأسسل : "بركوس" ، وم : "بركوس" بدون قط ، والتصحيح ما ذكرناه ، والبركوس — رابع براكيس — نوع من السفن التي كانت تعمل في الحروب بين الشرق والغرب في مياه البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى ، وهي أصغر حجما من البطمة ، جاء في (ابن شداد) : "وتألوا السلطان : نحن نخوض البحر في براكيس و بطس إلى العدو ، فأذن لهم =

ذكر رحيل السلطان إلى المنزلة المعروفة بشفرعم^(١)

وسبب ذلك أنه باغته عزم الفرنج على الخروج مرة ثانية لأخذ ثارهم ، وكثر المستامنون^(٢) عنده ، وتواترت أخبارهم إليه بذلك ، فتأخر إلى هذه المنزلة ، لتكون أفسح للقاء ، فأقام مستعدا لدخول الشتاء ، وذلك في تاسع عشر رمضان .

= في ذلك ، وأعطاهم بركوسا — وهو المركب الصغير — « وجاء في (الروضتين، ج ٢، ص ١٨٧) :
 "خاف جماعة ممن كان في البلد فأخذوا لحم بركوسا ، وهو مركب صغير" ، وقد ذكره (ابن عاتق) :
 قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ — وإن كان الدكتور موريل قد أخطأ في قراءته وجعله
 « مركوش » — ، فقال إنه مركب « لطيف يستعمل لنقل الماء خلفه ، ومعه مائة أردب » ،
 غير أن النصوص الكثيرة التي أوردها المراد الأصمغاني في الفتح القسبي تبين في وضوح أن البركوس كان
 يستعمل لركوب الجند والناس عامة » ، ويفهم من هذه النصوص أيضا أن حمولة البركوس الواحد
 كانت حوالي خمسة وعشرين رجلا ، قال في ص ٢٣١ : « أخذ من الفرنج بركوسان ، فيهما
 نيف وخمسون قرا وفي الخامس والعشرين منه أخذ أيضا بركوس فيه من الفرنج مقدون
 ودرؤوس وهم نيف وعشرون ، منهم أربعة خيالة » ، وقال في ص ٢٣٠ « وذكروا أنهم وقعوا
 بحراقة كبيرة ومعها براكيس ، وفيها تجار فرنج ومعهم من المال الجليل النفيس » ؛ وقال في ص ٢٣٨
 « كان المستامنون من الفرنج إلينا تسلاوا براكيس يغزون فيها . . . وكذبوا كل ما في الكنيسة ، من
 الأملق النفيسة . . . وعادوا بها وبهم إلى براكيسهم » ، وقد جاء في محيط المحيط « البركوس —
 والباركوس — ضرب من السفن بين البريق والفرقاطة ، معرب » وهو مأخوذ من الإيطالية
 « Barcoso » ويقابلها بالفرنسية « Barque » وبالانجليزية « Bark » انظر أيضا
 « Kindermann : Op. Cit. P.5 » و(الشيال : معجم السفن العربية ، مخطوطة لم تنشر بعد) .

(١) الأصل « سفرعم » . وقد ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بأنها قرية كبيرة بينها وبين عكا بساحل الشام ثلاثة أميال .

(٢) الأصل : « وكثر ذلك » ، والتصحيح عن (الروضتين، ج ٢، ص ١٦٤) وس (١١٠٦) .

ذكر وفاة زين الدين — صاحب إربل —

ومرض زين الدين يوسف بن زين الدين [٣٦٨] على كوجك في المعسكر السلطاني ، وكان استأذن في الرواح إلى بلده ، فلم يؤذن له ، فاستأذن في الانتقال إلى الناصرة ، فأذن له ، فأقام أياما ، ثم توفي — رحمه الله — في الثامن والعشرين من شهر رمضان من هذه السنة ، وحزن عليه الناس حزنا شديدا لشبابه وغريبه ، وكان كريما أريحيا ، فاحتاط أخوه مظفر الدين كوكبوري على ما خلفه ، وقبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم .

ذكر استيلاء مظفر الدين على إربل وبلادها

واستيلاء الملك المظفر على ما كان بيد مظفر الدين

ثم طلب مظفر الدين من السلطان أن يضم إربل وبلادها ، وأن يضاف إليه ولاية شهرزور ، وأنه يتزل عن حرّان والرّها وسميساط والموزر^(١) ، وخدم بخمسين ألف دينار نقدا ، فأجيب إلى ذلك ، واستمهل إلى حين وصول الملك المظفر بجنده ، ليكون في منزلته .

ولما كان يوم الأحد ثالث شوال وصل الملك المظفر ، فأضيف إليه ما استرجع من مظفر الدين من الأعمال ، ثم أمر السلطان أن يكتب منشور بإربل وبلادها لمظفر الدين ، وتكتب إلى صاحب الموصل ، منه :

” لا شك في إحاطة العلم بانتقال زين الدين إلى جوار الله تعالى ومقر رحمته ، مجاهدا في سبيله ، شاكرا لنعمته ، وهو من السعداء الذين أنزل الله فيهم :

(١) توجد بعد هذا اللفظ في الأصل كلمة : ”رحل“ ولا ضرورة لها ؛ والنص عند ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٤) : ”والموزر ، ويجعل كل ما في يده من الأعمال في الموفر ، ويخدم خمسين ألف دينار . الخ“ .

« ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » ، فما أوجع القلوب بمصابه ، وما أنكى في النفوس أفول ^(١) شبابه ، ولقد كانت الهمة متوفرة على تربيته وإعلاء درجته ، لكن الله استأثر به قبل ظهور حسن الآثار ^(٢) في إيثاره ، وبلى بدره التم بسراره في ضمير البلى من أسرارده ، وهذه إربل من إنعام البيت الكريم الأتابكي على البيت الزينى منذ سبعين عاما لم يحلوا لعقد إنعامهم بها نظاما ، ولم يزدوا أحكامه إلا إحكاما وإبراما ، وما رأى أن يخرج هذا الموضع منهم ، وأن يصدف به عنهم ، والأمير الأجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه ، والمقدم في الولاية [٣٦٩] بمقتضى وصية أبيه ، وقد أنهض لیسدمسد أخيه .

ثم سافر مظفر الدين إلى إربل فتسلمها ، ولما فوض السلطان إلى ابن أخيه الملك المظفر ما كان بيد مظفر الدين أقام بالمنزلة المظفرية إلى أن يؤذن له في المضى إلى تلك الولاية ، وسيرنوابه إليها ، وكان بيده أعمال مياقارقين ، ومن الشام حماة والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبله واللاذقية وبلاطنس وبكرامل .

ذكر استئذان ملوك الأطراف بالرجوع إلى بلادهم

لأجل دخول الشتاء

ولما دخل الشتاء وطالت مدة البيكار ^(٣) ، أبدت العسكر السامة والضجر من الإقامة ، وجدَّ الملك عماد الدين زنكى بن مودود — صاحب سنجار — في الاستئذان في الرحيل ، وتكررت رقاعه إلى السلطان في ذلك ، فكتب إليه السلطان :

« من ضاع مثلي من يديه فليت شعري ما استفادا »


(١) الأصل رس : « وما أنكا في النفوس فلول شبابه » ، والتصحيح عن (الروضين ، ج ٢ ،

ص ١٦٥) .

(٢) الأصل : « الإينار » ، والتصحيح عن المرجع السابق رس .

(٣) لشرح هذا المصطلح راجع ما فات هنا ، ص ٩٥ ، هامش ١

فلما قرأ هذا البيت لم يراجع السلطان بعدها بكلمة في المعنى .

واستطال معز^(١) الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي — صاحب الجزيرة — المقام ، ودخل يوم عيد الفطر على السلطان قبل يده ، وودعه من غير سابقة الاستئذان ، فغضب السلطان من ذلك ، ثم خرج  الدين ، وسار من ساعته وتبعه أصحابه .

وذكر القاضي بهاء الدين :

أن رقاعه كانت قد ترددت إلى السلطان في طاب الدستور ، واعتذر إليه السلطان بأن رُسِّلَ العدو متكررة في طاب الصلح ، ولا يجوز أن تنفض العساكر حتى تبين على ماذا يفصل الحال من سلم أو حرب .

ولما ودَّع السلطان وانفصل ، كتب إليه :

”إنك أنت قصدت الانتماء إلى ابتداء ، وراجعتني في ذلك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسك وبلدك من أدلك ، فقبلتك وأوتيتك ونصرتك ، فبسطت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم ، فنفدت إليك ونهيتك عن ذلك مراراً ، فلم تنته ، فاتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام ، فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس ، وأقمت هذه المدينة ، [٣٧٠] وفاقمت هذا القلق ، وتحركت بهذه الحركة ، وانصرفت ، من غير طيب نفس ، وغير فصال حال من العدو ، فانظر لنفسك ، وأبصر من تنتمى إليه غيري ، واحفظ نفسك ممن يقصدك ، فما بقي إلى جانبك التفات“

وسلم الكتاب إلى نجاب فاحقه قريباً من طبرية ، فقرأ الكتاب ولم يلتفت ، وسار فلقية الملك المظفر وهو متوجه إلى السلطان عند عقبة فيق ، فأخبره بأمره ،

(١) الأصل : ”معين الدين“ ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٥) وس

وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه ولم يأذن له في الرواح ، ففهم الملك
المظفر انفصاله من غير دستور من السلطان ، فأمره بالرجوع ، وقال له :

” أنت صبي ، ولا تعلم غائلة هذا الأمر “ فقال :

” ما يمكنني الرجوع “ ، فقال :

” أرجع من غير اختيارك “ .

وكان الملك المظفر شديد البأس ، مقداما في الأمور ليس في عينه من أحد
شيء ، فلما علم أنه قابضه إن لم يرجع رجع معه ، وسأل السلطان الصفح عنه ففعل ،
وطالب أن يقيم في جوار الملك المظفر خشية على نفسه ، فأذن له ، فأقام في جواره
إلى حين ذهابه .

ذكر خروج الفرنج للقاء المسلمين وعودهم خائبين

ولما كان يوم الاثنين حادى عشر شوال من هذه السنة خرج الفرنج على عزم
اللقاء بعد أن رتبوا على عكا من يلزم القتال مع ملك الألمان ، خرج معهم المركيس ،
والكندهرى ، وأخذوا معهم عقيق أربعة أيام [وزادها] ^(١) ، وكان مخيم اليك على تل
العباضية ، فركبوا وصاروا في مقاتلة العدو ، ونزل الفرنج تلك الليلة على آبار كان المسلمون
قد حفروها ^(٢) عند نزولهم هناك ، وباتوا واليك يرموهم بالنشاب ، وأصبحوا
يوم الثلاثاء ثانى عشر شوال سائرين إلى اللقاء ، وقد جعلوا راجلهم سورا لهم يذب
عنهم بالزنبورك حتى لا يترك أحد يصل إليهم إلا بالنشاب ، فإنه كان يطير عليهم
كالجراد .

(١) ما بين الحاصرتين في الهامش بالأصل .

(٢) الأصل : ” حووها “ ، والتصحيح عن : س (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧٨) .

وخيالتهم تسير في وسطهم ، بحيث لا يظهر منهم أحد ، وعلمهم^(١) مرتفع على عجلة ، وهو يسحب بالبغال ، وهو عال جدا كالمنارة ، نحرته بيضاء ملبسة بحمرة على شكل الصليبان .

ورفع السلطان ثقله إلى ناحية القيمون ، وقد امتدت ميمته إلى الجبل وإلى البحر ، وعنده في القلب أولاده : [٣٧١] الملك الأفضل ، والملك الظاهر ، والملك الظافر ، وأخوه الملك العادل في أول الميمنة ، ويليه حسام الدين لاجين ابن أخت السلطان ، وصارم الدين قايمار النجمي ، ثم حسام الدين بشاره وبدر الدين دلدردم الياروقي .

وكان في الميمنة ابن صاحب الموصل ، وعز الدين جرديك النوري .

وفي الميسرة صاحب سنجار ، وصاحب الجزيرة ، والملك المظفر تقي الدين ، وسيف الدين بن المشطوب ، وخشترين ، والهكارية ، والحيدية ، والزرزارية ، والمهرانية ، وأمراء قبائل الأكراد^(٢) .

وضرب السلطان خيمة لطيفة بقرب الخروبة على تل مشرف ، وكان مخبط الجسم وهو الذي منعه من مباشرة الحرب بنفسه ، وكان عماد الدين — صاحب سنجار — غائبا مع الثقل لمرض كان به ، وبقي عسكره ، فعاد وقد أقلمت الحمى عنه ، وكان الوخم قد عظم جدا بحيث أن الموت كثر في الطائفتين ، فكان السلطان يتمثل :

أقتلوني وما لكأ واقتلوا ما لكأ معي

وفي مرج عكا عين غزيرة الماء ، يجري منه نهر كبير إلى البحر ، وسار الفرنج ذلك اليوم شرق النهر حتى وصلوا إلى رأس الماء ، وشاهدوا عساكر المسلمين ، فأنحرفوا

(١) هذا وصف دقيق وطريف للعلم الصليبي .

(٢) بهذا اللفظ تنهى ص (١٠٧ ب) من نسخة س ، وبذلك تنقطع الصلة بين هذه النسخة

والأصل لتصل بعد ذلك في ص ٢٨٩ من الأصل ويقابلها ص (١١٢٤) من نسخة س .

إلى غربى النهر ، فأنهض السلطان إليهم الجاليشية ، فأنحنوا فيهم الضرب باللاتوت والدبابيس والنشاب والرماح ، وجرى بين الجاليشين من الجانبين قتال كثير ، وباتوا ليلة الأربعاء ، وأصبحوا يوم الأربعاء ثالث عشر شوال فركبوا ، ووقفوا على صهوات خيولهم إلى ضحوة النهار ، والراجل محقق بهم كالأسوار ، وقد قربت العساكر الإسلامية حتى كادت تتخالطهم ، والرمى بالنشاب متصل ، وهم ثابتون لا يتزلزلون ، ولما أحسوا بالعجز والضعف نكصوا على أعقابهم عائدين على هيئة الاجتماع ، والنهر عن يمينهم ، والبحر من يسارهم ، والمسلمون حولهم يرمونهم بالنشاب ويقاتلونهم ، وكلما صرع منهم قتيل حملوه وسيروه ، ونزلوا ليلة الخميس على جرد عوف ، وقطعوا الجسر ليلا لئلا يتعدوا المسلمون إليهم .

وقاتل أياز الطويل وسيف الدين باركوج^(١) في هذا اليوم قتالا عظيما ، وأبلىا بلاء حسنا ، ثم رجع العدو إلى مخيمه ، ورجع المسلمون إلى مخيمهم ظافرين منصورين ، وأعيد الثقل [٣٧٢] إلى مكانه .

ذكر وقعة الكمين ودخول البذل إلى عكا

و[لما] كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شوال انتخب السلطان من أجناده عدة وأمرهم أن يكنوا في سفح تل هوشمالى عكا بقرب المنزلة العادية القديمة عند الساحل ، فكنوا تلك الليلة ، فلما أصبح الصباح ركب منهم عدة يسيرة ، وساروا نحو الفرنج ، وصالوا عليهم ، وأغاروا ، فاستقبلوهم الفرنج ، فخرج إليهم زهاء أربعائة فارس ، وقيل مائتا فارس ، وطعموا في المسلمين ، وتأنخوا قليلا قليلا حتى أوصلوهم إلى الكمين ، وخرجوا عليهم فقتلوهم وأسروهم ، وأستولوا عليهم بأسرهم ، فلم ينج منهم ناج ، ووقع في الأسر مقدمون أكابر ، منهم خازن الملك وجماعة من الأفرنسية .

(١) كذا في الأصل ، وهو في (الرويتين ، ج ٢ ، ص ١٨٠) : "بازكوج" .

وركب السلطان فرحا بهذه البشارة ، ووقف على تل كيسان ، وقد توافقت إليه الأسلاب والأسرى والحيوان ، فلم يعرض للأموال ، وأطلقها لآخذها ، وكانت عظيمة ، وجلس وأحضر الأسرى وبأسطهم وأطعمهم وكساهم ، وأذن لهم أن يسيروا غلمانهم لإحضار ما يريدون إحضاره ، ثم نقلهم إلى دمشق للاعتقال ، وحفظهم بالقيود .

ودخل الشتاء، وعصفت الأهواء، وهاج البحر، وتكسرت بعض سفن الفرنج، فأنفذوها إلى الجزائر للاحتياط، وربطوا بعضها بصور، فخلا البحر من مراكبهم، وكان أهل البلد قد ملوا وضجروا ، وكانوا زهاء عشرين ألفا ، فرأى السلطان أن يفسح لهم في الخروج رفقا بهم، ولم يكن ذلك مصلحة ورأيا، بل كان الرأي إراحة غيرهم ، فإنهم قد ذبوا وصبروا ، وهم كنفس واحدة .

وأشير على السلطان بترتيب البدل، وتكفل الملك العادل بذلك ، وانتقل بنجيمه إلى سفح جبل حيفا قاطع النهر ، وتقدم بجمع السفن للنقل ، واجتمع المتقلون بالساحل ، فمن نبجز أمره انتقل ، وانتقل إلى البلد^(١) من لم يجرب الحصار ولم^(٢) يخبر أمور البلد ، ومن كان بالبلد أبو الهيجاء السمين نخرج ، ولم يبق بالبلد ممن كان به إلا الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي ، ودخل عشرون أميرا عرض ستين ، واستخدمت الرجال ، [٣٧٣] وأنفقت الأموال ، وكان مقدم الداخلين الأمير سيف الدين المشطوب ، وتقدم السلطان إلى كل من دخل أن يستصحب ميرة سنة كاملة .

ودخل إلى ميناء عكا سبع بطش للمسلمين مملوءة ميرة وذخائر ونفقات، وكانت وصلت من مصر ، وكان دخولها إليه يوم الاثنين ثاني ذى الحجة ، وانكسر

(١) يقصد عكا .

(٢) الأصل : " لا " والتصحيح عن العماد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨١) .

منها مركب على الصخر الذى هو قريب من الميناء ، وانقلب كل من فى البلد من المقاتلة إلى جانب البحر لتلقى البطش وأخذ ما فيها .

ولما علم الفرنج انقلاب المقاتلة إلى جانب البحر زحفوا إلى البلد من جانب البرزخفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار ، وصعدوا فى سلم واحد فاندق بهم السلم ، وتداركهم أهل البلد ، فقتلوا منهم خلقا عظيما ، وضرب البطش بعضها ببعض على الصخر ، فهلك جميع من كان فيها ، وكان فيها ميرة عظيمة ، لو سلمت لكفت البلد سنة كاملة ، ودخل على المسلمين من ذلك وهن عظيم ، وتالم السلطان لذلك تألما عظيما ، وكان ذلك أول علائم أخذ البلد .

ذكر عود الملوك إلى بلادهم

ولما هجم الشتاء وهاج البحر، وأمنت غائلة العدو بسبب تواتر الأمطار واشتداد البرد أذن السلطان للعساكر فى العود إلى بلادها ليأخذوا نصيبا من الراحة ، فسار عماد الدين زنكى — صاحب سنجار — خامس عشر^(١) شوال ، ويعده ابن أخيه معز الدين سنجر شاه بن غازى — صاحب الجزيرة — بعد أن أنعم عليهما بما لم ينعم به على غيرهما .

ثم سار علاء الدين ابن^(٢) صاحب الموصل فى أول ذى القعدة مشرفا مكرما .

ثم سار الملك الظاهر — صاحب حلب — فى المحرم سنة سبع وثمانين .

ثم سار الملك المظفر فى صفر منها .

ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاص .

(١) كذا فى الأصل ، وعند ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٠) : "خامس عشرى"

(٢) الأصل : "علاء الدين وعز الدين صاحب الموصل" وقد صححت بعد مراجعة المراجع السابق .

ذكر بقية الحوادث سنة ست وثمانين

وفي ليلة السابع من ذى الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا ، فانشلم الثغر فبادر الفرنج إليها ، بجاء أهل البلد وسدّوها^(١) بصدورهم ، وقاتلوا [٣٧٤] عليها إلى أن بنوها وعادت أقوى مما كانت .

وفي ثاني عشر ذى الحجة هلك ابن ملك الألمان ، وكُنْدَ عظيم^(٢) من كنودهم ومرض الكندهرى ، وكثر الموت في الفرنج ، فصار يموت كل يوم منهم المائة والمائتان^(٣) ، وحزن الفرنج على ابن ملك الألمان حزنا شديدا ، وأشعلوا نيرانا هائلة بحيث لم يبق لهم خيمة إلا اشتعل فيها النيران والثلاثة .

وأستأمن من الفرنج في هذه المدة خلق عظيم ، أخرجهم الجوع وقالوا للسلطان :
”نحن ننحوض البحر في براكيس“^(٤) ، ونكسب من العدو ، ويكون المكسب بيننا وبين المسلمين .“

فأذن لهم السلطان في ذلك ، وأعطاهم بركوسا ، وهو المركب الصغيرة ، فركبوا فيه ، فظفروا بمراكب لتجار العدو وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة ، وأسروهم وكبسوهم^(٥) ، وأحضروهم بين يدي السلطان ، فأعطاهم جميع ماغنموه ، فلما أكرموا بهذه المكرمة أسلم شطرهم ، وأحضروا مائة فضة وعليها

(١) الأصل : ”وسدوها“ ، والتصحيح عن المرجع السابق ، ص ١٨١

(٢) ذكر العماد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨١) أن هذا كان يقال له : ”كند بنياط“ .

(٣) الأصل : ”المائتين“ .

(٤) الأصل : ”براكيس“ ، انظروا هنا ص ٣٣٧ ، هامش ٢ ، وفي السطر التالي بالمتن

تعريف واضح للبركوس .

(٥) الأصل : ”وكبسوهم“ ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٢) .

مكبة عالية فضة ، ومعها طبق يماثلها في الوزن ، وذلك تقارب في الوزن قنطارا ،
فما أعارها السلطان طرفه .

واستشهد من الأمراء في هذه السنة على عكا سبعة من الأمراء منهم الأمير سوار .
والتقى في هذه السنة شوانى المسلمين بشوانى الفرنج ، فاحترقت للفرنج شوانى
برجالها ، وأحاطت مراكب العدو بشيبي مقدمه الأمير جمال الدين محمد بن
أركان^(١) ، نتواقع ملاحو الشينى إلى الميناء ، فقاتل جمال الدين وصابر ، فعرضوا
عليه الأمان فقال :

” ما أضع يدي إلا في يد مقدمكم الكبير “ .

بخاء إليه المقدم ، فعانقه ولازمه ، ووقعا معا في البحر فغرقا .

واستشهد أيضا الأمير نصر الحميدى .

وورد في هذه السنة كتاب سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب
— صاحب اليمن — يذكر استيلاءه على صنعاء ، وأنه استتاب بها ولده شمس الدولة .

ووصل في ذى الحجة القاضى الفاضل إلى المعسكر المنصور ، وكانت قد طالت
غيبته عن السلطان مدة سنتين .

ودخات سنة سبع [٣٧٥] وثمانين ونعمسمائة والسلطان على شفرع^٢ ، وأخوه
الملك العادل قاطع نهر حيفا^(٢) ، والبدل متصل بالدخول إلى عكا .

وفي أول ربيع الأول من هذه السنة خرج المسلمون من عكا بغنة ، وهجموا
على الفرنج ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأخذوا من خيمهم جمعا عظيما ، منهم
اثنا عشرة امرأة .

(١) كذا في الأصل ، وفي المرجع السابق : ” ارككر “ .

(٢) الأصل : ” حنفا “ والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨١) .

ذكر وصول العساكر إلى المعسكر السلطاني

ولما أقبل الربيع توافقت العساكر وفاء بموعدها ، فأول من قدم الأمير علم الدين سليمان بن جندر — صاحب عزاز وبغراس — ، والملك الأجد بهرام شاه ابن فرخشاه — صاحب بعلبك — ، وبدر الدين مودود — والى دمشق — ، وتواترت الأمراء فنى كل يوم يقدم أمير .

ووصل إلى الفرنج أمداد من البحر ، فوصل ملك افرنسيس فايب^(١) في عدة كثيرة ، وهو من أعظم ملوكهم ، وكانوا يتواءمون به حتى قدم ، وكان الذين قدموا معه في ست بطش ، وكان العدو يتوهم وصوله في أضعاف ذلك ، فلما قدموا وعدهم بالمدد بعده ، ثم قدم بعده كند فرير^(٢) ، وكان مقدما عظيما عندهم وكان حاصر حماة وحارم عام الرملة .

ذكر استيلاء نحر الدين أسامة على سفن الانكلتير

ولما كان السادس والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة وصل ملك الانكلتير ، وهو ملك عظيم من الفرنج إلى قبرص ، واشتغل بسبب أخذها عن الوصول إلى عكا ، وأقام حتى أخذها عنوة من صاحبها ، وكانت مقدمات سفنه قد وصلت ، فاجتازت على بيروت وبها الأمير عز الدين أسامة ، فاستولى على خمس منها مائة رجالا ونساء وأموالا وخيلا ، وكان في الزيب — وهو شمالي عكا — طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة إلى عكا ، ويقطعون الطريق على الفرنج .

(١) الأصل : " نلبث " ، والتصحيح عن المرجع السابق ، ص ١٨٣

(٢) الأصل : " فريد " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

ذكر مضايقة الفرنج بعكا وجدّهم في حصارها

ولما كان يوم الخميس رابع جمادى الأولى من هذه السنة زحف الفرنج إلى عكا، ونصبوا عليها سبعة مناجيق، ووصلت كتب أهل عكا إلى السلطان بالاستنفار العظيم وشغل العدو عنهم، فركب السلطان في العساكر، وكان هذا دأب السلطان كلما زحف العدو إلى البلد، وكانت العلامة بينهم [٣٧٦] وبين السلطان أنه متى زحف العدو عليهم دقوا الكوسات^(١)، فتدق كوسات السلطان إجابة لهم.

ذكر تحويل السلطان إلى تل العياضية

ووصول ملك الانكلتير

ولما اشتدت مضايقة البلد، واستبعد السلطان المنزلة التي هو بها، فحول إلى تل العياضية في تاسع جمادى الأول.

ولما كان الثالث عشر من هذا الشهر وصل ملك الانكلتير من جزيرة قبرص ومعه خمس وعشرون قطعة، هو وأصحابه كلهم شاكون السلاح، فبلى الثغر منه بغير البلاء الأول، ومجانيق العدو مع ذلك توالى الرمي إلى البلد، وتمكن الفرنج من الخندق، وشرعوا في طمه، ورموا فيه جثث الموتى والخنازير والدواب النافقة، وافترق المسلمون فرقتين: فرقة تلقى من الخندق مرمى فيه، وفرقة تقاتل العدو.

(١) اشرح هذا المصطلح راجع: (مفرج الكروب، ج ١، ص ١١، هامش ٢).

ذكر هلاك بطشة المسلمين الواصلة من بيروت

وكان السلطان قد أمر بتعبئة بطشة عظيمة هائلة ببيروت ، مشحونة بالآلات والأسلحة ، والمير والرجال والمقاتلة ، لتدخل إلى عكا ، وكانت عدة المقاتلة بها مائة وخمسين رجلا ، فوصلت إلى عكا في سادس عشر جمادى الأول ، فاعترضها ملك الانكليز في أربعين شانيا ، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها ، واشتد القتال ، فقتل من العدو عليها خلق عظيم ، وأحرقوا من العدو شانيا كبيرا هلك أصحابه عن آخرهم ، وتكاثر الفزع على أهل البطشة ، وكان مقدم المقاتلة بها رجلا شجاعا يقال له " يعقوب " من أهل حلب ، فلما رأى أمارة الغلبة قال :

" والله لا نقتل إلا عن عز ، ولا نسلم إليهم من هذه البطشة شيئا " .

فوقع المسلمون في بطشتهم من جوانبها بالمعاول يهدمونها من كل جانب أبوابا ، فامتلاّت ماء ، وغرق كل من بها من المسلمين ، وهلك ما فيها من المير والآلات ، ولم يظفر العدو منها بشيء أصلا وتلقف العدو بعض من كان فيها ، وأخذوه إلى الشوانى من البحر ، وخلصوه من الفرق ومثلوا به ، وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالواقعة ، فحزن الناس لذلك حزنا شديدا .

ذكر الدبابة التي صنعها العدو وإحراقها

وصنع العدو دبابة عظيمة هائلة ذات [٣٧٧] أربع طبقات : الأولى من الخشب ، والثانية من الرصاص ، والثالثة من الحديد ، والرابعة من النحاس ، وكانت تعلو على السور ، وتركب فيها المقاتلة ، وخاف أهل البلد خوفا عظيما ، وحدثهم

نفوسهم بطلب الأمان من العدو، وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمسة أذرع على ما نشاهد، وواتر أهل البلد رميها بالنفط ليلا ونهارا، فقدر الله تعالى أنها اشتعلت بالنار، وارتفعت لها ذؤابة نحو السماء، واشتدت الأصوات بالتكبير والتهليل، وكان ذلك يوم غرق البطشة.

ذكر هجوم المسلمين على خيم العدو

واتفق أن المسلمين يوما هجموا خيم العدو ونهبوها. ووصل رجل كبير من أهل مازندران يريد الغزاة والحرب قائمة، فحمل حملة استشهد فيها في تلك الساعة، ثم اتفق مرض ملك الانكثير مرضا أشفى منه على الهلكة، وجرح الأفرنسيس، وهرب المركيس إلى صور خوفا من الفرنج، لأنه استشهد منهم أنهم يأخذون صور منه.

ذكر المكاتبه إلى الديوان العزيز

وكتب السلطان إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بإنشاء فاضل منه :
”ما قطع الخادم الخدم، إلا أنه أضجر وأسأم من المطالعة بخبر هذا العدو الذي قد استفحل أمره، واستشر شره. فإن الناس مارأوا ولا سمعوا عدوا حاصرا محصورا غامر معمورا^(١) قد تحصن بخنادق تمنع الجائز من الجواز^(٢)، وتعوق الفُرَص^(٣) عن الانتهاز، ولا تقصر عدتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل، وقد أفناهم القتل والأسر، وأكاتهم الحرب ولفظهم النصر، وقد أمدهم البحر والبحار،

(١) الأصل : ”حاصر محصورا، غامر معمورا“، والتصحيح عن : (الروضتين، ج ٢،

ص ١٨٥).

(٢) الأصل : ”الجوايز“، والتصحيح عن المرجع السابق.

(٣) الأصل : ”الفرص“، والتصحيح عن المرجع السابق.

وأعان أهل النار أهل النار، فاجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية والألسنة
الأعجمية من لا يحصر معدوده ، ولا يتصور في الدنيا وجوده ، فما أحقهم بقول
أبي الطيب :

تجمع فيه كل لسن وأمة فما يفهم الحداث^(١) إلا القراجم

حتى أنه إذا أسر الأسير واستأمن المستأمن ، أحتيج في فهم لغته إلى عدة تراجم ،
ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثان ما يقول أول ، وثالث ما يقول ثان ، والأصحاب
كلوا [٣٧٨] وملوا ، وصبروا إلى أن ضجروا ، وتجادوا إلى أن تبلدوا ، والعساكر التي
تبصل من المكان البعيد لاتصل إلا وقد كلَّ ظهرها ، وقلَّ وقرها ، وضاق بالبيكار
صدرها ، لاتستفتح إلا بطلب الدستور ، ويصير ضجرها مضرا بالسمعة عند العدو
المخدول .

ولهم — خذلهم الله — تنوع في المكيدة ، فإنهم قاتلوا مرة بالأبرجة ، وأخرى
بالمجنقات ، وثالثة بالدبابات ، ورابعة بالكباش ، وأخرى باللوالب ، ويوما
بالنقب ، وليلة بالسرايات^(٢) ، وطورا بطم الخنادق ، وأناة بنصب السلام ، ودفعة
بالزحوف^(٣) في الليل والنهار ، وحالة في البحر في المراكب .

(١) الأصل : " الحداث " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٢) الأصل : " السرايات " ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٥) وعند
(Dozy : Supp. Dict. Arab) أن السربة أو السربة فرقة من الخيالة " troupe de cavalier " ،
وفي (اللسان) : " السربة جماعة يندلون من العسكر فيغيرون ويرجعون ، والسربة الجماعة من الخيل
ما بين العشرين إلى الثلاثين ، وقيل ما بين العشرة إلى العشرين " .

(٣) الأصل : " بالزحف " ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٥)

ثم شرعوا [فأقاموا]^(١) في وسط خيامهم حائطا مستطيلا^(٢) يشبه السور من التراب ، وتلا لا تشبه الأبرجة مدورة ، ورفعوها بالأخشاب ، وعالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قدامها ، وهم يتقدمون أول فأول ، وترتفع حالا بعد حال ؛ حتى صارت منه كنصف غلوة سهم ، وقد كان الجمر والنار يؤثران في أبرجة الخشب ، وهذه أبراج وستائر للرجال ، ومنجنيقات من العطب لا تؤثر فيها الحجارة الرامية ، ولا تعمل فيها النار الحامية “ .

ذكر من وصل من العساكر الإسلامية

وفي آخر جمادى الأولى من هذه السنة وصل مجاهد الدين برتقش ومعه عسكر سنجار .

وفي ثانی جمادى الآخرة وصل ابن عز الدين مسعود — صاحب الموصل — في عسكره ، ووصل علم الدين كرجي ، وسيف الدين سنقر الدووی ، وغيرهما من الأمراء الأسدية في عساكر مصر .

وكان الملك المظفر تقي الدين لما فارق خدمة عمه السلطان ، وتوجه إلى الشرق لتسلم البلاد التي عينت له ، تعرض لبلاد مجاورة ، فكره السلطان ذلك .

وتأخر عسكر ديار بكر من الحجىء إلى الغزاة ، واعتذروا بالخوف من جوار الملك المظفر فقال السلطان :

“هذا من عمل الشيطان ، وفي مثل هذا الوقت يتعرض لما يفضب الله تعالى ، وإني أخاف عليه في هذه السنة “ .

فكان ما سذكه .

(١) ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٢) الأصل : “ مستطيا “ ، والتصحيح عن المرجع السابق .

ذكر مراسلة الفرنج للسلطان شغلا للوقت

وكان ملك الانكلتير قد مرض كما ذكرنا ، واشتدت علته ، فاشتغل [٣٧٩] العدو بذلك مدة عن الزحف ، وكان ذلك خير من الله تعالى ، فإن البلد كان قد ضعف إلى الغاية ، وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة ، ثم تماثل ملك الانكلتير من مرضه ، وراسل السلطان وطلب الاجتماع به ، ثم فتر بعده أياما .
ثم جاء رسوله ^(١) يطلب الاستئذان في إهداء جوارح جاءت من البحر ، وذكر أنها ضعفت وتغيرت ، وطلب أن يحمل لها دجاجا لتتقوى ، ثم تهدي ، ففهم أنه يحتاج إلى ذلك لنفسه ، لأنه حديث عهد بمرض .

ثم نفذ السلطان يطلب أسيرا مغربيا عنده ، فأطلقه للسلطان .

ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج فأرسل ذلك إليه .

وغرضه في هذا كله تفتير العزمات وتضييع الوقت على المسلمين ، وهم مع ذلك مشغولون بمحاصرة البلد ، ومواترة رمية بالمناجيق ، فاشتد ضعف أهل البلد ، وأهلكهم التعب والسهر ، لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم ، والعدو مجتهد في قتالهم ومضايقتهم ، وقد افرقوا فرقا تقاتلهم كل فرقة نوبة ، فبلغ ذلك السلطان فصعب عليه .

ذكر استيلاء الفرنج على عكا

ولما كان يوم الثلاثاء السابع من جمادى الآخرة من هذه السنة ركب السلطان في العساكر الإسلامية ، وقصد الفرنج ، وزحف على خنادقهم حتى دخل فيها

(١) الأصل : "رسولا" ، والتصحيح عن : (الروضين ، ج ٢ ، ص ١٨٦) .

العسكر ، وهو — رحمه الله — كالوالهة الثكلي ، يسير من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد ، وينادي ” يا للإسلام “ ، وعيناه تذرفان الدموع ، ولم يطعم هو ولا الناس في ذلك اليوم طعاما ، وإنما شرب شيئا أشار به الطيب ، ثم عاد إلى نجيحه لما هجم الليل ، ثم ركب سحرا في العساكر ، فأصبحو على ما أمسوا عليه .

ووصلت مطالعة من البلد يخبرون بعجزهم عن مقاومة العدو وأنهم ضعفوا غاية ليس بعدها إلا التسليم ، ويقولون :

” نحن في الغد نسلم البلد ونطلب الأمان إن لم تعملوا معنا شيئا ، ونشترى مجرد رقابتنا “ .

وكان هذا أنكى خبر ورد على المسلمين ، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر ، فرأى السلطان — رحمه الله — مهاجمة العدو ، فلم يساعده العسكر ، فإن الرجالة من [٣٨٠] الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك^(١) والذشاب^(٢) من وراء أسوارهم ، وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم ، فثبتوا وذبوا غاية الذب ، فحكى بعض من دخل عليهم أسوارهم أنه كان واحد من الفرنج صعد سور خندقهم وجماعة يناولونه الحجارة وهو يرمي بها على المسلمين ، فوقع فيه زهاء عن خمسين سهما وحجرا وهو يتلقاها ، ولم يمنعه ذلك عما هو بصدد من الذب ، حتى ضربه زراق بنقط فأحرقه .

ولم تزل الحرب قائمة إلى الليل ، وضعفت نفوس أهل البلد وتمكن العدو من الخنادق فهاووها ، ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه ، فوقعت بدنة من الباشورة ، فدخل العدو إليها وقتل منهم فيها زهاء عن مائة وخمسين نفسا ، وكان منهم ستة أنفس من كبارهم ، فقال لهم واحد منهم : ” لا تقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية “ ، فبادر رجل من الأكراد فقتله وقتل الخمسة الباقية .

(١) راجع ما فات هنا ص ٢٤٤ ، هامش ١

(٢) راجع ما فات هنا ص ٢٦٢ ، هامش ١

وفي الغد ناداهم الفرنج :
” احفظوا الستة فإننا نطلقكم كلكم بهم “ .

فقالوا :
” قد قتلناهم “ .

فخزنوا الفرنج ، وبطلوا الزحف ثلاثة أيام .

ونخرج الأمير سيف الدين المشطوب بأمان إلى ملك الافرنسيس وقال له :
” إنا قد أخذنا منكم بلادا عدة ، وكنا نهدم البلد وندخل فيه ، ومع هذا إذا
سألونا الأمان أعطيناهم ، وحملناهم إلى مأماتهم ، وأكرمناهم ، ونحن نسلم البلد
وتعطينا الأمان على أنفسنا “ .

فقال :
» أرى فيكم رأي « .

فأغلظ له سيف الدين القول وانصرف عنه .

ولما دخل سيف الدين بهذا الخبر خاف جماعة ممن كان في البلد ، فأخذوا لهم
بركوسا^(١) ، وركبوا فيه ليلا خارجين إلى المعسكر الإسلامي ، منهم : عز الدين أرسل ،
وحسام الدين تمرناش بن الجاولي ، وسنقر الوشاق الأسدي ، [فأما أرسل وسنقر]^(٢)
فتغيبا خوفا من السلطان ، وأما ابن الجاولي فظفر به^(٣) ، فرمى في الزرد خاناه^(٤) ،
فقطع السلطان إقطاعه وبغرا^(٥) عليهم .

(١) الأصل ، ” تركوسا “ ، انظر ما فات هنا ص ٣٣٧ ، هامش ٢

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٧) :

(٣) الأصل ، ” نظفر بابن الجاولي فرمى “ ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٤) معنى هذا اللفظ أصلا خزانة الزرد أو خزانة السلاح بوجه عام ، ولكنها هنا تعني نوعا من

السجون يسجن فيه كبار الأمراء أو علية القوم ، راجع أيضا (Dozy : Supp. Dict. Arab)

(٥) كذا بالأصل ولا يتسق بها المعنى ، والنص في الروضتين : ” فأقطع السلطان إقطاعه وقطعها ،

وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهها ومنعها “ .

وهرب أيضا عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية [الناصرية] ^(١) فشفع فيه على أنه يضمن على نفسه بالعود ، فعاد في ليلته ، وأسر [بعد ذلك] ^(١) واستفكه السلطان بثمانمائة دينار .

وركب السلطان يوم الخميس [٣٨١] تاسع جمادى الآخرة مشعرا أنه يريد كبس القوم ، ومعه المساحي وآلات طم الخندق ، فمساعدته العسكر على ذلك ، وتخاذلوا وقالوا : ” نخاطر بالإسلام كله ” .

ونخرج رسل من ملك الانكليز ثلاثة ، وطلبوا فاكهة وثلجا ، وذكروا أن مقدم الاستبارية يخرج من الغد يتحدث ويتحدثون معه في الصلح ، فأكرمهم السلطان ، ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه ، وعادوا إلى معسكرهم .

وتقدم السلطان إلى الأمير صارم الدين قايمار النجمي أن يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم عليهم ، فترجل جماعة من الأكراد من أسرائهم ولقيفهم ، كالجنح أنحى سيف الدين المشطوب ، [وزحفوا] ^(١) حتى بلغوا أسوار الافرنج ، ونصب قايمار النجمي علمه على سورهم ، وقاتل عن العلم قطعة من النهار .

ووصل في هذا اليوم عز الدين جرديك النورى والزحف قائم ، فترجل هو وجماعته ، وقاتل قتالا شديدا ، وبات ليلة الجمعة على ظهور الخيل .

وعلم السلطان أنه لاسلامة لمكا ، فانفذ إليهم جماعة سرا ، وقال لهم :

” خنوا حذرکم من العدو ، واتفقوا وخرجوا ليلا من البلد يدا واحدة ، وسيروا على جانب البحر ، واتركوا البلد بما فيه ” .

فشرعوا في ذلك ، واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه ، فما تمكنوا من المراد حتى أسفر الصباح ، وظهر سرهم ، فلم يتم لهم هذا الأمر ، وحرس الفرنج سائر الجوانب .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٧) .

ولما كان يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة جاءت رسل الفرنج إلى السلطان ، ومنهم صاحب صيدا يطلب نجيب الدين العدل ، وكان مؤهلا للرسالة بين السلطان وبينهم ، وعزل السلطان في سماع الرسالة على ولده الملك الأفضل وأخيه الملك العادل ، وتردد العدل مرارا بينهم وبين السلطان فلم ينفصل بينهم أمر ، وبذل لهم السلطان عكا على ما فيها دون من فيها ، على أن يطلق لهم أسرى بعدتهم .

وذكر عماد الدين الكاتب :

أن ذلك كان يوم السبت ، واشترط الفرنج إعادة جميع البلاد ، وإطلاق جميع أسراهم .

ولما كان يوم الأحد ثاني عشر جمادى الآخرة وصل من البلد كتب يقولون فيها :

”إنا قد تبايعنا على الموت ، فلما كنتم أن تخضعوا للعدو وتنبؤوا لهم ، فلما نحن قد فات أمرنا“ .

[٣٨٢] ووصل الأمير سابق الدين بن الداية — صاحب شيزر — ، وبدر الدين دلدريم — صاحب تل بآخر — ، ومعه خلق كثير من التركمان ، وكان السلطان أنفذ إليه ذهبا لينفقه فيهم .

ووصل الملك المجاهد — صاحب حمص — ، واشتد ضعف البلد ، وكثرت ثور سوره ، فبنوا عوض الثلثة^(١) سورا من داخلها .

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة خرج العوام ومعه كتب فيها :

”أن أهل البلد ضاق بهم الأمر ، وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم ، وأنهم قد صالحوا الفرنج على أنهم يسلمون إليهم البلد بما فيه من الآلات

(١) الأصل : ”الثلثة“ ، والتصحيح عن العماد : (الروضتين ، ج ٢ ص ١٨٨) .

والعدد والمراكب ، ومائتي ألف دينار ، وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال ، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم ، وصليب الصلبوت ، على أنهم يخرجون بأنفسهم سالمين ، وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذرائعهم ونسائهم ، وضمنوا للمركيس — وكان قد استرضاه الفرنج — وأوعده بعشرة آلاف دينار ، لأنه المتوسط بينهم وبين أهل البلد ، ولأصحابه أربعة آلاف دينار “ واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج .

ولما وقف السلطان على ذلك أنكره وأعظمه ، وعزم على أن يكتب إليهم في إنكار ذلك عليهم ، فهو في مثل هذا الحال وقد جمع أمراءه وأصحابه للمشورة ، فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصائبانهم وشعارهم على أسوار البلد ، وذلك ظهر نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من هذه السنة ، وصاح الفرنج صيحة واحدة ، وعظمت المصيبة على المسلمين ، وانحصر كلام أهل الإيمان في تلاوة : ” إنا لله وإنا إليه راجعون “ ، وارتفع البكاء والعيول في عسكر الإسلام .

ودخل المركيس — لعنه الله — البلد ، ومعه أربعة أعلام لللوك ، فنصب علما على القاعة ، وعلما على مئذنة الجامع ، وعلما على برج الداوية ، وعلما على برج القتال ، عوضا عن علم الإسلام ، وحيز [المسلمون] ^(١) إلى بعض أطراف البلد .

قال القاضي بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — :

ومثلت بخدمة السلطان عشية ذلك اليوم ، وهو أشد حالة من الوالهة الثكلي الحيرى ، فسليته بما تيسر من التسلية ، وأذكرته الفكر فيما استقبله [٣٨٣] من الأجر في معنى البلاد الساجلية والقدس الشريف ، وكيفية الحال في ذلك ، وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد ، وانفصل الأمر على أن رأى التأخير عن تلك المنزلة مصلحة ، فإنه لم يبق غرض في المضايقة ، فتقدم بنقل الأثقال ليلا إلى المنزلة التي كان عليها أولا بشفرعم ، وأقام هو جريدة مكانه لينظر ماذا

(١) ما بين الحاصرتين عن الهاد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٨) .

يكون من أمر العدو وحال أهل البلد، وانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح .
فاشتغل العدو بالاستيلاء على البلد ، وأقام السلطان إلى التاسع عشر ، ثم انتقل
إلى الثقل^(١) ، ووصل إلى السلطان ثلاثة نفر ومعهم أقوش — حاجب^(٢)
بهاء الدين قراقوش — مستنجزين ما وقع عليه عقد الصلح من المال والأسرى ،
وأقاموا تلك الليلة ، وساروا إلى دمشق ينتظرون الأسرى .

ذكر مراسلة السلطان لملك المغرب

وكان السلطان قد راسل المنصور أبا يوسف يعقوب بن يوسف بن
عبد المؤمن الخليفة بالمغرب مستنجدا به على عدو الدين^(٣) ، وكان الرسول إليه
شمس الدولة بن منقذ ، فلما ملك العدو عكا وجرى ما ذكرناه كتب السلطان
إلى شمس الدولة بالإنشاء الفاضلي يستحثه على العود بالنجدة ، ويعرفه الواقعة ،
ومنه :

” لقد تجاوزت عدة من قتل على عكا — يعني من الفرنج — الخمسين ألفا^(٤) ،
قولا لا يطرقه التسمع ، بل يحززه^(٥) التصفح ، فأنبرى في هذه السنة ملكا فرنسيس

(١) الأصل : ” الحقل ” ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٨) .

(٢) الأصل : ” صاحب ” ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) توجد نصوص كثيرة من الرسائل المرسلة من صلاح الدين إلى السلطان أبي يوسف ، وإلى رسوله
إليه شمس الدولة بن منقذ في : (صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٥٢٦ — ٥٣٠) و (الروضتين ، ج ٢
ص ١٧٠ — ١٧٨) فراجعها هناك ، وفي قسم الملاحق بآخر هذا الجزء .

(٤) الأصل : ” ألف ” ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٨) .

(٥) الأصل : ” لا يبطئه التسمع بل تحريره التصفح ” ، والتصحيح عن المرجع السابق .

وانكثير وملوك آخرون في مراكب بحرية، وحمالة^(١) حملوا فيها الخيول والخيالة،
والمقاتلة والآلة ، ووصلت كل سفينة تحمل مدينة ، وأحدثت بالثغر ، ومنعت
الناقل بالسلاح إليه ، والداخل بالميرة عليه .

فصل : وأخذوا البلد على سلم كالحرب ، ودخله العدو ، ولو لم يدخل من الباب
لدخل من النقب ، وما وهنا لما أصابنا في سبيل الله ، وما ضعفنا ولا رجعنا
ورانا ، ولا انصرفنا ، بل نحن في مكاننا ننتظر أن يبارزوا فنبارزهم^(٢) ، أو يخرجوا
فنتأجرهم ، أو ينتشروا فنطويهم ، أو ينبثوا فتزويهم ، وأقمنا على طرقهم ، رخيما
على مخنقهم ، وأخذنا بأطراف^(٣) خندقهم ، [٣٨٤] وأحوج ما كنا الآن إلى النجدة
البحرية ، والأساطيل المغربية ، فإن عاريتنا بها ترد ، وعاديتنا بها تشتد .

والأمير يبلغ ما بلغه من خطب الإسلام وخطوبه ، ويقوم في البلاغ يوم الجمعة
مقام خطيبه ، ويعجل العودة وقبلها الإجابة ، ويستصحب السهم ويسبق بشرى
الإصابة ، ويشعر بأن الراية قد رفعت لنصر تقدم به عرابه ، فإن للإسلام نظرات
إلى الأفق الغربي يقلبها^(٤) ، وخطرات من اللطف الخفى يقربها ، ويكفى من
حسن الظن أنها نظرة ردت الهواء الشرقى غربا ، وخطرة أوهمت أن تلك المهمة
لو تلم بالسفائن لأخذت كل سفينة غصبا .

(١) راجع ما فات هنا ص ١٣ ، هامش ٢

(٢) الأصل : " فبرز إليهم " ، والتصحيح عن المرجع السابق ، ص ١٨٩

(٣) الأصل : " طراز خندقهم " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٤) الأصل : " قبلها " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

ذكر ما جرى عليه الحال في أمر أسارى المسلمين

وما تجدد من حوادث

لما تسلم الفرنج عكا لم يقفوا على الشرائط التي اشترطوها المسلمون ، فاحتاطوا عليهم ومنعواهم من الخروج ، ثم أخذوا أموالهم وحبسواهم ، وعزم ملك افرنسيس على المسير إلى بلاده لأمر اختل عليه ، فأخذ قسما من الأسارى ، وسلمهم إلى المراكيس ، ووكله في قبض نصيبه .

ونخرج الفرنج يوم الخميس سلخ جمادى الآخرة من جانب البحر ، وانتشروا بالمرج ، ووصلوا إلى الآبار التي حفرها اليزك ، وتواقعوا مع اليزك ، وأمدهم السلطان ، فكسرهم المسلمون ، وألحقوهم بخنادقهم ، ولم تزل الرسل تتردد بين السلطان وبينهم إلى يوم الجمعة تاسع رجب ، فخرج حسام الدين حسين بن تازيك المهراني ، ومعه اثنان من أصحاب الإنكار ، فأخبر أن ملك الافرنسيس صار إلى صور ، وذكروا شيئا من أمر الأسارى ، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصليوت ، وأنه هل هو في العسكر أو حمل إلى بغداد ، فأحضر صليب الصليوت ، فشاهدوه وعظموه ، ورموا نفوسهم إلى الأرض ، ومرغوا خدودهم على التراب ، وذكروا أن الملوك قد أجابوا السلطان إلى أن يكون ما أوقع عليه القرار أن يدفع في نجوم ثلاث ، كل نجم في شهر .

ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة حتى حصل لهم ما التمسوه من الأسارى والمال المختص بذلك النجم [٣٨٥] وهو : الصليب ومائة ألف دينار ، وستمائة أسير ، وأنفذوا ثقاتهم^(١) ، وشاهدوا الجميع ما عدا الأسارى المعينين من جانبهم ، فلأنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ، ولم يكلموهم حتى يحصلوا ، ولم يزالوا يناولون ويقضون الزمان حتى انقضى النجم الأول في ثامن عشر رجب .

(١) كذا في الأصل ، وعند ابن شداد — الأصل المتقول عنه هنا — : ” ثباتهم ” .

ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطابون ذلك ، فقال لهم السلطان :
 «إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا ، وتسلموا الذي عيّن لكم في ذلك النجم ،
 ونعطيكم رهائن على الباقي تصل إليكم في هجومكم الباقية ، وإما أن تعطونا رهائن
 على مانسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا» .

فقالوا :

«لأنفعل شيئا من ذلك ، بل تسلمون ما يقتضيه هذا النجم ، وتقنعون بأماننا
 حتى نسلم إليكم أصحابكم» .

فأبى السلطان ذلك ، لعلمه أنهم إن تسلموا الصليب والأسرى وأصحابنا عندهم
 يؤمن غدرهم ، فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم مبرزين
 في الحادى والعشرين من رجب .

وخرج الانكليز وجماعة من الخيالة والتُرْكُيُّ^(١) ، وركبوا في وقت العصر
 السابع والعشرين من رجب ، وساروا حتى أتوا إلى الآبار التي تحت تل
 العياضية ، ثم أحضروا من الأسارى المسلمين من أراد الله تعالى شهادته^(٢) ،
 ووقفهم وحملوا عليهم فقتلوهم صبّرا ، واليزك الإسلامى يشاهدهم ولا يعلمون
 ما يصنعون لبعدهم عنهم ، وكان اليزك قد أنفذ إلى السلطان وأعلمه بركوب
 القوم ، فأنفذ إلى اليزك من قوّاه ، وبعد أن فرغوا منهم حل المسلمون عليهم ،
 وجرت بينهم حرب عظيمة ، جرى فيها جروح كثيرة وقتل من الجانبين .

وأصبح المسلمون فوجدوا المسلمين الشهداء في مواضعهم صرعى ، وعرفوا
 من عرفوا منهم ، ولم يبق العدو من المسلمين إلا رجلا معروفا مقدّما ، أوقويا له
 يد للعمل في عمائرهم ، وتصرف السلطان في المال ، وأعاد الأسارى إلى أربابها .

(١) الأصل : «التوكيل» ، وقد صححت بعد مراجعة : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٩) ،

ولشرح اللفظ راجع ما فات هنا ص ١٤٩ ، هامش ١

(٢) بعد هذا اللفظ في الروضتين : «وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الجبال» .

ذكر رحيل المسلمين والفرنج نحو عسقلان

والحرب التي جرت بينهم

ولما استهل شعبان من هذه السنة [٣٨٦] أصبح الفرنج سائرين نحو عسقلان ، وسار السلطان في الجيوش الإسلامية في عراضهم يقتلون منهم ويأسرون ويخرجون ، وكلما أتى السلطان منهم بأسير أمر بقتله ، ووصل الفرنج إلى حيفا فأقاموا بها ، ونزل السلطان بالقيمون ، وقدم السلطان ثقله إلى مجدليابة ، وأضفى نازلا على النهر الجاري إلى قيسارية ، وودعه القاضي الفاضل ، وسار إلى دمشق ليقوم بها مقام السلطان في تنفيذ الأمور .

وفي تاسع شعبان وصل الخبر إلى السلطان بأن الفرنج قد ركبوا وساروا بفارسهم وراجلهم في الساحل ، ومراكبهم تحاذيهم ، ورجالتهم مستديرون حولهم كالسور ، عليهم الكبور^(١) الذخينة ، والزرديات السابغة المحمكة بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون ، وهم يرمون بالزنبورك^(٢) فيخرجون خيول المسلمين .

قال القاضي بهاء الدين بن شداد :

”لقد شاهدتهم وفي ظهروا الواحد منهم الذنابة والعشرة مفروزة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج ، وثم قسم آخر من الرجال مستريح يشون على جانب البحر ، لا قتال عليهم ، فإذا تعب هؤلاء وأثنى الجراح قام مقامهم القسم المستريح ، واستراح القسم العمال ، هذا والخيالة في وسط الرجال لا يخرجون عنهم إلا وقت

(١) الكبور — واجمع كبور — نوع من القباء الذي يتخذ للرب ، جاء في (اللسان) : ”الْقُرْدُمَانِي“ قباء محشو يتخذ للرب ، فارسي مرب ، يقال له ”كَبْر“ بالرومية أو النبطية . انظر أيضا : (الجواليق : الحرب ، ص ٢٥٢) .

(٢) راجع ما فات هنا ص ٢٤٤ ، هامش ١

الحملة لا غير ، وقد اقساموا ثلاثة أقسام : الملك العتيق جفرى ، وجماعة الساحلية معه^(١) في المقدمة ، والانكليز والافرنسيه في الوسط ، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى في الساقة ؛ و برج القوم في وسطهم كالمنارة^(٢) العظيمة على عجلة .

وسار السلطان في جيوشه^(٣) ، وسوق الحرب قائمة بين الفريقين ، والمسلمون يرمون من جوانبهم بالنشاب ، وهم يسرون سيرا رفيقا ، إلى أن أتوا المنزل فزلوا ، وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة ، فإن المستريحين منهم كانوا يحملون أنقالهم وخيمهم لقلة الظهر عليهم ، وطاف الجاليش^(٤) حولهم ولزؤهم بالنشاب ، وكما ضعف قسم عاونه الذى يليه وهم يحفظ بعضهم بعضا ، والمسلمون [٣٨٧] يرمونهم من ثلاثة جوانب .

قال القاضى :

ورأيت السلطان وهو يسير بنفسه بين الجاليشية ونشاب القوم يتجاوزه ، وليس معه إلا صبيين بجنبيين لا غير ، وهو يسير من طُلب إلى طُلب^(٥) يحثهم على التقدم ، ويأمرهم بمضايقة القوم ، وجرت حملات كثيرة ، ورجالهم تخرج المسلمين وخيالتهم بالزنبوركة^(٦) والنشاب ، إلى أن أتوا نهر القصب فزلوا عليه وقت الظهر ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم ، وكان قتل في ذلك

(١) الأصل : "معهم" ، والتصحيح عن : (الروضين ، ج ٢ ، ص ١٩٠)

(٢) النص في الروضتين : "وفي وسط القوم برج على عجلة ، وعليهم على ما وصفته من قبل يسير أيضا في وسطهم على عجلة كالمنارة العظيمة"

(٣) بعد هذا اللفظ في الأصل كلمتا : "سارواهم" ، ولا ضرورة لها فحذفناهما .

(٤) راجع ما فات هنا ، ص ٤١ ، هامش ١

(٥) راجع ما فات هنا ، ص ٥٩ ، هامش ٣

(٦) راجع ما فات هنا ، ص ٢٤٤ ، هامش ١

اليوم أياز الطويل من ممالك السلطان ، وكان من المشهورين بالبأس والشجاعة ، وسبب قتله أن فرسه تقنطربه فاستشهد ، ودفن على تل هناك ، وقتل عليه مملوك له .

ونزل السلطان بالثقل على البركة ، ثم رحل بعد العصر ، فقتل على نهر القصب أيضا ، فكان المسلمون يشربون من أعلاه ، والفرنج يشربون من أسفله ، وبينهم مسافة يسيرة ، وبات الفريقان هناك .

ثم رحل السلطان وعبر شعراء أرسوف ، ونزل على قرية تعرف بدير الراهب ، فطلب ملك الانكليز الاجتماع بالملك العادل خلوة ، فاجتمعا ، فأشار بالصلح ، وكان حاصل كلامه : ” أنه قد طال بيننا القتال ، ونحن جثنا في نصرة أصحاب الساحل ، فاصطلحوا أتم وهم ، وكل منا يرجع إلى مكانه .

فقال الملك العادل :

” على ماذا يكون الصلح ؟ ” .

فقال :

” على أن يسلم إلى أهل الساحل ما أخذتم من البلاد ” .

فأبى الملك العادل ذلك ، وأخبره أن دون ذلك قتل كل فارس وراجل ، فرجع مغضبا .

ذكر وقعة أرسوف

ولما كان يوم السبت رابع عشر شعبان تأهب المسلمون للقاء الفرنج ، وأزعجهم وضايقوهم ، فلما رأى الفرنج منازل بهم من الضائقة اجتمعوا وحملوا حملة واحدة .

قال القاضي بهاء الدين :

لقد رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة ، وأخذوا رماحهم ، وصاحوا صيحة واحدة ، وفرج لهم رجالتهم ، فحملوا من جميع الجوانب ، فأنكشف المسلمون من بين أيديهم ، ولم يبق في طُأب السلطان إلا سبعة عشر مقاتلاً^(١) ، والأعلام باقية ، والكوسات^(٢) تدق لا تفتر ، فلما رأى السلطان [٣٨٨] ما نزل بالمسلمين سار حتى أتى طُلبه ، فوقف فيه والناس يفرون من القتال ، وكلما رأى فاراً^(٣) من الحرب يحضره عنده ، فاجتمع في الطُأب خلق عظيم ، ووقف العدو في مقابلتهم على رؤوس التلول والروابي ، وخاف العدو أن يكون في الشعرا كمين ، وكان يومئذ مع السلطان صارم الدين قايماز النجمي وعسكر الموصل ، فندبهم السلطان لقتال العدو ، وركب العساكر على العدو ، وجرت بهم مقتلة عظيمة ، وقتل من العدو كند عظيم ، وقاتل دون جماعة من مقدميهم فما قتل حتى قتلوا ، والتجأ العدو إلى جدران أرسوف ، ولولا ذلك لاستأصلوا .

وجلس السلطان ينتظر عود الناس ، وأحضرت إليه الجرحى ، فتقدم بمداواتهم ، وجرح من الطائفتين جمع كثير ، وصدم يومئذ الملك الأفضل نور الدين ولد السلطان ، وانفتح دمل كان في وجهه ، وسال منه دم كثير ، وأحضر بين يدي السلطان ، وأخذ من أسرى الفرنج أسيراً فضرب عنقه .

(١) الأصل : « سبعون رجلاً مقاتلاً » ، والتصحيح عن : (ابن شداد ، السيرة ، ص ١٧٦) .

(٢) راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ص ١١ ، هامش ٢) .

(٣) الأصل : « فار » ، والتصحيح عن المرجع السابق .

ذكر وصول السلطان إلى عسقلان وتخريبه لها

ثم رحل السلطان تاسع عشر شعبان ونزل بالرملة ، ورحل منه ليلا وأصبح على تبنّي ، ثم رحل منها إلى عسقلان بعد العصر ، وكان لما نزل أحضر أخاه الملك العادل وأكابر الأمراء ، وشاورهم في تخريب عسقلان ، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بتخريبها للمعجز عن حفظها ، ووافقت الجماعة على ذلك ، وقالوا :

« هذه يافا قد نزل العدو بها ، وهي مدينة متوسطة بين عسقلان والقدس ، ولا سبيل إلى حفظ المدينتين معا ، فاعمد إلى أشرفهما فخصنه » .

فاقتضت الآراء إقامة الملك العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء ، حتى إذا تحول العدو كانوا منه على علم .

ولما نزل السلطان بعسقلان وعزم على خرابها اهتم لذلك وكثر حرقه .

قال القاضي بهاء الدين :

« ما نام تلك الليلة إلا قليلا ، ولقد دعاني إلى خدمته سحراً ، وكنت قد فارقت بعد مضي نصف الليل ، فحضرت ، وبدأنا الحديث في معنى خرابها ، وأحضر ولده الملك الأفضل ، وشاوره في ذلك ، وطال الحديث ، ولقد قال - رحمه الله - : والله لئن أفقد أولادي بأسرهم أحبّ إلى من أن أهدم منها حجرا واحدا ، ولكن إذا قضى الله تعالى [٣٨٩] بذلك ^(١) وعرفته بحفظ مصلحة المسلمين طريقا ، فكيف امتنع ^(٢) ؟ » .

ثم شرع في خرابها ، ووضع أبراجها على الأمراء ، ووقع الناس في الضجيج والبكاء ، وكان بلدا خفيفا ، يحكم الأسوار ، عظيم البناء ، مرغوبا في سكناه ،

(١) النص عند ابن شداد في : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٢) : « وعبه لحفظ مصلحة

المسلمين طريقا فكيف أصنع » .

وكان هو وولده الملك الأفضل يحثان الناس على الخراب خشية^(١) أن يسمع العدو فيحضر ولا يمكن من خراب البلد ، ولم يزل الخراب والحريق يعمل في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان .

ووصل كتاب من عز الدين جرديك يذكر أن القوم تفسحوا ، وصاروا يخرجون من يافا ، ويغيرون على البلاد القريبة منها ، فلو تحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضا في غرتهم ، فعزم على الرحيل على أن يترك في عسقلان حجارين ، ومعهم خيل تمهيم^(٢) ويستنمضونهم^(٣) في الخراب ، ثم رأى أن يتأخر حتى تخرب ويحرق البرج [المعروف]^(٤) بالاسبتار ، وكان برجا عظيما ، تخربه بعد حشوه وإحراقه .

وعمر الفرنج يافا ، وحصنوا أسوارها .

ذكر رحيل السلطان عن عسقلان إلى جهة الفرنج

وما جرى بينه وبينهم من الحرب والمراسلة

ثم رحل السلطان عن عسقلان بعد خرابها يوم الثلاثاء ثاني رمضان ، ونزل على تبنى^(٥) ، ثم نزل على الرملة يوم الأربعاء ثالث رمضان ، وأمر بتخريب

(١) بهذا اللفظ تبدأ ص (١١٢٤) من نسخة م ، وبذلك تلتق مع النسخة الأصلية مرة أخرى .

(٢) الأصل : « تحتهم » ، والتصحيح عن : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ١٨١) .

(٣) الأصل : « ليستقصوا » ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن م و (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ١٨١) .

(٥) الأصل : « بيتنا » و « ماما » بدون نقط ، وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٢) « تبتنا »

وقد صححت وضبطت بعد مراجعة : (ياقوت : معجم البلدان) حيث قال إنها بلدة بحوران من أعمال دمشق .

حصنها ، وتخریب كنيسة لد^(١) ، وركب جريدة إلى البيت المقدس ، فاتاه يوم الخميس وخرج منه يوم الإثنين ثامن رمضان ، وبات في بيت نوبة ، وعاد إلى المخيم يوم الثلاثاء تاسع رمضان .

ووصل معز^(٢) الدين قيصر شاه بن قاچ أرسلان — سلطان الروم — مستنصرا بالسلطان على أبيه وإخوته ، فإنهم قصدوا أخذ بلده منه ، وكان بيده ملطية ، فأقام في الخدمة السلطانية مدة ، وتزوج ابنة الملك العادل على صداق مائة ألف دينار ، ثم سار مستهل ذي القعدة من هذه السنة^(٣) .

في ثامن^(٤) رمضان خرج جمع من المسلمين على ملك الانكليز ، وكان خرج في فوارسه مخفراً للخطابة والحشاشة ، وكاد يؤخذ الملك ، لكن فداه أحد خواصه بأن أظهر حسن لباسه ، فظن أنه الملك فأسر^(٥) .

وفي ثاني^(٦) عشر رمضان وقعت وقعة بين المسلمين والفرنج كان النصر فيها للمسلمين ، وقُتل مقدّم كبير من الفرنج ، ووقعت وقعات كثيرة بينهم وبين اليزك [٣٩٠] ، ثم رحل السلطان إلى النظرون ، فحُجِم على تل هناك ، فأمر بهدم حصن النظرون ، فهُدِم .

(١) الأصل : "له" وس : "لها" ، وما هنا عن العماد (المراجع السابق) و (ابن شداد ، ص ١٨٢) .

(٢) الأصل : « نصر » ، والتصحيح عن : (ابن شداد ، ص ١٨٢) و (الروضتين ، ج ٨ ص ١٩٢) .

(٣) بعد هذا اللفظ في س : "وقد أمن من أخوته وغيرهم لأنه راح معه كتب يتهديد وروبه وعسكر كثير" .

(٤) س : "عائز" وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٢) .

(٥) بعد هذا اللفظ في س : "ونجا الملك ، فأفداه الملك الانكليز بأن ألف دينار وثمانية من أسارى المسلمين أطلقهم" .

(٦) س : "وفي ثامن عشر" ، وما هنا يتفق ونص العماد (المراجع السابق) .

ثم راسل ملك الانكلتير الملك العادل راغياً في المسئلة والمصالحة ، ورعم أن له أختاً عزيزة عليه كبيرة القدر . وأنها كانت زوجة ملك كبير من ملوكهم . — وهو صاحب صقلية — توفي عنها ، ورغب في أن يزوجه الملك العادل . يجعل له الحكم في جميع البلاد الساحلية ، ينفذ فيها أمره ، وهو يقطع الداوية الاسبتارية ما أراد من البلاد والقرى دون الحصون ، وتكون أخته مقيمة بالقدس ومعها قسيسون ورهبان في صحبتها .

فرأى ملك العادل ذلك ممصلحة ، وشاور السلطان في ذلك فأجابه إليه ، ونفذ رسوله إلى الانكلتير بالإجابة ، فدخل الفرنج إلى المرأة وخوفوها ، وأعلموها أن ذلك قبيح ومخالف للشريعة ، وفيه عصيان للشيخ وإغضاب له ، فما أجابت ، واعتذر الانكلتير بعد ذلك بعدم موافقتها ، إلا أن يدخل الملك العادل في دينها^(١) .

ووصل رسول المراكيس — صاحب صور — يذكر أنه يصالح بشرط أن يُعطى صيداويروت ، وشرط على نفسه مجاهرة الفرنج بالعداوة ، وأنه يقصد عكا ويحاصرها ويستخلصها للمسلمين ، فأجيب إلى ذلك على أن يطلق من بها ومن بصور ، ولما سمع الانكلتير بذلك رجع إلى عكا لفسخ هذه المصالحة واسترجاع المراكيس إليه . ثم ورد الخبر أن ملك الافرنسيس مات بأنطاكية^(٢) .

ثم راسل الانكلتير السلطان :

”أن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، ونحربت البلاد وتلفت الأموال والأرواح ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب ؛

(١) بعد هذا اللفظ في س : ” فصفح الملك العادل عن ذلك الأمر “ ، وبعده في العاد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٣) : ” نعرف أنها خديعة كانت من الإنكلتير “ .
 (٢) بعد هذا اللفظ في س (١٢٤ ب) : ” فوهن الانكلتير لذلك “ .

والقدس متعبدا ما نزل عنه ولو لم^(١) يبق منا واحد ، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن ، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له ، وهو عندنا عظيم ، فيمن السلطان علينا ، ونستريح من هذا العناء الدائم“ .

فأرسل السلطان في جوابه :

”القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فلما نه مسرى نبينا ، ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن تنزل عنه ، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، أما البلاد فهي لنا في الأصل ، واستيلائكم كان [٣٩١] طارئا عليها ، لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قرينة عظيمة ، ولا يجوز لنا أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها“ .

وهرب في تلك المدة شيركودين باخل الكردي ، وهو من جملة الأسارى الذين كانوا بعكا إلى السلطان^(٢) .

ثم ورد الخبر على عزم النهوض من الفرنج ، فسار السلطان من الخيم بالنظرون إلى الرملة في سابع شوال من هذه السنة ، فأقام بها عشرين يوما ، ووجرت وقعات بينه وبين العدو ، منها وقعة في ناحية يازور ، وكان النصر فيها للمسلمين ، ولم يقتل من المسلمين غير ثلاثة ، وكانت ثامن شوال .

وفي سادس عشر شوال وقعت وقعة عظيمة قتل فيها جماعة من الأمراء ، وأسرف فيها فارسان من الفرنج معروفان ، وقتل منهم بها [زهاء عن]^(٣) ستين نفرا ،

(١) الأصل وس : ”والقدس مستعبدا ما ينزل عليه ولم يبق منا واحد“ وهي جملة مضطربة والتصحيح عن الأصل المقول عنه هنا هو : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ١٨٧) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٣) .

(٢) بعد هذا اللفظ في س : ”وكان من الأمراء الكبار“ .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٤) .

وكان وصل الخبر في خامس شوال بأن الأسطول المصرى استولى على مراكب الفرنج ، ومنها مُسَطَّح^(١) ذكر أن كان فيه خمسة مائة نفر ، وما يزيد عليه ، وقتل منهم خلق كثير ، واستبقى منهم أربعة مذكورون .

ولما كان الثامن عشر من شوال اجتمع الملك العادل والانكثير على طعام ومحادثة ، فطلب الانكثير منه أن يجتمع بخدمة السلطان ، فامتنع الملك العادل وقال : ” الملوك إذا اجتمعوا تقبح ”^(٢) بينهم المخاصمة بعد ذلك ، وإذا انتظم أمر حسن الاجتماع ”^(٣) .

ذكر رحيل السلطان — رحمه الله — إلى القدس ومقامه به

ولما كان ثالث ذى القعدة رحل الفرنج إلى الرملة ، وأظهروا قصد بيت المقدس ، ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم ، ثم رحل السلطان إلى القدس بنية المقام [فيه]^(٤) وذلك لسبع بقين من ذى القعدة ، وكان الشتاء قد دخل واتصلت الأمطار ، فوصل إلى القدس ، ونزل بدار الأقساء^(٥) مجاور كنيسة قمامة .

(١) المسطح — واجمع مسطحات — نوع من السفن الحربية الكبيرة ، ويتضح من النص هنا أنها كانت تسع ٥٠٠ راكب أو تزيد ، وقد ذكرها (ابن عماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٤٠) بعد ” الساندى “ ، وقال : ” وهو فى معناه “ أى أنه شبيه به ، وقد عرفه دوزى (Dozy : Supp. Dict. Arab.) بأنه نوع من السفن ولم يزد ، غير أنه حاول أن يفسر معنى اللفظ فقال إنه يعنى نوعا من السفينة ذات السطح : (sorte de navire, peut-être un navire qui a un pont, un tillac). راجع مخطوطتنا (معجم السفن العربية) .

(٢) الأصل رس : ” اقتنع “ ، وما هنا عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٤) .

(٣) بعد هذا اللفظ فى رس (١٢٥ ب) : ” وكان الملك العادل رجلا عظيم القدر ، وله أولاد جماعة ، منهم : الكامل والمعظم والأشرف وغيرهم “ .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن رس .

(٥) الأصل : ” دار الاقفا “ ، والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٤) رس (١٢٥ ب) .

وفي ثالث ذي الحجة وصل عسكر من مصر ورجال مع أبي الهيثم السمين ،
وتحول الفرنج إلى النظرون . فقوى السلطان اليك فوقعوا على سرية للفرنج
نغنموها ، ووصل إلى القدس الشريف نيف ونمسون أسيرا .

ولما كان يوم عيد الأضحى واقع الأمير سابق الدين بن الداية — صاحب شيزر —
الفرنج فاحتوى على عشرة من مقدميهم قتل وأسرا ، وتسلىق الفرنج في الجبال ،
وتركوا خيابهم ، فغنمها المسلمون ، وبقى الفرنج في النظرون كالمحصورين [٣٩٢]
وقطع المسلمون الطريق على تجارهم حتى أخذوا قافلة كبيرة بما فيها ، وماقدروا
على تخليصها ، فرحلوا عائدين إلى الرملة لليائين بقيتا من ذي الحجة .

وفي ذلك اليوم وصل نمسون رجلا من الموصل برسم قطع الصخور من الخندق^(١) ،
وشرع السلطان في تحصين^(٢) القدس وعمارة أسواره ، وحفر خنادقه ،
وأرسل إلى البلاد في جمع رجال يقومون بهذه الأعمال ، وعمل السلطان فيه بنفسه ،
بنقل الحجارة هو وأولاده وأجناده وأمراؤه ، ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء .

ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب

قد ذكرنا توجه الملك المظفر تقي الدين — رحمه الله — إلى البلاد التي زاده
السلطان [إياحا]^(٣) وراء الفرات ، فلما توجه إلى تلك البلاد امتدت يده إلى بلاد غيره ،
فاستولى على السويدا وحاني ، وقصد بلاد خلاط ، وكمر عسكر صاحبها سيف الدين

(١) النص في س أكثر وضوحا وهو : " وفي ذلك اليوم وصل من الموصل جماعة كبيرة من
الحجارين برسم قطع الصخور من خندق القدس " .

(٢) الأصل : " تحسين " ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٣) ما بين الحاصرين زيادة عن س .

بكتمر، وتملك معظم البلاد، فاستصرخ سيف الدين بكتمر بالخليفة الناصر لدين الله،
فورد كتاب الخليفة إلى السلطان ينكر فيه قصد تقي الدين أخلاط، ويظهر العناية
التامة ببكتمر، ويشفع في حسن بن قفجاق، ويتقدم بإطلاقه، وكان قد قبض
عليه مظفر الدين — صاحب إربل —، ويتقدم بمسير القاضي الفاضل إلى الديوان
لبت حال وفصل أمر، فأجابه السلطان :

بأننا لم نأمر تقي الدين بشيء من هذا، وإنما عبر ليجمع العساكر ويعود
إلى الجهاد، وأما ابن قفجاق فقد تقدم الخادم إلى مظفر الدين حتى يحضره
إلى الشام، فيقطعه فيه، ويكون ملازما للجهاد، وأما القاضي الفاضل فاعتذر
عنه بكثرة الأمراض، وقوته تضعف عن الحركة إلى العراق .

ثم إن الملك المظفر نازل مدينة ملاز كرد — وهي لبكتمر — وحاصرها وضايقها،
ومعه عساكر كثيرة، وكان في صحبته ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد بن عمر،
فاعترى الملك المظفر مرض شديد، وتزايد به إلى أن توفي إلى رحمة الله تعالى،
وذلك يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان من هذه السنة
— أعني سنة سبع وثمانين وخمسمائة — فأخفى ولده الملك المنصور وفاته، ورحل
عن ملاز كرد، وعاد به إلى البلاد التي هي في يده، وعجب الناس من حزمه وثباته.
ووصل الملك المنصور بعد ذلك إلى حماة بأمواله ونخائته [٣٩٣] وأصحابه، ودفنه
بظاهر حماة من شماليها، بالتربة المعروفة به، وبني السلطان الملك المنصور إلى جانب
التربة مدرسة للشافعية، ورتب لها وقفا جليلا .

سيرة الملك المظفر تقي الدين — رحمه الله —

كان الملك المظفر — رحمه الله — ملكا شجاعا جوادا، شديد البأس، عظيم الهمة،
ركنا عظيما من أركان البيت الأيوبي، وكان عنده فضل وأدب، وشعر حسن قد

ذكرنا بعضه ، فأصيب السلطان بموته ، لأنه كان من أعظم أعوانه على ما يكابد من الشدائد ، غير أنه كان قد تغير قلبه عليه في آخر وقت بسبب اشتغاله بحاربة جيرانه ، وخذلانه له في وقت الحاجة إلى مساعدته على ما هو بصدد من الجهاد .

واتفق أنه في ليلة الجمعة المذكورة أصيب السلطان أيضا بالأمر حسام^(١) الدين محمد ابن عمر بن لاجين ، وهو ابن أخته ، فأصيب في تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته ، وحمل حسام الدين إلى دمشق ، ودفن في التربة الحسامية^(٢) المنسوبة إليه ، من بناء والدته ست الشام بنت أيوب ، وهي المدرسة الشامية^(٣) ظاهر دمشق .

وفي الجمعة التي^(٤) توفي فيها الملك المظفر توفي قاضي بلده أمين الدين أبو القاسم ابن حبيش ، وذلك حادى عشر شهر رمضان ، وكان أمين الدين هذا رئيسا جوادا عظيم القدر بحمة ، وكان مشهورا عند الملوك .

ذكر استيلاء الملك المنصور ناصر الدين محمد

ابن الملك المظفر تقي الدين على حماة وبلادها

وتملك الملك العادل البلاد الشرقية

لما توفي الملك المظفر تقي الدين — رحمه الله — راسل الملك المنصور رحمه السلطان يخبره بأنه قام مقام أبيه فيما كان له من البلاد ، وطلب منه شروطا نسبه السلطان بسببها إلى العصيان ، وكاد أمره يضطرب ، وطالب الملك الأفضل

(١) الأصل : « ناصر » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٥)

(٢) راجع ترجمة ست الشام أخت صلاح الدين ، وأخبار التربة والمدرسة في : (النعمى :

الدارس في تاريخ المدارس ، نشر جعفر الحسنى ، ج ١ ، ص ٢٧٧ — ٣٠٠)

(٣) الأصل : « الذى » والتصحيح عن : .

من أبيه ما كان بيد الملك المظفر قاطع الفرات، ونزل عن جميع ماله من الولايات، فأجابه السلطان إلى ذلك، ورحل من القدس ثالث صفر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار، سوى ما أصحبه من الخلع والتشريفات ووصل إلى حلب فاحتفل به أخوه الملك الظاهر صاحبها، وقام بواجب خدمته، وأحضر له مفاتيح البلد، وقدم له مقدمة كثيرة.

ولما سمع الملك [٣٩٤] المنصور بذلك اشتد انزعاجه، وراسل عمه الملك العادل — وهو إذ ذاك بالقدس — ملتجئاً إليه ومحتمياً به، فخطب الملك العادل السلطان في حقه، واستعطفه له، وقال: "أنا أمضى إليه وأحضره"

وكان مقترح الملك المنصور أحد قسمين: إما حرّان والرّها وسميساط وميافارقين، وإما حماة وسلمية والمعة ومنبج وقاعة نجم، وأنه يكفل أخوته.

فامتنع السلطان من الإجابة إلى شيء منه، فراجعه الملك العادل مراراً فلم يفعل، وكثرت الشفاعة إليه في معناه فخاف له أولاً على الرّها وحرّان وسميساط، على أنه إذا عبر الفرات أعطى المواضع التي اقترحها، ويكفل أخوته، ويتخلى عن تلك المواضع التي في يده، فالتمس الملك العادل خط السلطان، فأبى، وألح عليه، فخرق^(١) نسخة التمين، وانقطع الحديث، وأخذ من السلطان الغيظ كيف يُخطب بمثل ذلك في جانب بعض أولاد أولاد أخيه، ثم أعطاه خطه بما استقرت به القاعدة عليه.

ثم إن الملك العادل التمس من السلطان البلاد التي كانت بيد الملك المظفر تقي الدين أولاً قبل أن يعطى البلاد الجزرية، ثم أعطى البلاد الجزرية عوضاً عنها وآخر ما استقر الأمر عليه أن الملك العادل يتسلم البلاد الشرقية، ويتزل عن كل ماله في الشام ما خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء، ونصف خاصه بمصر، وعليه في كل

(١) الأمل: «مخرق»، والتصحيح عن (الرونيين، ج ٢، ص ١٩٧)

سنة ستة آلاف غرارة [غلة]^(١) تحمل للسلطان من الصلات والبلقاء إلى القدس ، واستزاد الملك العادل قلعة جعبر على البلاد الشرقية ، فأجيب إلى ذلك ، فامتنع الملك الظاهر من تسليمها إليه ، ثم أجاب بعد ذلك^(٢) .

وسار الملك العادل من القدس في العشر الأول من جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وخمسة .

وكتب السلطان إلى الملك الأفضل يأمره بالعود إليه ، فعاد منكسر القلب متعباً ، ووصل إلى دمشق ، ولم يصل إلى خدمة السلطان ؛ فلما^(٣) اشتد خبر الفرنج سيراً إليه يطلبه ، فما وسعه التأخير ، فسار إليه يطلبه وصحبته العساكر الواصلة من الشرق ، فلقية السلطان ، وترجل له جبراً لقلبه وتعظيماً له^(٤) .

وأما الملك العادل فإنه وصل [٣٩٥] إلى حرّان والرّها ، وقرر أمرهما ، واستقر للملك المنصور حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم .

وعاد الملك العادل في آخر جمادى الآخرة إلى خدمة السلطان ، وفي صحبته الملك المنصور [محمد بن تقي الدين]^(٥) ، فلقية الملك الظاهر ولد السلطان إلى بيت نوبة ، ودخل به على السلطان ، فنهض إليه واعتنقه ، وضبه إلى صدره ، وغشيه بالبكاء ، فصبر نفسه حتى غلبه الأمر فبكى ، وبكى الناس لبكائه ساعة ، ثم باسطه ، وسأله عن الطريق ، وكان معه عسكر جميل ، فقرت عين السلطان به ، وأنزله في مقدمة عسكره .

(١) ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٢) بعد هذا اللفظ في س (١٢٧ ب) : "وللك المنصور البلاد الشامية التي كانت بيد والده" .

(٣) هذه الفقرة غير موجودة في س في هذا الموضع ، وإنما وردت فترة أخرى تؤدي معناها بعد كلمة "قلعة نجم" في السطر التالي ، ونصها : "ثم إن السلطان استدعى بولده الملك الأفضل إلى عده فاسترخاه ، وقام له قائماً عند لقياءه ، ووعده من البلاد بما هو خير مما أخذ منه من البلاد الشرقية ، ثم خلّع عليه خلعة سنية ، وأمره إلى منزله ، وقد طاب قلبه بما وعده" .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

وفي آخر ذى الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة توفي علم الدين سليمان بن جندَر وهو شيخ الدولة وكبيرها .

وفي هذه السنة في ربيع الأول نازل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل — الجزيرة وبها ابن أخيه معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي ، وحاصرها ، وكان السبب في ذلك سوء سيرة معز الدين ونجده عن طاعة عمه عز الدين ، ومساعدة أعدائه عليه ، فإنه انتقل عنه ^(١) إلى الملوك المجاورين له ما يوحشهم منه ، وبقي محاصرا لها إلى رجب من هذه السنة ، ثم صالحه على قاعدة استقرت ^(٢) بينهما ، وتحالفوا وخرج معز الدين إلى خدمة عمه عز الدين ، واعتذر إليه بأعداء قبلها منه ، ثم رحل عائدا إلى الموصل ^(٣) . ودخلت سنة ثمان ^(٤) وثمانين وخمسمائة والساطان مقيم بالقدس ، مجتهد في عمارته .

وفي ثالث المحرم منها رحل الفرنج إلى عسقلان ، ونزلوا بظاهرها ، وأظهروا الاجتهاد في عمارتها ، ورأى ملك الإنكليز دخانا على بعد فقصده ، وكان ثم جماعة من الأسدية ، وسيف الدين — كوج ^(٥) ، وعلم الدين قيصر ، فوصل إليهم ، وهم غارون [عَمَّا دَهْمُهُمْ ، فوصل الالعين إليهم] ^(٦) وقت المغرب ، وكانوا قد نزلوا مفترقين في موضعين ، فلما وقع على أحدهما ركب الفريق الأول وواقعه حتى ركب الفريق الآخر ، فدافعوه ، وساقوا ، وقد ربحوا الفرنج أثقالهم ، وخلصوا ناجين ، وسلم الله أنفسهم منهم ، ولم يفقد من المسلمين إلا أربعة ، وكانت نوبة عظيمة ، وفي الله شرها .

(١) س : " عن عمه " .

(٢) الأصل : " استمرت " ، والتصحيح عن س .

(٣) س : " إلى الجزيرة " .

(٤) الأصل : " ثمانية " .

(٥) الأصل : " باركوج " والتصحيح عن الهادي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٦) .

(٦) ما بين الحامرتين زيادة يقتضيا إتمام المعنى ، أضفنا من المرجع المتقول عنه هنا ، وهو الهادي الأمهاني (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٦) .

وفي حادى عشر المحرم من هذه السنة كبس الأمير عز الدين جرديك تبنى^(١) على من نزل بها من الفرنج، فأوقع بهم البلاء، وساق منهم اثني^(٢) عشر أسيرا، ومتاعا [٣٩٦] كثيرا، وفي ثانى صفر أغار أيضا على ظاهر عسقلان، وجاء بثلاثين أسيرا^(٣).

وفي الرابع عشر من صفر كنت سرية — مقدمها الأمير فارس الدين ميمون القصرى — عند تبنى^(١) إلى أن عبرت قوافل الفرنج، فساقها بأعمالها وأنقالها ونساءها ورجالها.

وفي مستهل ربيع الآخر من هذه السنة وصل الأمير سيف الدين المشطوب، وقد خالص من الأسر، وقطع الفرنج عليه خمسين ألف دينار، عجل منها عشرين ألف دينار، وأعطاهم بالباقي رهائن، فأحسن السلطان ماقاه، وأقطعه نابلس وأعمالها، وكانت قبله خبز الأمير حسام الدين لاجين ابن أخت السلطان.

ذكر مقتل المركيس صاحب صور — لعنه الله —

كان الأسقف بصور أضافه، فأكل عنده وشرب، وكان رجلا من الباطنية قد دخلوا صور، وتنصروا وأظهروا الترهيب والتعبد، وشكرهما الأقساء والرهبان، وأحبهما المركيس، ولم يكن يصبر عنهما، فلما خرج من دعوة

(١) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها بلدة بحوران من أعمال دمشق، أنظر أيضا : (Dussaud : Op. Cit. P. 334—335) و(الروضتين، ج ٢، ص ١٩٦)

(٢) س (١٢٨ ب) : "أربعة عشر"، وما هنا يتفق ونص العماد (المرجع السابق).

(٣) بعد هذا اللفظ في س : "من الفرنج"، وكان السلطان كلما أتوه بأسير بعد أخذ عكا ضرب عنقه.

الأسقف وثبأ عليه بسكاكينهما فقتلاه ، وهرب أحدهما ودخل الكنيسة ، فقال
المركيس — وهو مجروح — : « احملوني إلى الكنيسة » ، فحملوه ، فلما حمل
إليها بعمره ذلك الجرح الهارب ، فجرحه ثانيا ، وعجل الله بروحه إلى النار ،
وقبض على الجارحين ، وبحث عنهما فوجدا من الفداوية الإسماعيلية ،
فسألوهما : « من أمركما بهذا الفعل ؟ » ، فقالا : « ملك الأنكلتير » ، فقتلا شر
قتلة ، ولم يعجب السلطان قتل المركيس ، لأنه كان قد أبدى عداوة الأنكلتير
ومنازعته في الملك .

ولما قتل المركيس جلس مكانه الكندهري بأمر الأنكلتير ، وتزوج زوجة
المركيس في ليالته ، ودخل بها وهي حامل ، وليس هذا عندهم مانعا من صحة
النكاح . ويكون الولد منسوبا إلى الملكة ، وهذا الكندهري ابن أخت ملك
افرنسيس من أبيه ، وابن أخت ملك الأنكلتير من أمه^(١) ، وجرى حكمه على افرنج
الساحل ، وعاش إلى سنة أربع وتسعين وخمسمائة .

وفي التاسع من جمادى الأولى استولى الفرنج على قلعة الداروم ، ثم خربوها
ورحلوا عنها ، وأسروا من فيها .

وفي رابع عشره خرج يرك المسلمين على الفرنج يَمْدَلِيَابَه^(٢) ، وقتلوا [٣٩٧]
منهم كندا كبيرا ، ثم نزلوا تل الصافية ، ثم النظرون ، ثم بيت نوبة ، وألهمهم^(٣)
المسلمون بالنهب والسلب ، وساطوا^(٤) عليهم ، وكنوا لهم تحت كل رابية .

(١) الأصل : « من أمره » ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٦) وس .

(١١٢٩) .

(٢) الأصل : « يمدل بابا » وقد صححت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر
أنها قرية قرب الرملة ، فيها حصن محكم .

(٣) الأصل : « وألهمهم » ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٧) وس .

(٤) الأصل : « وساطوا » ، والتصحيح عن المراجعين السابقين .

وفي أواخر الشهر التقى الجمعان على فرسخين من القدس بمكان يعرف بقلونية^(١) ، ثم رجع العدو ناكصا على عقبيه ، والمسلمون في أثرهم ، يكتنون^(٢) لهم ، وينالون منهم^(٣) ، وكان في الزك بدر الدين [دلدوم]^(٤) الياروقى ، فبعث من كمن لهم عند طريق يافا ، فمرت به فوارس ، فاستولى عليهم الكمين ، وما سلم منهم أحد .

ذكر كبس الفرنج للعسكر المصرى

كان العسكر المصرى قد تجهز للمضى إلى خدمة السلطان ، فكتب السلطان إليهم من القدس يأمرهم بالاحتراز عند مقاربة العدو ، فأقاموا ببابيس أياما حتى اجتمعت القوافل إليهم ، واتصل خبرهم بالفرنج ، ثم سار العسكر طالبا البلاد الشامية ، والفرنج ترقب أخبارهم وتتوصل إليهم بالعرب المفسدين ، ولما تحقق العدو خبر العسكر الواصل والقفل أمر عسكره بالانحياز إلى سفح الجبل ، وركب في ألف راكب مردفين ألف راجل ، فأتى تل الصافية ، فبات بها ثم سار .

وبلغ السلطان مسير العدو إلى طريق العسكر المصرى ، فندب الأمير نحر الدين الطنبا العادلى ، وشيخ الدين أسلم^(٤) الناصرى ، حتى يعلموا العسكر ، فالتقيا بهم بالحسى ، وأخبراهم الخبر ، وتزاوا وعرضوا وهم يظنون

(١) الأصل : « علونية » ، والتصحيح عن : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٢٢) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٧) ، وقد ذكر (ياقوت : معجم البلدان) مدينة بهذا الرسم ، ولكنه قال ، إنها بلد بالروم بينه وبين قسطنطينية ستون ميلا ، وهذه غير تلك دون شك .

(٢) مكان هذه الفقرة في س : « يقتلون منهم ويأسرون » .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن س (١٢٩ ب) .

(٤) الأصل : « إسلام » ، والتصحيح عن ابن شدادوس .

أن لاحتس للعدو بأرض الحسى ، بجاءهم العدو بغتة ، وكان فى جملة العسكر فلک الدين أخو الملك العادل لأمه ، وطاف الأنکثیر حول القفل فى صورة عربى ، فرآهم ساکنین قد غابهم النعاس ، فاسترکب عسكره ، وكانت الكبسة قريب الصباح ، فبُغِتَ (١) الناس ، ووقع عليهم (٢) بنجيلة ورجله ، فكان الشجاع الأيدى القوى الذى ركب فرسه ونجا بنفسه .

وانقسم القفل ثلاثة أقسام : قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب ، وقسم أوغلوا فى البرية مع جماعة من العرب ، وقسم [٣٩٨] استولى عليهم العدو ، فساقهم بجملهم وأحماهم وجميع ما كان معهم .

وكانت وقعة شنعاء لم يصب الإسلام مثلاً من مدة مديدة ، وتبدد الناس فى البرية ، ورموا أموالهم ، وكان السعيد من نجا بنفسه ، وجمع العدو ما أمكن جمعه من الخيل والجمال والأقمشة ، وسائر صنوف الأموال ، وكلف [الانکثیر] (٣) الجمالين خدمة الجمال ، والحر بنديّة خدمة البغال ، والساسة خدمة الخيل ، ونجا غانماً إلى عسكره .

ونجا فلک الدين أخو الملك العادل فى عظم العسكر بأنفسهم وماقدروا على حمايته ، وكان عدة من وقع فى أسر العدو من المسلمين خمسمائة ، والجمال تناهز ثلاثة آلاف جمل ، وكان وصول العدو إلى مخيمه سادس عشر جمادى الآخرة ، وكان يوماً عظيماً عندهم .

(١) الأصل : " فتعب " والتصحيح عن : (ابن شداد ، السيرة ، ص ٢٠٩) .

(٢) الأصل " منهم " ، وس : " بهم " ، والتصحيح عن المرجع السابق ، وهو الأصل المنقول

عنه هنا .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن س .

ذكر قصد الفرنج

حصار البيت المقدس وكفاية الله المسلمين شرهم

ولما جرى ما ذكرناه وقوى الفرنج بما حصل لهم من الغنيمة صمَّ عزمهم على قصد القدس ، فرتبوا ^(١) جماعة على لَدَّ يحفظون الطريق على من ينقل الميرة ^(٢) ، وأنفذوا الكندهرى إلى صور وأطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ، ليصعدوا إلى القدس ^(٣) ، ولما علم السلطان بقصدهم قسم أسوار القدس على الأمراء ، وتقدم إليهم في تهيئة أسباب الحصار ، وأخذ في إفساد المياه ظاهر القدس ، فأخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ما يُشرب أصلاً .

ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة أحضر السلطان الأمراء عنده ، وحضر الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين ، وسيف الدين المشطوب ، والأسدية بأسرهم ، وجماعة الأمراء .

قال القاضي بهاء الدين بن شداد :

” أمرنى السلطان أن أكلهم وأحثم على الجهاد ، فذكرت ما يسر الله من ذلك ، وكان مما قاله : إن النبى — صلى الله عليه وسلم — لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة — رضى الله عنهم — على الموت فى لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسى به — صلى الله عليه وسلم — ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف

(١) مكان هذه الفقرة فى س : ” فرتبوا جماعة الذى يقطعون الطريق على من ينقل الميرة ” وما بالمتن هو الصحيح ، فهو يتفق والأصل المقتول عنه وهو ابن شداد ، أنظر (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٨) .

(٢) الأصل : ” إلى السلطان ” ، والتصحيح عن المرجع السابق وس (١١٣٠) .

على الموت ، ففعل ببركة هذه النية يندفع العدو ، فاستحسن [الجماعة] (١) ذلك ، ووافقوا [٣٩٩] عليه .

ثم شرع السلطان بعد أن سكت زمانا في صورة مفكر (٢) ، والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير ، وقال :

” الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم وَمِنْعَتُهُ (٣) ، وأتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذرائعهم متعلقة في ذممكم (٤) ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه ألا أتم ، فلو لَوِيْتُمْ أَعْتَمَكُم — والعياذ بالله — طوى البلاد طوى السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم ، فإنكم أتم الذين تصديتكم لهذا ، وأكلتم [مال] (١) بيت مال المسلمين ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم ، والسلام “ .

فانتدب (٥) لجوابه سيف الدين المشطوب ، وقال :

« يا مولاي : نحن ممالكك وعبيدك ، وأنت الذي أنعمت علينا ، وكبرتنا وعظمتنا وأعطينا وأغنتنا ، وليس لنا إلا رقابتنا وهي بين يديك ، والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن يموت “ .

فقال الجماعة مثل ما قال ، وانبسطت نفس السلطان بذلك المجلس ، وطاب قلبه ، وأطعمهم ، ثم انصرفوا .

(١) ما بين الحاصرتين عن : (أين شداد : السيرة ، ص ٢١٢)

(٢) الأصل : ” فكر “ ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) الأصل : ” رشعته “ ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٤) الأصل : ” ذممكم “ ، والتصحيح عن المرجع السابق ، وهو الأصل المنقول عنه هنا .

(٥) الأصل : ” فابتدر “ ، والتصحيح عن المرجع السابق .

ثم انقضى يوم الخميس^(١) على أشد حال من التأهب والاهتمام حتى كان العشاء الآخرة ، واجتمعنا في خدمته على العادة ، وسهرنا حتى مضى هزيع^(٢) من الليل وهو غير منبسط على عادته ، ثم صلينا العشاء ، وكانت الصلوة هي الدستور العام ، فصلينا وأخذنا في الانصراف .

قال القاضي بهاء الدين :

فاستدعاني — رحمه الله — وقال لي : ” أعلمت ما الذي تجدد ؟ ”

قلت : ” لا ”

قال :

فإن أبا الهيجا نفذ إلى اليوم ، وقال : إنه اجتمع عندي الممالك والأمراء ، وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له ، وقالوا لا مصلحة في ذلك [فإننا نخاف أن نحصر]^(٣) ويجري علينا مثل ما جرى على أهل عكا ، والرأي أنا تلقى مصاف ، فإن قدر الله أنا نهزمهم ملكاً بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الإسلام وعساكرها مدة بغير^(٤) القدس .

وكان — رحمه الله — عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال ، فشقت عليه هذه الرسالة .

(١) الأصل : ” الجمعة ” والتصحيح عن : (ابن شداد : السيرة ، ص ٢١٢) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٨) و (ص ١٣٠ ب) .

(٢) الأصل : ” ربع ” ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٣) الأصل : ” بأننا نحصر ” ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٤) أضيف ما بين الحامرتين بعد مراجعة (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٢١٣) ، والنص في س : ” بمضى القدس ” .

قال :

وأقمت تلك الليلة في خدمته إلى الصباح، وهي من الليالي التي أحيها في سبيل الله .
وكان [٤٠٠] مما قالوه له في الرسالة :

”إنك إن أردت تقيم فتكون معنا أو بعض أهلك حتى نجتمع عنده، وإلا فلا تكراد^(١)
لا يدينون للأتراك ، والأتراك لا يدينون للأكراد“ .

وانفصل الحال على أن يقيم من أهله الملك الأجد مجد الدين — صاحب بعلبك —
وكان — رحمه الله — يحدث نفسه بالمقام ، ثم امتنع من ذلك لما فيه من خطر
على الإسلام ، فلما قارب الصبح أشفقت عليه ، وخاطبته في أن يستريح ساعة
لعل العين تأخذ حظها من النوم ، وانصرفت عنه إلى داري ، فما وصات إلا
والمؤذن قد أذن، فأخذت في أسباب الوضوء ، فما فرغت إلا والصبح قد طلع ،
وكنت أصلي الصبح في غالب الأوقات عنده ، فصرت إلى خدمته وهو يجدد
الوضوء ، فصلينا ، ثم قلت له :

”قد وقع لي واقع أعرضه“ .

فأذن فيه ، فقلت :

المولى في اهتمامه وما قد حمل نفسه من هذا الأمر مجتهدٌ فيما هو فيه، وقد عجزت
أسبابه الأرضية، فينبغي أن يرجع إلى الله تعالى ، وهذا يوم الجمعة، وهو أبرك أيام
الأسبوع ، وفيه دعوة مستجابة في صحيح الأحاديث، ونحن في أبرك موضع نقدر
أن نكون فيه^(٢) في يومنا هذا، فالسلطان يغتسل للجمعة ويتصدق بشيء خفية بحيث
لا يشعر أنه منك ، وتصل بين الأذان والإقامة ركعتين تناجي فيهما ربك وتفوض
مقاليد أمرك إليه، وتعترف بعجزك عما تصدّيت له ، فاعل الله يرحمك ويستجيب
دعائك“ .

(١) الأصل : ”فاكراد“ ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٢) الأصل : ”أن يكون في يومنا“ ، والتصحيح عن : (الروميني ، ج ٢ ، ص ١٩٩) ٧

وكان — رحمه الله — حسن العقيدة تام الإيمان ، يتلقى الأمور الشرعية بكل انقياد وقبول ، فلما كان وقت الجمعة صليت إلى جانبه في الأقصى ، وصلى ركعتين ، ورأيتُه ساجدا ودموعه تتقاطر على مصلاه — رحمه الله — ثم انقضت الجمعة بخير ، ولما كان عشيتها ونحن في خدمته على العادة ، فوصات رقعة من عز الدين جرديك — وكان في اليزك — يقول فيها :

” إن القوم ركبوا بأسرهم ووقفوا على ظهر في البر ، ثم عادوا إلى خيامهم وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم “ .

ولما كان صبيحة السبت — وهو الحادى والعشرون من جمادى الآخرة — وصلت رقعة أخرى تنبئ أن الجواسيس رجعوا فأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود إلى القدس أو الرحيل [٤٠١] إلى بلادهم ، فذهب الفرنسية إلى الصعود إلى القدس وقالوا :

” إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس ، ولا نرجع دونه “ .

وقال الانكليز :

” إن هذا الموضع قد أفسدت مياهه ولم يبق حوله ماء أصلا ، فمن أين نشرب ؟ “

فقالوا له :

” نشرب من ماء نقوع “ (١) — وبينه وبين القدس مقدار فرسخ —

فقال :

” كيف نذهب إلى السقى ؟ “

(١) الأصل : ” بقوع “ ، وما هنا عن : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ٢١٤) ،

و (الروضين ، ج ٢ ، ص ١٩٩) ولم أجد لهذا النهر ذكرا عند ياقوت ، وإنما أشار إلى قرية اسمها

” قوع “ وقال إنها من قرى بيت المقدس ، يضرب بجودة عملها المثل .

فقالوا :

”نتقسم قسمين : قسم يذهب إلى السقي مع الدواب^(١) ، وقسم يبقى على البلد في المنزل^(٢) ، ويكون الشرب في اليوم مرة واحدة“

فقال الانكليز :

إذا يؤخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب ، ويخرج^(٣) عسكر البلد على الباقيين ، ويذهب دين النصرانية“ .

فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكم الثلاثمائة اثني عشر منهم ، وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم ، وقد باتوا على حكم الثلاثة ، فما يأمرونهم به يفعلونه“ .

فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل ، فلم يمكنهم المخالفة ، فأصبحوا في بكرة الحادى والعشرين من جمادى الآخرة راجعين إلى نحو الرملة ، ناكسين على أعقابهم ، ثم نزلوا الرملة ، وتواتر الخبر بذلك إلى السلطان ، فركب ، وركب الناس معه ، وكان يوم فرح وسرور .

ذكر ما جرى

بين المسلمين والفرنج من المراسلة في معنى الصلح

ثم ورد رسول ملك الانكليز إلى السلطان يقول :

”قد أهلكنا نحن وأتتم ، والأصلح نحقق الدماء ، ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك عن ضعف مني ، بل أريد المصلحة ، ولا تغتر بتأخرى عن منزلى ، فالكبش

(١) عند هذا اللفظ تنهى (ص ١٣١ ب) من نسخة س ثم تنقطع الصلة بين النسختين بعد ذلك .

(٢) كذا في الأصل ، وعند ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٩) : ”اليزك“ .

(٣) الأصل : ”ويذهب“ ، والتصحيح من المرجع السابق .

يتأخر لينطع ، ثم لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولا يجوز لى أن أهلك
الفرنج كلهم ، وهذا ابن أختى الكندهرى قد ملكته هذه الديار ، وسلمته إليك
يكون هز وعسكره بحكمك ، ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا ، وإن جماعة
من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بنحت عليهم بها ، وأنا أطلب
منك كنيسة ، وتلك الأمور التى كانت تضيق صدرك فى المراسلة لما كانت
المراسلة تجرى مع الملك العادل قلت بتركها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتنى قرية
أو مزرعة^(١) قبلتها وقبلتها .

فاستشار السلطان الأمراء فى جوابه ، فأشاروا بالمحاسبة وعقد الصلح ، لما كان
قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب ، وعلاهم [٤٠٢] من الديون ، واستقر الحال
على هذا الجواب :

”إنك إذا دخلت معنا فى هذا الأمر ، فاجزاء الإحسان إلا الإحسان ، وابن أختك
يكون عندى كبعض أولادى ، وسيدانك ما أفعل فى حقه من الخير ، وأنا أعطيك أكبر
الكائنات وهى القمامة ، وبقية البلاد تقسمها ، فالساحلية التى بيدك تكون بيدك ،
والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا ، وما بين العمليين يكون مناصفة ، وعسقلان
وما وراءها يكون خرابا لنا ولا لكم ، وإن أردتم قراها كانت لكم ، والذي
كنت أكرهه حديث عسقلان“ .

فانفصل الرسول طيب القلب .

ثم ورد رسوله :

”أن يكون فى القدس عشرون نفرا ، وأن من سكن من النصارى والفرنج
فى البلد لا يتعرض لهم ، وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطأة ، والبلاد
الجبلية تكون لكم“

(١) كذا فى الأصل ، وعند ابن شداد (المرجع السابق) : ”مقرة أو قرية“ .

وأخبر الرسول من عند نفسه مناصحة: أنهم قد نزلوا عن القدس ماءدا الزيارة،
وإنما يقولون ذلك تصنعاً، وأنهم راغبون في الصلح، وأن الانكثير لا بد له من
الروح إلى بلده .

فأجابه السلطان :

” بأن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة “ .

فقال الرسول :

” وليس على الزوار في القدس شيء يؤخذ منهم ؟ “ .

فأجابه السلطان إلى ذلك ، وقال له :

” أما البلاد فعسقلان وما والاها وما وراءها فلا بد من خرابه “ .

فقال الرسول :

” إن الملك قد خسر في أسوارها ما لا جزيلا “ .

فسأل سيف الدين المشطوب أن تجعل مزارعها وقراها له في مقابلة خسارته،
فأجاب السلطان إلى ذلك ، وشرط أن الداروم تخرب ، ويكون بلدها مناصفة،
وأما باقي البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفا في قرية
كانت مناصفة .

ثم جاء رسوله يقول :

” الملك [يسألك و]^(١) يخضع لك في أن تترك [له]^(١) هذه الأماكن الثلاثة

عامرة، وأى قدر لها عند ملكك وعظمتك؟ وما سبب إصراره عليها إلا أن الفرنج
[لم]^(١) يسمحوا بها، وهو قد ترك القدس بالكلية ، لا يطلب أن يكون فيها رهبان
ولا قبوس، إلا [في] القيامة وحدها، فتترك أنت له هذه [٤٠٣] البلاد، ويكون

(١) زيد ما بين الحاصرتين عن (ابن شداد، ص ٢١٨) و(الروضتين، ج ٢، ص ٢٠٠).

الصالح عاما ، فيكون لهم كل ما في أيديهم من الداروم إلى أنطاكية ، ولكم ما في أيديكم ، وينتظم الحال ونروح ، وإن لم ينتظم الصالح فالفرنج ما يمكنونه من الزواج وما يمكنه مخالفتهم ” .

فأجابه السلطان :

” بأن أنطاكية لنا معهم حديث [فيها]^(١) ، ورسلنا عندهم ، وإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح ، وإلا فلا ، وأما البلاد التي سألها فلا يوافق المسلمون لي دفعها إليه ، وإلا فلا قدر لها ” .

ثم جاء رسوله وقال :

إن الملك قال : ” لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجرا واحدا ، ولا يسمع عنا في البلاد مثل ذلك ، وأما البلاد فحدودها معروفة ، ولا منكرة فيها ” .

ذكر رحيل السلطان

من القدس وأخذه ربض يافا

ثم بلغ السلطان في العاشر من رجب من هذه السنة — أعنى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة — أن الفرنج قد رحلوا طالبين يروت ، فبرز من القدس إلى منزلة يقال لها الجيب ،^(٢) واتفق وصول الملك العادل من الشرق — كما ذكرنا —

(١) زيد ما بين الحاصرتين عن (ابن شداد ، ص ٢١٨) و(الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٠) .

(٢) الأصل : ” الجنب ” وقد صححت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بقوله : حصنان يقال لها : الجيب فوقاني ، والجيب التحتاني ، بين بيت المقدس وناطس من أعمال فلسطين ، وهما متقاربان .

والملك الظاهر من حلب ، ثم رحل السلطان من الحلب إلى بيت نوبا^(١) ، ثم رحل إلى الرملة ، فنزل بها على تلال بين الرملة وبيت ، وركب جريدة حتى أتى^(٢) يازور وبيت جبرين^(٣) وأشرف على يافا ، ثم نزل عليها من الغد^(٤) ، فرتب في الميمنة ولده الملك الظاهر ، وفي الميسرة أخاه الملك العادل ، وركب المنجنقات ، وزحف إلى البلد ، فأرسل العدو رسولين : نصرانيا وفرنجيا ، يطالبان الصلح ، فطلب منهم قاعدة القدس وقطيعته ، فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا يوم السبت تاسع عشر رجب ، فإن جاءتهم نجدة ، وإلا تمت القاعدة على ما استقر ، فأبى السلطان الانتظار ، وأمر بالنقب ، فحش وأحرق ، فوقع بعض البدنة ، فوضع العدو أخشابا عظيمة خلف النقب ، فالتهب ، فمنعت من الدخول في الثلمة ، وقاتلوا إلى الليل ، وأصبحوا فوقعت البدنة ، فعلا غبار مع الدخان ، فأظلم الأفق ، وما تجاسر أحد على اللوج خوفا من اقتحام النار ، فلما انكشفت الغبرة ظهرت أسنة قد نابت مناب^(٥) الأسوار ، ورماح قد سدت الثلمة ، ورأى الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم . [٤٠٤] .

فلما رأى العدو ما قد نزل به طلب الأمان .

(١) الأصل : " بيت توبة " ، وقد صححت عن (ياقوت) حيث ذكر أنها بلدة من نواحي فلسطين .

(٢) الأصل : " إلى بيت يازور " والتصحيح عن (ابن شداد ، ص ٢٢٠) و (الروضين ، ج ٢ ، ص ٢٠٠) . وذكر (ياقوت) أن " يازور " بلدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين .

(٣) الأصل : " بيت جن " والتصحيح عن ابن شداد ، وفي ياقوت : بيت جبرين لغة في جبريل بلدة بين بيت المقدس وغزة ، وبينه وبين القدس مرحلتان ، وبين غزة أقل من ذلك ، وكانت فيه قلعة حصينة خربها صلاح الدين .

(٤) الأصل : " العدو " ، والتصحيح عن (الروضين ، ج ٢ ، ص ٢٠٠) .

(٥) الأصل : " بانياب " ، والتصحيح عن (ابن شداد ، ص ٢٢٣) و (الروضين ، ج ٢ ، ص ٢٠٠) .

فقال السلطان :

الفارس بفارس والتركلي^(١) بمثله ، والراجل براجل .

فطلب الرسول من السلطان أن يبطل [القتال]^(٢) إلى أن يعود .

فقال : ” ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ، ولكن أدخل إلى أصحابك فقل لهم يتحازون^(٣) إلى القلعة ، ويتركون الناس يشتغلون بالبلد ، فما بقي دونه مانع“ .

ف فعلوا ، وانحازوا^(٤) إلى قلعة يافا بعد أن قتل منهم جماعة .

ودخل الناس البلد عنوة ، ونهبوا منه أقمشة عظيمة ، وغللا كثيرة ، وأثانا وبقايا قماش مما نهب من القافلة المصرية .

واستقرت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان .

ووصل كتاب من صارم الدين قايماز النجمي — وكان في طريق الغور لحماية من عسكر العدو الذي كان بعكا — يخبر فيه أن الانكليز لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت ، وعاد إلى يافا ، فاشتد عزم السلطان والأمراء على إخراج من في القلعة ليتسلمها .

(١) هذا نص له أهمية كبرى ، فهو يدل على أن جيش صلاح الدين عرف نظام فرق ”التركلي“ بدليل النص على استبدال ”التركلي بمثله“ ، ولشرح هذا المصطلح راجع ما فات هنا ، ص ١٤٩ ، هامش ١

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين ليوضح به المعنى عن الروضتين ذ ج ٢ ، ص ٢٠١

(٣) الأصل : ”يتحازون“ ، والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠١) .

(٤) الأصل : ”وتحازوا“ والتصحيح عن المرجع السابق .

ذكر وصول ملك الانكلتير

إلى يافا واسترجاعه ربضها

ووصل ملك الانكلتير بغتة ، فما شعر المسلمون سحرا إلا وبوقاته [تنفق ، فعلمنا
بوصول النجدة ، قد وصلت في البحر] (١) .

قال القاضي بهاء الدين :

فسير معي السلطان عز الدين جرديك ، وعلم الدين قيصر ، ودر باش المهراني ،
وشمس الدين عدل الخزانة ، وقال : امض إلى الملك الظاهر ، وقل له يقف
ظاهر الباب القبلي ، وتدخل أنت ومن تراه إلى القلعة ، ويخرجون القوم
ويستولون على ما فيها من الأموال والأسلحة ، وتكتبها بخطك إلى الملك الظاهر ،
وهو ظاهر البلد يسيرها إلينا .

قال :

ففعلمنا ودخلنا القلعة ، وأمرنا الفرنج بالخروج ، فأجابوا وتهاووا .
فقال جرديك : لا ينبغي أن يخرج منهم أحد حتى تخرج الناس من البلد
خشية أن يتخطفوهم ، فإنهم قد داخلهم الطمع في البلد ، وأخذ يشتد في ضرب
الناس وإخراجهم ، وهم غير مضبوطين بعدة ولا محصورين في مكان ، فكيف
يمكن إخراجهم ، فطال الأمر إلى أن علا النهار ، وأنا ألومه وهو لا يرجع ، والزمان
يمضي ، فلما رأيت الوقت يفوت ، قلت له : إن النجدة قد وصلت
والمصلحة المسارعة في إخراجهم ، [٤٠٥] فأجاب ، وأخرجنا خمسة وأربعين
نفرا بنحوهم ونسائهم ، وسيرناهم ، ثم اشتدت أنفس الباقين وحدثهم أنفسهم

(١) الأصل : " فما شعر المسلمون سحرا إلا وبوقاته تنفر في البحر " ولا معنى لها ، وما هنا عن

بالعصيان ، وكانوا استقلوا المراكب التي جاءتهم ، وظنوا أن لا نجدة لهم فيها ، ولم يعلموا أن الانكثير مع القوم ، ورأوهم قد تأخروا عن النزول إلى أن تعالى النهار ، فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج .

ثم بعد ذلك قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركبا ، فقويت نفوس الباقين في الحصن ، وظهرت منهم أمارات العصيان ودلائله ، فقلت لأصحابنا : خذوا حذرکم ، فقد تغيرت عزائم القوم ، فما كان إلا ساعة بحيث صرنا خارج البلد ، وإذا القوم قد حملوا من القلعة ، وأخرجوا من كان في البلد من الأجناد ، وازدحم الناس في الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة ، وبقى في بعض الكائس جماعة من رعاك العسكر مشغولين بما لا يجوز ، فهجموا عليهم ، وقتلوا وأسروا ، وأمر السلطان الناس بالزحف ، فزحفوا ، وعاد الحصار كما كان ، واضطرب العدو في القلعة واستبطثوا نزول النجدة إليهم ، وخافوا خوفا عظيما ، فأرسلوا بطريقهم والقسطلان^(١) يعتذران مما جرى ، ويسالان السلطان القاعدة الأولى .

وكان سبب امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحونا ببيارق^(٢) المسلمين ورجالهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت ، وانضاف إلى ذلك كثرة الضجيج والتكبير والتهليل ، فلما رأى من في القلعة شدة الزحف عليهم ، وامتناع النجدة من النزول إليهم مع كثرتها ، فإنها كانت قد بلغت نيما وخمسين مركبا فيها خمسة عشر شانيا^(٣) ، [علموا أن]^(٤) النجدة ظنوا أن القلعة قد أخذت ، فوهب رجل من أهل

(١) معرب اللفظ اللاتيني (Castellanus) ومعناه مستحفظ القلعة ، ويقابله في القرنية (Châtelain) . أنظر تعليقات الدكتور محمد مصطفى زيادة (المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٢٤ ، هامش ٣) .

(٢) البيرق معرب اللفظ الفارسي "بيراق" ، ومعناها الراية والعلم واللواء راجع : (القس طوبيا العيسى الحلبي : تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٥) .

(٣) راجع ما فات هنا ، ص ١٣ ، هامش ١ .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ابن شداد ، ص ٢٢٦) .

القلعة نفسه للسيح ، وقفز من ^(١) القلعة إلى الميناء ، وكان رملا فلم يصبه شيء ^(٢) ، وعدنى إلى البحر ، وحدث الانكليز بالحديث ، فما كان إلا ساعة حتى نزل كل من في الشواني إلى الميناء ، وحملوا على المسلمين فأخرجوهم من الميناء ، فقبض السلطان على الرسل ، وأمر بتأخير الثقل والأسواق إلى يازور ^(٣) فرحل الناس ، [٤٠٦] وتخاف لهم ثقل عظيم مما كانوا أخذوا من يافا .

ونخرج الانكليز إلى موضع السلطان الذى كان فيه لمضايقة البلد ، وأمر من في القلعة أن يخرجوا إليه فيعظم سواده ، واستدعى جماعة من خواص ممالك السلطان والحاجب أبا بكر العادلى وغيره ، فلما حضروا عنده باسطهم وقال :

”هذا السلطان عظيم ، وما فى الأرض للإسلام ملك أكبر منه ولا أعظم ، فكيف رحل عن المكان لمجرد وصولى ؟ والله ما لبست لامة ^(٤) حربى ولا تاهبت لأمر ، ولا فى رجلى إلا زربول [البحر] ^(٥) فكيف تأخر ؟“

(١) الأصل : ” مع “ ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٢) الأصل : ” شيئا “ والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) الأصل : ” ياروز “ ، أنظر ما فات هنا ص ٣٩٤ ، هامش ٢

(٤) اللامة الدرع ، وقيل السلاح ، وقيل الدرع الحصينة ، سميت لامة لإحكامها وجودة حلقاتها ، وقيل هى السلاح كله ، ولامة الحرب أدواته ، وجمعها لأم ولؤم ، واستلام الرجل لبس اللامة ، أى إذا لبس ما عنده من عدة رمح وبيضة ومنقر وسيف ونبل . أنظر : (اللسان)

(٥) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) ، وزربول أو زربول — والجمع زرا بيل — ، ويقال : زربول — والجمع زرايين — ، كلمة من أصل يونانى (σέρβουλα) ومعناها نوع من الخذاء ، وكانت تطلق فى القسطنطينية على الخذاء الذى يلبسه العبد ، ويرى (Dozy) أن الكلمة مشتقة من (servus) ، كما أن اللفظ الأسبانى (servilla) ويعنى نوعا من الخذاء مشتق من (serva) ، لأن الخدم اعتادوا أن يلبسوا هذا النوع ، ويبدو أن اللفظ انتقل من الدولة البيزنطية إلى بلاد الشام ، واستعمله العرب فى العصور الوسطى للدلالة على هذا النوع من الخذاء الذى يلبسه العبد ، فقد استعمل بهذا المعنى (وإنما برسم زربول) فى كتاب ” ألف ليلة وليلة “ . وقد وصفه (Dozy) وصفا ينطبق على ذلك النوع من الخذاء المعروف فى مصر إلى عهد قريب باسم (المركوب) ، فهو خذاء أحمر اللون ذو طرف أمامى مدبب مرتفع إلى أعلى . وهو ذلك النوع الذى كان يلبسه المشايخ إلى عهد قريب . أنظر : (Dozy: Supp. Dict. Arab) ولعل هذا هذا الشرح يفسر لنا أيضا كلمة » زربول « التى كنا نطلقها أحيانا على العبد ، فنقول له تحقيرا لشأنه : » عبد زربول « ، ولاحظ أيضا أن التعبير فى المتن هنا يدل على أن رتشارد كان يلبس نوعا من الخذاء أو الزربول خاصا بالبحر .

ثم قال :

”والله إنه لعظيم ، والله ما ظننته يأخذ يافا في شهرين ، فكيف أخذها في يومين ؟!“

ثم قال لأبي بكر الحاجب :

تسلم على السلطان ، وتقول له : بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا أمر لا بد منه ، ولا بد لهذا الأمر من آخر ، وقد هلكت بلادى وراء^(١) البحر ، وما دوام هذا مصلحة لنا ولا لكم .

فأرسل السلطان إليه في الجواب :

”إنك [كنت]^(٢) طلبت [الصلح]^(٢) أولا على قاعدة ، وكان الحديث في يافا وعسقلان ، والآن فقد خربت هذه يافا ، فيكون لكم من قيسارية إلى صور“ .

فأجابه الانكثير :

”إن قاعدة الفرنج أنه إذا أعطى واحد لواحد بلدا صار تبعه وغلामه ، وأنا أطلب منك هذين البلدين : يافا وعسقلان ، وتكون عساكرهما في خدمتك دائما ، وإذا احتجت إلى وصلت إليك في أسرع وقت ، وخدمتك كما تعلم خدمتي“ .

فأجابه السلطان :

حيث دخلت هذا المدخل فتفق على أن نجعل البلدين قسمين : أحدهما لك ، وهو يافا وما وراءها ، والثاني لى ، هو عسقلان وما وراءها“ .

(١) الأصل : « ووزان » ، والتصحيح عن الروميين .

(٢) أصيب ما بين الحاصرين عن (الروميين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) للاستقيم المفسر .

ثم رتب السلطان اليك بيازور ، وأمر بنحراها ونحرا ببيت جبرين (١) ،
ورتب النقاين لذلك ، ثم سار إلى الرملة .
وعاد رسول الانكليز يشكر على إعطائه يافا ، ويجدد السؤال في عسقلان ،
ويقول :

” إن وقع الصلح في [هذه] (٢) الأيام الستة سرت إلى بلادى ، وإلا احتجت
أن اشتى هنا “ .

فأجابه السلطان [في الحال] (٣) :

” أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه ، وأما هاهنا تشيته فلا بد منها ،
لأنه قد استولى [٤٠٧] على هذه البلاد ، ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت
بالضرورة ، وإذا أقام أيضا إن شاء الله تعالى ، وإذا سهل عليه أن يشتى ههنا ،
ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين ، وهو شاب في عتفوان شبابه ووقت
اقتناص لذاته ، ما يسهل على أن يشتى وأصيف وأنا في وسط بلادى ، وعندى
أهل وأولادى ، ويأتى إلى ما أريده ومن أريده ، وأنا شيخ قد كرهت لذات
الدنيا ورفضتها عنى ، والعسكر الذى يكون عندى فى الشتاء غير العسكر الذى يكون
عندى فى الصيف ؟ ! وأنا اعتقد أنى فى أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى
يعطى الله تعالى النصر لمن يشاء “ .

ثم جاء رسوله يقول له :

” كم أطرح نفسى على السلطان وهو لا يقبلنى ، وأنا كنت أحرص حتى أعود
إلى بلادى ، والآن فقد هجم الشتاء ، وتغيرت الأنواء ، [وعزمت على الإقامة] (٤)
وما بقى بيننا حديث .

(١) الأصل والروضتين : « بيت حسن » ، أنظر ما فات هنا ص ٣٩٤ ، هامش ٣

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) ليستقيم المعنى .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) .

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) .

ذكر عزم السلطان

على كبس الانكثير ، وانصرافه عنه

ثم بلغ السلطان أن الفرنج قد رحلوا من عكا قاصدين يافا ، فسار إلى العوجا ، فنزل بها ، ثم بلغه أن العدو دخل قيسارية ، ولم يبق فيه مطمع ، وبلغه أن الانكثير خارج يافا في نفر يسير ، فوقع له أن يكبسه ، فأتاه ، فوجد خيمته عشر خيم ، فحمل عليهم ، فثبتوا ولم يتحركوا عن أماكنهم ، وكثروا عن ناب الحرب ، فارتاع العسكر منهم ، ووجهوا من ثباتهم وداروا حولهم حلقه ، وكانت عدة الخيل سبعة^(١) عشر ، وقيل تسعة ، والرجالة ثلاثمائة ، فوجد السلطان من ذلك موجدة عظيمة ، ودار على الأطلاب يحثهم على الحملة ، فلم يجب دعاءه أحد سوى ولده الملك الظاهر ، وقال له الجناح أخو المشطوب :

« قل لغلمانك الذي ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة يحملون »
وكان في قاب العسكر غيظ على السلطان ، حيث قوتهم الغنيمة ، فلما رأى السلطان ذلك غضب ، وأعرض عن القتال وسار إلى يازور^(٢) .

وذكر أن الانكثير أخذ رجمه ذلك اليوم ، وحمل من طرف الميمنة إلى طرف اليسرة ، ولم يعرض له أحد .

ثم سار السلطان إلى النظرون ثم إلى القدس ، فنظر إلى العمار ورتبها ، ثم عاد إلى النظرون ، وتوافت إليه العسكر ، ووصل [٤٠٨] علاء الدين بن عز الدين — صاحب الوصل — ، ثم قدم عسكر مصر ، وفيهم سيف الدين يازكوج^(٣) وجماعة الأسدية في خدمة ابنه الملك المؤيد مسعود .

(١) الأصل : « سبع » .

(٢) الأصل : « باروز » ، أنظر ما فات هنا ص ٣٩٤ ، هامش ٢

(٣) الأصل : « بالوج » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) .

ذكر عقد الهدنة بين المسلمين والفرنج

ثم جمع السلطان عنده أرباب الرأي ، وقال :

” إن الانكلتير قد مرض مرضا شديدا ، والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك ، ونفقاتهم قد قلت ، والرأى أنا نسير إلى يافا ، فإن وجدنا فيها مطعما وإلا سرنا إلى عسقلان ، فما تلحقها النجدة إلا وقد بلغنا منها غرضا “ .

فوافقوه على ذلك .

فأرسل عز الدين جرديك وجمال الدين فرج سادس شعبان حتى يكونا قريبا من يافا ، ورسل الأنكلتير مترددة إلى السلطان في طلب الفاكهة والثلج ، وأوقع الله في مرضه شهوة الكثرى والخوخ ، فكان السلطان يمدّه بذلك ، ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل .

ومما انكشف له أن الكندهرى يتردد بينه وبين الأفرنسيسية في مقامهم ، وهم عازمون على [عبور] (١) البحر قولا واحدا ، فسار السلطان إلى الرملة .

وجاء رسول الانكلتير مع الحاجب أبي بكر العادلى يشكر السلطان على إسعافه بالفاكهة والثلج ، وقال له :

” قل لأئى الملك العادل يبصر كيف يتوصل إلى السلطان في معنى الصلح ، ويستوجب لى منه عسقلان ، وأمضى ويبقى هو هاهنا مع هذه الشرذمة اليسيرة ، ويأخذ البلاد منهم ، فليس غرضى إلا إقامة جاهى بين الإفرنجية ، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخذ لى منه عوضا من خسارتى على عمارة سورها “ .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن ابن شداد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٣) .

فأرسل السلطان إلى الملك العادل :

” إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم ، فإن العسكر قد ضجر من ملازمة البيكار^(١) ، والنفقات قد نفدت “ .

ثم إن الانكثير نزل عن عسقلان وعن العوض عنها ، واستوثق منه على ذلك ، فأحضر السلطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان ، وذكر يافا وعملها — فأخرج الرملة منها واذا ومجدليابة^(٢) — ثم ذكر قيسارية وعملها ، وأر سوف وعملها ، وحيفا وعملها ، وعكا [٤٠٩] وعملها — وأخرج منها الناصرة وصفورية — وأثبت الجميع في ورقة ، وقال للرسول :

” هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم ، فإن صالحتم على ذلك فبارك ، وقد أعطيتكم يدي ، فينفذ الملك من يخاف في بكرة غد ، وإلا فيعلم أن هذا تدفيع ومماطلة “ .

وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خرابا ، ويتفق المسلمون وهم على خرابها ، واشترط السلطان دخول بلاد الإسماعيلية ، واشترطوا هم دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في الصلح ، وشرطوا أن تكون الرملة ولد مناصفة بينهم وبين المسلمين ، واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الأربعاء لثمان بقين من شعبان من هذه السنة — أعنى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة — وحلفوا ، ولم يحلف الانكثير ، بل أخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر بأن الملوك لا يحلفون ، وقنع السلطان بذلك^(٣) وحلف الكندهري ، وهو ابن أخته ، وهو المستخاف عنه في الساحل ، وبالبيان بن بارزان — ابن^(٤) صاحب طبرية — .

(١) البيكار — وقد تجمع على بياكير — لفظ فارسي معناه الحرب . أنظر : Dozy : Supp.

• Dict. Ar.

(٢) الأصل : « ومجدل بابا » ، أنظر ما فات حناص ٣٨٢ ، هامش ٢

(٣) النص عن ابن شداد : « وقنع من السلطان بمثل ذلك » .

(٤) الأصل : « وابن » وقد حذفت الواو ليستقيم المعنى .

ووصل ابن الهنفرى وباليان إلى خدمة السلطان ومعهما جماعة من المقدمين ، وأخذوا يده على الصلح ، واستحلفوا الملك العادل ، والملك الأفضل ، والملك الظاهر ، والملك المنصور — صاحب حماة — ، والملك المجاهد — صاحب حمص — ، والملك الأجد — صاحب بعلبك — ، والأمير بدر الدين الباروقى ، وصاحب تل بامر ، والأمير سابق الدين عثمان بن الداية — صاحب شير — ، والأمير سيف الدين المشطوب ، وغيرهم من المقدمين الكبار ، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر ، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أولها [مبتدأ] (١) أولول الموافق الحادى والعشرين من شعبان .

ولما وقعت الهدنة قال أبو الحسن على بن الساعاتى يمدح السلطان الملك الناصر — رحمه الله — من قصيدة :

مُنِعَتْ طِبَاءُ الْمُنْحَنِ بِأُسُودِهِ ،	وَأَشَدُّ مَا أَشْكُوهُ فَتَكَ (٢) طِبَائِهِ
فَعَلَتْ بِنَا وَهِيَ الصَّدِيقُ لِحَاطِهَا	كَظْفَى صِلَاحِ الدِّينِ فِي أَعْدَائِهِ (٣)
سَلَّ عَنْهُ قَلْبَ الْإِنْكَتِيرِ ، فَإِنَّ فِي	خَفَقَانِهِ مَا شِئْتَ مِنْ أَنْبَاءِهِ
لَوْلَاكَ أُمُّ الْبَيْتِ غَيْرَ مَدَافِعٍ	وَأَسَالَ سَيْلَ نَدَاهُ (٤) فِي بَطْحَائِهِ
وَيَكْتُ جَفُونُ (٥) الْقُدْسِ ثَانِيَةً دَمًا ،	لَتَرْنَمُ النِّاقُوسُ فِي أَفْنَائِهِ

(١) ما بين الحاصرتين عن العاد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٣) .

(٢) الأصل : « قتل » ، وما هنا عن (ابن الساعاتى : الديوان ، ج ١ ، ص ٧٧) ر (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٤) .

(٣) ورد هذان البيتان فقط في ختام المقدمة الغزلية للقصيدة بالديوان ، أما بقية الأبيات فقد وردت في الروضتين ، ونقلها عنها فائز الديوان في نهاية الجزء الثانى منه (ص ٤١١) .

(٤) الأصل : « لسان سيل نذاك » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٥) الأصل : « وجرت عيون القدس » ، وما هنا عن الروضتين .

[٤١٠] ثم أمر السلطان أن ينادى في الوطاقات ^(١) والأسواق :

” ألا وإن الصلح قد انتظم ، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل “ .

وكان يوم الصلح يوما مشهودا عمّ فيه للطائفتين الفرح والسرور ، ولم يكن ذلك من إيثار السلطان .

فحكي القاضي بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — قال :

” قال لى السلطان فى بعض محاوراته فى الصلح: أخاف أن أصالح ، وما أدرى أى شئ يكون منى ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقيت لهم هذه البلاد ، فيخرجون لاستعادة ما فى أيدي المسلمين المأخوذة منهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة — يعنى أخاه وأولاده وأولاد أخيه — قد قعد فى رأس قله ^(٢) — يعنى قلعه — ، وقال : ” لا أنزل “ ^(٣) ويهلك المسلمون “ .

قال بهاء الدين :

فكان كما قال ، توفى — رحمه الله — عن قريب ، واشتغل كل من أهل بيته وأولاده بناحية ، ووقع الخلف بينهم ، وأعرضوا عن النظر فى المصلحة العامة للمسلمين ، فلو قدر الله حياته لكان الغالب على الظن أن العدو لا يبقى له فى البلاد الشامية نغرو ولا بلد ، لكن الله تعالى إذا أراد أمرا قدر أسبابه ، وبالجمله فكان

(١) الوطاق لفظ معرب ، وأصله بالتركية : أوتاق أو أوطاق أو أرتاغ ، ومعناه الخيمة أو مجموعة الخيام أو المعسكر .

(٢) الأصل : « تله » ، والتصحيح عن ابن شداد : (الزوضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٤) ، وفى اللسان : (قلة كل شئ رأسه أو أعلاه ، والقلة أعلا الجبل) .

(٣) الأصل : « أويهلك » ، والتصحيح عن ابن شداد (المرجع السابق) .

الصالح مصلحة . إذ لو قدر موته في أثناء تلك الحروب لكان الإسلام على خطر .

ثم رحل السلطان إلى النطرون ، واخذ^(١) الفرنج بعسكر المسلمين ، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة ، ووصل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس للحج ، وفتح لهم السلطان الباب ، ونفَّذَ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم إلى يافا ، وكان غرض السلطان بذلك أن يقضوا وطهرهم من الزبارة ، ويرجعوا إلى بلادهم ، فيأمن المسلمون شرهم .

ولما علم الانكثير كثرة من يزور منهم صعب عليه ، وسير إلى السلطان يسأله منع الزوار ، واقتراح أن لا ياذن لأحد إلا بعد حضور علامة من جانبه أو كتابة ، وعلم الفرنج ذلك فعظم عليهم واهتموا بالحج ، فكان يرد كل يوم منهم جموع كثيرة مقدمون وأوساط وملوك متنكرون .

وشرع السلطان في إكرام من يرد ، ومد الطعام لهم ومباستطهم ومحادثتهم ، وعرفهم إنكار الملك ذلك ، وأذن لهم السلطان في الحج ، وعرفهم أنه لم يلتفت إلى منع الملك [٤١١] من ذلك ، واعتذر إلى الملك بأن قوما قد وصلوا من ذلك البعد ، وتيسر لهم زيارة هذا المكان الشريف لا استحل منهم .

ثم اشتد المرض بالانكثير ، فرحل ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شعبان ، هو والكندهرى وسائر المقدمين إلى ناحية عكا ، ولم يبق في يافا إلا مريض أو عاجز ، ونقر يسير .

(١) الأمل : « راحتا » والتصحيح عن ابن شداد (المرجع السابق) .

ذكر رحيل السلطان إلى القدس ونظره في مصالحة

ثم رحل السلطان إلى القدس في رابع شهر رمضان ، وتفقد أحواله ، وعرض رجاله ، واشتغل بتشييد أسواره وتحصينها ، وتعمير خنادقه ، وزاد في وقف المدرسة المعروفة ، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تُعرف بصند حنه ^(١) يذكرون أن فيها قبر حنة أم مريم — عايتها السلام — ، ثم صارت في الإسلام دار علم قبل أن يملك الفرنج القدس ، وكان يدرس بها العلم الفقيه نصر بن إبراهيم المقدسي قبيل أخذ الفرنج للقدس ، ثم لما ملك الفرنج القدس سنة اثنين وتسعين وأربعمائة أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام ، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة ، ووقف عليها وقوفا جليلة ، وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد ، وترلاها جماعة من الفقهاء ، منهم : نخر الدين بن عساكر ، وتولاها والدي — رحمه الله — من جهة الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل ، وأقمنا بها من سنة اثنين وعشرين وستمائة ^(٢) .

(١) هذا تحريف عن التسمية الفرنسية (Sainte Anne) أي القديسة حنه ، وقد ذكر (كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٢ — ١٢٣) أن هذه المدرسة كانت تعرف بالمدرسة الصلاحية ، فقد وقفها صلاح الدين على الفقهاء الشافعية ، وأرخ لها بقوله إن صلاح الدين كان نازلا في كنيسة صهيون فقاوض جلساءه من العلماء الأكابر في أن يبنى مدرسة للفقهاء الشافعية ورباطا للصالحاء الصوفية ، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة « بصند حنة » عند باب أسباط ، وقيل كان موضع هذه المدرسة ديرا للراحيات أقيم في مكان بيت القديسين : يواكيم وحنة ، فهدمه الملك وأقام المدرسة مكانه ، وتاريخ وقفها سنة ٥٨٨ هـ ، وكان الأتراك تزلوا عن هذه المدرسة للآباء اليعنن في القرن الماضي ، ففعلوها مدرسة أكيركية ، وفي الحرب العامة أخذها الترك وجعلوها مدرسة للعلوم الدينية ، فلما سقط القدس في أيدي الحلفاء رجعت إلى المسيحيين كنيسة .

(٢) هذه إشارة لها قيمتها عند التاريخ لأزلف جمال الدين بن راصل ووالده سالم ، فقد عين المعظم الوالد سالما مدرسا بالمدرسة الصلاحية بالقدس سنة ٦٢٢ هـ ، وظل ابنه جمال الدين مقيا معه بالقدس إلى سنة ٦٢٤ هـ ، وفي تلك السنة سافر الوالد لأداء فريضة الحج ، فتاب ابنه عنه في التدريس بنفس المدرسة إلى قبل رمضان سنة ٦٢٥ هـ . وسيشير المؤلف إلى هذا كله فيما يلي من صفحات هذا الكتاب انظرا أيضا بحثنا الذي لم يطبع بعد عن (جمال الدين بن راصل وكتابه مفرج الكرب في أخبار بني أيوب)

ورتب السلطان أيضا موضعا ملاصقا للآقصى خانقاه للصوفية ، وقف
عليها وقوفا جليلة ، وجعل الكنيسة التي في شارع قمامة بيمارستان ^(١) للمرضى ،
ونقل إليه جميع ما يحتاج إليه ، وفوض ولاية القدس إلى عز الدين جرديك النورى ،
وفوض القضاء والأوقاف إلى القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمهم الله — .

ذكر عزم السلطان على الحج ثم انتقاض عزمه

ولما وقعت الهدنة صمم السلطان على الحج ، وأمر أن يسير مائة نقاب لتخريب
عسقلان وإخراج من بها من الفرنج ليتفرغ سره من جانبها ، ويحج في عامه [٤١٢]
وكتب إلى مصر وإلى أخيه سيف الإسلام — صاحب اليمن — ما عزم عليه ،
وأمر أن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات والخلع
والكسوة ، ثم فند السلطان في عزمه ، وقال له أصحابه :

لا يمكن الحج إلا بعد أمر يكتب إلى الخليفة ، وتعرفه ذلك ، حتى لا يظن
بك أمرا أنت عنه برىء ، والوقت قد ضاق ، وهذه البلاد والمعاقل ربما يخاف
عليها عند غيبتك من غائلة العدو ، ولا تغتر بالهدنة ، فإن القوم دأبهم الغدر
وإذا وجدوا مكنة فعلوا .

فأنحل عزمه عن ذلك واقرعنه .

ذكر مسير السلطان إلى دمشق ووصوله إليها

ثم رحل السلطان من القدس لخمس مضيمن من شوال ، وهو يوم الخميس ، ووصل
يوم الجمعة إلى نابلس ، فتنزل بظاهرها ، وبها صاحبها الأمير سيف الدين على

(١) قال ابن شداد (السيرة اليوسفية ، ص ٢٤٢) : «... وأمرنى بالمقام في القدس الشريف
لعمارة بيمارستان أنشأه فيه ، بإدارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عوده» ، أنظر أيضا : (الروضتين ،
ج ٢ ، ص ٢٠٨) .

ابن أحمد الشطوب ، فشكاه أهلها إلى السلطان ، فأزال شكواهم ، وأمره بالإحسان إليهم والعدل فيهم ، ثم رحل عنها ظهر يوم السبت سابع شوال ، ووصل إلى بيسان يوم الاثنين تاسع شوال ، وصعد قاعتها ، وقال : ” الصواب أن نبني هذه ونخرب كوكب .

ثم وصل إلى كوكب وبات بقلعتها ، ورحل منها يوم الثلاثاء عاشر شوال ، ونزل بطبرية ، ولقي بهاء الدين قراقوش ، وقد خلص من الأسر ، وخلص السلطان بقية أصحابه ، ومضى مع السلطان إلى دمشق ، وسافر قراقوش من دمشق إلى الديار المصرية ، وأقام السلطان يومين لتوالي الأمطار ، ثم رحل يوم الخميس ثاني عشر شوال إلى صفد ، فرتب أمورها ، ثم سار إلى تبين ، ثم وصل إلى بيروت يوم الخميس تاسع عشر شوال ، وبها الأمير عز الدين أسامة .

ووصل إلى خدمته يميند — صاحب أنطاكية — يوم السبت الحادي والعشرين من شوال ، فأكرمه السلطان وآنسه ، ورفع مجلسه ، وأجرى له ولأصحابه العطاء ، وأقطعه من مناصفات أنطاكية ما يبلغه عشرون ألف دينار ، وفارقه غد ذلك اليوم .

ثم سار السلطان إلى دمشق فوصلها يوم الأربعاء بقاء لخمس بقين من شوال ، وفرح الناس به ، لأن غيبته كانت قد [٤١٣] طالت عنهم مدة أربع سنين ، وأفاض العدل والإحسان بدمشق ، وواظب الجلوس في دار العدل في الأوقات التي جرت العادة بالجلوس فيها .

وفي يوم الأحد مستهل ذي القعدة اتخذ الملك الأفضل لأخيه الملك الظاهر دعوة ، وبالع في التجميل ، وحضرها السلطان جبرا لقلبه ، وحضرها جميع الأمراء والأكابر .

وأذن السلطان للعساكر في التفرق إلى بلادهم ، فتفرقوا ، وكان الملك الظاهر — صاحب حلب — قد فارق أباه بالقدس ، ووصل إلى دمشق لما بلغت حركة أبيه

إلى دمشق ، وأقام بها حتى فاز بالنظر إليه ثانيا ، وكأن نفسه حدثه بدنو أجل والده — رحمه الله — ، ثم لما حضر دعوة أخيه ودّع أباه وداعا لم يكن بعده لقاء ، ورحل إلى حاب ، وبقي عند السلطان بدمشق ولده الملك الأفضل نور الدين وجماعة من أولاده ، والقاضى الفاضل .

وكان القاضى بهاء الدين بن شداد قد أمره السلطان بمقامه فى القدس إلى حين عودته ، لأن السلطان كان عزمه أن يعود إلى القدس ، ثم يتوجه منه إلى الديار المصرية ، لأن عهده كان قد بعد عنها .

وكان الملك العادل قد استأذن السلطان فى القدس فى آخر رمضان بأن يمضى إلى الكرك — وهى حصنه ومستقره — ليتفقدّها ، فأذن له فى ذلك ، فمضى إليها وأصاح ما قصد إصلاحه ، ثم رحل منها طالبا للبلاد الشرقية التى أعطاه السلطان إياها ، فوصل إلى دمشق سابع عشر ذى القعدة ، وخرج السلطان إلى لقائه ، وأقام يتصيد حول غباغب إلى الكسوة حتى لقيه ، وسارا جميعا يتصيدان ، ثم دخلا دمشق فى الحادى والعشرين من ذى القعدة .

وفى يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من هذه السنة توفى الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب ^(١) — رحمه الله — بنابلس ، وكانت إقطاعه بعد حسام ^(٢) الدين لاجين ابن أخت السلطان ، فوقف السلطان بعده

(١) سُمى هكذا لشطبة كانت فى وجهه من أثر طعنة فى غزاة حضردا ، هكذا ذكر العماد الأصفهاني وقال : وله مواقف فى الجهاد كثيرة معهودة ، ومقامات مشهورة مشهودة ؛ وقد كان ابن المشطوب زكّيا من الأركان التى قامت عليها دولة بنى أيوب منذ نشأتها ، فهو كردى ، وهو حكارى ، أى أنه ينتمى إلى قيس القبيلة التى ينتمى إليها أسد الدين شيركوه وصلاح الدين ، وقد صحب أسد الدين فى الحملات الثلاث على مصر ، ثم لازم صلاح الدين إلى وقت وفاته ، وكانت له معه مواقف مشهودة أثناء نضاله ضد الصليبيين . أنظر : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٩) ، وسيكون لابنه أحمد بن على مواقف أخرى مع خلفاء صلاح الدين من ملوك البيت الأيوبي ، سترد الإشارة إليها فيما يلى .

(٢) الأصل : « لحسام » ، وقد صححت ليستقيم المعنى .

ثالث نابلس على مصالح القدس وأقطع الباقي للأُمير عماد الدين أحمد بن سيف الدين المشطوب وأميرين معه .

وفي شعبان من هذه السنة توفي السلطان [٤١٤] عز الدين قايج أرسلان ابن مسعود بن قايج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أرسلان بيغو بن ساجوق — سلطان الروم — ، وكان له عشرة بنين ، قد ولى كل واحد منهم قطرا ، وأكبرهم قطب الدين ملك شاه ، وكانت له سيواس ، فاتبع هواه ، وسوّلت له نفسه القبض على والده وبقية إخوته ، وأن ينفرد بالسلطنة ، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان ، فبعث صاحب أرزنكان إلى السلطان عز الدين يطلب منه وزيره اختيار الدين حسين بن عفراس ليتفق معه على مصلحة فيما بين عز الدين وأولاده ، وذلك باتفاق في الباطن بين قطب الدين ملكشاه وبين صاحب أرزنكان ، فظن عز الدين أن الأمر على ما أظهره صاحب أرزنكان ، فبعث وزيره اختيار الدين ، فلما وصل إلى صاحب أرزنكان أوقع عليه صاحب أرزنكان التركمان ، فقتلوه شر قتلة ، ومثلوا به وبولده أقبح مثلة .

ثم سار قطب الدين ملكشاه إلى والده عز الدين فكسره وهجم عليه في مدينة قونية ، وقبض على والده واستقل بالسلطنة ، وقال لوالده : ” أنا بين يديك ، أشفق عليك ، وأنفذ أمرك “ .

ثم إنه قتل جماعة من أمراء أبيه ، وأنشأ له أمراء اختارهم ، وبقى أبوه معه كالمعتقل ليس له أمر ولا نهى ولا تصرف ، ثم إنه أشهد على والده أنه قد جعله ولى عهده ، وأبقى الخطبة والسكة باسم أبيه ، والملك في الظاهر لابنه ، وفي الحقيقة ليس لأبيه إلا مجرد الاسم .

ثم ملك أقصرا ، ثم مضى إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه — صاحب قيسارية — ووالده في القبضه معه ، وهو يظهر أن ما يفعله إنما هو بأمر والده فحضر نور الدين بقيسارية ، ونخرج عسكر قيسارية لحرب قطب الدين .

واغتنم السلطان عز الدين فرصة ، فخرج من صف ابنه قطب الدين هاربا ، ودخل إلى قيسارية ، واجتمع بولده نور الدين سلطان شاه ، فأكرم أباه وعظمه ، ورجع قطب الدين إلى قونية ، وهي دار الملك ، فأقام بها يخطب بالسلطنة لنفسه .

وبقي السلطان قلعج أرسلان يتردد في بلاده بين أولاده من ولد إلى ولد ، ومن بلد إلى بلد ، وكلما ضجر منه واحد منهم [٤١٥] ينتقل إلى آخر ، حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو — صاحب برغلوا — فقوى أباه ، وأعطاه ، وجمع له وحشد ، وجاء معه إلى قونية ، ودخلها وملكها ومضى به إلى أقصرا محاصرا لها ، فامتنعت عاياه ، بجمع الأوجيسة (كذا ؟) الأجناد ، فاتفق أن السلطان عز الدين مرض ومات في التاريخ المذكور ، فتركه ولده غياث الدين كيخسرو في محفة ، وكنتم أمره ، وأظهر أنه مستقل لأجل المرض ، ومضى يمشي قدام المحفة ليوهم الناس حياته ، حتى أتى به قونية ، فدخلها واستقل بقلعتها ، واستحلف الأمراء والأعيان ، ثم أظهر وفاة أبيه ، وأنه ولي عهده ، وقوى على أخيه قطب الدين ملكشاه ، ثم أنه تغلب على غياث الدين كيخسرو ، وأخيه ركن الدين ساميان ، وأخذ منه قونية ، وحرب غياث الدين إلى الشام مستجيرا بالملك الظاهر — صاحب حلب — .

ثم مات ركن الدين سنة ستمائة ، وملك ولده قايج أرسلان ، فرجع غياث الدين إلى البلاد كلها ، واستقرت السلطنة ببلاد الروم للسلطان غياث الدين كيخسرو بن قلعج أرسلان بن مسعود .

ثم توفي غياث الدين كيخسرو ، وملك بعده ابنه عز الدين كيكابوس ابن كيخسرو ، وسند ذكر قصده لبلاد بني أيوب وكسر السلطان الملك الأشرف ابن الملك العادل له .

ثم توفي كيكافوس ، فولى أخوه السلطان علاء الدين كيقيباد بن كيخسروا ، وهو الذى أدركنا زمانه ، وسند ذكر بعض أخباره مع بنى أيوب ، وتوفي علاء الدين سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وولى بعده غياث الدين كيخسروا بن كيقيباد وكسره التتر كسرة عظيمة سنة إحدى وأربعين وستمائة^(١) ، وتضعضع من حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم .

ثم مات غياث الدين ، وخلف صبيين : أحدهما ركن الدين ، و[الآخر] عز الدين ، فلكامعا مديدة ، ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة ، وهرب أخوه عز الدين كيكافوس إلى قسطنطينية ، واستجار بملكها ، وتغلب على ركن الدين معين الدين البرواناه والبلاد فى الحقيقة للتتر ، ونحراج البلاد يحمل إليهم ، ثم قتل معين الدين ركن الدين ، وأبقى إبنه^(٢) لركن الدين يخطب له بالسلطنة ، والحكم [٤١٦] للبرواناه وهو نائب التتر بالبلاد ، والأمر على ذلك إلى اليوم .

وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين - رحمه الله - قد بعث رسوله للقاضى شمس الدين محمد بن محمد بن موسى - المعروف بابن الفراش - رسولا إلى السلطان عز الدين بن قايح أرسلان وأولاده الإصلاح بينهم ، فتدد إليهم مرارا أكثر من سنة ، ولما عاد إلى ماطية توفي بها فى شهر ربيع الأول من هذه السنة .

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والملك الناصر مقيم بدمشق على أكل ما يكون من المسرة ، ورسل الأمصار واردون إلى بابه ، وهو يجلس كل يوم لإسداء المكارم وكشف المظالم ، ثم برز إلى الصيد من شرق دمشق بزاد خمسة

(١) لهذا النص أهمية : فهو يدل على أن المؤلف كان يكتب هذا القسم من كتابه بعد سنة ٦٤١ هـ .

(٢) هذا الابن هو غياث الدين كيخسرو الثالث ، ولى الحكم سنة ٦٦٣ هـ ، وعمره ستان ونصف ،

فهذا النص يدل على أن أبرو أص كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٦٣ هـ ، راجع : (زامبور :

معجم الأنساب . . . الخ . الترجمة العربية : ص ٢١٨) .

عشر يوماً، وصحبته أخوه الملك العادل ، وأبعد في البرية، ثم عاد إلى دمشق وودّعه الملك العادل وداعاً لالقاء بعده ، فمضى إلى الكرك وأقام به إلى أن بلغت وفاته السلطان — رحمه الله — .

قال القاضي بهاء الدين ابن شداد :

وخرجت من القدس يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم ، وكان وصولي إلى دمشق ثاني عشر صفر ، وكان الملك الأفضل حاضراً في الإيوان الشمالي ، وفي خدمته خلق من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان ، فلما شعر السلطان بحضورى استحضرنى وهو وحده قبل أن يدخل إليه أحد ، فدخلت عليه — رحمه الله — فقام ولقبنى ملق ما رأيت أشد من بشره فيه ، ولقد ضمنى إليه ودمعت عيناه .

وفي ثالث عشر صفر طلبنى فحضرت ، فسألنى عن من هو في الإيوان، فأخبرته أن الملك الأفضل جالس في الخدمة ، والأمراء والناس في خدمته ، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة إقبال .

ثم استحضرنى يوم الخميس رابع عشر صفر ، وهو في صُفَّة^(١) البستان وعنده أولاده الصغار ، فسأل عن الحاضرين فقبل : رسول الفرنج وجماعة من الأمراء الأكابر ، فاستحضر الفرنج إلى ذلك المكان فحضروا ، وكان له ولد صغير يسمى أبابكر ، وكان كثير الميل إليه ، وكان حاضراً وهو — رحمه الله — يداعبه ، فلما وقع بصره على الفرنج ورأى أشكالهم [٤١٧] خاف منهم وبكى ، فاعتذر السلطان إلى الفرنج وصرّفهم بعد أن حضروا ، ولم يسمع كلامهم ، وقال لى : ”أكتب اليوم شيئاً؟“ ، وكانت عادته — رحمه الله — هذه المباشطة ، ثم قال : ”أحضروا لنا ماتيسر“ ، فأحضروا أرزا بلبن ، وما أشبهه من الأطعمة الخفيفة،

(١) لشرح هذا اللفظ راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٦٢ ، هامش ٤) .

فاكل — رحمه الله — وكنت أظن بأنه ليس عنده شهوة ؛ وكان في هذه الأيام يعتذر للناس بثقل الحركة عليه ، وكان بدنه ممتلئا وعنده تكسل ، فلما فرغنا من الطعام قال :

ما الذى عندك من خبر الحاج ؟

فقلت :

”اجتمعت بجماعة منهم في الطريق ، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم“ .

فقال :

”نخرج إن شاء الله إلى لقائهم“ .

وأمر بتنظيف طريقهم من المياه ، فإنها كانت سنة كثيرة الأنداء ؛ وقد سالت المياه في الطرق كالأنهار .

وانفصلت من خدمته ولم أجد عنده من النشاط ما كنت أعرفه منه .

ثم بكر في يوم الجمعة خامس عشر صفر فركب ؛ ثم لحقته وقد لقي الحاج ، ولم أجد عليه كراغندا^(١) وما كان له عادة أن يركب بدونه ، وكان يوما عظيما قد اجتمع فيه للقاء الحاج والتفرج على السلطان معظم من في البلد ، فأذكرته ذلك فكأنه استيقظ ، فطلب الكراغند فلم توجد ، فأوقع الله في قلبي تطيرا بذلك ، ولما لقي السلطان الحاج استعبرت عيناه كيف فاته الحاج ، وسألهم عن أحوال مكة وأميرها ، وحال الخصب بها ، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها ، والفقراء المجاورين له ورواتبهم وإداراتهم ، وسر بسلامة الحاج .

(١) أنظر ما فات هناك ، ، هامش ه .

ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب ،
فتلقاه بالإكرام ؛ قلت : أظنه هو الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ، فإن
أباه أخرجه من عنده مرتين خوفا على نفسه منه ، وسنذكر أخباره في موضعه
اللائق به إن شاء الله تعالى .

ثم سار السلطان بين البساتين يطاب جهة المنيع حتى أتى القاعة ، فعبّر على
الجسر إليها ، وكانت هذه آخر ركباته — رحمه الله — .

ذكر وفاة السلطان الملك الناصر

صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب — رحمه الله تعالى —

ولما دخل السلطان إلى القلعة بعد لقاء الحاج وجد ليلة السبت سادس
عشر صفر كسلا عظيما ، فـ [٤١٨] انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية
وكان مافي باطنه منها أكثر مما في ظاهره ، وأصبح يوم السبت وعليه أثر الحمى ،
ولم يظهر للناس ذلك .

قال القاضي بهاء الدين :

فحضرت عنده أنا والقاضي الفاضل ، ودخل ولده الملك الأفضل ،
وطال جلوسنا عنده ، وأخذ يشكو من قلقه بالليل ، وطاب له الحديث
إلى قريب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدم إلينا بالحضور
على الطعام في خدمة ولده الملك الأفضل ، ولم يكن للقاضي الفاضل
عادة بذلك ، فانصرف^(١) ، ودخلت الإيوان القبلي وقد مدّ الطعام ،
والملك الأفضل قد جلس في موضعه ، فانصرفت ، وما كان لي قوة على الجلوس

(١) الأصل : « فانصرفت » والصحيح عن ابن شداد .

استباحاشا، وبكى في ذلك اليوم جميع من حضر، وتفاولنا يجلس ولده في موضعه ؛
ثم أخذ المرض يتزايد من حينه ، ونحن نلازم التردد في طرفي النهار ، وأدخل أنا
والقاضي الفاضل في النهار مرارا ، ونُعْطى ^(١) الطريق في بعض الأيام التي يجد
فيها خفة .

وكان مرضه في رأسه ، ورأى الأطباء فصده فتصدوه في الرابع ، فاشتد
مرضه ، وَقَلَّتْ رطوبات بدنه ، وتزايد به المرض إلى أن انتهى إلى غاية الضعف ،
ولقد إجلسناه في السادس من مرضه ، وأسندنا ظهره إلى مخدة ، وأحضرنا
ماء فاترا ليشربه عقيب شراب يابن الطبع ، فوجده شديد الحرارة ، فشكا ^(٢) من شدة
حرّه ، فغير وعُرض عليه ثانيا ، فشكا ^(٢) من برده ، ولم يفضب ، ولم يقل سوى هذه
الكلمات :

” سبحان الله ، لا يمكن أحد تعديل الماء ؟ “

نخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء ، والقاضي الفاضل
يقول :

” أبعد هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ، والله لو أن
هذا بعض آحاد الناس كان قد ضرب بالقدح رأس من أحضره “ .

واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ، ولم يزل متزايدا ^(٣) ويغيب ذهنه ،
ولما كان التاسع حدث به رعشة ، وامتنع من تناول المشروب ، واشتد
الرجاف في البلد ، ونقلوا الأقمشة من الأسواق ، وغشى الناس من البكاء والحزن
ما لا يمكن حكايته .

(١) الأصل ، « راعط » .

(٢) الأصل : فشكى .

(٣) الأصل : « متزايد » .

ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثلث أو قريب [٤١٩] منه ، ثم نحضر في باب الدار ، فلما وجدنا طريقا دخلنا وشاهدناه ، وإلا انصرفنا ، وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا .

ولما كان اليوم العاشر من مرضه حُقن دفتين ، وحصل له من الحقنة راحة ، وحصل بعض الخفة ، وتناول من ماء الشعير مقدارا جيدا صالحا ، وفرح الناس فرحا شديدا ، فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع ، ثم أتينا باب الدار فوجدنا جمال الدولة إقبالا ، فالتسنا منه تعريف الحال المتجدد ، فدخل ثم أنفذ إلينا مع الملك المعظم توران شاه — ولد السلطان — يقول : ” إن العرق قد أخذ في ساقيه “ ، فشكرنا الله تعالى على ذلك ، وانصرفنا طيبة قلوبنا ، ثم أصبحنا فأخبرنا أن العرق قد أفرط حتى نفذ من الفراش ، وتأثرت به الأرض ، وأن اليبس قد تزايد تزايدا عظيما ، وخارت القوة ، واستشعر الأطباء .

ولما رأى الملك الأفضل ما حلَّ بوالده^(١) وتحقق اليأس منه شرع في تخليف الناس ، وجلس في دار رضوان المعروفة بسكناه ، واستحضر القضاة ، وعمل له نسخة يمين^(٢) مختصرة محصاة للمقاصد^(٣) ، تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته ، وله بعد وفاته ، واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتد ، وما يعلم ما يكون .

وكان ممن حلف من أعيان الأمراء : سعد الدين مسعود أخو بدر الدين مودود الشحنة ،^(٤) وناصر الدين منكورس بن ناصر الدين نهارتكين — صاحب صهيون —

(١) الأصل : « بولده » .

(٢) الأصل : « نسختين مختصرة ... الخ » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٣)

(٣) الأصل : « للقاصد » ولا يستقيم بها المعنى ، والتصحيح عن ابن شداد .

(٤) الأصل : « سعد الدين مسعود وأخوه بدر الدين مودود والشحنة ناصر الدين الخ ... » وهي عبارة مضطربة ، وقد صححت بمراجعة (ابن شداد : السيرة الیوسفية ، ص ٢٤٨) و(الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٣) .

وسابق الدين عثمان بن الداية — صاحب شيرز — ، وخوشتين ^(١) الهكاري ، ونوشروان الزرزارى ، وعالكان ، ومنكلان ، ثم مدد الخوان وأكلوا .

ولما كان العصر أعيد بمجلس التحايف ، وأحضر فارس الدين ميمون القصرى ، وشمس الدين سنقر الكبير ، وعز الدين أسامة ^(٢) ، وسنقر المشطوب ^(٣) ، والفارس البكى ^(٤) ، وأيبك الأنطس ^(٥) ، وأخو [الأمير] سياروخ ^(٦) ، وحسام الدين بشارة ، ولم يحضره أحد من الأمراء المصريين ، ولا تعرض لهم .

ولما كانت ليلة الأربعاء [٤٢٠] السابع والعشرين من صفر من هذه السنة — أعنى سنة تسع وثمانين وخمسمائة — وهى ليلة الثانى عشر من مرضه ، اشتد بالسلطان المرض ، وضعفت قوته ، ووقع فى أوائل الأمر من أول الليل ، واستدعيت أنا والقاضى الفاضل فى تلك الليلة ، والقاضى محيى الدين بن زكى الدين ، وهو يومئذ قاضى القضاة بدمشق ، ولم تكن عادته الحضور فى ذلك الوقت ، وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده ، فلم ير القاضى الفاضل ذلك رأيا ، فإن الناس كانوا فى كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة ، وخاف أن لا تنزل فيقع الصوت فى البلد ، وربما نهب الناس بعضهم بعضا ، فرأى المصلحة فى نزولنا ، واستحضر الشىخ أبى جعفر — إمام الكلاية — لبيت فى القلعة ، حتى إن احتضر بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء ، وذكره بالشهادة ، ففعل ذلك ، ونزلنا .

(١) الأصل : « جومرين الهكاري » ، والتصحيح عن ابن شداد والروضتين .

(٢) الأصل : « شامة » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٣) الأصل : « المطلوب » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٤) الأصل : « البك » ، والتصحيح عن : (الروضتين » ج ٢ ، ص ٢١٢) .

(٥) الأصل : « فطيس » ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٦) الأصل : « وأخو ساروج » وقد أضيف ما بين الحاءين وصحح الاسم عن المرجع السابق .

ودُكر عن الشيخ أبي جعفر أنه قرأ عنده القرآن ، وكان ذهنه غائبا ، فلما انتهى إلى قوله تعالى : ” هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ (١) “ سمعه وهو يقول : ” صحيح “ ؛ وهذه لفظة في وقت الحاجة وعناية من الله به .

وقيل إنه لما بلغ أبو جعفر في قراءته قوله تعالى : ” لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ “ (٢) تبسم وتهال وجهه وسلمها .

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء المذكور ، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته . قال القاضي بهاء الدين :

” ووصات أنا وقد مات ، وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرامته “ .

ذكر جلوس الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن على

ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين

للغزاة وتجهيز السلطان ودفنه

ثم جلس الملك الأفضل للغزاة في الإيوان الشمالي ، وحفظ باب القاعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين ، وكان يوما عظيما .

وكان أولاد السلطان يخرجون مستغيثين بين الناس ، فتكاد النفوس تهرق لهول منظرهم ، واشتد بكاء [٤٢١] الناس وحزنهم ، ودام الحال كذلك إلى بعد صلاة الظهر ، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه .

(١) السورة ٥٩ (الحشر) ، الآية (٢٢) م .

(٢) السورة ٩ (التوبة) ، الآية ٢٩ (ك) .

قال القاضي :

فما مكا أن ندخل في تجهيزه حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى في ثمن التبن الذي يأت به الطين ، وغسله الفقيه الدولعي — خطيب دمشق — ، وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فوط ، وجميع ما احتاج إليه في تكفينه أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه ، وصلى عليه الناس أرسالا ، وأول من أم^(١) بالناس قاضي القضاة محي الدين بن زكي الدين ، ثم أعيد — رحمه الله — إلى الدار التي في البستان التي كان ممرضا بها ، ودفن بالصفة القريبة منها ، وكان نزوله إلى حفرة قريب صلاة العصر ، ونزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر خضر^(٢) — المعروف بالمشمر — وهو شقيق الملك الأفضل ، يعزى الناس ، ويسكن قلوب الرعية .

واشتغل الأفضل بكتب الكتب إلى إخوته : الملك العزيز بمصر ، وكذلك إلى الملك الظاهر — صاحب حلب — ، وعمه الملك العادل — وكان بالكرك — يخبرهم بهذا الحادث .

(١) الأصل : « أقام » ، والتصحيح عن : ابن شداد ، والروضتين .

(٢) هو الملك الظافر خضر ، لقبه مظفر الدين ، وكنيته أبو الدوام ، وأبو العباس ، قيل له « المشمر » لأن أباه لما قسم البلاد بين أولاده الكبار ، قال « وأنا مشمر » فغلب عليه هذا اللقب ، ولد بالقاهرة في خامس شعبان سنة ٥٦٨ هـ ، وهو شقيق الملك الأفضل ، حج على تيماء سنة ٦١٠ هـ ، فلما وصل إلى بدر وجد عسكر الملك الكامل قد سبقه خوفا منه على اليمن ، وأمره بالرجوع ، فقال : « قد بقي بيني وبين مكة مسافة يسيرة ، والله ما قصدى إلا الحج . فقيدوني حتى أقضى مناسكي وأعود ، فلم يلتفتوا إليه ، فأراد أن يقاتلهم فلم يكن له بهم طاقة ، فعاد بلا حج ، وتوفي في جمادى الأولى — أو الآخرة — سنة ٦٢٧ هـ بحران عند ابن عمه الملك الأشرف موسى ، ولم يكن وقتذاك ملكها ، وإنما كان مجتازا لها عند دخوله بلاد الروم . انظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٦ ، ص ٢٠٤ — ٢٠٦) و (الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ١٧٣) .

وفي اليوم الثاني جلس للغزاء جلوسا عاما، وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء، وتكلم المتكلمون، ولم يؤذن لأحد من الشعراء أن ينشد شيئا^(١)، واستمر حضور الناس بكثرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له.

وما زال الملك الأفضل مفكرا في موضع ينقله إليه، واستشار في ذلك، فأشير عليه في سنة تسعين وخمسمائة بأن يبنى تربته عند مسجد القدم، ويبني عندها مدرسة للشافعية وقالوا: "إذا وصل الملك العزيز استغنى^(٢) بزيارتها عن الدخول إلى دمشق"، وقالوا: "إن السلطان - رحمه الله - لما مرض سنة إحدى^(٣) وثمانين وخمسمائة ببحران أوصى أن يدفن بدمشق قبلي ميدان الحصا، ويكون قبره على النهج السابيل [وطريق القوافل]^(٤)، ليدعوله البادي والحاضر، والوارد والصادر".

فأمر الملك الأفضل ببناء التربة عند مسجد القدم، وتولى [٤٢٢] عمارتها بدر الدين مودود - وإلى دمشق -، فاتفق وصول الملك العزيز تلك السنة للمحصار، وهم قد شرعوا في عمارتها، فخرب ما كان قد ارتفع من البناية، ثم استقرأ^(٥) الملك الأفضل حدود الجامع ليجعل التربة فيها، فوفق^(٦) لدار كانت لبعض الصالحين، وهى في حد البنيان الذى زاده القاضي الفاضل في المسجد، فاشتراها منه وأمر بعمارها [قبة]^(٤) وعمرت، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة بكرة الخميس.

(١) الأصل: «شيء».

(٢) الأصل: «استغنا».

(٣) الأصل: «أحد».

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين عن العماد: (الروضتين، ج ٢، ص ٣٢٤).

(٥) الأصل: «اشترى»، والتصحيح عن المرجع السابق.

(٦) الأصل: «فاتفق»، والتصحيح عن المرجع المقول عنه هنا وهو العماد (الروضتين، ج ٢،

ومشى الملك الأفضل بين يدي تابوته ، وحمله مماليكه وخدمه وأمرأؤه وأولياؤه ،
وأراد العلماء والفقهاء حمله على أعناقهم فمنعهم الملك الأفضل من ذلك ، وقال لهم :
”يكفيه أدعيتكم الصالحة التي هي في المعاد جنته“ ، وأخرج من باب القلعة في البلد
على دار الحديث إلى باب البريد ، وأدخل منه إلى الجامع ، ووضع قدّام [باب] (١)
النسر ، وصلى عليه القاضي محي الدين بن زكي الدين ، ثم حمل إلى ملحه ، ودخل
إلى لحده الملك الأفضل ، ثم سد باب اللحد على أبيه ، وجلس في الجامع ثلاثة
أيام للغزاء ، وأنفقت ست الشام — أخت (٢) السلطان — في هذه النوبة
أموالا جزيلة .

ذكر مبلغ عمره وأولاده وتركته

كان مولده — رحمه الله — في شهر سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة ، فكان
عمره قريبا من سبع وخمسين سنة ، وكانت مدة ملكه الديار المصرية نحو أربع
وعشرين سنة ، وما لكة للشام قريب من تسعة عشرة سنة ، وخلف سبعة عشر ولدا
ذكرا ، وبنتا واحدة ، فأما أولاده المذكور فهم :

الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي — وهو أكبرهم — ، ومولده بمصر
يوم عيد الفطر سنة خمس وستين وخمسمائة ، وكان عمره يوم ولي الملك بعد أبيه
نحو من أربع وعشرين سنة .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن المعاد : (الروضتين ؛ ج ٢ ؛ ص ٢١٤) .

(٢) الأصل : « بنت أخت » وهو خطأ ، والصحيح ما أثبتناه .

والملك العزيز [أبو الفتح] ^(١) عماد الدين عثمان — صاحب مصر — ، ومولده بمصر ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسة .

والملك الظاهر [أبو منصور] ^(١) غياث الدين غازي — صاحب حلب — ومولده بمصر . [٤٢٣] [منتصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسة] ^(٢) .

والملك المفضل قطب الدين موسى . [ثم نعت بالمظفر ، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين] ^(٣) .

والملك الظافر مظفر الدين [أبو العباس] ^(٤) خضر ، — وهما شقيقا الملك الأفضل .

والملك الأغر [أبو سيف] ^(١) شرف الدين يعقوب ، [ولد بمصر في ربيع الآخر سنة اثنين وسبعين] ^(١) — وهو شقيق الملك العزيز — .

والملك الزاهر [أبو سليمان] ^(١) مجير الدين داود — وهو شقيق الملك الظاهر — [ولد بمصر في ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين] ^(١) .

والملك المؤيد [أبو الفتح] ^(١) نجم الدين مسعود [ولد بدمشق في ربيع الأول سنة إحدى وسبعين] ^(١) .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦) .

(٢) الأصل : « ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسة » وهو خطأ ، وما بين الحاصرتين هو الصحيح نقلناه عن العماد (المراجع السابق) .

(٣) زيد ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦) . راجع أيضا : (الحنبل : شفاء القلوب ، ص ١٥٤) .

(٤) زيد ما بين الحاصرتين عن العماد . انظر أيضا ما فات هنا ص ٤٢١ ، هامش ٢

والملك المعز [أبو يعقوب] ^(١) فتح الدين إسماعيل [ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبعين] ^(١) .

وشقيقه الملك الجواد [أبو سعيد ركن الدين] ^(١) أيوب [ولد في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين] ^(١) .

والملك الأشرف [أبو عبد الله] ^(١) نصير الدين ^(٢) محمد [ولد بالشام سنة خمس وسبعين وخمسمائة] ^(١) .

وشقيقه الملك المحسن يمين الدين ^(٣) أحمد [ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين] ^(١) .

والملك المعظم نحر الدين [أبو منصور] ^(١) توران شاه [ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين] ^(١) .

وشقيقه الملك الغالب [أبو الفتح ملكشاه ، مولده بالشام في رجب سنة ثمان وسبعين] ^(٤) .

والملك المنصور سيف الدين أبو بكر [وهو أيضا أخو المعظم لأبويه ، ولد بمحران بعد وفاة السلطان] ^(٥) .

(١) زيد ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦)

(٢) عند العماد : « عز الدين » انظر أيضا : (الشفاء) .

(٣) كذا في الأصل ، وعند العماد : « ظهير الدين » ، وفي (الشفاء) : « زين الدين » ، وقيل ظهير الدين .

(٤) الأصل : « الذائب فروخ شاه » وقد صحح وأضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٧) و(الختل : شفاء القلوب ، ص ١٥٤) .

(٥) أضيف ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٧) .

[ونصرة الدين مروان لأم ولد]^(١) .

وعمد الدين شاذى [لأم ولد]^(٢) .

وأما البنت [فهى مؤنسة خاتون ، تزوجها]^(٣) ابن عمها الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب^(٤) .

ولم يخلف — رحمه الله — على ما ذكره القاضى بهاء الدين فى خزانته إلا سبعة وأربعين درهما وجرما^(٥) واحدا صوريا ، وهذا من مثل رجل له الديار المصرية والشامية وبلاد الشرق واليمن دليل قاطع على فرط جوده ، ولم ينقل عن أحد غيره له مثل هذه المملكة لم يوجد فى خزانته إلا هذا القدر اليسير التافه ولم يخلف دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ، ولم يكن له رغبة فى زخرفة بنيان ولا حسن مسكن .

(١) الأصل : « وشقيقه نصرة الدين إبراهيم » ، وما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٣) الأصل : « أما البنت فتزوجها » وقد عدلت الصيغة وذكر اسم البنت عن المرجع السابق ، وانظر : أيضا (شفاء القلوب ، ص ١٧٤) .

(٤) وقد أضاف سبط ابن الجوزى فى (مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤٣٤) أن صلاح الدين كان له ولد اسمه إسماعيل مات فى حياة أبيه ، وحدد : (الحنبل : شفاء القلوب ، ص ١٥٤) العلاقة بين هؤلاء الأولاد بعضهم ببعض الآخر ، قال : « الأشقاء منهم ثلاثة : على ، خضر ، موسى ؛ ثلاثة أيضا : تورانشاه ، ملكشاه ، أبوبكر ؛ اثنان : عثمان ، يعقوب ؛ اثنان آخر : غازى ، دارد ؛ اثنان آخر : محمد ، أحمد » .

(٥) كذا فى الأصل وفى (سبط ابن الجوزى ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤٣٢ — قلا عن ابن شداد —) وعند ابن شداد (فى الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٧) : « دينار » ، ويبدو أن لفظ جرم كانت تعنى دينار ، فقد ورد فى (مرآة الزمان ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٣٣) : « وقال العماد الكاتب : لم يخلف فى خزانته سوى ستة وثلاثين درهما ، ودينارا واحدا ذهابا » ، هذا ولم أعثر فى المعاجم التى بين يدي على أن لفظ « جرم » يعنى الدينار ؛ وعن الدينار الصورى انظر ما فات هنا ، ص ٧٦ .

ذكر جمل من سيره — رحمه الله —

ما نقل من أوصافه في الكرم المفرط والشجاعة والعدل وحسن السيرة والحكم أكثر من أن يحصى ، فنذكر من ذلك ما تيسر لنا ذكره .

قال عماد الدين الكاتب :

حسبت ما أطلقه السلطان بمرج عكا من خيل عراب وأكاديش ^(١) للحاضرين معه في الجهاد فكان إثني عشر ألف رأس ، وذلك غير ما أطلقه من أثمان الخيل المصابة في القتال ، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به ، وصاحبه ملازم في طلبه .

وذكر أنه تأخر عنه في بعض أسفاره الأمير أيوب بن كان ، فلما وصل سألته عن سبب تخلفه ، فذكر ديناً ، فأحضر غرماءه وتقبل الدين ، وكان إثني عشر ألف دينار مصرية وكسرا .

(١) إكديش وكديش — والجمع أكاديش أو كُدُش أو كُدُشان — ، عن الفارسية « أكدش » أو التركية (إكُدش ، إغُدش ، إكُدج ، إغُدج) ، وهو لفظ كان يطلق على الحصان الخليط ، أو غير الأصيل ، أو الصغير غير الجيد (Cheval de race mélangés, qui n'est point de race, mazette, mauvais petit cheval) وقد يعنى اللفظ أحيانا الخيل الصغيرة الجياد (الأكاديش الجياد) ، وهذه ما كان سلاطين المماليك يقدمونها هدايا للأمراء . انظر (Dozy : Supp. Dict.) وهذا النص عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٧) — وهو المرجع المتقول عنه هنا — أكثر إيضاحاً وتفصيلاً ، قال : « وحسب ما ربه من الخيل العراب والأكاديش الجياد للحاضرين معه في صف الجهاد ، مدة ثلاثة سنين وشهر منذ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة ثمان وثمانين ، فكان تقديره اثني عشر ألف رأس من حصان وحجرة وإكديش ... الخ » .

وقال :

لما كنا بالقدس سنة ثمان وثمانين [٤٢٤] وخمسمائة كتب إليه سيف الدين^(١) بن منقذ — نائبه بمصر — أن واحدا ضمن معاملة بمبلغ ، فاستنص منها ألفي دينار ، وتسحب ، وربما وصل إلى الباب ، فتحيل وتمحل وكذب ، فجاء من أخبر السلطان أن الرجل بالباب ، فقال : ” قل له : ابن منقذ يطلبك ، فاجتهد ألا تقع في عينه “ ، فعجبنا من حلمه وكرمه بعد أن قلنا : قدم الرجل إلى حتفه بقدمه .

وذكر أنه حوسب صاحب ديوانه^(٢) فكانت سياقة^(٣) الحساب عليه سبعين ألف دينار [بأقية عليه]^(٤) ، فما طلبها ولا ذكرها ، وأراه أنه ما عرفها ، على أن صاحب الديوان ما أنكرها ، ثم لم يرض بالمطلة له فولاه ديوان جيشه .

(١) كذا في الأصل ، وهو عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٨) : « سيف الدولة » .

(٢) حدد العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٨) — وهو المرجع المقول عنه هنا — السنة التي حدثت فيها هذه الحادثة ، قال : « وما أذكره له في أول سفره معه إلى مصر سنة اثنين وسبعين أنه حوسب صاحب ديوانه ... الخ » .

(٣) يفهم من النصوص في مراجع العصريين الأيوبي والملوك أن « السياقة » تعني كشف الحساب الختامي أو الميزانية العامة ، وقد ورد في : (التويري : نهاية الأرب ، ج ٨ ، ص ٢١٣ — ٢١٤) عند كلامه عن مباشرة الخزانة : « فالعبدة فيها على العدالة والأمانة ، لأن خزائن الملوك في هذا العصر لسعتها وكثرة حواصلها وعظم ذخائرها لا تنضبط بسياقة ، فإنه لو طوب كاتب الخزانة بعمل سياقة لحواصلها عن سنة احتاج إلى أن ينصب لكتابتها سنة كاملة لا يشتغل فيها بغيرها ... الخ » ، ثم ذكر بعد ذلك الأمور التي يحتاج إليها مباشرة الخزانة عند عمل السياقة ، وجاء في (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٢) : « علم السياقة والحساب لضبط المملكة وحصر الدخل والخرج » ، وفي (ص ١١١) ، أنه في عهد عبد الملك بن مروان « قل الديوان من الفارسية إلى العربية ، واخترعت سياقة المستعربين » .

(٤) أصيف ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٨) .

وذكر من ورعه أنه قال :

”رأى لى يوما دواة محلاة بالفضة فأنكرها ، وقال : هذا حرام ، فقلت له على سبيل المدافعة والممانعة والمناظرة : أو ليس يحل حلية السلاح واستصحابه في الكفاح؟ ودواتى أنجع ، ومداد دواتى أنفع ، ويراع يراعى القصير أطول ، وسلاح قلبي أحد وأفتك وأقتل ، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلبي ، ولا تفرقت جموع الكفر إلا بكلمها بجوامع كلمي ، فقال : ليس هذا دليلا صالحا ، فقلت له : إن الشيخ أبا محمد والد إمام الحرمين قد ذكر وجهها في جوازه “ .

ثم لم أعد بعدها أكتب بتلك الدواة عنده .

وقال :

وما رأيته صلى إلا في جماعة ، ولا أخر صلاة عن وقتها ، وكان له إمام راتب ملازم ، فإن غاب صلى به من حضر من أهل العلم ، وكان إذا عزم على أمر من الأمور توكل على الله تعالى ، ولا يفضل يوما على يوم ، ولا زمانا على زمان .

وحكى القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — قال :

”كان لاسلطان — رحمه الله — ركعات يركعها قبل الصبح إن استيقظ بوقت من الليل ، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح ، قال : لقد رأيته يصلى في المروضة التى مات فيها قائما ، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التى تغيب فيها ذهنه .

وذكر من عدله :

أنه استغاث إليه رجل من أهل دمشق يقال له ”ابن زهر“ على تقي الدين ابن أخيه ، فأنفذ إليه ليحضر في مجلس الحكم فما خلصه إلا أن أشهد عليه [٤٢٥] شاهدين أنه قد وكل للقاضى أمين الدين أبى القاسم — قاضى حماة — في المخاصمة

فأقاماً^(١) الشهادة عندي في مجنسه ، فأمرت أمين الدين بمساواة الخصم فساواه ، وكان القاضي أمين الدين أبو القاسم الحموي — قاضي حماة — من أكابر جلساء السلطان ، ثم جرت المحاكمة بينهما ، واتجهت [اليمين]^(٢) على الملك المظفر تقي الدين ، وكان من أعز الناس على السلطان وأعظمهم عنده .

قال القاضي بهاء الدين :

”وكنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل على رجل تاجر معروف يسمى^(٣) ”عمر الخلاطي“ ، ومعه كتاب حكى ، وسأل فتعده ، وقال : خصني السلطان ، وهذا بساط الشرع ، وقد سمعت أنك لاتحابي“

فقلت :

”وفي أي قضية هو خصمك؟“

فقال :

إن سنقر الخلاطي هو مملوكي ، ولم يزل على ملكي إلى أن مات ، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ، ومات عنها واستولى عليها السلطان ، وأنا مطالبه“

فقلت :

”ياشيخ ، وما الذي أقعدك إلى هذه الغاية ؟“

فقال :

”الحقوق لا تبطل بالتأخير ، وهذا الكتاب الحكيم ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات“

(١) الأصل : « فأما » والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٠) .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢) .

(٣) الأصل : « ومعه » والتصحيح عن المرجع السابق .

فأخذت الكتاب وتصفحت مضمونه ، فوجدته يتضمن : حلية سنقر الاخلاطى ، وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش^(١) فى اليوم الفلانى فى الشهر الفلانى من سنة كذا ، وأنه لم يزل فى يده إلى أن شدَّ عن يده فى سنة كذا ، وما عرف شهود هذا الكتاب نروجه عن يده بوجه ما ، وتم^(٢) الشرط إلى آخره .

فتعجبت من هذه القصة ، وأعلنت السلطان بذلك ، فأحضره واستدناه ، حتى جلس بين يدى ، وكنت إلى جانبه ، ثم انفرك عن طراحته حتى ساواه — رحمه الله — ، ثم ادعى الرجل ، وفتح كتابه ، وقرأ تاريخه ، فقال السلطان

”[إن لى]^(٣) من يشهد أن هذا سنقر فى هذا التاريخ كان ملكى وفى يدى فى بمصر ، وأنى اشتريته مع ثمانية أنفس فى تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة ، وأنه لم يزل فى يدى وملكى إلى أن أعتقته“

ثم أحضر جماعة من أعيان الأمراء المجاهدين فشهدوا بذلك ، وحكوا القصة [٤٢٦] على ما ذكره ، وذكروا التاريخ كما ادعاه السلطان ، [فأبلس الرجل ، فقلت له : ”يامولانا هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلبا لمراحم السلطان“]^(٤) وقد حضر بين يدى المولى ، وما يحسن أن يرجع خائب القصد ، فقال : ”هذا باب آخر“ ، وتقدم له بنحلة ونفقة بالغة“ .

(١) الأصل : « بأرجلس » والتصحيح عن المرجع السابق ، وفى (ياقوت . معجم البلدان)

أرجيش من نواحي أرمينية الكبرى قرب خلاط ، وأكثرا أهلها أردمن نصارى .

(٢) الأصل : « ثم » ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) أضيف ما بين الحامرتين عن المرجع السابق ليستقيم المعنى .

(٤) هذه الفقرة ساقطة من الأصل ، وقد أضفناها عن المرجع المنقول عنه هنا ، وهو ابن شداد .

وحكى من بسالته وشجاعته :

أنه كان إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد ، وعلى يده جيب ، ويحرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة يرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالوقوف في مواضع يراها .

ولقد قرئ عليه جزء من الحديث بين الصفين ، وذلك أنى قلت له : قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ، وما نقل أنه سُمع بين الصفين ، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسا ، فأذن فيه ، فأحضر جزءا هناك مما له به سماع ، فقرأ عليه ، ونحن على ظهور الدواب بين الصفين ، نمشى تارة ونقف أخرى .

ولقد انهزم المسلمون يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ، ووقع الكوس والعلم ، وهو ثابت القدم في نفر يسير ، وقد انحاز إلى الجبل ، فجمع الناس وردهم ونجّاهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى كثر المسلمون على العدو ، وفي ذلك اليوم قتل منهم زهاء سبعة آلاف مابين فارس وراجل ، ولم يزل مصابرا لهم إلى أن صالحهم حين رأى ظهور ضعف المسلمين ، ورأى المصلحة لهم في ذلك .

وحكى من قوة عزمه على الجهاد وشغفه به قال :

”لما أخذ السلطان كوكب في ذى القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، وأعطى العساكر دستورا ، وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر ، وكان مقدمه أخاه الملك العادل ، فسار ليودعه ويحظى بصلاة العيد في القدس ، ففعل ، ووقع له أن يمضى معهم إلى عسقلان ويودعهم ، ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ، ويرتب أحوالها ، فأشاروا عليه ألا يفعل ، فإن العساكر إذا فارقتنا نبتى في عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور ، وهذه مخاطرة عظيمة ، فلم يلتفت ، وودّع أخاه والعسكر بعسقلان ، ثم سرنا على الساحل طالبين عكا ،

وكان الزمان عظيما ، والبحر هائجا هيجانا عظيما ، وموجه كالجبال [٤٢٧]
كما قال الله تعالى ، وكنت حديث عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندي ،
حتى خُيِّلَ إلي أنه لو قال لي قائل لو جزت في البحر ميلا واحدا ملكتك الدنيا
لما كنت أفعل ، واستخففت برأى من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم ،
واستحسن رأى من لا يقبل شهادة راكب البحر ، هذا كله خطر يبالى لعظم
الهلول الذي شاهدته من عظم البحر وتموجه ، فبينما أنا في ذلك إذ التففت إلى وقال :
”في نفسي أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت
وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائره ، وأتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه
الأرض من يكفر بالله أو أموت“

فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يخطر لي ، وقلت له :
”ليس في الأرض أشجع نفسا من المولى ، ولا أقوى نية في نصره دين الله
— عز وجل —“

وحكى له ما خطر لي ، ثم قالت له :
”هذه نية جميلة ، ولكن المولى يسير في البحر العساكر ، ويبقى سور الإسلام ،
ولا ينبغي أن يخاطر بنفسه“ .

قال :

”فأنا أستفتيك ، ما أشرف الميتات ؟“

قلت :

”الموت في سبيل الله“

فقال :

”غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات“ .

قال :

ولقد مرض السلطان ونحن على الخروبة ، وكان قد تأخر عن تل الجبل بسبب مرضه ، فبلغ العدو ذلك ، فخرجوا طمعا أن ينالوا من المسلمين شيئا بسبب مرضه ، وهي نوبة النهر ، فخرجوا مرحلة إلى الآبار إلى تحت التل ، ثم رحل العدو في اليوم الثاني يطلبنا ، فركب — رحمه الله — على مضض ، ورتب العسكر للحرب ، وجعل أولاده في القلب ، ونزل هو وراء القلب في طلبه ، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار وهو يستدير إلى ورائهم ، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو يركب — رحمه الله — ساعة ، وينزل يستريح ، ويظل بمندبل على رأسه من شدة وقع الحر ، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو به ضعفا .

ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ، ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم ، إلى أن دخل الليل ، ثم أمر العساكر أن يعودوا إلى محل المصابرة ، وأن يبيتوا تحت السلاح ، [٤٢٨] وتأخر هو إلى وراء الجبل ، وضربت له خيمة لطيفة .

قال :

فبت تلك الليلة أجمع ، أنا والطبيب نمرضه ونشأغله ، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى ، حتى لاح الصباح ، ثم ضرب البوق ، وركب — رحمه الله — ، وركبت العساكر ، وأحدثت بالعدو ، ورحل العدو عائدا إلى خيمته من الجانب الغربي من النهر ، وضايقه المسلمون مضايقة شديدة .

وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتسابا : الأفضل ، والظاهر ، والظافر ، وجميع من حضره منهم ، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب ، وعارض الجيش ، والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير ، فيفطن الرأي لها

من البعد أن تحتها خلقا كثيرا، وليس تحتها إلا واحد [يَعْدُ] ^(١) بخلق عظيم ، وبقى في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار وإلى آخر الليل ، ثم أمرهم أن يبيتوا على [مثل] ^(١) ما باتوا عليه بارحتهم ، وبتنا على ما بتنا عليه إلى الصباح ، وعاد العسكر إلى ما كان عليه بالأمس من مضايقة العدو .

قال :

ولقد رأيته وقد جاءه خبر [وفاة] ^(١) ولد له بالغ أو مرأهق يسمى إسماعيل ، فوقف على الكتاب ، ولم يعرف أحدا حتى سمعناه من غيره ، ولم يظهر عليه شيء من ذلك ، سوى أنه لما قرأه دمعت عيناه — رحمه الله — .

قال :

ولقد رأيته وقد وصله خبر وفاة ، الملك المظفر تقي الدين — رحمه الله — ونحن في مقابلة الفرنج جريدة على الرملة ، وفي كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام ، ويقف الناس على ظهر إلى الصباح ، والعدو يبارز ^(٢) وبيننا وبينهم شوط فرس لا غير ، فأحضر الملك العادل ، وسليمان بن جنادر ، وعز الدين ابن المقدم ، وسابق الدين بن الداية ، وأمر الناس فبعدوا عن الخيمة بحيث لم يبق حولنا أحد عن غلوة بهم ، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه ، وبكى بكاء شديدا حتى أبكنا من غير أن نعلم السبب ، ثم قال — رحمه الله — والعبرة تخنقه : ”توفى تقي الدين“ ، فاشتد بكأؤه ، وبكى الجماعة ، ثم عدت إلى نفسي ، فقلت : ”استغفروا الله من هذه الحالة ، وانظروا أين أنتم وفيم أنتم ، واعرضوا عما سواه“ .

(١) ما بين الحاصرين عن (اروصي - ج ٢ ص ٢٢٢) .

(٢) الأصل : « يبارزوا » .

فقال — رحمه الله — :

[٤٢٩] ”نعم، أستغفروا الله“ ، وأخذ يكررها .

ثم قال : ”لا يعلم هذا أحد“ .

ثم ذكر بهاء الدين — رحمه الله — من حسن خلقه ، قال :

كنت في خدمته بمرج عيون قبل خروج الفرنج إلى عكا — سر الله فتحها — ،
وكان من عادته أنه إذا نزل من الركوب يمد الطعام ، ويأكل مع الناس ،
ثم ينهض إلى خيمة خاص له ينام فيها ، ثم يستيقظ من منامه ، [ويصلي]^(١)
ويجلس خلوة ، وأنا في خدمته ، يقرأ شيئا من الحديث أو شيئا من الفقه ، ولقد
قرأ على كتابا مختصرا لسليم الرازي ، يشتمل على الأربع الأربعة في الفقه .

ونزل يوما على عادته ومد الطعام بين يديه ، ثم عزم على النهوض ، فقبل له :
”إن وقت الصلاة قد قرب“ ، فعاد إلى الجلوس ، وقال :

”نصلي وننام“ .

ثم جلس يتحدث حديث متضجر ، وقد أخلى المكان إلا عن لزم ، فتقدم
إليه مملوك كبير محترم عنده ، وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين ، فقال له :

”أنا الآن ضجر أنحرها ساعة“ .

(١) أخيف ما بين الحاضرين عن : ابن شداد و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٢) .

فلم يفعل ، وقدم القصة بيده إلى قريب من وجهه بحيث يقرأها ، فوقف على الاسم المكتوب على رأسها ، فعرفه ، وقال : ”رجل يستحق“ ، فقال :

”يوقع له المولى“ ، فقال :

”ليست الدواة حاضرة“ ، وكان جالسا على باب الحركة^(١) ، فالتفت فرأى الدواة فقال :

”والله لقد صدق“ .

ثم امتد على يده اليسرى ، ومد يده اليمنى فأحضرها ، ووقع فيها .

فقلت له :

قال الله تعالى :

”وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ“ وما أرى المولى إلا وقد شاركه في هذا الخلق .

فقال : ”ماضينا شيء ، قضينا حاجته وحصل الثواب“ .

قال :

ولقد كانت طراحته تُداس عند التراحم عليه لعرض القصص ، وهو لا يتأثر بذلك .

قال :

ولقد نفرت بغلتي من الجمال ، وأنا راكب في خدمته ، فزحمت وركه حتى كَلته ، وهو ينسم .

(١) راجع ما فات هنا ، ص ٤٥ ، هامش ٢

قال :

لقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس، وكان إذ ذاك كثير الوحل، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكته جميع ما كان عليه، وهو يتسم، وأردت التآخر عنه لذلك، فما تركني .

ولقد واجهه الجناح بما واجهه به لما امتنع العسكر [٤٣٠] عن الأنكلتير، وقد تقدم ذكر ذلك في موضعه، وظن الناس أنه ربما يصلب أو يقتل، وفي ذلك اليوم نزل بازور وقد وصله من دمشق فأكهة كثيرة، فطلب الأمراء أياكلوا، فحضرُوا، فرأوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الأمن والطمانينة والسرور.

قال :

ولقد قابت في خزائنه كيسان من الذهب المصري وكيسان^(١) من الفلوس، فما عمل بالنواب شيئا سوى أنه صرفهم عن العدل .

قال :

لقد كان حافظا لأنساب العرب، [و] خيلهم، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمعه من غيره .

قال :

وكان يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته، ومطعمه ومشربه، وتقلبات أحواله .

وكان طاهر المجاس لا يذكر بين يديه أحدا إلا بالخير، وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا بالخير، وطاهر اللسان، فما رأيت له أولع بشتم قط، وطاهر القلم فما كتب بقلمه أذى لمسلم قط .

(١) الأصل : « وكيسين » .

وكان حسن العقد والوفاء ، وما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفه ، وجبر قلبه ، وأعطاه خبر مخلفه ، وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمه إليه ، وإلا أبقى له من الخبز ما يكف حاجته ، وسلمه إلى من يكفله ، وبعثني بتربيته .

قال عماد الدين الكاتب :

مات لموت السلطان الملك الناصر الرجال ، وفات بفواته الأفضال ، وفاضت الأيادي ، وفاضت الأعادي ، وانقطعت الأرزاق ، وادهمت الآفاق ، وخاب الراجون ، وغاب الملاحون ، وطردت الضيوف ، وأنكر المعروف ، وبقع الزمان بواحدة وساطانه ، ورزى الإسلام بمشيد أركانه ؛ كان — رحمه الله — حسن الأخلاق ، طيب الأعراق ، ضحوكا بمهابة ، محوما بجلالة ، يرشد إلى الهدى ، ويهدي إلى الرشاد ، معصب الكبار ، ولا يسامح بالصغار ، العاملون في عدله ، والعالمون في فضله ، والبلاد في أمنه ، والعباد في منته ، والإسلام في حماية حميته ، والدين في إدالة دولته .

ثم ذكر من هذا كثيرا ، ولقد صدق في كل ما ذكر ووصفه به — رحمه الله [٤٣١] ومد روحه —

الملاحق

(١)

سجل بقلم القاضي الفاضل صادر عن الخليفة العاضد بتولية

أسد الدين شيركوه الوزارة بعد قتل شاور

عن (القلقشندی : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٨٠ - ٩٠)

و (الحنبلي : مخطوطة شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : ص ١٨ - ١١٠)

وكتب القاضي الفاضل عن أسد الدين شيركوه بالوزارة عن العاضد الفاطمي ،
والوزارة يومئذ قائمة مقام السلطنة ، وهذه نسخته :

” من عبد الله ووليه ، عبد الله أبي محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين :
إلى السيد ، الأجل ، الملك ، المنصور ، سلطان الجيوش ، ولي الأمة ، نحر
الدولة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ، أبي الحرث
شيركوه العاضدي ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام
قدرته وأعلى كلمته .

[٨١] سلامٌ عليك : فإن أمير المؤمنين محمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ،
ويسأله أن يصل على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، صلى الله عليه
وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فالحمد لله القاهر فوق عباده ، الظاهر على من جاهر بعناده ، القادر
الذي يعجز الخلق عن دفع ما أودع ضمائر الغيوب من مراده ، القوي على تقريب
ما عزبت (١) الهمم باستبعاده ، الملى بحسن الجزاء لمن جاهد في الله حق جهاده ، مؤتي
الملك من يشاء بما أسلفه من ذخائر رشاده ، ونازعه ممن يشاء بما اقترفه من كبائر
فساده ، منجد أمير المؤمنين بمن أمضى في نصرته العزائم ، واستقبله الأعداء بوجوه
الندم وظهور الهزائم ، وفعلت له المهابة ما لا تصنع الهمم ، وخامت آثاره على

(١) كذا في الأصل ، ولها « ما اعترفت » .

الدنيا ما تنلعه الأنوار على الظلم ؛ وعدمت نظراؤه بما وُجد من محاسنه التي فاق بها ملوك العرب والعجم ، وانتقم الله به ممن ظلم نفسه وإن ظنَّ الناس أنه ظلم ، وذاد عن موارد أمير المؤمنين من هو [منه] أولى بها ويأبى الله سبحانه وتعالى إلا إمضاء ما حتم ، ورام إخفاء فضائله وهل يشترط طيب المسك إلا إذا اكْتُمَ ، مؤيد أمير المؤمنين بإمام أقرَّ الله به عينهم ، وقضى على يده من نُصرة الدين دينهم :

”لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم“ (١)

والحمد لله الذي خصَّ جدنا محمداً بشرف الاصطفاء والاجتباء ، وأنهضه من الرسالة بأثقل الأعباء ، وذخر له من شرف المقام المحمود أشرف الأنصباء ، وأقام به القسطاس ، وطهر به من الأدناس ؛ وأيده بالصابرين في البأساء والضراء وحين الباس ، [٨٢] وألبس شريعته من مكارم الأفعال والأقوال أحسن لباس ، وجعل النور سارياً منه في عقبه لا ينقصه كثرة الاقتباس : ” ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ “ (٢) .

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لأن يقوم في أمته مقامه ، وهدى بمراشد نوره إلى طرق دار المقامه ، وأوضح به منار الحق وأعلامه ؛ وجعله شهيداً عصره ، وحجة أمره ، وباب رزقه ، وسبيل حقه ، وشفيع أوليائه ، والمستجار من الخطوب بإلوائه ، والمضمونة لذويه العقبى ، والمسئول له الأجر في القربى ، والمفترض الطاعة على كل مكلف ، والغاية التي لا يقصر عنها بولائه إلا من تأخر في مضمار النجاة وتخلّف ، والمشفوع الذكر بالصلاة والتسليم ، والهادى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، لا يُقبلُ عملٌ إلا بخفارة ولائه ، ولا يضلُّ من استضاء بأنجم هدايته اللامعه ، ولا دين إلا به ولا دنيا إلا معه ،

(١) سورة ٨ (الأشغال) ، الآية ٦٣ (م) .

(٢) سورة ١٢ (يوسف) ، الآية ٣٨ (ك) .

ليتضح النهجُ القاصد ، ولتقوم الحجّة على الجاحد ؛ وليكون لشيئته إلى اللجنة نعم الشافع والرائد ، وليأتى الله به ببيان الأعداء من القواعد ، وليبين لهم الذى اختلفوا فيه وليعلموا أنما هو إله واحد .

يحمده أمير المؤمنين على ما حباه من التأييد الذى ظهر قبهراً ، وانتشر فعم نفعه البشر ، والإظهار الذى اشترك فيه جنود السماء والأرض ، والإظهار الذى عقّد الله منه عقداً لا تدخل عليه أحكام النقض ، والانتصار الذى أبان الله به معنى قوله :

” وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ “ (١)

ويسأله أن يصلى على سيدنا محمد الأمين ، المبعوث رسولاً فى الأميين ، الهادى إلى دار الخلود ، المستقل بيانه استقلال عوالم الجدود ، والمعدود أفضل نعمة على أهل الوجود ، والصفية بشريعته مشارع النعمة ، والواضحة به الحنيفية البيضاء [٨٣] لئلا يكون أمر الخلق عليهم غمّة ؛ وعلى أبينا أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ناصر شريعته وقسيمه فى النسب والسبب ، ويد الحق التى حكم لها فى كل طلب بالذّاب ؛ وعلى الأئمة من ذريتهما وسائط الحكم ، ومصايح الظلم ، ومفاتيح النعم ؛ والمحققين دعوى من باهامم وفانهم ، والباذلين جهدهم فى جهاد من اتخذ مع الله إلهاً آخر ، وسلم وردّد ، ووالى وجدّد .

وإن أمير المؤمنين لما فوضه الله تعالى إليه من إيالة الخليفة ، ومنحه من كرم السجية وكرم الخليفة ، وبسطه من يده على أهل الخلاف ، وأنجزه من موعوده الذى ليس له إخلال ولا إخلاف ، وأوضحه من براهين إمامته للبصائر ، وحفظ به على الإسلام من طليعة المبادئ وساقية المصاير ، وأورثه من المقام الذى لا ينبغى إلا له فى عصره ، واستخدم فيه السيوف والصروف من تادية فرائض

(١) السورة ، (البقرة) ، الآية ٢٥١ (م) .

نصره ، وأظهر له من المعجزات التي لا يخلو منها زمن ، وظاهر له من الكرامات ، التي زادت على أمنية كل متين ، وأتمنه عليه من أسرار النبوة التي رآه الله تعالى لها أشرف مودع وعليها أكرم مؤتمن ؛ وأجرى عليه دولته من تذليل الصعاب وتسهيل الطلاب ، وتفليل أحزاب الشرك إذا اجتمعوا كما اجتمع على جده — صلى الله عليهم وسلم — أهل الأحزاب ، يواصل شكر هذه النعم التوام ، ويعرف بعوارفها الفرادي والتوام ، ويقدم بين يدي كل عمل رغبة إليه في إيضاح المرائد ، ونية لا تضل عنها الهداية ولا سيما وهو الناشد ، ويستخير عالما أنه يقدم إليه أسباب الخير ، ويناجيه فيطأه الإلهام على ما يحلى السير ويحلى الغير ؛ ويأخذ بيد الله حقه إذا أغتصبت حقوقه ، ويستنجد بالله إذا استبيح خلافه واستجيز عقوقه ؛ ويفزع إلى الله تعالى إذا قرع الضائر ، ويثق بوعد الله تعالى إذا استهلكت الشبه البصائر ؛ فما اعترض ليل كربة إلا انصدع [٨٤] له عن بحر وضاح ، ولا انقض عقد غادر إلا عاجله الله سبحانه بأمر فضاح ؛ ولا انقطعت سبل نصرته إلا وصلها الله تعالى بمن يرسله ولا انصدعت عصا الفقة إلا تدارك الله تعالى بمن يحرقه تجريد الصفايح .

وإذا عُدَّ أمير المؤمنين هذه النعم الجسيمة ، والمنح الكريمة ؛ واللطائف العظيمة ، والعوارف العميمة ، والآيات المعلومة ، والكفايات المحتومة ، والعادات المنظومة ، كنت أيها السيد الأجل — أدام الله قدرتك ، وأعلى كلمتك — أعظم نعم الله تعالى أثرا ، وأعلاها خطرا ، وأقضاها للأمة وطرا ؛ وأحقها بأن تسمى نعمة ، وأجدرها بأن تعد رحمة ، وأسماها أن تكشف غممة ، وأنضاهها في سبيل الله سبحانه عزمه ؛ وأمضاها على الأعداء حدا ، وأبداها في الجهاد حدا ، وأعداها على الأعداء يدا ، وأحسنها فعلا لليوم وأرجاها غدا ؛ وأفرجها للأزمة وقد كادت الأمة تصير سدى ، وأحق الأولياء بأن يدعى للأولياء سيذا ، وأبقاهم فعلة لا ينصرم فعلها الذي بدا أبدا .

فليهنئك أنك حزبُ الله الغالب ، وشهابُ الدين الثاقب ، وسيفُ الله القاضب ،
وظلُّ أمير المؤمنين الممدود ، وموريدُ نعمته المورود ، والمقدمُ في نفسه وما تؤخره
إلا لأجلِ معدود ؛ نصرته حين تناصر أهل الضلال ، وهاجرت إليه هاجرا برَدِّ
الزُّلال وبردِ الظُّلال ؛ وخُضَّت بحارُ الأهوال ، وفي يدك أمواجُ البِصال ؛
وها في جيدك اليوم عقدُ جواهرٍ منه وتَظُمُ لآل ، بل قد باغت السماء وزينت
منك بنجومٍ نهارٍ لا نجومٍ ليالٍ ؛ وكشفت الغياء وهي مُطِيقَةٌ ، ورفعت نواظرَ
أهل الإيمان وهي مطرِقة ؛ وعقصت أعنة الطغيان وهي مُطلِّقة ، وأعدت
بمحنكك على الدولة العلوية بهجةً شبابها الموقنة ، وأنقذت الإسلام وهو على شفى
جرفٍ هار ، ونفذت حين لا تنفذ [٨٥] السهامُ عن الأوتار ؛ وسمعت دعوته
على بُعدِ الدار ، وأبصرت حقَّ الله ببصيرتك وكم من أناسٍ لا يرونه بأبصار ؛
وأجلت طاغية الكفر وسواك اجتذبه ، وصدقت الله سبحانه حين دأهنه
من لا بصيرة له ولذَّبه ، وأقدمت على الصايب رجمراته متوقدة ، وقاتلت أولياء
الشیطان وغمراته متمرده .

وما يومك في نُصرةِ الدولة بواحد ، ولا أمسك بمجودٍ وإن رَغِمَ أنفُ
الجاحد ، بل أوجبت الحقَّ بهجرةٍ بعد هجرة ، وأجبت دعوةَ الدين قائما بها في غمرة
بعد غمرة ، واقرعت صهوةَ هذا المحل الذي رقاك إليه أمير المؤمنين باستحقاقك ،
وأما الله العاجزين بما في صدورهم من حسراتٍ لحاقتك ، وكنت البعيدَ القريبَ
نُصْحَهُ ، المحجوبَ النافذَ بمجته المذعورة أعداءُ أمير المؤمنين [به] إن فوقَ سهمه
أو أشيرع رُمحه ، وما ضرك أن سيخطك أعداءُ أمير المؤمنين وأمير المؤمنين قد ارتضاك ،
ولا أن منعك المعاندُ حَقُّك وقد قضى لك واقتضاك ، وما كان في محاجرتك عن
حظك من خدمة أمير المؤمنين الذي أنت به منه أولى ، ومدافعتك عن حَقِّك
في قرب مقامه الذي لا يستطيع طولا ، إلا مغالبةُ الله فيك واللهُ غالب على أمره ،
ومباعدتك وقد قربك الله من سر أمير المؤمنين وإن بعدت من جهيره .

استشرفتكَ الصدور ، وتطلعت إليك عيون الجمهور ، واستوجبت عقيلةُ النعم بما قدمت من المهور ، ونصرت الإيمان بأهله ، وأظهرت الدين بمظاهرتك على الدين كله ، وناهضت الكفرة بالباع الأشد ، والرأي الأسد ، ونادتهم سيوفك — ولا قرارَ على زأرٍ من الأسد — وأدال الله بك ممن قَدِمَ على ما قَدِمَ ، ونِدِمَ فما أغنى عنه الندم ، حين لَجَّ في جهالته ، وتمادى في ضلالته ، واستمر على استطالته ، وتوالت منه عثراتٌ ما أتبعها باستقالته ، فكم اجتاح للدولة رجالا ، وضيق من أرزاقهم مجالا ، وسلب من خزائنها ذخائر وأسلحة وأموالا ، ونقلها من أيدي أوليائها إلى أعداء الله تبارك وتعالى ، واتسعت هفواته من التعديد [٨٦] وما العهد منها ببعيد .

وقد نسخ الله تعالى بك حوادثها فوجب أن تُنسخَ أحاديثها ، وأتى الأئمة منك بمن هو وليها ، والأئمة بمن هو مغيبها ، ودعاك إمام عصرك بقلبه ولسانه وخطه — على بعد الدار — ، وتحقيق أنك تتصرف معه حيث تصرف وتدور معه حيث دار ، واختارك على ثقة من أن الله تعالى يُحمده فيك عواقب الاختيار ، ورأى لك إقدامك ورقابُ الشريك صاغرة ، وقدمك وأفواهُ المخاوف فاغرة ، وكرتك في طاعته وأبى الله تعالى أن تكون خاسره ، وسطا بك حين تمالى بك المشركون ، وتمثل لرساهم بقوله سبحانه : ” اخشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا ” (١) ، وأنفت عزته مُجَنَّة الهدنة ، وقال لأوليائه : ” وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ” (٢) ، وازدري بنحازيرهم انتظارا لوصولك بأسود الإسلام ، وصبر على علم أنك تلي نداءه بالسنة الأعلام قبل السنة الأقلام ، فكنت حيث رجا وأفضل ، ووجدت بحيث رعى وأعجل ، وقدمت فكتب الله لك العلو ، وكبت بك العدو ، وجمع على التوفيق لك طرفي الرواح والغدو ، ولم يلبس الكافر لسهامك جنة إلا الفرار وكان ” كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ” (٣)

(١) السورة ٢٣ (المؤمنون) ، الآية ١٠٨ (ك) .
 (٢) السورة ٨ الأنفال () ، الآية ٣٩ (ك) .
 (٣) السورة ١٤ (ابراهيم) الآية ٢٦ (ك) .

فَلِلَّهِ دَرْكٌ حِينَ قَاتَلْتَ بِخَبْرِكَ قَبْلَ عَسْكَرِكَ ، وَنَصَرْتَ بِأَثِيرِكَ قَبْلَ عَشِيرِكَ ،
وَأَكْرَمَ بِكَ مَنْ قَادِمٌ خَطَوَاتُهُ مَبْرُورُهُ ، وَسَطَوَاتُهُ لِلْأَعْدَاءِ مَبِيرَةٌ ، وَكُلُّ يَوْمٍ مِنْ
أَيَّامِهِ يَعْدُ سِيرُهُ ، وَإِنَّكَ لِمَبْعُوثٌ إِلَى بِلَادِ أُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بَعَثَ السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ ،
وَمُقَدِّمٍ فِي النِّيَّةِ وَإِنْ كُنْتَ فِي الزَّمَانِ الْمُؤَخَّرِ ، وَطَالَعَ بِفِئَةِ الْإِسْلَامِ غَيْرَ بَعِيدٍ أَنْ
يُقَيِّمَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِلَادَ الْكُفَّارِ ، وَرِجَالَ جِهَادٍ عَدَدْنَاهُمْ عِنْدَنَا مِنَ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ ،
وَأَبْنَاءِ جَلَادٍ يَشْتَرُونَ الْجَنَّةَ بِغَزَائِمِ كَالنَّارِ ، وَغُرَّرَ نَصِيرُ سَكُونِ الْعَدُوِّ بَعْدَهَا
غُرُورٌ وَنَوْمُهُ غِرَارٌ .

وَلَمَّا جَرَى مَنْ جَرَى ذِكْرُهُ عَلَى عَادَتِهِ فِي إِيمَاحِشْكَ وَالْإِيمَاحِشْ مِنْكَ بِكَوَازِبِ
الظُّنُونِ ، وَرَامَ رَجْعَتَكَ عَنِ الْحَضْرَةِ وَقَدْ قَرَّتْ بِكَ الدَّارُ وَقَرَّتْ بِكَ الْعَيُونُ ، وَكَانَ [٨٧]
كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْمَكْنُونِ : ” لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ “ (١) ، هُنَالِكَ غَضِبْتَ نَفْسُ الْإِسْلَامِ فَفَتَكَتْ
بِهِ أَيْدِيهَا ، وَكَشَفْتَ لَهُ عَنْ غَطَاءِ الْعَوَاقِبِ الَّتِي كَانَتْ مِنْهُ مَبَادِيهَا ، وَأَخَذَهُ
مَنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ، وَعَدَلَ فِيهِ مَنْ قَالَ ” وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ “ (٢) ،
” إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ “ (٣) .

وَلَمَّا نَشَرْتَ لَوَاءَ الْإِسْلَامِ وَطَوَاهُ ، وَعَضَدْتَ الْحَقَّ وَأَضْعَفْتَ قَوَاهُ ، وَجَنَيْتَ
عُقْبَى مَا نَوَيْتَ وَجَنَى عَقْبَى مَا نَوَاهُ ، وَأَبَيْتَ إِلَّا إِمْضَاءَ الْعِزِّ فِي الشَّرْكِ وَمَا أَمْضَاهُ ،
” أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ “ (٤) ، وَدَفَعْتَ الْخَطْبَ الْأَشَقَّ ،
وَطَلَعْتَ أَنْوَارَ النَّصْرِ مَشْرِقَةً بِكَ وَهَلْ تَطْلُعُ الْأَنْوَارُ إِلَّا مِنَ الشَّرْقِ ؟ وَقَالَ لِسَانُ

(١) السورة ٩ (التوبة) الآية ٤٨ (م) .

(٢) السورة ٤١ (فعلت) ، الآية ٤٦ (ك) .

(٣) السورة ٥٠ (ق) ، الآية ٣٧ (ك) .

(٤) السورة ٤٥ (الجمانية) ، الآية ٢٣ (ك) .

الحق "فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ" (١) ، قضى الله تعالى إلى أمير المؤمنين عُدَّةً قَدَّمَهَا ثم قضاهَا ، وولَّاه كما وُلِّيَ جَدُّه — صلى الله عليه وسلم — قِبْلَةً يَرْضَاهَا ، وانتصر له بك انتصاره لأهل البيت بِسَلَامَتِهِ وَعَمَّارِهِ ، وأَنطَقَ أمير المؤمنين بِاصْطِفَائِكَ اليوم وبالأَمْسِ كُنْتَ عَقْدَ إِضْمَارِهِ .

وقلَّدَكَ أمير المؤمنين أَمْرَ وَزَارَتِهِ ، وتدير مملكته وحياطة ما وراء سرير خلافته ، وصيانة ما اشتملت عليه دعوة إمامته ، وكفالة قضية المسلمين ، وهداية دعاة المؤمنين ، وتدير ما عَدَّقَهُ اللهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُمُورِ أَوْلِيَائِهِ أَجْمَعِينَ ، وجنوده وعساكره المؤيدين ، المقيمين منهم والقادمين ، وكافة رعايا الحضرة بعيدها ودانيتها ، وسائر أعمالِ الدُولِ باديها وخافيتها ، وما يَفْتَحُهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْكَ مِنَ الْبِلَادِ ، وما تستعيده من حقوقه التي اغتصبها الأضداد ، وألقى إليك المَقَالِيدَ بهذا التقليد ، وقَرَّبَ عَلَيْكَ كُلَّ غَرَضٍ بَعِيدٍ ، ونَاطَ بِكَ الْعَقْدَ وَالْحُلَّ ، والولاية والعزل ، والمنع [٨٨] والبذل ، والرفع والخفض ، والبسط والقبض ، والإبرام والنقض ، والتنبيه والغض ، والإِنْعَامَ وَالِإِنْتِقَامَ ، وما توجب السياسة امضاءه من الأحكام ، تقاييدا لا يزال به عِقْدُ نَفْرَكِ نَظْمِهَا ، وَفَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَفِيكَ عَظِيمًا ، "ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَاجِزًا" (٢) .

فتقلد ماقلدك أمير المؤمنين من هذه الرتبة التي تتأخر دونها الأقدام ، والغاية التي لا غاية بعدها إلا ما يملك الله به من الدوام ، فقلد تناولتها بيد في الطاعة غير قصيرة ، ومساعد في خدمة أمير المؤمنين أيامها على الكافرين غير يسيرة ، وبذلت لها ما مهد سبلها ، ووصلتها بما وصل بك حبائها ، وجمعت من أدواتها ما جمع لك شملها ، وقال لك لسان الحق "وَكَاثُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَاهَا" (٣) .

(١) الدورة ٦ الأنعام ، الآية ٨١ (ك) .

(٢) الدورة ٤ (النساء) ، الآية ٧٠ (م) .

(٣) الدورة ٤٨ (الفتح) ، الآية ٢٦ (ن) .

وتقوى الله سبحانه : فهي وإن كانت لك عادة ، وسبيل لا حيب إلى السعادة ، فإنها أولى الوصايا بأن تتمعن باستفتاحها ، وأحق القضايا بأن تبتدىء الأمور بصلاحها ، فاجعل تقوى الله أمامك ، وعامل بها ربك وإمامك ، واستنجح بها عواقبك ومباديك ، وقاتل بها أضدادك وأعاديك ، قال الله سبحانه في كتابه المكنون : **« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ »** (١) .

والعساكر المنصورة : فهم الذين غُذوا بولاء أمير المؤمنين ونعيمه ، وربوا في حجور فضله وكرمه ، واجتاحتهم من لم يُحسن لهم النظر ، واستباحهم بأيدي من أضرر لما أضر ، وظالما شهدوا المواقف ففرجوها ، واصطلوا المخاوف وتوجلوها ، وقارعوا [٨٩] الكفار مسارعين للأعنة ، مقدمين مع الأسنة ، مجرين إلى غايتين : إما إلى النصر وإما إلى الخسرة ، ودبروا الولايات فسددوا ، وتقلدوا الأعمال فيما تقلدوا .

واعتمد أحمرهم وأسودهم ، وأقربهم وأبعدهم ، وفارسهم وراجلهم ، وراحمهم ونابليهم بتوفير الإقطاع وإدارة الثقات ، وتصفية موارد العيش الموثقات .

وأحسن لهم السياسة التي تجعل أيديهم على الطاعة متفقة ، وعزائمهم في مناضاة أعداء الدين مستبقة ، وأجرهم على العادات في تقايد الولايات ، واستكفيهم لما هم أهله من مهمات التصرفات ، وميز أكابرهم تمييز الناظر بالحقائق ، واستنهضهم في الجهاد فهذا المضمار وأنت السابق ، وقم في الله تعالى أنت ومن معك فقد رفعت الموانع والعوائق ، ليقذف الله بالحق الذي نصرته على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .

والشرع الشريف : فأنت كافل قضائهم ، وهادي دعائه ، وهو منار الله تعالى الأرفع ، ويده التي تمنع الظلم وتدفع ، فقم في حفظ نظامه ، وتنفيذ أحكامه ، وإقامة حدوده ، وإمضاء عقوده ، وتشديد أساس الدعوة وبنائها ، وتمييز

(١) السورة ٥٩ (الحشر) ، الآية ١٨ (م) .

آخذى عهودها وأبنائها ، قيام من يعول في الأمانة على أهل الديانة ، ويستمسك بحقوق الله تعالى الحقيقة بالرعاية والصيانة .

والأموال : فهي سلاحُ العظام ، ومواد العزائم . وعتاد المكارم ، وعماد المحارب والمسلم ، وأمير المؤمنين يؤمل أن تعود بنظرك عهود النضارة ، وأن يكون عدلك في البلاد وكيل العماره .

والرعايا : فقد علمت ما نالهم من إجحاف الجبايات ، وإسراف الجنايات ، وتوالي عليهم من ضروب النكيات ، فاعمر أوطانهم التي أنحربها الجور والأذى ، واثب عن مواردكم الكدر والقذى ، وأحسن حفظ ودعة الله تعالى منهم ، وخفف [٩٠] الوطأة ما استطعت عنهم ، وبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، وكف من يعرضهم في عرض هذا الأدنى .

والجهاد : فهو سلطانُ الله تعالى على أهل العناد ، وسطوةُ الله تعالى التي يَمْضِيها في شر العباد على يد خير العباد ، ولك من القناء فيه مضرا وشاما ، وثبات الجأش كرا وإقداما ، والمصاف التي ضربت فكننت ضارب كُتبتها ، والمواقف التي اشتدت فكننت فارح هبواتها ، والتدريب الذي أطلق جدك ، والتجريب الذي أوري زندك ، ما يغني عن تجديد الوصايا البسيطة ، وتأكيد القضايا المحيطة ، وما زلت تأخذ من الكفار باليمين ، وتعظم فتوحك في بلاد الشمال فكيف تكون في بلاد اليمين ، فاطلب أعداء الله برا وبحرا واجلب عليهم سهلا ووعراء وقسم بينهم الفتكات قتلا وأسرا ، وغارة وحصرا ، قال الله تعالى في كتابه المكنون : ” يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ “ (١)

وتوفيق الله تعالى يفتح لك أبواب التدبير ، وخبرتك تدلك على مرشد الأمر ، «وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ» (١) ، فأنت تبتدع من المحاسن مالا تحيط به الوصايا ، وتخترع من الميا من ما يتعرف بركانه الأولياء والرعايا .

والله سبحانه وتعالى يحقق لأمر المؤمنين فيك أفضل المخايل ، ويفتح على يديك مستغاق البلاد والمعاقل ، ويصيبُ بسهمك من الأعداء النحور والمقاتل ، يأخذ للإسلام بك ماله عند الشرك من الثارات والطوائل ، ولا يضيع لك عملك في خدمة أمير المؤمنين إنه لا يضيع عمل عامل ، ويجري الأرزاق والآجال بين سيك الفاضل وحكمك الفاضل .

فاعلم هذا من أمير المؤمنين ورسمه ، واعمل بموجبه وحكمه ، إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

(١) (الدورة ٣٥ فاطر) ، الآية ١٤ (ك) .

(٢)

توقيع بخط الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي على طرّة التقليد السابق
بتولية أسد الدين شيركوه الوزارة

عن : (الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠٦ - ٤٠٧)

هذا عهد لا عهد لوزير بمثله ، وتقليد أمانة وآك الله تعالى وأمير المؤمنين
أحلاً لحمله ، والجمعة عليك عند الله بما أوضحه لك من مرشد سبيله ، نخذ
كتاب أمير المؤمنين [٤٠٧] بقوة ، واستحب ذيل الفخار بأن اعترت خدمتك
إلى نبوة النبوة ، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً .

« وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا » (١)

(١) السورة ١٦ (النحل) ، الآية ٩١ (ك) .

(٣)

سجل بقلم القاضى الفاضل صادر عن الخليفة العاضد بتولية صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة بعد موت عمه أسد الدين شيركوه عن : (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٩١ - ٩٨) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦١)

من عبد الله ووليه ، عبد الله أبى محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين .
إلى السيد الأجل (على نحو ما تقدم فى تقليد عمه أسد الدين شيركوه) .

أما بعد ، فالحمد لله مصرف الأقدار ، ومشرف الأقدار ، ومحصى الأعمال والأعمار ، ومبتلى الأخيار والأبرار ، وعالم سر الليل وجهر النهار ، وجاعل دولة أمير المؤمنين فلما تماقب فيه أحوال الأقدار : بين انقضاء سرار واستقبال أبدار ، وروضا إذا هوت فيه الدوحات أينعت الفروع سابقة النور ، بأسقة الثمار ، ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة بفضل أصولها ، والجواهر المستخرجة من أمضى نصولها ، والقائم بنصرة دولته فلا تزال حتى يرث الله الأرض ومن عليها قائمة على أصولها .

والحمد لله الذى اختار لأمر المؤمنين ودله على مكان الاختيار ، وأغناه باقتضاب الإلهام عن روية الاختيار ، وعضد به الدين الذى ارتضاه وعضده بمن ارتضاه ، وأنجز له من وعد السعد ما قضاه قبل أن اقتضاه ، ورفع محله عن الخلق فكلهم من مضاف إليه غير مضاه ، وجعل مملكته عرينا لا عتازها بالأسد وشبهه ، ونعمته ميراثا أولى بها ذوى الأرحام من بنى الولاء وأهله ، وأظهر فى هذه القضية ما أظهره فى كل القضايا من فضل أمير المؤمنين وعدله ، فأولياؤه كالآيات التى تنسق درارى أفقها المنير ، وتنسق درر عقدتها النظيم النصير : ” مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ

أَوْ تَنَسَّاهَا نَأَتْ يَخْيِرُ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) [٩٢]
والحمد لله الذي أتم بأمر المؤمنين نعمة الإرشاد، وجعله أولى من الخلق ساد، وللحق
شاد ، وآثره بالمقام الذي لا ينبغي إلا له في عصره ، وأظهر له من معجزات نصره
ما لا يستقل العدد بحصره ، وجمع لمن والاه بين رفع قدره ووضع إصره ، وجعل
الإمامة محفوظة في عقبه والمعقبات تحفظه بأمره ، وأودعه الحكم التي رآه لها
أحوط من أودعه ، وأطلع من أنوار وجهه الفجر الذي جهل من ظن غير نوره
مطلعه ، وآتاه ما لم يؤت أحدا ، وأمات به غيا وأحيا رشا ، وأقامه للدين
عاضدا فأصبح به معتضدا ، وحفظ به مقام جده وإن رغب المستكبرون ، وأنعم
به على أمته أمانا لولاه ما كانوا ينظرون ولا يبصرون ، و" مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ " (٢)

يحمد أمير المؤمنين على ما آتاه من توفيق يذلل له الصعب الجاح ، ويُدنى منه
البعيد النازح ، ويخاف على الدين من صلاحه الخلف الصالح ، ويلزم آراءه جدد
السعود ، ويريه آيات الإرشاد فإنه نازح (؟) قدح القادح .

ويسأله أن يصلي على جده محمد الذي أنجى أهل الإيمان ببعثه ، وطهر بهديه
من رجس الكفر وخبثه ، وأجار باتباعه من عنت الشيطان وعبيته ، وأوضح
جادة التوحيد لكل مشرك الاعتقاد مثله .

وعلى أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي جادلت يده بلسان ذي الفقار ،
وقسم ولاؤه وعداوته بين الأتقياء والأشقياء الجنة والنار ، وعلى الأئمة من ذريتهما
الذين أذل الله بعزتهم أهل الإلحاد وأصفى بما سفكوه من دمائهم موارد الرشاد ،
وجرت أيديهم وألسنتهم بأقوات القلوب وأرزاق العباد ، وسلم ومجد ، ووالى وجند .
(٩٣) وإن الله سبحانه ما أخل قط دولة أمير المؤمنين التي هي مهبط الهدى .

(١) السورة ٢ (البقرة) . الآية ١٠٦ (ك) .

(٢) السورة ٨ (الأنفال) . الآية ٣٣ (ك) .

ومحط الندى ، وموريد الحياة للولى والردى للعدا ، من لطيف يتلافى الحادثة ويشعبها ويرأبها ، ونعمة تبلغ بها النفوس أربابها ، وموهبة تشد موضع الكلم ، وتسد موضع الثلم ، وتجلى غمائم الغمم ، وتحلى مغائم النعم ، وتستوفى شرائط المناجح ، وتستدنى فوارط المصالح ، ولم يكن ينسى الحادثة فى السيد الأجل الملك المنصور — رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه — ، التى كادت لها أوانى الملك تترزع ، ومباني التدبير تتضعض ، إلا ما نظرفيه أمير المؤمنين بنور الله من اصطفاك أيها السيد الأجل الملك الناصر — أدام الله قدرتك — لأن تقوم بخدمته بعده ، وتسد فى مقدمة جيوشه مسدده ، وتقفو فى ولائه أثره ، ولا تفقد منه إلا أثره ، فوازت الفادحة فيه النعمة فيك ، حتى تستوفى حظّه من أمير المؤمنين بأجر لا يضيع الله فيه عمله ، فاستوجب مقعد صدق بما اعتقده من تأدية الأمانة له وحمله ، واستحق أن ينظر الله وجهه بما أخلقه الله من جسمه فى مواقف الجهاد وبذله ، ومضى فى ذمام رضا أمير المؤمنين ، وهو الذمام الذى لا يقطع الله منه ما أمره أن يصله ، واتباع من دعائه يتحف أول ما تلقاه بالروح والريحان ، وذنحرت له من شفاعته ما عليه منقول أهل الإيمان فى الأمان ، فرعى الله له قطعته البيداء إلى أمير المؤمنين وتجمعه الأسفار ، ووطأه المواطئ التى تغيظ الكفار ، وطلوعه على أبواب أمير المؤمنين طلوع أنوار النهار ، وهجرته التى جمعت له أجرين : أجر المهاجرين وأجر الأنصار ، وشكره ذلك المسعى الذى بلغ من الشرك النار ، وبلغ [٩٤] الإسلام الإيثار ، وما لقي ربه حتى تعرض للشهادة بين مختلف الصفاح ، ومشتجر الرماح ، ومفترق الأجسام من الأرواح ، وكانت مشاهدته لأمر المؤمنين أجرا فوق الشهادة ، ومنّة لله تعالى عليه له بها ما للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، وحتى رآك أيها السيد الأجل الملك الناصر — أدام الله قدرتك — قد أقررت ناظره ، وأرغمت مناظره ، وشددت ساططه ، وسددت مكانه ، ورمى بك فأصاب ، وسقى بك فصاب ، وجمعت ما فيه من أبهة المشيب إلى ما فيك من مضاء الشباب ، ولقنت

ما أفادته التجارب جملة ، وأعانك المحس التي هي بك حجة . وقب عليك
إسناد الفتكات فتقابت ، وأوضح لك منهاج البركات فتقابت ، وسددك سهمها ،
وجردك سهمها ، وانتضالك فارتضاك غربا ، وأترك على أثر ولده إمامة في التدبير وحرب .
وكنت في السلم لسانه الآخذ يجمع القلوب ، وفي الحرب سنانة النافذ في مضايق
الخطوب ، وساقته إذا طأب ، وطابعته إذا طأب ، وقاب جديته إذا ثبت ،
وجنحه إذا وثب ، ولا عذر لثبيل نشأ في حجر أسد ، ولا للال استدل بالنور من
شمس واستمدت .

هذا ، ولو لم يكن لك هذا الإسناد في هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من
قديم الفخر وحديث ، لأثبتك غريزة عزيزة ، وسجية سجيية ، وشية وسية ،
وخلائق فيها ماتحب الخلائق ، ونحائز لم يحز منهاها حائز ، ومحاسن ماؤها غير آسن ،
وما أثر جد غير عثر ، وفخر غفل عنها الأول ، استأثر بها الآخر ، وبراعة
لسان ، ينسجم قطارها ، وشجاعة جنان ، تضطرم نارها ، وخلال جلال عليك
شواهد أنوارها تتوضح ، ومساغى مساعد لديك كاتم نورها تتفتح ، فكيف وقد
جمعت لك في المجد بين نفس وأب وعم ، ووجب أن سالك من اسطفاء أمير
المؤمنين ماذا حصل ثم على الخلق عم . فيومك واسطة في المجد بين غذك وأمسك ،
وكل ناد من أندية الفخار [٩٥] لك أن تقول فيه وعلى غيرك أن يمسك ،
فبشراك أن أنعم أمير المؤمنين موصولة منكم بوالد وولد ، وأن شمس ملككم بكم
كالشمس أقوى ما كانت في بيت الأسد .

ولما رأى الله تقاب وجه أمير المؤمنين في سمائه ولأه من اختيارك قبله ،
وقامت حجته عند الله باستكفائك وزيرا له ووزرا لليلة ، فناجته مرشد الإلهام ،
وأضاءت له مقاصد لا تعقها كل الأفهام ، وعزم له على أن قللك تدبير مملكته
الذي أعرفت في إربيه وأغرقت في كسبه ، ومهد لك أبعد غاية في الفخر
بما يسر لك من قرينه .

ولقد سبق أمير المؤمنين إلى اختيارك قبل قول لسانه بضمير قلبه ، وذكر
فيك قول ربه : «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ» (١) ، وقلدك لأنك سيف
من سيوف الله تعالى يحق به التقليد وله التقليد ، واصطفاك على علم بأنك واحد
متظم في معنى العديد ؛ وأحيا في ساطان جيوشه سنة جدّه الإمام المستنصر بالله
في أمير جيوشه الأول ، وأقامك بعده كما أقام بعده ولده وإنه ليرجو أن تكون
أفضل من الأفضل ؛ وخرج أمره إليك بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء
بكتب هذا السجل لك بتقليدك وزارته التي أحلك ربوتها ، وأحل لك صهوتها ؛
وحللك نعمتها ، و لك نعمتها ؛ فتقلد وزارة أمير المؤمنين من رتبها التي
تناهت في الإنافة ، إلا أن لارتبة فوقها إلا ما جعله الله تعالى للخلافة ؛ وتبوا
منها صدراً لا تتطاع إليه عيون الصدور ، واعتقل منها في درجة على مثاها
تدور البدور :

«وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» (٢) :

وقل «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ» .

وبأشر مستبشرا ، واستوطن متديرا ، وأبسط يدك فقد فوض إليك الأمر
أمير المؤمنين بسطا وقبضا ، وأرفع ناظرك فقد أباح لك رفعا وخفضا ؛ وأثبت
على درجات [٩٦] السعادة فقد جعل لحكمك تثبيتا ودخضا ، واعقد حبي
العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عقدا ونقضا ؛ وأنفذ فيما أهلك له فقد أدى
بك نافلة من السياسة وفرضا ، وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصرف .

وتقف أود الأيام فعليك أمانة التهذيب والتثقيف ؛ واسحب ذبول الفخار
حيث لاتصل التيجان ، واملا لحظا من نور الله تعالى حيث تتقي الأبصار لحين

(١) السورة ٧ (الأعراف) ، الآية ٥٨ (ك) .

(٢) السورة ٣١ (لقمان) ، الآية ١٧ (ك) .

(٣) السورة ٣٥ (فاطر) ، الآية ٣٤ (ك) .

الأجفان ؛ إن هذا هو الفضل المبين ، وارتبطه بالتقوى التي هي عمدة النجاة ،
وذخيرة الحياة والممات ، وصفوة ما تلقى آدم من ربه من الكلمات ؛ وحيث
ما قدمته النفوس لغدها في أمسها ، وجادلت [به] يوم تُجادل كل نفس عن
نفسها ، قال الله سبحانه ومن أصدق من الله قيلا : ” والآخرة خير لمن أتقى
وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا “ (١) .

واستم بالعدل نعم الله تعالى عليك ، وأحسن كما أحسن الله إليك ؛ وأمر
بالمعروف فلما كنت من أهله ، وأنه عن المنكر كما كنت تنزهت عن فعله ، وأولياء
أمير المؤمنين ، وأنصاره الميامين ، ومن يحق بمقام ملكه من الأمراء المطوقين ،
والأعيان المعصيين ، والأماثل والأجناد أجمعين ، فهم أولياؤه حقا ، ومماليكه
رقا ، والذين تبوءوا الدار والإيمان سبعا ، وأنصاره غربا كما أن عسكريه أنصاره
شرقا ؛ فهم وهم يد في الطاعة على من نأواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وتحاكم فيهم
وأنت عند أمير المؤمنين أعلامهم .

هذا وقد كان السيد الأجل الملك المنصور — رضى الله عنه — استمطار لهم
[من] إناعام أمير المؤمنين المسامحة بعاقبتهم ، وواس في هذه المنقبة التي استحق
بها حسن الذكر بين طوائفهم وفريقهم ، فصنهم من جانحات الاعتراض ، وابدل لهم
صالحات الأغراض ؛ وارفع دونهم الحجاب ، ويسر لهم الأسباب ، واستوف
منهم عند [٩٧] الحضور إليك غايات الخطاب ؛ وصرفهم في بلاد أمير المؤمنين
ولاة وحماة ، كما تصرفهم في أوقات الحرب لمساء وكفاة ؛ وعرفهم بركة ساطانك ،
واقترد قلوبهم بزمام إحسانك .

وأما القضاة والدعاة : فهم بين كفالتك وهديك ، والتصريف على أمرك
ونهيك ؛ فاستعمل منهم من أحسن عملا ، فأما بالعنايات فلا .

والجهاد: فأنت راضع دُرْدَ ، وناشئة حَجْرَدَ ، وظهور الخيل موطنك ، وظلالُ
الجبل مساكنك ؛ وفي ظلمات مشاكلك تجلى محاسنك ، وفي أعقاب نوازله
تلى ميامنك ؛ فشمر له عن ساقٍ من القنا ، وخُضْ فيه بحرا من الظبا ؛ واحلل
فيه عقدة كلمات الله سبحانه وثيقات الحبي ؛ وأسيل الِرِهَادَ بدماء العدا ، وارفع
برءوسهم الرُّبَا ، حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذكورا
لأيامك ، ومشهودا به يومَ مقامك بين يديه من لسان إمامك .

والأموال: فهي زبدة حَابِ اللُّطِيفِ لا العنف ، وجمَّةٌ يمتريها الرِّفْقُ لا العسف ،
وما برحت أجد ذخائر الدول للصغوف ، وأحد أسلحتها التى تمضى وقد تنبوا السيوف ؛
فقدَّم البلاد الاستعمار ، تُقدم لك الاستثمار ، وقطرة من عدل تزخر بها من مالٍ بحار .
والرعايا: فهم ودائع الله لأمر المؤمنين وودائعهم لديك ، فاقبض عنهم الأيدي
وابسط بالعدل فيهم يديك ، وكن بهم رءوفا ، وعليهم عطوفا ؛ واجعل الضعيف
منهم فى الحق قويا ، والقوى فى الباطل ضعيفا ، ووكل برعايتهم ناظر اجتهادك ،
واجعل ألسنتهم بالدعاء من سلاحك ، وقلوبهم بالمحبة من أجنادك ، ولو جاز
أن يستغنى عن [٩٨] الوصية قائمٌ بأمر ، أو جالسٌ فى صدر . لا استغنىت
عنها بفطنتك الزكية ، وفطرتك الذكية ؛ ولكنها من أمير المؤمنين ذكرى لك
وأنت من المؤمنين ، وعراة بركة فتلق رايها باليمين .

والله تعالى يؤيدك أيها السيد الأجل — أدام الله قدرتك — بالنصر
العزیز ، ويقضى لدولة أمير المؤمنين على يدك بالفتح الوجيز ؛ ولأهلها فى نظرك
بالأمر الحرير ، ويمتدح دَسْتُ الملكِ إلى مجدك الإبريز ؛ ويقر عبون الأعيان
بما يظهر لك فى ميدان السعادة من السبق والتبريز ، ويمدحك من نحلة أنعم
أمير المؤمنين بما ملَّكك إياه ملك التحويز ، ويلحق بك فى المجد أولك ،
ويحمد فيك العواقب ولك .

فاعلم ذلك من أمر أمير المؤمنين ورسمه ، واعمل بموجبه وحكمه ؛ إن شاء
الله تعالى .

(٤)

توقيع بخط الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي على طُرَّة التقايد السابق
بتولية صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة
عن : (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠٧)

” هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحجته عند الله تعالى عليك ، فأوفِ بعهدك
ويمينك ، وخُذْ كتابَ أمير المؤمنين بيمينك ؛ ولَمَنْ مَضَى بِمَجْدِنَا رَسُولَ اللَّهِ — صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — أَحْسَنَ أَسْوَةٍ ، وَلَمَنْ بَقِيَ بِقُرْبِنَا سَلَوَةً « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ
نَجَعْنَاهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » (١) ، “

(١) السورة ٢٨ (القصص) ، الآية ٨٣ (ك) .

(٥)

وصف تفصيلي للفتح الأيوبي لليمن كما سجله بقلمه مؤرخ يمني
عن : (بدر الدين محمد بن حاتم : السُّنَطُ الغالى الثمن ،
في أخبار الملوك من الغزّ باليمن ، مخطوطة بدار الكتب
المصرية ، رقم ٢٤١١ ، ص ٢ - ٦)

اعلم أن جُمْلَةَ مَنْ مَلَكَ اليمن من الغزّ إلى وقتنا هذا عشرة :
الملك المعظم توران بن أيوب ،
والملك العزيز - أخوه - سيف الإسلام طُغْتِكِين بن أيوب ،
والملك المعز - ولده - إسماعيل ،
وسيف الدين الأتابك سنقر ، بحكم الأتابكية لولد سيده الملك الناصر أيوب
ابن طُغْتِكِين ،
ثم الملك الناصر أيوب - بعده - ،
ثم الملك المعظم سليمان بن تقي الدين ،
ثم الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل .
فهؤلاء سبعة : ستة منهم من بني أيوب ، والسابع مملوكهم .
ثم جاءت الدولة السعيدة الرسولية - خَلَدَ اللهُ مُلْكُهَا [و] أيامها خلودُ
النِّرات -
[ص ٢ ب] فَمَلَكَ - بعد الملك المسعود - مولانا الملك المنصورُ
نور الدين أبو الفتح عمر بن علي بن رسول - قدّس الله روحه - ،
ثم ولده مولانا ومالكنا المقامُ الأعظم السلطانُ الملكُ المظفرُ شمسُ الدنيا والدين
أبو المنصور يوسف ،

ثم ولي الأمر ولده مولانا المقام الأعظم السلطان الملك الأشرف أبا الفتح عمر ممهد الدنيا والدين ، إيثارا له بذلك إذ رآه له أهلا ، ولم يضمن به عليه أصلا ، فهما ملكا هذا الأوان^(١) ، وبهما استقامة الزمان .

فلا برحاً في نعمة وسعادة تُبِيدُ العدى طراً ، وتقهر من عدا

والآن حين نبتدى في شرح السير لهؤلاء الملوك جميعا :

اعلم أن أول من ملك اليمن من الغز بنو أيوب ، ملوك الديار المصرية بالشام كلها ، [و] بديار البكر كافة والعواصم والسواحل ؛ وكان الجميع تحت حكمه غير متنازع فيها ولا مدافع عليها ، وكانوا جماعة ، وملكهم يومئذ القائم فيهم أولا الملك الناصر صلاح الدين [ص ١٣] يوسف بن أيوب بن شاذي ، أصغر أولاد أيوب سنا ، وأكبرهم معنى .

وكان له من الإخوة جماعة ؛ منهم : الملك العادل سيف الدين أبو بكر — وهو الكبير فيهم جميعا — ، والملك المعظم شمس الدولة توران ، والملك العزيز سيف الإسلام ، وتقي الدين^(٢) ، وغيرهم ممن لم يشتهر شهرة هؤلاء ، ففرق لكل منهم بلدا ، خلا توران فإنه ندبه لليمن ، وجهزه بالعسكر الجم والمال الكثير ، وذلك على حين فترة في اليمن من ملك مستقل فيها — وعرها وسهلها ، وعلوها وسفلها — . ومالك لدانها وقاصيها ، وقائد لطائعها وعاصيها ؛ بل كانت مقسومة بين العرب .

(١) يفهم من هذا النص أن المؤلف كان يكتب كتابه هذا قبل سنة ٦٩٤ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها الملك المظفر يوسف ، واستقل بالحكم ابنه الملك الأشرف عمر . انظر : (زانباور : معجم الأذاب ، الترجمة العربية ، ص ١٨٤) .

(٢) لاحظ أن تقي الدين عمر ليس أخا لصلاح الدين ، وإنما هو ابن أخيه شاهنشاه .

فكل موضع فيها [به] ^(١) ملك مستقيم بذاته ، والأمر فيها كما قال الشاعر :
وتفرقوا فرقا ، فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومبّر

فلما بلغه ذلك بادر بتجهيز أخيه الملك المعظم — على ما ذكرنا — ، فوصل اليمن في سنة تسع وستين وخمسمائة ، فأول من لقيه من أهل اليمن الأمير قاسم بن غانم بن يحيى السليمانى ، من المخلاف [ص ٣ ب] السليمانى ، جاءه إلى حرّض ^(٢) ، من موضعه وكان يسمى محل أبى تراب ، وشكا عليه من عبد النبي بن مهدى ، وهو يومئذ صاحب التهام والجبال ، من تعز إلى ذحر ، إلى سوى ذلك ، ما خلا عدن والدملوة وصنعاء ، فبئها كانت بأيدي أهلها الذين نورد ذكرهم — إن شاء الله تعالى .

وكان عبد النبي قد غار إلى حرّض ونهبها ، ونهب بلادها ، ونهب هذا المحل الذى للشرىف ، وقتل أخاء ، وكان يقال له : « وهّاس بن غانم » ، فسأل الأمير قاسم من الملك المعظم أن يكون أول دخوله اليمن إنجادا له على بنى مهدى ، فأجابه إلى ذلك ، ونهضا بالعساكر من حرّض فى سلخ رمضان فى هذه السنة المذكورة ، فوصلوا زبيد يوم السبت السابع من شوال عند طلوع الشمس ، فنهبوا جميع [ما] فيها — الأموال والخيل — ، وسبوا الحريم ، وقبضوا على عبد النبي وإخوته ، وعاد الأمير قاسم بن غانم إلى بلاده يوم الجمعة الثالث من الشهر .

وأقام الملك المعظم بزبيد إلى أن دخل شهر ذى القعدة ، ونهض لتعز فأخذه ولم ينازعه أحد ، وقاتل أهل [١٤] صير ^(٣) وذحر فلم ينل منهم ، ثم نهض للجند فدخاها وملكها ، وكل هذه كانت من ممالك عبد النبي .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين ليستقيم المعنى .

(٢) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها يد فى أوائل اليمن من جهة مكة .

(٣) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنه اسم الجبل الشاغ المطل على قلعة تعز ، فيه عدة حصون وقرى باليمن .

وسار إلى عدن فأخذها يوم الجمعة العشرين من ذي القعدة ، ونهب من بها ،
وفيه يومئذ من الأمراء أولادُ الداعي المكرم عمران بن مجد بن سبأ ، والشيخ
ياسر بن بلال — مولاهم — ، فقبض عليهم جميعاً ، وعاد منها إلى مخلاف جعفر ،
فبايع في الثُّعْكُر^(١) ، وأخذه يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ذي الحجة آخر سنة
تسع وستين وخمسمائة .

ثم نهض إلى جبالة ، وقد صارت البلاد جميعها له ما خلا الدُّمْلُوهُ والبلاد
العليا ، فطاع نقييل صيد يوم الاثنين الثامن والعشرين من ذي الحجة ، وحطَّ
على ذروان^(٢) يوم الثلاثاء ، وفيه يومئذ الساطان عبد الله بن يحيى الجنبي ، فصالحهم
وبذل الطاعة ، ونهض إلى المصنعة ، وفيها يومئذ الشيخ مجد بن زيد البعدي
الجنبي ، فأخذها منه ، ثم نهض إلى ذمار فاعترضه جنب من موضع يسمى
رَنَمَة في شرقي ذمار يوم الخميس [٤ ب] التاسع من المحرم ، أول سنة سبعين
وخمسمائة ، فقتل من الغُرِّ خمسة وستون رجلاً ، فأخذ خيلهم وسلاحهم ، ثم
أقام في ذمار ، ونهض منها فاعترضه جنب وغيرهم ، وجرى بينهم وبينهم قتال
كانت الدائرة [فيه] على العرب ، فقتل منهم سبعمائة رجل ، ولحقهم الغُرُّ حتى
أولجهم حصن هَرَّان ، وأخذوا منهم قلائع كثيرة من خيل

ويقال إن الملك المعظم دمر الغُرَّ في ذلك اليوم وبكتهم وحمهم على التورط
في الهلاك ، وقال لهم : ” أين منكم ديار مصر ؟ ” .

وفي ذلك يقول الشركي شاعر ذمار :

وقال لقومه : موتوا إكراماً ، فإين وأين مصر من ذمار ؟

(١) ضبطت عن المرجع السابق ، حيث قال إنها قلعة حصينة باليمن من مخلاف جعفر مطلة على
ذي جبلة .

(٢) ضبطت عن المرجع السابق ، وهو حصن باليمن قريب من صنعاء .

ثم سار من دمار بعد استيلائه عليها طالبا صنعاء ، وسلطانها يومئذ السلطان على بن حاتم^(١) جد الأمير بدر الدين محمد بن حاتم ، فوصل إليها يوم الجمعة منتصف النهار ، وهو اليوم السابع من المحرم سنة سبعين وخمسمائة ، وضرب محطته [١٥] بالجنوب في صنعاء ، وقد تحيز السلطان على بن حاتم وأخوه يشربين معها إلى حصن براش ، وقد كانوا حين جاءت المحطة صادفوا ثمانية فرسان من همدان ، فشدوا عليهم فقتلوا منهم ثلاثة ونجا خمسة ، فطلعوا الحصن ، ثم إن المحطة أقامت في الجنوب إلى يوم الاثنين ولم يصلهم أحد .

واختلفت الرواية من هنا ، فقول : ” دخلوا صنعاء ولم يلبثوا بها ثم ساروا “ وقيل : ” بل ساروا من المحطة ولم يدخلوا صنعاء “ ، والله أعلم أى ذلك كان . إلا أن الإجماع على أن الملك المعظم لم يكن له إقامة في الجهات الصنعائية ، ولم يصله أحد من أهلها ، فقتل طريقا بها ، وأخلا على نقيل السود (كذا) ، وهو بين بلاد بنى شهاب وبلاد سنان ، مطل على حقل سنان وسهام ، فلحقهم قوم من بنى شهاب ، وقوم سنان رموهم ، وأخذوا من أخذ عسكرهم .

ولما علم السلطان على بن حاتم بارتحال الغزنوي من براش وعاد إلى صنعاء ، فأول ما بدأ به حين عاد أنه [ه ب] خرب الدرب الذي للدينة ، وقد كان بدأ فيه قبل وصول الغزنوي ، ثم حال بينه وبين تمامه وصولهم ، فلما ساروا حاذر عودتهم فتمم الخراب .

وأما ما كان [من] الملك المعظم بعد ارتحاله عن صنعاء ، فإنه اعترض العسكر في النزول أهل برع ، فأخذوا من آخرهم جمالا كثيرة محملة أموالا جملة من الذهب والفضة والسلاح والآلة ، وكثيرا مما استصحبوه من البلاد المصرية وعدن وزبيد يوم الاستيلاء عليها .

(١) لاحظ أن هذا جد مؤلف الكتاب

ثم جاء زبيد، فأقام بها إلى شهر حمادى الأولى فى هذه السنة، ثم نهض منها طالباً للجنـد ، ووصل إليه وإلى حصص عبر الدي كان دائماً لعبد النبي واستندم وسلم الحصن .

ثم أخذ حصن رادبة وشرباق ، وحط على عزان ذخر^(١) . وفيه يومئذ على بن حجاج من أهل تهامة متوليه ، وكان صهرا لعبد النبي ، فخطب الغز وطلب الصلح ، فوعده أنهم يأخذون منه ما كان فى الحصن من المال لعبد النبي ويتركون سبيله ، فاستحلفوه على ما عنده من المال لعبد النبي ، فأقر بعشرة [١٦] آلاف دينار ذهب ، فقبضوها منه ، وسلم لهم الحصن وتسلموه .

ثم تقدموا إلى المعافر فاربوا حصن يمين ، وفيه الأمير منصور بن محمد بن سبأ ، فأخذ الحصن قهراً ، وذلك بتنازل الدانون والرتبة (كذا) هربوا من الحصن ثم تلبسوا بنيف ، وكان لأبى الفيث بن سامر ، ثم تسلموا حصن السمدان من النائب الذى كان به ، ولم يعترضوا الحصن السواء ، وصاحبه يومئذ ابن السبأ ، بل أبقوه على حاله ، ثم حطوا على الدملوة ، وفيها ولد الداعى المكرم عمران بن محمد بن سبأ ، وواليهما بها جوهر العمرانى ، ورموا بالمنجنيقات فلم تبلغ إلا الحر ، فلم يكن لهم بها طمع ، فصالحوا جوهرها على قطعة هيئة من المعشار الذى تحت الدملوة ، وعادوا وتقدموا إلى ذى جبلة ، فأقاموا بها إلى رابع شعبان من هذه السنة .

وباغ الملك المعظم فى خلال هذه الأمور وقوع خلاف فى تهامة ، فأمر بقتل عبد النبي وأخويه : أحمد ويحيى ، فقتلوا فى زبيد يوم الثلاثاء السابع من رجب من هذه السنة .

ثم إن الملك المعظم أقام فى البلاد حتى دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وطلب العودة إلى الديار المصرية ، فنهض من اليمن فى شهر [٦ ب] رجب

(١) كذا بالأصل بدون قط أو ضبط .

من السنة بعد أن قتل ياسر بن بلال — مولى الدعاة بنى زُرَّيع — الذي قدمنا ذكره ، وقبضه في عدن مع مواليه .

واستتاب في البلاد نوابا ، فجعل في عدن وأعمالها عثمان السنجاري ، أو الزنجاري ، وفي تعز والحداد وأعمالها ياقوت التعزي ، وفي حصن التَّعْكُروذي جبلة وخلاف جعفر مظفر الدين قايمار ، وفي مدينة زبيد وأعمالها ، وجميع تهامة سيف الدولة المبارك بن منقذ ، وكان من حمدان ، وكان رجلا فصيحاً شاعراً ، فمن جملة شعره :-

وإذا أراد الله شراً بامرئ ، وأراد أن يحيه غير سعيد

أغواء بالترحال عن مصر بلا سبب ، وسكنه بارض زبيد

(٦)

قطعة من خطاب بقلم القاضي الفاضل ، صادرة عن صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى وزير بغداد ، يعدد فيها فتوحه وجهوده في خدمة الخلافة العباسية ، وآخرها قطع الخطبة للخليفة العاضد ، وإعلانها للمستضيء بنور الله العباسي ، ويطلب إرسال التشريفات عن : (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٥)

” كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين الولاء مشروع ، وعلم الجهاد مرفوع ، وسؤدد السواد متبوع ، وحكم السداد بين الأمة موضوع ، وسبب الفساد مقطوع ممنوع ، وقد توالى الفتوح عربا ويمنا وشاما ، وصارت البلاد بل الدنيا، والشهر بل الدهر، حراما حراما ، فأضنى الدين واحدا بعد ما كان أديانا، والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم ينحروا عايبا إلا صما وعميانا، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعة ، والمذلة في شيع الضلال شائعة ، ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء ، وسموا أعداء الله أصفياء ، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعة، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعاً، وكذبوا بالنار فعبأت لهم نار الختوف، ونثرت أقلام الظبا حروف رءوسهم نثر الأقلام للحروف ، ومزقوا كل ممزق ، وأخذ منهم كل غثق ، وقطع دابرهم ، ووعظ أيهم غابرهم ، ورغمت أنوفهم ومنابرهم ، وحققت عليهم الكلمة تشريدا وقتلا ، وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا ، وليس السيف عن سواهم من كفار الفرنج بصائم ، ولا الليل عن سير إليهم بنائم .

ولا خفاء عن المجلس الصاحبي أن من شد عقد خلافة وحل عقد خلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الأخلاف والأسلاف ، فإنه مفتقر إلى أن يشكر مانصحه، ويقلد مافتح ، ويباغ ما اقترح ، ويقدم حقه ولا يطرح، ويقرب مكانه

وبن نوح . وناتيه تشريعت شريعة ، وتواصل إليه أمداد التقويات الجالبة
للطفمة ، وتبى دعوته بما أقام من دعوة . وتوصل غزوته بما وصل من غزوة ، وترفع
دونه المحجبُ للمعترضة ، وترسل إليه السحب المروضة ، فكل ذلك تعود عوائده ،
وتبدو فوائده ، بالدولة التي كشف وجهه لنصرها ، وجرد سيفه لرفع منارها ،
والقيام بأمرها ، وقد أتى البيوت من أبوابها ، وطاب النجعة من سخابها ، ووعد
آماله الوائقة بجواب كتابها ، وأنهى لإيصال ماطفاته ، وتميز تشريفاته ، خطيب
الخطباء بمصر ، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر ، وقام بالأمر قيام من بر ،
واستفتح بلباس السواد الأعظم الذي جمع الله عليه السواد الأعظم ، آملا أنه يعود
إليه بما يطوى الرجاء فضل عقبه ، ويخلد الشرف في عقبه .

(٧)

نسخة بشارة بآتساء الدولة الفاطمية فى مصر ، والخطبة للخليفة العباسى ،
حملها عن نور الدين ، شهاب الدين أبو المعالى المطهر بن أبى عصرون
لُتقرأ فى كل مدينة يمر بها فى طريقه إلى بغداد

عن : (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٧-١٩٨) .

” أصدرنا هذه المكاتبه إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا
رتاجه ، وأوضح لنا منهاجه ، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية
بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية ، والإسكندرية ومصر والقاهرة ،
وسائر الأطراف الدانية والقاصية ، والبادية والحاضرة ، وانهت إلى القريب
والبعيد ، وإلى قرص وأسوان بأقصى الصعيد ، وهذا شرف لزماننا هذا وأهله ،
نفتخر به على الأزمنة التى مضت من قبله ، وما برحت هممنا إلى مصر مصروفة
وعلى افتتاحها موقوفة ، وعزائنا فى إقامة الدعوة الهادية بها ماضية ، والأقدار
فى الأزل بقضاء آرائنا وبتنجز مراءدنا قاضية ، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك
منها ، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها ، وطالما مرت عايتها الحقب [١٩٨] الخوالى
وآبت دونها الأيام والليالى ، وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوعة بدعوة المبطلين ،
مملوءة بحزب الشياطين ، سابعة ظلالها للضلال ، مقفرة المحل إلا من المحال ، مفتقرة
إلى نصره من الله يملكها ، ونظرة ستدركها ، رافعة يدها فى أشكائها ، منتظمة إليه
ليكفل بأعدائها على أعدائها ، حتى أذن الله لغمتها بالانفراج ، ولعنتها بالعلاج ، وسبب
قصد الفرج لها وتوجههم إليها ، طمعا فى الاستيلاء عليها ، واجتمع داءان : الكفر
والبدعة ، وكلاهما شديد الروعة ، فملكنا الله تلك البلاد ، ومكن لنا فى الأرض ،
وأقدرنا على ما كنا نؤمله فى إزالة الإلحاد والرفض من إقامة الفرض ، وتقديمنا
إلى من استنباه أن يستفتح باب السعادة ، ويستنجد باب مالنا من الإرادة ، وقيم
الدعوة الهادية العباسية هنالك ، ويورد الأدعيا ودعاة الإلحاد بها المهالك “ .

(٨)

نسخة سجل أصدره صلاح الدين بُعِدَ وفاة العاضد وانهاء الدولة
الفاطمية بإسقاط المكوس في مصر

قرئ على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة ثالث صفر سنة ٥٦٧هـ

عن : (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٥)

«أما بعد ، فإننا نحمد الله سبحانه على ما مكن لنا في الأرض ، وحسنه عندنا
من أداء كل نافلة وفرض ، ونصبنا له من إزالة النَّصَب عن عباده ، واختارنا
له من الجهاد في الله حق جهاده ، وزهدنا فيه من قناع الدنيا القليل ، وألهمنا
من محاسبة أنفسنا على النقيير والقتيل ، وأولانا من سباحة السباحة ، فيوماً نهب
ما اشتمت عليه الدواوين ، ويوماً نَقِطع ما سقاه النيل ، فالدُّشائر في أيامنا تترى ،
شفعا ووترا ، والمسارُ كنظام الجواهر تتبع الواحدة منها الأخرى ، والمساحات
قد ملأت المسامع والمطامع ، وأسخطت الخيمة والصنایع ، وأرضت المنبر
والجامع .

ولما تقلدنا أمور الرعية ، رأينا المكوس الديوانية بمصر والقاهرة أولى
ما نقلناها من أن تكون لنا في الدنيا إلى أن تكون لنا في الآخرة ، وأن
تجرد منها لنلبس أثواب الأجر الثائرة ، ونظهر منها مكاسبنا ، ونصون عنها
مطالبنا ، ونكفي الرعية ضرهم الذي يتوجه إليهم ، ونضع عنهم إصرهم
والأغلال التي كانت عليهم ، ونعيدها اليوم كأمس الذهاب ، ونضعها فلا ترفعها
من بعد يد حاسب ، ولا قلم كاتب ، فاستخرنا الله وعجلنا إليه ليرضى ، ورأينا
فرصة أجر لا تغض عايتها بصائر الأبصار ولا يغضى ، وخرج أمرنا بكتب هذا
المنشور بمساعة أهل القاهرة ومصر ، وجميع التجار المترددين إليهما وإلى ساحل
المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويسفر ، ويغيب

عن ماله ويحضر ، ويقارض ويتجر ، برا وبحر ، مركبا وظهرا ، سرا وجهرا ،
لا يحل ماشده ، ولا يحاول ماعنده ، ولا يكشف ماستره ، ولا يسأل عما أورده
وأصدره ، ولا يستوقف في طريقه ولا يشرق بريقه ، ولا يؤخذ منه طعمه ،
ولا يستباح له حرمه .

والذى اشتملت عليه المسامحة فى السنة من العين : مائة ألف دينار مسامحة ،
لا يسويها تأويل ، ولا يتخونها تحويل ، ولا يعتريها زوال ، ولا يعتورها انتقال ،
دائمة بدوام الكلمة ، قائمة ما قام دين القيمة ، من عارضها ردت أحكامه ،
ومن ناقضها نقض زمامه ، ومن أزالها زلت قدمه ، ومن أحالها حل دمه ،
ومن تعقبها خللت اللعنة فيه وفى عقبه ، ومن احتاط لدنياه فيها احتاط به الجحيم
الذى هو من خطبه .

فمن قرأه أو قرى عليه من كافة ولاية الأمر ، من صاحب سيف وقلم ،
ومشارف أو ناظر ، فليمثل ما مثل من الأمر ، وليضه على ممر الدهر ، مرضيا
لربه ، ممضيا لما أمر به .

(٩)

قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل ، أرسلها صلاح الدين إلى
نور الدين ، يشرح له فيها القصد من خروجه لمهاجمة حصن الكرك
والشوبك في أوائل سنة ٥٦٨ هـ

عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٦)

« سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل أعز الله سلطانه ، ومدد أبدا
إحسانه ، ومكن بالنصر إسمكانه ، وشيد بالتأييد مكانه ، ونصر أنصاره ، وأعان
أعوانه ، علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنتهم ،
ويقلل أسلحتهم ، ويقطع موادهم ، ويخرب بلادهم ، وأكبر الأسباب المعينة
على ما يرومه من هذه المصلحة ألا يبقى في بلادهم أحد من العربان ، وأن
ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان ، ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد ، وعده
من أعظم أسباب الجهاد ، ترحيل كثير من أنفارهم ، والحرص في تبديل
دارهم ، إلى أن صار العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دبلا ، ولا يستطيع
حيلة ، ولا يهتدى سبيلا .

(١٠)

رسالة بقلم القاضي الفاضل مرسله من صلاح الدين إلى نور الدين
يشرح له فيها المؤامرة التي كان يدبرها رجال الدولة الفاطمية
والصليبيون ، والتي اشترك فيها الشاعر عمارة اليمنى ،
لقلب نظام الحكم وإعادة الدولة الفاطمية

عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٠-٢٢٢)

”قصر هذه الخدمة على متجدد سار للإسلام وأهله ، وبشارة مؤذنة بظهور
وعد الله في إظهاره على الدين كله ، بعد أن كانت لها مقدمات عظيمة ، إلا
أنها أسفرت عن النجح ، وأوائل كالليلة البهيمية ، إلا أنها انفرجت عن الصبح ،
فالإسلام ببركاته البادية ، وفتكاته الماضية ، قد عاد مستوطنا بعد أن كان غريبا ،
وضرب في البلاد بجرانه بعد أن كان كالكفر يتم عليه تخيلا عجيبا ، إلا أن الله
سبحانه أطلع على أمرها من أوله ، وأظهر على سرها من مستقبله ، والمملوك
ياخذ في ذكر الخبر ، ويعرض عن ذكر الأثر :

لم يزل يتوسم من جند مصر ، ومن أهل القصر ، بعد ما أزال الله من بدعتهم ،
ونقض من عُرى دولتهم ، وخفف من مرفوع كلمتهم ، أنهم أعداء وإن
تعدت بهم الأيام ، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام ، وكان لا يحتقر
منهم حقيرا ، ولا يستبعد منهم شرا كبيرا ، وعيونه لمقاصدهم موكلة ، وخطراته
في التحرز منهم مستعملة ، لا تخلو سنة تمر ، ولا شهر يكر ، من مكر يجتمعون
عليه ، وفساد يتسرعون إليه ، وحيلة يرمونها ، ومكيدة يتممونها ، وكان أكثر
ما يتعللون به ، ويستريحون إليه ، المكاتبات المتواترة ، والمراسلات المتقاطرة ،
إلى الفرنج خذلهم الله ، التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع ، ويحملونهم فيها

على العظام والفظائع، ويزينون لهم الإقدام والقدوم، ويخلعون فيها ربة الإسلام
 خلع المرتد المخصوص، ويد الفرنج بحمد الله (٢٢١) قصيرة عن إجاباتهم، إلا أنهم
 لا يقطعون حبل طمعهم على عاداتهم، وكان ملك الفرنج كلما سولت له نفسه
 الاستتار في مراسلتهم، والتحيل في مفاوضاتهم، سِرَّ "جرج" — كتبه — رسولا
 إلينا ظاهرا، وإليهم باطنا، عارضا علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا،
 وعاقدا معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا، ولأهل القصر والمصريين
 في أثناء هذه المدد رسلٌ تتردد، وكتبٌ إلى الفرنج تتجدد.

ثم قال :

والمرئى عالم أن عادة أوليائه الاستفادة من أدبه أن لا يسطوا عقابا مؤلما،
 ولا يعذبوا عذابا محكما، وإذا طال لهم الاعتقال، ولم ينجع السؤال، أطلق
 سراحهم، وخلي سبيلهم، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرقة عليهم إلا
 قساوة، وعند وصول "جرج" في هذه الدفعة الأخيرة رسولا إلينا بزعمه، ورد إلينا
 كتابٌ ممن لا ترتاب به من قومه، يذكر أن رسول مختالة، لارسول مجاملة،
 وحامل بلية لا حامل حديّة، فأوهمناه الإغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه
 وإليه، فتوصل مرة بالخروج ليلا، ومرة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها نهارا
 إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم، وجماعة
 من النصارى واليهود وكلابهم وكتائبهم، فدسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم،
 فصار ينقل إلينا أخبارهم، ويرفع إلينا أحوالهم، ولما تكاثرت الأقوال، وكاد
 يشهر علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى، وقبضنا على جماعة مفسدة،
 وطائفة من هذا الجنس متمردة، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسرائر
 المنافقة، فكلا أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقر طائعا عند إحضاره، ومنهم من أقر
 بعد ضربه، فأنكشفت أمور أخرى كانت مكتومة، ونوبٌ غير التي كانت
 عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة في المراد، متفقة في الفساد.

ثم ذكر تفصيلا حاصله : أنهم عينوا خليفة ووزيرا مختلفين في ذلك ، فمنهم من طالب إقامة رجل كبير السن من بنى عم العاضد ، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد وإن كان صغيرا ، واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له ، وأما بنو رزيك وأهل شاور فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم ، من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة .

ثم قال :

”وكانوا فيما تقدم ، والمملوك على الكرك والشوبك بالعسكر قد كاتبوهم ، وقالوا لهم إنه بعيد ، والفرصة قد أمكنت ، فإذا وصل الملك الفرينجي إلى صدر أو إلى أيلة ثارت حاشية القصر ، وكافة الجند ، وطائفة السودان ، وجموع الأرمن وعامة الإسماعيلية ، وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة“ .

ثم قال :

”ولما وصل ”جرج“ كتبوا إلى الملك الفرينجي أن العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم ، وعلى قرب من موسم غلاتهم ، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم ، وإذا بعثت أسطولا إلى بعض الثغور أنهض فلانا من عنده ، وبقى في البلد وحده ، ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة“ .

ثم قال :

”وفي أثناء هذه المدة كاتبوا سينانا - صاحب الحشيشية - بأن الدعوة واحدة ، والكلمة جامعة ، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمة ، ولا يجب به قعود عن نصرته ، واستدعوا منه من يتم على المملوك غيلة ، أو يبيت له مكيدة وحيلة ، والله من ورائهم محيط ، وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قرجلة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرينج .

ولما صَحَّ الخبرُ ، وكان حكم الله أولى ما أخذ به ، وأدب الله أمضى فيمن خرج عن أدبه ، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى ، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى ، قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغوات والغلاة ، الدعاة إلى النار ، الحاملين لأنفاسهم وأنفاس من أضلوه من التجار ، وشنقوا على أبواب قصورهم ، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم ، ووقع التابع لأتباعهم ، وشردت طائفة الإسماعيلية ونشوا ، ونودى بأن يرحل كافة الأجناد ، وحاشية القصر ، وراجل السربان إلى أقصى بلاد الصعيد .

فأما مَنْ في القصر فقد وقعت الحيلة عليهم إلى أن ينكشف وجه رأى يمضى بينهم ، ولا رأى فوق رأى المولى ، والله سبحانه المستخار ، وهو المستشار ، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده ، وتمضى الحدود بتحديدده ، ورأى الملوك إخراجهم من القصر فإنهم مهايقوا فيه بقيت مادة لا تتسم إلا طماع عنها ، فإنه حيلة للضلال منصوبة ، وبيعة للبدع محجوبة .

ومما يطرف المولى به أن ثغر الاسكندرية — على عموم مذهب السنة فيه — أطلع البحث أن فيه داعية خبيثا أمره ، محتقرا شخصه ، عظيما كفره ، يسمى قديد القمصاص ، وأن المذكور مع نحوله في الديار المصرية ، قد فشت في الشام دعوته ، وطبقت عقول أهل مصر فتنته ، وأن أرباب المعاش فيه يعملون إليه جزما من كسبهم ، والنسوان يبعثن إليه شطرا وافيا من أموالهن ، ووجدت في منزله بالاسكندرية عند القبض له والهجوم عليه كتب مجردة ، فيها خلع العذار ، وصريح الكفر الذي ماعته اعتذار ، ورقاع يُخاطب بها ، فيها ما تقشعر منه الجلود . وبالجمله فقد كفى الإسلام أمره ، وحق به مكره ، (٢٢٢) وصرعه كفره .

(١١)

قطعة من رسالة بقلم العهد الأصفهاني ، مرسلة من الملك الصالح
إسماعيل إلى صلاح الدين، ينبئه بوفاة والده نور الدين ويعزيه فيه
عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٠)

”ورد خبر من جانب العدو اللعين، عن المولى نور الدين، أعاذنا الله فيه من
سماع المكروه، ونور بعافيته القلوب والوجوه؛ فاشتد به الأمر، وضاق به الصدر،
وانقصم بحادثه الظهر، وعز فيه التثب وأعوز الصبر، فإن كان — فالحوادث والعياذ
بالله — قد تم ، وخصه الحكم الذي عم، فالحوادث تدخر النصال، وللأيام تصطنع
الرجال ، وما رتب الملوك ممالكها إلا لأولادها ، ولا استردعت الأرض الكريمة
البذر إلا لتؤدى حقمها يوم حصادها، فانه الله أن تختلف القلوب والأيدي، فتباغ
الأعداء مرادها، وتعدم الآراء رشادها ، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى
أن أعطت قيادها ، فكونوا يدا واحدة ، وأعضادا متساعدا، وقلوبا يجمعها ود،
وسيوفا يصدنها غمد ، ولا تختلفوا فتنكلوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا ، وقوموا
على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأئمل، فالعداوة محدقة بكم من كل
مكان، والكفر مجتمع على الإيمان، ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله ، وقائم لا نسلمه،
وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحققت، بأن ولده القائم بالأمر،
وسعد الدين كمشكين الأتابك بين يديه ، فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت ،
والطاعة في الغيبة والحضور أدت وفعلت، وإلا فنحن لهذا الولد يد على من ناواه،
وسيف على من عاداه ، وإن أسفر الخبر عنه عن معافاه ، فهو الغرض المطلوب
والنذر الذي يحمل على الأيدي والقلوب “.

(١٢)

قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل مرسله من صلاح الدين إلى الملك
الصلاح إسماعيل للتعزية في وفاة والده نور الدين
عن : (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٠)

«وَأَمَّا الْعَدُو — خَذَلَهُ اللَّهُ — فَوَرَاءَهُ مِنَ الْخَادِمِ مَنْ يُطْلِبُهُ طَلَبَ لَيْلٍ لِنَهَارِهِ ،
وَسِيلَ لِقَرَارِهِ إِلَى أَنْ يَزْعَجَهُ مِنْ مَجَائِمِهِ ، وَيَسْتَوْقِفُهُ عَنْ مَوَاقِفِ مَغَانِمِهِ ، وَذَلِكَ
مِنْ أَقْلِ فَرُوضِ الْبَيْتِ الْكَرِيمِ [٢٣١] وَأَيْسَرِ لَوَازِمِهِ .

أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة ، وهو اليوم الذي أقيمت فيه
الخطبة بالاسم الكريم ، وصرح فيه بذكره في الموقف العظيم ، والجمع الذي لا لغو
فيه ولا تأثيم ، وأشبه يوم الخادم أمسه في الخدمة ، ووفى مالزمه من حقوق
النعمة ، وجمع كلمة الإسلام عالماً أن الجماعة رحمة ، والله تعالى يخلد مُلْكَ المولى
الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه ، ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه ، ويجعل
للإسلام واقية باقية عليه ، ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده ،
ومضاعفة ملكه ومزيده ، ويسر منال كل أمر صالح ، وتقريب بعيده
إن شاء الله .»

(١٣)

قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل أرساها صلاح الدين إلى الملك
الصلاح إسماعيل للسؤال عن صحة والده نور الدين، بعد أن أشاع الفرنج
خبر موته، ولم يكن صلاح الدين قد تأكد عنده هذا الخبر بعد .

عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٠)

«أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظم أجرنا وأجره في والدينا الملك العادل،
ندب الشام بل الإسلام حافظ ثغوره، وملاحظ أموره، ومقدام الجهاد،
مقتنى فضيلته، ومؤدى فريضة، وعي سنته، وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريه،
على أنه يعز أن يرى الزمان نظيره، وما هاهنا ما يشغل السر، ويقسم الفكر، إلا
أمر الفرنج خذلهم الله، وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه، وسكونه إليه
إلا لمثل هذا الحادث الجلل، والصرف الكارث المذهل، فقد ادخره لكفايات
النائب، وأعدده لحسم أدواء المعضلات اللوازم، وأمله ليومه ولغده، ورجاه
لنفسه ولولده، ومكّنه قوة لعضده، فما — فقد رحمه الله — إلا صورة والمعنى باق،
والله تعالى حافظ لبيته واق، وهل غيره دام سموه من مؤازر، وهل سوى السيد
الأجل الناصر من ناصر، وقد عرفناه المقترح لبروض برأيه من الأمر ما جمع، والأهم
شغل الكفار عن هذه الديار بما كان عازما عليه من قصدهم والنكاية فيهم على
البدار، ويمجى على العادة الحسنى في إحياء ذكر الوالد، بتجديد ذكرنا، راغبا في اغتنام
ثنانا وشكرنا» .

(١٤)

رسالة مرسله من صلاح الدين إلى أحد أمراء الشام يذبحه بنجر
وصول الأسطول من صقلية لمهاجمة مدينة الاسكندرية في يوم
الأحد السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ ، وكيف انتهى
الأمر بفشله في أول المحرم سنة ٥٧٠ هـ

عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥)

” إن أول الأسطول وصل وقت الظهر ، ولم يزل متواصلا متكاملا إلى وقت
العصر ، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر ، لاعلى حين خفاء من الخبر ،
فأمر ذلك الأسطول كان قد اشتهر وروغ به ابن عبد المؤمن في البلاد المغربية ،
وهدد به في الجزائر الرومية صاحب قسطنطينية ، فشوهد في الثغر من وفور عدته
وكثرة عدته ، وعظيم الهمة به ، وفرط الاستكثار منه ، ما ملأ البحر واشتد به
الأمر ، فحصى أهل الثغر عايهم البر ، ثم أشير عايهم أن يقربوا من السور ،
فأمكن الأسطول النزول ، فاستزلوا خيولهم من الطرائد ، وراجلهم من المراكب ،
فكانت الخيل ألفا وخمسمائة رأس ، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل ، ما بين فارس
وراجل ، وكانت عدة الطرائد ستة وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وكان معهم
مائتا شيني ، في كل شيني مائة ونمسون راجلا ، وكانت عدة السفن التي تحمل
آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن ، وكانت عدة
المراكب الحمالة برسم الأزواد والرجال أربعين مركبا ، وفيها من الراجل المتفرق
وغلمان الخيالة ، وصناع المراكب ، وأبراج الزحف ، ودباباته ، والمنجنقية ، ما يتم
خمسين ألف رجل .

ولما تكاملوا نازلين على البر ، خارجين من البحر ، حملوا على المسلمين
حملة أوصلوهم إلى السور ، وفقد من أهل (٢٣٥) الثغر في وقت الحملة ما يناهز

سبعة أنفس ، واستشهد محمود بن البصار وبسهم جرح ، وجذفت مراكب الفرنج داخله إلى الميناء ، وكان به مراكب مقاتلة . ومراكب مسافرة ، فسبقهم أصحابنا إليها فحسفوها وغرقوها ، وغابوهم على أخذها ، وأحرقوا ما احترق منها ، واتصل القتال إلى المساء فضربوا خيامهم بالبر ، وكان عدتهم ثمانمائة خيمة .

فلما أصبحوا زحفوا وضائقاً ، وحاصروا ، ونصبوا ثلاث دبابات بكاشها ، وثلاثة مجانيق كبار المقادير ، تضرب بحجارة سود استصحبوها من صقلية ، وتعجب أصحابنا من شدة أثرها ، وعظم حجرها ، وأما الدبابات فلأنها تشبه الأبراج في جفاء أخشابها ، وارتفاعها ، وكثرة مقاتلتها ، واتساعها ، وزحفوا بها إلى أن قاربت السور ، ولجسوا في القتال عامة النهار المذكور .

وورد الخبر إلى منزلة العساكر بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدو على جناح الطائر ، فاستنهضنا العساكر إلى الثغرين : اسكندرية ودمياط ، احترازا عليهما واحتياطاً في أمرها ، وخوفاً من مخالفة العدو إليها ، واستمر القتال ، وقدمت الدبابات ، وضربت المنجنيقات ، وزاحمت السور إلى أن صارت منه بمقدار أمّاج البحر ، وأهاج الدور ، فاتفق أصحابنا على أن يفتحوا أبواباً قبالتها من السور ، ويتركوها معلقة بالقشور ، ثم فتحوا الأبواب ، وتكاثر صالح أهل الثغر من كل الجهات ، فأحرقوا الدبابات المنصوبة ، وصدقوا عندها من القتال ، وأنزل الله على المسلمين النصر ، وعلى الكفار الخذلان والقهر .

واتصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء ، وقد ظهر فشل الفرنج ورعبهم ، وقصرت عزائمهم وفتر حربهم ، وأحرقت آلات قتالهم ، واستحرق القتل والجراح في رجالهم ، ودخل المسلمون إلى الثغر لأجل قضاء فريضة الصلاة ، وأخذ ما به قيام الحياة ، وهم على نية المباكرة ، والعدو على نية الهرب والمبادرة .

ثم كثر المسلمون عليهم بغتة وقد كاد يختلط الظلام ، فهاجموهم في الخيام ،
فتسلموها بما فيها ، وفتكوا في الرجالة أعظم فتك وتسلموا الخيالة ، ولم يسلم
منهم إلا من تزع لبسه ، ورمى في البحر نفسه ، وتقم أصحابنا في البحر على بعض
المراكب نخسفوها وأتلفوها ، فولت بقية المراكب هاربة ، وجاءتها أحكام الله
الغالبة ، وبقى العدو بين قتل وغرق ، وأسر وفرق ، واحتفى ثلثمائة فارس منهم
في رأس تل ، فأخذت خيولهم ، ثم قتلوا وأسروا ، وأخذ من المتاع والآلات
والأسلحة ما لا يُملك مثله ، وأقلع هذا الأسطول عن الثغر يوم الخميس .

(١٠)

رسالة بقلم القاضي الفاضل أرساها صلاح الدين وهو بالقرب من حماة
في طريقه إلى حاب لمحاربة قواد نور الدين، إلى الديوان العزيز ببغداد،
يعدد فيها فتوحه وانتصاراته في مصر واليمن والمغرب، ويسأل
الخليفة أن يرسل إليه الثقايلد بتوليته على هذه البلاد، وعلى ما قد
يفتحه في المستقبل من بلاد أخرى.

عن : (الروضتين، ج ١، ص ٢٤١ - ٢٤٣)

” فإذا قضى التسليم حق اللقاء، واستدعى الإخلاص جهد الدعاء، فليعد
وليعد حوادث ما كانت حديثا يفترى، وجواري أمور إن قال فيها كثيرا فأكثر
منه ما قد جرى، وليشرح صدرا منها لعله يشرح منا صدرا، وليوضح الأحوال
المستسرة، فإن الله لا يعبد سرا :

ومن الغرائب أن تسير عرائب في الأرض لم يعلم بها المأمول
كالعيس أقتل ما يكون لها الصدى، والماء فوق ظهورها محمول

فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا وغيرونا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا
يستمر، ونلقى السهام بنحورنا وغيرونا يعتمد التصوير، ونصاغ الصفاح بصدورنا
وغيرونا يدعى التصدير، ولا بد أن تسترد بضاعتنا بموقف العدل الذي تُردُّ به
العصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب، وما كان
العائق إلا أنا كنا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمة يضاهي ابتداءنا
بالخدمة، وإنجابا للحق يشاكل إنجابنا للسبق، كان أول أمرنا أنا كنا في الشام
لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا، نحن ووالدنا
وعمنا في أي مدينة فتحت، أو معقل ملك، أو عسكر لاعدو كسر، أو مصاف

للإسلام معه ضرب ، فما يجهل أحد صنعنا ، ولا يحدد عدونا أنا تصطلق
الجمرة ، ونملك الكرة ، ونتقدم الجماعة ، ونرتب المقاتلة ، وندير التعية ، إلى أن
ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها ، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها ، وكانت
أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عاياه فيها من سوء تدبير ، وبما دولتها عاياه
من غلبة صغير على كبير ، وأن النظام بها قد فسد ، والإسلام بها قد ضعف عن
إقامة كل من قام وقعد ، والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاطعوهم بأموال
كثيرة ، لها مقادير خطيرة ، وأن كلمة السنة بها وإن كانت مجموعة ، فإنها مقموعة ،
وأحكام الشريعة وإن كانت مسماة ، فإنها متعاماة ، وتلك البدع بها على ما يعلم ،
وتلك الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم ، وذلك المذهب
قد خالط من أهله اللحم والدم ، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تعبد من دون
الله وتعظم وتفخم ، فتعالى الله عن شبه العباد ، وويل لمن غره تقلب الذين
كفروا في البلاد ، فسمت هممتنا دون همهم أهل الأرض إلى أن نستفتح مقلها ،
ونسترجع للإسلام شاردها ، ونعيد على الدين ضالته منها .

فسرنا إليها في عساكر صفحة ، وجموع جمعة ، وبأموال انتهكت الموجود ،
وباغت منا المجهود ، أنفقناها من حاصل ذمنا وكسب أيدينا ، وثمان أسارى الفرنج
الواقعين في قبضتنا ، فعرضت عراض منعت ، وتوجهت للمصريين رسل باستنجاد
الفرنج قطعت ، ولكل أجل كتاب ، ولكل أمل باب ، وكان في تقدير الله أنا نملكها
على الوجه الأحسن ، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن ، فقدر الفرنج بالمصريين
غدره في هدنة عظم خطبها وخطبها ، وعلم أن استئصال كلمة الإسلام محطها ، فكاتبنا
المسلمون من مصر في ذلك الزمان ، كما كاتبنا المسلمون من الشام في هذا الأوان ،
بأننا إن لم ندرك الأمر وإلا نخرج عن اليد ، وإن لم ندفع غريم اليوم لم نجهل
إلى الغد ، فسرنا بالعساكر المجموعة ، والأمراء والأهل المعروفة ، إلى بلاد قد تمهد
لنا بها أمران ، وتقرر لنا في القلوب ودان : الأول ما علموه من إيثارنا للمذهب
الأقوم ، وإحياء الحق الأقدم ، والآخر ما يرجونه من فك أسارهم وإقالة عثارهم ،

ف فعل الله ما هو أهله ، وجاء الخبر إلى العدو فانقطع حبله ، وضاق به سبله ، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورسايقها وبلادها وأقاليمها قد نفذت فيها أوامره ، ونفذت عليها صلبانه ، ونصبت بها أوثانه ، وأيس من أن يسترجع ما كان بأيديهم حاصلًا ، وأن يستنقذ ما صار في ملكهم داخلًا .

ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير ، وسوادهم كبير ، وأمواهم واسعة ، وكنائسهم جامعة ، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر ، والحيلة في السرفيهم أنفذ من العزيمة في الجهر ، وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف كلهم أغنام أعجم ، إن هم إلا كالأنعام ، لا يعرفون رباً إلا ساكن قصره ، ولا قبله إلا [٢٤٢] ما يتوجهون إليه من ركنه وامثال أمره ، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية ، موضوعة عنهم الجزية ، كانت لهم شوكة وشكة ، وحة وحمية ، ولهم حواش لقصورهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخلة ، وتصيب القلوب مخاتلة ، ومن بين كتاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل ، وخدام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل ، ودولة قد كبر نملها الصغير ولم يعرف غيرها الكبير ، ومهابة تمنع ما يكنه الضمير ، فكيف بخطوات التدبير .

هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائرة ، وتحريف للشريعة بالتأويل ، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل ، وكفر سمي بغير اسمه ، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه .

فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار ، ونخيفهم تخيف الليل والنهار ، بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير ، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير ، ولطيف توصل ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير .

وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا بالفرنج دفعة إلى بليس ودفعة إلى دمياط ، وفي كل دفعة منهما وصلوا بالعدد المجهر ، والحشد الأوفر ، وخصوصاً في نوبة دمياط ، فإنهم نازلوها بحرا في ألف مركب مقاتل وحامل ، وبرا في مائتي

ألف فارس وراجل ، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ويماسونها
ويصاحبونها القتال الذي يصلبه الصليب ، والقراع الذي ينادى به الموت من مكان
قريب ، ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر ، ونضابر الضدين المنافق والكافر ،
حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره ، وخابت المطامع من المصريين والفرنج ، وشرعنا
في تلك الطوائف من الأرمن والسودان والأجناد فأخرجناهم من القاهرة تارة
بالأوامر المرهقة لهم ، وتارة بالأموال الفاضحة منهم ، وطورا بالسيوف المجردة ،
وبالنار المحرقة ، حتى بقي القصر ومن به من خدم ومن ذرية قد تفرقت شيعه ،
وتمزقت بدعه ، وخفتت دعوته ، وخفيت ضلالتة .

فهناك تم لنا إقامة الكلمة ، والجهر بالخطبة ، والرفع للواء الأسود الأعظم ،
وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه وفنائته ، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حنثها
أيسر من إثم إبقائه ، لأنه عوجل لفرط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك
دولته .

ولما خلا ذرعنا ورحب وسعنا ، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكفار فلم
تخرج سنة إلا عن سنة أقيمت فيها برا وبحرا ، مركبا وظهيرا ، إلى أن أوسعناهم
قتلا وأسرا ، وملكنا رقابهم قهرا وقسرا ، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام
فيها منذ أخذت من أيديهم ، ولا أوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مذ ملكها
أعاديهم ، فمنها ما حكمت فيه يد الخراب ، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب ،
ومنها قلعة بشفر أيلة ، كان العدو قد بناها في بحر الهند ، وهو المملوك منه إلى الحرمين
واليمن ، وغزا ساحل الحرم فساء منه خلقا ، وخرق الكفر في هذا الجانب تحرقا ،
فكادت القبلة أن يستولى على أصلها ، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها ، ومقام
الخليل عليه السلام أن يقوم به من ناره غير برد وسلام ، ومضجع الرسول — صلى الله
عليه وسلم — أن يتطرقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام ، فأخذت هذه القلعة ،
وصارت معقلا للجهاد ، وموئلا لسفار البلاد ، وغيرهم من عباد العباد .

ثم قال :

”وكان باليمن ما علم من أمر ابن مهدي الضال الملحد ، المبدع المتمرد ، وله آثار في الإسلام وثار ، طالبه النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه سبى الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البخس ، واستباح منهن كل مالا يقر لمسلم عليه نفس ، ودان ببدعه ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة ، وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأجاحها ، وأحل الفروج المحرمة وأباحها ، فأنهضنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا له نفقات واسعة ، وأسلحة رائعة ، وسار فأخذناه والله الحمد ، وأنجز الله فيه القصد ، والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند سامية ، وإلى ما يفتض الإسلام عذرتة متمادية .

ولنا في الغرب أثر أغرب ، وفي أعماله أعمال دون مطلبها مهالك ، كما يكون المهلك دون المطلب ، وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم قد أمر ، وملكهم قد عُمّر ، وجيوشهم لا تنطاق ، وأمرهم لا يشاق ، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلادا تزيد مسافتها على شهر ، وسيرنا إليها عسكرا بعد عسكرا ، فرجع بنصر بعد نصر ، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير : برقة ، قفصة ، قسطنطينية ، توزر ، كل هذا تقام فيها الخطبة لمولانا الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين ، سلام الله عليه ، ولا عهد للإسلام بإقامتها وينفذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلاقتها .

وفي هذه السنة كان عندنا وفد قد شاهده وفود الأمصار ، ورموه بأسباع وأبصار ، مقداره سبعون رابكا ، كلهم يطلب لسلطان بلده تقليدا ، ويرجو منا وعدا ويخاف وعيدا ، وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها ، وألقيت إليها مقاليدها ، وسيرنا الخلع والمناشير والألوية بما فيها من الأوامر والأقضية .

فأما الأعداء المحدثون بهذه البلاد ، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشداد ، فمنهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية الأكبر ، والجالوت الأكبر ، وصاحب [٢٤٣] المملكة التي أكلت على الدهر وشربت ، وقائم

النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغلبت، جرت لنا معه غزوات بحرية،
ومناقلات ظاهرة وسرية، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة
نوبتين بكتابين ، كل واحد منهما يظهر فيه خَفَضُ الجناح ، والقاء السلاح ،
والانتقال من معاداة إلى مهادة ، ومن مفاضحة إلى مناصحة ، حتى أنه أُنذر
بصاحب صقلية وأساطيله التي تردد ذكرها ، وعساكره التي لم يخف أمرها .

ومن هؤلاء الكفار : هذا صاحب صقلية ، كان حين علم بأن صاحب الشام
وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغلبا وقسرا وهزما وكسرا، أراد أن
يظهر قوته المستقلة ، فعمّر أسطولا يستوعب فيه ماله وزمانه ، فله الآن خمس
سنين تكثرت عدته ، وتنتخب عدته ، إلى أن وصل منها في السنة الحالية إلى
الإسكندرية أمرا رائع ، وخطبٌ هائل ، ما أثقل ظهر البحر مثل حملة ،
ولا ملاء صدره مثل خيله ورجله ، وما هو إلا إقليم بل أقاليم نقله ، وجيش
ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله .

ومن هؤلاء الجيوش : البنادقة والبياشنة والجنوية ، كل هؤلاء تارة يكونون
غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفارا
يحتكون على الإسلام في الأموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة ،
وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب إلينا
باهداء طرائف أعماله وتلاده ، وكلهم قد قررت معهم المواصلات ، وانتظمت
معهم المسالمة ، على ما نريد ويكرهون ، وعلى ما تؤثر وهم لا يؤثرون .

ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية ، وكنا في تلك السنة على نية الغزاة ،
والعساكر قد تجهزت ، والمضارب قد برزت ، ونزل الفرنج على بانياس وأشرفوا
على احتيازها ، ورأوها فرصة مدّ وأيد انتهازها ، استصرخ بنا صاحبها ، فسرنا
مراحل اتصل بالعدو أمرها ، وعوجل بالهدنة الدمشقية التي لولا مسيرنا
ما انتظم حكمها ، ثم عدنا إلى البلاد ، وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية

عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطعها ، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع إليه طالب ، والفرنج قد بنوا قلاعاً يخوفون بها الأطراف الإسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم وعوقبوا وصودروا ، والممالك الأعماد الذين خلقوا للأطراف لا للصمود ، وجعلوا للقيام لا للعقود ، في المجلس المحضور ، قد مدوا الأيدي والأعين والسيوف ، وسارت سيرتهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يداً ، ويجعلهم لظهوره سنداً .

وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يتجرد العزم في قاعه ، وإلا نبتت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهم القادرين بالعمود دائمة ، وإننا لانتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوة ، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخيول مستريحة ، والعساكر كثيرة الجموع ، والأوقات مساعدة ، وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة ، وأمور مختلة ، وآراء فاسدة ، وأمراء متحاسدة ، وأطماع غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه ، فأنا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء في خدمته وهم عاملون بظلمه .

والمراد الآن هو كل ما يقوى الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد ، وأن يطبق بالاسم العباسي كل ما تطبقه العهد ، وهو : تقليد جامع بمصر ، واليمن ، والمغرب ، والشام ، وكلما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتح الله للدولة العباسية بسيفنا وسيوف عساكرنا ، ولمن نقيمه من أخ أو ولد من بعدنا ، تقليداً للنعمة تخليداً ، وللدعوة تجديد ، مع ما ينعم به من السمات التي فيها الملك .

وبالجملة فالشام لا ينتظم أموره بمن فيه ، والبيت المقدس ليس له قرن يقوم به
ويكفيه ، والفرنج فهم يعرفون منا خصما لا يمل الشر حتى يملوا ، وقرنا لا يزال
محرم السيف حتى يملوا ، وإذا شد رأينا حُسْنُ الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده ،
وباغنا المنى بمشيئة الله ويد كل مؤمن تحت برده ، واستنقذنا أسيرا من المسجد
الذي أمرى الله إليه بعبده “ .

(١٦)

قُطِعَ من رسائل بقلم القاضي الفاضل مرسله من صلاح الدين
إلى الديوان العزيز ببغداد في تعداد ماله من الأيادي على الخلافة
العباسية ، وخاصة إعادة الخطبة لها في مصر واليمن والمغرب.

عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤)

”والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك التي دوّخها ، وسنن الضلال
التي نسخها ، وعقود الإلحاد التي فسخها ، ومنابر الباطل التي رخصها ، وحجج
الزندقة التي دحضها ، فإنه عاينه المنّة فيه إذ أهله لشرف مشهده ، وما فعله إلا
لوجهه ، ويد الله كانت عون يده ، وإلا فقد قضت الليالي والأيام على تلك الأمور
وما تحركت للفلك في قلعه نابضة ، وغيرت الأحوال على تلك البدعة ، وما ثارت
لأفراسها رابضة ، فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده [٢٤٤] منها أن يجتهد في أخرى
مثلها في الكفار وقد عاد الإسلام إلى وطنه ، وصوحت من الكفر خضراء
دمته “.

ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه إعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة
العباسية يقول فيه :

”حتى أتى الدنيا ابنُ بجدتها ، ففضى من الأمر ما قضى ، وأسخط من لله في سخطه
رضى ، وجعل وجهه لابسى السواد مبيضا ، فأدرك لهم بنار نامت عنه الهمم ،
ودوخت عليه الأمم ، وشفى الصدور ، وجاء بالحق إلى من غره بالله الغرور ،
واستبضع إلى الله تعالى تجارة لن تبور “.

ومن كتاب آخر :

” قد بورك للخادم في الطاعة التي لبس الأولياء شعارها ، وأمضى في الأعداء شفارها ، وجمع عليها الدين وكان أديانا ، واستقامت بها القلوب على صبغة التكلف وكانت ألوانا “ .

ومن كتاب آخر :

” لم يكن سبب خروج المملوك من بيته إلا وعدُّ كان انعقد بينه وبين نور الدين — رحمه الله — في أن يتجاوزا طرفي الغزاة من مصر والشام ، المملوك بمسكرى بره وبحره ، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره ، فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما ، وحدثت بعد الأمور أمور اشتهرت للمسلمين عورات ، وضاعت نفور ، وتحكمت الآراء الفاسدة ، وفورقت المحاج القاصدة ، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين ، والكفار محمولة إليها جزى المسلمين ، والأمراء الذين كانوا للإسلام قواعد ، وكانت سيوفهم للنصر موارد ، يشكون ضيق حلقات الأسار ، وتطرق الكفار بالبناء في الحدود الإسلامية ، ولاخفاء أن الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا ، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الأقطار وسيروا الصليب ومن كسى مذابحهم بقمامة وهددوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة ، وأنفذوا البطارقة والقسيسين برسائل وصور من يصورونه ممن يسمونهم القديسين ، وقالوا إن الغفلة إن وقعت أوقعت فيما لا يستدرك فارطه ، وأن كلا من صاحب قسطنطينية وصاحب صقلية وملك الألمان وملوك وما وراء البحر ، وأصحاب الجزائر كالبندية والبيدانية والجنوية وغيرهم ، قد تاهبوا بالهائر البحرية ، والأساطيل القوية ، وللإسلام بأمير المؤمنين أعز ناصر ، لاسميا وهم ينصرون باطلا ، وهو ينصر حقا ، وهو يعبد خالقا وهم يعبدون خلقا “ .

(١٧)

خطاب بقلم القاضي الفاضل ، مرسل من صلاح الدين يوسف بن
أيوب إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، الخليفة
الموحدى بالمغرب ، فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، يستجيشه
على الفرنج أثناء قتاله معهم حول عكا .

من : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٥٢٦ - ٥٣٠)

فتح الله بحضرة سيدنا أمير المؤمنين ، وسيد العالمين ، وقسيم الدنيا والدين ،
أبواب الميامن ، وأسباب المحاسن ، وأحله من كفايته فى الحرم الآمن ، وأنجزه
من نصرة الحق ما الله له ضامن ، وأصلح به كل رأى عليه الهوى رائن ، ومكن
له فى هذه البسيطة بسطة ، وزاده بالعلم غبطة ، حتى يكون للأنبياء بالعالم وللأرض
بالعزم وارثا ، وحتى يشيد بحادث قديما من مجده الذى لا يزال بغض الحديث حادثا .

كان من أوائل عز منا وفواتح رأينا عند ورودنا الديار المصرية مفاتحة دولة
سيدنا ، وأن نتمن بمكاتبها ، وتترن بخاطبتها ، وتمض إليها أمائل الأصحاب
ونستقى معرفتها استسقاء السحاب ، ونتجمعها بالخواطر ونجعل الكتب رسالها ،
وأيدى الرسل سبلها ، ونمسك طرفا من حبل الجهاد يكون بيد حضرة سيدنا
العالية طرفه ، ونمسح غرة سبق وارثها ووارث نورها سلفه ، ونتجاذب أعداء
الله من الجانبين ، لا سيما بعد أن نبنا عنه نيابتين فى نوبتين : فالأولى تطهير
الأرضين المصرية واليمنية من ضلالة أغضت عيون الأيام على قذاها ، وأنامت
عيون الأنام بائمة يقظتها بكراها ، ونيابة ثانية فى تطهير بيت المقدس ممن كان
يعارض برجسه تقديسه ، ويزعج ببناء ضلاله تأسيسه ، وما كان إلا جنة إسلام
نخرج منها المسلمون خروج أيهم آدم من الجنة ، وأعقبهم فيها إبليس الكفر

وما أجارته مما أعقبه اللعنة ، وما كانت لنا بذلك قوة بل لله القوة ، ولا لنا على الخلق منة بل لله المنة .

ولما حطت لدين الكفر تيجان ، وحطمت لذويه صلبان ؛ وأخرس الناقوس الآذان ؛ ونسخ الإنجيل القراءان ؛ وفككت الصخرة من أسرها ، وخفف ما كان على قلب الحجر الأسود بخفة ما كان على ظهرها ؛ وبذلك أن يد الكفر غطتها وغمرتها .

فقاله الحمد أن أحرمت الصخرة بذلك البنيان المحيط ، وطهرها ما طر من دم الكفر وما كان يطهرها البحر المحيط ، فهناك غلب الشرك وانقلب صاغرا ، واستجاش كافر من أهله كافرا ؛ واستفضب أنفاره النافرة ، واستصرخ نصرانيته المتناصرة ، وتظاهروا علينا وإن الله مولانا ، وطاروا إلينا زرافات ووحدانا ، فلم يبق طاغية من طواغيمهم ، ولا أنفية من أنافيهم ؛ إلا ألبم وأسرج ، وأجلب وأرجم ، ونُرح وأُخرج ، وجاد بنفسه أو بولده ، وبعده وبعده ؛ وبذات صدره وبذات يده ، وبكائبه برا ، وبمراكبه بحرا ؛ وبالأقوات للخيال والرجال ، والأسلحة والجنح لليمين والشمال ؛ وبالنقدين على اختلاف صنفيهما في الجمع ، وائتلاف وصفيهما في النفع ؛ وأنقض أبطال الباطل ، من فارس وراجل ، ورايح ونابل ، وحاف وناعل ؛ ومواقف ومقاتل ؛ كلٌ خرج متطوعا ، وأهطع مسرعا ، وأتى متبرعا ، ودعا نفسه قبل أن يُستدعى وسعى إلى حتفها قبل أن يستسمى ؛ حتى ظننا [أن] في البحر طريقا يسا ؛ وحتى تيقنا أن ما وراء البحر قد خلا وعسا ؛ وقلنا : كيف ترك ، وقد علم أنه يدرك ؟ وزادت هذه الحشود المتوافية ، وتجاغت عنها الهمم المتجافية ، وكثرت إلى أن خرجت من سجن حصرها ، ومستقر كفرها ، وبقية نعرها — وهو صور — ، فنازلت نعر عكا في أسطول ملك بحره ، وجمع سلك بره ، فنهضنا ، إليه ونزلنا عليهم وعليه ؛ فضرب معنا مصاف قتلت فيه فرسانه ، وجدلت

تجماعه ، وخذلت صلبانه ، وساوى الضرب بين حاسر القوم ودارعهم ، وبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، فهناك لاذوا بالخنادق يحفرونها ، وإلى الستائر ينصبونها ، وأخذوا إلى الأرض متناقلين ، وحملوا أنفسهم على الموت متحاملين ، وظاهروا بين الخنادق ، وراحوا بين المجانيق ، وكلما يمن القتل من عددهم مائة أوصلها البحر من يصل وراءه بألف ، وكلما قلوا في أعيننا في زحف ، قد كثروا فيما يليه من الزحف ؛ ولو أن دربة عساكرنا في البحر كدربتها في البر ، لعجل الله منهم الانتصاف ، واستقل واحدنا بالعشرة ومائتنا بالألف ؛ وقد اشتهر خروج ملوك الكفار في الجمع الجم ، والعدد الدهم ، كأنهم إلى نصب يوفضون ، وعلى نار يعرضون ، ووصلهم على جهة القسطنطينية — يسر الله فتحها — على عزم الأتتام إلى الشام في منسلخ الشتاء ومستهل الصيف ، والعساكر الإسلامية لهم تستقبل ، وإلى حربهم تنتقل ، فلا يؤمن على نفور المسلمين أن يتطرق العدو إليهم وإليها ، ويفرغ لها ويتسلط عليها ، والله من ورائهم محيط ، وإذا قسمت القوة على تلقى القادم وتوقي المقيم ، فربما أضر بالإسلام انقسامها ، وثلمه والياد بالله انتلامها .

ولما منحض النظر زبده ، وأعطى الرأي حقيقة ما عنده ، لم نر لمكثرة البحر إلا بحرا من أساطيله المنصورة فإن عددها واف ، وشطرها كاف ، ويمكنه — أدام الله تمكينه — أن يمد الشام منه بعد كثيف ، وحد رهيف ، ويعهد إلى واليه أن يقيم إلى أن يرتب ويصيف ، ويمكنه أن يكف شطر الأسطول طاغية صقلية ليحصّ جناح قلوعه أن تطير ، ويعقل عباب بحره أن يغير ، ويستقله في جزيرته ، ويجرى إليه قبل جريته ؛ فيذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكر لا تردّ به المحامد على عقبها ، ويقيم على الكفر قيامة يطلع بها شمس النصر من مغربها ؛ فإذا نفذ طريقه وعلم الناس بموفّده ، أوردوا وأصدروا في مورده ، وشخص المسلم والكافر : هذا ينتظر بشرى الیدار ، وهذا يستطلع لمن تكون عقبى الدار ، وخاف وطاة من يصل من رجال الماء من وصل من رجال النار

ولو بزقت عليهم بازقة غربية لأغرقهم طوفانها ، ولو طلعت عليهم جارية بحرية
لنعت قينهم بالشتات غربانها .

وما رأينا أهلا لهذه العزلة إلا حضرة سيدنا أدام الله صدق محبة الخيرية ،
إذ كان منحه عادة في الرضى به وقدره على الإجابة ، ورغبة في الإنابة ، ولاية
لأمر المسلمين ، ورياسة للدنيا والدين ، وقيامه لسلطان التوحيد القائم بالموحدين ،
وغضبا لله ولدينه ، وبذلا لمذخوره في الذب عنه دون ما عوده .

والآن فقد خلا الإسلام بملائكته ، لما خلا الكفر بشياطينه ، وما أجلت
السوابق إلا لإطلاقها ، ولا أثلت الذخائر إلا لإنفاقها ، وقد استشرف
المسلمون طلوعها من جهته المحروسة جارا من الأساطيل تغشى البحار ، وليالى
من المراكب تركب من البحر النهار ، وإذا خفقت قلوبها خفقت للقلاع قلوب ،
وإذا تجافت جنوبها عن الموج تجافت من الملاءين جنوب ، فهي بين ثغر
كفر تعتقله وتحصره ، وبين ثغر إسلام تفرج عنه وتنصره ، يكون بها مصائب
عند المسلمين (؟) وتظل قلائد المشركين لغربان بحره طرائد ، ويمضى سيف الله
الذى لا يعدم في كل زمان فيعلم معه أن سيف الله خالد .

أعز الله الإسلام بما يزيد حضرة سيدنا من عزها ، فيما مد عليها من ظلها ،
وبما يسكنه من حرزها ، فيما يسط على الأعداء بها من بأسها ، ويتزل بهم
من رجزها ، وبما يجرده من سيوفها ، التي تقطع في الكفر قبل سلها وهزها .

وقد أوفدناه على باب حضرة سيدنا ، وهو الداعي المسمع ، والمبلغ المقنع ،
والمجمع المستجمع ، علمناه أمرا يسرا ، وبوأناه الصبر فكان وجهها ، وأودعناه
السرف كان صدرا .

(١٨)

خطاب بقلم القاضى الفاضل ، من صلاح الدين الى سيف الدولة
ابن منقذ — رسوله الى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن
عبد المؤمن — يستنجد به ، ويطلب منه المعاونة بإرسال قطع
من أسطوله ، أثناء حصار الفرنج لعا ، وتاريخ الخطاب
٢٨ شعبان سنة ٥٨٦ هـ .

عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧٠ - ١٧١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمير الأجل ، الاسفهلار ، الأصيل ، العالم ، المحترم ، شمس الدين ،
عُدّة الإسلام ، جمال الأنام ، تاج الدولة ، أمين الملة ، صفوة الملوك
والسلاطين ، شرف الأمراء ، مقدم الخواص ، أدام الله توفيقه ، ويسر طريقه ،
وأنجح مقصده ، وأعذب مورده ، وحرس مغيبه ومشهده ، وأسعد يومه وغده .
يستخير الله سبحانه ، ويتوجه — كيفاً يسر الله — إلى الجهة الاسلامية
المغربية ، — حرس الله جانبها ، ونصر كتائبها ومراكبها — ويستقرى
في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم وأشغالهم وأفعالهم ،
وما يحبونه من القول : نزره أو جمه ، ومن اللقاء : منبسطه أو منقبضه ، ومن
القعود بمجالسهم : عنقه أو مطوله ، ومن التحيات المتباداة بينهم : ما صيغته
وما موقعه ، وهل هي السنن الدينية أو العوائد الملوكية ، ولا يلقيه إلا بما يحبه ،
ولا يخاطبه إلا بما يسره .

والكتاب قد نفذ إليه ولم يحتم لي علم ما خوطب به ، والمقصود : أن نقص
القصص عليه من أول وصولنا إلى مصر ، وما أزلنا من البدع بها ، وعطلنا
من الإلحاد فيها ، ووضعنا من المظالم عنها ، وإقامة الجمعة وعقد الجماعة فيها ، وغزواتنا
التي توصلت إلى بلاد الكفار من مصر ، فكانت مقدمة لملك الشام الإسلامى

باجتماع الكلمة علينا، ومقدمة ذلك الشام الفرنجى باقيا المسلمين لنا، واتفاق الملوك المجاورين على طاعتنا ؛ وتفصيل ماجرى لنا مع الفرنج من الغزوات المتقدمة التى جُسنا فيها خلال ديارهم، وجعلها الله تعالى مقدمات لما سبق فى علمه من أسباب دمارهم، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى، وفتح البيت المقدس ، وتلك على الإسلام منة الله العظمى، إلى غير ذلك من أخذ الثغور، وافتتاح البلاد وإثخان القتل فيهم والأسر لهم ، واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب ، وخروج نجداتهم وكثرتها، وقوتها ومنعتها، وغناها وثروتها، ومسارعتها ومبادرتها ، وأنه لا يمضى يوم إلا عن قوة تتجدد، وميرة تصل ، وأموال واسعة تخرج ، ومعونات كثيرة تحمل ، وأن ثغرا حصره العدو ، وحصرنا نحن العدو ، فما تمكّن من قتال الثغر، ولا تمكّن من قتالنا ، وخندق على نفسه حدة خنادق ، فما تمكنا من قتاله ، وقدم إلى الثغر أبرجة أحرقها أهله ، وخرج مرتين إلى عسكرنا فكسر العدو أقله ، فإنه اغتني أوقاتا لم تكن العساكر فيها بمجموعة ، وارتاد ساعات لم تكن الأُهبُ فيها مأخوذة ، وأقدم على غرة استيقظت فيها نصره الله لنا وخذلانه لهم ، فقتل الله العدو القتل الذريع ، وأوقع به الفتك الشنيع ، وانجلت إحدى الحركتين عن عشرين ألف قتيل من الكفار خرجت أنفسها إلى مصارعها ، وهمدت أجسامها فى مضاجعها، والعدو وإن حصر الثغر فإنه محصور ، ولو أبرز صفحته لكان باذن الله هو المذبور المكسور .

وتذكر ما دخل الثغر من أساطيلنا ثلاث مرات ، وإحراقها لمراكبهم وهى الأكثر، ودخولها بالميرة بحكم السيف الأظهر ، وأن أمر العدو مع ذلك قد تطاول ، وخطبه قد تهادى ونجدته تواصل ، ومنها ما كُ الألمان فى جموع جماهيرها بجهرة ، وأموال قناطيرها مقنطرة ، وأن عساكرنا لو أدركته لما استدرك ، ولولا سبقه لها بالدخول إلى أنطاكية لتلف وهلك .

وتذكر أن الله قَصَمَ طاغيةَ الألمان وأخذَهُ أخَذَةً فرعونية بالإغراق ، في نهر الدنيا الذي هو طريقه إلى الإحراق في نار الآخرة ، وأن هذا العدو لو أرسل الله عليه أسطولا قويا مستعدا يقطع بحره ويمنع ملكه ، لأخذنا العدو إما بالجوع والحصر ، أو برز فأخذناه بيد الله تعالى التي بها النصر .

فإن كانت الأساطيل بالجانب المغربي ميسرة ، والعدة منها متوفرة ، والرجال في اللقاء فارحة ، وللمسير غير كارهة ، فالبدار البدار ، وأنت أيها الأمير فيها أول من استخار الله وسار .

وإن كانت دون الأسطول موانع : إما من قلة عدة ، أو من شغل هناك بمهمة ، أو بمباشرة عدو ما تحصن منه العورة ، أو قد لاحت منه الفرصة ، فالمعونة ما طريقها واحدة ، ولا سبيلها مسدودة ، ولا أنواعها محصورة ، تكون تارة بالرجال ، وتارة بالمال .

وما رأينا أهلا لخطأ بنا ، ولا كفؤا لإنجادنا ، ولا محقوقا بدعوتنا ، ولا ملبيا بنصرتنا ، إلا ذلك الجنب ، فلم ندعُ إلا لواجب عليه ، وإلى ما هو مستقل به ومطبق له ، فقد كانت تتوقع منه همة تقدر في الغرب نازها ، ويستطير في الشرق سناها ، وتغرس في العدو القصوى شجرتها ، فينال من في العدو الدنيا جناها ، فلا ترضى همته أن يعين الكفر الكفر ، ولا يعين الإسلام الإسلام ، وما اختص بالاستعانة إلا لأن العدو جاره ، والجار أقدر على الجار ، وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار ، ولأنه بحر والنجدة بحرية ، ولا غرو أن يجيش البحار البحار .

وإن سئل عن المملوكين : يوزبا وقراقوش ، وذكر ما فعلا في أطراف المغرب بمن معهما من نفايات الرجال ، الذين نفتهم مقامات القتال ، فيعلمهم أن المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه الممالك والأغراء ، ولا من المعدودين في الطواشية والأولياء ، وإنما كسدت سوقهما ، وتبعتهما ألقاف أمثالهما ، والعادة جارية أن

العساكر إذا طالت ذيوها ، وكثرت جموعها ، خرج منها وانضاف إليها ،
فلا يظهر مزيدها ولا نقصها ، ولا كان هذا المملوك من إذا غاب أحضر ،
ولا ممن إذا فقد أُنقذ ، ولا يُقدَّرُ في مثلها أنه ممن يستطيع نكاية ، ولا يأتي
بما يوجب شكوى من جناية ، وماذا الله أن تأمر مفسدا بأن يفسد في الأرض ،
إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت .

وإن سئل عن النوبة المصرية ، وما فعل بجندها ، فيعلمهم الأمير أن القوم
راسلوا الكفار ، وأطمعهم في تسليم الديار ، فأشقى الإسلام على أمر شديد ،
وكاد يقرب على الكفر كل أمر بعيد ، فلم يعاقب الجيش بل أعيان المفسدين
فقبلوا بما يجب ، وكانوا دعاة كفر وضلال ، ومحاريين لله بما سعوا في الأرض
من فساد .

فأما بقية الجيش وإن كان منهم من هو تبعٌ للذكورين في الرضا ، فإنهم اقتصر
نهم على ألا يكونوا جندا ، ومنهم من أجريت عليه أرزاقٌ تبلغه ، وشملته آمنة
تسكنه .

وأما الهدية المسيرة على يد الأمير فتفصيلها يرد في كتاب الأمير الأجل ،
الاسفهسلار ، العالم الكبير ، مجد الدين ، سيف الدولة — أدام الله علوه —
مقرونا بالهدية المذكورة .

ومع قرب الشتاء فلم يبق إلا الاستخارة والتسمية ، ومبادرة الوقت قبل
أن يغلق البحر انفتاح الأشية .

والله سبحانه يوفق الأمير ويسهل سبيله ، ويهدي دليله ، ويكلاه بعينه ،
ويمده بعونه ، ويحمل رحله ، ويبلغه أهله ، ويشرح له صدره ، ويسر له
أمره ، إن شاء الله تعالى .

وكتب [في] ثامن عشرين شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة .

(١٩)

خطاب مرسل من صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى ملك
المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يستنجد به على
الفرنج أثناء حصارهم لمكا ، وفي ختامه إشارة إلى الهدية المرسلة
من صلاح الدين بهذه المناسبة .

عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧١ - ١٧٣)

بلاغ إلى محل التقوى الطاهر ، ومستقر حزب الله الظاهر ، من المغرب ،
أعلى الله به كلمة الإيمان ، ورفع به منار البر والإحسان .

بسم الله الرحمن الرحيم

من الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب :

أما بعد : فالحمد لله الماضى المشية ، المضى القضية ، البر بالبرية ، الحفى بالحنفية ،
الذى استعمل عليها من استعمر به الأرض ، وأغنى من أهلها من سألته القرض ،
وأجزل أجر من أجرى على يده النافلة والقرض ، وزان سماء الملة بدرارى الذرارى
التي بعضها من بعض ، وصلى الله على سيدنا محمد الذى أنزل عليه كتابا فيه الشفاء
والتبيان ، وبني الإسلام بأمته التى شبهها صاحبها بالبيان ، وعلى آله وصحبه الذين
اصطفاهم وطهرهم فنصروه ، وظاهروا رسوله - صلى الله عليه وسلم -
فنصرهم وأظهرهم ، ويسر بهم السبيل ثم السبيل يسرهم ، وأن الله بهم لذو فضل
على الناس ولكن أكثرهم

” رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا
غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ “ .

وهذه التحية الطيبة الكريمة الصيبة الواجبة الرد ، الموجبة لاقصد ، العذبة
الورد ، المتنفسة عن المنبر والورد ، وقادة على دار الملك ، ومدار النسك ، وجل

الجلالة ، وأصل الإصالة ، ورأس الرياسة ، ونفس النفاسة ، وحكم الحكم ، وعلم العلم ، وقائم الدين وقيمه ، ومقدم الإسلام ومقدمه ، ومقتضى دين الدين ، ومثبت المتقين على اليقين ، ومعل الموحدین على الملحدین أدام الله له النصره ، وجهزه تيسير العسرة ، ورد له الكرة ، وبسط له باع القدرة ، وأوثق به حبل الالفه ، ومهد له درجات الغرفه ، وعرفه في كل ما يعترمه صنعا جزيلا جميلا ، ولطفاً حفيماً جليلاً ، ويسر عليه في سبيله كل ما هو أشد وطأ وأقوم قيلاً .

تحية أستنير منها الكتاب ، وأستنب عنها الجواب ، وقد حفز لها حافظان : أحدهما شوق قديم كان مطل غريمه ممكناً إلى أن تيسر الأسباب ، والآخر مرام عظيم ماكره إذا استفتحت به الأبواب ؛ وكان وقت المواصلة ، وموسم المكاتبه هناؤه بفتح المقدس ، وسكون الإسلام منه إلى المقييل والمعزس ، وما فتح الله للإسلام من الثغور ، وما شرح لأهله من الصدور ، وما أنزله عليهم من النور ، ولم يخل المساءون فيه من دعوات أسرار ذلك الصدر ، وملاحظات أنوار ذلك البدر ، ومطالعات تلك الجهة ، التي هي وإن كانت غربية فإن الغرب مستودع الأنوار ، وكتر دينار الشمس ومصب أنهار النهار ، ومن جانبه يأتي سكون الليل ومستروح الأسرار ، وعنه يقلب الله الليل والنهار ، إن في ذلك لعلبة لأولى الأبصار ، ولم تتأخر المكاتبه إلا ليم الله مابداً من فضله ، وليفتح بقية مالم ينقطع بتقطع يد الشرك من حبله .

والمفتتح بيد الله من الشام : مدن وأمصار ، وبلاد كبار وصغار ، وثغور وقلاع كانت للشرك معاقل ، وللإسلام معافر ، ولبنى الكفر مصانع ، ولبنى الإسلام مصارع ؛ والباقي يد الكفر منها : ثغرا طرابلس وصور ، ومدينة أنطاكية — يسر الله أمرها ، وفك من يد الكفر أسرها — وإذا أمن المؤمن على هذه الدعوة رجا إيجابها ، وما يتأخر من الله سبحانه جوابها ، فالدعاء أحد السلاحين ، ومع النية يطير إلى وكره من السماء بجناحين ، بعد أن كسر العدو

الكسرة التي لم يجبر بعدها ، وألجئ إلى حصونه التي للمحصر أهداها ، وكان يومها كريما ، ولطف الله فيها عظيما ، قضت كل حاجة في النفس ، وأغنت المسلمين ، فأما العدو بعد يومها فكان لم يغن بالأسس ، وكانت على إثر غزوات قبلها فما الظن بالمجهزة بعد النكس .

ولم يؤخر فتح البلاد بعدها إلا أن فزع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب ، فأجابوهم رجالا وفرسانا ، وشيئا وشبانا ، وزرافات ووحدانا ، وبرابرا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وركبوا إليهم سهلا ووعرا ، وبذلوا ما عرنا وذنرا ، وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ولا أرسانا تقتادهم ، بل خرج كل يلبى دعوة بطركه ، ولا يحتاج إلى عزيمة ملكه ، وخرجت لهم عدة ملوك أقفلت العجمة على أسماؤها ، وأتت العزيمة — بحمد الله — على أشخاصها عند لقاءها .

ومنهم : ملك الألمان ، خرج في جموع برية ، من الله تعالى برية ، ملأت الفجاج ، وازدحمت فأنفذها العجاج ، ومنهم من ركب ثبح البحر فركب الأجاج العجاج ، وامتطى من البحر مشية الرجاج ، لينصر دينا مشبه الزجاج ، يقبل الكسر ولا يسرع إليه الجبر ، وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل سلامة ، وإلى قاع كفر (كذا) .

وجلب الكفار إلى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملأوا عليهم تغريهم من كل مطلوب ، ما بين أقوات وأطعمة ، وآلات وأسلحة ، وشلة وجنه ، وحديد مضروب وزبرة ، وتقدي ذهب وفضة ، إلى أن شحوا بلادهم رجالا مقاتلة ، وذخائر للعاجلة من حربهم والآجلة ، لا تشرق شارقة إلا طلعت على العدو من البحر طالعة تموض من الرجال من قتل ، وتختلف من الزاد ما أكل ، فهم كل يوم في حصول زيادة ، ووفور مادة ، وقد هان عليهم موقع الحصر ، وأعطاهم البحر ما منعهم البر ، ويطروا لما كثروا ونظروا ، فإنهم لا يستطيعون

أن يلقوا ويصحروا ، ويستطيعون أن يحصروا على أن ينحصروا ، ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بإمداده ، ويصل إلى المقاتل ما يحتاجه من أسلحته وأزواده ، وبمن يكثر به من مقاتله وأجناده ، فانقطعت مادة عكا من البحر ، وحصرنا منازلهم من العدو من جهة جانب البر ، فشدوا على نفوسهم ، وحثوا التراب على رؤوسهم ، وعقدت عدتهم مائة ألف أو يزيدون ، كلما أفناهم القتل أخلفتهم النجدة ، فكانهم قبل الممات يعودون ، فآتمنا بهارة بحرية لقينا عمارتهم بها ، فنفذت عمارتنا إلى الثغر وأوصلت إليه الأقوات التي حمل منها البحر مالا يحملها الظهر ، والأسلحة التي أمضاها الله عز وجل بيد الإسلام في صدور الكفر ، وما لقينا عمارة العدو بأوفر منها عدة فعددهم كبر ولكن لقيناهم بأصدق منها عزيمة ، والقايل مع العزم الصادق كذير ، واستمر مقام العدو محاصرا للثغر ، محصورا منا أشد الحصر ، لا يستطيع قتال الثغر لأننا من خلفه ، ولا يستطيع الخروج إلينا خوفا من حتفه ، ولا نستطيع نحن الدخول إليه ، لأنه قد سور وخندق ، وحاجز من وراء الحجرات وأغلق .

ولما خرج ملك الألمان بحشده وسمعته التي هي منه أحشد ، وعاد جيشه الملعون على رسم قديم إلى الشام ، فكان العود لأمة أحمد — صلى الله عليه وسلم — أحمد ، قويت به نفوسهم ، وجمحت به رؤوسهم ، وظنوا أنه يزعمنا من خيمنا ، ويخرجنا من خيمنا ، فبعثنا إليه من ياقاه بعساكرنا الشمالية فملك ذات الشمال متوعدا فيها ، محتجزا عن لقاءها ، مظاهرا أنه صريع داء وما به غير دائها .

وكان أبوه الطاغية ملك الألمان شية اللعن الاعمين ، قائد جيشه إلى سجن سجين ، قد هلك في طريقه غرقا ، وخاض الماء ففاضه الماء شرقا ، وبقى له ولد هو الآن المتقدم المؤخر ، وقائد الجمع المكسر ، وربما وصل بهم إلى عكا في البحر ، تهيبا أن يسلك البر ، ولو سبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى أنطاكية لأخذوه أخذا شريفا ، وسبق بحر سيوفهم إلى أن يكون الطاغية فيه — لافي النهر —

صريعا، ولكن لله المشيئة في البرية، والطاغية إنما يمشى إلى البلية، فإنه لولا احتجاز مقيمهم بالخنادق، واجتياز واصلهم بالمضائق، لكان لنا ولهم شأن، وكان ليومنا في النصر الكبرى بحول الله ثان لا يثليه من العدو ثان.

ولما كانت حضرة سلطان الإسلام، وقائد المجاهدين إلى دار السلام، أولى من توجه إليه الإسلام بشكواه وبثه، واستعان به على حماية نسله وحرته، وكانت مساعيه ومساعى سلفه في الجهاد الغر المحجله، المؤمرة الكاشفة لكل معضلة، الكاشفة لكل مشكلة، والأخبار بذلك سائرة، والآثار ظاهرة، والصحف عنه باسمة، والسير به معلمة وعالمة، وكلُّ بجهاده قد سكن إلا السيوف في أغمارها، وقد أمن إلا كلمة الكفر في بلادها، لا يزال في سبيل الله غاديا وراحا، ومواجهها ومكافها، ومماسيا ومصابحا، يجوز لجة البحر بالمجاهدين ملوكا على الأسرة، وغزاة تصاغ وجوهها السيوف فلا يخذ نور الأسرة، يذود الفرق الكافرة ولوترك سبيلها لملأ قراره كل واد، وكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، ولولاه لأخذ شرارة كل زناد.

كان المتوقع من تلك الدولة العالية، والعزمة الغادية، مع القدرة الوافية، والهمة المهدية الهادية، أن يمد غرب الإسلام المسلمين بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين فيملأها عايهم جوارى كالأعلام، ومدنا في اللجج سواثر كأنها الليالى مقلعة بالأيام، تطلع عايينا معشر الإسلام آمالا، وتطلع على الكفار آجالا، وتردنا إما جملة وإما أرسالا مسومة، تمدها ملائكة مسومة ومعلمة، تقدم حيازيمها أقدام حيزوم تحت أصحابه، وإنما هي منه عزمة كانت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المشامة، وكلمة كانت تنفخ الروح في الكلمة، ولما استبطشت ظن أنها توقفت على الاستدعاء، فصرخنا به في هذه التحية، فقد تحفل السحاب ولا تمطر إلى أن تحركها أيدي الرياح، وقد ترك النصر فلا تظهر إلى أن تضرع إليها السنة الصفاح.

وسير لحسن مجلسه الأطهر ، ومحل الأنور ، الأمير ، الأجل ، المجاهد ،
الأمين ، الأصيل ، شمس الدين ، نقي الإسلام والمسلمين . سفير الملوك
والسلاطين ، أبو الحزم عبد الرحمن بن منقذ - كتب الله سلامته وأحسن
صحابته - ، وما اختير للوفادة إلا من هو أدائها ، ولا حمل الوديعة إلا من هو
مخاها ، ولا بعث لنهج الصلة إلا من هو مفتاحها ، ولأداء الأمانة إلا من هو
قفاها ، ومهما استوضح منه وسئل عنه فإنه على نفسه بصيرة ، ومن البيان
ذو ذخيرة ، وفي العربية ذو بيت وعشيرة ، والمشاهدة له أوصف ، على أن تلك
الجلالة ربما دغرت البيان فأخلف ، وما أجدره بأن يصادف بسطة على بساطه ،
ونظرا يأذن له في القول على اختصاره وتوسطه وإفراطه ، فكل هو به واف ،
وكل هو للفهم الكريم كاف ، والله تعالى يجعل هذه العزمة منافي استنهاض العزمة
منه بالغة مبالغاً يبرأ أهل دينه ، ويوزعهم بها اقتضاء ديونه ، من الذين اتخذوا
إلهاً من دونه .

والسلام الصادر عن القلب السليم ، والود الصميم ، والعهد الكريم ، على حضرة
الكرم العالية ، وسدة السيادة الجليلة ، سلام مودة ما وفد الغرب قبلها مناتها ،
ورسالة ما خطرت إلى أن أنفذت وراءها المحبة إرسالها ، وإيصال السلام
رحمة الله وبركاته ، ورضوانه وتحياته ، إن شاء الله تعالى .

وكتب في شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة .

والحمد لله وحده ، وصلاته على سيدنا محمد نبيه وآله وسلامه .

الهدية :

ختمة كريمة في ربة غنيشة بمسك .

ثلاثمائة مقال عنبر .

عشر قلائد : عددها ستمائة حبة .

عود في سفظ : عشرة أمتان .

دهان بلسان : مائة درهم وواحد .

قسي بأوتارها : مائة وقوسان .

سروج : عشرون .

نصول سيوف هندية : عشرون .

نشاب ناصح خاص مُرَيَّش ، كبير ومتوسط ضمن صندوق خشب مجلدة :
سبعائة - ٥٣٥ .

(٢٠)

كتاب من القاض الفاضل إلى صلاح الدين بشأن الرسالة إلى ملك
المغرب، والكتاب يشعر أن الرسالة لم تكن برأى الفاضل أو موافقته
عن : (الروضين ، ج ٢ ، ص ١٧٤ — ١٧٦)

المملوك يقبل الأرض بالمقام العالى المولى الملكى الناصرى ، جعل له الله
فى الدنيا والآخرة المقام العالى ، وأبقى دولته التى هى الأيام بالحقيقة والأيام
قبلها هى الليالى .

وينهى أن الظاهر أن المملوك عند المولى ليس من أهل الاتهام ، وأن له
— والله الحمد — آثارا فى دولته تشهد بها الأيام ، وآثار السيوف طاحت وبقيت
آثار الأقلام ، والرسالة المغربية ليس المملوك مشيرا بتركها ، ولا كارها لسفر
رسولها ، ولا مستبعدا مصلحة قريبة الأمر منها لكن على وجهها ، وقد نُجِزَتْ
الهدية المغربية على ما أمر به ، وكتب الكتاب على ما مثل ، ونُحِمَ الخطابُ
والوصفُ فوق العادة ، وبما لا يمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه ، وعند وصول
الأمير نجم الدين من الخيَّم المنصور فإوضه المملوك فى أنه لا يمكن إلا التعريض
لا التصريح بما وقع له أنه لا تتجح الحاجة إلا به من لفظه أمير المؤمنين ، وأن
الذين أفاضوا فى هذا الحديث وأشاروا به ما قالوه تفلأ ولا يحاطوا به بقياسا ،
ولا عرفوا مكاتبه المصرين قديما .

وآخر ما كُتِبَ فى أيام الصالح بن رزَّيك نخطب فيه أكبر أولاد عبد المؤمن
وولى عهده بالأمير الأصيل النجار الجسيم الفخار ، وعادت الأجوبة إلى ابن رزَّيك
— وهو وزير سلطان مصر الذى أتباع مولانا اليوم مائة مثله — مترجمة : بمعظم
أمره ، وملتزم شكره ، وهذا الصالح يتوقع أن يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يديه ،

وما هو إلا أن يهرب مملوكان طريدان منا فيستوليان على أطراف بلاده ، ويصل
المشار إليه بالأمر من مراکش إلى القيروان في ستة أشهر ، فيلقاهم فيكسر
مرة ويتماسك أخرى .

وأعلم الأمير نجم الدين بذلك ، فأمسك مقدار عشرة أيام ، ثم أنفذ الأمير
المذكور إليه على يد ابن الجليس بأن الهدية أشير عليه بأن لا يستصحبها ، وإن
استصحبها تكون هدية برسم من حواليه ؛ وأن الكتاب لا يأخذه إلا بتصریح
أمير المؤمنين ، وأن السلطان — عز نصره — رسم له ذلك ، والملك العادل — دامت
قدرته — بأن لا يشير إلا به ، وأنه إذا لقي القوم خاطبهم بهذه التحية عن السلطان
— أبقاه الله — من لسانه .

فأجابه المملوك : بأن الخطاب يكفي ، وطريق محمدنا له ممكن ، والكتابة
حجة تقيد اللسان عن الإنكار ، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين
في مكان الإجماع ، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه ، ولا يحل اتباعه ،
مرخصين الغالى ، منحطين عن العالى ، شاقين عصا المسلمين ، مفرقين كلمة المؤمنين ،
مطيعين لمن لا تحل طاعته ، متقلدين لمن لا تصح ولايته ، فيفسد عقود الإسلام ،
وينفتح باب يعجز وارده عن إصـداره ؛ بل تمضى وتستشف الأمور ، وتكشف
الأحوال ، فإن رأيت للقوم شوكة ولنا زبدة فعدهم بهذه المخاطبة ، واجعل كل
ما تأخذه ثمنا للوعد بها خاصة ، فامتنع وقال : أنا اقضى أشغالى ، وأتوجه إلى
الإسكندرية ، وأنتظر جواب السلطان — عز نصره — وما يفوت وقت ،
وإلى أن أنجز أمر المركب ، وأرتاد الركاب .

فسير المملوك النسخة ، وإن وافقت فينعم المولى على المملوك بترجمة يلصقها
على ما كتبه ، ويأمر نجم الدين بتسلم الكتاب ؛ على أن ابن الجليس حدثه عنه
أنه ممتنع من السفر إلا بالمكاتبة بها .

فأما الذى يترجم به المولى — عز نصره — فيكون مثل الذى يدعى به على المنبر لمولانا ، وهو : الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب ، أدام الله غنى مولانا بالفقر إلى ربه .

وإذا كتب الصالحُ بن رُزِّيك إليهم : من السيد الأجل الملك الصالح ، قبح أن يكتب إليه مولانا أبقاه الله : الخادم ، وهذا مبلغ رأى المملوك ، والمؤمن لا يذل نفسه ، وقاسم الأرزاق يوصلها وإن رغم من جرت على يده .

وإن كان مولانا — أعز الله نصره — يقول : أنت غافل وغائب ، وما تعرف ما الإسلام فيه ، فلو حضرت وعرفت ما شققت الحديث ، بخواب ما نكتب بعد سنتين ، فما يتخلى الله عنا ، ولا تستمر هذه الشدة ، ولا نسيء الظن بالله ، وإذا كانت لنا — إن شاء الله — أخذت خالية ممن نطلب الآن مواساته ، وإذا كان المملوك مستجهلا وغير مستنصح ، وللضرورة حكما ، والأحوال المملوك غائب عنها ، فالمفهوم من الأمر للمملوك أن يتولى من الكتابة ترتيب المقاصد ، وتحريز الألفاظ ، وتنضيد الخبر عما أجراه الله تعالى على يد مولانا — عز نصره — والتأني المطلوب ، فقد فعل هذا كله فى النسخة ، وبقيت اللفظة التى ليست كتابة المملوك لها شرطا فيها ، والمملوك وعقبه مستجيرون بالله تعالى ثم بالسلطان — عز نصره — من تعريضهم لذكر الحياة ، وتوقع الخوف ، ومعاداة من لا يخفى عنه جبر ولا تقال به حرة .

ويكفى أن المولى أنعم بخطه فى كتابه إلى المملوك ، وفيها ما هو بخط حضرة سيدنا الأجل عماد الدين الكاتب الأصفهاني — حرسه الله — لما وصى بأن لا يناظر فى الخطاب ما صرح باللفظة ، فهى إما تقية فالمملوك أولى بها ، وإما استهانة فنفس الملك لا تقاس بنفس المملوك ، فإن كان ولا بد فالنسخة بين يديه ، والمقصود فيها من زيادة هذه اللفظة ما يحتاج إلى تعليم ، والكتاب الذين

يستقلون بكتابة النسخة معدومون ، وقد ناب المملوك عنهم ، والكتاب الذين يستقلون بالتبويض موجودون ، فينبون عن المملوك في التبويض ؛ وإلا فكيف يسير رسول بكتاب من مصر بلا خط سلطان ، وبغير حضرته كتب ، ولا بهدية سار ، وبمحضر من البغادة والمغاربة ، يعلمون أن الكتاب كتب بمصر ، ويشهدون بما لم يروه ، وما لم يقرءوه من الخطاب .

ولو وصل من المولى — أدام الله أيامه — كتاب مختوم ، وسير ولم نعلم ما فيه ، لا تقطع فضول كثير ، ونحمدت أراجيف شنيعة ، ولا يعتقد المولى أن المملوك يعظم القصاص ، فما للألسنة والأعين شغل إلا السلاطين وأفعالهم وأقوالهم ، ولا للتخلق خوض إلا في أوامرهم وأحوالهم .

ولو علم المملوك أن هذا الذي استعفى منه يضره بحيث ينفع المولى — أبقاه الله — لكان عليه ، ولكنه مضرة بغير منفعة ، وتعرض لما تدم عاقبته أو يبقى على الخوف منه ، وذلك مما لا يقتضيه حسن عهد المولى وفضل رأفته ، فمقصود المولى — أبقاه الله — تحصيل تبيضها بين يديه ، وربما حصل استنارة وأمنت المكاره فيه ، وغمضت العيون عنه ، وشحت الأيام عليه طالع المملوك بذلك .

(٢١)

قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل مرسله من صلاح الدين
إلى شمس الدولة بن منقذ - وهو بالمغرب - ينهى إليه أخبار
القتال حول عكا

عن : (الروضين ، ج ٢ ، ص ١٨٨ - ١٨٩)

وفي كتاب كتبه الفاضل عن السلطان إلى شمس الدولة بن منقذ - وهو بالمغرب
في الرسالة - :

”لقد تجاوزت عدة من قتل على عكا - يعني من الفرنج - الخمسين ألفا ، قولا
لا يطرقة اتسمح ، بل يحرزه التصفح ، فأنبروا في هذه السنة ملكا أفرنسييس
وإنكلييره وملوك آخرون في مراكب بحرية وجمالة حملوا فيها الخيول والخيالة ،
والمقاتلة والآلة ، ووصلت كل سفينة تحمل كل مدينة ، وأحدقت بالشر ،
فمنعت الناقل بالسلاح إليه ، والداخل بالميرة عليه“ .

ثم قال :

”وأخذ البلد على سلم كالحرب ، ودخله العدو ولو لم يدخل من الباب دخل
من الثقب ، وما وهنا لما أصابنا في سبيل الله وما ضعفتنا ، ولا رجعتنا وراءنا
ولا انصرفنا ، بل نحن بمكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم ، ويخرجوا فنتاجزهم ،
وينشروا فنطويهم ، وينبثوا فتزويهم ، وأقمنا على طرقهم ، وخيمنا على مخنقهم ،
وأخذنا بأطراف خندقهم ، وأحوج ما كنا إلى النجدة البحرية ، والأساطيل
المغربية ، فإن عاريتنا به ترد ، وعاديئنا بها تشتد .

والأمير يبلغ ما بلغه من خطب الإسلام وخطوبه ، ويقوم في البلاغ يوم الجمعة مقام خطيبه ، ويعجل العودة وقبلها الإجابة ، ويستصحب السهم ويسبق بشرى الإصاابة ، ويشعر أن الراية قد رفعت لنصر تقدم به عرابه ، فإن للإسلام نظرات إلى الأفق الغربي يقابها ، وخطرات من اللطف الخفى يقربها ، ويكفى من حسن الظن أنها نظرة ردت الهواء الشرقى غربا ، وخطرة أوهمت أن تلك المهمة لو تلم بالسفائن لأخذت كل سفينة غصبا .

فهرس الموضوعات

للجزء الثاني

من

كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب

لابن واصل

فهرس الموضوعات

للجزء الثاني

من مفرج الكروب في أخبار بني أيوب

الصفحات

١ ذكر ملك الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود
٤ » جواب الرسالة الواردة إلى صلاح الدين من الملك الصالح
٥ » استيلاء سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي على البلاد الجزيرية
٧ » منازل الفرنج بانياس وعودهم عنها
٨ » إنكار صلاح الدين على الأمراء بدمشق ، وهدتهم للفرنج
٨ » وصول سعد الدين كشتكين ، واستبداده بتدبير الملك الصالح
٩ » سير الملك الصالح إلى حلب
١٠ » القبض على أولاد الداية
١١ » منازل الفرنج للإسكندرية وعودهم عنها
١٦ » خروج الكثر بالصعيد ومثله
١٧ » سير الملك الناصر صلاح الدين إلى الشام وتملك دمشق
٢٢ » استيلاء الملك الناصر على حماة ومدينة حمص
٢٣ » منازل السلطان الناصر حلب ورحيله عنها
٢٤ » استنجاد الحليين بالملاحدة وقتلهم فاصح الدين نهارنكين
٢٥ » مراسلة السلطان لديوان العزيز
٢٩ » استيلاء السلطان الملك الناصر على قلعتي حمص وبعلبك
٣٠ » منازل سيف الدين غازي أخاه عماد الدين زنكي بن مودود بسنجار
٣١ » كسرة المواصلة بقرون حماة
٣٣ » ونوع الصلح
٣٤ » استيلاء الملك الناصر على بardin
٣٥ » استيلاء ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه على حمص

الصفحات

٣٦ ذكر اجتماع الحلبيين والمواصلة للحرب السلطان الملك الناصر ثانيًا
٣٨ » الوقفة بتل السلطان
٤٢ » ما منح السلطان من البلاد بعد الكسرة
٤٤ » استيلاء الملك الناصر على عزاز ، وقفز الملاحدة عليه
٤٦ » منازلة السلطان الملك الناصر لحلب ، ووقوع الصلح بينه وبين الحلبيين
٤٦ » المتجددات لسيف الدين غازي بالموصل
٤٧ » منازلة الملك الناصر مصياف وبند الباطنية
٤٨ » اجتماع السلطان بأخيه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب
٥٢ » سير الملك الناصر صلاح الدين إلى الديار المصرية
٥٨ » عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين غازي ، وعوده إلى الطاعة
٥٨ » رقعة الرملة
٦٣ » مقتل سعد الدين كشتكين وشهاب الدين أبي صالح بن العجمي
٦٤ » منازلة الفرنج حماة ورجلهم عنها
٦٤ » منازلة الفرنج حارم
٦٤ » سير السلطان — رحمه الله — إلى الشام
٧١ » عصيان شمس الدين بن المقدم بطلبك ودا آل إليه أمره
٧٢ » بناء الفرنج بيت الأحزان
٧٢ » وقعة اهتفري
٧٣ » سير الملك المعظم شمس الدولة نحر الدين توران شاه بن أيوب إلى مصر
٧٤ » استيلاء الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب على مدينة حماة
٧٥ » كسرة الفرنج بمرج عيون
	» الحرب بين عسكر السلطان الملك الناصر والسلطان عز الدين قلاج أرسلان السلجوقي
٧٩ » — صاحب قونية —
٨٠ » تخريب حصن بيت الأحزان
٨٦ » استيلاء عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب على بعلبك
٨٦ » وفاة المستضيء بنور الله بن المستنجد ، وبعض سيرته
٨٩ » اليمة بالخلافة للإمام الناصر لدين الله أبي الباس أحمد
٩٢ » وفاة سيف الدين غازي بن دودود بن زكي صاحب الموصل
٩٣ » مفتته وسيرته

الصفحات

٩٣	ذكر استيلاء عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى على الموصل
٩٦	» وفاة الملك المعظم شمس الدين توران شاه بن أيوب
٩٦	» مسير السلطان لحرب قلاج أرسلان صاحب قونية
٩٨	» غزو السلطان الملك الناصر ببلاد الأرمن
١٠١	» مسير السلطان إلى الديار المصرية
١٠١	» غزو عماد الدين فرخشاه الكرك
١٠٢	» المتجددات باليمن بعد مفارقة الملك المعظم لها
١٠٥	» استيلاء سيف الإسلام طمتهكين بن أيوب على بلاد اليمن
١٠٦	» وفاة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكى
١٠٧	» سيرته — رحمه الله —
١٠٧	» استيلاء عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى على حلب
١٠٩	» استيلاء عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى على حلب
١١٠	» المتجددات للسلطان صلاح الدين بمصر إلى حين سفره إلى الشام
١١٢	» سفر السلطان إلى الإسكندرية وعوده
١١٣	» مسير السلطان إلى الشام
١١٥	» مسير السلطان إلى البلاد الشرقية
١١٧	» استيلاء السلطان على البلاد الجزيرية
١١٨	» منازلة السلطان الملك الناصر الموصل
١٢١	» رحيل السلطان من الموصل
١٢٣	» منازلة السلطان سنجار وملكه لها
١٢٤	» وفاة الملك المنصور عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب — صاحب بلبك — واستيلاء ولده الملك الأجد بهرام شاه عليها
١٢٥	» سيرته — رحمه الله —
١٢٧	» نصرة المسلمين على الفرنج بجمر القلزم
١٣٢	» اتفاق صاحب أخلاط وصاحب ماردین وصاحب الموصل على حرب السلطان — رحمه الله
١٣٤	» منازلة السلطان آمد وقتلها
١٣٦	» تسليم آمد لنور الدين صاحب حصن كيفا

الصفحات

١٣٩	... ذكر فتح قلعة خالدة وعين قاب
١٣٩	» وقوع أسطول المسلمين على أسطول الفرنج...
١٤٠	» وقعة بين المسلمين والفرنج بأطراف الشام
١٤٠	» تخريب قلعة عزاز وكفر لانا
١٤١	» استيلاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين على حلب
١٤٣	» وفاة تاج الملوك بوري بن أيوب أنى السلطان — رحمه الله تعالى —
١٤٤	» سيرته
١٤٦	» فتح حارم
١٤٨	» مسير السلطان من حلب إلى دمشق
١٤٨	» غارة السلطان على الفرنج
١٥١	» منازلة السلطان الكرك
١٥٢	» استنابة السلطان الملك الناصر لابن أخيه الملك المنصور في الدين بمصر ، وتمليك أخيه الملك العادل حلب
١٥٣	» قبض عز الدين — صاحب الموصل — على نائبه مجاهد الدين قايمار
١٥٥	» ورود رسل الديوان العزيز إلى السلطان في الصلح بينه وبين صاحب الموصل
١٥٧	» منازلة السلطان الكرك
١٥٨	» إحراق قابس وتخريبها
١٦٤	» مسير السلطان إلى البلاد الشرقية
١٦٧	» منازلة السلطان الموصل ، وهي المنازلة الثانية
١٦٨	» رحيل السلطان عن الموصل
١٦٩	» استيلاء السلطان على ميا فارقين
١٧٠	» منازلة السلطان الموصل ، وهي المنازلة الثالثة
١٧١	» مرض السلطان ورحيله عن الموصل
١٧٢	» انتظام الصلح بين المواصل والسلطان
١٧٤	» وفاة الملك الناصر ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه — صاحب حمص —
١٧٤	» استيلاء الملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى على حمص
١٧٦	» وصول السلطان الملك الناصر — رحمه الله — إلى دمشق

المنحآت

- ذكر قدوم الملك الأفضل نور الدين على بن السلطان على أبيه بدمشق ... ١٧٨٠
- » استيلاء الملك الظاهر غياث الدين بن السلطان الملك الناصر على حلب، وهو الاستيلاء الثاني ١٧٨
- » قدوم الملك المظفر تقي الدين عمر إلى خدمة عمه السلطان بدمشق ... ١٨٠
- » سير الملك العزيز وعمه الملك العادل إلى الديار المصرية ... ١٨٢
- » انتهاء القومص صاحب طرابلس إلى خدمة السلطان ... ١٨٤
- » ما اعتمده الأبرنس صاحب الكرك من الفدر بالمسلمين ... ١٨٥
- » سير السلطان الملك الناصر من دمشق إلى الجهاد ... ١٨٦
- » فتح طبرية ... ١٨٨
- » وقعة حطين ... ١٨٨
- » مقتل أبرنس أرناط صاحب الكرك ... ١٩٤
- » فتح قلعة طبرية ... ١٩٥
- » مقتل الداوية والاستنارية ... ١٩٦
- » فتح عكا ... ٢٠١
- » فتح مجد لياة ... ٢٠٢
- » فتح عدة حصون حول عكا ... ٢٠٢
- » فتح نابلس ... ٢٠٢
- » فتح تبنين وصيدا وبيروت وجيل ... ٢٠٥
- » خروج المركيس إلى صور ... ٢٠٧
- » فتح عسقلان وبلادها ... ٢٠٩
- » فتح غزة وما معها من الحصون ... ٢١٠
- » فتح بيت المقدس ... ٢١١
- » أول خطبة خطب بها بيت المقدس بعد الفتح ... ٢١٨
- » قتل المنبر الذي أنشأ نور الدين — رحمه الله — إلى بيت المقدس ... ٢٢٨
- » ما أزاله السلطان صلاح الدين من آثار الشرك بالبيت المقدس ... ٢٢٩
- » منازلة السلطان — رحمه الله — صور ... ٢٤٢
- » الوقعة على باب صور ... ٢٤٥
- » رحيل السلطان من صور ... ٢٤٥

الصفحات

٢٤٦	ذكر وصول السلطان إلى عكا ومقامه بها
٢٤٦	الكعبة على حصن الكوكب
٢٤٧	فتح حنين
٢٤٨	تقدم رسل الملك والمنوك إلى السلطان بالتهنئة
٢٤٨	رود رسول الديوان العزيز إلى السلطان بالعب
٢٥٠	الفتنة بسنة بين أصحاب الخليفة والسلطان ومقتل شمس الدين بن المقدم
٢٥٢	منارة السلطان حصن كوكب
٢٥٤	مقدم السلطان إلى دمشق
٢٥٥	رحيل السلطان من دمشق إلى الغزاة
٢٥٦	فتح أنطوطوس
٢٥٨	فتح جبلة
٢٥٩	بكسرايل
٢٥٩	اللاذقية
٢٦١	صهيون
٢٦٤	عدة حصون
٢٦٤	الشغرو بكاس
٢٦٤	سرمانية
٢٦٥	حصن برزية
٢٦٧	دربساك
٢٦٨	بغراس
٢٦٩	المدة مع الابرنس صاحب أنطاكية
٢٧١	تدوم السلطان — رحمه الله — إلى دمشق
٢٧١	فتح الكرك والثوبك
٢٧٢	فتح صند
٢٧٢	فتح كوكب
٢٧٦	ظهور جماعة من الشيعة بمصر
٢٧٨	توجه السلطان إلى القدس وتوجهه به ذلك إلى مكائيم إلى دمشق

الصفحات

- ذكر منازلة السلطان شقيق أرنون ... ٢٨٢
- » وقعة اليزك مع الفرنج ... ٢٨٤
- » وقعة الغزاة المطوعة ... ٢٨٥
- » توجه السلطان إلى عكا وعوده إلى معسكره بمرج عيون ... ٢٨٦
- » وقعة الكمين ... ٢٨٧
- » سير الفرنج إلى عكا ومحاصرتهم لها ... ٢٨٨
- » القبض على صاحب الشقيف وفتح الشقيف ... ٢٨٩
- » رحيل السلطان إلى عكا ومنازلة الفرنج المنازلين لها ... ٢٩٠
- » الوقعة الأولى التي تيسر للمسلمين بها دخول البلد ... ٢٩٢
- » الوقعة الثانية ... ٢٩٣
- » وقعة العرب ... ٢٩٤
- » الوقعة العظمى بمرج عكا ... ٢٩٤
- » انتقال السلطان والعسكر إلى الخروبة ... ٣٠٣
- » وصول الأسطول ... ٣٠٥
- » مكتابة السلطان إلى الأطراف في الاستنفار للجهاد ... ٣٠٦
- » من وصل في هذه المدة من مدد العذر ... ٣٠٨
- » سير القاضي بهاء الدين بن شداد في الرسالة إلى الشرق وإلى الديوان العزيز ... ٣١٠
- » وقعة الرمل ... ٣١١
- » قدوم المساكين إلى خدمة السلطان ... ٣١٢
- » مقدم السلطان إلى تل كيسان ... ٣١٢
- » وصول رسول الخليفة الإمام الناصر لدين الله تعالى أمير المؤمنين إلى السلطان ... ٣١٤
- » نصب الأبراج على عكا وإحراقها ... ٣١٥
- » وصول الأسطول ... ٣١٧
- » خروج ملك الألمان لنصرة الفرنج المنازلين لهما وما آل إليه أمره ... ٣١٧
- » الوقعة الداخلية على عكا ... ٣٢٥
- » قوة الفرنج بوصول الكندي إلىهم ، ونحو السلطان إلى الخروبة ... ٣٢٨
- » مكتابة ملك الروم بقسطنطينية للسلطان بالمودة وإقامة الخطبة له ببلده ... ٣٢٨

الصفحات

٢٢٩ ذكر ما آل إليه حال ابن ملك الألمان وأصحابه
٢٣٠ ذكر الوقعة الكائنة عند وصول ابن ملك الألمان
٢٣٠ دخول الميرة إلى عكا
٢٣٢ المكتبة إلى الديوان العزيز
٢٣٤ ما اتخذ المدوم من آلات الحصار
٢٣٥ إحراق منجنيقات العدو
٢٣٥ إحراق ما حوصره به برج الذبان وتحريق الكيش
٢٣٨ رحيل السلطان إلى المنزلة المعرونة بشفرهم
٢٣٩ وفاة زين الدين — صاحب إربل —
٢٣٩ استيلاء مظفر الدين على إربل وبلادها واستيلاء الملك المظفر على ما كان بيد مظفر الدين
٢٤٠ استئذان ملوك الأطراف بالرجوع إلى بلادهم لأجل دخول الشتاء
٢٤٢ خروج الفرنج للقاء المسلمين وعودهم خائبين
٢٤٤ وقعة الكمين ودخول البدل إلى عكا
٢٤٦ عود الملوك إلى بلادهم
٢٤٧ بقية الحوادث سنة ست وثمانين
٢٤٩ وصول العساكر إلى المعسكر السلطاني
٢٤٩ استيلاء نحر الدين أسامة على سفن الانكليز
٢٥٠ مضايقة الفرنج بعكا وجدهم في حصارها
٢٥٠ تحويل السلطان إلى قل العياضية ووصول ملك الانكليز
٢٥١ هلاك بطشة المسلمين الواصلة من بيروت
٢٥١ الدبابة التي صنعها العدو وإحراقها
٢٥٢ هجوم المسلمين على خيم العدو
٢٥٢ المكتبة إلى الديوان العزيز
٢٥٤ من وصل من العساكر الإسلامية
٢٥٥ مراسلة الفرنج للسلطان شغلا للوقت
٢٥٥ استيلاء الفرنج على عكا
٢٦١ مراسلة السلطان لملك المغرب

الصفحات

٣٦٣ ذكر ما جرى عليه الحال من أمر أسارى المسلمين وما تجدد من الحوادث
٣٦٥	» رحيل المسلمين والفرنج نحو عسقلان والحرب التي جرت بينهم
٣٦٧	» وقعة أرسوف
٣٦٩	» وصول السلطان إلى عسقلان وتخريبه لها
٣٧٠	» رحيل السلطان عن عسقلان إلى جهة الفرنج وما جرى بينه وبينهم من الحرب والمراسلة
٣٧٤	» رحيل السلطان — رحمه الله — إلى القدس ومقامه به
٣٧٥	» وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب
٣٧٦	» سيرة الملك المظفر تقي الدين — رحمه الله —
	ذكر استيلاء الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين على حماة وبلادها
٣٧٧	» وتملك الملك العادل البلاد الشرقية
٣٨١	» ذكر مقتل المركيس صاحب صور — لعنه الله —
٣٨٢	» ذكر كبس الفرنج للعسكر المصرى
٣٨٥	» قصد الفرنج حصار البيت المقدس ، وكفاية الله المسلمين شرهم
٣٩٠	» ما جرى بين المسلمين والفرنج من المراسلة في معنى الصلح
٣٩٣	» رحيل السلطان من القدس ، وأخذه ربض يافا
٣٩٦	» وصول ملك الانكليز إلى يافا ، واسترجاعه ربضها
٤٠١	» عزم السلطان على كبس الانكليز ، وانصرافه عنه
٤٠٢	» عقد الهدنة بين المسلمين والفرنج
٤٠٧	» رحيل السلطان إلى القدس ونظرة في مصالحه
٤٠٨	» عزم السلطان على الحج ، ثم انتقاض عزمه
٤٠٨	» مسير السلطان إلى دمشق ووصوله إليها
٤١٦	» وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب — رحمه الله تعالى
	» جلوس الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن على بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين
٤٢٠	» للغزاة ، وتجهيز السلطان ودفنه
٤٢٣	» مبلغ عمره وأولاده وتركته
٤٢٧	» جمل من سيره — رحمه الله —

الملاحق

الصفحات

- ١ — سجل بقلم القاضي الفاضل ، صادر عن الخليفة العاضد بتولية أسد الدين شيركوه الوزارة
بعد قتل شاور ... ٣٤٣
- ٢ — توقيع بخط الخليفة العاضد على طرة التقليد السابق بتولية أسد الدين شيركوه الوزارة
٤٥٤
- ٣ — سجل بقلم القاضي الفاضل ، صادر عن الخليفة العاضد بتولية صلاح الدين يوسف
ابن أيوب الوزارة بعد موت عمه أسد الدين شيركوه ... ٤٥٥
- ٤ — توقيع بخط الخليفة العاضد على طرة التقليد السابق بتولية صلاح الدين يوسف بن أيوب
الوزارة ... ٤٦٢
- ٥ — وصف تفصيل للفتح الأيوبي لليمن ، كما سجله بقلمه مؤرخ يعني ... ٤٦٣
- ٦ — قطعة من خطاب بقلم القاضي الفاضل ، صادرة عن صلاح الدين يوسف بن أيوب
إلى وزير بغداد ، يمدد فيها فتوحه وجهوده في خدمة الخلافة العباسية ، وآخرها
نظم الخطبة للخليفة العاضد ، وإعلانها للمستضيء بنور الله العباسي ، ويطلب إرسال
التشريفات ... ٤٧٠
- ٧ — نسخة بشارة بانتهاء الدولة الفاطمية في مصر ، والخطبة للخليفة العباسي حلها عن
نور الدين ، شهاب الدين أبو المعالي المطهر بن أبي عمرو ، لتقرأ في كل مدينة
يمربها في طريقه إلى بغداد ... ٤٧٢
- ٨ — سجل أصدره صلاح الدين بعد وفاة العاضد وانتهاء الدولة الفاطمية ، باسقاط المكوس
في مصر ... ٤٧٣
- ٩ — قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل ، أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين ، يشرح
له فيها التصد من خروجه لمهاجمة حصن الكرك والشوبك في أوائل سنة ٥٦٨ هـ ... ٤٧٥
- ١٠ — رسالة بقلم القاضي الفاضل مرسله من صلاح الدين إلى نور الدين يشرح له فيها
المؤامرة التي كان يدبرها رجال الدولة الفاطمية والصلبيون ، والتي اشترك فيها
الشاعر عمارة النيني لقلب نظام الحكم وإعادة الدولة الفاطمية ... ٤٧٦
- ١١ — قطعة من رسالة بقلم العماد الأصفهاني ، مرسله من الملك الصالح إسماعيل إلى
صلاح الدين ، يثبته بوقاة والده نور الدين ، ويعزیه فيه ... ٤٨٠
- ١٢ — قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل مرسله من صلاح الدين إلى الملك الصالح
إسماعيل للتعزية في وفاة والده نور الدين ... ٤٨١
- ١٣ — قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل أرسلها صلاح الدين إلى الملك الصالح إسماعيل
للسؤال عن صحة والده نور الدين ، بعد أن أشاع الفرنج خبر موته ... الخ ... ٤٨٢

الصفحات

- ١٤ — رسالة مرسلة من صلاح الدين إلى أحد أمراء الشام ينته به بخبر وصول الأسطول من صقلية لمهاجمة مدينة الاسكندرية في يوم الأحد السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٦٩ هـ ، وكيف انتهى الأمر بفشله في أول المحرم سنة ٥٧٠ هـ ... ٤٨٣
- ١٥ — رسالة بقلم القاضي الفاضل أرسلها صلاح الدين وهو بالقرب من حماة في طريقه إلى حلب لمحاربة نواد نور الدين ، إلى الديوان العزيز ببيداد ، يهدد فيها قومه وانتصاراته في مصر واليمن والمغرب ، ويسأل الخليفة أن يرسل إليه التقاليد بتوليته على هذه البلاد ، وعلى ما قد يفتحه في المستقبل من بلاد أخرى ... ٤٨٦
- ١٦ — قطع من رسائل بقلم القاضي الفاضل مرسلة من صلاح الدين إلى الديوان العزيز ببيداد في تعداد ماله من الأيادي على الخلافة العباسية ، وخاصة إعادة الخطبة لها في مصر واليمن والمغرب ... ٤٩٤
- ١٧ — خطاب بقلم القاضي الفاضل ، مرسل من صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، الخليفة الموحد بالمغرب ، في سنة ٥٨٥ هـ ، يستجيبه على الفرنج أثناء قتاله معهم حول عكا ... ٤٩٦
- ١٨ — خطاب بقلم القاضي الفاضل ، من صلاح الدين إلى سيف الدولة بن مقذ — رسوله إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن — يستجده به ، ويطلب منه المعاونة بإرسال قطع من أسطوله أثناء حصار الفرنج لعكا ... ٥٠٠
- ١٩ — خطاب مرسل من صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يستجده به على الفرنج أثناء حصارهم لعكا ، وفي ختامه إشارة إلى الهدية المرسلة من صلاح الدين بهذه المناسبة ... ٥٠٥
- ٢٠ — كتاب من القاضي الفاضل إلى صلاح الدين بشأن الرسالة إلى ملك المغرب ... ٥١٢
- ٢١ — قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل مرسلة من صلاح الدين إلى شمس الدولة بن مقذ — وهو بالمغرب — ينهى إليه أخبار القتال حول عكا ... ٥١٦

تصويبات الجزء الأول

لم يخل الجزء الأول — رغم ما بذلنا من عناية في تصحيحه — من وجود بعض الأخطاء المطبعية ، نثبتها فيما يلي مع تصويباتها ، ونرجو القارئ الكريم أن يتفضل مشكورا بتصحيحها :

الصفحة	الخطأ	الصواب
صفحة الغلاف ، سطر ٧ ...	سنة ٦٥٩ هـ	سنة ٥٦٩ هـ
ص ٥ (من المقدمة) سطر ٥ ...	ومحتوياتها	ومحتوياته
ص ٦ (من المقدمة) سطر ٣ ...	التفصيل	التفصيل
ص ٦ (من المقدمة) سطر ١٤	إبراهيم ابن نصر الله	إبراهيم بن نصر الله
ص ١٣ (من المقدمة) سطر ١٦	ينقصه	ينقصها
ص ١٦ (من المقدمة) السطر الأخير	مياقارقين	مياقارقين
ص ٢٤ (من المقدمة) سطر ٢ ...	تفرعون	تفرعون
ص ١١٩ ، س ٧ ...	قر أرسلان	قرا أرسلان
ص ١٣٨ ، س ٦ ...	فان لم	فانه لم
ص ١٥٦ ، هامش ١ ...	Ranciman	Runciman
ص ١٥٨ ، س ٥ ...	مستفزا	مستفرا
ص ١٧٠ ، س ٩ ...	نوازلة	نوازله
ص ١٨١ ، س ١٩ ...	باحدى	إحدى
ص ١٩١ ، س ١ ...	سيف الدين بن غازى	سيف الدين غازى
ص ٢٢٠ ، س ١٢ ...	مراكب ، إلى الشام	مراكب إلى الشام
ص ٢٢٥ ، س ٢ ...	بالإنشاء الفاضل	بالإنشاء الفاضلى
ص ٢٢٩ ، س ٤ ...	بلاد اليمن	بلاد النوبة
ص ٢٥١ ، س ١٢ ...	قلية	قلية

نقد للجزء الأول

بقلم

الأستاذ الدكتور مصطفى جواد

”تفضل الأخ الكريم والعلامة المحقق الأستاذ الدكتور مصطفى جواد فأرسل إلى هذا النقد التفصيل الذي يدل على سعة في الاطلاع ومعرفة أكيدة بالعصر الذي يؤرخ له ابن واصل ، وبالمكتبة العربية الإسلامية بوجه عام ، وقد رأيت أن أشرك القراء معي في الاستفادة من هذه الملاحظات القيمة ، ولهذا بادرت بنشره هنا ملحقاً بالجزء الثاني ، وللأخ الكريم أجل الشكر وأطيب التحية“ .

بغداد في ١٣/١٢/١٩٥٣

عزيزي الدكتور الفاضل الصديق الكامل جمال الدين الشيال المحترم

تحية عطرة بشذا الشوق ، وبعد فتد بلغني كتابكم الكريم داخل الكتاب العظيم ”مفرج الكرب“ ، وقد فرجا كربا من كربى ، وأظفراني بمطلوبى ، فشكرى لكم مستدام على هذا الفضل والبحث والتحقيق والتدقيق والتعليق ، فتد بحتم وما قصرتم ، وجمعتم فما أغفلتم ، وبحتم فما أهملتم ، وظهر الفرق العظيم بينكم وبين من يكتبون في التاريخ أو من ينشرون بمصر مع استثناء أفراد من الفضلاء ، وأريد بالجماعة الأولى ناشر الدولة الجلالية بل السيرة المنكوبية ، وتخليطه المعجيب في التأليف والنشر بما يضحك الشكلى .

ذكرتم - أعزكم الله - أنكم تريدون تقديم للكتاب منشورا في مجلة أو مبعوثا به إليكم ، وأنا أسترجح الرأي الثانى لضمان الفائدة وجزالة الفائدة ، مع أن نشره في مجلة من المجلات قد يؤخر ظهوره ويقلل الاستفادة منه . وأماسؤلكم عن الجزء الثانى من مختصر ذيل تاريخ ابن الديبشى ، فالجواب أننا لم نشرع في نشره

وطبعه لأن أعضاء المجمع العراقي لا يقدرّون مثل هذا الكتاب فتركه للأقدار ،
وفي النية أن أطبع "الجزء الرابع" من تلخيص مجمع الألقاب لابن الفوطى ،
المحفوطة نسخته الأصلية بالمكتبة الظاهرية ، وصورتها في مكتبة المتحف العراقي ،
وقد نسخته مرتين لأنه مختلط التجليد مختلفه ، كنسخة مخرج الكروب الباريسية ،
وقد جاء هو وتحقيقاته في "ألف وخمسة صفحة" متوسطة ، وفيه فوائد جيدة
لرجال القرن السادس والسابع ومن أدرك الثامن ، كالفتح بن علي البندارى مترجم
الشاهنامة ، وفريد الدين العطار الصوفى ، وجماعة من المصريين الذين لم تحسن
ذكرهم اتوارنج ، فضلا عن العراقيين والإيرانيين .

وهذى يا عزيزى ملاحظاتى على الجزء الأول من مخرج الكروب :

١ — جاء فى غلافه "ويتهى بموت نور الدين محمود بن زنكى فى سنة ٦٥٩"
وفيه غلط طبع لأن المراد «٥٦٩» .

٢ — حين تكلمتم على المؤرخين الذين أرخوا لحوادث بنى أيوب — ص ٥
من المقدمة — لم تذكروا تاريخ ابن أبى طى مع أنكم نقلتم منه غير مرة فى الحواشى
وإن كان النقل بواسطة أبى شامة ، ولم تذكروا تاريخ مختصر الدول لابن العبرى
ففيه فوائد فى تاريخ بنى أيوب .

٣ — ظهر لى أن الكتاب الذى طبعته باسم الحوادث الجامعة ليس لابن الفوطى
فيحسن عند الاستشهاد به أقول "المظنون أنه لابن الفوطى" .

٤ — جاء فى « ج ١ » من الكتاب ، السطر ٩ "وشيدوا بها أركان الملة
الحنيفية" وهو تصحيف على فرض وروده فى جميع النسخ ، لأن الصحيح
"الحنيفية" ، وهو وصف مشهور ، قال ابن الأثير المبارك فى النهاية : "والحنيف
عند العرب من كان على دين إبراهيم — ٤ — وأصل الحنف الميل ومنه الحديث :
"بعثت بالحنيفية السمحة السهلة" . وقد تكرر ذكرها فى الحديث .

٥ — وفى الصفحة الأولى أيضا « س ١٨ » قولكم فى "العصر المملوكى" ،
وإخواننا المصريون يخطئون فى النسبة إلى المماليك ، لأن قاعدة الجمع إلى
المفرد فى النسبة لم يطبقها العرب إلا فى اسم الجنس ، أما الأعلام وما جرى مجراها

وما خيف فيه اللبس فيبقى على حاله ، وبقاء الاسم المنسوب إليه على حاله هو الحال الطبيعية للنسبة الضامنة للفائدة منها ، فذلك قالوا : ”رجل شعوبى وعالم أضولى وأداة ملوكية وخادم رسائلى ورجل أنصارى“ ، هذا زيادة على أن الكوفيين أجازوا النسبة إلى الجمع بلا شرط ولا قيد ما حصلت الفائدة ، والبصريين أجازوا النسبة إلى كل جمع له شبهة من المفردات ، فالملوك كالدخول والخروج من حيث اللفظ ، فالصواب ”العصر الممايكى“ و”عصر الممالك“ بالنسبة والإضافة ، وهذا الغلط الذى ارتكب فى ”الملوكى“ ارتكب فى ”الدولى“ مع أن الصواب الذى لا بد منه ”الدولى“ .

٦ - وجاء فى « ص ١٣ س ١٥ » ”وحمل للسلطان خيلا رائدة“ . قلم فى الحاشية ”فى الأصل - رابعة - والتصحيح عن ابن الأثير“ . ومعلوم أن ابن الأثير لم ينص على أحرف الكلمة ، والموجود فى الأصل يدل على أن التصحيح ”رائدة“ بالعين ، من راعه الشيء أى أعجبه ، ففى الكامل نفسه « ج ١ ص ٥٥ س ١٣ » ما هذا نصه ”وبين يدي البغال ثلاث وثلاثون فرسا من الخيل الرائدة“ . ووصف الفرس بالرائع مشهور .

٧ - وورد فى - ص ١٩ - س ٦ اسم ”بجاهد الدولة بزّان“ من أمراء ملكشاه الكبار ، أى من رجال القرن الخامس للهجرة ، فعلمت فى الحاشية أنه ”أبو الفوارس مجاهد الديربوزان بن مامين الكردى ، توفى سنة ٥٥٥“ . ولا صلة لهذا بذلك ، فهذا كردى من أهل القرن السادس وذاك تركى من أهل القرن الخامس ، وبزّان اتركى قتل سنة « ٤٨٧ » ، قتله الأمير تاج الدولة تنش السلجوقى صبّرا كما فى الكتاب نفسه « ص ٢٧ س ٢ » ومن المعلوم أن مثل بزّان لا يبقى أصلا إلى سنة « ٥٥٥ » لأن ذلك يوجب أن يكون له عمران ، والأكراد الجلالية الذين ذكروا فى حاشية « ص ١٣٠ » ليسوا منسوين إلى جلال الدولة ملكشاه ، حتى يظن أن لبزّان المذكور صلة بهم .

٨ - وجاء فى « ص ٢٢ » اسم مدينة ”هيت“ بفتح الهاء ، والصواب كسرهما ، كما هو مشهور قديما وحديثا إلى اليوم . وضبط ”بَعَث“ فى ص ٢٧ س ٣ ”بَعَث“ والظاهر أن تاج الدولة بعثه ، فالباعث تابع لسياق ما قبله : ”قتل ... أنفذ ... تسلم ... بعث“ ، وانقطع السياق لأن الحابس غير الباعث .

٩ — وورد في « ص ٢٩ س ١ » « ثم ولى الموصل الأمير مودود من نسل السلطان غياث الدين محمد ماكشاه » وأرى أن الأصل « من قبل » ، فلم يكن مودود من نسل السلطان المذكور ولا من نسل السلاجقة قط بل كان مملوكاً من مماليكه .

١٠ — وجاء في « ص ٣٥ » وفي ثبت المراجع : « قاسم الدجيلي » ، والصواب : « كاظم الدجيلي » ، ولا يزال هذا الرجل الفاضل الأديب المحقق حياً ببغداد على أحسن صحة .

١١ — وفي ص ٣ : س ٢٣ « ديس الشامي أبو العز بن سيف الدولة » وكنية ديس : « أبو الأغر » فهي كنية مبالغة للديسي اللون ، وقد يلتبس الأغر بالأعز ، ولكن لا يمكن أن يكون الأغر « العز » .

١٢ — وفي ص ١٥ س ١١ « فسمع سديد الملك » ، والصحيح : سديد الدولة ، كما في كل اتواريخ التي ذكرته ، وكما هو في الحاشية وفي المتن قبل سطرين

١٣ — وفي « ص ٤٧ » قوله : « وسار من همدان إلى رمكان » ، قلتم في الحاشية : « ضبطت هكذا بعد مراجعة ياقوت ولم يعرفها بأكثر » ، وتلتم أن ابن الأثير قال : « إلى زنجان » فالاسم المصحف هو في الحقيقة « زنكان » بالكاف ، قل ياقوت في « زنجان » من معجم البلدان : « والعجم تقول : زنكان بالكاف » فابن واصل ذكره على الأصل .

١٤ — وجاء في ص ٤٩ س ١٤ « بقرب الدينور » بسكون الواو والصواب فتحها كالتى قبلها .

١٥ — وجاء في ص ٥٠ س ٨ ذكر « عرقوف » ، فدلتم بها ما ذكره ياقوت في معجم البلدان من كونها من قرى دجيل . وقد غلطه ابن عبد الحق في مرآة الاطلاع وذكر أنها من قرى « نهر عيسى » ، وهو الصواب الذي أيدته كتب التاريخ ، والآثار المكتوبة الباقية ببغداد على الأجر « الطوب » في وقفية المدرسة المرجانية ، وقد سمي حمزة الأصفهاني في تاريخ العالم فرع نهر عيسى المار بأرض عرقوف « نهر الورادة » فليست عرقوف من دجيل .

١٦ — وورد في ص ٥٦ س ١٠ « وكواشي » بكسر الشين ، وفي ياقوت بضبط القلم « كواشي » بالألف المقصورة ، ويؤيد فتح الشين أن الصفدي سماها « كواشة » بالشين والهاء ، كما في نكت الهميان « ص ١١٦ » .

١٧ — وورد في « ص ٥٩ س ١ » « وكمال الدين صاحب المخزن » وفي الحاشية ما يفيد أن ابن القلانسي سماه « جمال الدين بن طلحة » ، وأن وظيفة صدر المخزن لم تنتهوا لها على تعيين ، أما ابن طلحة فقد عين لقبه ابن الفوطي في تلخيص مجمع الألقاب بأنه « كمال الدين » لا جمال الدين كما جاء في تاريخ القلانسي . قال ابن الفوطي « ج ٥ الترجمة ٣٤٠ من الكاف » من كتابه المذكور : « كمال الدين أبو الفتوح حمزة بن علي بن طلحة يعرف بالبقشلام ، حاجب الباب أستاذ الدار ، ذكره محب الدين محمد بن النجار في تاريخه وقال : كان عالماً بالفقه والأدب والجدل ، ولي حجابة الباب [باب النوبي] للمسترشد بالله سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ووكلاً وكلة [عامة] ، فلما استخلف المقتفي ولأه صدرية المخزن ، وأكثر الحج وجاور بمكة ، ولما عاد استمفى من الخدمة فأعفى ، وجلس في بيته مكباً على العبادة ، وبني مدرسة لأصحاب الشافعي بباب العامة ، وتوفي في صفر سنة ست وخمسين وخمسمائة » . على أن التاريخ يذكر أنه صاحب المخزن قبل ذلك ، ومدرسته المنسوبة إلى لقبه « الكمالية » مذكورة في كتابنا الكبير « خطط بغداد » ، ذكرها ابن الأثير في حوادث سنة « ٥٣٥ » من الكامل ، « ج ١١ ص ٣٠ » ، قال : « وفيها بنيت المدرسة الكمالية ببغداد ، بناها كمال الدين أبو الفتوح بن طلحة صاحب المخزن ... » وذكر حجة سنة ٥٣٦ هـ « ج ١١ ص ٣٤ » ، ووفاته في سنة ٥٣٦ هـ « ج ٧ ص ١٠٥ » ، وذكره ياقوت الحموي في ترجمة ابنه « علي بن حمزة » في معجم الأدباء « ج ٥ ص ٢٠٥ » من طبعة مرغليوث وقال : « وكان أبوه حمزة بن علي هو الملقب كمال الدين ويكنى أبا الفتوح » ، « وابن الجوزي في المنتظم » ج ١٠ ص ٢٠٢ ، وقد ولي صدرية المخزن بعد الحادثة التي ذكرت له في مفرج الكروب .

أما صدرية المخزن فلم نجد من عرفها في الحقيقة ، إلا أن الحوادث التاريخية تدل على أن المخزن كان كوزارة التموين في نظام الدول بعد الحرب الأخيرة ، ومثل مديرية التجهيزات العامة ، فالمخزن يتفق على مصالح الدولة ، ويعمل لها العدد

ويتخزن لها الذخائر لوقت الحاجة إليها، ومن مصالح الدولة الحفلات الرسمية التي تقيمها. ولسبط ابن التعاويذي آيات يهجو بها «قصاب المخزن»، مما يدل على أن المخزن كان يوزع الطعام واللحان بين الموظفين.

١٨ — وجاء في ص ٦٠ س ٤: «وحمل الوزير وصاحب المخزن وأنا ونقيب العلويين إلى قلعة سرجهان»، وفي ص ٦١: «وكان نقيب العلويين قد مات بقلعة سرجهان»، فمن نقيب العلويين هذا؟ نعم إنه كان معروفا عند سيد الدولة ابن الأنباري حاكمي القصة ولكنه مجهول عندنا، وبعد البحث والتحقيق علمنا أنه أبو الحسن علي بن المعمّر بن محمد العلوي، ذكر ابن الديلمي في نسخة كبير من تاريخه، وابن النجار كما في نسخة باريس من تاريخه أنه ولد سنة ٤٧٠هـ، وولي القباة سنة ٥٢٠هـ، وعزل سنة ٥١٧هـ، ثم خرج مع الخليفة المسترشد بالله في حرب السلطان مسعود، فأسر وحبس بقلعة سرجهان، فأطلق منها في محرم سنة ٥٣٠هـ، وكان مريضاً فتوفي في عصر يوم إطلاقه خارج القلعة.

١٩ — وجاء في ص ٦٠ س ٨: «وقتلوا معه أبا عبد الله بن سكيبة» ولم يعلم القارئ أهو ابن السكيبة «من الآلات القاطمة»، أم ابن سكيبة تصغير سكيبة؟ فقد كان في بغداد بيتان من بيوتاتها يعرفان بابن سكيبة، أحدهما بتشديد الكاف وكسر السين من الآلة القاطمة، والآخر معروف الضبط. فأبو عبد الله هذا من البيت الأول.

قال الذهبي في المشتهر ص ٢٦٨: وبالتشديد [سكيبة] علي بن الحسين ابن سكيبة الأنماطي القطيعي...، والمبارك بن أحمد بن حسين بن سكيبة سمع أبا عبد الله تعالى... «وهذا المبارك هو أبو عبد الله بن سكيبة الذي قتل مع المسترشد بالله». قال ابن الديلمي في ترجمة ابنه «عبد الله بن المبارك»: «عبد الله بن المبارك بن أحمد بن سكيبة أبو محمد وابن أبي عبد الله، من ساكني دار الخلافة، ومن أهل القرآن المجيد، ومن بيت معروف بالقراءة، كان والده يؤم بالمسترشد بالله في الصلوات، وقتل معه لما قتله الملاحدة بمراغة سنة تسع وعشرين وخمسمائة»^(١).

(١) ذيل تاريخ بغداد لابن الديلمي «نسخة المكتبة الوطنية بباريس ٥٩٢١ ورقة ١٠٧».

٢٠ — وجاء في ص ٦٣ س ٢ « لا تولى إلا من يضمه الوزير » ، وسياق الخبر يقتضى أن يكون « لا يولى إلا . . . » ، وأو كان نهيا لوجب حذف الياء ، فبقاؤها في النص مؤذن بكونها أصلية .

٢١ — وفيها س ٥ : « وهو الزاهد الدين » والصواب « الدين » أى ذو الديانة كالصين والميت والقيم .

٢٢ — وجاء في عنوان ص ٦٥ « ذكر قدوم السلطان محمود بن مسعود ابن محمد إلى بغداد ، » وجملة محمود بن « زائدة يجب حذفها ، لأن القادم هو مسعود ابن محمد ، وليس فى بنى سلجوق من اسمه « محمود بن مسعود » أصلا .

٢٣ — وفيها س ٣ : « ثم عبر الأمير عماد الدين زنكى إلى خراسان » ، وهذا محال ، كيف يعبر من بغداد الغربية إلى خراسان ؟ والصحيح : « إلى طريق خراسان » ، وهو القسم الشرقى من العراق بين بغداد وخانقين ، ويعرف اليوم بلواء ديالى .

٢٤ — وفى ص ٦٩ س ٩ : « ولكن لا بد لنا فى هذه الدعوة من نصيب » ، والصواب : « الدغوى » ، لأنها تسوجب القضية ، وايمست هى دعوة إلى طعام ، ولا دعوة إلى رأى ومذهب .

٢٥ — وجاء فى ص ٧٠ س ١ « ودرب هرون وحرمى ما لك » ، والصواب : « ودرب هارون وحربى ما لك » كما فى الفخرى ص ٥٠ من الطبعة المصرية الأولى ، وفى ذلك نقد عنيف على القاضى الشهرزورى بطل القصة . وحربى من قرى دجيل العظيمة ، وقد خربت بنحراب نهر دجيل ، ولا تزال آثارها معروفة ، وعندها قنطرة من الآجر هائلة تسمى إلى اليوم « قنطرة حربى » .

٢٦ — وورد فى ص ٨١ س ١٣ « فأشار الفرج على ملك الروم بمصافقته » فقلت : « فى اللسان أصغر أعلى الأمر » ، فاستشهدتم بالإفعال على المفاعلة ، وهو بعيد ، ثم إن الأصل ليس بالمصافقة ، بل « المصافة » بتشديد الفاء ، وهو الدخول فى القتال ، كما جرى كثيرا فى الاستعمال ، يقال : « صافه يصافه مصافة » .

٢٧ — ووردت في ص ٨٢ س ٥ أبيات الشاعر المسلم بن خضر الحموي ،
وفي الحاشية ما يشير إلى ندور أخباره على ما وصل إليه تحقيقكم ، وقد ذكره
أبو شامة في الروضتين "ج ١ ص ٢٤ ، ص ٣٢" ، وفي الصفحة الثانية أعني ص ٣٢
ذكر الأبيات التي أوردها ابن واصل وزاد عليها وقال ، « له قصيدة قد ذكرتها
في ترجمته في التاريخ » ، وفي هذه الأبيات التي أوردها فرائد كانت جديدة
أن يستفاد منها في التصحيح والمقابلة .

٢٨ — وجاء في ص ٨٩ س ٣ : « فثار لها معين الدين ومعه الفرينج » ، وفي
الحاشية أن في نسخة : « فنادى معين الدين » ، وليس في سياق الخبر ما يدل
على التار ولا على النداء ، والصواب : فثار لها معين الدين ، ومنه التزال .

٢٩ — وفي ص ٩٠ س ٢ نقلا من ابن الأثير آل مهارش ، والصواب :
« آل مهارش » وهو مفاعل من هارش يهارش ، وبه سمى الأمير العقيلي المذكور
المشهور ، وهو الذي التجأ إليه القائم بأمر الله لما أخرج من بغداد سنة استيلاء
الفاطميين على المدينة المذكورة ، قال ابن القوطي في تلخيص معجم الألقاب
ج ٤ ص ٢٧٧ من نسختنا الأولى الخطية :

نفر الملك أبو الحارث مهارش به على بن المجلى العقيلي أمير العرب ، كان أميرا
جليلا ، وهو الذي كان عنده الإمام القائم بأمر الله حال انزعاجه أمام أبي الحارث
أرسلان البساسيري في ذي الحجة سنة خمسين وأربعمائة . « وكرر ابن الأثير ذكر
« مهارش » في حوادث سنة « ٤٥٠ » من تاريخه ، فالمنقول منه مصحف .

٣٠ — وفي ص ١٢٠ س ١١ : « واعتذر باحتياج قطب إليه واستغنى
نور الدين عنه . . » ، والصواب : « واستغناء » ، فهو معطوف على احتياج .

٣١ — وفي ص ١٢١ س ٩ خُطبت « وس ١٥ » « تَحْطَب » ، والسياق
يقتضى بناءهما للمعلوم لا للجهول .

٣٢ — وفي ص ١٢٢ س ٨ « أَصْلَاتُهُ وَصَلَاتُهُ وَصَلَاتُهُ » ، والصواب :
« إِصْلَاتُهُ » ، أي إِصْلَاتُهُ السيف .

٣٣ — وفي ص ١٢٨ س ١٦ « عماد الدين بن زكي » ، ولفظة « ابن » زائدة كما هو معلوم .

٣٤ — وفي ص ١٣٣ س ٣ : « منجم به نورية » ، والصواب : منجم ابن نورية وهو أخو مالك بن نورية قاتل حرب الردة .

٣٥ — وفي س ١٣٤ س ١ : « أبو المظفر » ، والصواب : « أبي المظفر » .

٣٦ — وفي ص ١٤٠ س ١١ « إذ أتاهم بكثرة الفرج على حارم » ، والصواب : « بكسوة » من إضافة المصدر إلى مفعوله ، أي أتاهم بخبر انكسارهم إن صح التعبير ، لأن الانكسار لا يصح استعماله في هذا المقام .

٣٧ — وفي ص ١٤٧ س ١٠ : « ذكر القاضي شهاب الدين في تاريخه » وقتل في الحاشية « القاضي شهاب الدين هو أبو محمد عبد الرحمن . . أبو شامة » ، والصحيح أنه أراد « شهاب الدين إبراهيم ابن أبي الدم الحموي » فهو المعروف بالقاضي ، وهو المؤرخ القاضي ، وهو الذي كان أقرب إلى ابن واصل من غيره ، وفي حاشية ص ١٩٤ ما يؤكد ذلك .

٣٨ — وورد في ص ١٤٨ س ١٣ « خوفا من مرة الافرنج » ، وقد وضعتم عليه « كذا » ، ومعناه واضح ، فهو يخشى أن يعره الافرنج ، كأنهم يلطخونه بشر ويؤذونه ، والمرة الأذى ، فنور الدين سارمه محافظا عليه ، وحارسا له منهم .

٣٩ — وفي ص ١٤٩ س ٦ « يملكها » ، وبهذا الضبط يكسر البيت ، فالصواب « يملكها » وهو يدعو الله ، فالتاء للمخاطب .

٤٠ — وجاء في ص ١٥٠ س ٨ « شرف الدين برغش » ، والصواب « بزغش » بالزاي ، قال الذهبي في المشتهر ص ٥٥٣ « وبمعجمات : بزغش في الموالي ، ومنهم بزغش عتيق أحمد بن شافع عن أبي الوقت ، وبزغش الرومي » وكذلك في ص ١٦٠

٤١ — وفي ص ١٥٥ : « شهاب الدين مالك العقيلي » ، والصواب : « مالكا » لأنه بطل من منصوب قبله .

- ٤٢ - وفي ص ١٦٤ س ٦ "عَضَدَ الله به الدين" ، والصواب :
"عَضَدَ" بالتخفيف ، ولم يرد التضعيف .
- ٤٣ - وفي ص ١٧١ س ١٧ "وبجيدر والعلم منك بأحتف"
والصواب : "والحلم" ، لأن الأحتف عرف بالحلم لا بالعلم .
- ٤٤ - وفي ص ١٧٧ س ١٣ "حُكَّت البيض في المقاتل" ، والصواب :
"حُكَّت" مبديا للجھول .
- ٤٥ - وفي هذه الصفحة س ١٤ : "عليهم كفه بحائل" ، وقلم
في الأصل "كفة لحابل" . فلماذا تركتم الأصل وهو الصحيح الملبح ؟
فالحابل له كفة وهي شبكة الصيد ؟ ؟
- ٤٦ - وفي ص ١٨٣ س ٢ "نمسن ونمسين ونمسمائة" ، والصواب :
"نمسن وستين ونمسمائة" .
- ٤٧ - وفي ص ١٩٤ س ٩ "وكان ابتاع دارا من صدقة بباب العامة" ،
وذكرتم أن في نسخة س "دار بن صدقة" ، وهو أقرب إلى الصواب الذي هو
"دار ابن صدقة" ، وهي دار سيف الدولة صدقة ، مذكورة في خطط بغداد ،
وكانت عند جامع القصر بباب العامة ، وحدث نزاع عليها بين الخليفة المسترشد
بالله وابن صدقه ديس كما ذكر ابن الأثير وغيره ، ومن بقايا جامع القصر اليوم
ببغداد "جامع سوق الغزل" ، وباب العامة محلة دخلت في محلة سوق الغزل
ونسى اسمها .
- ٤٨ - وفي ص ١٩٥ س ٧ "ومناواة إليها سوء ضغن" ، والصواب هنا
"ومناواة" بتخفيف الهمزة ، ولثلا يكسر البيت .
- ٤٩ - وفي ص ١٩٦ س ٣ "وأقطع تتامش وأخاه أردن نسيبي قايمار" ،
والصواب "تتامش" بتاءين ، و "أزدن" أو "يزدن" بالزاي ، وهما مذكوران
في مرآة الزمان ، وكامل ابن الأثير ، وتلخيص معجم الألقاب وغيرها .

٥٠ — وفيها س ٣ "واسطا وقوشان"، والصواب: "قوسان" بالسین، كما في معجم البلدان وغيره .

٥١ — وجاء في ص ٢٠٠ س ١١ : ذكر أول من خطب للعباسيين بمصر بعد العاصد وهو "الأمير العالم"، وهذا لقب من ألقابه .
واسمه في الحقيقة "محمد بن المونق الخوشاني"، ذكره ابن خلكان غير مرة وترجمه ، وذكر الذهبي ترجمته في تاريخ الإسلام . وترجمه السبكي في طبقات الشافعية، ونقل ترجمته صاحب الشذرات، وذكره استطرادا ابن جبیر في رحلته، وكانت وفاته سنة "٥٨٧" . وقولكم في الحاشية : "وذكر ابن الأثير أنه رآه بنفسه بعد ذلك في الموصل" فيه زيادة "بعد ذلك" ، لأن رؤية ابن الأثير له يجب أن تكون بعد تدمره مصر ، فهو لما أقام بمصر استمر على الإقامة فيها حتى موته .

٥٢ — رأيكم المذكور في حاشية "ص ٢٢٣ و ص ٢٣٧" في غمزا بن الأثير لصالح الدين كلما وجد فرصة هو عين الحق بل الحق نفسه ، والرجل يجب أن يحاسب حسابا عسيرا على ما أرخ من عصره دون غيره ، وتلبيكم ذلك بميله إلى البيت الأتابكي صحيح ، زد على ذلك أن القفطي المؤرخ الوزير الثقة الدين الصين اتهمه بسرقة كتب ياقوت الحموي بعد وقفها ، كما في ترجمة "ياقوت" من إنباه الرواة على أخبار النحاة ، وهو إلى ذلك مؤلف كبير ومؤرخ شهير وله فضل لا ينكر أبدا .

٥٣ — وفي ص ٢٢٨ س ٢ "وكان بين النفع لمع حديدتها"، والصواب: "لمع" بالنصب لأن اسم كان مؤنرا .

٥٤ — وفيها س ٥ "لثوب عنه أنجم الخرصان" والصواب : « الخرصان » أو « الخرصان » جمع الخرص وهو جريدة النخل وأراد به الرمح .

٥٥ — وجاء في ص ٢٥١ س ١٢ "هاشم بن مليئة" وصححه صموه : "فليئة" في الحاشية نقلا عن كتاب "Rulers of Mecca" لجيرالدي كوري ، وهذا الرجل ليس بمحقق حتى يعتمد عليه، ولا أظنه يعرف العربية إلا ترجمة، وفي كتابه

هذا ما يضحك الشكلى من الأوهام ، وقد أخذ علما من علم الناس الأحياء فادعاه لنفسه ، وفليته مذكور في عمدة الطالب وغيره من كتب العلويين ، قال ابن عذبة في عمدة الطالب "ص ١١٧" من طبعة الهند : "ومنهم الأمير الشجاع الفارس فليته والأمير عيسى ابنا قاسم ، فولد الأمير فليته عدة رجال منهم تاج الدين وعمدة الدين هاشم ، أخذ مكة سيفاً من إخوته وعمومته" ، وجاء في حاشيته : "وكانت وفاة تاج الدين هاشم بن فليته سنة إحدى وخمسين وخمسمائة" .

٥٦ - وجاء في ص ٢٥٤ س ١٠ : "الشيخ الجليل أبا المعالي بن الحباب" وفي الحاشية : "هو القاضي الجليل أبو المعالي عبد العزيز بن الحباب" ، والذي حفظناه "الحباب" بالجيم وتشديد الباء ، قال الذهبي : "وبموحدة [الحباب] أبو البركات عبد القوي بن الحباب المصري وأقاربه ، كان جدهم عبد الله يعرف بالحباب جلوسه في سوق الحباب" (المشبه ص ١٣٨) .

هذا وقد أهملنا غلطات لغوية ونحوية أخرى لعلها من خطأ الطبع .

ونختم هذه الملاحظات الضئيلة بالنسبة إلى هذا الكتاب الكبير الصعب ، بتجديد الشكر والإعجاب بالتحقيق والتدقيق ، والاستقصاء والاستيعاب ، واجتياز العقاب الهائلة في نشره ، ونحن أعلم بما يستلزمه كتاب تاريخي غير مطبوع من الجهد والتعب ، وما يستحقه من الاطلاع والمعرفة التاريخية ، وما يستوجبه من عناية بحث ومقابلة ، وتقبلوا فائق الاحترام

المخلص

مصطفى جواد

تم طبع هذا الكتاب في يوم الأربعاء ١٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٧
(الموافق ٤ من ديسمبر سنة ١٩٥٧)

مدير المطبعة الأميرية

عبد المنعم إبراهيم

MUFARRIJ AL-KURUB

FI 'AKHBAR BANI 'AYYUB

(THE HISTORY OF THE AYYUBIDS)

BY

GAMAL EL DIN MOHAMMED IBN SALIM IBN WASIL

(Ob. 697 A.H. = 1298 A.D.)

Volume II.

THE AGE OF SALADIN

(569–589 A.H. = 1174–1193 A.D.)

Edited for the First Time

*From The Manuscripts of Cambridge, Paris, Istanbul
and Annotated*

BY

GAMAL EL DIN EL-SHAYYAL

M. A., D. Litt.

Professor of Islamic History, Alexandria University